هذه سبيلي

أيمن العتوم

دار المعرفة

A Y M A M   A L . O T O O M

أيمن العتوم

هَذِهِ سبيلي

تجربتي في الحياة والكتابة

جميع الحقوق محفوظة©

"وأمّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ"

الضّحى، الآية: 11

شكر خاص

أتقدّم بشكر خاص إلى

الأستاذة صفاء الوضاحي

على ما بذلتْه من جهدٍ كبير في تصميم الكتاب.

أيمن العتوم

تمهيد:

هل يُمكن أنْ يكون في هذه الصّفحات ما يُفيد؟! لا أدري. حياتي عاديّة جِدًّا، وأنا إنسانٌ بسيطٌ، فلماذا عليّ أنْ أُرهِق القارئ بتتبُّع هذه الصّفحات من هذا السِّفْر المُبعثَر؟ ما الجديد الّذي يتوقُ إليه القارئ وسيجده عندي دون سِواي؟

غيرَ أنّني إذا امتلكتُ الجرأة لأقول إنّ في تجربتي بعضَ الفائدة، فعليّ إذًا أنْ أختار منها ما كان نافِعًا، ومُوجَزًا؛ فلا أحدَ يمتلك الوقت الكافي لكي يقرأ كلّ ما فعله الآخَرون!

حياتنا تُشبه كما قال الكاتب المصريّ جلال أمين في سيرته الذّاتيّة (ماذا علّمتني الحياة؟) قطعةً من الحجر مركوزةً أمام نَحّات، والنّحّات الجيّد هو الّذي يستخرج من باطن هذا الحجر الأصمّ تمثاله النّاطق بما يُريد. أنا وقفتُ أمام حَجَري هذا في هذه الصّفحات الّتي بين أيديكم، وأعملتُ فيه مِعولي، أزلتُ القِطع الّتي لا تُعطي الصّورة الحقيقيّة، ومضيتُ في ذلك حتّى خرجتُ لكم بهذه الصّورة الّتي اجتهدتُ أنْ تكونَ أقربَ ما تكون إلى نُسختي الحقيقيّة. ومع ذلك لا تُوجدُ نسخةٌ واحدةٌ منّا تظلّ ثابتة؛ فنحن نتبدّل كلّ

يومٍ، الشّخص الذّي أكونه اليوم مختلفٌ بالضّرورة عن الشّخص الذّي كنته أمسِ، وعن ذلك الذّي كنته أوّلَ من أمس... كلّ يومٍ يموتُ فينا شيءٌ مِمّا نريدُ أو لا نريد، ويُولَد شيءٌ آخَر. أحاول أنْ يكون ما يولد قابِلاً لأنْ يكون مُفيدًا ونافِعًا على نحوٍ يُرضي هذه النّفس الّتي تهرم في كلّ لحظة، أحاول أنْ أجدَ خيرًا فِي ذلك الذّي كُنُته في مراحل مُتعدّدة من حياتي حينَ أقفُ على نهاية الطّريق وأنظر إليّ بعدَ زمنٍ طويل.

بقراءةٍ سابرة لسِيَر الخالدين، ستجد أنّ لكل عبقريّ خوفَه؛ خوفَه العميقَ الّذي يدفعه إلى النجاح، فعلى سبيل المِثال: كان خالدُ بنُ الوليد يخاف على السّيف، والبُخاريّ على الحديث، والمُتنبّي على القصيدة، والمَعرّي على سؤال الوجود، وابن عربي على سؤال الروح، وابن رُشْد على سؤال الفلسفة... وجميعهم خَلَدُوا بسبب ذلك الخوف؛ أما أنا فلا زلت أبحث عن خَوْف أَلِيقُ به!

هل قلتُ: إنّني ما زلتُ أبحثُ؟ وهل قلتُ: إنّه لا جدوى؟ وهل قلتُ: إنّ كلّ ما هو هنا في هذا الكتاب عاديّ؟ صحيح. ولكنْ مهلاً؛ بعضُ القُرّاء يريدُ أنْ يعرفَ ما أراه عاديًّا ليجدَ فيه بصيصًا يقودُه – ربّما – في خُطاه الحائرة إلى الغاية

الّتي يريد. وإذًا، فلن أُخيّب ظنّ هذه الفِئة بإذن الله.

سأصحبكم في كتابٍ يُعرَض بطريقةٍ مُختلفة؛ أبسطُ فيه تجربتي في الحياة بأسلوبِ المشهديّات المُنتقاة، والسّرديّات المُكثّفة، والمواقف المُنتَجبة، وآمُلُ أنْ يكون مُلهِمًا لكم، مُعينًا على تحدّي الذّات والصّعوبات، واختِطاط الدّرب الّذي نرسمه لأنفسنا، لا ذلك الّذي يرسمه الآخرون لنا نِيابةً عنّا.

لم أتوقف عن اعتبار نفسي تلميذًا لحظةً واحدة، أنْ يكون لي أستاذٌ من النّاس أو الكتاب أو الطّبيعة أو التّجرِبة هو أسلوبي في هذه الحياة، التّوقُّف عن التّعلُّم موت، وانتِظار آراء الآخرين فيما نفعل موتٌ آخَر، وأنا قررّتُ أنْ أكون ما أريدُ أنْ أكون. سائرًا في الدّرب، ليس يَعنيني الوصول إلى الغاية بِقَدْر ما يَعنيني الاستمرار في السّير؛ فنحن تُشكّلنا دروبُنا الّتي نَمشيها.

ولكنْ مهلاً أيّها السّائر الغريب: أتُدرِكُ أيّ شيءٍ تفعل؟ وما هذا الّذي تنفثُه في هذه السّطور؟ وعلامَ يطول حُزنك؟ إنّه على نفسكَ الّتي تراها تنسرب من بين يديكَ انسرابَ الماء في الثّرى، وتنكسر في الفضاء اللاّنهائيّ انكِسار الضّوء، فتحاول – عبثًا - أنْ تلمّ ما تطايرَ منها شَعاعًا في الآماد وفي

الوهاد. وإذًا فَلْيطُلْ حُزنُك؛ فإنّ صَداه سوف يبلغُ ما بلغَ الحرف الّذي تكتبه أرواحَ مَن قرؤوه، وليكنْ ما أراد الله، فإنّ عِلمه سابقٌ على كلّ شيء.

الفصل الأوّل
الطُّفولة

(عينان دَهِشتان وعالَمٌ حالِم)

سَنَمْضِي مَعًا

رفيقَين مُنذُ الطُّفُولةِ حتّى الكُهولةِ...

لا نستفيقُ مِنَ الحُلمِ حتّى نراه لنا قد سَعَى

ومنذُ عرفنا الحياةَ رأينا مَسالِكَها بَلْقَعًا

لَئِنْ نَبَتَت ضِحكةٌ في القُلوبِ عَلى غَفْلَةٍ مِن صُرُوفِ الزَّمانِ

لَسوْفَ تَحُولُ غدًا أدمُعا

ولكنّنا سوفَ نمضي... وهذي سبيلي...

ومَنْ عرفَ القَصْدَ لَنْ يَرجِعا

بينهما أربَعون عامًا

الطّفولة الأولى
(١٩٧٢م -١٩٨٣م)

أؤمن أنّني وُلِدتُ بنسخةٍ هي مختلفة تمامًا عن النُّسخة الّتي صِرتُها!! ليسَ لأنّنا – بشرًا - دائِمو التّحوّل، ولكنْ لأنّني خبأتُ نسخة الطّفولة منّي واحتفظتُ بها في إحدى زوايا عقلي، وما زلتُ أرجعُ إليها كي أرى كيف انبثقتُ منها وصرتُ تدريجيًّا إلى ما صرتُ إليه.

في الثّاني من آذار من عام 1972م وُلِدت. كانت الشّمسُ في السّادسة صباحًا تُجاهد في إرسال أوّل خُيوطِها على القرية الوادعة، لم يكنْ هناك مُستشفى ولا سرير، ولا طبيبات أو مُمرّضات. كانت هناك غرفةٌ وحيدةٌ باردةٌ في بيت عمّي الأكبر - إذْ لم يكنْ أبي قد امتلكَ بعدُ بيتًا آنئذٍ - وكانت هناك فرشةٌ محشوّة بالصّوف وطشتٌ من الماء السّاخن هي كلّ ما تملكه أمّي من أجل أنْ تضعني. كانت ولادةً بين المطر والرّبيع، كانت الرّياح تتناوح فوق جِبال قريتي (سوف)، وهي تُحرّك سحابًا تستحثّه لمزيدٍ من بُكاء السّماء... مع دُفقة المطر تدفقّتُ من الرّحِم، وخرجتُ إلى هذه الحياة، كانت

قابلتي مسيحيّة، تلطّفت بي وبأمّي أيّما تلطّف، عجّلت بعدَ الغسيل بالقِماط الّذي لُفِفتُ به ووُضِعتُ إلى جانب أمّي من أجل أنْ تسقيني مع أوّل رَضعةٍ الحُبَّ والحياة.

وَهَا أَنَا جِئْتُ إِلى الحَيَاةِ فِي آَذَارْ

شَهْرِ الهَوَى وَالزَّهْرِ وَالنَّوَّارْ

وَالجَدْوَلِ الرَّقْرَاقِ وَالرَّبِيْعِ وَالأَطْيَارْ

فَأَوَّلُ الشُّهُورِ في أَفْرَاحِنَا آَذَارْ

وَأَجْمَلُ الشُّهُورِ في أَعْوَامِنَا آَذَارْ

آَذَارُ ... يَا آَذَارْ ...

يَا سَيِّدَ الشُّهُورْ

يَا فِتْنَةً تَمِيْسُ فِي دَلالِهَا

يَا نَغْمَةً تَعِيْشُ في حَنَاجِرِ الطُّيُورْ

وَيَا فَضَاءً يَنْشُرُ الأَطْيَابَ وَالبَخُورْ

يَا جَدْوَلاً مُوَشْوَشًا بِالنُّورْ

وَيَا بُحُورْ

وَهَا أَنَا أَبْدَأُ في الوُجُودِ رِحْلَتِي

وَأَحْمِلُ الأَيَّامَ وَالسِّنِيْنَ وَالتَّذْكَارْ

وَتَبْدَأُ الأَسْفَارْ

وَتَبْدَأُ (الجِنِّيَّةُ) اليَوْمَ بِتَعْلِيْمِي الهَوَى

وَالحُبَّ وَالأَشْعَارْ

في هذا اليوم سقطتُ من قَدَر الله لأسير إلى قَدَرِه في رحلةِ الحياة؛ الحياة العابرة. وكُلُّنا غريبٌ مُرتحلٌ منها إلى مصيره الأبديّ.

في هذا اليوم تخلّت نجمةٌ من السّماء عن ضوئِها لي، ولقد

كتبَ لي الله زمنَ العُبور في خضمّ الرّياح العاتية والبحار الهائجة وأعطاني سفينةً قويّةً وشِراعًا عالِيًا وجعلني رُبّانَها؛ وقال لي: إنْ كُنتَ قائِدًا حكيمًا فستعبرُ إلى الضفّة الأخرى وتنجو، وإنْ فاتَتْك الحِكمةُ فاتَتْك النّجاة.

منذ الثاني من آذار وأنا أحرِص على ألاّ تتحطّم سفينتي وألاّ يتمزّقَ شِراعي؛ وقد حاولتُ ذلك وما زلتُ أحاول؛ لكنّ أكثر ما كان يُخيفني هو وِجهة هذه السّفينة؛ كثيرًا ما كنتُ أتساءل وأنا في وسطِ البحر وأمواجُه الطّاغية تحاول أن تتغلّب عليّ: هل أنا في الاتّجاه الصحيح؟! كانتِ الشمسُ في بعضِ الأيّام تُشرِق فأرى أنني أسيرُ في الاتّجاه الصحيح بالفعل، وكانت السماء تغيمُ أحيانًا والأفق يكفهرّ فتختلطُ عليّ الاتّجاهاتُ حينَها، فأجلسُ أنتظرُ شروقًا جديدًا لأبصر طريقي وأعرف غايتي من جديد.

لم يكنْ هناك شيءٌ غيرُ عاديّ في طفولتي. كنتُ أنا وأطفال القرية نلعبُ في الطّرقات، ونركضُ في الحواري، ونتسلّق الأشجار، وننام في الجبل في الصّيف، ونستلقي على التّراب، وننظر في السّماء الصّافية فنرى عددًا لا ينحصر من النّجوم فنبدأ بعدّها، حتّى إذا أعيانا العدّ نِمنا، وكنّا نُشكّل كرات الثّلج في الصّقيع ونجعلها تتدحرج من أوّل المُرتفع إلى آخره

ونحن نركضُ معها وهي تهوي وتكبر حتّى تصبح عملاقة في القاع، ونقف إلى جانبها مُفتخرين وهي تعلونا بضعفين أو ثلاثة... وكُنا نلعبُ (الدّواحل) والسّيجة، والأحجار السّبعة، وغيرها... ونصرخ، ونتشاجر، ونبكي، ونُهرَع إلى أمّهاتنا نشكو جرحًا من زُجاجةٍ مكسورةٍ في الطّريق، أو دمًا نازِفًا من حجرٍ طائشٍ رماه أحد الصّبية... كانت حياتي تمضي على هذا النّحو... ولا أذكر أنّني مشيت في الحواري المُتربة مرّةً واحدةً وأنا أنتعل حِذاءً، ليسَ لأنّه لم يكنْ لديّ هذا الحذاء، ولكنْ لأنّني كنتُ أجدُ متعةً في المشي حافِيًا على الحصى حتّى وإنْ كان الحصى يلتهبُ تحتَ رجلَيّ!

كان أولاد عمومتي كثيرين، وكان أطفال الحارة أكثر، ولهذا كُنّا نبدو قطيعًا من الخِراف الصّغيرة حينَ نسير معًا، أو جيشًا من القِطط الشّقيّة حينَ نتسلقّ الحيطان بشكلٍ جماعيّ، أو مجموعةً من الذّئاب الشّرسة ونحن نعدو خلفَ أحدنا... كانت سندويشة الزّيت والسُّكّر المرشوش على خُبز (الشّراك) البلديّ ألذّ ما يُمكن أنْ نأكله. وماء الخابية بالكوز ألذّ ما يُمكن أنْ نشربه!

هل حدثَ شيءٌ مُفاجِئٌ لهذا الطّفل وهو بعدُ لم يدخل دائرة التّذكّر، كان ذلك في الثّالثة أو الرّابعة من عمري، رأيتُ

أختي تطير من سطح بيتِ عمّي إلى زريبة الأغنام، ويرتطم رأسُها بالأرض ويسيل دمُها مُختلطًا بالتّراب، وتصرخُ في البداية ثُمّ يسكنُ صوتُها. أحدُ أقاربي الّذي هو في مثل سِنّها هو مَنْ كان يجرّ (السّطل) الّذي كُنّا نتناوب على الجلوس فيه، ويتناوب الآخرون على جرّه فوق سطحٍ ليس حوله طفٌّ يحمي من الوقوع من فوقه. فَجَرَّها بقوّة في دائرةٍ لم يُسيطر عليها فطارت. كانت هذه أختي (أسماء) الّتي سبقتْني إلى الحياة، جِئتُ أنا بعدَها بعامٍ ونصفٍ، لا أذكر إذ طارت في ذلك اليوم الكثير، غير أنّني عرفتُ أنّهم أخذوها إلى المُستشفى وأنّهم خاطوا لها شَقًّا طويلاً يلفّ رأسَها بالكامل، وخمدتْ حركتُها فترةً طويلةً من الوقت إلى أنْ تعافتْ. حزنتُ كثيرًا. توقّفتُ عن اللّعب لأنّها لم تعدْ قادرةً على أنْ تلعبَ معنا. سيبدو للّذين سيقرؤون رواياتي بعدَ أنْ جاوزتُ سِنّ الأربعين أنّ هذا الموقف الّذي حدثَ أمامي وأنا ما زلتُ في الثّالثة من عمري سوفَ يكونُ له الأثر الكبير على كتاباتي في المستقبل. اليوم يُمكنكم أنْ تروا أختي (أسماء) وعلاقتي بها من خلال (سُميّة) في رواية (ذائقة الموت) وعلاقة (واثق) بها، ويُمكنكم أنْ تروها من خلال (آمنة) في رواية (أرض الله) وعلاقة (غُمر) بها.

****

الصّباحات الغائمة أكثر ما كان يُمتّعني في القرية، تعوّدتُ أنْ أستيقظَ صباحًا، سارتْ حياتي حتّى بعد أنْ كبرتُ على هذا النّحو غالبًا. كنتُ أشعر أنّ الكنوز والأسرار كلّها مُخبّأةٌ في الصّباح ولا سيّما تلك المُضَبّبة منها، حيثُ تسري أرواحٌ لا تراها ولكنّك تشعر بها، تتغلغل في روحكَ وتُشعركَ بالانتِشاء، كان سِرّ الصّفاء يختبِئ في تلك الصّباحات، وسِرّ المعرفة، وسِرّ الإنجاز، وسِرّ العِلم، وسِرّ النّجاح... وكلّ سِرٍّ يُمكن أنْ يرتقي بكَ كان مخبوءًا هناك... ولذلك كنتُ لا أُفوّت هذه الصّباحات أبدًا، وكُنتُ أشعر أنّها نِعمةٌ حُرِمَ منها الكثيرون، وكنتُ أدعو ألاّ أُحرَمها إلى آخر أيّامي.

بيوتنا أكثرها من الطّين، بيت جدّتي لأمّي كان كذلك، وكنتُ أراها وهي تُجدّد طينه تأتي به من (المحافير) وتخلطه مع القشّ ليبدو جديدًا. وكانت جدران الطّين سميكة قد تصل إلى نصف متر، وكان ذلك يؤدّي إلى أنْ تبترد البيوت في الصّيف من الدّاخل، وتحتفظ بالحرارة في الشّتاء، وكنّا نجلس فيها في الصّيف فنشعر بتلك البرودة المنعشة كأنّ (مُكيّفًا) يعمل في أرجائها.

غير أنّ هناك بيوتًا أخرى كانتْ من حجارةٍ قديمة، وكانتْ

مميّزة، بقوسِها الحجريّ الّذي يعلو المدخل، والنّوافذ الّتي تحمل قوسًا آخر أصغر في أعلاها، وكانت من الدّاخل عاليةً، وسقفُها مسنودًا بطينٍ وجذوعٍ كبيرةٍ من الخشب، ولقد رأيث بيوتًا من هذا الصّنف في القرية قد تنكّر لها أصحابُها، أو هجروها بالموت أو بالرّحيل، ولم تُسكَنْ من بعدِهم حتّى نبتَ العُشب على دمنتها، وغَطّى السّقفَ الظّاهر للسّماء مُسطّحٌ من العشب الكثيف الّذي نما لطول العهد بالغياب!

قبل أنْ أبلغَ الرّابعة، كانت طريقُ أولاد الحارة في عصارى الأيّام تقودُ إلى الشيخ علي، كان شيخَ المسجد العثماني القديم، يأتي من الجبل، يركبُ حِماره، لا أزال أرى رجلَيه إلى اليوم تهمِزان بطن الحِمار لكي يُسرع، وأرى عِمامته الّتي لم يكنْ يخلعها لا في صيفٍ ولا شِتاء، وعَصاه الّتي كان يهشُّ بها على غنِمه، وكنّا نحنُ الأطفالَ الصّغار غَنَمه! كان يجلسُ في دارٍ عتيقة، تقع قُبالة المسجد، لا يفصل بينهما إلاّ عُرض الشّارع، وخلفَ الدّار حاكورةٌ صغيرة كانت مُحرّمةً على لَعِبنا، وحَمّامات مُعتِمة تمتلِئ بالعناكب والحشرات والسّحالي، لم أرها تُضاء مرّة واحدة، ولم نكنْ نجرؤ أنْ ندخلها. أمّا الّدار الّتي كان يجلسُ فيها الشّيخ عليّ فكانت مُضاءةً بشكلٍ جميل، كان نور الشّمس يأتيها من شبابيكها العالية جهة الشّرق، فتسقطُ تلك الأشعّة الدّافِئة في الربيع على الجواعد

والبُسُط العتيقة المصنوعة من شَعر الأنعام والخِراف فتزيدُنا دفِئًا. وكُنّا نجتمع بين يدَيه من عشرين إلى ثلاثين طفلاً، أكبرنا لم يتجاوز السّادسة، فنجلسُ في حلقةٍ بيضاويّة على أطراف المجلس، ويتّكِئ هو على مُتّكآتٍ أُعدّتْ له في صدر هذا المجلس، ونبدأ التّرداد خلفَه، كُنّا نردّد خلفَه قِصار السّور في البداية، ثُمّ صار يمضي صاعِدًا حتّى انتهى بِنا إلى سورة (التّكوير)، لم يكنْ يُطربني فيما أردّده خلفَ الشّيخ أكثر من الإيقاع، النّهايات المُموسقة في الآيات لا يُمكن أنْ أصف اليوم كيفَ كانتْ تهتزّ لها جوارحي، وكنتُ أغمضُ عينَيّ وأنا أتلو هذه النّهايات لأحتفظَ بأكثرَ زمنٍ للمتعة في تردادها. ولمْ يكنْ للشّيخ راتبٌ يتقاضاه من وراء تعليم أولاد القرية، كان الآباء يبعثون مع أولادهم إليه (قرامي) الحطب؛ ليُدفِئ بها عِظامه الّتي وهنتْ لسِنّه، وكانوا يبعثون كذلك البيض والخبز والخبيصة الّتي كانتْ تصنعها جدّتي (بهيّة) مع القريش، وإذا كان الزّمان جميلاً، والوقتُ عيدًا فكُنّا نأخذ له (قراص العيد). كان الشّيخ عليّ مَهيبًا، مُمتلئ الجسم، يميلُ إلى الطّول، كَثّ اللّحية، حليقَ الشّاربَين، بياض لحيته الطّويلة زاده هيبةً في عيوننا، وكان إلى ذلك هادِئًا، يبتسم أحيانًا، وإنْ كان يقتصدُ في ابتِسامته حتّى لا ينفلتُ الأمرُ من بين يديه، وخصوصًا أنّ أعدادَنا كانتْ كثيرة، وكان يلبسُ قفطانًا أزرق، نظيفًا، ينسدل على جسمه ويلفّه لفّ اللّحاء لجذع الشّجرة، وكان

حاجِباه غليظَين يُشبهان جناحَي طائرٍ مُهاجر. وكُنّا إذا أخطأ أحدنا في القراءة يُوقفه قائِلاً له: "بَوّرت"، والتّبوير عند الفلاّحين الخروج عن خطّ الحراثة المُستقيم، أو التّتعتع فيه، فيُصحّح لنا، ونُعيدُ من خلفه ما صَحّحه، وكُنّا إذا رفعْنا في القراءة أو نصبْنا ما حَقُّه الجرّ يقول لنا: "جُرّها يا ولدي، الكسرة تجرّ الجَمَل". اليوم يُمكِنكم أن تعرفوا الشيخ علي أكثر وحماره إذا قرأتم رواية (صوت الحمير).

الشّيخ علي

بدأتُ بحفظ القرآن والحديث والشّعر وأنا في الخامسة. كنتُ أجدُ متعةً في تَرداد حروف العربيّة الّتي بدأتْ تسكنُ جوارحي. الآن أقول لكم: إنّ ما يُقال عن أنّ الحفظَ لا قيمة له ولا فائدة تُرجَى منه حسب النّظريّات الحديثة في التّعلّم

هو أمرٌ غير صحيح ألبتّةَ، ولم يحدثْ في حالتي على الأقلّ، ولا في حالة العُلماء الّذي سَطّروا أسماءَهم في سِفر الخلود، كلّهم كان لديهم في البدايات مخزون معرفيّ اتّكأ على الحِفظ، واستطاعوا بخبراتهم وقُدراتهم واستِعداداتهم الفطريّة أنْ يصوغوا من ذلك الماء في تلك البئر العميقة أفكارَهم.

وصدقَ مَنْ قال:

تَكتُبُ العِلْمَ وتُلقِي في سَفَطْ

ثُمَّ لا تَحفظُ لا تُفلِحُ قَطّْ

إنّما عِلْمُكَ ما تَحفَظُهُ

مَعَ فَهْمٍ وَتَـوَقٍّ لِلغَلَطْ

حفظتُ في البداية قصيدة (دين وعروبة) لهاشم الرّفاعي، الّتي مطلعُها:

أيّها السّائِرُ بينَ الغَيْهَبِ

عاثرَ الخَطْوِ جَلِيّ التَّعَبِ

ضارِبًا في لُجّةٍ غامِضةٍ

من مُحيطِ العالَمِ المُضطَرِبِ

وغنيٌّ عن القول أنّني لم أكنْ أعرفُ ما الغيهب؟ وما اللُّجّة؟ ولكنّني كنتُ أشعر بالتّهادي مع العالَم المُضطرب! تهادٍ لا يُفسَّر ولا يُقال، ولكنّه يُحسّ! ثُمّ إنّني أتقنتُ الترنّم بها أمام أبي، وكان يطلبُ منّي أنْ أُلقِيَ منها أبياتًا بين فترةٍ وأخرى، ومع الشِّعر بدأتُ معه منذ القصيدة الأولى أحفظُ القرآن، وخلال أشهر كان أبي يعرضني أمام أصدقائه وأنا أتلو لهم ما تيسّر من جزء عمّ. وكنتُ أستظهره بسهولة، ولم يكنْ ذلك ليكون لولا أنّني كنتُ أجدُ في الإيقاع الإلهيّ المُستكنّ في الآيات لذّة غريبةً، ومتعةً ساحرة، فأتلو الآيات وأنا أتنغّم بها مُتلذِّذًا.

ثُمّ حفظتُ كلّ ما وَقَعَ تحتَ يديّ من شِعرٍ في تلك السّنوات، كنتُ أحفظُ قصائد المناهج الدّراسيّة كاملةً وكانت هناك أربع قصائد في كلّ فصلٍ دراسيّ، ثُمّ لم تشفِ تلك المناهج شَغَفي لحفظ الشّعر، فحفظتُ من ديوان المتنبّي

وجرير والبحتري وأبي تمّام وأبي العتاهية وأبي العلاء المعرّي وذي الرُّمّة وأبي فراس الحَمْداني مِئات الأبيات وأنا ما زلث في الابتِدائيّة، ولم تكدْ تلكَ المرحلة تُولّي وجهها شطر الإعداديّة حتّى كنتُ أحفظُ أكثرَ من ألفِ بيتٍ من أَجْوِدِ الشّعر مِمّا انتقاه لي أبي وانتقيتُه لنفسي، فلمّا دخلت الثّانويّة أُغرِمتُ بتخصّص أبي في الشّعر الجاهليّ، فأكببتُ على المُعلّقات وعلى ديوان حاتم الطّائيّ وامرئ القيس وعنترة بن شدّاد والشّنفرى، ولَطالَما أطربني عنترةُ من بينِهم بشعره السّلس ومعانيه الّتي جعلت من عِزّة النّفس شُعورًا يترسّخ في وُجداني، ولقد شممتُ رائحة الصّحراء وعُواء الذّئاب وإرنانة القوس في لاميّة الشّنفرى يومئذٍ، ثُمّ لان القلبُ من بعدُ فدخل إلى دائرة المحفوظ أحمد شوقي وخليل مُطران وإلياس شبكة وإيليا أبي ماضي وميخائيل نُعيمة، وحافظ إبراهيم، وأبي القاسم الشّابّي، والجواهريّ، ومُحمّد الزّبيريّ، والبَرَدُّوني، وبدوي الجبل، وعبد الرّزّاق عبد الواحد، وأحمد مطر، ومُظفّر النُّوّاب... فلمّا انفتحتْ بوّاباتُ القلب على الحبّ في نهايات الثّانويّة أضفتُ إلى محفوظي مئات الأبيات لنزار قبّاني. حتّى إذا ودّعتُ أبواب المدرسة إلى بدايات الجامعة كنتُ قد أتممتُ حِفظَ أكثر من عشرة آلاف بيتٍ من الشّعر القديم والحديث.

كنتُ أحفظُ القصيدة من قراءَتَين، كانتِ القراءةُ الأولى قراءةَ استِكشاف، وكانت القراءةُ الثّانية قراءةَ استِلهام وترنّم، كان التّرنّم بالشّعر ديدَني، وكان وسيلتي الفَعّالة للحفظ... خُلِطتْ هذه البحور الشّعريّة كلّها، وهذه الأوزان المُوسيقيّة أجمعها، وهذه الإيقاعات الطّروبة في عقلي ووِجداني، وراحتْ هذه التّرنّمات - فيما يبدو - تستنهضُ طائر الشِّعر النّائم في أعماقي، أو قل تُوقِد شُعلة الشّعر المُقدّسة. ذلك الشّاعر الرومانسيّ الحالم سوف ينهضُ فِيَّ في مرحلةٍ مُبكّرة من الإعداديّة.

شكّلتْ ساحة (الحنّاوي) الّتي كنّا نلعبُ فيها نحن أطفال القرية ونقضي فيها جُلّ أوقاتنا - إذْ لم يكنْ هناك من تلفازٍ ولا إذاعة، وبالطّبع لم يكنْ هناك هاتف من أيّ نوعٍ ولا تلك الهواتف الأرضيّة منها حتّى يكون الذّكيّة منها الّتي تملأ أيادي النّاس اليوم - أقول شكّلتْ تلك السّاحة مِخيالَنا، فاحتلّ المكان جزءًا من قلوبنا، وكان يشدّنا إليه بخيط الحنين كلّما ابتعدْنا عنه مع مرور الأيّام، ثُمّ جاء الجبل ومزارع أعمامي وجدّي وشهور الصّيف فرفع ذلك المستوى من إيحاء المكان في روح الكاتب الّذي سأكونُه، فلقد كان عمّي (عقلة) يأخذنا إلى (الظّهْرة) حيثُ حقول الزّيتون والكروم والأشجار المُثمرة، وكنّا نقضي ثلاثةَ أشهرٍ بين

الجبال. وثلاثةُ أشهر مع الطّبيعة الخالية من أيٍّ ملوّثات كانت كفيلةً بزيادة مساحة الأسئلة في عقلِ طفلٍ حالمٍ يتساءل عن سِرّ هذا الوجود كلّه، فماذا تعلّمتُ من الجبال في النّهار، وماذا تعلّمتُ من السّماء والنّجوم في اللّيل؟ لقد كان لهما أثرٌ كبيرٌ في مِخيالي الشّعريّ والنّثريّ، ولا زلتُ أعودُ إليهما لأستلهم تلك الأيّام الغابرة فأمتح منها ما يُعيدُ إليّ أَلَقَ الكتابة.

حينَ كانت ساحة (الحنّاوي) تضيقُ بنا، إذْ كان عددٌ من الأطفال يأتي من الحارات الأخرى، كنّا نتوجّه إلى ساحةٍ أكبر لنعلب كرة القدم، كان هناك ملعبٌ ترابيّ يضمّ شتاتَنا، اكتشفتُ فيما بعدُ أنّه يجثم فوقَ القبور الدّارسة من الجهة الشّماليّة للمقبرة القديمة، كان مُسوًّى بالأرض، فلم أشكّ أنّه جزءٌ من المقبرة، ومع أنّ الكرة كانت تتقافز بين شواهد القبور حين نركلها بعيدًا، إلاّ أنّه لم يَدُرْ في خَلَدي أنّنا كنّا نُقلِق راحة الموتى، وندوس بأقدامنا العارية عِظامهم الرّميمة!

نشأتُ بين عارضتَي المسجد العثمانيّ القديم في قريتنا (سوف). كانت ليالي رمضان في المسجد القديم وحلقات حفظ القرآن فيه لا تُنسى. وليالي القِيام لها طعمٌ لا يُمكن أن أتجاوزه إلى اليوم. ما زال إلى اليوم يرنّ في أذنيّ إيقاع

الآية الّتي تتكرّر في سورة الرّحمن: (فبأيّ آلاء ربّكما تُكذّبان)، لا شَكّ أنّ الكلماتِ وإيقاعَها كانا يهزّانني من الأعماق، ولا شَكّ أنّ كياني كلّه كان يتشكّل على ذلك الإيقاع العجيب!

المسجد العثماني القديم

لم تكفّ إيقاعات اللّغة - وخاصّة القرآن والشّعر - عن إبْهاري لحظة، لكنّ البدايات الأولى من طفولةٍ لَبِسَ بها النّسيانُ ثوبَه كانت في الجبال البعيدة، وكان ذلك يقع من خلال لعبةٍ اسمُها (لُعبة الصّدى)، في وادٍ مُخيف، وغائر اسمُه (وادي المِصريّة)، كنتُ أقف في أعلى الوادي بين منفرجَي جبلَين شاهِقَين، وأبدأ أصيح بالآيات أو الأبيات الّتي أحفظُها فيرتدُّ إليّ صدى صوتي، فأُعجب بذلك الصّوت العميق الّذي يعزفه فمُ الجبل، فأُعيد الكَرّة، وأقذف في بطن الوادي بكلماتٍ ساخرة، فأضحك، فيتردّد صدى ضحكتي مع كلماتي فأكادُ أُجنّ من المتعة. ثُمّ قالوا لي إنّ هذا الوادي هو وادي الجنّ، وإنّه إذا رميتَ عليهم الحجارة فسيأخذون تلك الحجارة ويرمونها عليك ثانيةً. وأحببتُ أنْ أجرّب ذلك، ولكنّ الخوف منعني في البداية، حتّى تجرّأتُ مرّة ففعلتُها، كان ذلك مساءَ يومٍ من أيّام الجبل الطّويلة، تسلّلتُ من الخيمة البعيدة الّتي ننام فيها في مسيرةٍ شائكةٍ وطويلة، حتّى إذا وصلتُ إلى الوادي، بدأتُ معه لعبة الصّدى، ففرحت، ثُمّ خطر ببالي أنّ الّذين يردّدون صوتي هم الجنّ أنفسهم الّذين يرمون الحجارة، فدخلني الفَزَع، وهممتُ بالعودة، وكنتُ وحدي، ولكنّني حدّثتُ نفسي: لقد قطعتَ هذه المسافة كُلّها لتحظى بهذه التّجربة الفريدة، ومن الجُبن أنّ تعودَ دون ذلك. وبالفعل التقطتُ بعضَ الحجارة، وبخفقاتِ صدري السّريعة الّتي

جعلت الحرارة تصعدُ إلى رأسي رميث الحجر الأوّل، وتوقّفتُ أراقبُ ما يحدث، حتّى إذا مرّ وقتٌ دون أنْ يحدث شيءٌ، بدأتُ أصيح: إنّهم يكذبون، يريدون فقط إخافتَنا، ليس في الوادي غير الصّدى، لا جنّ ولا عفاريت ولا أيّ شيءٍ آخر، ورحتُ أرمي الحجارة تِباعًا فرحًا بانتِصاري على الخوف، غير أنّني في لحظةِ انغماري في المشهد، توقّفتُ قليلاً، إذْ سمعتُ صوتًا قادِمًا من الوادي، وبدأ الرّعب ينساح في جوارحي، ثُمّ شعرتُ أنّ الحجارة الّتي رميتُها وطوفانًا آخَرَ منها يتوجّه نحوي، فدبّ الرّعب في أوصالي، وصدّقتُ أنّ الجنّ هي الّتي ترمي بها عليّ، فأطلقتُ ساقَيّ للرّيح لا ألوي على شيْءٍ.... اليوم يُمكنكم أنْ تروا وادِيًا شبيهًا بهذا الوادي في رواية (نفر من الجنّ)، وفي رواية (ذائقة الموت).

كنّا ننتظرُ يوم الجمعة، وكان دينارٌ واحدٌ كفيلٌ بأن يُولِم لعائلتنا الّتي كانت تتكوّن آنذاك من ستّة أفراد. رائحة الدّجاج المطبوخ. صوت الدّجاج قبل الذّبح. تنظيف الدّجاج، والظّفر بدجاجة مُنظّفة من أجل وليمة الغداء. كُنّا نأكل لحمَ الدّجاج مرّة واحدةً في الأسبوع، وكان يومَ عيدٍ، يرافقه صحنٌ من مقالي الباذنجان عادةً مرشوشٌ فوقَه كمّيّة وفيرةٌ من السُّمّاق البلديّ.. ولو أنّني خُيّرت بينَ ما نأكله اليومَ من شهيّ الطّعام وتنوّعه حتّى فقدَ لذّته، وبينَ ما كُنّا نأكله في أواخر

السّبعينّيات من القرن الفائت، لاخترتُ ذلك الطّعام الّذي كانت تُطيّبه العافية، ونشعر بقيمة وُجودِه، ونُؤدّي فيه شُكر نِعمته.

عَلّمَتني في الرّوضة مُعلّمة اسمُها (نَفَل)، كانت ودودةً جِدًّا وحنونة، كانت الرّوضة عبارة عن رِواق طويل، على جانبه الأيسر فقط على ما أذكر ثلاثة غرف صَفّيّة، وأمامها ساحةٌ صغيرة، كانت المعلّمة (نَفَل) عزباء يومَها، فكانت تعتبرنا أولادَها، فتحنو علينا وتهتمّ بنا اهتِمامًا مُبالَغًا، وكانت تنتشر على جدران الرّواق الطّويل رُسوماتٌ جميلة، أكثرها للطّبيعة، وللأطفال وهم يتعلّمون، ولا أدري إنْ كانت هي التّي ترسُمُها أم لا؟! كان مصروفي اليوميّ في الرّوضة (قرطة) واحِدة أي ما يُعادل (قرشين ونصف القرش) وهو رقمٌ ممتاز في ظلّ أولادٍ تُعطيهم أُسَرهم بدلاً من المصروف سندويشةً أو بيضةً مسلوقةً، وآخرين لا يأخذون لا البيض ولا الخُبز ناهيك بالحصول ولو على قرشٍ واحدٍ في اليوم، لكنّ هذه (القرطة) الّتي كنتُ آخذها، لم أكنْ أنفقها، بل كنتُ أخبّئها عند معلّمتي (نفل)، ولمّا انتهى ذلك العام كان لديّ في رصيدي ما يقرب من سبعة دنانير، وهو رقمٌ مَهول قادرٌ على أنْ يشتري خروفًا في تلك الأيّام!

ما بقي عالِقًا من زمن الرّوضة السّحيق شيئان؛ طعم المجدّرة الّتي كانت تُعدّها لنا (نَفَل) بنفسِها، وكانت من ألذّ ما يأكله طفلٌ وأشهاه، والأناشيد الّتي كنتُ أتحمّسُ في الصّراخ بها حتّى تكاد تنشقُّ لها حنجرتي.

في عام ١٩٧٨م سافر أبي إلى مصر ليُتابع دراسته في مرحلة الدّكتوراة في اللّغة العربيّة في جامعة القاهرة، وأخذ العائلة كلّها معه، كانت مصر ثانيَ وعيٍ أتفتّح عليه، سكنّا في مدينة (نَصر) في حيّ (رابعة العدويّة)، والتحقتُ في الصّفّ الأوّل الابتِدائيّ في فصله الثّاني بمدرسة (عبد العزيز جاويش)، كنّا نقفُ أمام السّارية في الصّباح في صفوفٍ مُتراصّة مُنتظمة على امتِداد السّاحة الفسيحة نُنشِد بصوتٍ واحدٍ طفوليّ ملائكيّ: **(مِصر يا أمّ الدّنيا يا حَبِيبتي يا ... بلدي...)** ومصرُ يومئذٍ على الحقيقة بلدي. وكانت المدرسة تُوزّع علينا البيض المسلوق والخبز والجُبن الأصفر والبرتقال في الفسحة بين الحصص، وكان هناك عُمّالٌ يحملون سِلالاً كبيرةً من القشّ تستقرّ فيها هذه الوجبات الشّهيّة الّتي لا زال طعمُ الجُبن فيها يدور في فمي إلى اليوم!

كان أبي يُوقِظني لصلاة الفجر، كنتُ في السّادسة من عمري، وكان أخي الّذي يأتي بعدي مُباشرةً في الثّالثة من

عمره، فلم يكنْ يُوقِظه معي. لم تزل لسعة البرد في صباحات كانون تعيش في ذاكرة الطّفل إلى اليوم، أعبر الممرّ الطّويل بين الغُرف ذات الأرضيّات الخشبيّة في شقّة واحدةٍ من أكثر من حوالي مئة شُقّة في عمارةٍ ترتفع لأكثر من ثلاثة عشر طابِقًا في مدينة نصر، كان أبي يسبقني في ذلك الممرّ، وأنا خلفَه أحاول أنْ أُقلّد خُطواته... أتوضّأ، وتلسعني من جديدٍ برودة الماء... أسمعُ خطوات أبي من جديدٍ وأنا أمسح ماء الوضوء عن مرافقي، يُدير مفتاح الشّقّة، وننزل معًا في المصعد عشرة طوابق، وعلى بوّابة العمارة من الخارج تُواجهني لسعةٌ ثالثةٌ من البرد، كان الجوّ يزيدني رعشةً ولكنّه يزيدني سعادةً غير مفهومة، كانت المسافة بين العِمارة والمسجد تُتيح لي أنْ أُمسِكَ بيد أبي، وفي الطّريق كان صوتُ المُؤذّن ينسابُ في سمعي، ويتغلغل في مَسامات جسدي، إنّها العربيّة الشّجيّة من جديدٍ، بصوتٍ مُنغّم... ونعبر أنا وأبي الفتحة الأخيرة في (شيكٍ) يفصل الشّارع عن المسجد، يتقدّمني أبي، وأنا وراءه أتعلّق بأذياله، أصطفّ إلى جانبه في المسجد المفتوح على السّماء؛ إذ لم يكنْ بناؤه قد تمّ، فلا جُدران ولا نوافذ ولا سقف، مجرّد قوائم عالية من الخشب مُغطّاة بجريدِ النّخل، ومحرابٌ للإمام، وبعض البُسُط المُتناثِرة على الأرضيّة الّتي كانتْ ترابيّة.. كان إمام المسجد عذب الصّوت، من القُرّاء الّذين يأخذُ صوتُهم بمجامع قلبِك،

فإذا اجتمع إلى الصّوت النّديّ الحرف الأندى فلا بُدّ أنّ أقع في السّحر على أعمق ما يكون الوقوع!

حصلتُ على درّاجةٍ هوائيّة اشتراها لي أبي من محلاّت عمر أفندي في مصر الجديدة بعد أن حفظتُ جزء (عَمّ) وأنا في الصّفّ الأوّل الابتِدائيّ، وشحنها أبي في الطّائرة حين عُدنا إلى الأردنّ، وشكّلتْ جانِبًا اقتِصاديًّا مهمًّا لي حينَ كنتُ أؤجّر الدّورة من بيتنا في سُوف إلى ساحة الحِنّاوي بقِرش، والدّورة الكاملة حول المسجد بخمسة قروش. كان أولاد عمّي يأخذون النّقود من أمّهاتهم. في الصّفّ الرّابع اشتريتُ درّاجةً جديدة، وكسبتُ نقودًا أكثر من السّابق.

كانت أمّي تصنع لي (الكَرَيْزِة) وهي حلوى مصنوعة من السّميد، وتُعدّها في صينيّة ألمنيوم، وكنتُ أحملها على رأسي وأطوف بها حارات سوف، وكنتُ أجني من وراء بيعها (١٣) قرشًا، فإذا خفضتَ منها تكلفتها وهي (٧) قروش فإنّ المَربَح يكون (٦) قروش، وكانت هذه القروش السّتّة كافية لكي تجعلني أشعر أنّني مَلِك.

شِجاراتي مع أولاد الحارة كانت محدودة، كنتُ نوعًا ما أميل إلى الهدوء، لكنّ البيئة الّتي أعيشُ فيها كانت تضجّ

بالأولاد الأشقياء. كان أولاد الحارات الأخرى يأتون لمشاجرتنا، وكانت لدينا فِرَقٌ مُتنازعة في حدود ما يعقله صِبيان أشقِياء، كانت هذه الفرق فرصةً لمعرفة أنّ الواحدَ منّا كان قليلاً بنفسه كثيرًا بفريقه. أصعبُ الأوقات الّتي تمرّ علينا أنّ يُباغتنا أولاد حارةٍ بعيدةٍ بالهجوم علينا دون أنْ نكون مُستعدّين، أو أنْ يهاجموا الحارة ولا يكون فيها أحدٌ، إذْ إنّهم فعلوا ذلك ذات مرّة وكنتُ وحدي، وكان يُمكن أنْ أُضرَب ضربًا مُبرّحًا وأنْ أقع تحتَ رحمتهم لولا أنّ عمّي (محمّد) تدخّل في اللّحظة المناسبة وفرّقهم بعصًا في يده، ونجوتُ في ذلك اليوم بأعجوبة.

في بعض أيّام الصّيف اللاّهبة كنّا نسبح ونحن صغار في بركة رومانيّة أثريّة تُسمّى (البِركَتين)؛ وهي عبارة عن بركتين تزيد مساحة الواحدة منهما على مئة مترٍ مُربّع، وتُحيطُ بها المُدرَّجات من جهتَين، مَبنيّة من الحَجَر الرّومانيّ القديم، وكانت تستمدّ مِياهها من وادي قريتنا (سُوف)، ولقد كانت غايةً في الجمال، كانت الأشجار الّتي حولَها في فصل الخريف تُغطّي الأرض بأوراقها الحمراء والصّفراء، فترسمُ سَجّادةً منسوجةً من هذين اللّونين بشكلٍ بديع، وكان بعضُ هذه الأوراق المُلوّنة يطفو على سطح الماء فيزيدُها جَمالاً. كنّا حينَ ننزل فيها لنسبح نخلعُ ملابَسنا، ونضعها على

الحوافّ فيأتي أطفالٌ آخرون فيسرقونها ونخرج عُراةً نركضُ خلفَ السّارق فإذا كُنّا محظوظين استعدْنا تلك الثّياب، وإلاّ فقد كان علينا أنْ نعود إلى بيوتنا في القرية دون ثِياب. وكان يسبحُ معنا مَنْ هو أكبرُ منّا سِنًّا بقليلٍ فيُمسِكون رؤوسنا في غفلةٍ مِنّا ويدفعونها بأذرعهم القويّة لتغوصَ في الماء حتّى نكاد نختنق قبل أنْ تنزل الرّحمة فيتركوننا بين الموت والحياة نرفع رؤوسنا ونستنشق الهواء الّذي فقدناه دُفعةً واحدةً لكي ندفعَ الموتَ الّذي يكون قابَ قوسَين أو أدنى مِنّا وسطَ قهقهاتهم الآثِمة... اليوم يُمكنكم أنْ تقرؤوا صورةَ ذلك العهد في البركة الّتي أغرَقَ (جميل) فيها (حافظ) في رواية (رؤوس الشّياطين)!!

كان من عادة مُؤذّن المسجد العثمانيّ القديم أنْ يفتح

سمّاعة المسجد ويبدأ بالتّواشيح يُنغّمها والآيات القرآنيّة يُرتّلها ليلةَ الجُمعة، وكان صوتُه يتردّد في القرية كلّها، ويذوب في غصون الشّجر، وينساب في مَسالك الوِديان، ويرقى إلى ذُرا الجِبال، وكنتُ أحسّ إلى ذلك أنّ الجبال تبكي لهذا الصّوت، وأنّ الأشجار تحني جُذُوعها، وأنّ الوديان تَقَرّ فيها حصاتُها. وكان أكثر ما يُؤثّر بي صوتُه وهو يردّد قوله تعالى: **"كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ"** وكنتُ أشعر أنّ جسدي النّحيل وضلوعي الرّقيقة تختلف مع صوتِه حينَ يصل إلى قوله: (زُحزِح)، فقد كان يقرؤها على مقطعَين: (زُحْ) ثمّ يتوقّف هنيهة قبل أنْ يُكمل: (زِحَ)، ثُمّ يصمتُ لحظاتٍ يصمتُ فيها الكونُ من حولي قبل أنْ يُعيد المقطعَين مرّةً ثانية... وكانَ إذْ يفعل تسري فِيّ قُشعريرة تجعل جسدي ينتفض. ثمّ صرتُ أنتظر ليالي الجُمعة لأشعر بمتعة الصّوت والحروف من جديد.

قريتنا تُعلّم الحُبّ والرّضا، غايةٌ في الجَمال، وادعة، ساحرة، لا يُمكن أنْ تتخيّل مدى هذا السّحر إلاّ إذا صعدتَ جبلاً من جبالها فرأيت الأشجار تحتضنُها وتحدبُ عليها كأنّها أمّها، ورأيتَ تلك الطّيور الّتي تهيمُ في سمائِها وتحطّ من

شجرةٍ إلى شجرةٍ كأنّها تنقل أسرار الهوى بين عُشّاقٍ لا ينتهون. ورأيتَ واديها ترتفع فيه أشجار الحَور العالية على مقربةٍ من نُهيرٍ يجري مترقّقًا من تيهه، فيهبُ الحياة لكلّ مَنْ حوله. ورأيتَ ربيعها الأخضر كأنّما هو بساطٌ منسوج قد فُرِش فوق رَبَواتِها، وزيّنته الورود الحمراء، كأنّها الوَشي في الثّوب المَرقوم. أمّا في الشّتاء فإذا أويتَ إلى جبلٍ يعصمكَ من الفِتنة فسترى ذلك الضّباب الّذي يتخلّل عذوق أشجارها، وتنظر إلى الدّور العالية كأنّها ترتقي فوق الغيم، فإذا نظرت إلى المساكن البعيدة في السّفح رأيتَ الأدخنة الّتي تصعد مُتراقصة من فوهات المدافِئ كأنّها أرواحٌ تهفو إلى السّماء. فإذا سقط الثّلج، وغطّى شوارعها، وأسطح بيوتها، وبدتِ الأشجار المتّشحة بالبياض كأنّها فساتين أعراس، وبرزث في اللّيل تلك الأنوار الخافتة الّتي تنغرز في هذا البياض الهادئ، عرفتَ أنّها السّحر الّذي لا يتكرّر! ولقد قلث حينَ أقمتُ في سِواها أيّام دراستي الجامعيّة:

يا سُوف يا عطري إذا أنا لم أَمِلْ

إلاّ إليكِ فللحَبيبِ عِذارُ

مِنْ فيضِ حُبّكِ قد ملأتُ سَرِيرتي

فَلَها إذا وشْوَشْتُها الأسرارُ

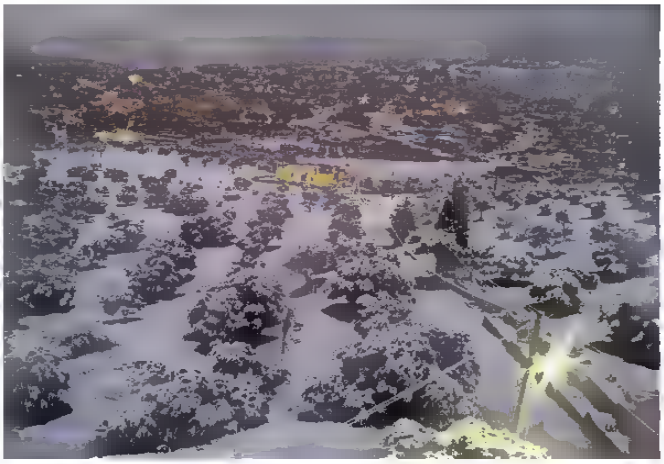

سُوف، في فصول السّنة

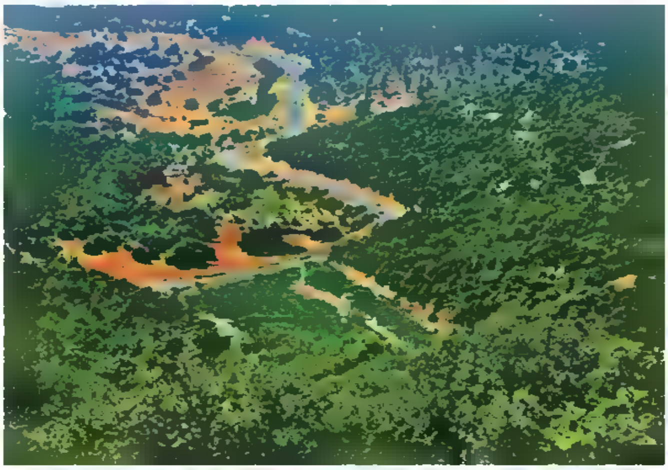

سُوف، في فصول السَّنة

ولقد كُنّا نتزاحمُ مع الحمير والبِغال على الشُّربِ من عينِ الماء في بُرج سوف، وكنتُ أضحكُ وأنا أحاول أنْ أُسابِق الحِمار إلى النّبع، وكان الحِمار إذا أُرخِي له الرَّسن، ونزل الرّاكب من على ظهره، وكان بينه وبين الماء بضع عشراتٍ من الأمتار أدركَ أنّه حان دورُ الشُّرب، فيركضُ للعَين وأركضُ معه، كنتُ أضحك كأنّني أُسابِقُ رفيقًا، أجثو على ركْبتَيّ وأمدّ عنقي، ويُميل هو قوائمه الأماميّة ويُميل عنقه مثلي، ونبدأ معًا العَبّ من الماء، وتَبين أسنانه الفوليّة ولِثَته الحمراء حينَ يكشفُ عنهما بشفتَيه الغليظتَين من أجل أنْ يُسهّل دخول

الماء، وكنتُ أحسّ أنّ الحِمار إذا رفَع رأسه بعد أنْ يرتوي، ثُمّ ينفُضُه، ويُبرطم، فيتراشق الماء من فمه أنّه يضحكُ هو الآخَر.

لم تكنْ طفولتي كلّها حالِمة، بل كان فيها بعضُ القسوة؛ إذْ كان أحدُ أعمامي الّذي يملك دُكّانةً صغيرةً - جعل موضعها البيت - إذا غضب من أحدِ أولاده نزعَ عنه ثِيابَه حتّى يصير عاريًا تمامًا ثُمّ يُقعده في (الفريزر) الّذي تُجمّد فيه الآيس كريم ويُغلِق عليه الباب، ولا يُخرجه إلاّ وقد ازرقّ جسدُه بالكامل، ولم يبقَ بينه وبين الموت إلاّ شَعَرات... وكان أحدُ أقاربي كذلك إذا غضبَ من أحد أبنائه ربطَه ببعضِ الحِبال إلى شجرة التّوت العملاقة الّتي تتوسّط حوش الدّار، وكان يهوي عليه (بالقايش) وهو حِزام غليظٌ من الجلد يلبسه جنود الجيش حتّى تُسمَع صرخاته في كلّ الحواري والأزقّة، فإذا انتصر له بعضُ الكِبار ألحقَ هذا الكبير بالصّغير وراح يهوي عليه بالقايش يُبرّحه ضربًا ويزعق في وجهه رَحِمه الله.

وادي سوف

الطّفولة الثّانية
(١٩٨٣م – ١٩٨٨م)

انتقلْنا من القرية (سُوف) إلى إربد عام 1983، كان ذلك بسبب عمل أبي مُدرّسًا للشّعر الجاهليّ في كلّيّة الآداب بجامعة اليرموك. شكّلت إربد وعيي الثّالث، كان هذا انتِقالاً من القرية الّتي تغفو في حضن الجِبال إلى المدينة الّتي تتمدّد في كنف السّهول. أحببتُ إربد؛ لقد مكثتُ فيها أكثر من ستّة عشر عامًا قبل أنْ أغادِرها إلى العاصمة عَمّان في عام 1999م. ولو أردتم أنْ تعرفوا شَغَفي بإربد، فاقرؤوا هذا النّصّ من رواية (حديث الجنود): "وأصلُ إلى إربد؛ حبّةِ القلب؛ كانت عشقًا قديمًا لكنّه مؤجّل، ظلّ في الأعماق نائمًا حتّى استيقظَ هنا؛ هل كنّا نحن أبناءَ الجبل مُتلهّفين إلى سهولٍ لا تصعد في الوجه بالنّار، أم توّاقين إلى الأرض التي تنبسط أمام القلب كأنّها صفحة الغيب الحُلو المرقومة بالأحلام الشّذيّة، كانت إربد تنفتح على المُطلق فنحسّ أنّ آفاقًا جديدةً تتشكّل، وأنّ زمنًا قادِمًا ستشعر الأزمان السّابقة كلّها أمامَه بالتّصاغر. والمُطلَق هنا حالةٌ كائنةٌ لا مُتَخَيَّلة!! هل الحبّ يتراكم على الفؤاد بطول العهد؟! أم أنّه يتشكّل جنينًا

يكون التّقادُم كفيلاً ببعثه إلى الحياة، ونحن مَنْ يرعاه بعد ذلك أو يقتله!! مُخطِئون أولئك الّذين قالوا: الحبّ من أوّل نظرة؛ على الأقلّ في حالتي لم يحدث هذا..".

أكملت الابتِدائيّة الصّفَّين الخامس والسّادس في مدرسة (عبد الرحمن الحلحولي) وكانت تقع في الحيّ الجنوبيّ على مبعدةٍ من شارع (شفيق إرشيدات) الّذي كان معروفًا بشارع إيدون، وكان يربطُ وسطَ المدينة بجامعة اليرموك، وكانت المدرسة مُكوّنة من طابِقَين أمامهما ساحةٌ صغيرة، وسكنّا وقتَها في سكن أساتذة الجامعة بشقّة في عمارةٍ لدى عائلةٍ مسيحيّة من دار (الخوري) تبعدُ مسافة بضع دقائق عن المدرسة ومثلها عن الجامعة.

في سنتَيّ الابتِدائيّة الأخيرتَين واصلت مِشواري من حِفظ النّصوص الطّروبة، ولمّا عَرَجْتُ إلى الإعداديّة وقد درستُ في مدرسة (حمزة بن عبد المطّلب) الّتي كانت تقع غربَ إربد وأحتاج أنْ أمشي رُبع ساعةٍ على الأقلّ حتّى أصل إليها – كنتُ أحفظُ في ربع السّاعة هذه ما استطعتُ أنْ أحفظَه من الشّعر القديم، وأحيانًا أسبقُ القصيدة المُقرّرة في المنهاج فأحفظُ ما تبقّى فيه من قصائد دون أنْ يطلب أحدٌ منّي ذلك. فلمّا صرتُ في الأوّل الثّانويّ انتقلتُ إلى مدرسة (الأمير

الحَسَن بن طلال) الّتي لا يفصل بينها وبين مدرسة حمزة غيرُ سورٍ عالٍ من الإسمنت، وواصلتُ في الطّريق ذاتها الّتي كُنّا نمشيها في الصّيف أو الشّتاء على حَدٍّ سواء - رحلة الحفظ العجيبة!

كان مدير مدرسة الحلحولي (أحمد إرشيدات) مُغرمًا بالموسيقى وبالنّشاطات المدرسيّة، وكان يحبّ العزف على آلة (الأكورديون) الحمراء، وقد استقدمت الوِزارة أستاذًا مِصريًّا لحصص الموسيقى، ولم يكنْ في مدرستنا الصّغيرة جِدًّا مسرحٌ، فكان يأخذنا إلى ثانويّة البنات فنُقيم في مسرحها نشاطاتِنا المُتعدّدة. في تلك السّنّ؛ في السّادس الابتِدائيّ ولم أكنْ أتجاوز الثّانية عشرة من عمري ألّفتُ مسرحيّةً عن عمر بن الخطّاب وجبلة بن الأيهم عن القصّة الّتي دارت بينهما، ومثّلتُ في المسرحيّة دور عمر بن الخَطّاب، ولا زلتُ أذكر كيفَ كان يرسمُ أستاذ الفنّ على وجهي الطّفوليّ ذي الذّقن العريضة لحيةً من السّخام بأصابع من الفحم. وأُغرمتُ بالدّور وأدّيتُه مع سيفٍ أُشهِره في وجه جبلة وأنا أردّد: " إمّا أنْ تُرضِيه وإمّا أنْ يضربكَ كما ضربتَه».

أدّى ذلك إلى أنْ أؤلّف مسرحيّة أخرى عن الشّيطان، ولمّا لم أجدْ في المدرسة من الطُلاّب مَنْ يقوم بتمثيلها أسندتُ

الأدوار إلى إخوتي وأخواتي، ومثّلناها في البيت وكان الجمهور أبي وأمّي وما تبقّى مِنْ إخوتي الصِّغار، وكنتُ ألبس على رأسي سروالاً داكِنًا لكي أُشبه الشّيطان وكانت تُساعدني في رَسْم الشّخصيّة بالإضافة إلى الكلمات الغريبة قهقهاتٌ مُتفجّرة تصعدُ من أعماقي بلا تحفُّظ.

كان عهدُ إربد عهدَ القراءة المُستفيضة، سنوات المدرسة قضيتُها في قراءة كلّ ما أستطيع الوصول إليه، وقد كان كثيرًا جِدًّا، فيكفي أنّه كان تحت يدي مكتبةُ أبي، وكان تعداد كُتُبها أكثر من ثلاثة آلاف كتاب!!

بالإضافة إلى الشّغف بالحفظ، تربّيتُ في هذه الفترة على كتب النّحو لعلي الجارم، وفي فترةٍ لاحقة على كتاب (جامع الدّروس العربيّة) للغلاييني. وكان لدينا في البيت مدرسةٌ موازية، هي أعظمُ من المدرسة الحقيقيّة، تَعَلَّمْنا في (كُتّاب) لكن في البيت؛ فقد اشترى أبي لوحًا من الخشب أسود، وعلّقه على الجدار المُصمَت لغرفة الجلوس الّتي كانت رواقًا طويلاً، وكُنّا نتعلّم بينَ يدَيه النّحو والصّرف وأساسيّات في التّربية الإسلاميّة.

ما الّذي حَدَث في هذه السّنوات السّبع الأولى في إربد؟ لقد

كان الشّاعر يستيقظُ فِيّ شاقًّا طريقَه بين نهرٍ من الشّعراء الّذي ينامون في وجداني، كتبتُ أوّل قصيدةٍ حقيقيّة وأنا في الصّفّ الثّاني الإعداديّ الّذي يُقابل اليوم الصّفّ (الثّامن)، كانت محاولاتي الأولى في الصّفّ الخامس تقتصر على صَفّ الكلمات في شطرَين مُتساوِيَين والإتيان بالحرف الأخير واحِدًا ومسجوعًا في نهاية الأبيات كلّها، فلمّا صار للشّعر في إحساسي نَغَمٌ وإيقاع، رُحتُ أغنّي ما أكتب، فيسقطُ خارج سُلمّ الغِناء كلّ ما كان زائِدًا، فلمّا دفعتُ بالقصيدة لأبي قلتُ له بلهجةٍ فيها كثيرٌ من التحدّي: «إنّها قصيدةٌ موزونة ولن تجدَ فيها كسرًا في الإيقاع في موضعٍ واحد». وقرأها أبي ورأيتُ وجهه يُشرِق بابتِسامةٍ عريضة، لقد كان فرحُ أبي بها أشدّ من فَرَحي أنا، إذ شَهِدَ يومئذٍ ولادة ثانيةً لابنِه؛ إنّها ولادة الشّاعر.

لم أُفوّت رحلةً مدرسيّة واحدةً ممكنة، كان شغفي بالتّاريخ قد بدأ ينمو عندي هو الآخَر، وكانت الرّحلات المدرسيّة تمضي في أغلبها في تلك الأيّام إلى منطقةٍ بالغور اسمُها (الحِمّة)، وكان من أساسِيّات الرّحلة المرور بمقامات الصّحابة في الغَور، فكُنّا نمرّ بمقام أبي عبيدة عامر بن الجرّاح أمين الأمّة، ومقامِ ضرار بن الأزور، ومقام عامر بن وقّاص، ومقام معاذ بن جبل، وكان مقام معاذ رضي الله عنه يحوي قبره

وإليه أسلحته الّتي قاتل فيها في حروب الفَتْح، كان هناك سيفُه وقَدُومه وخَوْذته، وكانت السّاحة الصّغيرة الّتي تجثُمُ أمام المَقام جميلة مليئة بالورود النّاضرة، يشعر المرء بمجرّد الوقوف فيها بروحانيّة عميقة، وكانث هناك أمام المقام المبنيّ من حجارة قديمة فُسحةٌ لصلاةِ ركعتَين وضوؤهما بماء الحنين إلى الماضي.

ثُمّ كُنّا نذهبُ مع أبي إلى أمّ قيس، وكُنّا نُشاهد تمثال المَلِكة المنحوت من الرّخام الأبيض في وسط مُدرّجٍ من الحجارة البركانيّة السّوداء مقطوع الرّأس. وكانت الأرض المرصوفة بالحجارة في السّاحة الواسعة المحفوفة بالأعمدة الشّاهقة مرصوفةً بالحجارة الضّخمة، وإذْ كُنتُ أمشي فوقَها كنتُ أشعر أنّني أمشي مع التّاريخ، وأنّ أرواحَ مَنْ ماتوا قامتْ من قبورها لتحفّ بي في هذا المشهد المهيب. لقد حضرتْ أمّ قيس مرّتَين في رواياتي، في رواية (خاوية) مرّة، وفي رواية (تسعة عشر) مرّة ثانية.

أمّا مقامات قادة مؤتة في جنوب الأردنّ، فقد كان يأخذني صوتُ أحدِ سُكّانها وهو يروي قِصّتهم إلى ذلك العهد، كان يقول: إنّهم ما زالوا حتّى اليوم بعدَ مرور أكثر من ثلاثة عشر قرنًا يسمعون أصواتَ المعركة في السّاحة الخالية الّتي دارتْ

فيها رحى الحرب، وما زالت أصوات (الله أكبر) تنطلقُ مع الفجر في فضاء تلك الموقعة! وصوتُ نِساء القرية يستغثْنَ كلّما شعرْنَ بالحرب أو الخطر بجعفر؛ بابن عمّ رسول الله من أجل أنْ يشفع لهنّ ويحميهنّ ما دام مَقامُه على مقربةٍ من هذه البيوت الوادعة. وكُنّ يشعرْنَ بالأمان كلّما تخّيلْنَه مُحلّقًا في سماء القرى بجناحَيه البيضاوَين يحرسُ أهلَها ودُورَها!!

لقد كان شعورُ طفلٍ وهو يمشي في أرضٍ مشى فيها العُظماء يُشعرني بالعظمة من جهة، وبأنّ عليّ واجبًا أنْ أكونَ أمينًا في نقل صورتهم ولو بعدَ حين من جهةٍ أخرى!

في الصورة الأُولى في الصَفّ الأوّل أنثر التّراب بين يديّ، وفي الصورة الثّانية أول الواقفين من اليمين. رحلة الكرك عام ١٩٨١م

في الصورة الأولى في الصّفّ الأوّل أنثر التّراب بين يديّ، وفي الصّورة الثّانية أوّل الواقفين من اليمين، رحلة الكرك عام ١٩٨١م.

في عام ١٩٨٧م وكان نهر الشّعر قد تدفّق منذُ عامٍ، كنتُ

أُلقي قصائدي في الإذاعة المدرسيّة، وأمام بعضِ أصدقائي، وكنتُ أكتبُ قصائد عن المعلّمين وعن شَرْحهم للدّروس، فكتبتُ مرّة قصيدة عن أستاذ اللّغة العربيّة دون أنْ أذكر اسمه وقلتُ: إنّه لا يعرفُ الإعراب وذكرتُ في القصيدة الجملة الّتي لا يستطيع إلى إعرابها سبيلاً، وألقيتُها في الإذاعة أمام الأساتذة كلّهم، وأمام طلبة المدرسة الّذين كانوا يتجاوزون ألفَي طالب، فلمّا دخلْنا إلى الصّفوف، راح كلّ أستاذٍ في كلّ صفٍّ من أساتذة اللّغة العربيّة يكتبون الجملة الّتي وردتْ في القصيدة على اللّوح ويقومون بإعرابها لإبعاد التّهمة عن أنفسهم أنْ يكونوا ذلك الأستاذ الّذي عنيتُه في القصيدة.

بعدَ فترةٍ من تلك الحادثة شرحَ أستاذ العلوم درسَ الذّرّة، فتناولْتُه بقصيدةٍ أخرى أقول فيها على - سبيل المُداعبة - إنّه لا يُفهِم الطّلابّ ما الذّرّة؟! وألقيتُها أمامه وأمام الطُّلاّب، وكنتُ يومَها في الخامسةَ عشرةَ من عمري، قلتُ فيها:

شرحَ الأستاذُ درسَ الذّرّةِ

ثُمّ طبعًا

تركَ الشّرحَ بنصفِ الحِصّةِ

فركَ الأيدي سعيدًا

صاحَ من أعماقِه في فرحةِ:

إنّ هذا الشّرحَ شرحٌ وافِي

ليسَ فيه أيّ لَبْسٍ أو غموضْ

نحنُ في الشّرحِ نَخُوضْ

لم ندعْ شيئًا ونُعطيهِ لكمْ

أَولَمْ؟!

قال كلّ النّاسِ في الصّفِّ: نَعَمْ!

ثُمّ لَمّا أسمَعوه شُكرَهم

راحَ يبدو شادِيًا أحلى النَّغَمْ:

لن ترَوْا مِثلِيَ في كُلِّ الأُمَمْ

أفسدَ اللّحنَ عليهِ شاعرٌ... قال للأستاذِ:

يا أُستاذُ؛ هذا الدّرسُ لا نَفْهَمُهُ

ولقد تُعطي كلامًا نحنُ لا نَعْلَمُهُ

صاحَ كالمَلهُوفْ:

إنّ للدّهرِ صُرُوفْ

أو تَجْرا أنْ تقول السُّوءَ عَنِّي؟!

أوَما تَدري بأنّي

في جوابي لا يُضاهيني أحدْ

وكمثلي عالِمًا لا لن تَجِدْ؟!

صمتَ الأستاذُ حينًا ثُمّ قال:

لا تُداقِرْ

أو تقلْ إنّكَ شاطِرْ

قلتُ: حاضِرْ

ما كفى الأستاذَ هذا بل أتاني قائِلا:

كعقابٍ لكَ سوفَ

تصفُ الذّرّةَ وصفًا كامِلا

قلتُ: لا يا سيّدي

مطلبٌ صعبٌ عسيرْ

قال: فارجعْ للكتابْ

تجدِ الوصفَ الصّواب

وكلامًا لا يُعابْ

لا تُؤخّرْ بالجوابْ

بعدَ يومَينِ أتينَا

قلتُ للأُستاذِ وصفًا باقتِضابْ

(١) مجمعُ الذّراتِ من دقائقٍ

كان لا يُمكنُ حينًا فصلُها

ثُمّ يبدو فصلُها صعبًا عسيرَا

وبهذا العصر أمسى عملاً سهلاً يسيرَا

(٢) ذرّة العُنصرِ ما فيها اختِلافٌ قد يَرِدْ

لكنِ الذّرّاتُ في مجموعها... قد ترى فيها اختِلافًا

في الحجومِ والعَدَدْ

(٣) ثُمّ لا يُمكنُ أنْ نأتي بِذرّاتٍ أُخَرْ

ضمنَ طاقاتِ البَشَرْ

عندما أكملتُ هذا قال لي مُستهزِئًا:

قد ظننتُ الوصفَ أوفى من مقالات الكتُبْ

أنتَ لا تَصْلُحُ إلاّ للأدَبْ

أنتَ لا تَصْلُحُ إلاّ للأدَبْ

فهل صدَقَ الأستاذ في أنّني لا أصلح إلاّ للأدب؟ وأنّ الهندسة الّتي درستُها في مرحلتي الجامعيّة الأولى لم تُقدّم لي شيئًا، أو لم أُقدّم أنا لها شيئًا، وأنّ هُجراني إيّاها قاصِدًا وجه العربيّة هو تحقُّق لنبوءة أستاذنا ذلك؟!

فهل صدَقَ الأستاذ في أنّني لا أصلح إلاّ للأدب؟ وأنّ الهندسة الّتي درستُها في مرحلتي الجامعيّة الأولى لم تُقدّم لي شيئًا، أو لم أقدّم أنا لها شيئًا، وأنّ هُجراني إيّاها قاصِدًا وجه العربيّة هو تحقُّق لنبوءة أستاذنا ذلك؟!

قصيدة (مع أستاذ العلوم) نُشرت في جريدة الشّعب اليوميّة عام ١٩٨٨م. الجريدة توقّفتْ عن الصّدور حوالي عام ١٩٩٨م

مع استاذ العلوم

شرح الاستاذ درس الذرة
ثم طلبنا
ترك الشرح بنصف الحصة
فرك الايدي سعيدا
صاح من اعماقه في فرحة
ان هذا الشرح شرح واف
ليس فيه اي لبس او غموض
نحن في الشرح نخوض
لم ندع شيئا ونعطيه لكم
او لم؟!
قال كل الناس في الصف نعم
ثم لما اسمعوه شكرهم
راح يبدو شاديا احلى نغم:
لن تروا مثلي في كل الامم
افسد اللحن عليه شاعر
قال للاستاذ: يا استاذ هذا
الدرس لم نفهمه
ولقد تعطي كلاما نحن لا نعلم
صاح كالملهوف
ان للدهر صروف
او تجرا؟!
ان تقول السوء عني
او ما تدري باني
في جوابي لا يضاهيني احد
وكمثلي عالم لن تجد
صمت الاستاذ حينا ثم قال
لا تداقره
او تقل انك شاطر
قلت: حاضر
ما كفى الاستاذ هذا
بل اتاني قائلا: كعقاب لك سوف
تصف الذرة وصفا كاملا
قلت: لا يا سيدي
مطلب صعب عسير
قال فارجع للكتاب
تجد الوصف الصواب
وكلاما لا يعاب
لا تؤخر بالجواب
بعد يومين اتينا

قلت للاستاذ وصفا باقتضاب
مجمع الذرات من دقائق
كان لا يمكن حينا فصلها

ثم يبدو فصلها صعبا عسيرا
وبهذا العصر امسى عملا.. سهلا
يسيرا
ذرة العنصر ما فيها اختلاف قد
يرد

لكن الذرات في مجموعها
قد ترى فيها اختلافا في
الحجوم.. والعدد

ثم لا يمكن ان نأتي بذرات اخرى
ضمن طاقات البشر
عندما اكملت هذا
قال لي مستهزئا:

قد ظننت الوصف اوفى
من مقالات الكتب
انت لا تنفع الا للادب

انت لا تنفع الا للادب

ابنة العتوم / اربد

قصيدة (مع أستاذ العلوم) نُشرت في جريدة الشّعب اليوميّة عام ١٩٨٨م. الجريدة توقّفت عن الصّدور حوالي عام ١٩٩٨م.

بين عامَي (١٩٨٣م – ١٩٨٧م) دأبت على الذّهاب إلى (وادي الغَفَر) غربيّ إربد مساءَ كلّ خميس فأجلس إلى صخرةٍ عالية أَسرَحُ ببصري في الفضاء البعيد الواسع وأتأمّل المُطلَق، ولقد كنتُ أجلسُ السّاعات الطّوال، لا أفعل شيئًا سِوى النّظر في الآفاق الممتدّة، والاستِماع إلى حفيف الهواء العليل الّذي يطوفُ بي، وحينَ تبدأ الشمسُ بالانكِسار وتُولّي جهة الغرب، أرى قُرصَها الأحمر الخجول الدّافِئ يُلقي عليّ تحيّة الوَداع، فأبتسمُ لها، وأنهضُ أُطلقُ نَفَسًا عميقًا من الرّاحة، وأعودُ أدراجي إلى البيت.

التّأمّل قراءة عميقةٌ في كتاب الكون، وإذا كانت القراءة من كتابٍ رفيعة القَدْر فإنّ القراءة من صفحة الكون أجلّ وأرفع، والتّأمّل مَسلك الأنبياء، فقد كان الرّسول صلّى الله عليه وسلّم يُقلّب بصره في السّماء: «ربّنا ما خلقتَ هذا باطِلاً سُبحانك». وكانت هذه سبيلَه قبل النّبوّة الّتي قادتْه إليها.

أُغرمتُ وأنا في الإعداديّة بجمْع الطّوابع، كنتُ أشتريها من

صاحب مكتبة مسيحيّ في آخر شارع السينما بإربد في شارع فرعي منه وهو محل كبير لا يكاد يوجد فيه شيء باستثناء الطوابع، وبعض البراويز الغريبة. وكانت أسعار الطّوابع تتروح من قرطة (قرشين ونصف) إلى رُبع دينار. الطّوابع القديمة فقط هي الّتي كان ثمنها يصل إلى ربع دينار.

بعضها كان قد تمّ إصدارُه أيام إمارة شرق الأردن قبل تأسيس المملكة، وبعضها أيام الدولة العثمانية. وهناك طوابع لدول سادت ثم بادت، دول كانت موجودة ثم اختفت، إما بتغيير اسمها؛ مثل الإمارات المُتصالحة، وإمّا بتحوّلها من ملكيّة إلى جمهوريّة مثل ليبيا، وإمّا باتّحادها مع دولٍ أخرى؛ مثل الاتّحاد الّذي تمّ بين مصر وسوريّة تحت اسم الجمهوريّة العربيّة المُتّحدة. وهناك طوابع حملت صور ملوكها أوان إصدارها، وقد تتابعَ على ذلك عشرة حُكّام أو يزيد، كلّهم طَبَعَ صورتَه على طابعٍ ما قبل أنْ يرحل رحيلاً لا أوبة إلى الدُّنيا منه.

وهناك دول لا أعرف اسمها حتى الآن مثل هيليفاتيا أحتفظُ في مجموعتي بإصداراتٍ لها. وظهر في طوابع أخرى رؤساء أمريكيّون كإبراهام لنكولن وقد خُطّ على الطّابع بعض

حِكَمه أو عباراته الأثيرة. لقد عرفتُ شيئًا ما عن تاريخ بعض الدول، أعيادِها، ملوكها، انتصاراتها الموهومة، صناعتها، زراعتها، وسنابل القمح الّتي تعدُ بالخير. كلّه كانت تقوله هذه الطّوابع.

طوابع التّاج البريطاني

طوابع الدّولة العثمانيّة

عرفتُ من خلال هذه الطّوابع كذلك الاستعمار الذي كان يحلّ بدولها، وخاصة الاستعمار الفرنسي الذي كانت كثير من دول غرب أفريقيا وجنوبها تُصدر طوابعها بلغته!! وبعضها مستعمرات بريطانية تابعة للتاج البريطانيّ في الهند أو في الباكستان أو في دولٍ أخرى.

توقّفتُ عن جمع الطّوابع بشكلٍ تامّ عندما دخلت المرحلة الثانويّة، لكنّني ما زلت أحتفظُ بما جمعته منها في الإعداديّة عبر ثلاث سنوات، إنّها آلاف الطّوابع، أشكالٌ وألوان، وقد مرّ على إصدار بعضها قرنٌ من الزّمان أو أكثر!

الزّمن ينسجُ حياتَنا ببطء، يشتبكُ خيطٌ بخيط، ها أنذا تنسجني الأيّام، في النّسيج الّذي يبدو مُتشابِهًا في أكثره؛ هناك بعضُ الخيوط المُميّزة، لا أحد يدري كيفَ يكون خيطٌ مُميزًّا دون آخر؟! لونُه، قوّته، تفرّده، ... ربّما، وربّما ضعفُه!

الفصل الثّاني

العائِلة

العائلةُ وَطَن

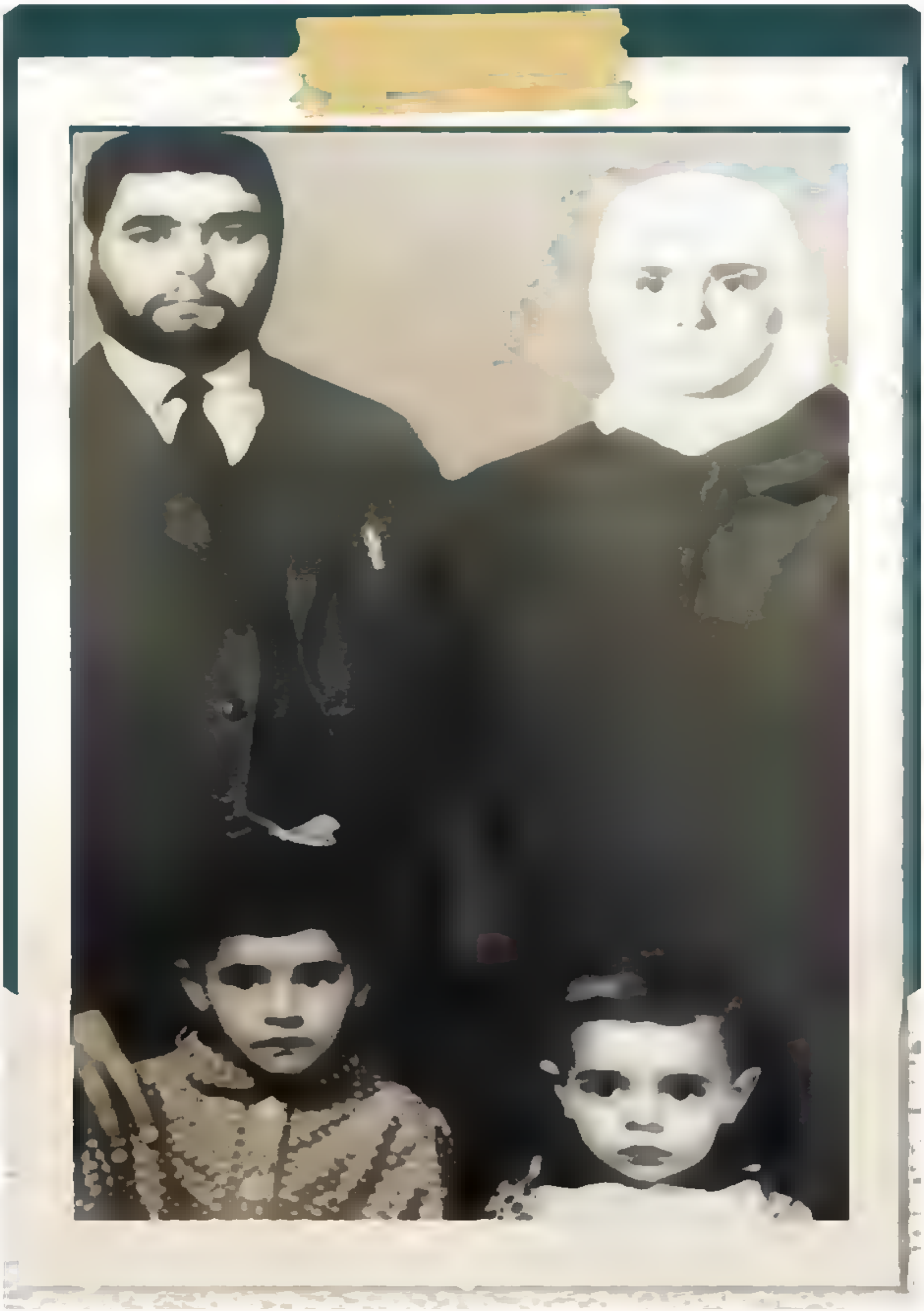

تمهيد:

نشأتُ في عائلةٍ كبيرةٍ لكنّها مُتآلفة، لم أسمع أبي طَوال حياتي يصرخُ في وجه أُمّي أو ينهرها أو يقول لها كلامًا قبيحًا ولو مرّة واحدة، وكانتْ أُمّي كذلك ودودةً حنونةً،

تُطيع أبي. ولمّا كانا يمشيان في القرية، كانت تتأخّر عن أبي خطوتَين أو ثلاثًا، ولا تمشي بجانبه أبدًا، وتركتِ المدرسة بعدَ أنْ تزوّجته وهي في الصّفّ التّاسع. وعَلّمها القرآن عندما سافرَا بعدَ زواجه بشهرَين إلى ليبيا ليعمل مُدرّسًا هناك بين عامَي (١٩٦٩م و ١٩٧١م).

تربّيت في عائلةٍ مُتديّنة، مُلتزمة، وكان لهذه التّربيّة الدّينيّة أثرٌ عميق على تربيتي الرّوحيّة وسلوكي الاجتِماعيّ، وأثرٌ آخَر على ضبط مفاتيح الأمور، كان هناك ضبطٌ حكيمٌ للشّهوات، ضبطٌ ثانٍ للوقت والإيمان بأهمّيّته، وضبطٌ ثالثٌ للعلاقة مع الآخَر، شكّلت هذه الانضِباطات الّتي صنعتْها التّربيّة الدّينيّة كثيرًا من سِمات شخصيّتي. وعليه؛ هل كان في هذه التّربية الدّينيّة وما تحمله من قيودٍ ما يعيبُ صاحبَها أو يُنقِص من انطِلاقته و حرّيّته في الإبداع؟ الجواب: لا. أنا أعتقد اليوم أنّ كثيرًا من المُبدعين الّذين لا يمحو أثرهم كرّ الدّهور كانوا قد نشؤوا في أحضان التّعاليم الدّينيّة.

أؤمن أن الاستقرار العائلي أحد أهمّ الأسباب المُساعِدة على الإبداع، ولكنه ليس كل شيء؛ فهناك مَن كانوا أيتامًا أو دون آباء أو نشؤوا في أُسَرٍ مُفكّكة وصنعوا مَجدَهم بأنفسهم،

وتركوا أثرًا لا يزول إلاّ بزوال الدُّنيا، وقد لا يزول. أقول إنّني حظيث بعائلة مُتماسِكة، لكنّها كانت كبيرة، هل كان ذلك صعبًا؟! لم تَعُدِ الأُسَر اليوم تُنجب مثل هذا العدد الكبير، وإنْ كان مأنوسًا فيما مضى.

أشقّائي ذهبوا مذاهبَ شَتّى، لم يكنْ فيهم على دِينِ أبيه مثلي، كنتُ أكبرُ وأنا نُسخةٌ شبيهةٌ بالنّسخة الّتي نشأ أبي عليها أو أرادني أنْ أكونَها؛ أفضلُ نُسخةٍ كنتُ سأتمنّاها لو أنّني خُيّرتُ بين نُسخي المُتعدّدة!

شقيقاتي كذلك ذهبْنَ في دروبٍ مُتعدّدة، لم يكنّ صنفًا واحدًا، ولا ارتضَين لأنفسهنّ طريقًا واحدةً. كُنّا نختلفُ في الطّيّات، والسّبل الّتي سلكْناها في حَيَواتِنا، ولم يُؤدّ ذلك إلى أنْ يحلّ عُقدة الألفة بيننا، أو ينكث الغَزْل الّذي غَزَله أبوانا لنا.

كان ترتيبي الثّاني بين أربعةَ عشر أخًا وأختًا، لم يكنْ يكبرني غير أختي أسماء، وكانت قويّة الشّخصيّة، وكان أثرها علينا جيمعًا واضِحًا. كانت أُمّنا إذا غابت أُمُّنا، وكانت قويّة الشّخصيّة إلى الحدّ الّذي كانت فيه تخرج إلى الحارة إذا تأخّرنا في اللعب وتلمّنا لنعود إلى البيت، وإنْ لمْ يكنْ فارقٌ كبيرٌ في السّنّ بيننا.

حينَ كبرْنا درسَ بعضُنا الهندسة، وبعضُنا الاقتِصاد، وبعضُنا الإدارة، وبعضُنا الشّريعة، وبعضُنا الآداب، وبعضُنا التّربية، وبعضُنا الفنون، وبعضُنا العلوم الطّبّيّة... وتوزّعنا على مشاربَ مُتعدّدة، وعاشَ بعضُنا في الأردنّ، وغادرَها آخَرون، وتزوّجنا جميعًا، وامتدتِ العائلة المُمتدّة أكثر فأكثر، وظلّ خيطُ المودّة يشدّنا إليه، وعُدنا بأولادنا إلى أحضانِ والدَينا، فعاشَ الآباء والأبناء والأحفاد، واستمرّت الحياة على هذا النّحو؛ بسيطةً، لكنّها مليئةٌ بالتّفاصيل!

أبي:

كان أبي عفيفًا مع أنّه كان مَهوى أفئدة فَتيات القرية في شبابه؛ فقد كان حنطيّ البشرة ذا قوامٍ مَرصوص، وسَبْكٍ متين، ليسَ بالطّويل ولا القصير، كان ربعةً، يلبسُ بدلةً أجنبيّة خِيطت له في إربد وهو في الثّانويّة، وقميصًا أبيض، وربطةَ عنقٍ سوداء، وكانت عيناه واسعتَين، وجبهته عريضة، وخدّاه مُمتلِئان، ومِشيته واثقة، وقد نجح في التّوجيهيّ - الّذي ابتدأ عهدُه به - نجاحًا باهرًا إذْ كان السّابع على لِواء الشّمال، وأهّلَه معدّلُه أنْ يحصل على بعثةٍ على حِساب الدّولة ليدرسَ في العراق أو الشّام أو لبنان فاختار دمشق... كلّ ذلك جعل عذارى القرية يتمنّين أنْ يكونَ فارسَ

أحلامهنّ!

كان أبي جادًّا في حياته، شغوفًا بأنْ يكون مُختلفًا عن أقرانه، ولخّصَ طموحاته في بيتَين من الشّعر، هما:

إلى العَلْياءِ أَصْبُو ثُمّ أَنْحُو

لإدراكِ الأماني والمعالي

فلا اسْتِقْرارَ لِي إلاّ بِمَجْدٍ

وذاكَ مَعَ المَدَى هَدَفُ الرِّجالِ

وقد بعثَ عمّي الأكبر (عقلة) لُحبّه لأبي بهذين البيتَين إلى خطّاط، وخّطهما تحت صورةٍ قديمةٍ له، وصنع للصّورة والبيتَين بروازًا أنيقًا وعلّقه في صدر بيته، وكان يفخر به، ويلفت نظر مَنْ يزروه من الفَلاّحين إلى الصّورة، ويقرأ له البيتَين على طريقته مع بعضِ الأخطاء؛ فقد كان أُمّيًا.

لم يستطعْ جدّي أنْ يصنعَ من أبي فَلاّحًا كما فعل بباقي إخوته، إذ وجدَ تشجيعًا من جدّتي الّتي كانتْ تُخبِّئ له بعضَ النّقود من أجل أنْ يُتِمّ دراسته، وكان عددُ الدّارسين في القرية في ذلك الزّمن قليلاً جِدًّا، فقد كان شباب القرية بين خيارَين؛ إمّا أنْ يحرثوا الأرض ويزرعوها، وإمّا أنْ يلتحقوا

بالجيش العربيّ.

لم يكنْ لأبي بيت، كنّا نعيشُ في غرفةٍ واحدةٍ في بيتِ عمّي الأكبر، وقد ولدتْ له أمّي في هذه الغرفة اليتيمة أربعة أولاد قبل الانتِقال عنها. حتّى إذا عادَ أبي من مصر عودته الأولى حامِلاً شهادة الماجيستير في العربيّة بنى في أواخر السّبعينيّات بيتًا مُتواضِعًا مُجاوِرًا للجهة الغربيّة من بيت أبيه، وللجهة الشّمالية من بيت أخيه الأكبر، وقد كنتُ أراه وهو يجبل الخلطة الإسمنتيّة (بالكريك)، ويحمل سطل الحديد على عاتقه مع العُمّال، ويُلقيه في طوبار الأعمدة، وكنتُ أراه يجلب الحجارة والصّخور ويُكسّرها بالمِهَدّة أو المطرقة الثّقيلة ويُلقيها في (الصَّبّة) من أجل تمتين الجُدران والقواعد، وتعبَ في بناء البيت كما لو كان العامِل الوحيد المهتمّ بشأنه في ذلك.

أكثرُ ما تعلّمْتُه من أبي هو ما رأيتُه منه؛ أفعال آبائنا تُرشِدنا وتُلهِمنا أكثر من أقوالهم، نحنُ نحاول في أحيانٍ كثيرةٍ أنْ نكونَ صورةَ ما يكونونه، نحنُ ما اعتدنْا منهم أكثر مِمّا سمعناه، ولقد قال المعرّي من قبلُ:

وَيَنْشَأُ ناشِئُ الفِتيانِ مِنّا

على ما كانَ عوّدهُ أَبُوهُ

أخذني أبي إلى أكثر المجالس الّتي كان يحضرها سواءً أكانت مع المُتعلّمين أم مع الفلاّحين، حتى عندما كان عمري سنتين كان يحملني بين ذراعَيه ويذهب بي إلى تلك المجالس، هكذا حدّثَتني أمي. المجالس مدارس كما يقولون، ولمّا وعيث قليلاً كنت أجلس إلى الكبار؛ كان هذا تعليمًا من نوع آخر، وأستمع إليهم؛ كان هذا تعليمًا مُضاعفًا، كان واضحًا أنّ كثيرًا مِمّا نتعلّمه يرتبطُ بذلك الجزء الّذي نُحسنُ الاستِماع إليه. فضيلة الإنصات سهلةٌ صعبة، ما أسهل الثّرثرة!!

أبي (على اليسار)، في ليبيا عام ١٩٧٠م

عندما انتقلْنا إلى إربد دأبَ أبي على أنْ يكونَ لنا درسٌ

أسبوعيٌّ راتبٌ يقرأ فيه من كتاب (أُسدُ الغابة) لابن الأثير، كان أبي يقرأ سيرة الصّحابيّ وأنا أبكي في كثيرٍ من المواضع في النّصّ، وأُخبِّئ دموعي عن إخوتي، لا أدري ما الّذي كان يُبكيني، لكنْ بالتّأكيد كنتُ شديدَ التّأثّر بموت الصّحابيّ الّذي نقرأ عنه، فقد ماتَ أكثرهم في حروب الفتح في بلادِنا، وكانَ موتهم في أكثره مشهديًّا وعاطفيًّا، عل الأقلّ بالنّسبة لي، إذ كان الموت غالبًا في واحدٍ من اثنين؛ إمّا بالشّهادة وسط المعركة والطِّعان، وإمّا بالطّاعون وسط الجوع والمرض! ولقد كنتُ أتخيّل كلّ شخصيّةٍ يقرأ أبي لنا عنها، وشكّلتُ لأكثر الصّحابة صورًا في مخيّلتي، ولا شكّ أنّ هذا هو الّذي ساعدَني عندما كبرتُ على أنْ أرسمَ بدقّة صورَ أبطالي.

لقد أجرتْ تلك الحكايات الدّمع في العيون، ولطَالما بكيتُ فيما بعدُ لسببٍ أو دون سبب، فقد رقّقت العربيّة السّاحرة وإيقاعُها القلب، فلا أدري أكان البكاء دافعُه استمرار ذلك الشّعور، أم محاولةً للشّفاء منه، وما أنا إلاّ كما قال ذُو الرُّمّة:

لعلّ انحِدار الدّمعِ يُعقِبُ راحةً

مِنَ الوَجدِ أو يشفي نَجِيَّ البَلابِلِ

حياة أبي الجادّ علمّتني الجِدّ، وغرست فيّ فضيلة الإحساس بأهمّيّة الوقت، ولقد كنتُ أراه وهو عالِمٌ في النّحو والشِّعر، يجلسُ في مكتبه يُحضّر المادّة ويكتب الأمثلة بخطّ يده في وُرَيقات يُعدّها لهذا الشّأن قبل أنْ يغدو إلى طلاّبه في الجامعة، في محاضرةٍ يكون قدْ درّسها عشرات المرّات من قبلُ، لكنّه كان يُعدّ لها العُدّة كأنّه يُدرّسها لأوّل مرّة، وما ذلك إلاّ لأنّه يحترم عِلمه وعملَه، ويحترمُ طُلاّبه. كأنّما يصدقُ فيه قول القاضي عليّ بن عبد العزيز الجرجانيّ:

ولو أنّ أهل العِلمِ صَانُوه صانَهمْ

ولو عَظّموه في النّفُوس لعُظّما

لم تكنْ حياة أبي معنا كلّها جِدًّا، فلقد كان يراوح ساعةً وساعةً، وحينَ كبرْنا قليلاً، وصِرنا ستّة أو سبعةً، كان أبي في إربد أوّل حياتنا فيها يأخذنا كلّ خميسٍ إلى حلويّات (عزمي العقّوري) الّتي كانتْ تقع على دوّار (وصفي التّل) تمامًا في وسط المدينة. وكنّا ننتظر عصر الخميس من أجل لحظةٍ كهذه؛ لحظةِ الجلوس من أكبرنا أسماء إلى أصغرنا أروى أو زينب، وحينَ ننظر إلى صحون الكنافة تسيل بالقطر جوذاباتُها، وتمطّ بالجُبنة لُقَمها، كانَ يسيل معها لُعابنا. وكانتْ

تدور علينا شَرْبةُ الماء الباردة الّتي يقطُرُ حَبابُها على أطرافِها، فيجعل للماءِ بعدَ الحلاوةَ مساغًا غير مَساغه المعروف.

ضَحّى أبي من أجل عائلته كثيرًا، تَحمّلَ نزَقَنا، ومراهقتَنا، وخروجَنا على أمره وعِصياننا له في كثيرٍ من الأمور، ولم نستبنْ صحّة ما كان ينصحنا به إلاّ بعدَ فَواتِ الأوان وبعدَ أنْ كبرنا، حمَل عائِلتنا الكبيرة في قلبِه صابِرًا لا يشكو مع أنّنا دُسنا على قلبِه الطّهور غير مرّة، الآن إذا كان يقبل اعتذارنا ومُسامحتنا؛ فإنّني أعتقدُ أنّني أنا وجميع إخوتي نطلبُ منه ذلك!

أنا وأشقائي الستة، من اليمين: حذيفة، خالد، عبد الملك، سهل، أبي، أيمن، معاذ، محمد

أمّي:

أنجبت أمي (١٤) مولودًا، سبعة أشقّاء وسبع شقيقات، كان ترتيبي الثاني بينهم جميعًا، وقامت بتربيتنا جميعًا على أحسن ما تكون التّربية، وتعبت وسهرت، وعانت أمزجتنا، ومرضَنا، وصُراخَنا، وشقاءَنا، وكثرة عددنا؛ كانت تحمل في بطنها أحدَنا وتُرضِع الثّاني وتهزّ سريرَ الثّالث ويتعلّق بذيلها الرّابع في الوقتِ نفسِه! بعد أن غادرتُ مثل كل إخوتي وأخواتي إلى بيوتنا وأزواجنا وأولادنا ظلّت تقرأ، وتحنو على كلّ شيء حتى على قِططِها، قططُها ظلّت تتوالد وتتدافع، كلما غادرَنا فوجٌ منها جاء على إثرها فوجٌ جديد، لكنها جميعًا مثلنا تمامًا كانت تحظى بدلال وحب استثنائيّين؛ كانت كلّما حضر الطعام لا تنسى أحدًا من الأبناء والبنات، والأحفاد والحفيدات، وتلك القطط التي تموء خلف باب المطبخ.

لم تتوقف أمي عن الإنجاب طوال عشرين عامًا متواصلة، ولم ترتح عامًا واحدًا، ولا في مكان واحد؛ فجئنا موزّعين في البلدان بحسب رحيلها مع أبي للدراسة أو العمل، ولدتنا أمي في جغرافيّات مُتعددة؛ فقد وضعت (أسماء) في ليبيا، و(مُعاذ) في مصر و(محمّد) و(خالد) في الإمارات، والبقية في الأردنّ.

أمّي بيضاء، عيناها عسليّتان، ووجهها مثلُ أمّها مُورّد،

وضِحكتُها ساحرة، صَفٌّ أسنانها لؤلؤٌ حقيقيّ، فإذا اتّسعت ضِحكتُها برزتْ غمّازتاها هِلالاً على بدر، وكنّا نعتلق بثوبِها كأنّ أمان العالَم فيه، فإذا سارتْ تشبّثنا به نستمهلها كأنّنا نخافُ أنّ نفقد ذلك الأمان، وظلّت خيمتنا الّتي نأوي إليها مهما كبرنا وتعدّدَ أبناؤنا إلى اليوم. لا أحدَ يعرفُ كيفَ تكون الأمّ، كيفَ تكونُ قادرةً على أنْ تهبكَ الطّمأنينة وأنتَ خائف، ولا كيفَ تظلّ صغيرًا أمام حُنُوّها مهما كبرت!

أبي وأمّي وأنا وأسماء عام ١٩٧٣م

لم يكن الماء في السّتّينيّات ولا السّبعينيّات قد وصل إلى بيوت القرية، ولذلك كانت النّساء تَرِدُ على عَينِ الماء الوحيدة، وهناك يَسقِين، ويَغسِلنَ، ويَجلِين، ومن هناك يحملن الثّياب أو الأواني المغسولة، وجِرار الماء على رؤوسهنّ، تزوّجت أمّي وهي ابنة (١٦) عامًا وكانت جدّتي

الّتي أنجبت كذلك (١٤) مولودًا ما زالت تدفع من بطنها بالمواليد الجدد، وكانت أمّي قد بدأت الإنجاب، فاتّفق أنّهما كانتا تُنجبان معًا، وكانت البنت (أمّي) إذا انشغلت عن الإرضاع قامت أمّها (جدّتي) مَقامها، والعكس كذلك، ولذا فإنّ خالتي (مها) الّتي أكبرها بأربعة أيّام فقط رضعت من أمّي معي، فهي خالتي وأختي بالرّضاعة. ولقد حدثَ أنّ أمّي كانت تنزل إلى هذه العين وتحملُ أخاها الرّضيع الّذي عمره سنة يصيحُ بينَ ذراعَيها لأنّ أمّها مشغولة بقطاف الزّيتون، فتتغسل وتسقي، وتعود تحمله على يُمناها، والجرّة على رأسِها، والثّياب على يُسراها، وكان عليها أنْ تُوازَن بين ذلك كلّه في مشيتها، دون أنْ تُسقط الرّضيع فيُفجَع، أو الجرّة فتنكسر، أو الثّياب فتتّسخ، ولم تكن المسافة قريبةً بين البيت والعَين، ولم تكنْ امرأةٌ في قريتنا إلاّ وهذه طبيعةُ حياتِها، ولقد عانَينَ أكثر مِمّا يُمكن أنْ نتخيّله اليوم أو نُصدّقه في ظلّ تطوّر التكّنولوجيا، وانتشار الآلات الّتي تُريح الإنسان من كثيرٍ من العَناء.

قد لا تكون أمّي بين نِساء القرية استثنائيّة في ذلك، ولكنّ الأمّهات – أنّى كُنّ - هنّ الاستثنائيّات؛ أولئك اللواتي يُعطين للحياة قيمةً ومعنى، ويُعطين للوجود بهجةً وأُنسًا. وإنّ الإسلام الّذي جعل الجنّة تحتَ أقدامهنّ لم يجعلها كذلك –

حاشاه - عبثًا، إنّما لأنّهنّ عظيماتٌ إلى الحدّ الّذي تُطامن الجنّة لكي تكون دونَهنّ، وإنها لسبيلٌ إليها، وإنّ هذه السّبيل لهي أضمنُ الطّرق إليها وأسهلها، إنّ ذلك لا يحتاج كثيرًا؛ قليلاً من البرّ مقابل سنين من الحنان التي لا مقابل لها!!

أمي في حديقة منزلنا في إربد ٢٠٢٠

لم تُتمّ أمّي تعليمَها بسبب الزّواج، غير أنّها علّمَتنا جميعًا نحن أولادَها ما لم نتعلّمه من سِواها، هيّأتْ لها قراءاتها قبلَ

الزّواج وبعدَه شخصيّةً مُثقّفة، قادرةً على أنْ تُقنِعنا بأقلّ الكلمات، وإنْ كان الإقناع لديها حُبًّا أكثر منه مهابةً كما كانت الحال معي أبي، كانت أمّي تَحرِصُ على أنّ نؤدّي واجِباتنا في الأوقات المُحدّدة لذلك، وتعلّمتُ منها الاستِيقاظ مُبكّرًا مع الفجر، لا زالت أمّي تستيقظُ مع الفجر ولا تنام بعدَ ذلك إلاّ في اللّيل إلى ساعة كتابة هذه السّطور، لقد كان من أفضل الانِضباطات الّتي ألزمتُ نفسي بها من أجل أنْ أُنجز اليومَ هذه الإنجازات الكبيرة بحمد الله، كانت توقظنا في الفجر البارد أيّام الشّتاء، فتوقد المدفأة، وكانت معتادةً أنْ تُدفِئ الماء لنا على الغاز، وأنْ تُدفِئ الثّياب على تلك المِدفأة، فلا نغسل وجوهنا إلاّ بالماء الدّافِئ في ذلك الزمهرير الصّباحيّ، ولا نلبس إلاّ الثّياب الدّافِئة، قبل أنْ نتوجّه إلى مدارسنا في القرية.

أدركتُ حينما كبرتُ أنّ أمّي الّتي حَرَصَتْ على تعليمنا والحدب علينا، لم يكنْ حرصُها هذا أقلّ من حرصِ أمّ الإمام الشّافعيّ أو أمّ الإمام أحمد بن حنبل، في صبرها ومُصابرتها على أنْ نحصّل من العلم أعلاه، ومن المجدِ أسناه، وكانت ترى في كلّ واحدٍ مِنّا مشروعَ عالِمٍ أو فقيهٍ أو كاتبٍ أو شاعرٍ، فلم تألُ جهدًا في أنْ تسعى إلى صُنع ذلك فينا صُنعًا حثيثًا.

إخوتي وأخواتي:

لم يكنْ يكبرني غير أختي (أسماء) وُلِدتْ قبلي بسنةٍ وسبعة أشهر، وجاء كلّ إخوتي الباقين بعدي، هذا الفارق في العُمر جعلني أحاول أنْ أتّخذ منهم أصدقاء، وأنْ أكون قريبًا منهم، وأقف إلى جانبهم ما استطعت. ربّما شغلتْني الدّراسة والقراءة عن بعضِهم، ولكنْ أيّ شيءٍ يُمكن أنْ يكون أجمل من أنْ تتّخذ من أشقّائكَ أصدقاء ورُفقاء درب؟!

تعلّم إخوتي جميعًا احترام الكبير مهما كان الأمر، وكانوا يبنون على هذه التّراتبيّة سُلوكَهم مع الأخ أو الأخت الأخرى ولو كان الآخَر يكبره بعامٍ. بالطّبع الفارق العمري بين مولودٍ وآخر - في عائلة مُكوّنة من (١٤) فردًا أنجبتْهم أمّي جميعًا قبل أنْ تُتِمّ السّابعة والثّلاثين من عمرها - سيكون عامًا لا أكثر في كثيرٍ من هذه الإنجابات، وهذا ما جعل عِبئَها في تربيتنا كبيرًا. أوّلنا (أسماء) الّتي وُلدتْ عام (١٩٧٠م)، وآخرنا (خالد) الّذي وُلِدَ عام (١٩٩٠م).

كان عددُنا الكبير يجعل من الشّجار بيننا ونحن صِغارٌ أمرًا محتومًا، ومع أنّ أُمّي على وجه الخصوص كانتْ تُحاول أنْ

تفكّ الشّجارات بيننا بأقصر الطّرق وأسهلها، إلاّ أنّ بعضَها كان يحتاجُ إلى تدخّلٍ أبويّ، فكانت أمّي ترفع تلك القضيّة إلى أبي، الّذي لم يضربْ في أيّ شِجارٍ أيّ واحدٍ منّا، ولكنّه كان يستمع إلى كلّ طرفٍ، ويُرضي الأطراف كلّها إمّا بالكلمة الطّيّبة أو بالنّقود، فقد كانت النّقود الّتي يبذلها أبي لنا بسخاءٍ تحلّ كثيرًا من تلك المُشكلات: والدّراهم مَراهم. وكان لا يسمح للمُتشاجرين مِنّا أنْ يُغادر مجلسه للقضاء إلاّ بعد أنْ نتصافح ونتعانق... غير أنّ أكثر ما حفظتُه منه في كلّ شِجار يقع بيننا هو تَرداده للحديث النّبويّ الشّريف: «لِينُوا في أيدي إخوانكم». وقد كانت تمرّ علينا أوقات نسمعها منه كلّ يومٍ، بل نسمعها منه في اليوم الواحد أكثر من مرّة، حتّى خُيّل إليّ أنّني كنتُ أرى حروفها تسير إلى جانبِ أبي كلّما خطَر في البيت، أو فتحَ الباب عائِدًا من الخارج!

وكان أبي يجعل مجال التّنافس بيننا - نحن الأشقّاء والشقيقات - تنافسًا قائمًا على مَن يستطيع أن يحفظ أكثر من القرآن الكريم، ويُعطينا على ذلك نقودًا كثيرة، وكان أخي (سَهْل) يتعجّب من ذلك فيقول: «أنا أحفظ السورة وآخذُ نقودًا على ذلك!! وأتساءل لماذا يفعل أبي ذلك؟ فأنا الّذي أحفظُ السّورة لا هو، وهو الّذي يُتعبُ نفسَه بتسميعها لي لا أنا الّذي أُسمّعها له، أحفظُ أنا ويدفع هو؟!».

أنا وأسماء وسهل وقوفًا وأروى جالسة، في القاهرة عام ١٩٧٩م

كان الحُبّ كلمةَ السّرّ بيننا، ما كره فينا أحدٌ أحدًا لأيّ سببٍ

كان، ولا أَبْغضَه ولا حَسَده ولا تمنّى له غير ما يتمنّى لنفسه، وما كان ذلك إلاّ لأنّ أمّي أرضعتْنا هذه المعاني حُنوًّا فائِضًا، وأبي غرسَها فينا سلوكًا مُقتدَى. وكان العفو يردم ما انفتق، ويعقد ما انحلّ، فلا يكون من بعده إلاّ الخير.

كان أبي له هيبتُه إلى جانب حُبّنا له، وكنتُ أظنّ وأنا صغيرٌ أنّه قويٌّ إلى الحدّ الّذي يُمكن فيه أنْ يكون بَطَلي المُشتَهى، ولم أتخيّل أنْ أراه ضعيفًا أو مُنكسرًا أو حزينًا، كلّ هذه العواطف لم تكنْ لأبي؛ كان ذلك ما أظنّه، ولكنّني رأيتُ الوجه الآخَر له عندما ماتتْ أختي (خديجة)، كانتْ خديجةُ جميلةً جِدّا، بيضاء حوراء، أصابتْها الحُمّى وهي في الثّانية من عمرها، أخذها أبي إلى المُستشفى ولم يستطعْ أنْ يُنقِذها فماتتْ بين يدَيه! رأيتُه في ذلك اليوم يبكي بصوتٍ مسموع بُكاءً مريرًا، فعرفتُ أنّ أبي غير أبي. أختي الأخرى (فاطمة) الّتي تصغرني بعام، ماتت هي الأخرى وهي صغيرة، لكنّني لم أشاهدْ تأثّر أبي وأمّي بذلك، فقد كنتُ صغيرًا لا أعي ما يدور من حولي. حينَ كبرتُ كنتُ أسمعُ أبي يقول غير مرّة عنهما: «إنّهما فَرَطي إلى الجنّة، لقد سَبَقاني إليها». لا أظنّ أنّه هو وأمّي نَسِياهما. ذلك قلبُهما، وتلك هي الحقيقة. أتساءل كيفَ يتذكّرانهما؛ على أيّة هيئةٍ يَرَيانِهما؟ وفي أيّ وقت؟!

شقيقاتي من اليمين: زينب، أروى، أمامة، أسماء، آزاد. الصورة عام ٢٠١٨م

جدّي حُسين:

جدّي لأبي، وُلِدَ عام ١٩١٦م، كان يتيمَ الأبوين، ربّاه عَمُّه، وتعلّم أبي منه ما تعلّمتُه منه؛ الجِدّيّة، وإتقان ما يقوم به. بدأ فَلاّحًا بسيطًا، حتّى استطاع أنْ يجمع من عمله بعضَ النّقود، فاشترى أراضي بورًا مليئةً بالحجارة والشّوك، فكان يعمل فيها بمُفرده، يعزق الحجارة ويقتلع الأشواك حتّى يُهيِّئها للزّراعة، فلمّا زرع أوّل أرضٍ غلّت عليه المال، فاشترى به الغنم، ثُمّ كثرت غنمه، فكان يُبادل أراضي الفلاّحين بعددٍ من أغنامه، حتّى استطاع أنْ يمتلك مِئات الدّونمات، وكان يزرعها بالزّيتون والعنب والتّين والبرقوق والخوخ

والمُشمش والبندورة، وغيرها، وفاضت بين يدَيه الأموال، ومن الصّفر صنع لنفسِه مجدًا، وكان كريمًا، ولقد زارنا من عشيرة العتوم عددٌ منهم قَدِموا من (سوريّة)، فذبح لهم عددًا كبيرًا من الشّياه وجمَع على الوليمة كلّ عشائر القرية، ولم يشتثنِ منهم أحدًا.

وكان صلبًا جلدًا؛ أذكر أنّني كنتُ في السّادسة من عمري أو السّابعة من تلك الأيّام الّتي كنّا نعيشُ فيها على قنن الجبال، وقد كان يومَ حصادٍ حارًّا جِدًا، والعرق يتصبّب منّا، ونحن نُساعدُ بما نستطيع من الإمساك بالمناجل لكي نجزّ أعناق القمح، وكان من الطّبيعيّ في أيّام الحصاد تلك أنْ ترى الأفاعي تسرح وتمرح بين سنابل القمح أمام عينَيك، وحدثَ أنِ انغرزتْ في يدي ذلك اليوم شوكةٌ فعزّ علي اقتِلاعُها، وغاصت – وأنا أُحاولُ إخراجها - في باطن يدي عميقًا، فلمّا اشتدّ علي الألم هُرِعتُ إلى جدّي أستغيثُ به لكي يُساعدني في إخراجِها، فسألني لَمّا رآني مُوجَعًا أتألّم: «ما بك؟»، فأجبتُه: «شوكةٌ قد آلمتني». فكاد يضربني لِما ظَنّه دلالاً مِنّي، وهتف: «ظننتُ أنّ أفعى قد لدغَتْك، وأنتَ تقول لي شوكة؟! إنْ لم تكنْ قرصةَ أفعى أو ما هو أكبر منها فلا تأتِني أبدًا، اغربْ عن وجهي». وعُدتُ خائِبًا، وانتحيتُ ناحيةً أعتمدُ على نفسي في إخراج الشّوكة، وكان ذلك درسًا لا يُنسَى.

زلّتْ به قدمُه في إحدى المرّات، فسقط، فكُسِرتْ، فقضى أواخر أيّامه في الفراش قليل الحركة بسبب ذلك، وكان مكوثه في الفراش أصعبَ شيءٍ مرّ به في حياته، فلم يعتدْ إلاّ الحركة المُستمرّة والعمل الدّؤوب، كأنّه يتمثّل ببيتي المتنبّي:

وما في طِبّه أنّي جَوادٌ

أضرّ بجسمِه طُولُ الجِمامِ

تعوّدَ أنْ يُغبّر في السّرايا

ويدخلَ من قَتامٍ في قتامِ

وضَعُفَ بصرُه في أخريات حياته، فضاعفَ ذلك من عُزلته، وبدا ذلك العِملاق القويّ الّذي كُنّا نسمع صوتَه في كلّ حينٍ وكأنّه خرجَ من عالَمنا. وكنتُ أزوره طريحَ الفِراش، فأمكث عنده السّاعات أسمعُ منه، وأتهدّى حِكمته، وكان دائمَ التّرداد لبيتٍ حفظتُه عنه ولا أعرفُ قائله:

نَزَلْنا ها هنا ثُمّ ارتحلْنا

كَذا الدّنيا نُزُولٌ وارْتِحالُ

ولعلّه كان يرى رحيله أمام عينَيه بعد أنْ طالَ مُقامه، وظلّ صابرًا جلْدًا إلى أنْ فاضت روحه عام (١٩٩٧م).

جدّي حسين، حوالي عام ١٩٧٥م

جدّتي بَهِيّة:

جدّتي لأبي، ولدت عام (١٩١٥م)، كانت تستيقظُ قبلَ الفجر فتحلب أكثر من سِتّين شاةٍ وحدها، وكان فِعلُ ذلك يتطلّب مُعجزةً، إلاّ أنّ معيشة الفَلاّحين القاسِية علّمتْهم أنّ الحياة إمّا أنْ تطحنهم، فيخرجوا من تحتِ رحاها مسحوقين أو أنْ يخرجوا ناجين بعزيمتهم، وكانت من النّوع الثّاني، وإذْ كانت تنتهي من حَلْب الشّياه في الضُّحى كان ينتظرها أعمالٌ أخرى، فلم تكن تعرفُ الفراغَ أبدًا.

لم يكنْ أبي ليصيرَ ذلك العالِم في النّحو واللّغة إلاّ لأنّه وجدَ أمًّا مثل جَدّتي، كان أبي يكتري غرفةً عندما صار في الثّانويّة في حارة (الزطايمة) في جرش، وكان يُخلي نفسه فيها للدّراسة، وكانت جدّتي تركبُ الحمار من (سوف) الّتي تبعدُ سبعة كيلومترات عن جرش، فتهوي إلى المدينة إلى غرفة ابنها من أجل أنْ تُزوّده بالطّعام بين الفينة والأخرى، وكان الطّعام بعضَ الأرغفة، والزّيت والزيّتون، والرّصيع، وغيرَه، وحدثَ أنْ استيقظتْ ذات مرّة من نومها فظنّتْ أنّ الفجر قد آذن بالقُدوم، فجهّزتْ (زُوّادة) ابنها، وركبت الحمار، ومضتْ إلى جرش، ولم تكنْ تدري أنّ اللّيل في منتصفه، لقد خَدَعها ضوء البدر في تلك اللّيلة فقد عَمّ نورُه المكان فحسبت أنّها

لن تمرّ بِضع ساعةٍ حتّى تُشرق الشّمس، فلمّا صارث في الطّريق المُوحشة الّتي كانت ترابيّة تمرّ بالمزارع برز لها ضبعٌ فهجم عليها، حتّى كاد يقتلها، فشاغلته، وهو يدور حول حِمارها، يتحيّن الفرصة السّانحة للانقِضاض عليها، وظلّث تُشاغله، وهي تحرصُ على الطّعام بين يدَيها أكثر من حرصها على حياتها، حتّى صارث على مشارف جرش، فآنئذٍ تركها الضّبع، ولمّا وصلث إلى بيتِ ابنِها، كان أبي – بالطّبع – نائِمًا، إذ إنّ الوقت كان بعدَ منتصف اللّيل بقليلٍ، فطرقث عليه الباب، فلمّا خرج استغرب من رؤية أمّه، فسألها: «ما الّذي أتى بكِ يا أُمّي في هذا الوقتِ من اللّيل؟». فأجابتْه: «أتيتكَ بالطّعام يا بُنيّ». فقال لها: «إنّنا في وسط اللّيل، وبيننا وبين الفجر ساعاتٌ وساعات». فعرفت أنّ القمر سرَقَها. وعرفَ أبي أنّنا صُنع تضحيات أمّهاتنا، فعليهنّ سلامُ الله ورحمتُه وحَنانُه.

في دراستي في سنتي الأولى في كلّيّة الهندسة في جامعة العلوم والتّكنولوجيا كنتُ أسكنُ وحدي في شقّة في إربد، إذ كان أهلي جميعًا في الإمارات حيث يعمل أبي في جامعة عجمان، وكنتُ أنام نهاية الأسبوع في القرية في (سوف) في دور أعمامي، وكانث تنتظرني مساء كلّ خميسٍ في بيتهم القديم، حتّى تُعدّ لي العَشاء، ولا تنام قبلَ ذلك. وحدثَ في

إحدى المرّات، وكان التّوقيت شتويًّا، والشّمسُ تغربُ في الرّابعة والنّصف، أنهينا دوامنا في الجامعة في السّادسة، إذ يكون العِشاء قد حلّ، وركبتُ المواصلات من الجامعة إلى إربد، ومن إربد إلى جرش، ومنها إلى سوف، فوصلتُ إلى القرية بعدَ أكثرَ من ساعتَين، ويبدو أنّها غالبتِ النّعاس وانتظرتْني حتّى تُعدّ لي العشاء على عادتها، ولكنّ الوقتَ استطال، فغلبَها النُّعاسُ فنامتْ، فلمّا وصلتُ في البرد والمطر والرّيح ودخلتُ بيتَها، أحسّتْ بقدومي، فقامتْ من نومها، فأشفقتُ عليها، واعتذرتُ من إزعاجي لها في هذا الوقت، وقلتُ إنّني ما قبلتُ أنْ أدخل أيّ دار من دورٍ أقربائي حتّى أراكِ وأسلّم عليك، فقد حصل، وطلبتُ منها أنْ تعودَ إلى فِراشِها، ولكنّها أبت وأصرّتْ أنْ تقوم، فأضاءت النّور، وقامت تتلمذس الجُدران في اللّيل البهيم البارد، فجمعتِ الأغراض، وصنعتِ الشّاي، وأعدّتِ العشاء، وجلستْ تُراقبني سعيدةً بوصولي رغم تأخّري، وكأنّني قد هبطتُ عليها من السّماء. لم يكنْ في نِساء القرية مثلُها، أعرفُ الآن كيفَ صنعتْ أبي تمامًا!

أعطتْ جدّتي لأولادِها وأحفادِها أكثرَ مِمّا أعطتْ لنفسِها، تعلّمتُ منها أنّ العَطاء يُحقّق السّعادة للنّفس أكثر من الأخذ، وظلّ قلبُها يُعطي دون مقابل إلى أنْ غادرت الفانية عام

(١٩٩٨م).

جدّتي بهيّة عام ١٩٨٨ تقريبًا

جدّي صالح:

جدّي لأمّي، وُلِدَ عام ١٩٢٣م، كان نحيلاً يميل إلى الطّول، رخيمَ الصّوت، هادِئ الحركات، أصلحَ الله به بين النّاس، وكان مدرسةً في الحِلم، فلم يُرَ غاضِبًا لنفسه أو من شيءٍ قطّ إلاّ حينَ يقعُ عليه أو على أحدٍ ظُلمٌ أمامه، فإنّه ينتصر له.

وكان جدّي حُسين يُسمّيه – لِحِلْمِه هذه، وهما أبناء عُمومة – الأحنفَ بن قيس!

كان حكيمًا وقورًا رزينًا، هادِئًا هدوء النّسمات المُنعشِة في ليلٍ صيفيّ، بَسومًا، عمل في الحقول مثل بقيّة الفَلاّحين ما شاء الله له أنْ يعمل، ثُمّ غابَ سنواتٍ طوالاً في الخليج في مجال بيع الخَضْروات لَمّا فتح الخليجُ أبوابه في السّبعينيّات، وتركَ بين يَدَي جدّتي أولادًا كثيرين، وكان انتِظار رؤيته أمنيةً لطول غيابه في تلك السّنوات، فلمّا عادَ ألقى بِظلال مودّته علينا، وتعلّمْتُ منه الكثير، تعلّمتُ طول الصّمت مع أنّ في الفم ماءً كثيرًا كما يقولون، ولكنّ الكلمة مِلكُ صاحبها ما لم تخرج؛ فإذا خرجتْ كانت سهمًا لا يعودُ إلى وتره، ودفقًا في الثّرى لا يعودُ إلى كأسه. تعلّمتُ ألاّ أُسرع في حُكمي على أيّ شيءٍ قبل أنْ أتريّث، وألا أهرفَ بما لا أعرف، وأنْ أزن الأمور مِيزانها العدل، وكان خفيضَ الصّوت يسمع لمن يصرخ في وجهه دون أنْ يغضب، فإذا انتهى الآخَر من مقالته لم يردّ بأكثر من بسمةٍ تُذهبَ غيظَ مُحدّثه، وتجعله يُكبره مهما حدث من قبلُ بينهما من مُشاحنة، وكان قليل الكلام، من القلائل الّذين عرفوا وزن الكلمة، وعرفَها الآخرون لديه.

دأبتُ في مرضِ موته أنْ أقرأ على مسامعه القرآن كلّما جلستُ إليه، وكان ذلك ظُهر كلّ جمعة، وحدثَ أنِ انشغلتُ عنه ذاتَ مرّةٍ فقالت لي أختي أسماء الّتي تسكن بالقرب منه، إنّه ظلّ ينتظرني طوال اليوم حتّى أزورَه وأقرأ له.

عندما كبر ومات أكثرُ مَنْ هم في جيله، كما قال عمرو بن معديكرب الزّبيدي:

ذهبَ الّذين أُحبّهم

وبقيتُ مثلَ السّيفِ فَرْدا

كان يركبُ حِماره خارجًا من بيته في (بيادر عجرمة شَماليَّ جرش، ويهبط الجبل إلى الوادي حيثُ المزارع، فيَشغل نفسه ببعضِ العمل فيها مع أنّه كان هَرِمًا، وأحيانًا يجلسُ فقط ليتأمّل الأشجار الّتي نمت من ماء يديه، والتّراب الّذي أينع من صُنع كَفّيه. حتّى تُوفّي عام (٢٠٠٨م) رحمه الله.

رمّزته هو وجدّي حُسين في رواية يا صاحبي السّجن؛ في المقطع الّذي يقول: «حدّقتُ في الأفق الّذي امتدّ فوق البحر،

كانت الغيوم تبدو من خلال النّجوم وِشاحًا ناصِعًا. ليس بشَفَق ولا غَسَق، فلم يكن الفجر قد بزغ ولا اللّيل في أوّله، كنتُ ما بينهما، وكان القمر قد اتّسق، بقيتُ أمشي مدفوعًا بقوّة غامضة نحو البحر، شعرتُ بأنّ قدميّ تتحرّكان لا إراديًّا، وأنّ يديَّ ترتفعان إلى مستوى صدري كما لو أنّ أحدهم كانَ يقودني، وأيقنتُ أنّني أسير إلى النّهاية، وأنّ في النّهاية كُلَّ الإجابات. قطعتُ الشّاطئ، ولمستْ قدماي برودة الماء، قال الماء لي: أخيرًا وصلت. سمعته يقول: كم من أناسٍ قبلك ضلّوا وما عرفوا إلى الماء سبيلاً!! هنيئًا لك، سأقودك إلى (صالح) و(حسين) وهما كذلك إليك بالأشواق، وينتظرانك على قَدَر».

جدّي صالح، عام ٢٠٠٤م تقريبًا

جدّتي فاطمة:

وُلِدتْ عام (١٩٣٥م) آخر أجدادي موتًا، مع أنّها لم تُعمّر طويلاً، علاقتي بها كانت استثنائيّة فقد كنتُ أزورها بعدَ موتِ جدّي، وكانتْ لديّ سيارة (جيب) كبيرة، ولم تكنْ تستطيع وحدها أنْ تصعدَ فتجلسَ في المقعد الأماميّ، فكنتُ أحملُها بين يَدَيّ برفقٍ وأُجلِسها فيه، وكنتُ أفسّحها بين الحقول والمُدن، نتحدّث في الطّريق، وكنتُ أعرفُ ما يسرّها من الحديث، فأحدّثها به، وكانتْ تأنسُ لذلك أُنسًا كبيرًا،

وكنتُ أحيانًا أذهبُ بها إلى دور بناتِها (خالاتي)، فيجتمعْن بها، وكنتُ أحيانًا آخذها إلى مطعمٍ لكي تأكل، وكان أكل المطاعم الفاخر لا يُعجبها كثيرًا، فلا تأكل إلاّ ما تستسيغ، فكففتُ بعدَ فترةٍ، ولم أقطعْ زيارتها، ولا التّطواف بها حتّى ماتت.

ولّما عمل جدّي في السّعوديّة ربّتْ أبناءَها الّذين كانوا (١٤) ابنًا وحدَها، ونهضتْ على رعايتهم بمُفردها. وكانتْ تجمع أحفادَها ونحن صِغارٌ وتُقيم لهم مسابقات في حفظ القرآن، والمعلومات العامّة، وكان بعضُ خالاتي هُنّ مَنْ يُعدِدْن أسئلة المعلومات العامّة هذه، فقد كانتْ جدّتي أُمّية، ولقد فُزتُ في إحدى مسابقات القرآن مرّة وحصلتُ على جائزةٍ في مظروف مُغلَق، فلمّا فتحتُه وجدتُ داخله دينارًا ورقيًّا جديدًا، فلمعتْ للمعته عينايَ. لقد تعلّمتُ منها احترام العِلم، واحترام النّاس، والأناقة والتّرتيب، فقد كانتْ أشدّ ما تكون حرصًا على النّظافة، فلم تكنْ تسمح في أرجاء البيت ولا في أوانيه أنْ تجدَ ذرّة غُبارٍ واحدة.

في الجمعة الّتي اعتدتُ فيها المرورَ بها وأَخْذَها في فُسحة، نُقِلتْ إلى المستشفى فجأةً دون سابقِ إنذارٍ من عجزٍ أو مرض، وماتت فيه عام (٢٠١١م)، وكانتْ تدعو أنْ تموتَ

صحيحةَ الجسم، وتَمّ لها ما أرادتْ، وكأنّها كانت تدعو بما دَعا به الشّاعر في قوله:

يا رَبّ لا تُبْقِني إلى أَمَدِ

أَكُونُ فِيهِ كَلاًّ عَلَى أَحَدِ

خُذْ بِيَدِي قَبْلَ أَنْ أَقُولَ لِمَنْ

أَراهُ عِنْدَ القِيامِ: خُذْ بِيَدِي

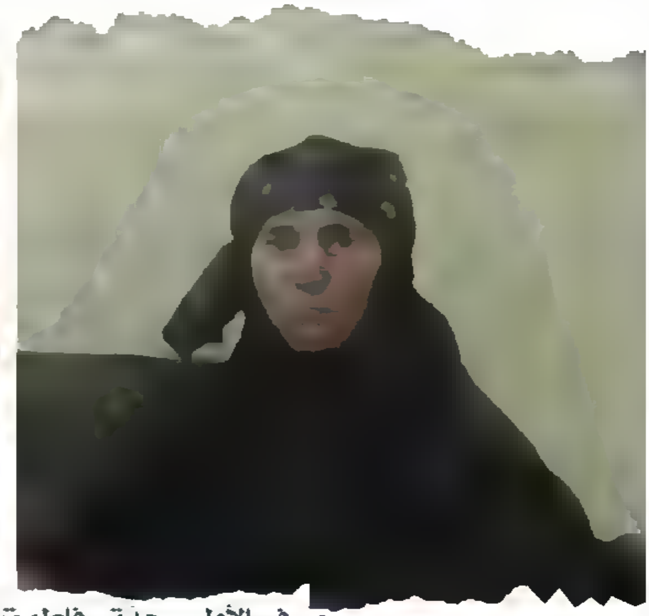

في الأولى، جدتي فاطمة، حوالي عام ١٩٨٥م، وفي الثانية جدي صالح وجدتي فاطمة حوالي عام ٢٠٠٠م

عائلتي الصّغيرة:

تزوّجتُ عام (٢٠٠٣م)، كنتُ أستاذًا في إحدى المدارس بِعَمّان، وقد مرّ عهدُ دراسة الهندسة في جامعة العلوم والتّكنولوجيا، وعهد العربيّة في جامعة اليرموك دون أنْ أظفر بامرأة، ولقد قضيت كثيرًا من أيام دراستي في اليرموك صائمًا حتى لا أقع في حبالة غزالة. ومع أنّ كثيرًا من زملائي في الدّراسة كانوا يعتقدون أنّ الظّفر بزميلةِ دراسةٍ كان يعني ظفرًا حقيقيًا وشجاعةً، إلاّ أنّه كان يتطلّب أمورًا كثيرةً لم تكنْ لديّ، كنتُ عاشِقًا بلا شَكٍّ أيّام الهندسة، فإذا اجتمع الشّعر والشّاعريّة إلى العمر المتوقّد فلا بُدّ أنْ يكونَ العِشق أحرّ ما يكون، ولكنّ مسؤوليّات الزّواج – وأعني المادّيّة منها على وجه الخصوص - لا يُمكن أنْ يقوم بها طالبٌ لا يزال على مقاعد الدّراسة، فلمّا عملتُ في الهندسة عامَين، وتركتُها للعمل في التّعليم، كان لا بُدّ من البحثِ عن رفيقةِ دربٍ من جديد.

رأيتُها ذات مرّة في إحدى أروقة المدرسة، التقَينا قدرًا، لم يكنْ حُبًّا من أوّل نظرةٍ على رأي علي محمود طه حينَ قال:

الْتَقَتْ عَيني بِهِ أوّلَ مَرّةْ

فعرفتُ الحُبّ من أوّل نَظرَةْ

وإنّما لمعث في تلك اللّحظة نجمةً في الطّريق المُعتِمة الّتي كنتُ قد قطعتُ شوطًا طويلاً في البحث فيه عن شريكة حياة. كانت تحفظُ القرآن، ودرست العربيّة في جامعة آل البيت مع أنّ مُعدّلها في العلميّ كان يُؤهّلها دخول كلّيّة الطّب أو الهندسة، لكنها اختارتِ الأشرفَ والأجلّ لتخدمَ لغة القرآن، فاتّفق هذا الهدف عندها مع ما كرّستُ له حياتي ونفسي، ثُمّ جاء اسمُها (زهراء) فساقَني إليها مُختارًا كما يسوقُ البدر سائر السّحاب. وتزوّجتُها فما رأيتُ منها ومن أهلها إلاّ كلّ خيرٍ، وكانت رفيقةَ دربٍ على الحقيقة، صعدتْ بي وبها في الدّروب العالية السّامقة.

في بيتنا الدّافِئ، ومعي أكملتْ دراسة الماجيستير في العربيّة، ثُمّ لمّا أنهيتُ الدّكتوراة، سجّلتْ للدّكتوراة وتخرّجت في تخصّص اللّغة عام (٢٠١٥م).

كنتُ أستشيرها في كلّ شيءٍ، حتّى في القصائد الّتي سألقيها في المهرجانات، وقد رافقتْني في أمسياتي كلّها، وكُنتُ أستنير برأيِها في أدائي بعدَ كلّ أمسية، ولم تكنْ تبخل بذلك. وحينَ ولجتُ عالَم الرّواية عام (٢٠١٢م) كان لها الفضل الأكبر في أنْ تؤمن بي، حينَ كانت تقرأ المُقدّمات النّثريّة

لقصائدي قالت لي ذات مرّة: إنّ نثركَ لا يقلّ جَمالاً عن شِعركَ إنْ لم يفُقه، فَلِمَ لا تكتب الرّواية؟! وظننتُ وقتَها أنّ رأيَها هذا مُجاملةً لي لا أكثر، فلم أكترث، فلّما نبتت في رأسي فِكرة كتابة رواية (يا صاحبي السّجن)، وكتبتُها بشاعريّة مُطلَقة، عرفتُ أنّها كانت مُحقّة!

استشرتُها في أسماء رواياتي كلّها، فلم أقطعْ باسمٍ إنْ لم يجدْ في قلبِها وِفاقًا، فلمّا كبر الأولادُ قليلاً أدخلْناهم في دائرة المشورة، وأذكر أنّني كتبتُ حوالي عشرة أسماء لرواية (حديث الجنود)، وناقشْنا الأسماء في العائلة اسمًا اسمًا، حتّى انتهينا إلى الاسم الّذي صارَ لها. وأمّا كتاب (هذه سبيلي) الّذي تقرؤون صفحاته هذه، فقد كان مِن اقتراح ابنتي (فاطمة). ومع أنّه كان هناك أكثر من عشرين اسمًا مُقترحًا إلاّ أنّني كلّما كتبتُ صفحةً أو فصلاً في هذا الكتاب أيقنتُ أنّ (فاطمة) اختارت أفضل اسمٍ ممكنٍ له على الإطلاق، وتلك نعمةٌ من الله وفضل.

أنا وزهراء أيام الخطوبة، التقطت في جرش عام ٢٠٠٣م

أنجبتْ لي (زهراء) ابنَين وابنتَين؛ (الحَسن) و(الحُسين). (وفاطمة) و(أميمة). وقد أخذوا عنّا العربيّة إلى حَدّ كبير، فأتمّتْ فاطمة حفظَ القرآن وهي في الصّفّ التّاسع، وأتمّ (الحسن) حفظ الأجزاء الخمسة الأولى، وحفظتْ (أميمة) عشرة أجزاء. وأمّا حُسين فما زال صغيرًا، وإنْ كان بإمكانك

أنْ تسمعه يصدح ببعضِ الأبيات في غفلةٍ منّا أو منه.

مع العائلة في تركيا عام ٢٠١٩م، من اليمين: فاطمة، أميمة، وأمامها الصغير حسين، زهراء، أيمن، حسن

ولقد دأبتُ حينَ كنتُ أشاركُ في الأمسيات الشّعريّة على أنْ أتدرّب على القصيدة بإلقائها أمام المرآة أكثر من مرّة، ثُمّ ألقيها على مسامع العائلة، وبعضُهم لم يكنْ عمره يتجاوز السّنة أو السّنتَين، كنتُ أشعرُ أنّ ترداد حروف العربيّة على مسامع الأطفال يُؤثّر على حُبّهم وتشرّبهم لها عندما يكبرون، وقد كان. وكثيرًا، بل لم يخلُ يومٌ تقريبًا إلاّ وسمع منّي الأولاد آيةً أو بيتًا من الشّعر يخرجُ عفو الخاطر، أقول لهم: تمتلئ جوارحي بالعربيّة حتّى تفيض، فإذا سمعتم بيتًا فاعلموا أنّه تَدَفّق بعدَ امتِلاء. وكثيرًا ما كانوا يسألونني - أو

دون أن يسألوني - عن معنى ما يسمعونه منّي من شِعر، فأشرحُ لهم، فيلمسون جمال المعنى وتأثير الصّورة على نفوسهم وقلوبهم، فيدركون - دون أنْ أقول لهم ذلك – عَظَمةَ العربيّة وسِحرها.

لمّا صارتْ (فاطمة) في الخامسة و(الحسن) في الثّالثة، بدأتُ أقرأ لهم القصص في المساء إلى أنْ يناموا، ربّما لم يكونوا يُدركون تمامًا معاني ما أقرأ، وإنْ كنتُ أختار لهم ما أراه مُناسِبًا من قصص الأطفال، لكنّني بعدَ ذلك بدأتُ أخترع لهم القصص في التّوّ، وأقرؤها لهم من عقلي، وأقوم بتمثيلها من خلال أدائها وتنغيم أصواتِ أبطالها؛ حتّى أوسع مخيلتهم، وكانوا يتفاعلون بالضّحك أو بالوجوم أو بالخوفِ أحيانًا، لأنّني كنتُ أجول في الغرفة على مرمى أبصارهم وأُسهِب في الأداء صوتًا وحركةً!

ملأتْ (زهراء) عليّ وِجداني، ولوّنتْ أيّامي، وآمنتْ بي، ولقد كنتُ في هذه المرحلة – وخاصّة مرحلة بداية الرّواية – محتاجًا أشدّ الاحتِياج إلى مَنْ يؤمن بي، ففعلتْ، وكانتْ هي الّتي دفعتْني قُدُمًا في دروب الرّواية الصّعبة، كتبتُ لها عددًا من القصائد، قلتُ في إحداها:

زَهراءُ زَهراءُ.. ما مَرَّتْ على شَفَتِي

إلاّ وأشْرقَ مِنْها حاضِري وغَدِي

ذَبَحْتُ حُزْني على أَقْدامِ قاتِلَتِي

وقُلتُ للغدِ: أنتَ الآنَ طَوْعُ يَدِي

فمرحبًا بالّتي لو نظرةً بَعَثتْ

مِنْ ساحِرِ الطَّرْفِ ما أبقتْ على جَلَدِي

يا طائِرًا ذَرْذَرَ الأزهارَ بينَ دَمِي

وَدَارَ مثلَ رَفيفِ الحُلمِ في خَلَدِي

كُلُّ الجَمالِ دِمَشْقِيٌّ فَمَنْ وُلِدَتْ

في غَيْرِهِ فَهْيَ لم تُولَدْ ولم تَلِدِ

لم يتوقّفْ إيمانُها بي، وبحروفي يومًا، وبدأتْ تحثّني على

ارتِياد أماكن جديدة في مسيرة كتابتي، فقالت: لا بُدّ من الانطلاق إلى العالَميّة، ولا يتحقّق ذلك إلاّ بترجمة أعمالك، فإنْ توافر لنا مَنْ يفعل ذلك فسنسعى إليه، ولكنّنا على أيّة حال لن ننتظر حتّى يأتوا إلينا، وبالتّالي لا بُدّ من أنْ تقتحم عالَم الدّراسة في الغرب، وتعيش أحوالَهم وتُعايش مُثقّفيهم ومُترجِميهم حتّى تخطو في هذا الدّرب خُطوةً إلى الأمام. وها نحن نفعل بعونِ الله.

في مطلع عام (٢٠١٩م) رافقتني فاطمة إلى تركيا من أجل توقيع عقد مع دار نشرٍ معروفة لترجمة رواية (يسمعون حسيسها) ورواية (أنا يوسف)، فأخَذَتِ العقد قبل أنْ أوقّعه وقرأته وأبدت ملاحظاتها، ولم أكن لأوقع العقد دون موافقتها!

بعد اعتقالي أواخر عام (٢٠١٦م) بسبب رواية (حديث الجنود) وخروجي بجروحٍ ما في زاويةٍ مُعتمةٍ في القلب، اقترحت زهراء أنْ أذهبَ خارجَ هذه الحدود لأريح فِكري وقلبي، فحجزت تذكرةً لي إلى البوسنة والهرسك، وكان الهدف أنْ أنقطع عن بعضِ الأذى الّتي أواجَه به في بلدي، وأنْ أتابع الكتابة بهدوءٍ في رواية (المسيح)، وكنتُ قد أنهيتُ الجزء الأوّل منها، وكثيرًا من الجزء الثّاني، وهناك في

طبيعةٍ ساحرةٍ وخلاّبة، وبين أحضان الثّلج الّذي يُغطّي قمم الجِبال، أتممتُ على أحسن ما يكون التّمام الجزء الثّاني من الرّواية.

لم تتنكّب (زهراء) عن ندوة لي أو محاضرةٍ أو أمسية أو توقيع كتابٍ تكون قادرةً على الحضور إليه مُطلَقًا، وكانت ترمق هذا النّجاح الّذي أنا فيه - بحمد الله - كأنّها هي الّتي تحقّقه لا أنا!

سمعتْ كلّ أشعاري. وقرأتْ كلّ رواياتي، وكتبتْ عنها بلغةٍ رشيقةٍ مُحبّة لكنّها موضوعيّة، وذلك ما أريدُه من رفيقةِ دربي؛ أنْ تُرشدني، وأن تدلّني على أخطائي، وتُصلح من هفواتي.

تحمّلتْ أمزجتي، فإنّ الدّخول في عالَم الرّواية أمرٌ لا يعرفُ مصائبه إلاّ مَنْ عاينه أو عاناه، فقد كانتْ أمزجتي تتقلّب بتقلّب أمزجة أبطالي، فتارةً تراني أُهرَع في خطواتي كالمجنون، وتارةً تراني أكلّم نفسي، وتارةً أردّ على مَنْ يسألني بإجاباتٍ غريبة... وكانتْ تعرفُ ذلك، بل وتقول لي قبل أنْ أبدأ من خلال وجومي أو من شرودي أو كثرة حركتي، أو خمودي إنّني مُقبلٌ على نَصٍّ جديد!

اليوم؛ هذه السّطور القليلة من أجلها؛ أنا أدينُ لها بالفضل في كثيرٍ من الأمور يصعبُ عليّ حصرُها.

مع زهراء والحسين في ساحة مسجد قرطبة في الأندلس عام ٢٠١٨

الفصل الثالث
القراءة

مرّتْ على ساحِي دُهورٌ وانْقَضَتْ

وَبَقِيتُ وحدي سيِّدَ الأحْياءِ

سُمّيتُ فخرًا (بالكِتابِ) وخالِقي

سَمّى (الكِتابَ) فَأَشْبَهتْ أَسْمائي

لولايَ ما عرفَ القرونَ وسِرَّها

أَحَدٌ ولا أَصْغَى إلى أَنْبَائي

مِنْ كَنْزِيَ اغْتَرفَ الغَنِيُّ ونَالَهُ

مَنْ كانَ يَقْصِدُهُ مِنَ الفُقَراءِ

فَاقْرَأْ سُطُورِي إنْ أَرَدْتَ مَكانةً

فَالمَجْدُ يَحْني الرّأسَ للقُرّاءِ

لولا عَظِيمُ الأمر في : (إقْرَأْ) لَمَا

بَدأتْ رِسالَتَنا بِغارِ حِراءِ

إنّ القراءَةَ للنّفوسِ حياتُها

كالجَدْبِ يُخصِبُ من فراتِ الماءِ

فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ آيةً ترضَى بِها

إنّ (الكتابَ) لآيةُ العُظَماءِ

تمهيد:

رأيتُ العالَم من نافذة كِتاب

القراءة فنّ، فنّ مُكتَسب، لقد قالوا عن الشّعر الذي يتنزّل به

وحيُ الشّعور إنّه صَنعة؛ أفلا تكون القراءة حِرفةً يُمكن اكتسابها، وتغذيتُها!! القراءة كالرّياضة تحتاج إلى لياقة حتّى تُثمر وتؤتي أكُلَها... حين تركض مئة متر ربّما تلهثُ في البداية، تُفكّر بألاّ تعود إلى الرّكض مرّة أخرى، تُقسم أنّ المسافة طويلة، وأنّ طاقتك لا تحتمل... والقراءة حالةٌ مُشابهة، تُمسك الكتاب بين يديك، ربّما ترميه خلف ظهرك بعد ربع ساعة، تقول: أشعر بالنّعاس كلّما قرأت، لا أفهم شيئًا. لا أدري لماذا يُتعب النّاس أنفسهم بالقراءة؟! هذا هو شعور الّذي لا يملك اللياقة في القراءة. الصّبر حلٌّ لأولئك الّذين يستعجلون النّتائج، لا يُمكن أن تقطف الثمرة حال غَرْس البذرة. الّذين يشعرون بالملل من أوّل كتابٍ قرؤوه عليهم أن يُقاوموا هذا الملل بالتّصميم على المتابعة، وحينَ يُكره الإنسان نفسه على ما لا تشتهي في البداية ستأتيه هذه النّفس - في النّهاية - بما يشتهي، وليعلم القارئ، أنّ الفكرة - كما يقولون - ثمرةُ إدامة النّظر؛ فعلى القارئ أن يُديم النّظر فيما يقرأ حتّى يحوز الفكرة الّتي لها من المُتعة ما يفوق المُتع الحسّيّة مجتمعةً.

والقراءة لا تكون إلاّ عن تأمّلٍ وتدبّر، ولا تهبُ صاحِبَها الحكمة إلاّ إذا سبقَها فِعلُ التّأمّل هذا، وأمر الخلوة تلك، فإنّ نبيّنا الخاتَم ما نزلت عليه: (اقرأ)، إلاّ بعدَ أنْ أخذَ من التفكّر

في خلق السّمواتِ والأرضِ حَظّه، ومن التّأمّل في حال الكون قِطّه، ومن التّدبّر في آيات الله المبثوثة في كلّ شيءٍ نصيبَه، فجاءتْ (اقرأ) لتكون نهايةً لذلك لا بِدايةً لها، ونيجةً لا سببًا، فالقراءة توقيعُ ما اعتمل في الذّهن، وما أُعمِل في الفِكر، وهي ذروة انقِطاع المرء لنفسِه ليرى ما يكون من أمره وأمرِ غده. وهي جائزة العِلم الإلهيّ، لا يُعطيها الله إلاّ لمن بدأ الخُطوة الأولى وهي التّبتل في محراب التّفكّر، إنّها إلى ذلك جائزة اليقين بعدَ الشّك: "قد نرى تقلّب وجهكَ في السّماء"، وهديّة الثّبات بعد الحيرة: "ولولا أنْ ثبّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إليهمْ". وأعطية الهُدى عن ضَلال: ووجدك ضالاً فهدى". وما هذا اليقين، ولا ذلك الثّبات والهُدى إلاّ آخر منازل (اقرأ) وتجلّياتها.

والقراءة إجابة سُؤال الوجود، إنّ في الوجود أسئلةً كُبرى تظلّ معلّقة كأنّها على قنّ جِنّ، لا يُنزلها من عَليائها غير القراءة. القراءة إجابة ما لا يستطيع العقل الإجابة عنه، فللرّوح حاجاتُها وأسئلتُها كذلك، وحينَ يعجز العقل تتقدّم الرّوح، وحينَ تأتيكَ اقرأ سماويّة عُلويّة تجدُ فيها الرّوج إجابتَها.

هناك مَنْ يقرأ من أجل المتعة، فالقراءة بهذا وسيلته

للاستمتاع، وهناك من يقرأ من أجل أن ينمّي عقله وفكره وقدراته، ويرتقي بها، في رأيي أنّ الأمرين مطلوبان معًا، نقرأ لنستمتع ولكي نصل إلى ما نريد.

جيلي - جيل التّسعينيّات - لم يكن في أغلبه قارئًا، كان من اللافت للنّظر والمُثير للاستغراب أن ترى طالبًا جامعيًا، يصعد الباص المُتوجّه إلى الجامعة وفي يديه كتابٌ يقرؤه، كان ذلك أمرًا مُستهجنًا إلى حدٍّ ما، وكثيرًا ما كنتُ أسأل أحد أبناء جيلي مثلاً: ماذا قرأتَ هذه الأيّام؟! فيردّ باستخفاف: أنا لا وقتَ لديّ لأقرأ... ووقتي لا يكفي لقراءة كتبي الجامعيّة... بالطّبع هذا جواب العاجز والجاهل معًا، كثيرون منّا في تلك الأيّام لم يكنْ - لجهله - يُدرك أنّ القراءة سياحةٌ في عقول الآخرين، وأنّها تفتح لك النّوافذ على المُطلَق، وأنّها ترتقي بك في آفاق لا يحدّها حدّ، وأنّ تلك الكتب الّتي تُسمّيها جامعيّة ليس لها من فضلٍ سوى أنّها وسيلتك للحصول على الشّهادة الّتي تخوّلك من بعدُ الحصول على وظيفةً لا أكثر.

بالنّسبة لجيل اليوم أعتقد أنّ مُلهياته عن القراءة أكثر من جيلي في التّسعينيّات، ولكنّه - للحقيقة - يقرأ أكثر من ذلك الجيل، ربّما أعزو السّبب إلى وجود وسائل الاتّصال الحديثة

وشبكات التّواصل الاجتماعي الّتي عرّفت هذا الجيل بتجارب القرّاء في الغرب وأمريكا، فنوادي القراءة هي موضةٌ انتقلت من الغرب إلينا بسبب الانفتاح على الآخر الّذي وفّرته وسائل التّكنولوجيا الحديثة. أنا أعتقد أنّها موضة جميلة ومحمودة، وجذبت كثيرًا من القرّاء إلى ساحتها، وأتمنّى ألاّ تكون عابرة، وأن يستمرّ هذا الاحتكاك اللطيف مع الحرف، وهذا الاشتباك الجميل مع الكتاب.

عُزوفٌ الشّباب اليوم عن القراءة كان يُقابله عزوفٌ أشدّ من جيل العَقدين السّابقَين؛ التّسعينيّات وبداية القرن الجديد، أرى أنّ هذا الجيل انجذب إلى القراءة - وإن بدرجات بسيطة ومتفاوتة - أكثر من سواه. لكنْ فيما لو أردنا أن نشير إلى بعض الأسباب الّتي جعلت القراءة عاملاً طاردًا للشباب لا جاذبًا لهم، فأهمّها: الثقافة الاجتماعيّة الّتي ليس في قاموسها فكرة: أنّ القراءة مثل الخبز والماء لا يُمكن الاستغناء عنها؛ هذه الفكرة أشدّ وضوحًا وتطبيقًا في الغرب، إنّها إذًا ثقافة مجتمع، نحن نحمل - بالأعمّ الأغلب - ثقافة مُغايرة، ثقافة: وماذا سأستفيدُ لو فتحتُ كتابًا؟!

حينَ تصبح ثقافة تنشئة النّشء والجيل على القراءة مثل تنشئتهم على الطّعام والشّراب، عندها سنصبح قادة؛ ومِمّا لا

شكّ فيه، أنّ القادة هم القُرّاء؛ اقرأ تكنْ قائدًا؛ فالقراءة مصباح الدّجى، ومنارة الطّريق، وهادية الظّلمات!!

لماذا نقرأ؟

طرحتُ هذا السّؤال على نفسي منذ أنْ ولجتُ غابات القراءة. سؤالٌ يبدو غريبًا، إذ تبدو الحياة طبيعيّة دون قراءة، ها نحن نعيش، نتوالدُ، نعمل في كلّ اتّجاه، نأكل، ونموت؛ ما حاجتنا إلى القراءة إذًا؟ ما الّذي سيتغيّر لو نحن رَمَينا الكتاب خلفنا، وذهبْنا بعيدًا في مسارب الحياة ومجاهلها؟ ما الّذي سينقصنا إنْ لم نقرأ؟ وما الّذي ستُضيفه القراءة إلينا، نحن الشّعوب الّتي تتكاثر بسرعةٍ كسرعة انقِسام الخلايا، وننمو مثل الفُطريّات في كلّ مكان!!

هل سألَ أحدُنا نفسَه: لماذا كانتْ أوّلُ كلمةٍ في الوحي الخالد، الّذي هبطَ به جبريل من الأعالي إلى أعالي روح الرّسول الأعظم: (اقْرأ)؟ لِمَ هذه الكلمة بذاتِها القائمة، بجسدها الباذخ المُوغِل في الغُموضِ والكَشْفِ في آن؟ لِمَ تتدفّق هذه الكلمة من فيوض السّماء إلى قلبِ نبيٍّ توّاق في دينِ سيكون الخاتَم، وفي رسالةٍ ستكون الباقية، وفي كتابٍ سيكون المُهَيمن؛ لِمَ هذه الكلمة دون سِواها؟ سؤال يبدو

بدهيًا قابِلاً للتّأويل أوّل الأمر، وصعبًا إشاريًّا غير قابلٍ للتأويل بعدَ ولوجِ بوّابته المفتوحة على المُطلَق!!

لكنْ لحظة، السّؤال الّذي تبدو له وجاهة أكثر من (لماذا نقرأ؟) هو: ما الّذي يدفعنا إلى القراءة؟ أولئك الّذين تتخطّفهم الكتب ما الّذي وجدوه فيها حتّى ملأتْ عليهم كِيانَهم ووقتهم وتفكيرهم؟ ما الّذي جَذَبهم في تلك اللّيلة المُوغِلة في العتمة لكي يتخلّوا عن النّوم اللّذيذ في أشدّ حاجتهم إليه من أجل أنْ يُتِمّوا قراءة النّص المُتّقد الّذي يحملونه بين أيديهم؟ ما السّحر الّذي ينطوي عليه ذلك النّصّ حتّى يصعب عليهم مُفارقته؟

لكنْ لحظةً مرّة أخرى؛ السّؤال الّذي يبدو أكثر منطقيّة من السّؤالَين السّابِقَين؛ هو السّؤال الّذي يقف على الضّفّة الأخرى: لماذا لا نقرأ؟ لماذا لا نُدمن القراءة؟ لماذا لا تُصبح القراءة ثقافةً يغرق فيها المجتمع كلّه بأطيافه كافّة؟ لماذا لا يُصبح مشهد الأفواج البشريّة الّتي تركب المُواصلات العامّة وهي تحمل كتابًا مشهدًا مألوفًا؟

العقّاد يقول: (أهوى القراءة لأنّ عندي حياةً واحدةً في هذه الدنيا، وحياة واحدة لا تكفيني، ولا تُحرّك كل ما في

ضميري من بواعث الحركة. والقراءة دون غيرها هي التي تعطيني أكثر من حياةٍ واحدةٍ في مدى عمر الإنسان الواحد، لأنها تزيد هذه الحياة من ناحية العمق، وإن كانت لا تُطيلها بمقادير الحساب).

ومعناه أنّه بالقراءة يعيش الإنسان أكثر من حياة، ومنذُ خُلِق الإنسان كانت فكرة الخلود هاجِسًا لا يُفارقه، وعلى إيقاع نغمات هذا الخلود السّاحرة استطاع إبليس أن يُغويَ آدم ويُغريه: "قال هل أدلّك على شجرة الخُلدِ ومُلْكٍ لا يَبْلَى"، والقراءة نوعٌ من العروج إلى ذلك الخلود الخفيّ.

وماذا يعني أنْ تقرأ كتابًا جيّدًا؟ معناه أنْ تقرأ فيه كلّ الكتب المُختبئة خلفه، تلك الكتب الّتي انصهرت في عقل الكاتب ووِجدانه، ثُمّ قدّم شَهدَها المُذاب على شكلٍ سطور.

أنا أقرأ لأنّ العالَم الّذي أعيشُ فيه يعجّ بالفوضى واللامنطق، الكتاب يجعلني أعيشُ في عالَمه، عالَمه حتّى لو كان خياليًّا يبدو أكثر منطقيّة من واقعنا المريض.

أنا أقرأ لأنّ لديّ في اليوم أربعًا وعشرين ساعةً فحسب، وإنْ لم أقرأ، فستسمرّ الحياةُ بالضّياع، وستتدفّق باتّجاه

الخُواء.

أنا أقرأ لأنّ التجربة علّمتْني أنّ وقتَ القراءة هو الوقت المُكتَسَب وما سِواه ضائعٌ أو أكثره يذهبُ سدًى وبلا طائل.

أنا أقرأ لأنّ التّجربة علّمتْني أنّ أرقى المُتع الحسّيّة هي تلك الّتي تخلو فيها إلى كتابٍ يتجاوز بكَ حدودَ الزّمان والمكان.

أنا أقرأ لأنّ لي عينَين، أرى بهما عالَمي المحسوس الّذي يبدو مُتناهِيًا في الصّغر، والكتاب له آلاف العيون الّتي تفتح لي النّوافذ على عوالمَ لا مُتناهية.

أنا أقرأ لأنّني أريدُ أنْ أتجوّل في عقول الآخرين، وأدخل دروبهم الّتي دخلوها، وأبيتَ في المَنامات الّتي باتوا فيها، وأسهر في اللّيالي الّتي سهروها، وأستمتع بالمناظر الّتي استمتعوا بها.

أنا أقرأ لأنّني أريدُ أنْ أتخلّص من بعض الحماقات الّتي أرتكبها أحيانًا، أريد أنْ أتطهّر من لوثة اللّهاث وراء كلّ شيءٍ بلا جدوى، أريد أنْ أتخلّى عن بعض السّذاجات الّتي تُوقعنا فيها الحياة بحُكم علاقاتنا مع الآخَرين.

أنا أقرأ لأنّ الكتاب أفضلُ من كثيرٍ من البشر، أكثرُ حكمةً منهم، أشدّ وفاءً، وأصدقُ لهجةً، وقادرٌ على أنْ يفهم تناقضاتي أكثر منهم، يعرف كيف يُبكيني ويُضحكني، وكيفَ يُميتني ويُحييني.

أنا أقرأ لأنّه قد لا تسنح لي فرصةً لألتقي كاتبي المُفضّل إلاّ عبر أوراقه، ذلك الكاتب الّذي يخطفني منّي، وأتبعُ رائحة الكلمات خلفه مشدوهًا، لأنّه يعرفُ كما قال مُظفّر النُّوّاب: "تنويني وشَدّاتي وضَمّي وجُمُوعي"!

أنا أقرأ لأنّني أعتقد أنّ في القراءة غموضًا ومغامرة، غموضًا مثل من يدخل غابةً في اللّيل فيها ألفُ سِرّ، ومغامرة مثل مَنْ يمشي في حقلٍ مزروعٍ بالألغام. على القلب أنْ يتوقّف في الدّقيقة سبعين مرّة من أجل أنْ يلتقط الأنفاس جرّاء ما يشعر أو يتوقّع.

أنا أقرأ لأنّني أرغبُ في مثل هذه السّنّ الّتي وصلتُ إليها أنْ أتخلّص من الأحكام الفقهيّة الجاهزة الّتي تربّيتُ عليها في الصّغر واكتشفتُ بالبحثِ والتّمحيص أنّها لم تكنْ صحيحة، وبي حاجةٌ مُلحّة أنْ أتخلّص كذلك من بعض الخرافات والأساطير، وأنْ يشاركني العقل الواعي في بناء

مُعتقداتي.

أنا أقرأ لأنّني أحببتُ أنْ أحرّكَ الماء الرّاكد في بُحيرة عقلي.

أنا أقرأ لأنّ القراءة هي حجر الاشتِعال بالنّسبة للكتابة، ولا يُمكن أنْ أكون كاتِبًا جيّدًا ما لم أكنْ قارِئًا جيّدًا.

أنا أقرأ، لأنّ مُتطلّبات جسدي قد أشبعتُ أو يُمكن إشباعها، أمّا متطلّبات العقل والرّوح والوِجدان فلا يُمكن أنْ تُشبَع، ولذلك أُبقي منارة القراءة مُضاءة، ونار المعرفة مُشتعلة.
"فأنا بالرّوح لا بالجسم إنسانُ".

أنا أقرأ لأنّني أريدُ أنْ أتخلّص من الموت الّذي يعيشُه الكثيرون، ولأنّني أُدركُ أنّ الفرقَ بين الّذين يقرؤون والّذين لا يقرؤون هو الفرق ذاته بين الأحياء والأموات.

أنا أقرأ لأنّني لا أريدُ أن أحيا الحياة الّتي أرادَها الآخَرون لي، ولا أنْ أسير في الدّروب الّتي سارَها النّاسُ أمامي، ولا أن أتوقّف في المحطّات الّتي توقّف فيها كلّ النّاس، فلديّ حياتي الخاصّة، ودروبي المُشتهاة، ومحطّاتي المُنتقاة.

أنا أقرأ لكي أكون حُرًّا في زمن العبوديّة المعرفيّة والتّبعيّة الفِكريّة.

أنا أقرأ لكي أتجدّد في زمن الجمود، ولكي أتقدّم في زمن الرّجوع، ولكي أتعملقَ في زمن الانهِيار.

أنا أقرأ لكي أُصقَل، فالذّهب لا يلمع دون صَقل، وأنا أقرأ لكي أشتعل، فالنّار لا تتّقد دون احتكاك.

أنا أقرأ لأنّ القراءة تُقرّبني من الرّسالة الّتي أحملها، وتُوصلني إلى أحلامي بأقصر الطّرق.

أنا أقرأ لكي أُشفَى من الجمود والفجاجة والتّقديس والعُزلة البائسة والإحباط واليأس والتّعصّب والعَمى والكبت والجوع.

أنا أقرأ لأنّني شَغوفٌ بالحقيقة، الحقيقة المُطلَقة، تلك الحقيقة المُستحيلة، لكنّ لذّة المعرفة تحثّني على أنْ أواصل البحث عنها؛ ولا شيءَ يفعل ذلك أفضل من القراءة.

يقول ألبرتو مانغويل في (المكتبة في اللّيل): "كلّ قارئٍ

يوجَد كي يضمنَ لكتابٍ مُعيَّن قَدْرًا مُتواضِعًا من الخلود، القراءة بهذا المفهوم، هي طقس انبِعاث".

وأخيرًا أنا أقرأ لأنّني مُدمن، أشعر بتهارشٍ فظيعٍ في عقلي، إنّني أحتاج إلى جرعةٍ يوميّةٍ ودائمةٍ منها لكي لا أموت، لكي لا تصدأ روحي، ولكي أضبطَ إيقاع الأفكار الّتي تبدأ بالتّلاطم والهياج في اللّحظة الّتي يطول فيها تناول الجرعة.

كيفَ أحببت القراءة؟

كان أبواي قارِئين، أبي لم يكفّ عن القراءة إلى اليوم في كلّ يومٍ، وقد شارف على الثّمانين. وأمّا أمّي الّتي لم تُتمّ دراسَتها فقد كانت مُلهمتي في هذا السّبيل، ربّما كنتُ على طرف الوعي البِدائيّ، من طفولة لا تتجاوز أربع سنين حينَ كنتُ أشاهدها في بيتِ جدّي في غرفةٍ طينيّة ذات نورٍ خافتٍ بمصباحٍ واهنٍ، تُمسِك بكتابٍ بينَ يدَيها وتحنو عليه كأنّه أحدُ أبنائِها، ويسقط ضوء المصباح الخافت على وجهها والظّلال على الكتاب فأشعر أنّني أمام قِديسة وأنّها في صلاة، هذا المشهد جعلني أفكّر حينَ كبرتُ قليلاً: ما الكتاب الّذي كان بين يديها، ولماذا تعامله كأنّه كتابٌ مُقدّس، ويبدو من هيئة انحناءَتها الخفيفة عليه أنّه أثيرٌ عندها إلى حدّ

كبيرٍ، هذه القداسة انتقلت إليّ دون أنْ تقول لي أمّي ذلك أو تُعلّمني إيّاه! أحببتُ بسببها القراءة وأنا بعدُ لم أدخل المدرسة حينما كنتُ أراها بتلك الهيئة جالسةً زمنًا طويلاً مع أنّ العائلة كان عددها قد ازداد وأعباءَها قد ازدادت كذلك. بعد أن كبرتُ قليلاً صارت تقرأ لي، بعد أن كبرتُ أكثر صرنا نقرأ معًا، الكتب نفسها والحكايات نفسها، حينَ صرنا نتبادل ما نقرأ ونتناقش فيه، كانت تناقشني وتضحك معي كصديق، زادَ ذلك من حُبّي للقراءة. حينَ صرتُ في العاشرة، كان عليّ أنْ أبدو مختلفًا قليلاً في النّقاش؛ هل استيقظ الكاتب في داخلي، وبدأ يُطلّ برأسه من الأعماق؟ متى حدث ذلك؟ أنا قلتُ في العاشرة؟ هو كذلك، ربّما قبل ذلك بسنةٍ أو بعدَها بسنة، صرتُ في خيالي بسبب ما قرأته أنا وأمّي أؤلّف الحكايات، تستمع لها وتضحك، وأحيانًا تظلّ صامتة، أسألها: لم تُعجبك النّهاية؟ تهزّ رأسَها، أعيدُ ترتيب الأحداث الأخيرة لتحصل أمّي على نهايةٍ مختلفة، حينَها فقط تضحك، وحينَها فقط أستمرّ في اللّعبة!

أسرني الكتاب منذُ العهد الأوّل، وأخذتْني القراءة إلى عالَمها المسحور منذُ الطّفولة المُبكّرة. في سوف قرأتُ (الشّياطين الـ ١٣) ومغامرات (تختخ) الّذي كنتُ أرى أنّه يُشبهني، و(نوسة) الّتي كنتُ أرى أنّها تُشبه أختي. في مصر قرأتُ كلّ مجلاّت (ميكي) الّتي وجدتُها في المدرسة أو مع

الطّلاّب أو في المكتبات، وكنتُ أجلسُ على كرسيٍّ حجريّ أمام عربة الذّرة المشويّة الّذي يقفُ صاحبها على زاوية الشّارع الّذي يمرّ من أمام عمارتنا، أتناول عرنوسًا شهيًّا منها، وأستمتع بقراءة هذه المجلاّت المُصوّرة. لا أدري إنْ تدخّل أبي بشكلٍ مقصودٍ أم لا، لكنّه – بالتّأكيد – كان يرى أنّني وأنا في الصّف الثّاني الابتدِائيّ قد كبرتُ على هذه القراءة المُتدهورة للمجلاّت المُصوّرة؛ ربّما سأل نفسَه: هذه المجلاّت والألغاز إلى أين ستقودُ الولد؟ فماذا فعل؟ أخذني إلى المكتبات الكُبرَى الّتي كان يغيبُ فيها لساعاتٍ طويلةٍ يقرأ ويبحث لرسالته في الدّكتوراة، وأنا أتنقّل كفراشةٍ حائرةٍ بين كُتُبٍ ضخمة لطلبة الجامعة لا أدري ما أقرأ!

حينَ عُدنا مع أبي من مصر في عام (١٩٨٠م) إلى سُوف، بدأتُ آكلُ ما أقرأ على الحقيقة، التهامٌ مع شغف مع احتراق داخليّ لا أدري كُنهه، صارَ الهروب إلى الكتاب أحد مُتَعي السّرّيّة، لم يكنْ هناك ما يُلهيني عنه سِوى درّاجتي واللّعب مع أطفال القريّة أحيانًا. لم تكنْ هناك هواتف ذكيّة ولا غير ذكيّة، ولم يكنْ هناك لا شاشات بلازما ولا حتّى شاشات، كانت شاشتُنا الوحيدة هي صفحةَ السماء. لقد كان حرماننا من هذه الأجهزة أحد أكبر نِعَم الله على جيلنا!

قرأت قبل العاشرة ما كتبَ (كامل كيلاني) و(أحمد عطيّة الأبراشي) للأطفال، وحفظتُ مُعظَم قصائد أحمد شوقي المُوجّهة للأطفال، وأكثر ما أثّر بي منها قِصّة (النّملة والمُقطَّم)، الّتي تقول نهايتها:

صاحِ لا تخشَ عظيمًا

فالّذي في الغيبِ أعظَمْ

وقصّة (الثّعلب والديك) تقول نهايتُها:

مُخطِئٌ مَنْ ظَنّ يومًا

أنّ للثّعلبِ دِينًا

ولقد تخيّلتُ كلّ الحوار الدّائر بين الحيوانات في قصائد شوقي كما لو كانت ماثلةً أمامي، وصنعتُ من هذا الحوار مشاهدي الخاصّة، ثُمّ واصلتُ. قرأتُ سلسلة قصص الأنبياء لعبد الحميد جودة السّحّار، وقرأتُ ما كان مُشتركًا في تأليفه بينه وبين سيّد قطب. ولم أعد أتذكّر اليوم أسماء هذه القصص المُشتركة، ولعلّ واحدةً منها كانت تتحدّث عن

(آدم)، وأخرى كانت تتحدّث عن (ناقة صالح). وكانت قصصًا مُصوّرة يظهر فيها أثر الاعتِناء فيما يُوجّه للأطفال.

فضلاً عن الحكايات الشّعبيّة السّائرة التي كان من المُعتاد أن نجدها في كلّ بيت كقصّة ليلى والذّئب، وسيرة بني هلال، وقصة الزير سالم، وقصّة عنترة بن شَدّاد، وغيرها.

إنّ تربيتي الدينيّة المُنضبطة الّتي تحدّثت عنها في السّابق لم تمنعني من أن أقرأ كل شيء. أبي كان أستاذي في هذا، كان يقول: «اقرأ دون قيود». حتّى إنّه في ذروة احتجاج الإسلاميّين في مصر في الثّمانينات على روايات نجيب محفوظ وبالأخصّ رواية (أولاد حارتنا) لم يمنعني أبي من أنْ أقرأ له. ثُمّ ذهبَ أبي منذ البدايات يُشجّعني على أنْ أقرأ الأدب الإنجليزي، وسمّى لي شعراء الإنجليز الخمسة المشهورين (بايرون، وشيلي، وجون ميلتون، وكيتس، ووردز وورث) لأقرأ لهم. وأبي نفسه ترجم لهم بعضَ قصائدهم ونقلها إلى العربيّة موزونةً على عَروض الخليل. ثُمّ حثّني بعد أنْ كبرتُ قليلاً على أنْ أنفتح على الأدب الغربيّ بكلّ ما أستطيع، وقد كنتُ قد قطعتُ الأشواطَ في الأدب العربيّ وصدرتُ عنها. وقد نفّذتُ نصيحته كما لو أنّني في سِباقٍ مع الزّمن لأقرأ لهم كلّ ما أقدر عليه.

عندما انتقلْنا من سوف إلى إربد، كنتُ في الحادية عشرة من عمري، كفّتْ ساحة الحنّاوي وأولاد الحارة عن مُطاردتي، أعني عن أنْ يكون لهم وجودٌ حقيقيٌّ، أو مجازيّ في عقلي، وانسحبوا إلى الظّلّ لصالح مرحلةٍ جديدةٍ، اتّخذتُ فيها أصدقاء جددًا لأنّني بعدُ حديث عهدٍ بإربد ولا أعرفُ فيها أحدًا ولا يعرفني أحدٌ. هذا الفراغ الاجتِماعيّ ملأتُه بصداقة الكتب، لم يكنْ مُصطلح (الكتاب الصّديق) مجرّد مُصطلحٍ خاوٍ من المعنى، كان مُصطلحًا مُتخمًا بالحقيقة البعيدة عن المجاز. وإذًا فلْيكنْ؛ تعالَي أيّتها الكتب الشّقيّة؛ إنّني إليكِ لبِالأشواق!

عندما كنتُ أعودُ من مدرسة الحلحولي، ثُمّ من مدرسة حمزة فيما بعدُ، وقبل أنْ أتناول طعام الغداء كنتُ أقصدُ مكتبةَ أبي، وأُهرَع إلى ديوان جرير. لا أدري لماذا كان (جرير) بالذّات، لا بُدّ أنّ أبياته الرومانسيّة قد حفرتْ في عاطفتي في تلك المرحلة فوجدتني أنقادُ نحوه: كنتُ أقرأ (يا حبّذا جبلُ الرّيان...) وكنتُ أنظر من نافذة المكتبة جهة الشّمال من بيتنا في (دار المغايرة) في أيّام الصّفاء فأُشاهد جبل الثّلج في سُوريّةَ يبدو ثوبَ عروسٍ واضِحًا، فأقول هل اختلفَ الجَبَلان؟! وأُتابع:

يا حبّذا جبلُ الرّيّان من جبلٍ

وحبّذا ساكنُ الرّيّانِ مَنْ كانا

وحبّذا نَفَحاتٌ من يَمانِيَةٍ

تأتيكَ من قِبَلِ الرّيّان أحيانًا

إلى أنْ أصلَ إلى ما يجعلني أقوم من موضعي طَرَبًا، وأنا أردّد:

إنّ العُيون الّتي في طرفِها حَوَرٌ

قَتَلْنَنا ثُمّ لم يُحيينَ قتلانا

يَصْرَعْنَ ذا اللُّبِّ حتّى لا حَراكَ به

وهُنّ أضعفُ خلقِ الله أركانا

أمّا رثاؤه لزوجته، فقد تخيّلتُ نفسي أبكي معه، وشعرتُ بصدقه، وهو يقول:

لولا الحَياءُ لَهاجَني استِعبارُ

وَلَزُرْتُ قبرَكِ والحبيبُ يُزارُ

لأجل ذلك ربّما أحببتُه، لرِقّته وصدقه وعذوبة موسيقاه. كان المتنبّي حاضِرًا، لكنّه كان يحفر في وجداني في منطقةٍ أخرى، ليسَ بينها وبين الرّومانسيّة صِلة، كان يحفر في ذلك الجزء المركوز على الأنفة والعزّة والإباء وعلوّ الغاية.

لقد كان شعوري وأنا أقرأ في ديوان جرير وأحفظُ وما تجاوزت الخامس الابتِدائيّ أنّني أختلفُ عن أولئكَ الّذين يُهرَعون إلى اللّعب فورَ عودتهم من المدرسة، ولا يدرون في هذه السّنّ مَنْ جرير ولا المتنبّي ولا أيّ شاعرٍ خارجَ ما أخذوه في كتبهم المدرسيّة، كانت القراءة توسّع الفارق الذّهني والشّعوريّ بيني وبين أقراني، وتجعلني أشعر بالتّفرّد، لربّما لم يكنْ هذا أمرًا جَيّدًا، لكنّ هذا - على أيّة حال - هو ما حدث.

في مكتبة أبي في هذه المرحلة كان شيءٌ آخَر يشدّني؛ أغلفة الكتب، أذكر لليوم رغم مرور ما يقرب من أربعين عامًا أنّني أُسِرتُ برؤية ذلك الشّيخ الوَقور ذي اللّحية البيضاء،

جالِسًا يتفكّر إلى مكتبٍ، وعن يمينه دواة حبرٍ، وفيها ريشةٌ يُمسكها بيُمناه وقد غَمَسها في الدّواة يتهيأ ليُسطّر فوق الرّقوق حروفَه، كان الشّيخ يبدو ساهِمًا، هيئته غامضة، أو هكذا تصوّرْتُه، من عالَمٍ لا ينتمي لنا، مُكبًّا على معشوقته، مُنقِطّعا لها عن النّاس، وغائِبًا في ذاته الّتي لا أعرفُ كيفَ تكون... لقد كان ذلك الشّيخ هو (المسعوديّ)، وكان ذلك الكتاب هو كتابه (مروج الذّهب).

اليوم يمكنكم أن تجدوا هذا الانبهار بأغلفة الكتب في رواية (تسعة عشر)، في النّصّ الّذي يقول: «منذ أنْ كنتُ في السّادسة وأنا عندي هذه الهواية، أعني هذا المرض، لم أكنْ أعرف في معمور الأرض مريضًا بالكتب مثلي، الأغلفة القديمة، رائحة الورق الأصفر، الزّوايا المُهترِئة، الخطوط الباهتة الّتي تشي بكلماتٍ غائمة، الكعب الجلديّ الأخضر الغامق، يكسر غموضَه لمَعانُ العناوين ذات الأحرف المُذهّبة، والصّفحات المَثنيّة لقُرّاء عابرين دَفَعَهم الفقرُ إلى أنْ يستبدلوا بالكتب رغيفَ خبزٍ ساخن. ورسائل غرام لم تصلْ من عاشقٍ مجهول سرق نصفَ عبارات الحبّ من كتابٍ لابن حزم أو لعمر بن أبي ربيعة أو لنزار قبّاني، وأوراق وردٍ يبستْ لطول عهدها بدموع المُعذّبين. وكتب طُبعتْ في الأستانة، وأخرى بمطبعة بولاق انمحى عددٌ من أسطرها تحت أرجل

العثّ الّذي اتّخذها مسكنًا هنيئًا ومرتعًا خصبًا لسنواتٍ قبل أنْ تمتدّ إليها يدي، يدي الّتي تنبث في باطنها أنهرٌ وخمائل كلّما لامست أصابعها بطون الكتب العتيقة!!».

كانت لأبي طرقٌ ذكيّة في تحبيبي بالقراءة، وبناء علاقة رومانسيّة مع الكتاب، كان يطرحُ بيتًا من الشّعر أمامي، غالبًا من الأبيات الّتي نحفظُها معًا، البيت:

فلا خيرَ في وُدٍّ إذا رَثَّ حَبلُهُ

وخيرُ حِبالِ الواصلينَ جَدِيدُها

يقول إنّه للأَفْوه الأوديّ على سبيل المثال، أردّ قائلاً: لا، إنّه لعامر بن الطّفيل. يقول: «دونك المكتبة، ائتِ بديوانَيهما». وآتي بهما، ونبدأ البحث حسب الرّويّ، إذ إنّ دواوين الشّعر العربيّ كلّها تقريبًا مرتّبةً حسب رويّ القصائد... وهكذا كنتُ أتعلّم - دون أنْ يقول لي أبي ذلك - أنّ المعلومة تُؤخذ من بطون الكتب، وأنّه لا بُدّ من الرّجوع إلى أصلها لإثباتها، ناهيكَ بِما في التّطواف في الدّووايِن والنّظر في أبياتها بالبحث من فائدة، فكثيرًا ما كانت تشدّنا القصيدة من هذا التّطواف فيقرؤها لي أو أقرؤها له بصوتٍ عالٍ مُرَنّم.

ثُمّ فعلْنا ذلك مع أصول الكلمات ومعانيها، فلمّا كُنّا نختلف في معنى مفردة، كان يُرجعني أبي على الفور إلى المعاجم، أكثر معجمٍ كان أثيرًا لديه، هو (القاموس المحيط) للفيروزابادي، بطبعته القديمة الّتي تعود إلى الثّلاثينيّات من القرن المُنصرم بحواشيه المَزيدة، وبخطّ طباعةٍ قديم يُظهر بعضَ الفراغات بين صلة الحروف، وقد رَثّ لكثرة استِخدامنا له، حتّى إذا مرّ على ذلك الاستِخدام أربعةُ عقودٍ أو تزيد بعثَ به أبي إلى مكتبةٍ لتعيد تجليدَه، والحِفاظ عليه، فهو أحدُ كنوزنا المشتركة، وأسرارنا المُغيّبة!

حينَ صارَ لديّ محفوظٌ جيّدٌ من الشّعر، كُنّا نجلسُ معًا أنا وأبي، فنلعبُ لعبة البدايات المُتشابهة في الأبيات، لا تلك الّتي اعتادَها النّاس بأنْ يأتوا ببيتٍ يبدأ بالحرف الأخير للبيت الّذي قالَه الطّرف الثّاني، فذلك أمرٌ كان سهلاً بالنّسبة لنا، ولكنّه كان يطرح كلمةً ما أو تركيبًا ما، كأنّ يكون (وإنّي)، وعلينا أنْ نأتي من محفوظنا بكلّ أبيات الشّعر العربيّ الّتي تبدأ بهذه الكلمة، وكان يُمكن في تلك المُناظرة أنْ نأتي بعشرات الأبيات، فإذا توقّف أحدُنا يكون خاسِرًا، وعلى الطّرف الآخر أنْ يطرح كلمةً جديدةً لتستمرّ اللّعبة. ثُمّ تجاوزنا ذلك إلى المعنى، فنطرح مثلاً موضوع الكرم الّذي

وُصِفَ ببياض اليد، أو بالبياض عامّة، فنبدأ باستظهار الأبيات الّتي تحتوي على هذا المعنى، حتّى نستنفد ما في جعبتنا. فإذا مللْنا انتقلْنا إلى معنىً جديدٍ... بهذه الطّريقة حافظَ أبي على شعلة العربيّة وسِحرَها والشّعر وجَمالَه في روحي!

في عام ١٩٨٤م دَفَعَ إليّ أبي بكتاب (رجال حول الرّسول) للكاتب المصري (خالد محمد خالد) وطلب منّي أن أقرأه، وأخبرني بأننا سنتناقش في موضوعاته معًا بعد أن تُتِمّه. أصابني شيءٌ من الرهبةِ لهذا الأمر فكيف سأناقش أبي في كتابٍ تقترب عدد صفحاته من (٥٠٠) صفحة. بدأتُ بقراءة الكتاب فأمتعني أسلوبه وجذبثني لغته؛ كان الكتاب يتناول حياةَ الصحابة بطريقةٍ مُختلفة، فلا يتحدّث عن الصحابيّ الواحد أكثرَ من (١٠) صفحات؛ بل إنّ صحابةً كِبارًا لم يُفرِدْ لهم أكثر من صفحتَينِ أو ثلاثٍ؛ وكان هذا عامِلاً للجذب ومتابعة القراءة. الجميل في الكتاب أنّه كان يضع لقبًا لكلّ صحابيّ في العنوان، ثُمّ يمرّ على أهمّ محطّات حياته دون الإغراقِ فيها مُبيّنًا الحكمةَ والفائدة من هذا الموقف أو ذاك، وأظنّ أنّ الألقابَ التي خَلَعَها على الصحابة كانت من اختراعه ثُمّ سارَ عليها من بعده الكُتّاب والمُؤلّفون فيها؛ فهو - على ما أظنّ - أوّل مَنْ أطلق لقب (أوّل سفير في الإسلام) على مُصعَب بن عُمير مثلاً، ثمّ شاعَ هذا اللّقب فصار

يستخدمه الكثيرون من بعدُ. المهمّ أنني أنهيث الكتابَ في أسبوع، وبعضُ فقراته التي أعجبتْني كنتُ أقرؤها بصوتٍ عالٍ؛ وأصرخُ بها أحيانًا لشدّة تأثيرها عليّ؛ كانت لغته مُكثّفة ومؤثرة.

وأعرفُ لماذا اختار أبي لي هذا الكتاب لأقرأه، إنّه يريدُ من فتىً ناشئ أن يتربّى على منوال هؤلاء العُظَماء؛ وبالفعل تعلّمتُ من حياةِ هؤلاء الخالدين: الصبر، والإرادة، والتصميم، والقِتال في سبيل الفكرة، وتذكّرتُ قول السّهرَورديّ:

إنْ لم تَكونوا مِثلهم فَتَشَبّهوا

إنّ التّشبُّهَ بالكِرامِ فَلاحُ

في السّادس الابتِدائيّ، كنتُ أشتري من مصروفي القصص من مكتبة الأمل في إربد، أذكر أنّني قرأتُ مئة قصّةٍ منها في أقلّ من ستّة شهور، وقد دفعتُ فيها ثمنًا باهِظًا على مدى هذه الشّهور السّتّة، ولم يعدْ لديّ كثيرٌ من المال لأستمرّ في شِراء المزيد، وخاصّة أنّني بدأتُ أفتحُ عيني على كتب اللغّة والتّاريخ والفلسفة وكتب الكِبار، فعنّ ببالي أنْ أبيعها للمكتبة الّتي اشتريتُها منها، فعرضتُ ذلك على صاحب المكتبة، فدفع

فيها ثمنًا زهيدًا، فعزّ ذلك عليّ، ولكنّني كنتُ مضطرًّا، واقترحَ هو حَلاً وسطًا: أنْ أبدّلها، وفرحتُ بذلك، لكنّه دُهِشَ أنّني أريدُ تبديلها بكتبٍ في اللّغة والتّاريخ كبيرة، فلم يرضَ في البداية، ولكنّه قبل أنْ أبدّل كلّ عشرة قصص بكتاب، فرضيتُ، وأظنّ أنّني عدتُ ذلك اليوم من عنده بخمسة كتب، كدتُ أطير فرحًا وأنا أضعها في صندوقٍ من البلاستيك خلفَ درّاجتي الهوائيّة الجديدة، وهي الدّرّاجة الهوائيّة الثّالثة الّتي أمتلكها منذُ درّاجة مصر في الأوّل الابتِدائيّ.

لي مع مكتبة الأمل تاريخٌ طويلٌ، هو تاريخ الوعي القرائيّ، فقد تجرّأتُ عندما دخلت الأوّل الإعداديّ أنْ أشتريَ مقدّمة ابن خلدون، وتردّد صاحب المكتبة في البداية أنْ يبيعني إيّاه، ولكنّني أملك ثمنه، والمال كافٍ في أيّ نقاشٍ أنْ يُسوّيه على هوى صاحبه، فأخذتُ المقدّمة، وجلستُ في البيت أقرؤها، ولقد كانتْ عند أبي نسخةٌ عتيقةٌ جِدًّا منها، ولكنّ النّسخة الّتي أخذتُها من المكتبة ذات الغلاف المُلوّن أعجبتْني أكثر، ودخلتُ في طلاسم ابن خلدون، وعبثًا حاولتُ على مدى اسبوعٍ أنْ أفكّ طلاسمه، ولكنّني لم أتجرّأ أنْ أسأل أبي عن ذلك، وذات مرّة بينما كنّا أنا وأبي في المكتبة ذاتِها، إذ بصاحبها يأخذ أبي جانِبًا ويهمسُ في أذنه وأنا أسمعه: «دير بالك عليه إنّه يشتري كتبًا أكبر من عمره».

ولا أدري على أيّ وجه كانت ردّة فِعل أبي، ولكنّني أظنّ أنّها كانت – رغم هذا التّحذير – تتّسم بالرّضا والسّعادة.

لم يكنْ في إربد في أوائل الثّمانينيّات مُتنزّهات كثيرة، ولا حدائق تقضي فيها العائلات أوقاتَ فراغها واستِجمامها، باستثناء حديقةٍ واحدةٍ هي حديقة (المُستنبَت)، وكانت تقع على سور جامعة اليرموك من الجهة الجنوبيّة، ولم يكنْ في الحديقة كثيرٌ من الألعاب، بعضُ الأراجيح، والطّوّافات، والألعاب الأفعوانيّة الأخرى، وشجرٌ كثيف عالٍ من الصّنوبر واللّزّاب، ولكنّ فيها شيئًا آخَر، هو المكتبة، كانت المكتبة تحوي كتبًا لا بأسَ بها، لم أكنْ أدري كم عددها، ولكنّها كانت عبارة عن غرفةٍ كبيرةٍ، الكتب تتوزّع في رفوفٍ على جدران هذه الغرفة، وفي الوسط بعضُ الطّاولات المُلوّنة المُعدّة للقراءة. وطاولةٌ أو اثنتان مُعدّتان للعب الشِّطرنج. كنتُ أجلسُ في المكتبة في أيّام العُطل من التّاسعة صباحًا وحتّى الواحدة ظهرًا أقرأ، فإذا تعبتُ بعدَ ذلك خرجتُ إلى الحديقة فجلستُ أستريحُ بين أشجار الصّنوبر العملاقة، دأبتُ على الاستِعارة من المكتبة، وقرأتُ كل ما فيها من كتب بين عامَي (١٩٨٤-١٩٨٦م).

كان لي كُتّابٌ أبطال في البدايات، وكانت لي من الكتب

أبطالٌ كذلك. ربّما أدهشني بعضُهم في قراءاتي الأولى، ربّما وصلتُ إلى حدّ الحبّ الأعمى لبعضهم، لكنّ هذا الحبّ الجارف لهؤلاء الكُتّاب وتلك الكتب كان يبهت أو يخفت بمرور بضع سنين على قراءتي الأولى لهم، أظنّ أنّ هذا أمرٌ طبيعيّ، نحن كلّما تقدّمنا في العمر والقراءة ازداد وعيُنا، ما كان يُعجبني أمس ليس بالضّرورة أنْ يُعجبني اليوم، ولا أولئك الّذين تربّعوا على عرشِ القمّة بالنّسبة للمُفضّلين لديّ ظلّوا كذلك، لقد نزلوا عن عروشهم بين عشيّة وضُحاها، ولذلك حينَ يسألني أحدهم: «ما هو أهمّ كتابٍ قرأته؟ أو ما هو أكثر كتابٍ أثّر في نفسك؟». أجدُ السّؤال صعبًا وساذجًا في الوقتِ نفسه، ولا يحمل إجابةً واحدةً أو محدّدة، الطّبيعيّ أنْ أقول إنّه في كلّ مرحلةٍ عمريّة من حياتي كانث هناك كتبٌ مُفضّلة لديّ وكان تأثيرها طاغِيًا، لكن بأفول تلك المرحلة أفلث معها شمسُها. الحقيقة أنّه لديّ في كلّ مرحلة شمسٌ مختلفة، ولكنّ المُقلِق أنّ هذه الشّمس تُكرّر أفولها من جديد، ولهذا تراني أبحثُ في المرحلة اللاّحقة عن شمسٍ أخرى!

حينَ يزورني بعضُهم في مكتبتي - مكتبتي اليوم تحوي أكثرَ من خمسين ألف كتابٍ مُوزّعة على العلوم والمعارف الإنسانيّة كلّها - يقفُ بعضُهم مندهشًا: «هل قرأتَ هذه الكتب

كلّها؟!». بِمَ يُمكنني أنْ أجيب؟ لا أدري، كثيرٌ من هذه الكتب مراجع، حينَ كتبتُ رواية (أنا يوسف) رجعتُ إلى كتب التّفسير الموجودة عندي والّتي تزيدُ عن أربعين عنوانًا، بعضُ هذه العناوين عبارة عن ثلاثين مجلّدًا، بالطّبع رجعتُ فيها إلى الجزء المتعلّق بقصّة يوسف، لكنّه لم يكنْ بإمكاني أنْ أرجع إلى تفسير واحدٍ، إذْ تنوّع التّفاسير يعني غنًى في الأحداث والشّخصيّات بالنّسبة لي، وهذا يستدعي أنْ تكون هذه الكتب كلّها في مكتبتي، لكنْ ليس بالضّرورة أنْ أكون قرأتُها من أَلِفها إلى يائها. كُتُب أخرى لا أنوي قراءتها وليست في المجال الّذي أفضّله ولكنّني جمعتُها بهوسٍ لا يُفسّر؛ على أمل أنْ تتحوّل مكتبتي إلى مكتبةٍ عامّة ويستفيد منها الآخرون الّذين فكّرتُ أنّ مزاجهم ليسَ شرطًا أنْ يكون على قِياس مزاجي. نوعٌ ثالثٌ من الكتب جمعتُه على أمل أنْ أقرأه ولم أفعل. نوعٌ رابع جمعتُه في موضوعٍ معيّن لأنّني أريدُ أنْ أكتبَ فيه، ولم أقرأها حتّى الآن لأنّني لم أبدأ الكتابة في الموضوع إيّاه بعدُ. ونوعٌ خامسٌ هو الكتب القديمة الّتي جمعتُها في فنونٍ أعرفُ أنّني لن أقرأ فيها، لكنّ قِدَمها هو الطُّعم الّذي ابتلعتُه لابتِياعها، ناهيك عن المخطوطات الّتي دفعتُ في بعضِها أثمانًا خياليّة من أجل الحصول عليها!!

حينَ تعدّدتْ أعمالي، وكَثُرت انشِغالاتي، وكَبُر أبنائي، صار

لا بُدّ من استثمار الوقت الضّائع رغمًا عنّي في القراءة، صارَتْ قراءة أبي لي من الماضي السّحيق، عليّ البحث عن بدائل، بدأتْ زوجتي زهراء تقرأ لي، كانتْ خيرَ من تقرأ، عندها جَلَدٌ عجيبٌ في ذلك، ولو كنتُ مكانَها لمللتُ، قرأتْ لي عشرات الكتب ونحن في السيّارة ذاهبون من عمّان لزيارة أهلي في إربد، كانت الطّريق تأخذ ساعةً في الذّهاب وساعةٍ في الإياب، وكنتُ أزور أهلي مرّة واحدةً في الأسبوع، وهذا يعني ساعتَين فيه، وثماني ساعاتٍ في الشّهر، وستًّا وتسعين ساعةً في السّنة، قبل أنْ يكبر الأولاد في أوّل زواجنا استثمرنا ذلك أيّما استثمار، وقرأتْ عليّ زهراء على سبيل المثال السّيرة النّبويّة لابن إسحق ذات الأجزاء الأربعة. بعدَ ذلك صِرنا نستثمر فُسحاتنا معًا، حينَ نجلسُ في مقهى أو في مطعم، سرعان ما تنتهي أحاديث العائلة الخاصّة، ويبدأ حديث الكتاب، وهو حديثٌ من سِرّه أنّه لا ينتهي، ولا أذكر أنّنا ولجْنا أنا وزهراء طَوال حياتي معها مطعمًا أو مقهًى دون أنْ يكون معنا كتابٌ لنقرأ فيه. هذه القراءة جعلتْ للقاء متعةً من نوعٍ جديدٍ وخاصّ. أذكر أنّنا زرنا المقاهي أكثر من ثلاثين مرّة حتّى نُكمل قراءة رواية اليهوديّ (عاموس عوز) الّتي تُشبه السّيرة الذّاتية (قصّة عن الحُبّ والظّلام) وتزيدُ عن سبعمئةِ صفحة.

لم يقفِ الأمر عند زهراء، في العامَين بين (٢٠١٦-٢٠١٨) كان عليّ في الصّباح قبل أنْ أذهبَ إلى عملي القيام بإيصال الأولاد (فاطمة، الحسن، أميمة) إلى مدرستهم الخاصّة، كانت فاطمة في الثانية عشرة، وكان الحسن في العاشرة، وكلاهما كان قادِرًا على القراءة، بمجرّد أنْ تستقيم السّيارة خارجةً من بيتنا في شفا بدران، حتّى أطلب من فاطمة أنْ تبدأ من حيثُ انتهينا في المرّة السّابقة، أذكر أنّ ابنتي فاطمة في هذه التّوصيلات قرأتْ لي الكتب الآتية: (الحروب الصّليبيّة كما رآها العرب) لأمين معلوف. في شهر (١٢) من عام (٢٠١٧م). وكتاب (بالسّيف والصّليب) لميخائيل زوبولوف. في شهر (٩) من عام (٢٠١٦م) و(المكتبة في اللّيل) لألبرتو مانغويل في شهر (٣) من عام (٢٠١٧م)، وغيرها.

ثُمّ برز لديّ مُصطلح (كتاب السّيّارة)، إذ كانت سيّارة (شيفر) الزّرقاء مُستودعًا للكتب سواءً أكانت مُتناثرةً على كراسيّ السّيّارة، أو في صندوقها الخلفيّ، وكان يتحتّم على مَنْ يجلسُ إلى جانبي أيًّا كان، من العائلة أو من الأصدقاء، أنْ يُمسكَ كتابًا ويقرأ لي. ثُمّ برزَ مُصطلحٌ آخَر هو (كتاب الإشارة)، وغالبًا ما كان هذا النّوع من كتب المختارات الأدبيّة أو الشّعريّة، مثل كتاب (الأصمعيّات)، وكتاب (التّذكرة السّعديّة)، وكتاب (عيون الأدب)، وقد تكون هناك

مُصوّرات، وهذه غالبًا ما تحوي أبياتًا مفردة في الحكمة والأمثال، يُمكن لي أنْ أقرأ البيت أو الاثنين وأحفظهما أثناء وقوف سيّارتي على الإشارة. مَنْ يدري اليوم كيفَ انغرسَ في عقلي قول الشّاعر الّذي لم أهتدِ حتّى السّاعة إلى اسمه:

وصابرٍ تلهجُ الدُّنيا بِنَكْبتِهِ

تَخالُه مِنْ جَميلِ الصّبرِ ما نُكِبا

ثُمّ قبل سنتين أو أقلّ صار بإمكاني أنْ أسمع ما أريدُ عن طريق التّطبيقات الصّوتيّة، سَهّل هذا الأمر عليّ كثيرًا، ففي غُدّوي إلى عملي ورواحي منه كلّ يومٍ أشغّل هذا التّطبيق، وأستمع إلى ما يقربُ من ساعتَين، وسَهّل مُحرّك البحث الحصول على الكتب الّتي تريدُها بالبحث في اسمها، مِمّا وفّر عليّ كثيرًا من العَناء، وأذكر أنّني بحثتُ عن كتاب (مُذكّرات عبد أمريكيّ) لفريدرك دوغلاس، وكنتُ محتاجًا للحصول عليه أثناء عملي على كتابة رواية (أرض الله)، ولم أهتدِ إليه في الأردنّ، ووجدتُ أنّه منشورٌ في مصر، فراسلتُ دار النّشر للحصول عليه، وكدتُ أحصلُ عليه بالفعل لولا أنّ بعضَ الظّروف حالتْ دون إرساله من مصر إليّ، وكنتُ مُستعجِلاً بشأن امتِلاكه، ولم تكنْ هناك نُسخةٌ منه بصورة (PDF)، لأنّه

نُشِر حديثًا، فلمّا بحثث على التّطبيق الصّوتي، وجدتُه موجودًا فيه، ففرحتُ كثيرًا، وخلال يومَين كنتُ قد انتهيتُ من الاستِماع له والحصول منه على ما أريد.

(83) كتابًا على الماشي:

في آذار من عام 1997م كنتُ على موعدٍ مع الحرّيّة بعدَ ثمانية أشهرٍ قضيتُها في السّجن على إثر قصيدةٍ لي، كان تَوقي إلى الحرّيّة توقَ أيّ سجينٍ يعدّ السّاعات بنفادِ صبرٍ قبل أنْ تحينَ لحظةُ الانطِلاق، في غمرةِ استِعدادي لكي أرتّب ما سأضعه في حقيبتي مِمّا تبقّى من ملابسي وأوراقي، أشارَ إليّ (عكرمة) أنْ أجلسَ قليلاً وأهدأ، لم أكنْ أدري ما يُريد، غير أنّ اضطرابي في تجميع أغراضي، وتلهّفي للخروج للحرّيّة، ولَمّ شتاتِ نفسي في اللّحظات الأخيرة، جعلني أتأفّف من نِدائه ذاك، غير أنّه زَمّ شفتَيه اللّتَين لا تكادان تظهران تحتَ شَعر شاربَيه وذقنه، وتناول قلمًا، وسأل عن ورقةٍ فلم يجدْ، فاقتصّ شيئًا من ورقٍ جاء به من المطبخ أو ما شابَه، أو ورقةً من الأوراق الّتي كُتبَ على نِصفِها الأيمن فشَقّه، وطوى نصفَها الأيسر، وراح يخطّ عليه بعجلةٍ هو الآخَر، حتّى يكتبَ أكبرَ عددٍ من... لم أكنْ أدري ما هو الشّيء الّذي يتلهّف على كتابته في الورقة، غير أنّني تركتُ ما بين

يدَيّ من أغراضٍ وحملتُ نفسي على الاقتِراب منه لأنظر فيما يفعل. لقد كان يكتبُ كلّ ما يريدُني أنْ أقرأه حينَ أخرجُ من السّجن، من تلك الكتب الّتي شّكلت وعيّه وطريقةَ تفكيره، وفي بضعِ دقائق كتبَ اسم (83) كتابًا من أثمن الكتب الّتي عَبَرت في حياته، ونصحني أنْ أقرأها كلّها حالَ خروجي من هنا واستقرار أموري، أخذتُها من يده، كان خطّه الأقرب إلى المِسماريّة يشي أنّه عَصَر أفكاره لكي يكتب أكبر عددٍ مُمكنٍ من الكتب في أقلّ وقتٍ. القائمة العتيقة ما زالت عندي إلى اليوم، كانت تحوي كتبًا للعطّار والشّيرازيّ ومالك بن نبيّ والجابريّ وروجيه جارودي وجوردج أوريل وتولستوي ورسول حمزاتوف وفرانز فانون وغيرهم.

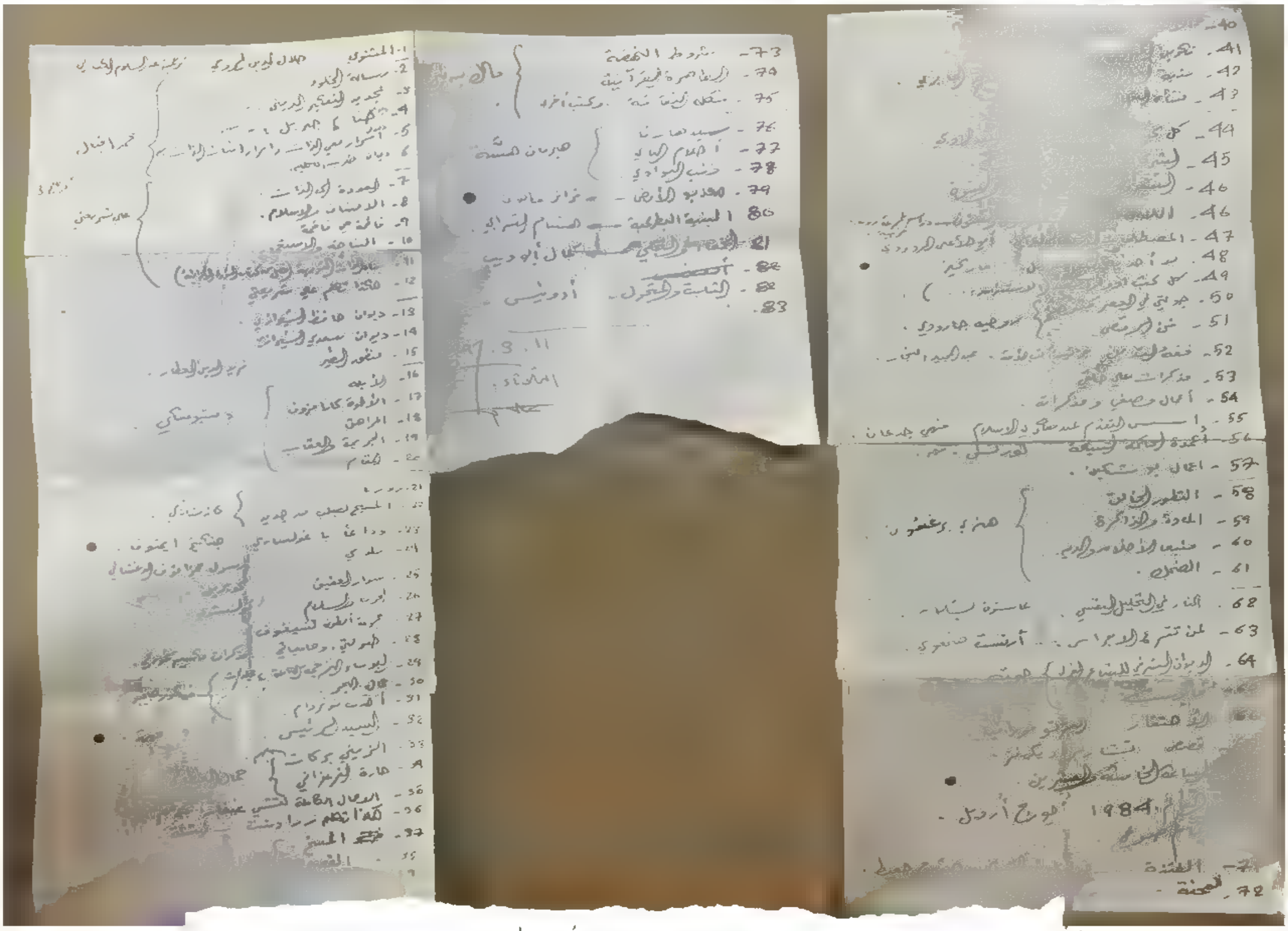

قائمة الكتب الـ ٨٣ كتابًا، كُتبت في السّجن عام ١٩٩٧م

ولقد قرأتُها كلّها كما أوصى أو قرأتُ أكثرها، لقد كانت أجملَ طريقةٍ وداعٍ لي من زملائي السّجناء وأنا أخطو خطواتي إلى عتبة السّجن الخارجيّة فاتِحًا ذراعيّ على اتّساعهما للحرّيّة.

طريقتي في القراءة:

أنا لا أؤمن بما يسمّى (القراءة السّريعة) في التّأثير على النّفس والعقل والوِجدان واللّسان، القراءةُ إثراء، وإذا لم تكنْ

قراءةً واعيةً مُنتجة فإنّها لن تكون إثراءً، وسيكون الأمر مع القراءة السّريعة كما لو كان إضاعةً للوقتِ دون الحُصول على الفائدة. إذا كنتَ تريدُ منّي أنْ أُخبركَ عن طريقتي في القراءة، فإنّها سترمي خلفَها هذا الّذي شاع في أيّامنا هذه، وجعلها النّاس وسيلةً لارتِقائهم في دروب المعرفة!

أنا أؤمن بالقراءة المُنتجة، ولهذه القراءة سِماتٌ وأساليبُ لا توفّرها القراءة السّريعة ولا تُحصّل منها على شيءٍ. أنا أقرأ بتأنٍّ، وربّما أتوقّف عند فقرةٍ لأستمتع بأثرها العاطفيّ والنّفسيّ عليّ، وقد تجعلني فقرةٌ أخرى أغوص في الخيال، وأذهبُ بعيدًا فلا أعبر هذه اللّحظة مُستعجِلاً، بل أتوقّف عن القراءة وأسمحُ لنفسي بالشّرود في غياهب الطّرق الّتي أخذتْني إليها العبارة أو النّصّ، فإذا وصلتُ الغاية، وعدتُ من هناك أعودُ إلى القراءة من جديد.

حين يُعجبني بيتٌ أو عبارةٌ قد أعيدُها غير مرّة، وأخطّط تحتها، وقد أنقلها إلى دفترٍ أدوّن فيه مختاراتي وما راق لي، وغالبًا ما أحفظُها. ما حفظتُه حافظتُ عليه بهذه الطّريقة، أميّزه بلونٍ خاصّ، أعيد الخطّ تحته ذهابًا وإيابًا، أحمله برفق من بين سطور الكتاب، وأخطّه بيدي، ثُمّ أُنشده بسببٍ وبلا سبب، أمام أناسٍ يُحبّون أنْ يسمعوا ما حفظتُ أو لا يُحبّون،

المهمّ أنْ أقوله، وإذا لم أجدْ أحدًا لأقوله أمامه؛ فإنّني أقوله أمام نفسي.

كتبي تمتلئ بالإشارات والهوامش، والنّصّ على النّصّ، والعلامات المُميّزة بالألوان على الأطراف. وأنا من النّوع الّذي يُحاور الكاتب، يُناقشه، يُناوره، ويطرح عليه أسئلة، قد لا تأتي الإجابة بمجرّد طرح السّؤال، قد تتأخّر، لكنّها غالبًا ما تأتي، وإذا لم تسمح لها قنوات الزّمن، وسُبُل التّخاطر أنْ يمرّرها الكاتب إليّ فلا بأس، أنا أحاول الإجابة عنه أو عن الكتاب بعد أنْ أكون فهمتُ روحَيهما.

إذا دخل الزّوّار غرف مكتبتي ودهاليزها، وتناولوا بأيديهم كتبًا من رفوفها فإن عددا منهم سيعثرون على ملاحظاتي تلك في نهاية الكتب.

كانوا يفعلون ذلك مع كلّ عبيد

بيديها، وكان الجلد بالسوط هو العقاب إذا أشرقت
مس ولم تكن في الحقل، مثل هذا كان يستوجب تصريحًا
يد العبد أو سيدته، وهذا شيء يندر الحصول عليه، أما
يعطيه فيتباهى بأنه سيد طيب.

ذكر أبدًا أنني رأيت أمي في ضوء النهار، كانت تبقي
في الليل، تنام إلى جواري، تتيمني، ولكن قبل أن أستيقظ
كانت ترحل، لقد تمت لقاءات قليلة بيننا، ثم سرعان
نهي الموت هذا القليل الذي حصلنا عليه في حياتها،
معه معاناتها وآلامها.

د ماتت وأنا في حوالي السابعة من عمري، في إحدى
ع سيدي بالقرب من طاحونة لي، ولم يسمح لي بالتواجد
رضها، ولا في موتها، ولا في دفنها، هكذا رحلت قبل أن
ي أي شيء عنها بوقت طويل، لم أستمتع أبدًا- ولو إلى حد
ول- بحضورها الهادئ اللطيف، أو رقتها، وعنايتها، وتلقيت
موتها بنفس المشاعر التي ربما أشعر بها حين يموت
ب.

وث ذلك- هكذا فجأة- تركتني دون أدنى معرفة بحقيقة
الهمس بأن سيدي هو أبي، ربما كان صادقًا أو كاذبًا،
ا أو مزيفًا، وهو أمر لا يقدم أو يؤخر، بينما تظل
ة- بكل بغضها الساطع- أن مالكي العبيد قد قضوا
وا بالقانون القائل أن أبناء الأمة سيتبعون في كل الأحوال
أمهاتهم، لقد قضوا بهذا لأنه يناسب رغباتهم، ويجعل

- 25 -

هوامش القراءة

كافكا «التحوّل» فيما بين ١٧ نوفمبر (تشرين الثاني
ن الأوّل) من سنة ١٩١٢، كما يُستخلَصُ من الر
تبادلها، وقتها، مع فيليس باور - خطيبته التي س
عنها ثم يعود إليها أكثر من مرّة، دون أن يُقيَّض لهما أنْ يتزو
هو كان متمسكا بوحدته، معتبرًا إيّاها ضروريّة له با
يًا. وفي الفترة التي كتب خلالها «التحوّل» (قبْلَهُ، لكنْ في ن
السّنة، كان قد كتب «الحُكم»...)، كان كافكا يعيشُ مشكلا
على الصّعيد الماديّ وفي نطاق الوظيفة، كما كانت علاقته بأ
متوتّرةً، وعلاقته بخطيبته محكوما عليها بأنْ تكون عابرة وعقيم
وقد راودتْهُ فكرة الانتحار، كما اعترف بذلك لصديقه ماك
برود.... ويعتبر بيرنار لورتولاري - وهو صاحب ترجمة متميّ
لـ«التحوّل» إلى الفرنسيّة، ومترجم عدد كبير جدًا من أعم
الأدباء الألمان إلى اللغة المذكورة - أنّ كافكا لرُبّما يكون
«أغفَلَ» جانبَهُ الشّيءَ هو نفسه، من خلال غريغور سامسا. لك
حتّى لو صَحّ هذا - يقول لورتولاري - فإنّ معنى قِصّة كافكا
في مكان آخر»، كما أنّه «أكثرُ عموميّةً بكثير»، وبالنّسب
لورتولاري، فإنّ «المادّة الأوتوبيوغرافيّة تبقى مادّةً ليس إلّا،
يَمنَحُها بِنيةً هو مشروعٌ سَرْديّ (...) يخلق، بتفرُّدٍ أخّاذ، ك
يتحكّمُ فيها بأكملِها نموذجٌ سلوكيّ، هو تحديدًا نموذجُ الإقص
وهنا تكمن، فيما يخصّ قِصّة «التحوّل»، «قيمتُها الأدبيّة أيض
وسِرُّ نجاحها المُذهل».

بدأتها في مطار عمّان الدولي (مطار الملكة علياء) صباح الجمعة ١٦.١٠.٢٠١٧ وأنهيتها في مطار أتاتورك / إسطنبول في نفسه ١٠٤ ظهيرة اليوم

في معظم الكتب الّتي قرأتُها أكون قد كوّنتُ رأيي عن الكتاب بعد الانتِهاء منه، أخطّ هذا الرّأي بيدي في آخر

صفحةٍ منه، سطرَين أو ثلاثة لا أكثر، غالبًا ما يكون انطِباعيًا، أمّا الآراء الأكثر عمقًا فتكون مخطوطةً على هوامش الصّفحات من قبلُ. أوقّع باسمي، والتّاريخ والمكان.

في سفري الّذي غالبًا ما يكون من أجل معارض الكتب ولا يستمرّ أكثر من أسبوعٍ، كنتُ أحمل معي ثلاثة كتب، أكونُ قد خطّطتُ لقراءتها، كتابٌ خفيفٌ لا تحتمل قراءته أكثر من ثلاث ساعاتٍ أو أربع في الذّهاب، وكتابٌ ثانٍ مثله في الإياب، وثالث مُدّة الإقامة هناك.

يحدثُ كذلك أنْ أقرأ أكثرَ من كتابٍ في اللّحظةِ نفسِها، تمرّ أيّام أكون مُنشغلاً بثلاثة كتبٍ أقرؤها، وأستمع لرابع، أمّا الثّلاثة الّتي أقرؤها، فواحدٌ أقرؤه لأكتب، وأختاره في الموضوع الّذي أكتب فيه آنئذٍ. والثّاني أقرؤه لأطّلع في مجال فنّ الكتابة على خبرات الكُتّاب الآخرين. والثّالث من أجل المُتعة، يبقى الثّالث أطول الثّلاثة زمنًا بين يديّ. أمّا الرّابع الّذي أستمع إليه؛ فقد أستمع إليه وأنا أركضُ في ساحة البيت الشّماليّة، غالبًا ما أركضُ (10 كم) يومًا بعدَ يوم، يستغرقُ ذلك ما يقرب من السّاعة، أستمع في أثنائها إلى هذا الكتاب الرّابع، وقد يتمّ ذلك وأنا أقودُ سيّارتي إلى العمل، أو أخرجُ في بعضِ حاجات البيت. أمّا نوع الكتاب الرّابع فغالبًا

ما يكون في السّيرة الذّاتيّة أو في التّاريخ.

آداب القراءة:

علمّني والداي كثيرًا من آداب القراءة، أبي لم يكنْ يحمل الكتاب بيدٍ واحدةٍ، ولم يكنْ يَثني الصّفحة الّتي لا يقرؤها خلفَ تلك الّتي يقرؤها، بل إنّني كنتُ أشعرُ أنّه كان يعدّ ثَنْي الصّفحات سوءَ تقديرٍ وقِلّةَ ذوقٍ، أو جريمةً لا تُغتفر. كان يُمسك دفّتَي الكتاب بكلتا يديه ويخشى أنْ يفتحهما أكثر من اللاّزم فيتشقّق بطنُ الكتاب أو تتمزّق جوارحُه، كان يشعر بألم الكتاب إذا عامَلَه المرء بقسوة، وكان يقلب زوايا الصّفحات بأطراف أصابعه برفق ولينٍ وهدوء. كانت المطابع في السّتّينات والسّبعينات في مصر على وجه الخصوص - وربّما السبب آلات الطّباعة غير المُتطوّرة آنئذٍ - تقذف بكتبٍ مُتلاصقة الصّفحات من الأعلى أو من الجوانب، كلّ صفحتين معًا، أو كلّ مجموعةٍ منها معًا. وأذكر وأنا صغيرٌ جِدًّا أنّ أبي كان يأتي بمسطرةٍ من خشب فيدخلها بلطفٍ بالغٍ إلى زاوية الصّفحتَين المُلتصقتَين، ويقوم ببطءٍ بحزّ طرفها حتّى ينفلت التّلاصق بين هذه الصّفحات، ويُصبح من السّهل فتح كلّ صفحةٍ على حدةٍ وقراءتها، وأذكر أنّه كان يحبسُ أنفاسه وهو يقوم بهذه العمليّة حتّى لا يُؤدّي الفتح إلى تمزّق

الصّفحة أو أجزاء منها، ويبقى حابسًا نفسه طَوال تمرير طرف المِسطرة على الحرف الأعلى أو الجانبيّ فإذا أنهى ذلك بسلامٍ ولم يتعرّض أيّ جزءٍ من الصّفحة للتّلف، رأيتُه يُطلق نفسًا حارًّا يعبّر فيه عن ارتِياحه، فإذا حدثَ أنْ تَمزَّق ولو جزءٌ بسيطٌ من الورقة، فإنّني كنتُ أرى الضّيق الشّديد في وجهه، لدرجة أنّه يتوقّف قليلاً ليتخلّص من هذا الكدر قبل أنْ يعودَ إلى عمله من جديد. سامح الله المطابع في تلك الأيّام، فقد كانت تَقِفُنا على حوافٍّ أعصابنا مع كلّ كتاب يشتريه أبي!

أمّا أمّي فقد كانت تحدب على الكتاب الّذي تقرأ فيه كأنّها في صلاة، إنّها طقوسٌ يا سادة، أنا لا أصفُ ذلك لخيالٍ جمحَ بي، إنّني أصفُ ما رأيتُ وما تعلّمتُ منهما. ربّما هذا الاحترام والتّقديس الّذي انتقل إليّ أثّر بطريقةٍ لا واعية في كتاباتي اللاّحقة، أذكر أنّني ذكرتُ مثل هذه الآداب الّتي تتنزّل على القارئ بالسّكينة في رواية ذائقة الموت: «أمام باب المكتبة وقف مثل شريدٍ تُدثّره الذّكريات، همّ بأن يدخل غير أنّ يدًا خفيّة نقرتْ كَتِفَه من الخلف، فالتفت. خُيّل إليه أنّ صوتًا ما يُخاطِبه: «إلى أين؟». «إلى المكتبة!». «هكذا... بهذه البساطة!!». «نعم... هكذا... بهذه البساطة!!». «ترفّقْ يا رجل... وتحلَّ ببعض الأدب؛ ما هكذا تُورَد الإبل، أقرأتَ الوِرْدَ

قبل الدّخول؟!». «وهل هنالك من وِرْدٍ للدّاخلين؟!». «بلى». «أعلِمْني إذًا». «استحضرْ قلبكَ يا فتى... ففي هذا المبنى يرقد كلّ العظماء، وفيه أرواح الّذين أوقدوا الشّموع للبشريّة في ظلام الجهل، وفيه الّذين سطّروا للإنسانيّة سطورًا من ضياء لا يخبو نورها حتّى وإن ماتوا ... فقد ظلّت كلماتهم حيّة إلى اليوم!! وفيه الّذين صنعوا من الإنسانِ إنسانًا. وفيه الأنبياء الّذين حوّلوا مجرى النّبع إلى الجِبال بعد أن كان يهوي إلى القِيعان!! وفيهم من سال الماء من بين أصابعه!! أتظنّ أنّ جهلك بطقوس الدّخول إلى عالَمهم يشفعُ لك؟!».

أمّا رواية (أرض الله) فقد وجّه الأب ابنَيه (سيّد) و(آمنة) إلى آداب الدّخول إلى المكتبة والقراءة فيها، قائلاً لهما: «حظيث غرفة المكتبة الّتي تضمّ المخطوطات بعناية أبي أكثر من سِواها، وكانت لها آداب، وكان أبي يعلّمنا تلك الآداب أنا وآمنة: «لا تدخلا إليها إلا وأنتما مُتوضّئان، لا تُمسِكا بالكتاب إلاّ بكلتا يدَيكما كما تُمسك الأمُّ الرّضيعَ بين يدَيها، قَبِّلا أيّ كتابٍ قبل أنْ تشرعا بالقراءة منه أو حتّى بالنّظر فيه، أتْلُوا الآيات الخمس الأولى من سورة الرّحمن :»الرّحمن. علّم القرآن. خلق الإنسان. علّمه البيان. الشّمس والقمر بِحُسبان». قبل أنْ تشرعا بقراءة الصّفحة الأولى أو الرّقّ الأوّل من أيّ كتاب. إذا جلستُما على الأرض لتقرآ من أيّ كتاب فاجلسا

جلوسَكما للصّلاة في التّشهّد الأخير، ولا تُقرفِصا ولا تتربّعا ولا تتمدّدا، ولا تجلسا إلى الكرسيّ. أقبِلا على الكتاب بقلوبكما، واخشعا في حضرته كما تخشعان في صلاتكما، واستحضرا رهبة العلم وهيبته كما تستحضران خالقهما. احرِصا على ألا تضعا الكتاب على الأرض، ولا أنْ يسقط من بين أيديكما، وإذا كان ثقيلاً، فأنا أُمسكه لكما وأَعرضه عليكما حتّى تُتمّا ما أردتما منه ثُمّ أُعيده إلى رَفّه سالِمًا».

من العجيب أنّه لم تخلُ رواية من رواياتي الخمس عشرة حتّى الآن من فكرة القراءة والحديث عن الكتاب، لعلّ تفسير ذلك أنّ هذه الفكرة تعيش في عقلي، أو يعتاش عليها عقلي، لم أكنْ أقصد التّركيز على أهمّيّة القراءة في الرواية، إذ إنّ بعضَها قد يبدو موضوعه لا علاقة له بالقراءة خاصّة في رواية (يوم مشهود) على سبيل المثال، لكنْ يبدو أنّ الأمر يتجاوز الوعي إلى اللاوعي، إنّ هذه الفكرة ظلّت هاجسي في كلّ مراحل حياتي. قد يكون باعثُها الخوفَ من السّجن مثلاً، أو قتل هذا الخوف من خلال تحقّق الحريّة بالقراءة، كما جاء في رواية (يا صاحبي السّجن) على سبيل المثال: « كانت القراءة تُعطيني مساحاتٍ من الحريّة أوسع مِمّا لو صنعها خيالي بنفسه، بل أوسع من تلك المساحات الّتي تُعطيها القراءات ذاتها خارج السّجن!! فأين إذًا هو مفهوم

الحرّيّة الّذي كنّا جميعًا بوصْفِنا سُجناءَ نبحث عنه، ونهرب إليه كلّما أضاء لنا منه برقٌ في سماء القضبان الصّارخة!!». قد يكون شيئًا آخر!

أسئلة القراءة:

يسألني كثيرون الأسئلة المُعتادة إيّاها، يقولون: متى، وأين، وكيف، ولمن، ولماذا، وماذا أقرأ؟

اقرأ متى شِئت، ليسَ للنّهار فضله في ذلك على اللّيل، ولا للّيل على النّهار، اقرأ فجرًا وضُحًى وظهرًا وعصرًا وليلاً، وأنّى وجدتَ أنّ التّوق يدفعكَ للكتاب. لا تخدعْ نفسكَ مع الّذين يُقنّنون أوقات القراءة، فيقولون أنا لا أقرأ إلاّ قبلَ أنْ أنام، القراءة قبل النّوم هي مُخدّر ومُهدّئٌ للمساعدة عليه، ليستْ أكثر من ذلك. ليكنْ، إنّها أفضل من كأسِ حليبٍ، ولكنْ لا وقتَ للقراءة خاصًّا، الكتب موجودةٌ في كلّ وقتٍ، أنتَ الّذي تقول لهذا الوقت انتظر ولهذا الكتاب تقدّم: أريدُ أنْ أقرأ.

واقرأ أينَ شِئت، وكيفَ شئت مُتمدّدًا على ظهرك أو بطنك أو على جنبك، جالسًا على طرف السّرير أو طرف الكرسيّ،

إلى مكتبك، أو ساهِمًا شارِدًا، أو مُفكّرًا مُتأمّلاً، أو واقفًا في الشّارع، أو ماشِيًا في زُقاق، أو منتظرًا طبقكَ في مطعمٍ، أو متناولاً شرابكَ في مقهًى أو... ربّما لن يكون لهذه القراءت المجنونة أثرٌ عليّ، ومَنْ قال لك إنّني أريدُ أثرها المعرفيّ فقط، إنّني أحاول أنْ أُبقي عقلي حَيًّا بهذه الممارسة، ثُمّ إنّني على يقينٍ أنّ واحدةً من هذه السّلوكات المتعدّدة سوفَ تُثمر طريقته في القراءة، وسيلةٌ واحدةٌ مُثمرة تكفي، دع الباقي يحرّك عقلك، ويوقظ شعوركَ فحسب.

واقرأ لمن شِئت، أبي لم يضع محدّدات على الّذين أقرأ لهم، لكنّه بالطّبع - وهذا ما يجب أنْ تنتبه إليه - لم يسمح بهذه الحرّيّة المُطلقة إلاّ بعدَ أنْ توفّر أمران، الدُّربة على القراءات الأوّليّة الخفيفة، ثُمّ الوعي الّذي تشكّل عبر طبقةٍ عميقةٍ من الأفكار الّتي تراكمت من القراءات السّابقة... الان يُمكنك أنْ تقرأ لمن تريد. الّذين يحذّرونك من كاتبٍ أو كتابٍ يُبالِغون في ذلك. الطّريقة الصّحيحة: اقرأ لهذا الكاتب واحكمْ بنفسِك، والقاعدة: لا تُعرْ عقلكَ لألسنة النّاس، فإنّ هذه الإعارة من أسوأ أنواع الجهل، وأفدح الخسارات الّتي يُمكن أنْ يُمنى بها الإنسان في حياته.

أمّا لماذا تقرأ، فقد مهدّتُ لذلك في أوّل هذا الفصل، ولكنّ

أجلّ الغايات في القراءة هي: أنْ تعرفَ نفسَك. كلّ كتابٍ تقرؤه هو منديلٌ يمسح جزءًا من الغشاوة على المرآة الّتي تقف أمامها لتراك.

إنّ القراءة تُنتج مُجتمعًا حيًّا، مُجتمعًا متحرّرًا من القيود الثّقيلة الّتي تُكبّله وتهوي به في قاع الجهل والتّخلّف والعبوديّة، ولقد قالوا: «أمّة تقرأ لا تجوع ولا تُستَعبد». لا يُمكن للعلوم ولا التّكنولوجيا أنْ تُنتِج مُجتمعًا حَيًّا، ربّما تُنتِج مُجتمعًا يعيشُ في رفاهيّة، مُجتمعًا استِهلاكيًّا، ولكنّه سيكون إلى جانب ذلك مجتمعًا ميّتًا، وخاويًا روحيًّا. لا يمكن لأيّ مجتمعٍ في أيّ عصرٍ مهما بلغ تقدّمه التّكنولوجيّ أنْ يستغني عن الأدب، إنّ الأدب كان وسيبقى أفضل قاسمٍ مُشتركٍ بين البشريّة قادرًا على إبقائها في دائرة الحياة.

غير أنّ المرء لَيشتري كتبًا كثيرة - وأنا أحدهم - يُكدّسها في مكتبته، ينظر إليها بحبّ، ثُمّ يمرّ الزّمن فيقرأ بعضَها، ويتركُ أكثرَها، ثُمّ يبدأ ينظر للكتب الّتي لم يقرأها فتصيبه الحسرة، ومع أنّه قارئٌ جيّد إلاّ أنّه بالطّبع لا يملك الوقت الكافي لقراءة كلّ هذا! يقع في النّدم، والحيرة، وتنهشه التّساؤلات... هل هذا مَرَضٌ نَفسيّ؟ أعند أطبّاء النّفس توصيفٌ لهذه الحالة؟! ربّما. غير أنّ الشّافعي في بيتَين له

حاول أنْ يُخفّف عنكَ ذلك اللّومَ الّذي تُلقيه على نفسك لعدم تمكّنك من قراءة خمسين ألفَ كتاب؛ فقال:

ما حَوَى العِلمَ جميعًا أحدٌ

لا، وَلَوْ حاوَلَهُ ألفَ سَنَةْ

إنّما العِلمُ بَعِيدٌ غَورُهُ

فَخُذُوا من كلّ فَنٍّ أَحْسَنَهْ

لماذا نقرأ الرّوايات؟

القَصص، كان – فيما أرى – أقدمَ الفنون الإنسانيّة، وأقربَها إلى النّفس البشريّة، صحيحٌ أنّ المسرحيّة ربّما سبقت القصّة في النّصّ المكتوب، كمسرحيّة أوديب ملكًا لسوفيكليس على سبيل المثال الّتي ظهرتْ قبل ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة، لكنّ المسرحيّة في النّهاية تروي حدثًا من أجل عبرةٍ من خلال أشخاصٍ يقومون بأدوارهم، وهذا لا يبتعد كثيرًا عمّا تفعله القصّة في تقنياتها. لكنّ الثّابت، أنّ الكتب السّماويّة الثّلاثة ذهبتْ إلى استخدام القصّة استخدامًا طاغِيًا إلى

الحدّ الّذي يُمكن أنْ يُشكّل أكثر من ثلث القرآن، وأكثر من ثلاثة أرباع التّوارة، والإنجيلَ كُلّه! فهي جميعًا تروي قصص الأنبياء، وقصص الطّغاة، وأناسٍ صالحين وآخرين أشرارٍ وتُبِرز أحداثًا تتّكئ على مشهديّات فائقة الدّقةّ، وفائقة الجَمال كذلك. فمن أينَ جاءتْ إذًا هذه النّظرة السّلبيّة – نسبيًّا - إلى أولئك المُنهمكين في قراءة الرّوايات؟ فإذا كانت التّوراة تروي، والإنجيل والقرآن يرويان ويَقُصّان ويُخبِران، فَلِمَ كان هذا الوقوع في قناة الرّواية والغَضّ من شأنها، واعتبارها – عند بعضهم – فَنًّا مَرذولاً؟

الرّواية الّتي تُغيّرك، خيرٌ من الكتاب الّذي يختبئ خلفَ ظِلال الفِكر أو العقيدة، ويستظلّ بمظلّة الدّين ولا يُحرّك فيكَ شيئًا لسطحيّته وسذاجته. أليست قِصّة يوسف عليه السّلام الّتي رُويت في سورةٍ كاملةٍ هي في المنظور الفنّي رواية مكتملة العناصر، في الأحداث والأشخاص، والأزمنة والأمكنة، والعُقد المُتعدّدة، ومستويات الحِوار، ونوع النّهاية الّتي قرّرتْها؟! ثُمّ ها هو ربّ العزّة الّذي يرويها، يقول لنا في نهايتها: «لقد كان في قَصَصِهم عِبرةٌ لأولي الألباب». فإذًا هناك غائيّة وراء هذا القَصَص أو هذا السّرد أو هذه الرّواية؛ سَمِّها ما شِئت.

فإذا كانت قراءة الرّوايات لا تُعدّ مضيعةً للوقت من هذا المنظور؛ فما الغاية من قراءتها إذًا؟ لماذا نحن نقرأ الرّوايات في هذه الأيّام أكثرَ مِمّا نقرأ أيّ جنس أدبيّ آخَر؟

من الجميل أنْ أطرح هذا السّؤال على بعضٍ من نقشوا أسماءَهم في عالَم الرّواية، ونفكّر في إجاباتهم.

أورهان باموق، الكاتب والرّوائيّ التّركيّ الّذي فاز بجائزة نوبل للآداب، سنة ٢٠٠٦م، يُجيب عن هذا السّؤال في كتابه (الروائيّ السّاذج والحَسّاس)، والذي كان عبارة عن تفريغ لمحاضراته في جامعة (هارفارد) في أمريكا:

«الروايات حياة ثانية. مثل الأحلام التي تحدث عنها الشاعر الفرنسي (جيرارد نيرفال)، تكشف لنا الروايات والألوان والتّعقيدات في حياتنا وهي مليئة بالناس، الوجوهَ والأشياءَ التي نشعر بأننا نعرفها من قبل. تمامًا كما يحدث في الأحلام، عندما نقرأ الروايات نتأثر أحيانًا بقوة الطبيعة الخارقة للأشياء التي تُواجهنا والتي تجعلنا ننسى أين نحن ونتصور أنفسنا في وسط الأحداث الخالية والشّخصيّات التي نشاهدها. في مثل هذه اللحظات، نشعر بأن عالم الرواية الذي نلتقي ونستمتع به هو أكثر واقعية من الواقع

نفسه. هذه الحياة الثانية تظهر بالنسبة لنا أكثر واقعية من الواقع، غالبًا ما يعني هذا أننا نستعيض بالروايات عن الواقع، أو على الأقل نحن نخلط بين الروايات والواقع. ولكننا لا نتذمر من هذا الوهم، هذه السذاجة. في المقابل، تمامًا كما يحدث في بعض الأحلام، نحن نريد للرواية التي نقرؤها أن تستمر ونأمل بأن هذه الحياة الثانية تظل تستحضر فينا مشاعر متناغمة مع الواقع والحقيقة. بصرف النظر عن وعينا من الدور الذي يلعبه الخيال في الرواية، إلا أننا ننزعج إذا فشلت الرواية في تعزيز تصوّرنا بأنها حياة حقيقية بالفعل».

نحن نقرأ الرّواية من أجل المتعة؛ من أجل التّأرجح بين المشاهد بسرعةٍ خاطفة؛ هكذا يقول أورهان باموق، موضّحًا من جديد:

«المتعة الحقيقية في قراءة الرواية تبدأ من قابلية رؤية العالم ليس من الخارج، ولكن من خلال عيون الشخصيات التي تستوطن ذلك العالم. عندما نقرأ رواية، فإننا نتأرجح بين المشاهد الطويلة واللحظات الخاطفة، بين الأفكار العامة والأحداث الخاصة، بسرعة لا يمنحها لنا أي نوع أدبي آخر. وبينما نحدق من بعيد إلى لوحة المشهد، نجد أنفسنا فجأة وسط أفكار شخص ما في المشهد والفروق البسيطة في

المزاج الشخصيّ».

ولو أردتُ أنْ أجيب إجاباتٍ سريعةً على هذا السّؤال: لماذا نقرأ الرّوايات؟ فسأقول:

لأنّ الرّواية تتميّز بقدرتها على إشباع الفضول الغريزيّ عند الإنسان في الاستِماع إلى الحكايات والأساطير، بكلّ ما فيها من غموضٍ وتشويق.

لأنّ الرّواية تستطيع أنْ تلعب بمشاعر القارئ، بل وتستحوذ عليها، وهي قادرةٌ أبعدَ من ذلك على أنْ تجعله يعيش حالةَ سَرْنَمة معها.

لأنّ الرّواية قادرةٌ على أنْ تهربَ بكَ بعيدًا عن الحروب والكوارث والآلام والأوجاع، أو توقعك فيها كلّها، والهاربون يجدون فيها بُغيتهم، والوالِغون في ذلك يجدون بُغيتهم أيضًا.

وللّذين يبحثون عن التّفاصيل في قضايا الفرد والمُجتمع، أو تفاصيل التّفاصيل من أجل أنْ يعيشوا المشاهد لن يجدوا أفضل من الرّواية لتُمكّنهم من ذلك.

لأنّ مشاغل الحياة المُهلكة، والهموم المُتراكِبة، واللّهاث وراء لقمة الخُبز، والبحث عن فرصةٍ للحياة في هذه الحياة يُراكم كثيرًا من الضّيق النّفسيّ والخَبَث الرّوحي، ولا يُمكن أنْ يتخفّف الإنسان منهما إلاّ بصحبةٍ كتابٍ يُدخِلك إلى عالَمه المسحور، ولا يتحقّق في جنسٍ أدبيّ مثلما يتحقّق في الرّواية.

الرّواية ليست خيالاً مَحضًا ولا واقِعًا مَحضًا، بل هي مزيجٌ منهما، ومن الجميل أنْ يخفّف الإنسان ألمَ واقعه بشيءٍ من أمل خياله، وجميلٌ أيضًا أنْ يجذبه خيطُ الواقع إليه كلّما شردَ به أفق الخيال، ولا شيءَ مثل الرّواية يفعل ذلك.

ونحن بحاجةٍ في واقعنا أنْ ننظر في مرايانا - ربّما - كلّ يومٍ، نرى في تلك المرايا حُزننا وفرحنا، شكّنا ويقيننا، يأسَنا وأملنا، كُفرَنا وإيماننا، ولا مرآة مصقولةً ترينا هذه الصّور أكثر من الرّواية، فأيّ مرآةٍ أشدّ وضوحًا منها؟!

ولكلّ واحدٍ منّا ألفُ شبيه وشبيه، الفيلسوف والعاديّ، الشّيطان والملاك، السّيّد والعبد، الثائر والهادئ، المتمرّد والقانع، صورنا في أعماقنا تتناثر مثلَ زجاجٍ لا يُسبَك، وحدها الرّواية تُشبهنا، تُخرج كلّ هذه الصّور الكامنة فينا من

بحيرة اللاّوعي لتبرز على السّطح. ولهذا نقرأ الرّواية دون سواها.

الفنون الأدبيّة متاحف تتعدّد فيها موجودات الشّعوب المختلفة وتراثها، فالشّعر مُتحَف، والمسرحيّة متحف، والرّسم متحف، والموسيقى متحف، ولكلّ متحف حجمه وألوانه ومعروضاته الّتي تميّزه عن سِواه، لكنّ أغنى هذه المتاحف، وأشملها، وأكثرها تنوّعًا هو متحف الرّواية، ومن أجل ذلك نذهب لكي نقرأ الرّواية.

لا أريد للشّعور وحده أنْ يحضر وبهذه الكثافة كما في الشّعر فحسب، ولا أريد للصّوت أنْ يكون مسموعًا على هذا النّحو كما في المسرحيّة فحسب، ولا أريدُ للموسيقى وحدها أنْ تنسابَ دون أنْ ترافقها مشاهد مُتخيّلة، ولا أريدُ للّوحة أنْ تتحدّد بأطرافها الأربعة، أريدُ عالَمًا متداخِلاً، فيه كلّ هذه الكثافة والحضور والتّعدّد والتّلوّن والحرّيّة، أنا أحتاج إذًا أنْ أقرأ الرّواية من أجل ذلك.

وماذا عن المُغامرة، أو المُقامرة بكلّ شيءٍ، ألا يكتسب هو الآخَر متعةً من نوعٍ ما؟! ماذا عن اللّوحات المتعدّدة، وعن المشاهد المُتباينة!! ماذا عن الانفِصال عن الذّات، والاندِماج

في ذاتٍ مُحلّقة!! ماذا عن الذّهاب بعيدًا في عالَمٍ مجهولٍ أريدُ أنْ أكتشفه بوصةً بوصة؛ ألا يُمكن للرّوايات أنْ تحقّق لي كلّ ذلك؟! بلى.

هل قراءة الرّوايات مَضيعةٌ للوقت؟

وُلِدتُ شاعرًا؛ وجاءتْني الرّواية على غفلةٍ من الشّعر في زمن الوقوع في الشَّرَك. إنّها غِواية السّرد الّذي صار قادِرًا على أنْ يفتن، ويُبهِج، ويفصلكَ عنك. ومنذ أنِ اجتاحت موجة الرواية العالَم، ليسَ العربيّ وحده فحسب، طفا سؤال على السّطح كان يُحاول الصّعود إلى الأعلى من بحيرة الأدب والنّقد، محاولاً شقّ طريقه ليحظَى بقليلٍ من الهواء والشّمس، واستطاع أخيرًا أنْ يفعل، استطاع أنْ يُوقِفنا نحنُ الكُتّابَ في مواجهته بشكلٍ فاضح: ما الفائدة من كتابة الرّواية؟ هل الرّواية فنّ مُبتَذل؟ هل هي مضيعةٌ للوقت؟ أليس أولئك الّذين يغرقون في تفاصيلها ويُعايِشون أبطالَها هم إمّا مراهقون أو مجانين أو حفنةٌ من الّذين أرادوا أنْ ينفصلوا عن واقعهم بالعيش في الأوهام الّتي تنسجها خيوط الرّواية بإحكام؟! كثيرةٌ هي الأسئلة الّتي يستلّها الواقع ليبرزها في وجهك ولا يمكنك معها غير المواجهة، وأنا في هذه المقالة قرّرتُ المواجهة، وقرّرتُ الإجابة.

لا شكّ أنّ أيّ عملٍ تقرؤه يُمكن أنْ يكونَ مضيعةً للوقت، سواءً أكان هذا العمل كتابًا في الفتاوى أو في الفِكر أو في الاقتِصاد أو في السّياسة والاجتِماع أو ديوانَ شعرٍ أو رواية أو مسرحيّة أو حتّى سطورًا كهذه الّتي أكتبها الآن، ضياع الوقتِ حاصِلٌ على أيّة حالٍ في كلّ نصّ تُصارع معه عقارب الزّمن لتُنهِيه، لكنّ المُعوَّل عليه هو: ما الّذي خرجتَ به من هذا العمل بعد أنْ أنفقتَ عليه ما أنفقتَ من وقتٍ وجُهدٍ ومال، هل كان الثّاني يُكافِئ الأوّل أم يقلّ أم يزيد! قلتُ: هذا ينطبق على أيّ عملٍ مقروء، لكنْ بدأتْ في الآونة الأخيرة تتصاعد أصواتٌ تتّهم مَنْ يقرأ الرّوايات بأنّهم سطحيّون وساذَجون وأصحاب عقول ضَحلة، وقدراتهم لا ترقَى إلى مستوى أنْ تقرأ في الفِكر لنيتشه ولسارتر ومالك بن نبي مثلاً، أو في الفلسفة لأفلاطون وابن رشد وهيجل وعبد الرّحمن بدوي، أو في علم الاجتِماع لابن خلدون ودور كايم، أو في علم النّفس لفرويد، أو في الفقه لابن حنبل... أو... وسيُصدّعون رأسك وهم يُلقون التُّهَم عليكَ جُزافًا بأنّ عقلك الصّغير لا يحتمل إلاّ التّرّهات ولذلك لا يذهب إلى هؤلاء العُظماء، ولا يقدر على أنْ يستوعبَ أعمالهم الخالدة، ولا لغتهم العالية!!

والحقيقة أنّ هذا وَهمٌ يُضافُ إلى قائمة الأوهام الكثيرة الأخرى الّتي وقع فيها العقل الجَمْعي القرائيّ العربيّ إنْ صحّتِ التّسمية، فما ينطبق على الرّواية ينطبق على غيرها، فكم من كتبٍ دُبّجَت في الفكر ليسَ لها بالفكر أيّة صلة، وكم من حبرٍ أُريقَ في تأليف كتابٍ في الفلسفة ليسَ له من الفلسفة إلاّ عنوانه، وكم من ديوان شعرٍ تعبتِ الأيدي في نَظْمه لا القلوب وليسَ له من الشّعر إلاّ اسمه، وكم من مِدادٍ سُكب على صفحاتِ مُصنّفٍ في علم النّفس لا يُساوي شيئًا، وكم من مُؤلّفات "ليست بنبْعٍ إذا عُدّت ولا غَرَبِ"، فهل خرجَ أقوامٌ ينفخون صُدورَهم ويرفعون عقيرتهم وهم يهتفون: إنّ قراءة هذه الكتب ليست إلاّ مضيعةً للوقت؟!

إنّ الكتاب الجيّد، ذلك الّذي يجعلك تخرجُ منه إنسانًا آخَرا! يُحوّل مجرى النّهر الّذي كان يسير برتابةٍ في أعماقك!! هو جيّد بالقيمة الّتي تخرج منه بعدَ أن تقرَأه، بالرّسالة الّتي ائتلفَ بها وِجدانُك، وتناغَمت بها مشاعرُك، بالسّؤال الّذي طرحه وظلّ مُعلّقًا يحوم في فضاء العقل مثل نحلةٍ لها صوتٌ ولَسْعٌ في كلّ حين، بالمصباح الّذي أنارَ الطّريق، باللّغة الّتي أصلحتِ النّفوس، بالأسلوب الّذي أمتع القلوب، بالخيال الّذي طاف بالأرواح في عالَمٍ من السّحر والجمال، فهل يجتمع كلّ ذلك في شيءٍ كما يجتمع في الرّواية؟!

ما زالت إلى اليوم – على سبيل المثال - بعد أكثر من خمسة قرون تُتَناول روايات شكسبير ومسرحيّاته بالدّرس والتّحليل النّفسيّ، وما زالت إلى اليوم بعدَ أكثر من خمسةٍ وعشرين قرنًا تعيش مسرحيّة أوديب الملك الّتي ألّفها سوفوكليس، بل صارت درسًا أساسيًّا في علم النّفس التّحليليّ فيما يُسمَى بـ (عُقدة أوديب)، وما زلْنا نرى عَرْجةَ أحدب نوتردام، ونتعاطَف معه في حُبّه لشابّة جميلة وهو يحاول أنْ يبذل حياته بكلّ وسيلةٍ لكي يُثبتَ لها حُبّه، وما زلْنا نتخيّل (جان فالجان) وهو يسرق رغيف الخبز ويُحبَس بسببه خمسَ سنوات وما كان يريد إلاّ إطعام الجَوعَى في روايات فيكتور هيجو. وما زالت شخصيّة أحمد عبد الجواد بكل مثالبها ومناقبها تتمثّل في شخصيّاتٍ أخرى ربّما تُصادِفنا في الشّارع، أو تعيشُ معنا في البيوت، تلك الشّخصيّة الّتي خلع عليها نجيب محفوظ في ثلاثيّته كلّ الخطوط وألبسَها أوضح الثّياب، وأرانا تقاطيعَ الوجه، وشكل الابتِسامة المسروقة من الشّفاه. وما زالت شخصيّة الدّيكتاتور الّذي يعيشُ أكثرَ من مئتي عام، ويتخلّص من مُنافسيه بطبخهم وإنضاجِ أجسادهم وتقديمها إلى الضّيوف وشتلة البقدونس تملأ أفواههم في رواية (خريف البطريرك) لماركيز ماثلةً إلى اليوم، بل نجدها متمثّلةً في كثيرٍ من الّذين

يجلسون على كراسيّ الحُكم في حياتنا هذه الّتي نعيشها. وما زال فارتر يطلّ بعربته الّتي تجتاز الدّروب المنسيّة في حدائق حُبّه، وهو يهيم براقصةٍ في دماء القلب، في رائعة جوته (آلام فارتر). وما زالت هواجس السّجين الّذي يُعاني في معسكرات سيبيريا الرّاعشة ببياض الثّلج ترتعش في أعماقنا نحن في واحدة من أعمال دويستويفسكي الّتي حكى فيها تجربته في (ذكريات من منزل الأموات).

فهل كانت قراءةُ كلّ ذلك مضيعةً للوقت؟! كلاّ، وألفُ كلاّ.

لقد عرفتُ الإسماعيليّة بصورة أجلى في رواية (آلموت) لفلاديمير بارتول. وعرفتُ المسيحيّة بصورةٍ أقرب مع أنّني قرأتُ الكتاب المُقدّس بشكلٍ مُعمّق من خلال رواية (كوفاديس) لهنريك شنكوفيتش. وعرفتُ المانويّة في سيرة مُبتدعها (ماني) من خلال رواية (حدائق النّور) لأمين معلوف.

وانظرْ تاريخ الحروب الصّليبيّة كم من مُؤرّخ كتب فيها، ولكنّ الإقبال على القراءة عنها كان ضعيفًا إذا ما قورن بالإقبال على قراءته من خلال السّرديّات الّتي تتحدّث عنه، مثل كتاب (الحروب الصّليبيّة كما رآها العرب) لأمين معلوف

كذلك. فمشهديّاته لا تُنسَى بسردها الطّريف؛ كمشهديّة ذلك الجزء من قلعة الكرك الّذي أمر صلاح الدّين ألاّ يُقصَف لأنّ فيه عُرسًا يُقام، وهناك عروسان يعيشان ليلتهما الأولى! وعرفتُ أكثر عن الحرب العالميّة الثّانية وعن آثار الحرب المدمرة من رواية (الساعة الخامسة والعشرون) لفيرجيل جورجيو. وعرفتُ عن البابويّة وطريقة تفكيرها، من كتاب السّرد: (البابوات أسيادٌ على السّماء والأرض) لمجموعةٍ من الباحثين الألمان، مثلاً قصّة (كانوسا) مع الملك هنريش الرّابع والبابا جريجوري السّابع.

غير أنّني لا أنكر أنّ هذه الموجة الطّاغية، رَكِبَها الهُواة، واستغلّها المُغامِرون وقليلو الباع في كلّ شيءٍ، فخرجوا لنا بأعمالٍ رديئةٍ فَجّة، وُلِدَت ميّتة؛ فأنّى لها أنْ تعيش!! ترى فيها لغةً ركيكةً خاليةً من المعنى واللّون، فتزيدُكَ خبالاً على خَبال. وتشابُكًا في الأحداث ينغرز في جلدك انغراز القتاد في كُبّة الصّوف، لا حلّ له إلاّ بالنّزع الأليم. وسردًا بارِدًا توَدّ لو أنّك تصفعُ وجه كاتِبه بعدَ كلّ صفحةٍ، وتندب حظّك العاثر الّذي أوقعكَ بين يدَي تُرّهاته. فهل تظنّون أنّني أتحدّث في مقالتي عن مثل هذه الأعمال، فضلاً عن أنْ أُقيم لها وزنًا من الأساس؟! كلاّ. إنّني أتحدّث عن الرّواية النّاضجة، الرّواية الّتي أتمّت شهورها كاملةً في رحم المُعاناة وخرجتْ لنا

شهيّة، طافحةً بالحياة، مُكتنزةً بالمعرفة، ومُحمّلةً بالرّؤى الغامضة، وعصيّة على الموت ما دامت التجربة الإنسانيّة حيّةً مُتوالدة.

إنّكَ إنْ أردتَ الدّرس النّفسيّ، والعمقَ الفكريّ، والخيال الجامح، واللّغة السّاحرة، والتّناقض اللّذيذ في نفسّيات الأبطال، والوهم والحقيقة، والشّك واليقين، والإيمان بالنّفس الّتي تحملها بين جنبَيك أو الكُفر المُطلَق بها وبجنوحها، فلن تجدَ مثل الرّواية لكي تُحقّقَ لك ذلك مُجتمِعًا!!

يقول (كولن ويلسون) في كتابه (حلم غايةٍ ما) الّذي كتب فيه سيرته الذّاتية: "غالبًا ما نُردّد أنّ داروين وماركس وفرويد غيّروا مسار الثّقافة الغربيّة، ولكنّ واقع الحال أنّ تأثير الرّواية كان أعظم بكثيرٍ من تأثير هؤلاء الثّلاثة مُجتمعين، وإنّ غايتي من وراء هذا الكتاب هو ألاّ يُقلّل أيّ روائيٍّ من أهمّيّة وعظمة صنعته، وأنْ ينظر إلى ما يفعله على أنّه مبعث فخرٍ وحماسةٍ في الحياة البشريّة".

فهل يُمكن القول بعدَ هذا كلّه: إنّ قراءة الرّوايات مَضيعةً للوقت، بل قولوا إنّ قراءة الكتب الفارغة، والخالية من المضمون النّافع هي مضيعةٌ للوقت بغضّ النّظر عن الفنّ الّذي

صُنِّفَ فيه هذا الكتاب، شعرًا كان أم نثرًا، أم فكرًا أم فلسفةً أم نفسًا أم اجتماعًا، أم أيّ فنٍّ آخَر من فنون الإنسانيّة المُتشعّبة.

الفصل الرّابع
الدّراسة

"وقد كان التّعطُّشُ إلى دَرْكِ حقائق الأمور دَأْبي ودَيْدَني من أوّل أمري ورَيعانِ عُمري، غريزةً وفِطرةً من الله وُضِعتا في جِبِلَّتي، لا باختِياري وحيلتي، حتّى انحلّت عنّي رابطةُ التّقليد».

الإمام الغزالي من كتاب (المُنقِذ من الضّلال)

تمهيد:

وُلِدتُ في جيلٍ يرى في الدّراسة أملَه في التّغيّر والتّغيير، وأمانه في الحَياة. كان جيل أبي والّذي سبقه من ذلك الصّنف من الجيل الّذي لم يكنْ في ثقافته أنْ يرتاد الجامعات وأنْ يُحصّل الشّهادات، مع أنّ أبي غرّدَ خارج السّرب في هذا، والسّبب ليس قلّة سعيهم إلى العِلم بالدّرجة الأولى، بل لأنّ السّبل إلى مثل هذه المعاهد العالية لم تكنْ مُمهّدة، هذا فضلاً عن أنّها لم تكنْ موجودة.

في زمنٍ لاحق، عندما فتحت الجامعات أبوابَها في الأردنّ لطالبي العلم منذُ مطلع السّتّينيّات من القرن المُنصرم بدأت تنمو عند النّاس فكرة الدّراسة ولو كلّف ذلك الكثير، فكان الفلاّحون مستعدّين لبيع أبقارهم أو أغنامهم أو دوابّهم وحتّى أراضيهم من أجل أنْ يدرسَ أبناؤهم في هذه الجامعات، ويتابعوا تحصيلهم العلميّ، كان هذا ردّة فعل طاغية من جيل الآباء على ما فقدوه في حياتهم من الذّهاب إلى الجامعات فحاولوا تعويضه بتوفيره لأبنائهم، وقد أثمر ذلك في صُنعِ جيلٍ من المتعلّمين كان له بصمته في الأردنّ في السّتينيّات وفي السّبعينيّات، ولكنْ ما إنْ بدأ القرن الفائت يُولّي وجهه نحو قرنٍ جديدٍ، حتّى دخل التّعليم الخاصّ، والجامعات الخاصّة، وانجرّتْ معها الجامعات الحكوميّة فأنشأتْ ما يُسمّى بالبرنامج الموازي، وهو يعني أنّكَ تستطيع أنْ تدرس في الجامعة الحكوميّة حتّى وإنْ لم يُؤهّلْكَ معدّلك ولا ذكاؤك إذا دفعتَ مالَك. ومن هناك ابتدأ التّعليم الجامعيّ بالتّحوّل إلى تجارة، ثُمّ تغوّلت هذه التّجارة، فتحولّت إلى تجارةٍ رخيصة، فماذا كانت المُخرجات، جيلٌ يحمل شهاداتٍ عُليا ولكنّه أمّيّ. ولقد مرّ عليّ أساتذة يحملون شهادة الدّكتوراة في اللّغة العربيّة، فإذا دفعتَ لهم ثلاثة أبياتٍ أو أربعةً للمتنبّي ليقرؤوها أخطؤوا في قراءتها

غير مرّة كأنّهم لم يقرؤوا في حياتهم شِعرًا. والّذي ينطبق على العلوم الإنسانيّة ينطبق على بقيّة العلوم، ولِذا لم يعدْ للعلم تلك القداسة، ولم يصُنه أهله كما أَمِلَ الجرجانيّ، وتصدّر للأمر غير أهله، وقادَها الجاهلون، فحدثت الطّوامُّ، وازداد ما نحنُ فيه من تخلّف ومن سوءٍ سوءًا. ولكنْ مع كلّ ذلك، خرج من هذا السّوء ومن هذه الطّوامّ مَنْ تعبَ على نفسِه، ولم يُسلّم بمسار الشّهادة الإجباريّ الّذي يُجهّل أكثر مِمّا يُعلّم، وخرجَ عن هذا الطّوق، فعرفَ كيفَ يُعلّم نفسَه، وكيفَ يصنع لها من العِلم قيمة. وإذًا فهذا ما كان عليه الأقدمون، كانت هناك مدارس، وكان هناك كُتّاب، ولكنّ الشّهادة أو الإجازة لم تكنْ لتحكمهم أو تحكم عليهم وتُصنّفهم كما تفعل اليوم.

الدّراسة الأولى:

لم يُدرّسني أبي وأنا في الصّفّ الأوّل الابتِدائيّ منهاجَ وزارة التّربية والتّعليم (المنهاج الحكوميّ)، بل صنع لي منهاجًا مُوازيًا، ودرّسني فيه الأبجديّة، واهتمّ بتركيب الجُمل عندي. ولذلك كانت جُملي في البدايات المُتأخّرة هي عبارة عن احتمالات، وعبارة عن تراكيب مُتعدّدة حين تتعدّد الكلمات الموضوعة في التّراكيب، ثمّ اشتغل عقلي الرّياضي

على الجُمل باستِخدام مَبدأي الاحتِمالات والفرضيّات، فكنتُ أركّب من الجمُلة مِئات الجُمل، مُستخدِمًا ما تتيحه اللّغة العربيّة من تقديم وتأخير، وحذف وإضافة، واسناد كلّ تركيب جديدٍ على معنى جديد!!

ولقد أشرتُ إلى تأثير هذه الطّريقة عليّ في رواية (تسعةَ عشر) في الاحتِمالات الّتي وضعها بطل الرّواية لكلمة واحدةٍ في بيتٍ للمتنّبي:

«إذا اشتبهَتْ دموعٌ في خُدودٍ

تَبيّنَ مَنْ بَكى مِمّنْ تباكَى

قلتُ: «لماذا لا تكون إذا اشتبكتْ دموعٌ في خدودٍ؛ فالاشتِباك، الّذي يتضمّن الاشتِباه فيما يتضمّنه أفضل، ناهيكَ بصوت حروفها الّتي تكاد تسمع فيه تدافعًا وطِعانًا، أضِف إلى تجانسها مع كلمة تباكى الّتي في آخر البيت في ثلاثة حروف هي التّاء، والباء، والكاف. ثُمّ لم يُعجبني رأيي، فقلتُ لماذا لا تكون: «إذا اشتعلتْ دموعٌ في خدودٌ»؛ فقولنا جرادٌ مُشْعِلٌ، إذا انتشر وجَرى في كلِّ وجه، فتعني القوّة والكثرة والانتِشار، وقولنا غُرّةٌ شَعْلاءُ يعني أنْ تأخذ الغُرّة وهي الشّعر

الكثيف إحدى العينين حتى تدخل فيها، وهذا يُناسب امتلاء العين بالدّمع حتّى تفيضَ المقلتان به فتتدفّق على الخدود، والاشتِعال يعني فيما يعني الاحتِراق الّذي يتناسب مع حرقة الدّموع وحرارتها، ولكنّنا سنصطدم بقوله (تبيّن)؛ فالتّبيُّن أو التّباين يكون بين مُستوَيَين أو بين نقيضَين كما أراد الشّاعر بين البُكاء والتّباكي، ولكنّ اشتعل تذهب إلى مستوى واحد وهو الاشتِعال الحقيقيّ لا المُصطَنَع، فالكلمة لا تفي تمامًا بما أراد الشّاعر، فعدلتُ عن أنْ أجدها مناسبةً! فقلتُ: لماذا لا تكون «إذا اشتجرتْ دموعٌ في خدودٍ»، فالاشتِجار يدلّ على ألف معنًى يزيد على الاشتِباه الّذي أراده المتنبّي؛ فاشتجر الشّيءُ تعني تداخل بعضُه في بعض، ويقال: اشتجرت الرّماح إذا اختلطت لكثرتها من جهة، ولعدم معرفة مَنْ كان منها معك مِمّن كان منها ضِدّك من جهةٍ أخرى، ويقال كذلك اشتجرت الأصابع إذا تشابكتْ، واشتجر القوم تخالَفوا وتنازَعوا. وأعجبتْني هذه الكلمة أكثر. لكنّني أيضًا قلت: لماذا لا تكون: إذا اشتهرتْ دموعٌ في خدود؛ أي إذا ظهرتْ بوجهٍ جليّ فَرُئيتْ لكثرتها، وهذا يتناسب مع قَفْلة البيت بكلمة (تباكَى) إذْ إنّ مَنْ يبدو هنا باكِيًا يريد لدموعه الاشتِهار، فهو لم يبكِ بل تباكَى... وهكذا؛ ومع أنّ الكلمات الخمس (اشتبهتْ، واشتعلت، واشتبكتْ، واشتجرت، واشتهرت) مشتركة كلّها في وزنٍ واحدٍ، وفاؤها واحدة وهي الشّين إلاّ

أنّ البَوْن بين كلّ كلمةٍ وأخرى شاسعٌ. وفكّرتُ لماذا لا يستطيع الشّاعر أنْ يضع كلّ الخيارات الممكنة الأخرى إلى جانب كلّ كلمةٍ يقولها، فكلمات العربيّة رائعة وقادرةٌ على أنْ تُصيبكَ بحالةٍ من الانخِطاف إلى حَدّ يصعبُ تخيّله، إنّ كلماتها أكثر من النّجوم، والانتِقاء منها أسهل من اغتراف كأسٍ من الماء من محيطٍ متلاطم، ثُمّ قلتُ إذا لم يفعل هو ذلك، فلماذا لم يفعله الشُّرّاح والنّقّاد».

بدأتُ في الرّوضة، كانت الرّوضة مُلاصقةً لبيتِ جدّي من الجهة الجنوبيّة, وتعودُ ملكيّتها لواحدٍ من أهل القرية، أجّرها لا أدري لمن، ولكنّها كانت تضمّ طفولتَنا الأولى، ولي فيها حكايات طويلةٌ، وما أكَلْتُه فيها لا أنساه، وما حفظتُه كذلك، رائحة الطّعام، لونُه، بُخاره الّذي يتصاعدُ فوقَ أطباقِه، والملابس الّتي كُنّا نلبسها، والأناشيد الّتي كُنّا نردّدها، ومعلّمتنا الّتي كانت ترعانا، والأميرة (بسمة) الّتي زارتْنا وانحنتْ بجذعها لتهمس في آذاننا، والنّقود الّتي ادّخرتُها، وصوتُ أقدامنا الطّفوليّة بأحذيتنا البسيطة ونحن نعبر الرّواق الطّويل، ولَهْونا في السّاحة... كلّ ذلك لا يُمكن أنْ يُنسَى... عشتُه بتفاصيله، ولا زال يعيشُ معي، ومن خيالاته وطُيُوفه أصنع إلى اليوم طيوفَ الصّغار الّذين يعبرون روايةً من رواياتي هنا أو هناك!

دَرَّسني في الصّفوف الأولى في (سُوف) الأستاذ أمين أبو العدس. وكانت له هيبته مع أنّه درّسنا كلّ شيءٍ باستثناء الرّياضة، في الصّفّ الرّابع كنّا نتنافس على الخطّ، انحصرت المنافسة بيني وبين طالبٍ آخَر، كان هذا انتِصارًا بالنّسبة لي، فقد تغلّبت مع هذا الزّميل على أكثر من أربعين طالبًا في الصّفّ؛ من الأمانة أنّ نقول إنّ المنافسة لم تكنْ بتلك الصّعوبة، إذ إنّ نصفَ هؤلاء لم يكونوا يكتبون بخطوطٍ مقروءةٍ من الأساس. اخترتُ أنا بيتًا من الشّعر لأُخطّطه وأنافسَ عليه، واختار هو على ما أذكر حكمةً أو مقولة، حينَ نظر الأستاذ في الصّفحتَين، قلّب طرفَه بينهما طويلاً ونحن ننتظر، ثُمّ مال رأسه إلى صفحة زميلي، فمال معها قلبي من التّرقّب، ثُمّ حكم له بأنّ خطّه أفضل من خطّي، وشعرتُ بما يشعر به طفلٌ يومئذٍ من الخيبة، وطفرتْ من عيوني دموعٌ لم أستطعْ مُواراتها أو الهروب منها، ولم أعدْ أهتمّ بأمر الخطّ، حتّى رحلْنا إلى إربد، وعيّن أبي لي ولأخي سهل الخطّاط (حطّاب) ليدرّسنا الخطّ في البيت، ولم نستمرّ معه كثيرًا، إذ رحل إلى عمّان وصار اليوم من أشهر الخطّاطين في الأردنّ.

رتقَ تلك الخيبة، أنّه في نهاية العام الدّراسيّ ١٩٨١م، في شهر يونيو منه على ما أذكر، دخل الأستاذ (أمين) ومعه

كومة الشّهادات الّتي سيُسلّمها لنا، وقبل أنْ يفعل، قال إنّه سيُعلن أوائل الصّفّ، وتحفّزْنا جميعًا للتّبأ حتّى أولئك الّذين يُعيدون الصّفّ معنا لأنّهم راسِبون من العام الفائت، فعلى طبيعة الإنسان كما قال الشّاعر:

يهوى الثّناءَ مُقصّرٌ ومُبرِّزٌ

حُبُّ الثّناءِ طبيعةُ الإنسانِ

ثُمّ طلبَ من خمسةِ أنْ يقفوا دون أنْ يقول شيئًا، وكنتُ أحدَ هؤلاء، وبالشّعور النّفسيّ شعرتُ أنّني قطعتُ نصف المسافة نحو الحصول على التّفوّق، ثُمّ بدأ الأستاذ يُثني على المُجتهدين، وعلينا، ويقول إنّ هؤلاء هم أوائل الصّفّ وعلى البقيّة أنْ يكونوا مثلنا، ثُمّ قال إنّه سيُعلن ترتيبنا من الأوّل حتّى الخامس، وتحفّزنا نحن الواقفين، وشعرتُ بخدرٍ يسري في قدمَيّ وأنا أنظر إلى شفاه الأستاذ أنتظر أنْ يكون أوّل اسمٍ يُعلنه هو اسمي، ولكنّ الأستاذ ظلّ صامتًا برهةً أحسستُ أنّها كانت دهرًا، ثُمّ نظر في الوجوه ولم ينظر في وجهي فكدتُ أسقطُ على الدّرج مغشيًّا عليّ لخشيتي من أنّني لستُ الأوّل، ولكنّه أعادَ النّظر في الشّهادات ورفع شهادة الأوّل وتابعتُ شِفاهه ونطق الاسم، لقد فتح تلك الشّفتَين مع

الحرف الأوّل، هل هو حرفُ اسمي؛ الهمزة، نعم لقد كان اسمي! وسقطتْ بالفعل على الدّرج لا تحملني قدماي وأخذتْني الفرحة بعيدًا حتّى إنّني لم أسمع بقيّة الأسماء وترتيبهم!

مدرسة سوف الابتدائية

حينَ انتقلْنا إلى إربد وكنتُ في الصّفّ الخامس الابتِدائيّ درّسنا مادّة الرّياضيّات الأستاذ (شوباش) كانت لديه سيّارة مرسيدس من طراز (١٩٠)، المميّزة بأضوائها الّتي تُشبه العيون المُندهشة المفتوحة على اتّساعها، وبمِقودها الّذي تستقرّ في وسطه دائرةٌ تُشبه الكعكة الشّهيّة، وفي وسطها علامة مرسيدس الشّهيرة. كانت أكثر أمثلته مُستوحاة من سيّارته، ربّما كان من الأساتذة القلائل الّذين يملكون سيّارة في تلك الأيّام، وكان مُغرَمًا بها داخِلاً في حالة عِشق معها، ولذلك جاءت أمثاله منها، فلربّما قال ليدلّل على السّرعة والمُقاومة: «إذا كنتَ تركبُ سيّارة مرسيدس وكنتَ تقودها في شارعٍ مكتظّ في وسطِ البلد، فإنّ هذا الاكتِظاظ سيقلّل

من سرعة هذه السّيّارة لتسير ببطءٍ يتناسب عكسيًّا مع شدّة الازدِحام، يُمكنكم أنْ تسمّوا الازدِحام مقاومة، إنّ السّرعة تقلّ إذا زادت المقاومة... » بالطّبع كان يقصد مُعامل الاحتِكاك مع السّرعة. وكان يصمت قليلاً ويحكّ ذقنه، ثُمّ يتابع: «أمّا إذا كنتَ تقود سيّارة المرسيدس هذه في شارعٍ خالٍ، أي لا توجد فيه مقاومة، فإنّك ستبدأ تزيدُ سرعتَك حتّى تبلغ السّرعة القُصوى، وكلّما كان الشّارع خاليًا كان بإمكانك زيادة سرعتك». بهذه الكيفيّة المُبسّطة والسّاذجة كُنّا نفهم عنه الرّياضيّات. ومع ذلك لا أنكر أنّ له فضلاً في صوته الأجش وأمثلته الواقعيّة وهيئة وقفته أمامنا في تحبيبي بالمادّة، وحُبّي للرّياضيّات جعلني أتفوّق فيها في مراحلي اللاّحقة، وهو الّذي أغراني بصورةٍ ما بدخلو كلّيّة الهندسة فيما بعد.

غير أنّني عندما انتقلتُ من مدرسة (الحلحولي) هذه إلى مدرسة (حمزة بن عبد المُطّلب) الإعداديّة، وتركتُ الأستاذ (شوباش) مع طلبةٍ آخرين، وفدْنا في المدرسة الجديدة على أستاذٍ جديدٍ للرّياضيّات، وهو أستاذٌ كان من القسوة وعدم التّسامح إلى درجةٍ كرّه الطّلبة بالمادّة وأرعبهم منها، وكنتُ سأكون منهم، لولا أنّني لشدّة الرّعب من عصاه انكببتُ على دراسة مادّته حتّى لا ألتسع بها، ولجأتُ إلى أحدِ أقاربي من الأساتذة المعروفين ليحلّ لي ما يُشكل عليّ يومئذٍ. كان هذا

الأستاذ يحشر الطّالب الّذي لم يحلّ الواجب في الزّاوية خلف باب الصّف، ويطلب منه في البداية أنْ يفتح يدَيه، ويبدأ بسلخهما بعصًا من خيزران ملفوفةٍ بالبلاستر الأسود، ومقبضُها مُوشّح بالدّبابيس البيضاء، ويفتح الطّالب المسكين يدَيه، ويبدأ بالصّراخ مع كلّ ضربةٍ فإذا بدأتْ يداه تتورّمان والأستاذ مُستمرّ في جلدِه، يبدأ بالاستِغاثة لكنّ استغاثاته تفعل عكس ما يُراد منها، إذ إنّها تُغري الأستاذ بالصّراخ هو الآخر صراخًا يحمل شتائم وتوبيخات، فإذا لم تعدْ يدا الطّالب قادرتَين على البَسط أمام عصا الأستاذ لتورّمهما وإصابتهما بالانهِيار، يزداد الأستاذ شراسةً فيهوي بالعصا على كافّة أنحاء جسد الطّالب المسكين، ويتكوّر هذا الطّالب على نفسه، وينزلق بجسده جاثِيًا على قدمَيه، ومُحيطًا رأسَه بذراعَيه حتّى لا تفقأ العصا عينَيه، ومع ذلك لا يتوقّف الأستاذ عن الضّرب حتّى يأخذ منه التّعب مأخذه، ويبدأ باللّهاث فيتوقّف عن الضّرب، ولكنّه لا يتوقّف عن الشّتائم وهو يعودُ إلى طاولته، آمرًا الطّالب أنْ يخرجَ من الصّفّ ومهدّدًا إيّاه: «لا تُرني وجهك بعدَ اليوم إلاّ ووليّ أمركَ معك». ولربّما خرجَ الطّالب من الصّفّ ولم يعدْ إليه أبدًا لا بنفسه ولا بوليّ أمره، وكانت قسوة هذا الأستاذ سببًا في تركه المدرسة كلّها والتّعليم من أساسه!!

مدرسة حمزة بن عبد المطلب الإعدادية

وكان مدير الإعداديّة أسمر، نحيلاً، يميل إلى الطّول، ذا صوتٍ أجشّ يطرق سمعك من مكانٍ بعيد، وكان كثير العبوس، قليل التّبسّم، وكان يلبس في أكثر أيّامه شماغًا، والعصا ترافقه، وكان يضرب بها للتّخويف أكثر مِمّا يضرب بها للعقوبة. ومع أنّه كان قاسِيًا حازِمًا، إلاّ أنّه بخلاف أستاذ الرّياضيّات كان أبًا، وينصح، ويُرشِد، ويوبّخ بأسلوبٍ ذكيّ، ويُكافِئ إنْ وجدَ من الطّلاّب مَنْ يستحقّ المُكافأة، وقد فزتُ في زمنه بمسابقة لحفظ القرآن وحصلتُ على كتاب (نزهة المُتّقين شرح رياض الصّالحين) وكرّمني أمام طلبة المدرسة خلال الإذاعة الصّباحيّة، ولذلك لم نكرهه!

اليوم أنظر إليه على أنه أمر صغير وجانبي ولا يستحق الذكر، ولكنه كان يومئذ عظيمًا في التحفيز، وتراكمات مثل

هذه الأشياء الصغيرة هي التي تصنع الإنسان مع الزمن وتصقل شخصيّته.

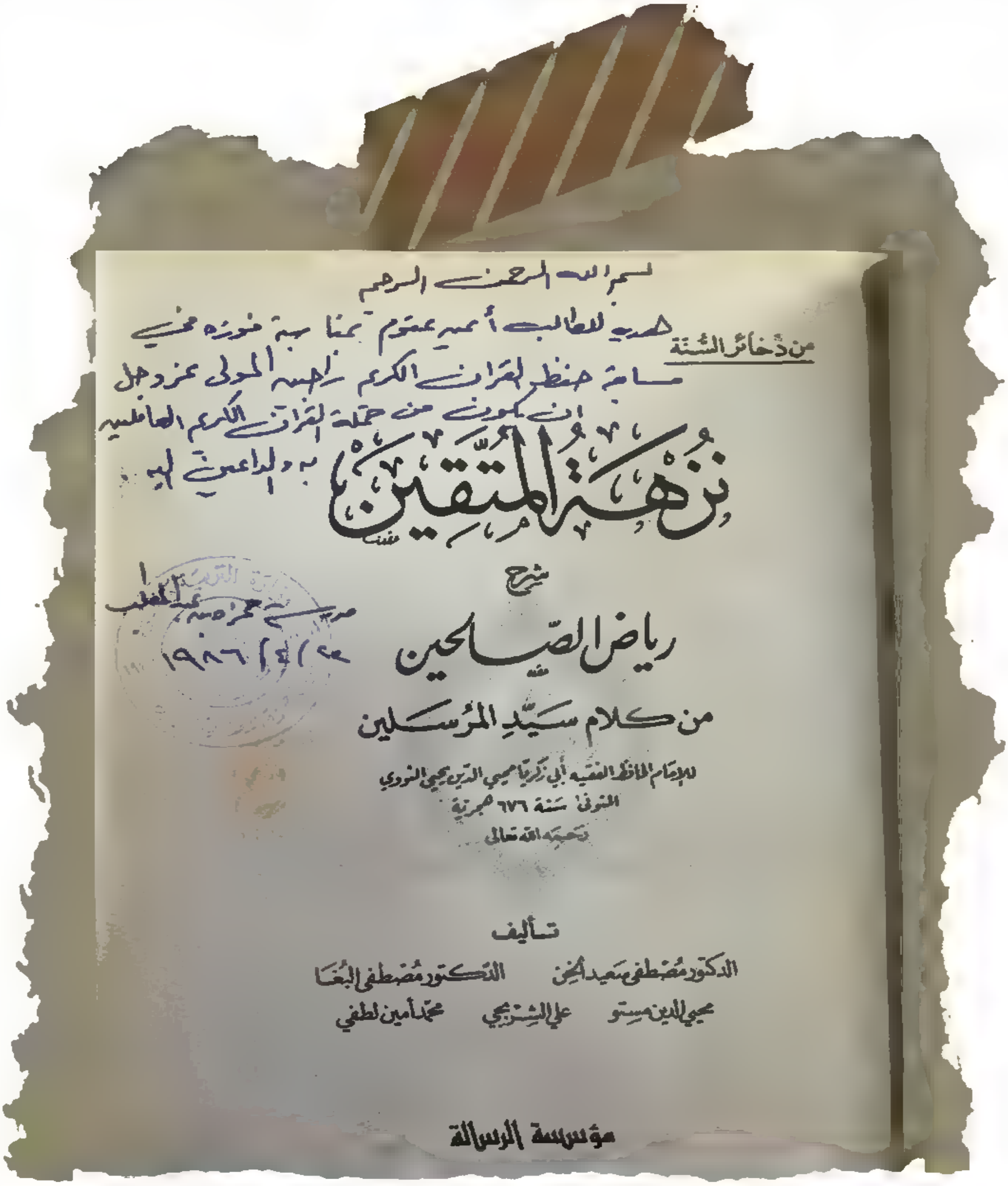

جائزة نزهة المتقين شرح رياض الصالحين

حينَ صرتُ في الثّالث الإعداديّ، درّسنا مادّة الفيزياء الأستاذ (محمّد خير الويسي)، كان ابنُه (جمال) أعزّ

أصدقائي، وقد تُوفّي غرقًا في العقبة ونحن على مقاعد الدّراسة الجامعيّة، وقد درس كأبيه مادّة الفيزياء في جامعة اليرموك، كان ابنه هذا أكبرَ أبنائه وألمعهم، ولقد رأيتُ أباه بعد أنْ فقده قد انكسر، وانعزل، وفقد كلّ لذّة في الحياة. رثيتُ صديقي بقصيدة تفيضُ لوعةً:

«يا حبيبي يا جَمالْ

ماتَتِ الأجوبةُ الخَرْساءُ في صَدْري ومَا ماتَ السُّؤالْ»

ورمّزتُه في رواية (ذائقة الموت)، في النّصّ الّذي يقول: «ابتعد (جمال) أكثر، أكثر... أين يهرب...؟! إلى أين يتّجه هذا المجنون...؟! أيحاول أن يتخلّص منّي بالدّخول إلى قلب البحر...؟! ظلّ يسبح باتّجاه الغرب حتّى أصبح نقطة سوداء لا تكاد تُرى من الشّاطئ... ثمّ... ثمّ ذاب في البحر...!!».

كان الأستاذ (محمّد خير الويسي) يُحبّ الاستِماع لشعري، وقد طلبَ منّي - كما ذكرتُ من قبلُ - أنْ أصفَ له الذّرّة بقصيدة، ولقد قال بعد أنْ أنهيتُ قصيدتي جملته الفارقة: «أنتَ لا تصلح إلاّ للأدب». استغرقت هذه الجملة أقلّ من

عشرَ ثوانٍ من الزّمن، لكنّها تفاعلت في داخلي عشر سنوات حتّى توجّهتُ في الفصل الأخير من دراستي للهندسة عام ١٩٩٦م إلى دراسة اللّغة العربيّة!

دَرَسْتُ في المدارسِ كُلّها على اللّوح الأسود، الذي لم يكن من الخشب ولكنه كان جزءًا من الجدار نفسه مَطليًّا بهذا اللون، والطباشير الجيرية، والمِمسحة ذات المقبض الخشبيّ، الّتي كان على المحظوظ منّا أنْ يخرجَ بها من الصّفّ ليقوم بتنظيفها بطرقِها بجدار السّاحة الخارجيّة أو بجِدار الحَمّامات، ولما تطور الوضع قليلاً في الثانوية دَرَسْنا على اللَّوح الأخضر الّذي كان فتحًا عظيمًا، إذْ لم يعدْ جزءًا من الجِدار، بل صار لوحًا خشبيًّا يتوسّط الجدار أمام الطّلاّب ويأخذُ نصفَ مساحة ذلك الجدار أو أقلّ، وكانت هناكَ طبقيّةٌ في توزيعه وحجمه، فكانت الصّفوف العُليا تحظى بلوحٍ أخضرَ واسعٍ ممتدّ على طول الجِدار ويكادُ يُغطّيه من طرفه إلى طرفه الآخَر! ثُمّ لمّا دَرَّسْتُ أوّلَ عهدي بالتّدريس في مدرسة (الرّائد العربيّ) ظلّ اللوح الأخضر موجودًا على حالته، ولكنّ التّطوّر الّذي دخلَ عليه أنّه صار أملس. ولم نُدرّسْ على لوح الصّفيح الأبيض المصقول وأقلام الماركر إلا بعد عام ٢٠٠٤م!!

مدرسة الأمير حسن الثانويّة

الدّراسة الجامعيّة:

درستُ في ثلاث جامعاتٍ حكوميّة هي الأقدم في الأردنّ. اليوم بعدَ مرور أكثر من ثلاثين عامًا على بدء تلك الدّراسة أحاول أنْ أستذكر ما مرّ، فأجدُ أنّ معول النّسيان أشدّ في التّأثير من منديل الذّكرى، الّذي أستخدمه الآن لأزيل طبقات الغُبار الّتي تراكمتْ عبر هذه السّنين كلّها على تلك الفترة.

التقيتُ أساتذةً كثيرين، وطلابًا أكثر، ولكنّني اليوم – لضعفِ ذاكرتي، ولضعفِ ما يبقى من أثرٍ إنْ لم يكنْ نُقِشَ على القلب – أستغرب من كثرةِ نسياني، ومن قلّة الّذين أتذكّرهم طَوال هذه الفترة. أشعرُ كأنّني مررتُ بحلمٍ طويل،

أو أنّني كنتُ في عالَمٍ آخَر، أمعقولٌ أنّني أعجز بالفعل عن استعادة ما سقط من فُتات هذه الذّاكرة المثقوبة في آبار النّسيان؟!

جامعة العلوم والتّكنولوجيا:

بدأتُ عامي الدّراسيّ الجامعيّ الأوّل سنة ١٩٩٠م طالبًا في كلّيّة الهندسة في جامعة العلوم والتّكنولوجيا الأردنيّة على بعد (١٧) كم شرقيّ إربد، كانت الجامعة فتيّة، لم يمرّ على تأسيسها غيرُ أربع سنواتٍ، وكنتُ طروبًا عاشِقًا للحياة، عائِدًا من دولة الإمارات، منطلقًا في الدّروب، مثل حصان جامح، أريدُ أنْ أعرف الجميع، وأنْ يعرفني الجميع، وهذا ما تحقّق بالفعل، كان عددنا في الجامعة بتخصّصاتنا الطّبّيّة والهندسيّة لا يزيدُ كثيرًا عن ألفَي طالب كما لو كنّا طُلاّب مدرسةٍ لا جامعة! وكانت الأقسام الطّبّية لم تُفتتَح بعد، فكان طلبة الطّبّ وطبّ الأسنان والصّيدلة والعلوم الطّبّيّة الأخرى يداومون معنا في كلّيات الهندسة، فسهّل ذلك لي لقاءَهم والاختِلاطَ بهم والتّعرّف إليهم عن قرب، وقد سعيتُ إلى أنْ أندمج بهذا المجتمع الجديد كامل السّعي، وكانت أيسر الدّروب إلى ذلك التّبكير بالذّهاب في السّادسة صباحًا إلى مجمّع باصات إربد القديم، الّذي تحوّل إلى مجمّع الشّيخ

خليل فيما بعدُ، والانطِلاق بعد الوصول إلى الجامعة إلى (الكافتيريا) الّتي كانت تضمّ كلّ الطلبة من التّخصّصات كافّة القادمين للّحاق بالمحاضرة الأولى، وهناك كانت العيون الشّغوفة تتلمّس معالم هذا المجتمع الجديد، هناك دارت الحوارات، والنّظرات، والنّقاشات، والتّعرف إلى زملاء من داخل التّخصّص أو خارجه، وهناك بدأتُ أكتبُ قصائد الغزل، كانت بنات كلّيّة الصّيدلة الأوفر حَظًّا في اصطِيادنا نحن العاشقين الجُدُد، كُنّ جميلاتٍ، أو ربّما كُنّا نراهنّ كذلك، وكان من السّهل أنْ تقع في حُبّ صيدلانيّة وأنْ تأنفَ وتتعالَى عليكَ بدروها، فقد كُنّ يشعرْنَ أنّهنّ مرغوباتٍ أكثر من غيرهنّ، فكانتْ ردّة الفِعل بالدّلال المُبالَغ فيه ردّةَ فِعلٍ طبيعيّة ومُتوقّعة. المهمّ: هل وقعتُ أنا في حُبّ صيدلانيّة؟ الجواب: نعم. وكتبتُ فيها أكثر ربّما من عشر قصائد ملتهبة، وكنتُ ألقي تلك الأشعار الحارّة أمام عددٍ من الزملاء أو المُتجمهرين في الكافتيريا أو في السّاحات أمامها، ولقد حفظَها بعضُهم عن ظهر قلب؛ لأنّهم وقعوا في الشَّرَكِ ذاته الّذي وقعتُ فيه، ولأنّ الأبيات كانت تمثّلهم ربّما أكثر مِمّا تُمثّلني!!

(٤-٧)، (٤-٨) في جامعة العلوم والتّكنولوجيا، أُلقي الشّعر في السّنة الأولى عام ١٩٩٠م

كانت جامعة العلوم في أوّل عقد التّسعينيّات فتاةً خجولةً وطيّبةً ومُتسامِحة، لم تتعلّم بعدُ - وهي حديثة العهد

بالإنشاء - كيفَ تكون عنيدةً أو لعوبًا أو زائفة. في الصّباح الباكر وقبل استيقاظ العصافير كانت تستقبلنا والنّدى يترقرق على أوراق أزهارها خَجِلاً مثلها، كلّما أثقلَ النّدى زهرةً انحنت تُحيّي القادمين إليها من القرية الكبيرة (إربد) أو من قُراها الصّغيرة، كانت المدرسة آنذاك - كما قلتُ - مدرسةً كبيرة وكنّا نشعر كأنّنا أُسرةٌ واحدةٌ سواءً أكنّا أساتذةً أم طُلاّبًا أم موظّفين، ولم يكنْ شاقًّا على أيٍّ مِنّا أنْ يعرف حتّى عُمّال النّظافة، ويبادلهم التّحايا والابتِسامات، باختِصارٍ كانت الجامعة أُمًّا لنا نأوي إلى حِضنها الدّافِئ، وتفرشُ لنا ابتساماتِها في اللّيالي القاتمة، وتبسطُ لنا يدها في الرّياح الشّديدة العاصفة، ليسَ هناك مِنْ بَرْدٍ يثقبُ أنفاسَنا، ولا حزن ينقبُ أفئدتَنا، ولا بؤسٍ ينقرُ أكبادَنا، ونحن بجانب هذه الأمّ الرّؤوم.

وكشاعرٍ وطالبٍ تفاعلتُ معها - ربّما - بطريقةٍ مُختلفةٍ عن الآخرين، كنتُ أحملُ في قلبي فضاءات شاسعة وجاهزة تمامًا لأنْ تتلوّن بالنّجوم والشُّهُب، تركتُ قلبي لوحةً بيضاء بين يديها ترسمُ بريشتها - وهي الفنّانة الفَتّانة - فوقَه أزهى صُورِها وأجملها، وسرعان ما انقدتُ إليها باستسلامٍ حالمٍ وهي تخطو بي إلى عوالم من الشّاعريّة ثرّة، وإلى حقولٍ من الفنّ ثرثارة، ومشيتُ معها فسطّرتُ أبدعَ ما يُمكن أنْ يُتاح

لشاعرٍ ينقل الخطو على ما يرسمُ.

تخرّجت في الجامعة في كلّيّة الهندسة قسم الهندسة المدنيّة عام ١٩٩٧ وكان من المفترض أنْ أتخرّج في العام ١٩٩٥م، ولكنّني حوّلت تخصّصي في البداية، وفُصِلت من الجامعة في العام ١٩٩٤م فصلَين دراسِيَّين بسبب قصيدة، وسُجِنت من بعدُ سنة عام ١٩٩٦م بسبب قصيدةٍ أُخرى كذلك.

لقد كانت أكثر جامعة أحببتُها، ربّما لأنّ الحبّ الأوّل كان فيها. عاصرتُ فيها رئيسَين هما: الدّكتور كامل العجلوني، والدّكتور سعد حجازي وكلاهما كانت علاقتي بهما أكثر من علاقة الأخ الأصغر بأخيه الأكبر؛ وإن اضطرّ الدّكتور كامل لِفَصْلِي من الجامعة فصلاً مؤقّتًا بسبب قصيدتي في اتّفاقية وادي عربة ١٩٩٤ لأنّه يعلم أنه اتّخذ أخفّ الضّررين، وأوقف تدخّل السّلطة في الموضوع.

كان الدّكتور كامل ينزل من سيّارته عند مدرج الطّائرة الصّغيرة الّتي كانت تربض على ساحةٍ في أقصى الكلّيّات الهندسيّة من جهة الجنوب ويمشي على رجليه إلى مبنى الرّئاسة الّذي يقع في أقصى الشّمال من تلك الكلّيّات؛ وكان يفعل ذلك من أجل الرّياضة والصّحة، وبعضهم قال: إنّه كان

مصابًا بالسّكّري وكان يقاومه بالرّياضة والمشي.

ولقد شاهدتُه بأمّ عيني يصرخ بالطّلبة الّذين يمشون على العشب في الأحواض، ويأمرهم بالمشي على الأرصفة، وكان يقول: هذه المساحات الخضراء من أجل الجلوس والاستمتاع؛ لا من أجل قَتْلها بالمشي فوقها. وبالمناسبة أنا كنتُ أحدَ الّذين صرخ في وجههم بذلك. ورأيتُه في موقفٍ آخَر ينزع (سلسال) من عنق أحد الطّلبة وينهره عن ذلك كأنّه أبوه؛ كانت الجامعة في ذلك الوقت تُشبه المدرسة وكان هو يمثّل دور المدير الصّارم الّذي يتدخّل بكلّ شيء. وفي مشهدٍ ثالثٍ رأيتُه يقف أمام طالب كان يلبس (الدّشداش) ويضع (العقال) على رأسه ويأمره أن يخلعهما؛ فقال له الطّالب: إن شاء الله في المرّة القادمة لن ألبسهما؛ فردّ عليه: بل الآن اخلعهما!! فقال له الطّالب: كيف هنا في الجامعة؟!! فنادى الرّئيس أحد الحرَس وطلب منه أن يأتي بسيّارة من سيّارات الجامعة ويأخذ هذا الطّالب إلى بيته وينتظره خارج البيت حتّى يُبدّل ملابسه، ثمّ يعود به إلى الجامعة!!!

كنتُ في الجامعة عضوًا في لجنة الكتاب السّنوي الّذي تُنشر فيه صور الدّكاترة والخرّيجين في كلّ عام، وكنّا نجتمع كلجنة مُكوّنة من الرّئيس والعمداء وعمادة الشّؤون وأنا كنتُ

ممثّلاً عن الطّلاّب... وفي إحدى اجتماعاتنا وكان الرّئيس هو الدّكتور سعد حجازي في منتصف الاجتماع نادى الجرسون الّذي يقف كتمثال في أوّل الغرفة، وطلب منه سيجارة؛ ناوله الجرسون السّيجارة وأذكر أنّه كانت من نوع (ريم)... طبعًا الدّكتور بعد أخذها قال وهو يأخذها: إنّه ترك التّدخين ولكنْ نفسه شقّت على سيجارة... وأشار للجرسون أن يُشعلها له؛ بعد أن أشعلها شفط منها شفطة فلم تشتعل؛ فقال لنا وهو يضحك: هذا الدّخان من نوع (مُصطَفى) وقالها على النّحو الآتي: مُصْ طَفى؛ ويقصد أنّك إذا مصصتها وشفطتَ منها شفطة فإنّها تنطفي!!! طبعًا نحن ضحكنا مجاملةً له!!!

كان طابور النّسكافيه في الصّباح يمتدّ من أوّل الكافتيريا إلى آخرها.. وكان طقسًا يوميًّا بالنّسبة لي، ولم أفوّتْ ذلك حتّى لو لو تكن محاضراتي تبدأ في الثّامنة؛ كان هناك نوع خاصّ من متعةٍ ما ونحن ندخل الجامعة في البكور والنّسمات الباردة تستقبلنا على أبوابها.

أبنية الجامعة عجيبة، إنّها مُكوّنة من نُسَخ مُكرّرة مُتشابِهة، بحيثُ إنّك إذا دخلتَ أحدَها وجدتَ أنّكَ دخلتَ إلى الجزء الّذي خرجتَ منه، وإذا خرجتَ من هذا الجزء الجديد، تنوي أنْ تمضي قُدُمًا فستجد أنّك مضيتَ إلى الجزء الّذي تركتَه خلفَك، فتقع في دوّامة التّشابُه، وكثيرٌ من الطّلبة الجُدُد

الّذين كنّا نُسمّيهم (السنافر) كانوا يضيعون في هذه الأبنية، ويفشلون في الوصول إلى قاعات مُحاضراتهم، وصار مألوفًا أنْ ترى بعضَهم يستوقف مَنْ هو أقدمُ منه ليسأله عن مبنى (M) مثلاً، وكان بعضُنا يضحك عليه بعدَ أنْ يمضي إلى غايته، ولم نكنْ نتذكّر أنّنا قبلَ سنةٍ أو اثنتين كنّا مكانهم أوّل مجيئنا إلى هذه الجامعة.

وعلى خِلافٍ مع كثيرين رأيث في رتابة البِناء استِثارةً لباطن الخيال؛ كان المكانُ شامِخًا ومُحلِّقًا تمامًا كأحلامنا الّتي بدأث تأخذُ طابعًا أُسطوريًّا، وأحببنا الممرّات الّتي لم تكنْ تتّسع لأكثر من مطامحنا، ولم تكنْ تمتلِئ إلاّ بنداءاتنا المجهولة، وبخطواتنا الهادِئة الّتي كانث تكتشفُ بحنانٍ سِرّ الطّريق!

مباني جامعة العلوم والتكنولوجيا

مع صديقين في كليّة الهندسة عام ١٩٩١م

حينَ صرتُ أُدعَى إليها مشارِكًا في محاضرةٍ أو ندوةٍ ثقافيّة، كانوا يسألونني، لقد درستَ في هذه الجامعة، وجامعة اليرموك، والجامعة الأردنيّة، فأيّهما أقربُ إلى قلبك، فلا أزيدَ عن أنْ أجيب ببَيتَي أبي تَمّام:

نَقّلْ فُؤادَكَ حيثُ شِئتَ مِنَ الهوى

ما الحُبُّ إلاّ للحبيبِ الأوَّلِ

كم مَنزلٍ في الأرضِ يألفُه الفتى

وحَنينُه أبدًا لأوّلِ مَنزِلِ

كان وحي الشّعر طاغيًا أيّام الهندسة، كتبتُ مِئات القصائد، في الثّورة والحُبّ والوطن، شغلني وَهَج الشّعر الّذي كان يتّقد في أعماقي عن دراستي قليلاً، ولكنّ ذلك لم يمنع مشهدًا طريفًا يتعانق فيه كتاب (Fluid Mechanics) مع رسائل إخوان الصّفا، وكتاب الـ (Structure) مع ديوان المتنبّي، لقد كنتُ أقضي ميوعة (ميكانيكا الموائع) بلغة أهل الصّفا الغامضة الإشاريّة، وكنتُ أقضي على جفاف معادلات كتاب (الإنشاءات) بالنّدى الّذي تبعثُه في روحي قصائدُ المتنبّي.

جامعة اليرموك:

في العام الأخير من دروبٍ شائكةٍ مشيتُها في دراستي

الهندسة، ومن عمرٍ مرّ عليّ يملؤني بالدّهشة كلّ لحظةٍ؛ إذ يُهديني وردةً يضعها في ياقة قميصي تارةً، أو يغرز سكّينًا في أحشائي تارةً أخرى... في ذلك العام الأخير قرّرتُ أنْ أحقّق رغبةً مُؤجّلةً حملتُها منذُ طفولتي؛ ألا وهي دراسة العربيّة، وتخيّلتُ نفسي طالبًا من جديدٍ في قسم اللّغة العربيّة بجامعة اليرموك، وملأتْني الفرحة لمجرّد هذا التّخيّل، ورحتُ أرى نفسي في أروقة الجامعة أصطحب الخليل بن أحمد والجاحظ وأبا حيّان التّوحيدي والمتنبّي وأدعوهم إلى فنجانٍ من القهوة، أو كأسٍ من الشّاي، في أحدِ المقاهي القريبة من كلّيّة الآداب، وأبدأ معهم حوارًا طريفًا، يجذبُ الشّباب والصّبايا فيأتون من الأطراف ويتحلّقون حولنا، ويمدّون أعناقهم يستمعون!

قبل أنْ أتخرّج في الثّانويّة كنتُ أطمح لدراسة العربيّة، ولكنّ دخولي القسم العلميّ وحصولي على مُعدّلٍ عالٍ في الثّانويّة، جعل المجتمع يرى إقبالي على دراسة العربيّة خَبَلاً وهدرًا لهذا المُعدّل (المُشرّف) الّذي حصّلتُه، كأنّ العربيّة لا يدخلها إلاّ مَنْ كان على حافّة الرّسوب أو دونه في النّجاح! وهذه النّظرة الّتي ورثها المجتمع وتراكمت في عقول الجيل سببُها السّياسة التّعليميّة الّتي تتّبعها الدّول والأنظمة المتخلّفة، ولو أنّني حُكّمتُ وكنتُ مشاركًا في وضع مثل هذه

السّياسات لجعلتْ مُعدّل القبول في العربيّة مثل معدّل القبول في الطّبّ أو الهندسة أو أعلى منهما، ولقرّرتُ أنّ المُعدّل وحده ليس كافيًا لدراسة هذا التّخصّص الشّريف، إنّما على الطالب من بعدُ أنْ يخضع لاختِبار يُتلمّس فيه أنّ إقبالَه على هذا التّخصّص هو عن حُبّ ووعي وقدرة على الإنتاج. لقد عشتُ في جيلٍ يرى دراسة العربيّة من سَقَط الدّراسات، وتلك هي الطّامّة الكُبرى والصّاخّة العُظمى، وكان الواحد من هؤلاء حينَ تسأله عن التّخصّص الّذي قُبِل فيه، يقول وهو في غاية الأسف: لم أحصّل قبولاً في الهندسة ولا في الرّياضيّات ولا في الفيزياء... ثُمّ يسكتُ وهو ينفثُ آهةً طويلةً متحسّرةً قبل أنْ يُتابع وكأنّ هموم الدُّنيا قد ركبتْ ظهره: لقد قُبلت في تخصّص العربيّ...! لا أدري كيفَ تسرّبتْ هذه النّظرة الدّونيّة إلى أجلّ العلوم وأشرفها؟! العربيّة يا سادة غادةٌ فاتنةٌ متمنّعة حَصانٌ رَزَانٌ لا تقبلُ أيّ أحدٍ أنْ يطأ ساحتَها، ولا أيّ عابرٍ أن يدخل أبوابَها، إنّها لا تفتح قلبَها إلاّ لمن يفتحُ لها قلبَه، ويهبُها روحَه وحياتَه وعقله وحواسّه كلّها، ولهذا فإنّ الكثرة الكاثرة من الّذين ظنّوا أنّهم درسوا العربيّة لم يدرسوها ولم يقربوها ولم يشمّوا حتّى رائحتها، هؤلاء مرّوا من جانبها ولم يدخلوها، وسمعوا بها أو عنها ولم يعرفوها، وكانوا عُميانًا ولم يروها!

نعم، سجّلت للعربيّة في مطلع العام الدّراسيّ (1996-1997م)، وقُبلتُ على الفور، وأكملتُ إجراءات التّسجيل؛ لأتفرّغ بعدَ أربعةِ أيّامٍ فقط لمدرسةٍ من نوعٍ جديدٍ، مدرسة تختصر السّنوات الأربع المُقبلة في ثمانية أشهر؛ إنّها مدرسة السّجن!!

أُخِذتُ إلى السّجن في 6-9-1996م، والعربيّة الّتي انتظرتْني على بوّابة الجامعة طويلاً - وتطلّعتْ في الوجوه العابرة من هناك كلّها على أمل أنْ ترى وجهي - لم تكنْ تدري أنّه غابَ في الظّلام، وأنّني أُبعِدتُ عنها قسرًا؛ فبكتْ في ذلك المساء ألمًا، وبكيتُ شوقًا.

مرّت الأيام، وكان يُمكن أنْ يُلغَى تسجيلي في الجامعة، لأنّه كان يُشترط دوام الطّالب في الفصل الأوّل على الأقلّ ليضمن استمرار احتِفاظه بمقعده في الجامعة، ولا يُمكنه أنْ يؤجّل الفصل الأوّل، ولا يُسمَح له بممارسة حَقّه في تأجيل الفصول إلاّ بعد أنْ يُثبت دوامه في السّنة الأولى، وأنا في تلك الفترة كنتُ خلفَ القُضبان، وكنتُ على وشكِ أنْ أفقد مقعدي في الجامعة بالفعل، وأصبحتْ دراستي الّتي حلمتُ بها في مهبّ الرّيح، لولا تدخّل أبي وتفهّم المسؤولين في الجامعة. فاستطاع أبي بمساعدة زميلٍ له في القسم من

إيجادِ ثغرةٍ في التّعليمات، تسمح بتسجيل (12) ساعة، ثُمّ إسقاطها، وهذا لا يُسمّى تأجيلاً، وبالتّالي احتفظتُ بمقعدي، وقضيتُ مدّة سجني ثمانيةَ أشهر، وكانت العربيّة كلّ يومٍ تصعدُ إلى عليائها فتُشرفَ من أفق السّجن إليّ، وتُلقي على مسامعي السّؤال الجريح: "متى أراك؟". وخرجتُ من السّجن، في منتصف الفصل الثّاني، وكان أبي قد سجّلني في هذا الفصل، وابتدأ دون أنْ أداوم فيه؛ لكنّني استدركتُ ما فاتني أوّل خروجي، وبادرتُ إلى إنهاء الفصل الأخير لي في كلّيّة الهندسة في جامعة العلوم والتّكنولوجيا، وبدأتُ فصلي الدّراسيّ الأوّل في جامعة اليرموك، وكنتُ أدرسُ في الجامعتين في الوقتِ نفسه، وحدثَ أنْ كنتُ أخرجُ من محاضرةٍ في كلّيّة الآداب في اليرموك، وأمشي مسرعًا من الكلّيّة إلى البوّابة الشّماليّة وهي مسافةٌ ليست قصيرة، وأبحثُ هناك عن وسيلة مواصلات تُقلّني إلى مجمّع (الشّيخ خليل)، ومن هناك أركبُ باصَ جامعة التّكنولوجيا، لأصل إلى مختبر التّربة متأخّرًا ربع ساعةٍ وأنا ألهث، وأعتذر للأستاذ الّذي كان يعرف ظرفي ويُقدّر سبب تأخّري!

سجّلتُ في جامعة اليرموك في الفصول العاديّة (21) ساعة، ولم يكنْ مسموحًا أنْ يُسجّل الطّالب أكثر من (18) ساعةً إلاّ لمن كمان معدّله (ممتاز)، وقد حققتُ ذلك، وسجّلتُ

في الصّيفيّ اعلى مُعدّلٍ للسّاعات وهو (12) ساعة، وتعاون معي الدّكتور (فارس البطاينة) رحمه الله الّذي احتسب لي (32) ساعة من ساعات شهادتي في الهندسة كالموادّ المُشتركة ومتطلّبات الجامعة، فاختصر عليّ بذلك عامًا كامِلاً، ولأنّني أخذتُ في الفصول أعلى معدّل للسّاعات، فقد تخرّجتُ في الجامعة بعدَ سنتين، كان ذلك في عام 1997م، وكنتُ الأوّل على كلّيّاتها وأقسامها كافّة.

كانت سنتا اليرموك من السّنوات الجميلة الغنيّة، قضيتُ جزءًا كبيرًا منها في الجامعة، خصّصتُ هاتين السّنتين للإبحار في لُجّ البلاغة، فإنّ الشّعر والأدب قد أخذتُ منهما بحظٍّ وافرٍ من قبلُ، فعكفتُ في مكتبة الجامعة على تلخيص عشرات الكتب الّتي تُعدّ مراجع، وقدّمتُ فيها ورقةً لزملائي في القسم من أجل أنْ يستفيدوا منها، وتكون مرجعهم في رسم خارطة النّحو والصّرف واللّغة والأدب والبلاغة والمجاميع مقسّمة إلى العصور من خلال ذِكر الكتاب وموضوعه وأهمّ أفكاره، وصاحبه وكُتُبه الأخرى، وسنة وفاته، وأماكن طبعات الكتاب وتواريخها.

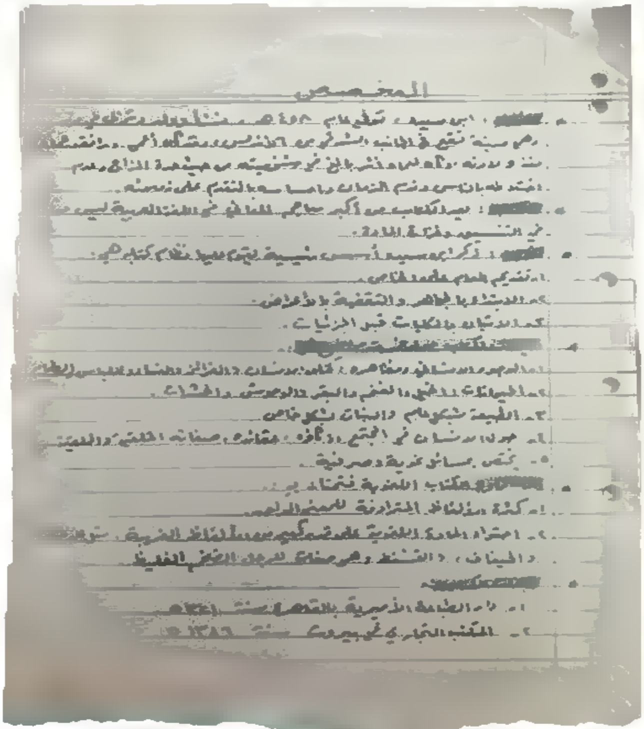
المخصص

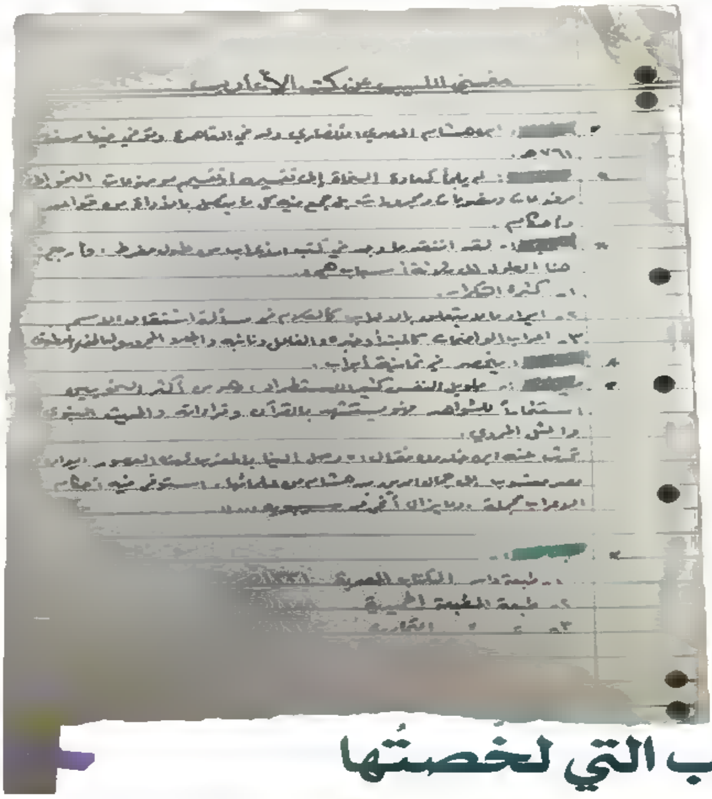
مغني اللبيب عن كتب الأعاريب

عددٍ من الكتب التي لخصتُها

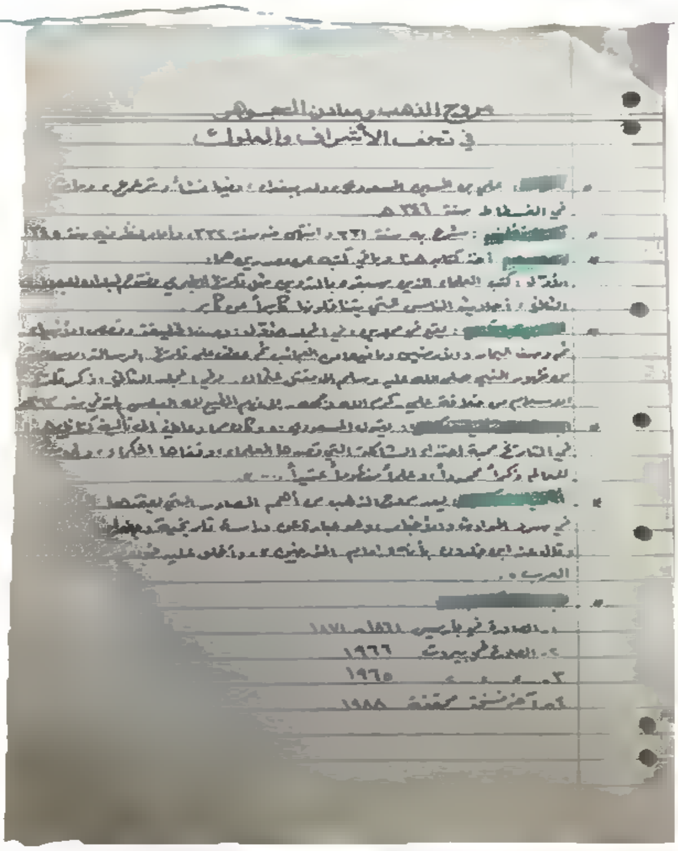
مروج الذهب ومعادن الجوهر
في تحف الأشراف والملوك

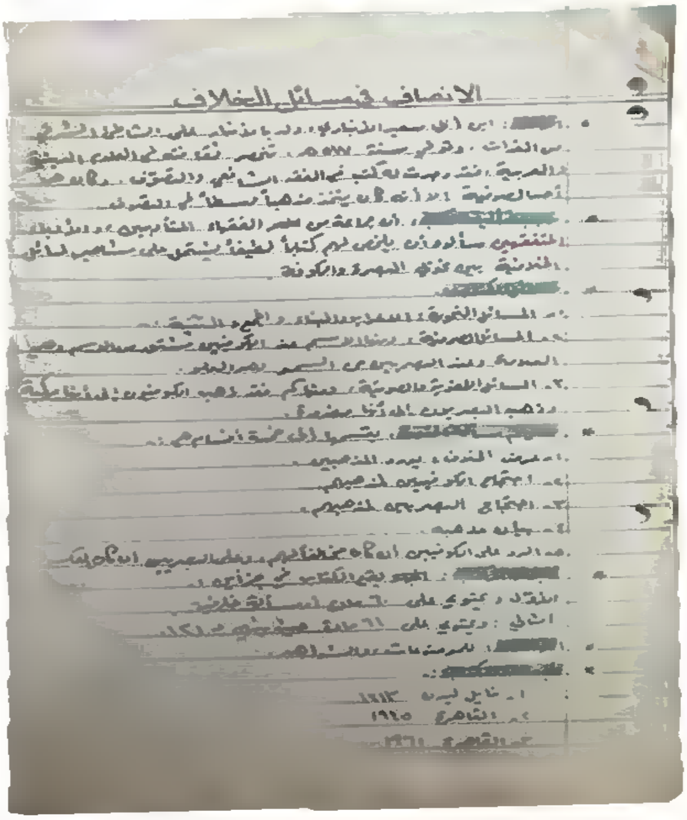
الإنصاف في مسائل الخلاف

لا أدري عدد الكّتب الّتي لخّصتُها بالضّبط، فقد كنتُ مولعًا بذلك، ولكنّني وجدتُ أنّني ما زلتُ أحتفظُ في أرشيفي بجزءٍ من هذه الملخّصات، وفيها تلخيص كتاب (الكتاب) لسيبويه،

وتاريخ الملوك والرّسل لابن جرير الطّبريّ المعروف بتاريخ الطّبريّ، ومُروج الذّهب ومعادن الجوهر للمسعوديّ، والوساطة بين المتنبّي وخصومه للقاضي الجرجاني، والمُخصّص لابن سيده، ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانيّ، ومُعجَم ما استعجم للبكريّ، ومجمع الأمثال للميداني؛ وهذا الكتابُ استمتعتُ بقصص أمثاله وحفظتُ عددًا منها، والمُستقصَى من أمثال العرب للزّمخشريّ صاحب تفسير الكشّاف، والإنصاف في مسائل الخلاف للأنباريّ، والممتع في التّصريف لابن عصفور الإشبيليّ، والإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزوينيّ، ومُغني اللّبيب عن كتاب الأعاريب لابن هشام الأنصاريّ.

ثم انتقلت إلى تلخيص كتب الفكر والفلسفة، ثم إلى المُذكّرات والسِّيَر الذّاتيّة، ثُمّ إلى الروايات وخاصّة تلك الّتي تهتمّ بأدب السّجون، فقد شُغِفتُ به ولم يكنْ قد مضى على خروجي من السّجن غير بضعة أشهر. تكوّن لديّ جرّاء ذلك دفاتر وملازم كثيرة تكدّس بعضُها فوق بعض.

من أكثر الكتب الّتي عنّتْني ولكنّي استمتعتُ بتلخيصها وتبويبها والوقوف على كنوزها، كتابا عبد القاهر الجرجانيّ: دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، فقد وقفتُ عندَ كلّ فصل،

وتأمّلتُ كلّ عبارة من عباراته المُحكَمة، واستمرّ عملي في الكتابَين أكثر من ثلاثة أشهر.

في السّنة الأولى من عمري مع هذه الجامعة وقعتُ في الحب! هل وقعتُ فيه بالفِعل، ماذا عن صيدلانيّة التّكنولجيا؟ لقد تزوّجتُ وربّما أنجبتُ واحدًا أو اثنين. لكنْ هل هذا هو السّبب في أنّني تعرّضتُ لنفحات الحبّ من جديد؟ أشكّ في ذلك. هل السّبب البحثُ الدّائم عن المرأة، عن تلك الجميلة الّتي تُطفِئ لوعاتنا غير المفهومة إلى الأنثى؟ هل يُمكنك أنْ تعشقَ أكثر من امرأة؟ ماذا لو اتّهمَتْك النّساء بأنّك مُخادِع؟ وأصررْن أو أقسمْنَ بما يُشبه القَسَمَ المُقدّس على أنّ القلب لا يعشق مرّتين؟ وأنّه لا يُمكن أنْ يكون مثقوبًا يرشحُ منه حُبّ ليدخل حُبٌّ آخرا! هُراء. إذا كان العشق من النّوع الّذي قد يقع فيه شاعرٌ مُجنّحٌ مثلي، فلربّما يتّسع قلبه لكل هؤلاء الجميلات؟ يتّسع لهنّ جميعًا؟! هل أنا أرتكبُ خطيئة، نعم يتّسع إذا كان عشقُه هواء، تجارب ساذجة، فراغٌ في القلب يملؤه بأوّل نظرةٍ عابرة تُلقَى فيه. ربّما الاسم العربيّ الأصيل لهذه الفتاة هو الّذي جذب الشّاعر السّاذج الّذي في أعماقي. ربّما تلك العيون الّتي تقول كلّ شيءٍ وهي صامتة. ربّما ذلك الحُضور الطّاغي لها في الغياب الكامل عنّي أمامها، هو الّذي يُقدّمها إلى هذه المنزلة اللاّواعية من العشق. وربّما أدركت أنا

كما يدرك الكثيرون بعد كَرّ السنينّ وتراكم الخبرات أنّ الحب هو الأمان وليس الإعجاب الطّفوليّ، هو العون على الدروب المُخدّدة وليس الثياب المزركشة ولا النّظرات السّاهمة. شيءٌ من التّعفّف؟ شيءٌ من الكبرياء المغروسة فِيّ؟ شيءٌ من الصّراع بين العقل والقلب؟ ربّما كلّ هذه مُجتمِعات. أنا ابنُ هذه الأبيات الّتي قالها أبو فراس الحمداني:

لقدْ ضَلَّ مَنْ تحوي هَواهُ خريدةٌ

وقدْ ذَلَّ مَنْ تقضي عليه كَعابُ

ولكنّني - والحمدُ لله - حازِمٌ

أَعِزُّ إذا ذَلّت لهُنّ رِقابُ

ولا تملكُ الحَسناءُ قلبيَ كُلَّهُ

وإنْ شَمِلَتْها رِقّةٌ وشَبابُ

ولْيكنْ، لم تسر الأمور كما ينبغي، مثلما يحدثُ عادةً. مثلما يحدثُ معي عادة!!

سنتا اليرموك مرّتا حُلمًا عابرًا، لبعض الأساتذة أثرٌ واضحٌ عليّ، لكنّ كثيرين منهم مرّوا مرورًا باهِتًا لا يكاد يُذكر، فلا أدري كيفَ كنتُ سأقتنع بأستاذٍ للأدب المُقارَن يقرأ من ملزمةٍ أو كتابٍ بين يديه، يُتابع قراءته بدأبٍ مع أخطاءٍ في القراءة بالطّبع، ولا يكاد يرفع رأسه عن الصّفحات إلاّ إذا قلبَ إحداها أو أراد أنْ يأخذ نفسًا أو يشرب جرعةً من الماء، مثل هذا النّوع من الأساتذة - ولعلّكم واجهتم أحدهم في دراستكم أنتم - كيفَ سيؤثّر بي؟ وكيفَ سأزيدُ رصيدي المعرفيّ من خلاله؟ إذا لم يأتِ بنماذج حيّة من الأدبَين المختلفَين من حضارتَين أو ثقافتَين أو عرقَين أو دينَين ويُقارن بين أدبَيهما بصورةٍ عمليّة ويطرح الأسئلة، ويستثير أذهاننا ويعلّق قلقَ إجاباتنا؛ فكيفَ سنتعلّم؟ أيكون التّعلّم بأنْ يقرأ أمامنا من كتابه الّذي غالبًا ما يُلزمنا بشرائه؟ إذا كان الأمر كذلك، فإنّنا نستطيع أنْ نقرأ منه وحدنا، وليس شرطًا أنْ تحبسنا ساعة أو ساعةً ونصف من الملل وأنتَ لا تفعل شيئًا سوى القراءة، كان يُمكن أنْ نفعل ذلك ونحن في بيوتنا!

تخرّجي في جامعة العلوم والتكنولوجيا عام ١٩٩٧م، وتظهر الملكة نور راعية الحفل والدكتور سعد حجازي رئيس الجامعة

التخرج في جامعة اليرموك ١٩٩٩م في صفّ الأوائل على الجامعة

كنتُ أعرفُ قبل أنْ أَلِجَ إلى عوالم مَعشوقتي العربيّة، أنّ

الجامعات لا تُدرّس بالطّريقة الصّحيحة، وليس منهجها الحاليّ القائم على عدد السّاعات يُمكن انْ يُنتج عُلماء في هذا الفنّ بطريقة المَشيَخة المُنضبطة الّتي لا مجال فيها لعدم الجِدّيّة، ففي محاضرة العروض وموسيقى الشّعر كان الأستاذ الّذي يدرّس المادّة كثيرًا ما يكل أمر شرح المحاضرة لي، ويذهب هو إلى مكتبه، لا قُصّورًا في علمه، ولكنْ لأنّ العروض ليس علمًا بقدْر ما هو إحساس، وهذا الإحساس بموسيقاه لا يحدثُ إلاّ للقلّة النّادرة مِمّن يُدرّسون المادّة، ولِذا كنتُ حينَ أقوم مَقام الأستاذ أمام زملائي كنتُ أحاول أنْ أوصل هذا الإحساس إليهم ليشعروا بتلك الموسيقى الخفيّة والنّغمات الشّجيّة الّتي تنسابُ من تضامّ هذه الكلمات وتلك الحروف على ذلك النّحو.

الآن بعد هذه السّنوات أقول للمُقبلين على التّعليم الجامعيّ، إنّ هذا التّعليم لنْ يُحقّق ما تريدون إلاّ بإعطائكم الشّهادة القادرة على أنْ تجدوا فيها وسيلةَ رزقٍ تعتاشون منها، أمّا العِلم فتأخذونه بأنفسكم على أنفسكم. عليكم أنْ تعدّوا ساعات الجامعة علامات على الطّريق وليست الطّريق، قد يكون في العناوين الّتي يطرحونها إشارةٌ جيّدة، عليكم أنْ تلتقطوا هذه الإشارة وتسيروا بأنفسكم إلى أبعدِ غايةٍ في ذلك السّبيل، اقرؤوا على أنفسكم، وابحثوا بأنفسكم، وتأمّلوا،

وعانُوا في فهم الكتُب، واستمتعوا بلذّة النّجاح من بعدِ تعب. أولئك الّذين اكتفوا برؤية الإشارات دون المضيّ إلى الأمام، سيبقون على أوّل الطّريق، وستأكلهم الحيرة حين تواجههم المُفترَقات.

في جامعة اليرموك للحديث لمكتبتها عن رواية (أرض الله)، الصور التُقطت عام ٢٠٢٠م أمام كليّة الآداب التي درستُ فيها

الجامعة الأردنيّة:

كانت أشدّ الجامعات الثّلاث التي درست فيها خُضرةً. وكانت ساحة برج الساعة مرعى التقاء الغزلان من كلّ لون وصنف. وكان شارع الجامعة الطويل الذي ترتفع على حانببه أشجار السرو العالية وتتلاقى في قمتها يجعل كل من يمشي تحتها يشعر بالحنوّ، وببرد الظِّلال المُنعشة خاصّةً في الصّيف، وكان يبدو ساحرًا غامضًا إذا أرسلت طرفكَ من أوّله في عمقٍ بعيد يَكِلّ البصر أن يبلغ نهايته... حيث تصغر الجذوع وتتضاءل نقطة الضوء وتتلاقى الأغصان وتتشابك فتعود كأنها هرم صغير من الخضرة الداكنة قذفت به يد الجمال إلى نهاية الشوط.

جئتُ (الأردنيّة) في المرحلتَين الأخيرتَين من دراستي الجامعيّة، ابتدأتُ معها المشوار عام 2000م، حين سجّلتُ لدراسة الماجيتسير، ومع أنّني شاعرٌ إلاّ أنّني سجّلتُ في تخصّص النّحو، قالوا لي: الأدب أنفعُ لك ولشِعرك. أجبتُهم: لقد شربتُ كأسي من ماء الأدب، وأمّا النّحو ففي النّفس منه حاجاتٌ كما قال المتنبّي:

وفي النّفسِ حاجاتٌ وفيكَ فَطانةٌ

سُكُوتي بَيانٌ عندها وخِطابُ

وأنا يا سادةُ من النّحو لم أنقع غليلي، ولم أبلّ صداي.

كان في قسم النّحو في الجامعة أساتذةٌ جهابذة، من الجيل القديم الّذي صانَ العلم فصانه العلم، ومن أولئك الّذي ترى في وجوههم خبرَ الأوّلين، ولقد كنتُ أشعرُ أنّني آتيها زائرًا أكثر منّي طالبًا، إذْ كنتُ أعمل لتأمين دراستي في أكثر من مكانٍ، ولا ألجُ بوّابتها العتيقة ذات القِباب الصّغيرة المعروفة إلاّ بعدَ أنْ يكون الموج الغارب من طُلاّبها قد تدفّق إلى خارجها. وكانتْ أوّل محطّاتي إذا كان لا يزال هناك بعضُ الوقت قبل المُحاضرة أنْ أيمّن سيري فأدخل مكتبة الجامعة،

الموضع الّذي له ذلك الوهج بقلبي مثلما كان لمكتبة اليرموك، وإنْ بدرجةٍ أقلّ، فأطوفَ بالكتب، وأقفُ عند كتب النّحو "وقوفَ شحيحٍ ضاعَ في التُّرب خاتمُهُ". وكان عِلمُ النّحو شحيح الرّواء، جافًّا، لكنّه عِلمٌ على مَنْ قال إنّ الأدب ليس علمًا مثله. والمنطق الّذي فيه، وفقهه، في البحث عن علله هو الّذي أمال خُطواتي عن سواه إليه.

في مرحلة الماجيستير في الجامعة الأردنيّة عند برج السّاعة

في عام 2007 تخرّجتُ في الدّكتوراة في بحثٍ يتعلّق بتناوب الأبنية الصّرفيّة في لغة القرآن، ولقد حصلتُ في كلّ موادّ دراستي الّتي سبقت البحث على العلامة الكاملة، وأذكر أنّ امتحان الكفاءة الّذي يختبر طلبة الدّكتوراة كلّهم بعدَ أنْ يُنهوا الموادّ وقبل أنْ يُقدّموا مشروع رسالتهم، كان في واحدٍ من أسئلته يطرح فِكرةً ويطلبُ التّدليل عليها ببعضِ الأبيات

مِمّا يحفظُ الطّالب، ووجدتُ في السّؤال - مع سعة الوقت - فرصةً لأستظهر ما كنتُ قد حفظتُه عبر سنين طويلة، وبدأتُ فإذا أنا أكتبُ عشرةً ثُمّ أُتبعها عشرةً أخرى، ثُمّ تدفّقتِ الأبيات وأنا أطلبُ ورقةَ إجابةٍ من المُراقب إلى أنْ كتبتُ أكثر من مئة بيتٍ. لم يكنْ ذلك استِعراضًا بقدر ما كان شعورًا بالمتعة من جهتَين، متعة كتابة الشّعر من جهة، ومتعة الإثبات لنفسي أنّني لم أنسَ كثيرًا مِمّا وعته الذّاكرة من جهةٍ أخرى.

مع أبي ولجنة المناقشة بعد حصولي على درجة الماجيستير في الجامعة الأردنية ٢٠٠٤م

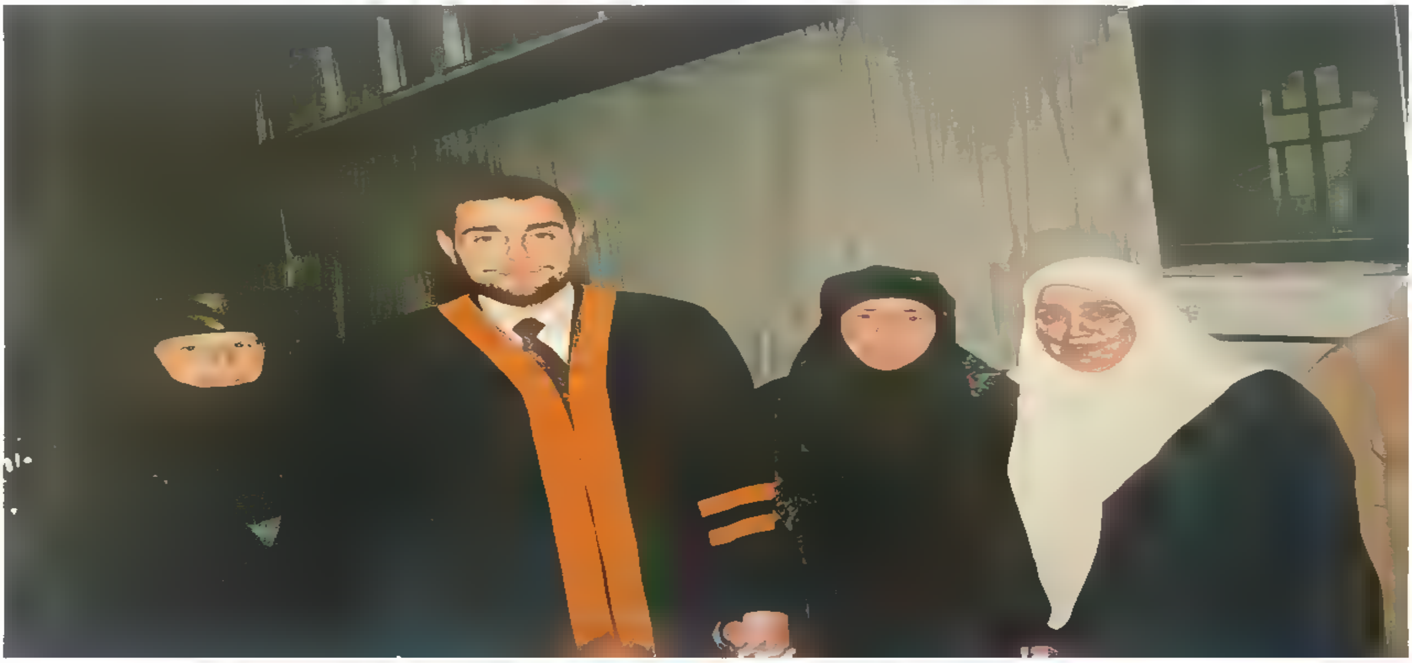

مع أمّي وجدّتي فاطمة عن يساري، وعمّتي فاطمة عن يميني، التّخرّج في الماجيستر

مع جدّي صالح مرحلة التّخرّج في الدّكتوراة من الجامعة الأردنيّة عام ٢٠٠٧م

بين الهندسة والعربيّة:

يقولون لي: إذا كنتَ شغوفًا بالعربيّة إلى هذا الحدّ؛ فلماذا لم تدرس الثّانويّة العامّة في الفرع الأدبيّ؟ ولماذا لم تتوجّه إلى دراستها في البكالوريوس منذُ البداية؟ أقول لهم: لقد فعلتُ، أنا أعيشُ بها مُذ وعيت، فالعربيّة تجري مِنّي مجرى الدّم من العروق، ولقد شكّلت لِساني ووجهي ويدي، ولقد صاغت في النّظر إلى الأشياء والحُكم عليها حياتي، إنّها ليست حروفًا، إنّها كائنٌ حيٌّ، وهي لغةٌ شاعرةٌ ساحرةٌ بليغةٌ أنّى جِئتَها فهي الخضمّ الهادر، ومن أيّ السّواحل أتيتَها فهي الكنز الزّاخر. وإنّني بِها ولَها عِشتُ وأُفاخِر.

لكنّني أريدُ هنا أنْ أتوقّف عند فِرية العلميّ والأدبي الّتي استُحدِثت في عالَمنا الحديث، وتضع بين تخصّصين مقصلةً لا ينبغي تجاوزها!! سأسأل هذا السّؤال: ماذا كان تخصّص ابن سينا من جهة والجاحظ من جهةٍ أخرى؟ وماذا كان تخصّص جابر بن حيّان وابن الهيثم والرّازي وعبد اللّطيف البغداديّ من جهة، وماذا كان تخصّص المتنبّي وابن رشيق القيرواني والخليل بن أحمد الفراهيديّ وابن السّكّيت من جهة أخرى؟ أينَ كان اسم التّخصّص الّذي يظهر اليوم يظهر عندهم؟ لقد كان ابن سينا الطّبيب شاعرًا وفقيهًا، وكان الرّازي الطّبيب فيلسوفًا، وكان عبد اللّطيف البغداديّ الطّبيب نحويًّا، وفي المقابل كان الجاحظ الأدبي فلكيًّا، وكان الخليل

بن أحمد الفراهيدّي العَروضيّ رياضيًا، وكان الكنديّ فيلسوفًا ورياضيًا... الفكرة أنّه لم يكنْ هناك فصلٌ بين العلم الّذي يذهب إلى العلوم الطّبيعيّة أو العلوم الإنسانيّة، كان هناك عقلٌ يعمل في الجهتَين. وجُهدٌ وجِدّيةٌ في تحصيل العِلم والدّخول إليه من أبوابه المُتفرّقة، هذا مع ملاحظة أنّه يُمكن أنْ تدخل من أكثر من باب إلى أكثر من منزلٍ، ولكنّكَ تجدُ نفسكَ في منزلٍ دون سِواه، فتبيتَ فيه، وتعيشَ حياتك في أرجائه، ولكنّ ذلك لا يمنع من دخول المنازل الأخرى، ولو خرجتَ منها بأن استمتعتَ بمنظر اللّوحات على جدرانها، أو قرأتَ بعضَ الإشارات على أبوابها لكان خيرًا. هذه الحقيقة لم تُلغِها تصنيفات العلم الحديث في تقسيم النّاس إلى ضِفّتَين وإلى فُسطاطَين: العلميّ والأدبيّ، فأنا أعرفُ أنّ كثيرًا من الّذين اتجهّوا إلى التّخصّصات العلميّة لإبداعهم فيها هم مُبدِعون في اللّغة كذلك... المُعوّل عليه: هل أنتَ تُحرّك هذا العقل وتُشغّله، أم أنّكَ تُؤجّره وتمنحه إجازةً طويلة، ولديّ نماذج من أيّامنا هذه لا حصر لها، فمثلاً كان (علي محمود طه) صاحب القصيدة الشّهيرة: (أخي جاوز الظّالمون المدى) مُهندِسًا، وكان (إبراهيم ناجي) صاحب قصيدة الأطلال (يا حبيبي لا تسلْ أينَ الهوى) طبيبًا, فماذا يبقى من قيمةٍ لهذا التّصنيف الّذي يبدو مُجحفًا؟!

أعودُ إلى الفِرية الّتي تحدّثث عنها آنِفًا، لأزيدَ عليها فكرةً أخرى، إنّكَ لو ذهبتَ إلى الغرب لَما وجدتَ المجموع أو المُعدّل هو الّذي يتحكّم ويُسيطر على دخولكَ إلى تخصّصٍ دون سِواه، إذ يدخل الطّالب بعدَ نجاحه في المرحلة الثّانويّة التّخصّص الّذي يرغب به، فلربّما حصّل معدّلاً متواضِعًا ودخل الطّبّ وصار من أشهر أطبّائهم، وربّما حصّل مُعدّلاً عالِيًا ودخل الفنون أو الآداب فصار من أشهر أدبائهم أو فنّانيهم، فإنْ لم يُفلِح في التّخصّص الّذي اختاره دون أنْ يحكمه معدّله في ذلك، فإنّ الجامعة تلفظه عند أوّل منعطف فيجد نفسَه خارِجًا؛ إذًا المُعوّل عليه ليس معدّلك في الثّانويّة، وإنّما رغبتك وإرادتك في أنْ تُصبح ما تريد، هذا ليسَ معمولاً به في بُلداننا؛ لماذا؟ لأنّهم يريدون منك إمّا أنْ تكون طبيبًا أو مهندسًا مُنشغلاً فلا تُنتِج في المجتمع ما يدفعُ به إلى الأمّام، وإمّا أنْ تكون طبيبًا ومهندسًا فاشِلاً لأنّ الّذي دفعك للدّخول إلى هذين التّخصّصن هو معدّلك وليست رغبتك. تخيّلوا لو أنّ كلّ واحدٍ منّا في بُلداننا العربيّة انتمى إلى الفرع الّذي يُحبّه ويُبدِع فيه من البداية دون أنْ يكون لضغطِ المجتمع الخاطِئ والمعدّل أيّ تدخّل في ذلك؛ أكان يُمكن أنْ يكون عندنا أدباء وفنّانون وإداريّون وإعلاميّون وأطبّاء ومُهندِسون وسياسيّون ناجحون؟ أليس الّذي يقود المجتمعات عبر التّاريخ هم الأدباء والفنّانون، هم أولئك

الفلاسفة الّذين يُشكّلون الوعي الجمعيّ لمجتمعاتهم من خلال أفكارهم الّتي يُضمّنونها كتاباتهم؟!

تشكّلث عندنا في الأردنّ في نقابة المهندسين جمعيّة اسمها (مهندسون شعراء)، وأنا كنتُ عضوًا فيها، وأصدرنا في عام (2005م) ديوانًا يضمّ عشرينَ شاعرًا مُهندسًا مع نماذج من شعرهم. وكان عندنا في نقابة الأطبّاء في الأردنّ كذلك جمعيّة اسمها: (أطبّاء أدباء)، ضّمت عددًا من الأطبّاء اللاّمعين مِمّن يقرضون الشّعر ويُتقنون صنعته. فالطّبيب في إنسانيّته يُشبه الشّاعر في رَهافته. ولنا الحقّ أنْ نسأل اليوم: ماذا بقي من إبراهيم ناجي الذي غنّث له أم كلثوم قصيدته بالغة الإحساس (الأطلال)؟ والجواب البدهيّ: لقد ذهب طِبُّ ناجي وبقيث (أطلاله)!

ثُمّ إنّني لم أخسر شيئًا، أنا رابحٌ ما طلبثُ العلم. للهندسة فضلٌ لا يُجحد، ولو سألني أحدهم اليوم ماذا تعلّمتَ من الهندسة؟ سأجيب: ليسَ أقلّ مِمّا تعلمتُه من العربيّة! إنّ المعرفة الإنسانيّة ممتدّة، وفيها إثارةٌ للعقل في مجالاتها كلّها، فليسَ لعلمٍ فضله على علمٍ آخر إلاّ بمقدار ما يُقدّم هذا العلم من فائدةٍ للبشريّة. وأنا وإنْ آثرثُ العربيّة على الهندسة، إلاّ أنّني لا أنكر فضلها، فقد تعلّمثُ منها الطّريقة المُنظّمة في

التّفكير، المنطق، وترتيب النّتيجة المُتوخّاة على المُقدّمة الصّحيحة. واتّسع الخيال لديّ فيها؛ كان الرّسم الهندسي أحدَ الأسباب، حينَ كنّا نخرج إلى ساحات الكلّيات، ذلك الصّفّ عشرون أو ثلاثون، كُلّ أمامه لوحته، ونبدأ برأس القلم حينَ نضعه أمام أعيننا من خلال إسقاط الرّأس على الرأس؛ رأسِ القلم على رأسِ المبني، ونُثبت تلك الإسقاطات والزّوايا على اللّوحة، أو من خلال رسم الأبنية المُبتَكرة، كان الخَيال وحده قادرًا على مثل هذا النّوع من الابتِكار، ومن قرأ رواية (تسعة عشر) سيرى أثر ذلك في تصميم المكتبة الأسطوريّة الّتي تتحدّث عنها الرّواية، ومن قرأ رواية (نفر من الجنّ) فسيلمس ذلك الأثر في الحديث عن القِلاع فيها: "ثمّ طلبت منهم أن يعكفوا على رسمِ مُخطّطاتٍ هندسيّةٍ يُبدِعون فيها أكثر مِمّا قد أبدعوا فيما مضى. وخرج كلّ مهندسٍ بثلاثة تصميمات، فاجتمع لدى (آسيار) ثلاثةٌ وثلاثون تصميمًا كلّ تصميمٍ أبدع من الآخر، واعتمدت بعد مشورة الحكماء مِمّن عايشوا بدء الخلق أحدَ هذه التّصاميم الفريدة. وقريبًا سوف تشهقُ البشريّة وهي تشهدُ أعظم بناءٍ يرتفع فوق أَضْيَعِ أرض!!"

حُدّد طول الأضلاع، ومقياس الزّوايا، وعدد اللّبنات، ومقياس المحيط، وطول القُطر، والنّسبة الرّياضيّة (باي)،

وكمّيات الحديد، ومقدار الملاط الرّابط بين الحجر والحديد.

هي إذًا سِرّ (الشّيصار)؛ قلعةٌ ثُمانيّة الأضلاع، بزوايا منفرجة مُتساوية، كلّ ضلعٍ يَمتدّ مترين عرضًا، وستّين مترًا ارتِفاعًا، ويحمل الارتِفاع في الأمتار العشرة الأخيرة أبراجًا دائريّة على زاوية كلّ ضلعٍ من الأضلاع الثّماني، في المتر الأخير من كلّ برج ينبثقُ جدارٌ أفقيّ يحيط به، وترتكز عليه مناظير يُمكن أن ترى العدوّ منها على مسيرة ثلاثة أشهر، يقف خلف كلّ منظار فارسٌ كان عفريتًا تعمل عيناه على تكسير الضّوء المنكسر حتّى لا يحجبه عن مدى الرّؤية شيء".

فضل الّذين درّسوني:

كلمةٌ أخيرةٌ في هذا الفصل بحقّ مَنْ كان لهم فضلٌ عليّ. وإنّما يعرف الفضلَ لأهلِه أهلُ الفضل. وفي حياة الإنسان محطّاتٌ طويلةٌ يتعلّم منها، قد تُعلّمه القراءة أو السّفر أو الطّبيعة أو المُصيبة أو النِعمة أو غيرها، ولكنّ فضل المُعلّم لا يُمحى، ذلك الإنسان الّذي أعطى علمه وأدبه وخُلُقه مشفوعًا بالرّحمة والإخلاص يبقى أثره أطول وأعمق وأدوم.

لن أنسى اليوم - وأنا أكتبُ هذا - فضل الذين درسوني في الابتدائية أو الإعدادية أو الثانوية، أو بعد ذلك في مراحل لاحقة؛ إنهم جزءٌ من تكوين شخصيّتي، جزءٌ من هذا الجِسم المعرفيّ القويم... بعضُهم رحل عن الدّنيا، ولم نعرف إلا بعد سنين من رحيله، أدعو الله أن يُنزّلَ عليه شآبيبَ رحمته، وبعضهم ما زال يُقاسِمنا هذه الحياة التي ستتخلّى بدورها عنّا واحدًا واحِدا ولو بعد حين.

أذكرُ منهم الأستاذ (عيسى ملكاوي) الّذي درّسني العربيّة في المرحلة الإعداديّة، وتعلّمْنا منه جَمال الخطّ، وروعةَ فَنّه. قبلَ حوالي خمس سنوات، في صيف عام (2015م) تقريبًا كان لي حفل توقيع في إربد، وكان هناك طابورٌ، ولم أنتبه لوجوده بينهم، تخيّلوا أن أستاذًا عظيمًا يقفُ في طابور طويل ليحصل على توقيع تلميذٍ صغيرٍ مثلي. حين وصل الدور إليه، صُدِمتُ بوقوفه أمامي، كان قد نَحُل إلى درجةٍ شديدةٍ، واشتعل رأسُه شيبًا، انتابتْني موجةٌ من الحزن العميق حتى بكيت، وشعرتُ بعقوق التلميذ أمام أستاذه... وقفتُ أمامه وقبّلتُ رأسه، ثُمّ صافحتُه حانِيًا رأسي... وتنحّيتُ جانِبًا لأعدّدَ للذين ما زالوا واقفين في الدور فضائل هذا الأستاذ العظيم.

لا أدري لِمَ حين عُدتُ ذلك المساء إلى بيتي أصابتني حالةٌ من اللاجدوى، وإحساسٌ حقيقيّ بالهراء الذي نعيشه. تمنّيت أن الموقف لم يحصل على الحقيقة، تمنّيت - إنْ كنتُ أدّعي الوفاء لأساتذتي - لو ذهبتُ إليه في بيته وقبّلتُ يده، وطلبتُ منه أن يُسامحني على كلّ شيء.

من أساتذتي في الهندسة، لا زلتُ أذكر الأستاذ (نصري أبو ناصر)، كان قريبًا من الطُّلاّب، وفي حين أنّ كثيرًا من الأساتذة الآخرين كانوا يُعقّدون الشّرح عن عمدٍ كان يُبسّط هو الأمور حتّى نفهمها بأيسر الطّرق، وفي حين أنّ الآخرين كانوا مصدر قلقٍ شديد ورهبة أشدّ خوفًا من الرّسوب في المادّة خاصّة مع توعّدات الأساتذة الّتي لا تنتهي، كان هو مصدر طُمأنينة، وقد مضى النّموذجان، وظلّ في الذّاكرة مَنْ كان سهلاً يسيرًا قريبًا من القلب، ولقد صدق الحبيب صلّى الله عليه وسلّم حينَ قال: "إنّ النّار حُرّمتْ على كلِّ هيِّن ليِّن قريب سهل".

وفي جامعة اليرموك لن أنسى بالطّبع أبي الّذي تلمذتُ له في بعضِ الموادّ، وحين كان يُصحّح العلامة كان يتحرّى الدّقّة معي حتّى لا يكون هناك مجالٌ في نفسِ شاكٍّ بأنّني أخذتُ العلامة بسبب القرابة، وكان يُعطي أوراق الطّلاّب لهم

بعدَ تصحيحها، ويحتفظُ بورقتي في أحد أدراج مكتبه في الجامعة أسبوعًا على الأقلّ، حتّى إذا تنطّع أحدهم أو همزَ بأنّني لا أستحقّ العلامة العالية الّتي حصلت عليها يدعوه إلى مكتبه، ويُطلعه عليها، ويسأله أنْ يدقّقها بنفسه. لقد كان يَجُبّ عنّا الكلام بموضوعيّته هذه، غفر الله لنا وله.

وفي الجامعة الأردنيّة لن أنسى فضلَ طائفةٍ من الأساتذة الأفاضل الّذين أثّروا فِيّ، أذكر منهم الدّكتور محمّد حسن عوّاد الّذي أشرفَ عليّ في مرحلتَي الماجيستير والدّكتوراة، والدّكتور خالد الكركيّ الّذي حبّبني أكثرَ بالمتنبّي، والدّكتور عبد الجليل عبد المُهدي الّذي عرّفني من خلال كتابه (بيت المقدس في أدب الحروب الصّليبيّة) ارتِباط الشّعر بالقضيّة، والدّكتور ناصر الدّين الأسد الّذي عرفتُ منه قيمة الكُتُب المُحقّقة، والدّكتور هاشم ياغي الّذي درّسني في مرحلة الماجيستير مادّة (الشّعر الجاهليّ)، وكانت محاضرته استِظهارًا لهذا الشّعرِ نماذجِه الأجمل، وكان الدّكتور قد جاوز الثّمانين آنذاك، وكان يبدو عليه التّعب، وأحيانًا يُلجِئه التّعب إلى غفوةٍ بسيطة، وكنّا نُشفِق عليه من ذلك، وما زلت أذكر صوتَه المُتهدّج الفخم وهو يقرأ علينا قصيدة دريد بن الصّمّة، ويتوقّف مليًّا عند قوله:

أَمَرْتُهُمُ أَمْرِي بِمُنعَرِجِ اللّوا

فَلَمْ يَسْتَبِينوا النُّصْح إلاّ ضُحَى الغَدِ

وَهَلْ أَنَا إلاّ مِنْ غَزِيّةَ إنْ غَوَتْ

غَوَيْتُ، وإنْ ترشدْ غَزِيّةُ أَرْشُدِ

ولن أنسى كذلك فضل العَلاّمة الدّكتور فاضل السّامرّائي، الّذي سافرتُ إليه في الإمارات العربيّة المُتّحدة، وأفدتُ من فُيوضِه في موضوع رسالتي للماجيستير عن (اسم المفعول في القرآن الكريم)، وكان على سَعَة عِلمه وكبر قدره وسِنّه مُتواضِعًا معطاءً.

أيّها الأساتذة الذين علّمونا معنى العلم، لعلّ ما يكفّر خطايانا في تقصيرنا بحقّكم ألا نكفّ عن الدُّعاء لكم في كلّ حين. وحفظكم الله إن كنتم أحياءً، وتغمّد أرواحكم بالرحمة إنْ كنتم في الرّاحلين.

الفصل الخامس
النّشاطات والمرحلة العَمَليّة

(إذا قامتِ السّاعة وفي يَدِ أَحِدكم فَسِيلةٌ، فَإنِ اسْتطاعَ ألاّ تقُومَ حتّى يَغرِسَها، فليَغرِسْها)

[حديث شريف]

تمهيد:

نحن مَشّاؤون يا أخي. الحياة عمل. إنّ الله خلقها مع الموت، ليس لكي يبدأ أحدهما الشّوط والآخر يُنهيه، إنّما غايةُ خَلْقهما معًا حُسنُ العمل: "هو الّذي خلقَ الموتَ والحياةَ لِيَبْلُوَكُم أيُّكم أحسنُ عَمَلاً". والعملُ بلاء. قيمته بقيمة نَفْعِه للآخرين، وهو ذاته الّذي تُسأل عنه يومَ تقفُ وحيدًا بين يدَي مُوجِدِ كلّ شيءٍ. وهو كذلك الّذي يُمايز بين النّاس، فلولاه لاستَووا، وهو المأمور به في ضروبِ شتّى، وهو المنظور للمُراقبة والمُحاسبة والرّؤية: "وقُلِ اعْملوا فَسَيَرى اللهُ عَمَلَكم".

عبر التّاريخ يبعثُ الله إشاراتٍ للبشر لتعرّفهم قيمة العمل، أولئك الّذين يَشكون من الفراغ في فكرته سواءً أكانوا فارغين منه أو ممتلئين به، لن يؤمنوا حتّى يروا العذاب. يبعثُ الله في هذه الأيّام الّتي نعيشها وباء فيروس (كورونا)، فيعرّفكَ الله قيمة العمل بأكثر من وجه، فوجةٌ منه يبدو حين يجلسُ النّاس في بيوتهم فيضجرون، ويملّون، حتّى أولئك الّذين كانوا من قبلُ يَشكون ضغط العمل يطلبون الآن أنْ يعودوا ولو إلى مزيدٍ منه. وجهٌ آخر يعرّفك قيمة العمل أولئك الّذين يُفنون أنفسهم وهم يعملون في كلّ اتّجاه من أجل الهرب من قَدَر الله إلى رحمته، يصدّون موجة هذا الوباء الطّاغيّة، أو ينحنون حتّى تمرّ، أو ينتحون جانبًا كي لا تمسّهم نفحةُ عذابه.

لِمَ نعمل؟ لِمَ نغدو ونروح؟ لِمَ نُعنّي أنفسنا بتعب هذا العمل وما ينتجُ عنه من كَدَرٍ أو رَهَق؟ ألم يكنِ الأولى أنْ نجلسَ في بيوتنا، ونُريح أنفسنا؟ أولئك الّذين سيقولون: من أجل لقمة العيش، نركضُ وراء الرّغيف في بلداننا العربيّة ولا نرى بعدَ لُهاثٍ طويل غيرَ شَبَحه، قد يكونون مُحقّين في هذا الجانب الّذي يعني بقاء الإنسان على قيد الحياة. لكنْ ماذا عن أولئك الّذين يرغبون في العمل وهم يملكون المليارات؟ هل هو

الطّمع؟ قد يكون. لكنْ، ماذا لو لم يكنْ هذا هو الدّافع؛ فماذا يُمكن أنْ يكون؟ هل نحن نبحثُ عن ذواتنا فيما نعمل؟ هل يكون العمل صِحّة والفراغ مرضًا؟ نحن نعمل إذًا لكي نصحّ أو تصحّ عِلَلُنا، "وربّما صحّت الأجسامُ بالعلل" على رأيِ حكيمنا المتنبّي، كيفَ يكون الفراغ مرضًا ما لم يُصاحبه سَعة تؤدّي إلى فسادٍ، وإلاّ فما معنى قول أبي العتاهية:

إنّ الشّبابَ والفَراغَ والجِدَةْ

مَفسدةٌ للمرءِ أيُّ مَفْسَدَةْ

هل نحنُ نسعى إلى الكمال من خلال العمل؟ هل نريدُ أنْ يعرفنا الآخرون بهذا العمل المُتقن أو ذاك؟ هل هو إشباعٌ لرغباتنا الطّينيّة أو السّماويّة؟ هل هو كلّ ذلك مُجتمِعًا، خليطٌ يأخذُ من كلّ سببٍ بطرف.

الثّورة الرّومانسيّة:

كنتُ عائدًا من الإمارات في صيف عام (1990م) قُبيل أنْ التحق بكليّة الهندسة في جامعة العلوم والتّكنولجيا، اقتحمَ العراقُ الكويتَ واستولى عليها. ثمّ لَمّا كُنّا عاطفيّين قُلنا: "أخٌ

لَطمَ أخاه أو صَفَعَه". وتجاهلْنا ما وراء ذلك من كوارث، ثُمّ التحقث بالجامعة، فلمّا دخلْناها، وغَبَرَ تقريبًا فصلُها الأوّل، بدأت أمريكا مع أكثر من ثلاثين دولةً تحشدُ جُيوشَها لتحرير الكويت وإخراج العراق منه، كان الأردنّ، أعني مواطنيه، بسببٍ من جهلٍ بالتّاريخ وبسببٍ من عاطفةٍ لا أحدَ يدري كيفَ تعمل، أو كيفَ تكون بوصلتُها باتّجاه دون آخر - نصرخ في وجه هذا الجيش الثّلاثيني الصّليبيّ الملعون الحاقد, انعكسَ هذا الغضب من هذه الحشود الّتي تريد أنْ تكسر شوكةَ العراق علينا هنا في الأردنّ بكافّة أطيافه تقريبًا، وانسحبَ ذلك على الجامعات، ومنها جامعة العلوم والتّكنولوجيّا، ولِرُوح الثّورة الكامنة في كلّ شابٍ لم يُجاوز الثّامنة عشرة من عمره بعد، مارث في صدورنا تلك المشاعر، واتّقد الغضب فينا على الجيش الصّليبيّ، فخرجْنا في الجامعات في مُظاهراتٍ حاشدة، وهتافات عالية، ولقد كنتُ أنا أكثرَ مَن يقودها، ويهتفُ في مُقدّمتها، ولأنّي شاعرٌ فقد صُغتُ كثيرًا من الشّعارات والهُتافات في تلك المُظاهرات، ولا زلتُ أرى نفسي ذلك الفتى الثّائر، أصعدُ على طرفِ الأحواض الموجودة في السّاحات المكشوفة بين مباني الكلّيّات، وأسير ووجهي للجماهير وأنا أرجِع بظهري مُتقدّمًا أمامهم، وهم يهتفون من ورائي، وأرفع صوتي كلّما ردّد الجمهور خلفي حتّى يُبحّ وتردّد جنبات المباني تلك الهُتافات الصّاخبة، ولعلّه

خامرني شعورٌ بالمتعة وأنا أرى أنّ كلماتي تتحوّل إلى شعارات في أفواه الطّلبة، فإذا ما انتهى خطّ ذلك الحوض، نزلتُ عنه، وسرتُ حتّى أجدَ مرتفعًا آخر، وكنّا نسير بهذه الحشود مبتدئين من (سكوير C) الّذي تبتدئ به مباني الجامعة، إلى مبنى عمادة شؤون الطّلبة في (سكوير M)، ولا أدري ماذا كنّا نقصد بتوجّهنا إلى العمادة، وماذا في يدها حتّى تُحقّقه لنا.

لم يتوقّف الأمر عند ذلك، بل كنّا نعقد اعتصامات خارج المباني من الجهة الشّرقية أمام الكافتيريا، وهي ساحات واسعةٌ جدّا، ومكشوفة غير مُحاطةٍ بالأبينة، وهناك يبدأ الطّلاّب من كافّة التّوجّهات اليمينيّة واليساريّة بإلقاء خُطبهم وهتافاتهم، ولا زلتُ أذكر أحدهم وقد سبقنا ربّما إلى الجامعة بخمس سنين، وكان شيوعيّا، واسمه (لينين)، وكان ربعةً أشقر، ممتلئ الجسم قليلاً، أصلع، وهو يصعدُ على نشزٍ في تلك السّاحة أو على أحد أكتاف مُؤيّديه، وهو يُلوّح بيديه غاضبًا، ويهتف متوعّدًا.

كانت هناك نماذج كثيرة من هؤلاء الطّلاّب الحزبيّين أو الثّوريّين الغاضبين، كانت الجامعة تفور أيّامها بتلك النّشاطات المحمومة، والمسيرات الهادرة، ولا زلتُ كذلك أرى

أحدهم كان من جنوب الأردنّ، لم أعدْ أتذكّر اسمه، وهو يقرأ بصوتٍ خطابيّ جَهْوريّ مُحمّسًا الطُّلاب على الهياج، قصيدة الجواهريّ الّتي يقول فيها:

فاضتْ جُروحُ فِلَسطينٍ مُذكِّرةً

جُرْحًا بِأندلُسٍ لِلآنَ مَا الْتَأَمَا

سيُلحقونَ فِلَسْطينًا بِأَنْدَلُسٍ

وَيَعْطِفُونَ عَلَيْها البَيْتَ وَالحَرَمَا

وَيَسْلُبُونَكَ بَغْدادًا وَجِلِّقَةً

وَيَتْرُكُونَكَ لا لَحْمًا ولا وَضَما

يا أُمّةً لِخُصُومٍ ضِدّها احْتَكَمَتْ

كَيْفَ ارْتَضَيْتِ خَصِيْمًا ظالِمًا حَكَمَا

سَلِي الحَوادِثَ والتّارِيخَ هَلْ عَرَفَا

حَقًّا وَرَأيًا بِغَيرِ القُوَّةِ احْتُرِما

لا تَطْلُبِي مِنْ يَدِ الجَبَّارِ مَرْحَمَةً

ضَعِي على هامَةٍ جَبَّارَةٍ قَدَمَا

وكان يتوقّف عند البيت: (وَيَسْلِبُونَكَ بَغدادًا وجِلِّقَةً) ويُعيده على مسامعنا، فهل صدقت نبوءة الجواهري الّذي كُنّا نتغنّى بأبياته لا لشيءٍ إلاّ لنفرّغ غضبنا. حتّى إذا وصل الطّالب في إنشاده القصيدة إلى البيت الأخير غَلُظَ صوته، واهتزّتْ قَبْضةُ يده، وخبطَ الأرضَ بقدمه، فكنّا نشعر أنّنا نخبطُ بأقدامنا معه على الهامات الجَبّارة.

ماذا بقي من تلك الهياجات والمسيرات والثّورات؟ لا شيء. كنّا عاطفيّين، استنكرنا الحشود على أخينا، ولم نستنكر الخنجر الّذي مدّه أخونا على أخينا الآخَر. هل نحن مُستغفَلون؟ أم أنّنا لا نُحكّم العقل قبل دخول العاصفة؟ أم أنّها الفِتَن؟ أم أنّ ثورتَنا لم تكنْ أكثر من ثورةٍ رومانسيّة حالِمة يُؤجّجها الغضب الآنيّ، ويُخمدها مرور بعض الزّمن! لو كانت الثّورة فكرةً لما ماتت، ولَما كَفَر بها بعضُنا بعدَ حين!!

اليوم يُمكنكم أنْ تروا صورة ذلك الثّائر الّذي لم يكنْ يعرفُ غير الثّورة في محيطٍ شبه مغلق شيئًا كثيرًا في رواية ذائقة الموت، إنّه (واثق) ووجه حبيبته (منى)، ما زالا حَيَّيْن إلى اليوم؛ في ذاكرتي على الأقلّ!

الجيش الشّعبيّ:

كانت حالة الغَلَيان الّتي تمور في نفوس الشّعب تُجاه ما يحدث من عدوانٍ أمريكيّ صهيونيّ كما كُنّا نسمّيه لا بُدّ من تفريغها، في تلك الأيّام كان توقّع سقوط صورايخ – لا أدري من أين ستأتي – على شوارعنا الهادِئة وبيوتنا الآمنة حديثَ النّفس والنّاس، فكنّا نضع شريطًا لاصِقًا على زجاج النّوافذ حتّى لا يتكسّر إذا تكسّر إلى قِطَعٍ صغيرةٍ ويُؤذي مَنْ في المنزل، كأنّنا – لسذاجتنا - حسبْنا حساب الأذى من قطع زُجاج صغيرة مُتهشّمة، ولم نحسب حِسابها من شظايا صاروخٍ كبيرٍ كما حدث في ملجأ العامريّة في العراق. بل إنّ بعضَنا كان لا يجرؤ على النّظر من نوافذ تلك البيوت إذا حلّ الظّلام، وكان يُغلِق النّوافذ بستائر سوداء حتّى لا يسمح للضّوء فضح موقع البيت إذا نفذ من خلال ستائر أخرى!!

قلتُ هذا الاحتِقان في صدور النّاس، كان لا بُدّ من تفريغه،

فاستحدثت الدّولة ما سُمّي يومَها (بالجيش الشّعبيّ) بحيث تأتي وحدات الجيش النّظاميّ، ومعه مدرّبوه المَهَرة إلى الجامعات الأردنيّة الثّلاث المُؤسَّسة يومئذٍ، ويقومون بتدريب الطُّلاّب تدريبًا يستمر لأسبوعَين أو ثلاثة على فنّيات القِتال، واستخدام سلاح (الكلاشينكوف) على وجه الخصوص. وكان موضع التّدريبات هو ساحات الجامعة، فتداعى الطّلبة فورَ الإعلان عن ذلك إلى الانخِراط في هذا الجيش الشّعبيّ، وكنتُ منهم. وبدأنا نتدرّب على (استرحْ... استعدْ...) ونخبطُ بالبساطير المُستأجرة الأرض فيرتدّ صدى الصّرخات والخبطات من جدران المباني العالية ويُداعب أوراق الشّجر المتناثر. وقد التزمتُ بالتّدريبات كافّة، وتدرّب أساتذة الجامعة معنا، ولا زلتُ أذكر دكتور الكيمياء الدّكتور (طهبوب) وكان ممتلئ الجسم يلبس نظّارة سميكةً وأذكر هيئته وهو يخبط الأرضَ بقدميه، وكنّا لا نكادُ نصدّق أنّ هذا الأستاذ الّذي له الرّهبة والهيبة، يأتمر بأمر جنديّ لا يكاد يضع شريطةً على كتفه، وهو أصغر منه ربّما بثلاثين عامًا. ربّما لم نكنْ نفهم معنى الجنديّة الحقّة. هكذا هي المقارنة الفاسدة في مثل هذه الحالة.

ثُمّ أخذونا بعدَ أنْ أنهينا التّدريبات إلى ميدان الرّماية في (المفرق) على ما أذكر، ولكنّني لا زلتُ أتذكّر السّاحة الرّملية

الممتدّة الّتي امتحنونا فيها، والأهداف الثّابتة الّتي صوّبْنا تُجاهها، والسّاتر الرّملي الّذي ربضنا من خلفه، وحبسْنا أنفاسَنا ونحن نضغطُ على الزّناد من أجل إسقاط الهدف الّذي كان يبعدُ عنّا ما يزيدُ عن ثلاثين مترًا.

بعدَ ثلاثة أيّامٍ تقريبًا من ذلك الامتحان، وزّعوا علينا دفتر الجيش الشّعبيّ، كشهادةٍ تُثبت انخراطنا في تدريباته، ومعه نتيجة كلّ جنديّ، وكانت هناك أربعُ خانات: الأولى للسّلاح، والثّانية لنوع الرّماية، والثّالثة للتّاريخ، والرّابعة للنّتيجة. فأمّا السّلاح الّذي تدرّبتُ عليه فهو الكلاشينكوف. وأمّا نوع الرّماية فهي تطبيق ميدانيّ. وأمّا التّاريخ فكان 19-1-1992م. وأمّا النّتيجة فكانت "أولى"!

الصّحافة الطّلابيّة:

حينَ فزتُ عام 1993م في اتّحاد الطّلبة بمقعد عن الهندسة المدنيّة، تولّيتُ رئاسة اللّجنة الإعلاميّة فيه، فعُهِدَ إليّ مع ذلك رئاسة التّحرير لمجلّة الاتّحاد. كانت المجلّة بسيطة، لكنّني حرصتُ على تنوّع موضوعاتها، وأنْ تضمّ إبداعات الطّلبة بغضّ النّظر عن توجّههم، فالتّوجّه الفكريّ لن يكون حجر عثرةٍ أمام الإبداع الحقيقيّ، ربّما كانت تلك

فرصةٌ ذهبيّةٌ لي للاشتِغال بالصّحافة، أو ممارسة العمل الصّحفيّ ولو بصورةٍ بسيطة. وكانث أمامي نماذج لصحافة تاريخيّة خالدة، كانت هناك مجلّة (الرّسالة) الّتي أسّسها أحمد حسن الزّيّات عام 1932م، وكان يكتب فيها الكِبار مِمّن تلمذتُ لهم، أمثال: العقاد، والرّافعيّ، وسيّد قطب، وأحمد أمين، وعلي الطّنطاوي، وطه حُسين، ومحمود محمّد شاكر، والشّابّي. وكنتُ أحاول أنْ أحصل على أعدادها الأصليّة فلم أستطعْ، حتّى إذا مرّ على ذلك العهد عقودٌ تمكّنتُ من ذلك في عام ٢٠١٥م. وكانت افتِتاحيّات المجلّة تُعجبني بلغة صاحبها الرّشيقة. وانظر - على سبيل المثال - هذه اللّغة في بعضِ افتتاحيّته لمجلّته العدد (٣٧٤) عام ١٩٤٠م بعنوان (خواطر مُهاجر): «على أنّ النّيل أوفى منذ أيّام فطمى وزخرا ففي ذاتِ بُكرةٍ من بُكَر المنصورة الغريقة في النّور والفُتور والهدُوء والعِطر، رأيتُ من مَشرَفِ القهوة شاطِئَيه الظّامِئَين قد شَرِقا من فيضِهِ بدم الحياة أو بِذَوبِ النُّضار، فهُما يَفهَقان كما يَفهَق اليهوديّ ذو الرّبْو الهَرَم! وأبصرتُ الزّوارق الّتي كانت تُجرّ بالأمس على رمال القاع قد غدتْ على صفحته الذّهبيّة المُتموّجة أشبهَ شيءٍ بالحَمام الطّائر على حُقول القمح إذا استُحصِدتْ، أو بالفَراش المَبثوث على رِياض الشّقائق إذا تورّدَتْ». وكانت إلى ذلك أمامي مجلّة المنار الّتي أسّسها (محمّد رشيد رِضا) عام

١٨٩٨م، واتّكأ على مقالاته فيها بموضوع التّفسير ليُصدِر تفسيره المعروف بتفسير (المنار)، وكانت مجلّة فكريّة فقهيّة عقديّة بخلاف الرّسالة الّتي كانث أدبيّة فلسفيّة، وكنتُ بحاجةٍ إلى كلّ فنّ. ثمّ يُضاف إلى هاتَين الشّقيقتين ثالثةٌ هي مجلة (الهلال) الّتي أسّسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢م، ولقد اختلفتْ عن السّابقتَين أنّها أضافتْ إلى الاهتِمام بالأدب، الاهتِمام بالفنّ والمُختَرعات، واليوم عندما أتصفّح عددًا من المجلّة صادرًا مثلاً في الثّلاثينيّات من القرن الماضي وهي تتحدّث عن الاختِراعات في الرّاديو مثلاً، وأقارنها بما وصلث إليه الاختِراعات في عصرنا هذا أبتسم ابتِسامة واسعة! غير أنّه ربّما لو قرأ شخصٌ بعدَ خمسينَ عامًا من يومنا هذا ما كنّا نفرح به من مخترعات لربّما كانت ابتِسامته أشدّ اتّساعًا من ابتِسامتي!!

جرجي زيدان هذا الّذي أصدر هذه المجلّة التّاريخيّة، كان قد كتبَ عددًا من الرّوايات، وقُدّر لي أنْ أجد كثيرًا منها في مكتبة السّجن، فقرأتُها من ضمن ما قرأت، فما وجدتُ فيها شيئًا يلفتني إليه، ولم تُعجبْني لأنّها من النّوع الّذي كان يتعمّد إلى البحثِ عن قصّة حُبّ في الحدث التّاريخيّ وإبرازه كأنّه عِمادُ الأحداث كلّها، ويبني عليه روايته، ولقد فسّرتُ ذلك - وقد أكون مُخطِئًا - أنّ الأمر الّذي حدا بجرجي

زيدان أنْ يفعل ذلك هو الشّوق، أيْ أنّ الحديث عن قصص العشق هذه كانت مُتطلّب النّاس أو السّوق تلك الأيّام من أجل أنْ تُباع، فيتهافت عليها المُراهِقون، وطالبات المدارس، فتَزُوج، فإذا ترك المُراهِقون مُراهقتَهم مع الأيّام تركَوا تلك الرّوايات معها، ولذلك لم تعشْ طويلا!

أقول إنّني في النّهاية حصلت على كلّ هذه المجلاّت وغيرها، ليس بأعدادها كاملة ولكنْ بأجزاء جيّدة منها. ولقد كنتُ زمنَ الجامعة، ومن قبلها زمنَ المدرسة أطمح أنْ أؤسس مجلّة تكون كما كانت هذه الأوائل منارةَ علمٍ وهُدًى، فما وجدتُ لذلك مع الأيّام سبيلاً!

ثُمّ أخذتْ قصائدي تنسلّ واحدةً تلو الأخرى إلى جريدة الجامعة الّتي كانت تُصدرها عمادة شؤون الطّلبة، وكان يُشرف عليها الأستاذ (عبد الحافظ الخلايلة) الّذي وَثِق بي وبشعري، ورحنا معًا نحرّر القسم الثّقافيّ من الجريدة. كُنتُ أنشر بعضَ قصائدي بخطّ يدي، أو مطبوعةً، وكنتُ أفضّل النّوع الأوّل كرؤىً حالمة بأنّ أحدًا ما سيجمع هذه القُصاصات المكتوبة بخطّ يدي ويعتبرها كنزًا ثمينًا، أو يبيعها في المزاد العلنيّ!!

في عام ١٩٩٧م تخرّجتُ في الهندسة، وكنتُ ما أزال في البدايات في تخصّص العربيّة، فعملتُ في مجال الهندسة لأنفق على نفسي في دراستي الجديدة، كنتُ أعمل مهندسًا تنفيذيًا في شركةٍ هندسيّة تأخذ عطاءات، وكانت قد أخذتْ في السّنة الّتي ابتدأتُ العمل معها مشروعًا لبناء مدرسة إعداديّة وثانويّة في قرية (سوم) من قُرى إربد، وقَبِلتُ بالوظيفة على الفور، مع أنّ راتبي كان قليلاً، وكنتُ أذهبُ للقرية بالمُواصلات، أو يأخذني في طريقه أحدُ العاملين في المشروع، تعلّمتُ من العمل في الهندسة الكثير، ولكنّني تعلّمتُ من العاملين في هذا المجال أكثر، وأنا أعني هنا (عُمّال الطّوبار) أو عُمّال الباطون، أو عُمّال الحديد، لم تكنْ الآليّات الحديثة قد دخلتْ في العمل، بحيثُ تقومُ آليّة واحدة من آليّات الخلطات الإسمنيّة بإلغاء عشرين عاملاً أو أكثر، والاستِغناء عن وظيفتهم. كان كلّ شيءٍ يتمّ أمامك، وباليد، وبالشّاكوش والمِسمار. كان هذا يُشكّل غِنًى عمليًا لا أنكر مدى ما أضافه إليّ. غير أنّني بعدَ مُضيّ فترةٍ من الزّمن، بدأتُ أتعرّف على بعض الوجوه القبيحة للعمل، كانتْ هناك الرّشوات، والمحسوبيّات، وما يُسمّى بالتّوقيع على تنفيذ بعضِ الأمور من تحت الطّاولة، ولأنّني غِرٌّ في هذه الأمور، ولا أريدُ أنْ أُرجِع الأمر إلى أمانتي ابتِداءً، فقد شعرتُ أنّني يُمكن أنْ أُستغفل أو أقع في أمورٍ لقلّة درايتي تقفني أمام

كوارث أو مصائب. فتراجعتُ خطوةً إلى الوراء. ثُمّ جاءَ طول العهد بالمعادلات، وحساب عوامل الأمان، وحساب وزن الحديد أو الكونكريت، وكلّ ما له علاقةٌ بالأرقام فأضافَ شيئًا من الجمود إلى مشاعري، حتّى إنّني بدأتُ أُنكِر نفسي، فتراجعتُ خطوةً ثانيةً إلى الوراء. ثُمّ كانت الضّربة الثّالثة، وكان سببُها الثّقة بالآخرين أو قلّة الخبرة، أو قد يكون سببُها أنّ العامل الصّغير جِدًّا في المشروع إذا رأى مَنْ هو أكبر منه قليلاً يغشّ أو يسرق، فسيفعل مثله، وإنْ لم يفعل أو لم يقدر فسيتحيّن الفرصة، وقد صدق الشّاعر، إذْ قال:

إذا كان رَبُّ البيتِ للدُّفِّ ضارِبًا

فَشِيمَةُ أهل البيتِ كُلُّهمُ الرّقصُ

وقد حدثَ أنْ هَزّ أحدُ الصّغار وسَطَه حينَ رأى من هو أكبرُ منه يرقص، فكانت تلك القاصمة، وكنتُ بين خيارَين أنْ أرقصَ مثلهم، أو أخرجَ من هذه الدّائرة، واخترتُ أهونَ الشّرَّين. ومع ذلك لا أريدُ أنْ أُعمّم هذه التّجربة، ففي الهندسة مشاريع يقف أمامها العقل والفِكر الإنسانيّ حائِرَين. أضف إلى ذلك أنّ دراستي للعربيّة في جامعة اليرموك آنذاك أخذتْ تَشُدّني بعيدًا عن الهندسة، ثُمّ حينَ حدثَ ذلك التّنازعُ

ما بين عملي مُهندسًا وبحثي عن وظيفةٍ في التّدريس، أو التّوجّه بالكلّيّة إلى العربيّة، فكرّتُ أنّه يُمكنني أنْ أستمرّ في العمل مهندسًا فلم يكنْ ذلك صعبًا، وإنْ لم أحبّ عملي هذا، لكنّ هذا ليسَ سببًا، فكثيرون مِمّن يعملون لا يُحبّون أعمالَهم، ومع هذا فقد يتدرّجون في هذه الأعمال إلى أنْ يبلغوا أرقى المناصب، ومن زملائي كثيرون مِمّن أصبحوا مع الزّمن مدراء مشاريع... لكنّ التّنازع لم يكن في الاستمرار في العمل مهندسًا، وإنّما الاستمرار فيه مهندسًا عاديًّا، كحال أيّ وظيفة، فالمهندِسون المُؤثّرون - في الوطن أو خارجه - أقلّ من عدد أصابع اليد الواحدة، كنتُ يومئذٍ أبحثُ عن عملٍ تكون لي فيه بصمة، ولقد بدا الأمر واضحًا: إمّا أنْ أستمرّ في العمل في الهندسة وأكون مهندسًا عابرًا لا يراه أحد، وقد يلتفت إلى نفسه بعد أربعين عامًا فيرى أنّه لم يصنعْ شيئًا ذا بال، فيندم على قراره الخاطِئ، الّذي كان يشعر من البداية أنّه خاطِئ، ولكنّه لم يتبعْ حَدْسه القويّ ذاك، وتجاهَله، وتراكم هذا التّجاهل حتّى آلت النّتيجة إلى هذه العاديّة، وإمّا أنْ أذهبَ إلى العربيّة وأعمل على تطوير ذاتي ومهاراتي فيها وأصطنع فيها لنفسي طريقًا لم يصطنعْه من قبلُ سواي، وتكون لي فيه بصمتي الخاصّة؟ وبالطّبع كان القلب والعقل يَميل إلى الخيار الثّاني.

ثُمّ جاء حبلُ النّجاة بعدَ عامَين من العمل في الهندسة، وهما عاما الدّارسة في اليرموك كذلك، أقول جاء حبلُ النّجاة هذا من قِبَل مدرسة الرّائد العربيّ في عمّان، إذ عُيّنتُ فيها مدرّسًا للغة العربيّة وكان ذلك أوّل عهدي بالتّدريس عام ١٩٩٩م. وابتدأتُ منذ ذلك العام، أضع خُطّة لما سأكون عليه، وكان بعضُها مرحليًّا لسنة، وآخر استراتيجيًّا لعشر سنوات. ولقد تحقّق لي ما أردتُ بحمد الله.

عملتُ في التّدريس حتّى ساعة كتابة هذه السّطور واحِدًا وعشرين عامًا، ولو أنّني خُيّرتُ بعدَ هذا العمر لاخترتُها، فلا أجملَ ولا أنبلَ من هذه المِهنة، فكيفَ إذا كانتْ في أنبله؛ تدريس العربيّة؟! إنّه شرفٌ على شَرَف.

في كلّ سنوات تدريسي كان أكبر أهدافي أنْ ينتقل عشقي للعربيّة وحُبّي الجَمّ إلى طُلاّبي، لم يكنْ يعنيني ما يفعلون بالعربيّة بعد ذلك، فلا يفعل العاشقُ إلاّ خيرًا. وقد نجحتُ إلى حدٍّ ما. مُشكلتنا في أوطاننا العربيّة ليستْ سهلة، فمن مناهج للعربيّة يختار مُؤلّفوها نصوصًا جامدةً تُكرّه الطّلاّب بعربيّتهم، كأنّما وضع هؤلاء المؤلّفون عشرة أهداف، وكان في مقدّمة تلك الأهداف: كيفَ نُكرّه الطّلاب بلغتهم؟ ثُمّ راحوا يبحثون عن النّصوص الّتي تُحقّق لهم هذا الهدف،

فخرجوا لنا بتلك المناهج، هذه حقيقة، ولذلك كنتُ كثيرًا ما أخرج عن المنهاج، وآتي لهم بالنّصوص الّتي يصدق فيها قول الحبيب: «وإنّ من البيان لَسِحرًا». وإذا كان في المنهاج فسحةٌ فإنّني كنتُ أتجاوز بعض الوحدات الّتي تصبّ في غير صالح العربيّة كتلك الّتي تتحدّث عن (الأسمدة الفوسفاتيّة) مثلاً، أو تلك الّتي تتحدّث عن (طبقة الأوزون)، ولو كان الدّرس بلغةٍ رشيقةٍ أنيقةٍ لأبقيتُ عليه، ولكنّهم كانوا يعرضونه إلى جفاف مضمونه بلغةٍ جافّة بعيدةٍ كلّ البعد عن العربيّة الّتي يجب أنْ تُقدّم لطلبتنا حتّى يُحبّوها. أضفْ إلى ذلك في هذه السلسلة من الطّوامّ، أنّ الّذين كانوا يتصدّرون لتدريسها هم أضعفُ من أنْ يقرؤوا نَصًّا أو يَدْرُسوه عوضَ أنْ يُدرّسوه، لقد بلغ الضّعفُ ببعضِهم أنْ يرفع المنصوب وينصب المرفوع، ولا يقيم فيما يقرأ حرفًا واحِدًا، ولعلّ ما كان يعنيه إبراهيم طوقان عن الطّلاّب انسحبَ على الأساتذة حينَ قال:

وأرى حِمارًا بعدَ ذلكَ كُلِّهِ

رَفعَ المُضافَ إليه والمَفعُولا

ولقد كنتُ أعضدُ أحيانًا الوحدة المُعطاة بأحسنَ منها؛ كأنّها

ردُّ تحيّة؛ فإذا كانت الوحدة قصيدةً أو قصّة، فإنّني آتي بنماذج أخرى للشّاعر أو القاصّ موضوع الدّرس، أو أقوم بتغيير القصيدة الّتي أراها ضعيفةً في المنهاج إلى أخرى أبلغَ وأحكمَ للشّاعر ذاته... وإلى ذلك فإنّني أيّام كنتُ في مدرسة الرّائد العربيّ وفي مدرسة الرّضوان لاحِقًا، أختار حوالي (٥٠٠) بيت من الشّعر القديم والحديث على طريقة اختيار المُفضّل الضّبّي وأبي تمّام في الحماسة، والأصمعيّ في الأصمعيّات، ومختارات البارودي شوقي والزّهاوي وغيرهم، تتوزّع هذه المختارات على فنون الشّعر كالحبّ والوطن والتّصوّف والمدح والأخلاق والاجتماعيّات والشّكوى من الزّمان وغيرها، بشرطِ أنّ تكون الأبيات المُنتقاة أبياتَ حِكمة. وصوّرتُها في المدرسة لطلبتي كافّة، وعرضتُ عليهم عَرْضًا قلتُ لهم فيه: ما رأيكم أنْ أُعفيكم من الامتِحان النّهائي؟ فاستغربوا أوّل الأمر، وسألوا ليتأكّدوا، فقلتُ لهم: نعم، لا تتقدّمون إلى الامتحان النّهائيّ... فهاجَ أكثرهم وماجَ فرحًا وغِبطة... فأردفتُ: ولكنْ بشرط، فانقطع هرجُهم ومرجُهم، وبدا على وجوههم الخيبة والتّرقّب، فقلت: بشرط أنْ تحفظوا (٢٠٠) بيتٍ من أبيات الحكمة الّتي طبعتُها لكم في (دوسيّة المختارات)، فرفعَ بعضُهم يده موافقًا، ولم يقبلْ آخَرون. لقد كانتْ لديّ فلسفةٌ في ذلك، إنّ البيت الّذي تعيه، وتُدرك مدى تلخيصه لحياتنا الإنسانيّة من خلال تكثيفِ

تجربةٍ في بضع كلمات هو الّذي يبقى معك زمنًا طويلاً تتذكّره كلّما عنّت حادثةٌ أو عَرَضَ لك موقفٌ في حياتك يُعيده إليك. وهذا ما حدث، بعضُهم قال لي مِمّن التقاني بعدَ سنوات: إنّنا لا زلنا نحتفظُ في ذاكرتنا بتلك الأبيات الجميلة. وأنا متأكّدٌ من أنّني لو سألتُهم: وماذا تتذكّرون من دروسكم الّتي كنتم تدرسونها من أجل العلامة؟ سيردُّون: لقد ذهبت مع الرّيح!

مع طلّابي في مدرسة الرّائد العربيّ عام ٢٠٠١م

ثُمّ كان اجتياح إسرائيل لغَزّة عام ٢٠٠٣م، فخرجت مُظاهراتُ ضِدّ ذلك في أنحاء متفرّقة من الأردنّ، وكان بعضُها يريدُ أنْ يصلَ إلى السّفارة الإسرائيليّة المُقامة على أرض الرّابية من غرب عمّان، ولكنّ الطّوق الأمني الّذي فُرِض عليها أحد أيّام الجُمَع حَوَّل عمّان إلى ثكنة عسكريّة، إذ أغلقَتْ كلّ منافذها. طلبة مدرسة الرّائد العربيّ، نَفَسُهم عروبيّ، راح بعضُهم في أحد أيّام الدّراسة في الفرصة يهتفون ضِدّ إسرائيل، بدأ الصّوتُ خافِتًا، فشجّعتُهم، كنتُ لا أزال ذلك الثّائر العنيد، بل إنّني هتفتُ معهم، إذ لم يكنْ أحدٌ من المُدرّسين قادرًا على ذلك بسبب منعنا كأساتذة من المُشاركة في أعمالٍ سياسيّة، وإنْ كان بعضُهم في دخيلة

نفسِه يودّ ذلك. لم يتوقّف الأمر عند الهُتاف، جاءني ثلاثةٌ من طلبة الثّانويّة العامّة، اثنان منهما كانا ضَخمَين، همَسَوا وهم يتلفّتون حولهم: «إذا خرجْنا باتّجاه السّفارة الإسرائيليّة، فهل ستخرج معنا؟». همستُ بدوري: «نعم، بل مُستعدٌّ أن أقود المُظاهرة، وإذا هتفتُ فاهتفوا من ورائي». كان فَرَحُهم بذلك عظيمًا. طلبتُ منهم أنْ يتوجّهوا صعودًا على السّلالم الطّويلة الّتي تزيدُ عن سبعين درجةً من ساحة القسم الثّانويّ إلى البوّابة الرّئيسيّة، وقلت: أنا سألحقُ بكم مُتظاهِرًا أنّني أريدُ إعادتكم، حتّى إذا صرتُم أمام البوّابة الرّئيسيّة مشيتُ أمامكم. وهذا ما كان. مشينا على أرجلنا، كُنّا في بداية بِضعَ عشرات من الطُلاّب ولم يكنْ معهم من الأساتذة في البداية سِواي، ثُمّ التحقَ بنا مدير المدرسة الأستاذ تيسير الدّويك، وتابعه على ذلك أربعةُ أساتذة أو خمسة. أمّا الطُّلاّب فقد بدؤوا يتكاثرون بشكلٍ عجيبٍ بعد أنْ قطعنا أقلّ من مئتي متر، لحقوا بنا، وشكّلَ نَفَسُنا الجماعيّ موجًا هادِرًا. كانت السّفارة تبعدُ عن المدرسة حوالي كيلو متر إلى كيلو مترين، ولم يدرْ في بالِ أحدٍ أنّ طلبة مدرسةٍ تقبع على جبلٍ مقابلٍ يفصل بينهما (وادي صَقْرة) ستفعلها. ولكنّنا فعلْناها، كُنّا نحن الوحيدين في الأردنّ الّذين وصلْنا إلى السّفارة الإسرائيليّة ونحن نهتفُ ضِدّها وضِدّ التّطبيع، ونصرخ: «خُذها كِلْمِةْ صريحةْ... وادي عَرَبة فضيحَةْ». واستغرقَ الأمنُ وقتًا حتّى

يستوعب الموقف، وحتّى يحشدَ من أجل أنْ يمنعنا، فوصلْنا قبلَ سيّاراته وجنوده الّذين كانوا بالعَشَرات، ولم يستطيعوا منعنا، ولكنّ أمنَ السّفارة فيما يبدو الموجودين من الأساس، أشهروا كعوب بنادقهم في وجوهنا، وشكّلوا أمام الصّفّ الأوّل مِنّا طَوْقًا يدفع بكعب البندقيّة ما يستطيع حتّى لا نُواصل تقدّمنا، ولقد دُفِعتُ بكعب هذه البنادق، وخُبِطتُ بها على صدري كثيرًا، فسبّب لي ألمًا شديدًا، استمرّ بعد تلك الحادثة أكثر من شهرٍ حتّى بَرِئتُ منه. ثُمّ لم يستطعْ هذا العدد القليل من الأمن أنْ يوقفنا كلّنا، وبدأنا نُفلِت من طَوقة من خلال الزّوايا، فاستسلم لِمّا نريد. فجلسْنا في السّاحة الّتي أمام السّفارة، وبدأتُ ألقي فيهم كلمةً عن حربنا مع إسرائيل، وأنّ السّلام معهم خيانةٌ لدماء الضّحايا والشّهداء، وألقيتُ قصيدتي (قيدي من الصّمت) الّتي اشتُهرتْ بعد ذلك. وجاءَ عددٌ من شُرطةِ مُكافحة الشّغب ليمنعوني من الكلمة فحال بيني وبينهم طلبة الثّانوية ذوي الأجسام الضّخمة، وحاولوا كذلك أنْ يُزَحْزِحُوا الطُّلاّب عن أمكنتهم فلم يَقُم أحدٌ منهم من مكانه، وكان عددنا من طلابٍ وطالباتٍ يربو على الثّلاثمئة، فقلتُ للأمن: «هؤلاء لن يتحرّكوا من هنا إلاّ بكلمةٍ منّي». فرجوني أنْ أفعل، فقلتُ لهم: سأفعل إذا خلّيتُم بيني وبينهم وألقيتُ عليهم ما أريدُ أنْ يسمعوه، فأذعنوا للأمر، وخطبتُ فيهم حوالي عشر دقائق، ثُمّ هتفْنا ضِدّ

إسرائيل ربع ساعة، وازدادَ رجاء الأمن آنئذٍ، فطلبتُ من الطّلاّب أنّنا أدّينا ما جِئنا من أجله، وسنعودُ إلى مدرستنا ودراستنا، وبالفِعل بدأنا بالنّهوض من السّاحة، وصارتْ هناك خلخة في طلبة الثّانويّة ذوي الأجسام الضّخمة، فاستغلّ الأمن هذ الثّغرة، وهجمَ عليّ عددٌ منهم بلباسٍ مَدَنيّ يُريد أنْ يعتقلني، وفورًا انتبه بعضُ الّذين حولي من الطّلبةِ، فأمسكوا بي، وصاروا يدفعون رِجال الأمن، وكان جزءٌ يشدّ يدي باتّجاهه يريدُ أنْ يأخذني من بين بعضِ أيدي الطّلبة الّتي التفّتْ حول جذعي، وراحوا يشدّون في الاتّجاه المُعاكس، وخلّصوني بعدَ طولِ لأي منهم، وخرجتُ ببعضِ الرّضوض. في تلك اللّحظة كان المدير قد أحضر لنا باصات المدرسة، فركبْناها وقفلنا عائدين بعدَ يومٍ تاريخيّ، وكان الطّلبة يفخرون بذلك، وأمّا أنا فَفُصِلتُ من المدرسة بقرارٍ من الأمن، وغادرتُها في نهاية ذلك الفصل، أبحثُ عن رزقي في مدرسةٍ أُخرى، والحمدُ لله.

النّادي الأدبيّ:

سيطرتْ عليّ وأنا في سنواتي الأولى في كلّيّة الهندسة فكرة تأسيس مدرسة أدبيّة على غِرار تلك الّتي تأسست في عهودٍ سابقةٍ وأثّرتْ في الحياة الثّقافيّة والاجتِماعيّة على

مدى زمنٍ ليس بالهيّن. كان لديّ طموحٌ؛ وواضحٌ أنّه طموحٌ جارفٌ، وطموحٌ ينزع إلى الحلم أكثر منه إلى الواقع، كان في ذهني بالطّبع أدباء المهجر و(الرّابطة القلميّة) الّتي أسّسها جبران خليل جبران في شمال أمريكا مع آخرين أشهرهم ميخائيل نعيمة سنة ١٩٢٠م. كانت في ذهني كذلك (العصبة الأندلسيّة) الّتي تأسّست في أمريكا الجنوبيّة في البرازيل عام ١٩٣٣م، وجماعة (الدّيوان) مع العقّاد، وجماعة (أبولو) لأحمد زكي أبو شادي... وروابط واتّحادات ومجموعات وصالونات وبلاطات أدبيّة كثيرة في الشّرق والغرب، قديمةً وحديثةً، ففكّرتُ أنّ أُنشِئ شيئًا شبيهًا، فعمدتُ إلى تأسيس النّادي الأدبيّ في جامعة العلوم والتّكنولوجيا، وجلستُ ما يقربُ من أسبوع لأخرج بفكرته ورؤاه وأهدافه وأعضائه وتمويله، كما لو كان حزبًا، وكان قانون الأندية في عمادة شؤون الطّلبة يومئذٍ يسمح بذلك إذا اقتنع العميد، فكتبتُ بيان النّادي بلغةٍ عاليةٍ، وشرحتُ فيه أسباب إنشائه، وقدّمتُه إلى العميد، ومرّ أسبوعٌ من بعدِ ذلك، وجاءت الموافقة ففرحتُ فرحًا شديدًا، وتولّيتُ أنا رِئاسة النّادي في هيئة تأسيسيّة، ضمّتْ عددًا يزيدُ عن الثّلاثين منهم على الأقلّ عشرة من الشّعراء، وكنّا نعقدُ لقاءً أسبوعيًّا، نطرحُ فيه موضوعًا أو قصيدةً، ويدور حولَها النّقاش، وكنتُ أتولّى إدارة الجلسات في البداية، وكنّا نستمع إلى إبداعات أعضاء النّادي

من المهندسين والتخصّصات الطّبيّة بقلوبٍ مفتوحةٍ، وقد استمرّ بعضُهم في مشواره الإبداعيّ بعدَ تخرّجه من الجامنعة، وحقّق شهرةً لا بأس بها في ذلك.

فلمّا كانت السّنة الثّانية أو الثّالثة تولّى غيري رئاسة النّادي، ولا أدري ما فعل الله به بعدَ تخرّجي في الجامعة، فلمّا انتقلتُ بعدَ فترةِ سجني إلى جامعة اليرموك، عاودني الحلم من جديدٍ، فأسستُ لجنةً أسميتُها (لجنة الأدب) منضويةً تحت جناح اتّحاد الطّلبة، وقد قدّمتْ اللّجنة أحفالاً أدبيّة مشهودة، بلغتْ ذروتها في تلك الحفلة الختاميّة للسّنة الأولى في مدرج (الكندي) في كلّية الآداب في اليرموك، حضره المِئات من الطّلبة.

في النّشرة التّعريفيّة الّتي وُزّعتْ على الطّلبة من أجل دعوتهم للانضِمام إلى اللّجنة، كتبتُ أبياتًا أحثّهم على ذلك، قلتُ فيها:

أَصِخْ لتلحينِ روحٍ وَهْي باكِيةٌ

فما يَهُزُّكَ لحنُ الرُّوحِ إنْ تَطِبِ

شَجَتْكَ كُرِبَةُ أبياتٍ وَجَدْتَ بها

على كآبتها تفريجةَ الكُرَبِ

ثقافَةُ النّفْسِ قُلْ لي: أينَ تَنْشُدُها

أَفِي الصّحافةِ مُزجاةً، أمِ الكُتُبِ؟

هذان فَرْغٌ، ولكنْ سوفَ تَبْلُغُها

لَوْ زُرْتَنا مَرّةً في «لَجنةِ الأدَبِ»

وقد تسوّرتُ للجنةِ الأدب في هذه الكلمات الثّقال ما لا تُطيقه مِمّن التحقَ بها فيما بعدُ، ولعلّي (استسمنتُ ذا ورم) كما يقولون.

كان هذا على غلاف النّشرة، أمّا الأدهى فكان في الداخل، إذْ كتبتُ: «أيّها الطّلبة... قامتْ هذه اللّجنة على فكرة الفنّ المُلتزم، ودَعَتْ إلى النّهلِ من مَعينه، وإلى تكوين ثقافةٍ تنفردُ بشخصيّةٍ مُستقلّة، تستطيع أنْ تُجابه الثّقافات الدّخيلة، وأنْ تستأثر بمساحةٍ من الوجود على صعيد العمل الإبداعيّ.

تُحاربُ هذه اللّجنة الضّعف والتّخاذل والتّراجع الّذي أصابَ بعضَ المُثقّفين، وغزا المُؤسّسات الثّقافيّة, وتنطلقُ من جراح الأمّة لتزدادَ قُوّة وكبرياء، وتستلهم ماضيها العريقَ نورًا يضيءُ لها حاضرَها، ويدفعها إلى المضيّ قُدُمًا».

ولعمري لا أدري كيفَ واتتني الجرأة، وماذا كان يدور في رأسي وأنا أتحدّث باسم الأمّة، وأنعى على المثقّفين والمُؤسّسات الثّقافية دورَها المُتخاذل؟!!

لقد كنتُ أقولُ كلامًا كبيرًا، كان دم الشّباب حارًّا، وكُنّا مندفعين، ونحمل آمالاً عريضة، ونملك قوّة – كما كنّا نتخيّل – تريدُ تحطيم العالَم المُتردّي، وتبني عالَمًا جديدًا. هل يعرفُ الإنسان كم كان ساذجًا حينَ ينظر إلى نفسه بعدَ ربع قرن؟!

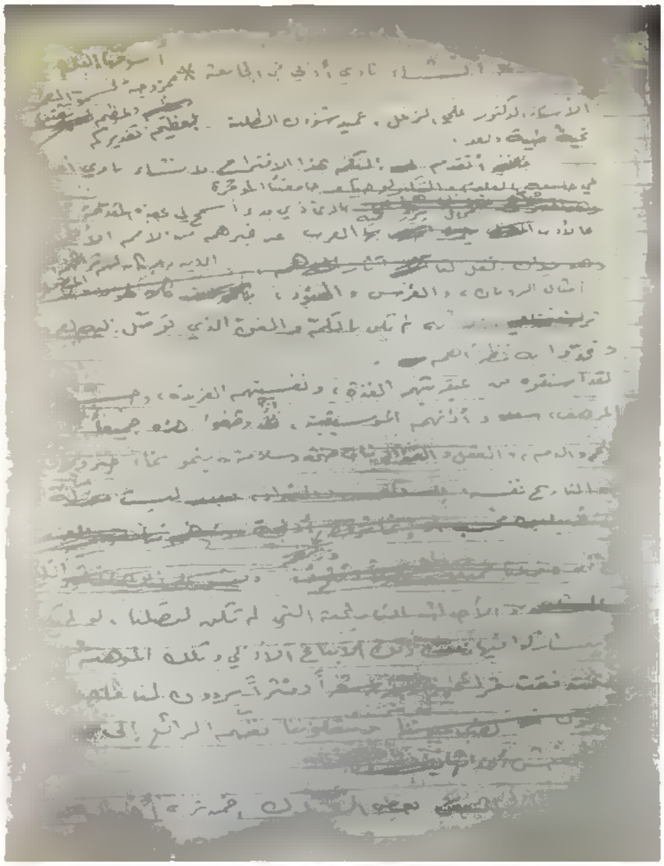

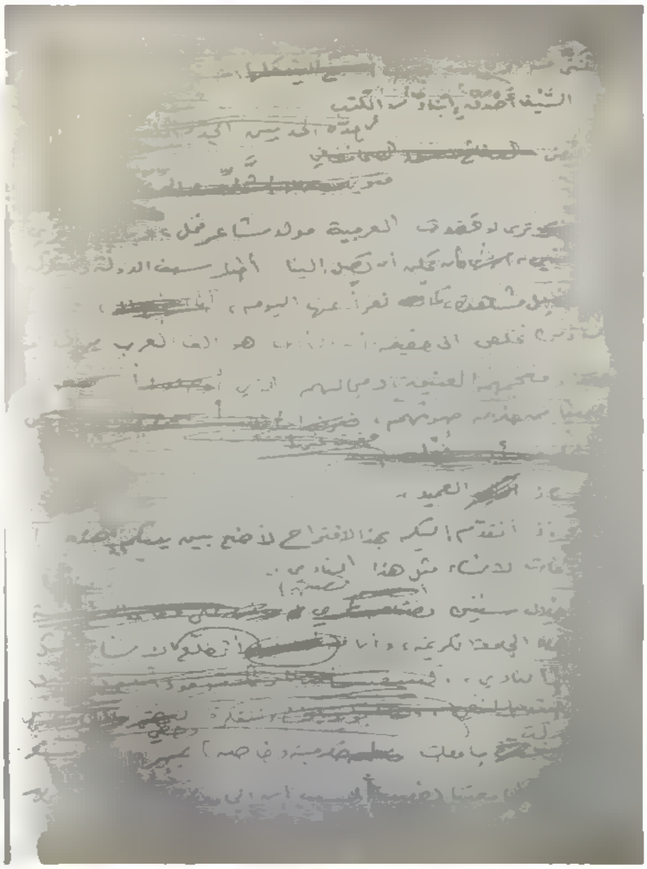

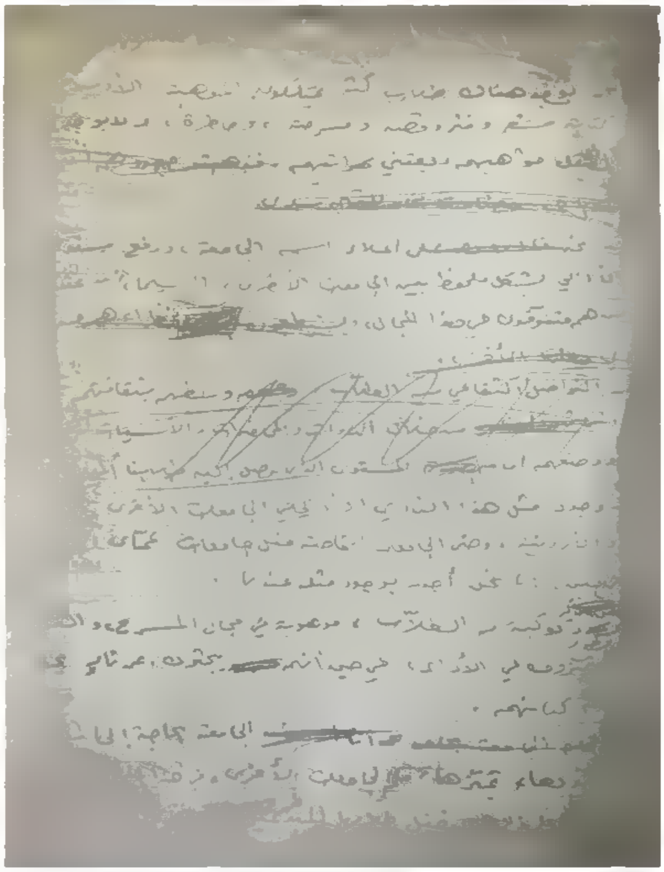

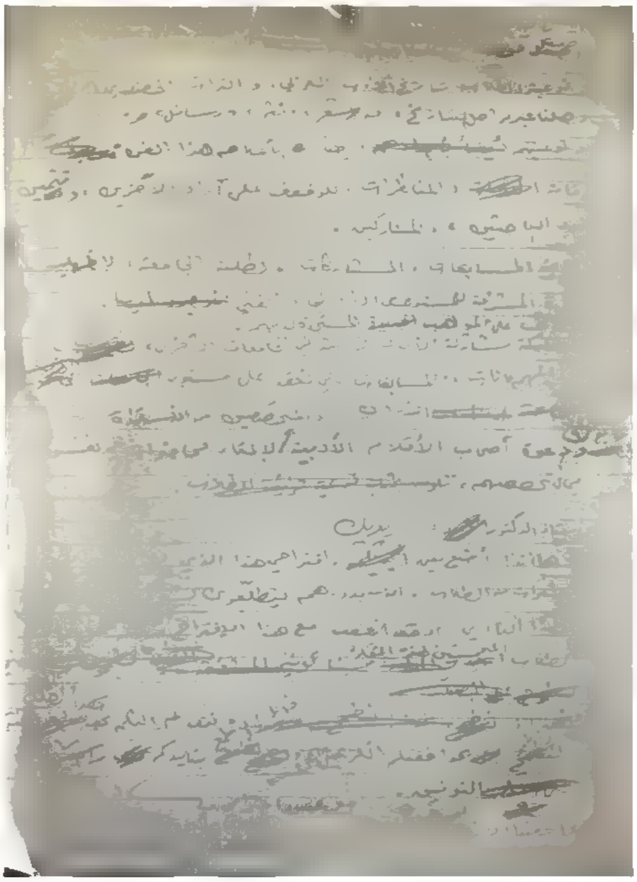

مسوّدة إنشاء النادي الأدبي في جامعة العلوم والتكنولوجيا، وتاريخ كتابته (٢٢-٧-١٩٩٢)م

ليلٌ وبحر:

في عام ٢٠١٤م عَهِدتْ إليّ إدارة إذاعة (حياة أف أم) الّتي تبثّ من الأردنّ أنْ أقدّم برنامجًا أدبيًّا مرّتَين في الأسبوع. كان الهدف من البرنامج إحياء العربيّة الفصيحة المُيسّرة فيما بيننا، وتجلية مَواطن جمالها وبهائها وسحرها، وإرشاد أصحاب الخطوة الأولى، والبدايات في الكتابة لتحديد اتّجاهاتهم، وتنمية قدراتهم الكتابيّة. وإثراء المعرفة لدى المُستمِع بقضايا الأدب والأدباء. وربط العربية ونحوها وبلاغتها وأساليبها بالقرآن الكريم.

وعن سبب تسمية هذا البرنامج لهذا الاسم، أمّا (ليلٌ) فلأنّ وقتَ بثّه يكون في التذاسعة مساءً؛ في اللّيل الذّاهب في سِرّه وسحره إلى شغاف القلوب. وأمّا (بَحرٌ) فلأنّ العربيّة بحرٌ لا ساحل له، في أعماقه الدّرر واللآلئ؛ ونحن نحاول أن نغوص في بحر هذه المعاني فنستخرج دُرَرَها ولآلِئها البهيّة. واللهُ حينَ وصف حروف كتابه في منتهى جماله، قال: «قُلْ لو كانَ البَحرُ مِدادًا لِكَلِماتِ رَبّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبّي وَلَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَدًا». وفي ذلك قال حافظ إبراهيم:

أنا البَحرُ في أَحشائهِ الدُّرُّ كامِنٌ

فَهَلْ سَألُوا الغوّاصَ عن صَدَفاتي

وَسِعتُ كِتابَ الله لفظًا وغايةً

وما ضِقتُ عن آيٍ به وعِظاتِ

كان البرنامج يضمّ أقسامًا أربعة، قد تتغيّر فتصبح أكثر أو أقلّ، وقد تتبدّل، فيذهبُ قسمٌ ويحلّ محلّه آخَر، ذلك لأنّ

الحلقات الّتي استمرّت ثلاث سنوات عراها كثيرٌ من التّعديل والإضافة والحذف. وهذه الأقسام الأربعة الّتي أسّسث عليها البرنامج، كانت تضمّ: (سؤال الحلقة)؛ إذ هو السّؤال المحوريّ الّذي تدور عليه الحلقة كاملة، وغالبًا ما كان سؤالاً نحويًّا في القرآن الكريم حول كلمةٍ يحتمل النّصّ والمعنى أنْ يكون لها أكثرُ من وجهٍ في الإعراب. والقسم الثّاني (قصّة كاتب): وفيه تجليّةٌ لأديبٍ مختلفٍ في كلّ مرّة، من هذا العدد المُتّصل من الأدباء والشّعراء والمفكّرين عبر التّاريخ. والقسم الثّالث في ظلال كلمة: (اقرأ): نقبس في كلّ مرّة معنى من معاني اقرأ، ونجيب عن سؤال: لماذا كانت هذه الكلمة أوّل كلمةٍ في القرآن الكريم؟ والقسم الرّابع الأخير (من رفوف المكتبات)؛ وهو توصيف لكتابٍ قرأتُه، وتبيان جوانب جماله، والتّعريف بكاتبه، ونُصح المستمعين أن يقرؤوه. على أمل أنْ أعرض في كلّ حلقة كتابًا.

قدّمتُ بين عامَي (٢٠١٤ – ٢٠١٧م) ما يقرب من (٣٠٠) ساعة إذاعيّة، تحدّثتُ فيها عن (١٠٠) شاعرٍ على الأقلّ من العصور كلّها قديمها وحديثها، لقد نبشتُ عليهم قبورَهم، وأزلتُ عنهم الصّخور، وأخرجتُ من أفواههم التّراب، وأوقفتهم على أقدامهم، وجعلتُهم يُخاطبون المستمعين بلسانهم الجليّ.

اليوم أُفكّر أنْ أفعل كما فعل (سعيد الكرمي) في برنامج (قَوْل على قَوْل)؛ البرنامج الّذي كان يُقدّمه على إذاعة (B B C) وفرّغ مضمونه في كتابٍ بالاسمِ نفسه ضمّ عشرة أجزاء أو أكثر... أقول أُفكّر أنْ أُفرّغ تلكم الحلقات - وخاصّة فيما يتعلّق في الشّعراء والأدباء والمُختارات الّتي اخترتُها من أشعارهم وكتاباتهم وتعليقي عليها - في كتابٍ، تكون فيه إطلالةٌ خفيفةٌ وجاذبةٌ على عوالم هؤلاء المُبدعين.

تقديم برنامج (ليل وبحر) على إذاعة (حياة أف أم) بين عامي ٢٠١٥-٢٠١٨

التّدريس في الجامعات:

تخرّجتُ بشهادة الدّكتوراة في الجامعة الأردنيّة عام 2007م، وكنتُ الأوّل على دفعتي بمعدّل (4/ 4). ولقد رغبتُ في البداية أنْ تحتضنني الجامعة الأمّ، والّتي كان رئيسُها يومذاك يُبشّر بتوظيف الشّباب، وبأنّ على الأساتذة الّذين بلغوا السّبعين أو نيّفوا عليها أنْ يُفسِحوا المجال للخرّيجين المُبدعين الجُدُد. ولكنّ وعودَ رؤساء الجامعات مثل وعود مُتنفّذين كثيرين لا يقبضُ المرء منها إلاّ على

الرّيح.

غير أنّني مضيث في عملي مُدرّسًا للعربيّة في مدارس الثّانويّة، وأنا راضٍ غير مُلتفتٍ ورائي، ولا أسِيّ على عدم تكافؤ الفُرص الّذي هو نهجُ الأنظمة الفاسدة الّتي تستدعي الشّفقة أكثر مِمّا تستدعي الحنق، ولقد كنتُ في ذلك أتمثّل قول المتنبّي:

لا أَشْرَئِبُّ إلى ما لَمْ يَفُتْ طَمَعًا

ولا أَبِيْث على ما فاتَ حَسْرانَا

ولا أُسَرّ بِما غَيْرِي الحَمِيدُ بِهِ

وَلَوْ حَمَلْتَ إليّ الدّهْرَ مِلآنا

كان أبي يقول لي: إنّ عدم تدريسك في الجامعة يُعطيك حريّة كُبرى، ويجعل إبداعك ينطلق بشكلٍ أكبر. ومع أنّ واحدةً من أُمنياتي كانتِ الحصول على وظيفة أستاذٍ جامعيّ إلاّ أنّني مع الزّمن اقتعنتُ بكلام أبي، ووجدتُ أنّني لو درّستُ في جامعةٍ، لكان روتين العمل فيها واللّهاث وراء

التّرقيات، والمُشاركة في النّدوات والمؤتمرات والسّفرات، وذلك من خلال لوبيّات الأساتذة الفاضحة كلّ ذلك كان سيحدّ من نشاطي الإبداعي، أحد النّقّاد قال ذلك عن (كولن ويلسون) صاحب كتاب (اللاّمنتمي): "لم يتبَرعمْ لويلسون رأسٌ أكاديميّ جامعيّ وأظنّ في هذا أمرًا حسنًا له ولنا جميعًا، فربّما لم يكن الرّجل سيغدو ويلسون الّذي نعرفه لو فكّر ومضى في الارتِقاء بدراسته الأكاديميّة".

الفصل السّادس
كُتُب ومَكتَبات وتَرْحال

تَغَرَّبْ عَن الأَوْطَانِ في طَلَبِ الْعُلى

وَسَافِرْ فَفِي الأَسْفَارِ خَمْسُ فَوَائِدِ:

تَفَرُّجُ هَمٍّ، وَاكْتِسابُ مَعِيشَةٍ

وَعِلْمٌ، وَآدَابٌ، وَصُحْبَةُ مَاجِد

فَإنْ قِيلَ فِي الأَسْفارِ ذُلٌّ ومِحْنةٌ

وقَطْعُ الفَيافِي، وَارْتِكابُ الشّدائِدِ

فَمَوْتُ الفَتى خَيْرٌ لَهُ مِن قِيامِهِ

بِدارِ هَوانٍ بينَ واشٍ وحاسِدِ

تمهيد:

حين هبط آدم على الأرض بدأ الرّحلة، بحثَ عن حَوّاء، وأرادَ أنْ يكتشف هذا العالَم الجديد الّذي حَلّ فيه. الرّحلة بدأتْ مع الإنسان الأوّل، نحن على سَفَرٍ دائم كما قالت رواية (حديث الجنود): "إنّنا على سَفَر، مُرتحِلون منذُ وُلِدنا، نتعب ولا راحة إلاّ إذا باغتنا الموت. نسير إلى الغايات، كلّما ظننّا أنّنا صرنا على شفا حُلُمٍ منها ابتعدتْ عنّا، وأمعنتْ في الغياب السّرمديّ. نسير ولكنْ في أيّ دربٍ وإلى أيّ مُنتهَى!!". نحنُ مشّاؤون كما قالت رواية (أرض الله): " نحنُ مَشّاؤون يا أخي. مَنْ سار إلى الله لن يزيغ. ماذا تأخذُ الدّنيا منكَ في سيرِك الحثيث إليه؟ بعضَ جسدك؟ تعبَك؟ سهرك اللّيالي؟ غُربتَك؟ نأيَك عن الأهل والأوطان والأحباب؟ وَمَنْ قال إنّ السّير إلى الله لن يفعل ذلك بِنا؟ نَحنُ مَشّاؤون يا أخي. نحنُ سائرون لا يَثنينا عن المسير إلاّ أنّ نصل، وأنْ نُريح في أفيائه أرواحَنا، ومتّى ستصلون إليه؟ لا يعنينا متى يا أخي، كلّ ما يعننيا ألاّ نتوقّف».

الرّحلة ليست سفرًا في الجغرافيا فحسب، إنّها رحلةٌ في

أعماقنا كذلك لاكتشاف هذا العالَم الّذي يضجّ فينا، العالَم الّذي يكون ربّما أكثر اتّساعًا من الجغرافيا والوِهاد والمَهامِه والمَفاوز الّتي نَقضِي فيها عُمرنا المقدور. لم يكنْ ابن بطوطة يفعل ذلك لأنّه يريد أنْ يرى غرائب العالَم، كان يريدُ أنْ يرى غرائبَ نفسه، ونحن نفعل ذلك لنرى الغرائب والعجائب فينا قبل أنْ نراها في المكان أو في الإنسان الّذي خارجنا. المتنبّي كان رحّالةً من طرازٍ فريدٍ هو الآخر، ولعلّ الاهتِمام بشعره مِمّن جاء بعده غَطّى على الاهتِمام برحلاته الّتي كانتْ أعجبَ من شِعره، أو جعلتْ شِعرَه عجيبًا، ولعلّه عبّر عن ذلك في قوله:

تغرّبَ لا مُستَعظِمًا غيرَ نَفْسِهِ

ولا قابِلاً إلاّ لخالِقِهِ حُكْما

ولا سالِكًا إلاّ فُؤادَ عَجاجَةٍ

ولا واجِدًا إلاّ لِمَكرُمةٍ طَعْما

يقولون لي ما أنتَ في كلّ بلدةٍ

وما تَبْتَغِي؟ ما أَبْتَغِي جَلَّ أنْ يُسْمَى

وانظر إلى استِخدامه (ما) في البيت الأخير بدلاً مِن (مَن)، فـ (مَنْ) ضيّقة محدودة، و(ما) واسعة مُمتدّة، إنّه هو نفسه يحاول أنْ يعرفَ مثل الأخرين (ماهيّته) هذه الّتي يتعجّب منها!

نعم؛ من أجل هذا النّداء الدّاخلي أنا لا أكفّ عن التّرحال. لقد قضيث حياتي رحّالة يبحث عن نفسه، بحثث عنّي في كل مكان، سافرتُ إلى بلاد كثيرة، وحلمت أحلامًا كبيرة، وظللث أطاردُ شيئًا لا أدري ما هو حتى عرفتُ أنني أطاردُ ذاتي، وأبحثُ عَنّي فِيّ، كُلُّ رحلة كانت رحلةً لاكتِشاف ما أنا قبل أن أكتشف من أنا... لقد تِهتُ كثيرًا في رحلة البحث تلك، ولكنّ أكثر متاهة دخلتُها هي ذاتي... ذاتي التي تضجّ فيها كُلُّ جارحة بسؤال الوجود والحقيقة... ولليوم ما زلث أحاول أن أجد نهاية لهذه الرحلة أو معنى، ولكنني أخفق... وما زلث آمل أن أجد في نهاية النَّفقِ الطّويل المُظلم ضُوءًا ولو كان شحيحًا أُطلّ فيه عليّ... لقد كنتُ أعمى، لكنّ عماي لم يمنعني من الأمل أنني يومًا ما سأبصر وسأرى ما أريد.

هل ينتهي هذا التّرحال؟! إذا كانت الحياة تنتهي، الكون

ينتهي، الوجود، المسارات البعيدة، الرّوح القَلِقة... كلّ شيءٍ ينتهي؛ لا بُدّ، الطّرق المسدودة كثيرة، والنّهايات المُفاجِئة أكثر، كلّ ما أدعو به الله ألاّ تنتهي رحلتي قبل أنْ يُمكّنني من قول كلّ ما كنتُ أريدُ قولَه. أنا لا أريدُ أنْ ينتهي بي الأمر كما انتهى بامرئ القيس في قوله:

وقد طوّفتُ في الآفاق حتّى

رَضِيتُ من الغنيمةِ بالإيابِ

مكتبة الشّيخ حامد:

وَلَعي بالمكتبات قديم، ولا يُمكن تفسيره إلاّ إذا كان جينيًّا! في عام (١٩٧٩م) دَأبَ أبي على أخذي معه إلى مكتبة الشّيخ حامد، كان الشّيخ حامد مُهندسًا، عمل بعدَ تقاعده على استِئجار شُقّة ونَقَل مكتبته الضّخمة إليها، كانت الشّقة على ما أذكر في طابقٍ ثانٍ، يُوصل إليه بدرجٍ طويلٍ من شاحِطَين، إذا انتهيتَ من الشّاحط الثّاني وانفتلتَ عن يسارك واجهك الباب القديم لهذه الشّقّة المكتبة، أمامَ ذلك الباب عَتَبةٌ ترتفُع حوالي نصف متر، عليكَ أنْ تتخطّاها لتدخل، لم أكنْ أدري لِمَ ترتفع عتبةٌ بهذا الشّكل، هل كان ذلك امتِحانًا لطفلٍ في

السّابعة من عمره مثلي كي يكون النّجاح في اجتيازها هو شرطُ الدخول إلى هذه المكتبة السّحريّة، كانت سحريّة بالفعل، فألوان السّجّاد المفروش على الأرض كان داكِنًا غامِضًا إلاّ في غرفةٍ واحدةٍ يُخالفُ لونُها سائر الألوان، كانت زاهية، هل هي غرفة الأطفال؟! هل خصّص الشّيخ حامد جزءًا من مكتبته الضّخمة للأطفال؟ أم أنّها كانت الفخّ الّذي يجب أنْ أقع فيه كي أدخلها ولا أغادرها حتّى ينتهي أبي من مُطالعاته؟! لا أدري. يدخل أبي أمامي وأتبعه بتلك القفزة اليتيمة مِن على العَتَبة كأنّها قفزة (آرمسترونج) على القمر حين قال: «هذه الخطوة لرجل ما، ما هي إلا قفزة عملاقة للبشرية». كانت المكتبة فضائي الكونيّ الشّاسع الّذي أقفز فيه أنا الطّفل الصّغير ذي السّنوات الّتي لم تبلغ العشر قفزاتي العِملاقة.

أمّا الشّيخ حامد فقد فتحَ أبواب المكتبة للعامّة، وخاصّة لطلبة الدّراسات العُليا، وكان أبي من رُوّداها إذ كان يُحضّر للدّكتوراة في العربيّة، وكان بمجرّد أنْ ندخل إلى المكتبة ينشغل بالبحث عن مراجعه، ويتركني وحدي مع الكتب وقتًا يمتدّ في بعضِ الأحيان إلى أكثر من خمسِ ساعات، وعليكم أنْ تتخيّلوا ماذا يُمكن أنْ يفعل طِفلٌ في السّابعة يُترَك حرًّا لخمس ساعاتٍ في بحرٍ من الكتب، بحرٍ من الكتب على

الحقيقة بالنّسبة لي، غرفٌ كثيرةٌ، رفوفٌ أكثر، عالية جِدًّا تصل إلى السّقف، لا يُمكن لأبي ولا لأحدٍ آخر أنْ يتناول الكتب من رفوفها الأولى إلاّ بصعود السّلّم، سوادٌ داكنٌ من الكعوب المتلاصقة، مُجلّدات ضخمة، قائمة وأخرى نائمة، عددٌ لا يُحصى يترامَى على مدى بصري في الممرات والأروقة والجدران والسّقوف... باختِصار كانت الكتب في كلّ مكان! حينَ قرأتُ في مرحلةٍ لاحقة كتاب (المكتبة) لـ (زوران جيفكوفيتش) كنتُ أتخيّل مكتبة الشّيخ حامد في كثيرٍ من فصوله، أنّ الكتب فيها كما يقول (جيفكوفيتش): «تَبتلعُ المساحاتِ ابتِلاعًا. وهذا قانونٌ لا يُمكن تبديله، فمهما أعطيتَ للكتب من مساحةٍ فإنّها لا تكتفي أبدًا. تحتلّ في البداية الجدران، ثُمّ تنتشر لتشغل كلّ حيّزٍ يُمكن أنْ يحتويها، حتّى لا يبقى سوى السّقف النّاجي الوحيد من هذا الغزو. ثمّ تتوالد الكتب الجديدة، ولا تحتمل عندئذٍ فكرة التّخلّص من أيّ كتابٍ لديكَ أبدًا. وهكذا تُزيح الكُتُب عن طريقها كلَّ شيءٍ غيرَها ببطءٍ وخفية، كأنّها نهرُ مُنساب».

نعودُ إلى مكتبة الشّيخ حامد؛ كنتُ في البداية أبحثُ عن الكتب المُصوّرة، كان فيها ما أردت، لكنّها قليلة، وقد قرأتُها كلّها، فكان عليّ أنْ أجلسَ إلى الكتب الّتي للكبار، وقد قرأتُ منها ففهمتُ شيئًا ولم أفهم أشياء، ولكنّه لم يكنْ لديّ خَيارٌ

آخَر، إذْ لا يُمكن أنْ يخرج إلى شوارع القاهرة المكتظّة طفلٌ ليضيع في الزّحام، والضّياع في زحام الكتب أرحم وأجمل.

كان صاحب المكتبة الشّيخ حامد يغيبُ عن زوجته كثيرًا، فيحدّث أبي عن تضايق زوجته لغيابه الطّويل، ولكنّها كانت تقول: أنْ يغيبَ بين أحضان الكتب خيرٌ لي من أن يغيبَ بين أحضان النّساء يتزوّجهنّ غيري، فتلتمس له بذلك عذرَ الغياب، وتطمئنّ إلى أنّ رفيق دربها لم تختطفْه امرأةٌ عابرةٌ ظهرتْ بغتةً في ذلك الدّرب؛ وبعضُ الشّر أهون من بعضٍ كما يقولون.

كانت مكتبة الشّيخ حامد في منطقة عين شمس في أوّل شارع الجيش، وهي أوّل مكتبةٍ عامّة أدخلها في حياتي، من بعدها سأسعى إلى ألاّ أتركَ مكتبةً عامّةً دون أنْ يكون لخُطُواتي في أروقتها نصيب. من هذه الفكرة الخَلاّقة الّتي نفّذها الشّيخ حامد نَبَتتْ في رأسي فكرة المكتبة العامة التي أطمح لتأسيسها في المستقبل. لكنّ الدّرب طويل، والبحثُ عن رفقاء له قليلون، فهل من مُعينٍ على ذلك اليوم؟!

الشّيخ عبد الحميد كشك:

في أيّام الجُمَع من ذلك العام، عام (١٩٧٩م) كنتُ أمشي مع أبي من بيتنا في حيّ رابعة العدويّة في مدينة نصر بالقاهرة حتّى نصل إلى شارع (خضر التّوني)، حيثُ محطّة التّرام، وهناك ننتظر التّرام لنستقلّه إلى مسجد الشّيخ كشك، كان القائِمون على المسجد يعملون له توسعةً لأنّه فاضَ بمُرتاديه، عددٌ كبيرٌ من هؤلاء المُرتادين كان من بلاد الشّام والعراق والخليج. لم يكن الطّابق العلوي من المسجد مُبلطًّا ولا جدرانه مقصورةً ولا نوافذه المُشرَعة للرّيح مُزجَّجة، وكانت بعضُ بقايا الإسمنتِ والتّراب والحصى يتناثر على أرضِه، ومع ذلك كان يمتلئ عن بكرةِ أبيه، وكلّ بوصةٍ فيه تنشغل بقدمٍ أو ساق. وكنتُ أرى المِئات يحملون المُسجّلات فيضعون (الكاسيت) فيها، ويقومون بتسجيل خُطبة الشّيخ، وتُتداول هذه الكاسيتات حتّى تصل إلى مِئات الألوف إنْ لم تكن الملايين في مصر وخارجها، إذ لم يكنْ للشّيخ يومئذٍ إذاعةٌ رسميّة أو تلفاز أو كاميرا تُسجّل له خُطَبه القويّة والنّادرة، وكان لا يخفَى على أحدٍ محاربة الدّولة له، فماذا كانت النّتيجة؟ كان كلّ فردٍ من كلّ دولةٍ مختلفة هو بمثابة وسيلة إعلامٍ وإذاعةٍ مُتنقّلة، وكتب الله لخطب الشّيخ أنْ تستمرّ أكثر – ربّما – مِمّا لو كانت تقوم له بهذه المهمّة الإذاعات الرّسميّة؛ وفي ذلك درس!!

سلّمْنا عليه أنا وأبي ذات مرّة، ووقف أبي معه يُحادثه قليلاً، ثُمّ طلبَ منه أنْ يدعو لي، فمسح بيده على رأسي، ودعا لي، وشعرتُ يومَها بأنّ شيئًا من الرّحمة يتنزّل فِيّ، كان الشّيخ الضّرير يقرأ القُرآن ويدعو، كَفُّ عالِم على رأسِ حالِم.

مراحل أُولى:

في سوف من عام ١٩٧٧م لم يكنْ لديّ مكتبة بالطّبع، كنتُ في الخامسة، لكنّني فتحتُ عيني على مكتبةٍ صغيرةٍ تضمّ قصص الألغاز والمغامرات في بيت جدّي (صالح)، لم تكنْ مكتبةً بالمعنى الحقيقيّ، كانت رفّين هما عبارةٌ عن تجويفَين مُستطيلَين داخلَين في الجدار الطّينيّ بعمق نصف مترٍ وطول مترَين، وكانا يرتفعان عن الأرض أكثر من متر ونصف المتر، وبالتّالي لم أكنْ أستطع أن أتناول الكتب منها بمفردي، كان لا بُدّ من الرّجوع إلى أمّي في ذلك. وأغلب الظّنّ أنّ هذين الرّفَين كانا للفُرُشِ والمِخّدات وأغطية النّوم قبل أنْ تجد هذه الفُرُش موضعًا آخرَ لها وتحتلّ الكتب هذا المكان. وكان خالي (نعمان) الّذي يكبرني ببضع سنوات هو الّذي أتذكّر أنّه كان يقرأ هو وأمّي الشّياطين الـ (١٣) ويحتفظ بتلك الكتب في ذينك الرّفّين، ومع أنّهما رّفان بسيطان إلاّ أنّهما شكّلا وعيًا أوّليًا بالنّسبة لي، وكنتُ قد بدأتُ أقرأ آنئذٍ

من هذه المُكيتِبة العجيبة.

في سنةٍ لاحقةٍ أو اثنتين بدأتُ أتعرّف على مكتبة أبي، كان قد صنع عندَ نجّارٍ مُحترفٍ من خشبِ الزّان الّذي يُعمّر طويلاً مكتبةً قويّة، كانت عسليّة اللّون، في أسفلها خزائن مُغلَقة، ترتفع فوقَها خمسةُ أرفف، يتقدّمها زُجاجٌ شَفّاف يُفتَح بمسارب في قاعدة كلّ رّف. عاشت هذه المكتبة القويّة أكثر من نصف قرنٍ، ولا أدري كيفَ انتهت!! إذْ لم يكنْ أحدٌ بقادرٍ على أنْ يُزحزها من مكانها لثقلها ورسوخ أقدامها. وسيُصبح رسوخ كتبها في قلبي في مرحلةٍ لاحقة أشدّ رسوخًا من خشبها، فقد شكّلت مكتبةُ أبي الّتي كانت ضخمةً وتضخّمت أكثر مع الزّمن الأساسَ الأوّل لثقافتي.

مكتبات في إربد:

حينَ انتقلْنا مع أبي من قريتنا (سوف) إلى مدينة (إربد) حيثُ يعمل أبي مدرّسًا في جامعة اليرموك، بدأ عهدٌ آخَر لي مع المكتبات. كانت البداية مع مكتبات المدارسِ الثّلاث؛ الحلحولي وحمزة والأمير الحسن، كانت مكتباتٍ فقيرةً شحيحةً إلى الحدّ المُؤسف، ولم يكنْ بها اعتِناء، باستثناء مكتبة المدرسة الثّانويّة، ولا أدري السّبب هل هو فَقْر الدّولة

أم فقر عقول القائمين على شيءٍ كهذا، أم ضعفِ الإمكانات في ذلك الزّمان؟ كلّ ذلك وغيره مُحتمل بالطّبع. المهمّ أنّني أقول اليوم إنّ نجاح المدارس في وطني الأردنّ وفي أوطاننا العربيّة كلّها إنّما يكون بالاهتِمام بمكتباتها وتحبيب طلبتها بالقراءة من خلال وسائل عديدة، إنّ سلوك سبيل القراءة لجيلٍ يتربّى على ذلك لا يُمكن أنْ يُفضي بأوطان هذا الجيل إلاّ إلى النّهضة والرّقيّ، وصدقَ أحمد شوقي إذْ قال:

فَعَلِّمْ ما اسْتَطَعْتَ لَعَلّ جِيلاً

سَيَأْتِي يُحدِثُ العَجَب العُجَابا

ولا تُرْهِقْ شَبابَ الحَيّ يأسًا

فإنّ اليأسَ يخترم الشّبابا

مكتبة الأمل:

أمّا مكتبة الأمل فأوّل الحُبّ أو الرّفق، كانت تقع في شارع الجامعة، عند دوّار الإسكان قبل أنْ يتحوّل إلى إشارة ضوئيّة، كانت على الشّارع الرّئيسيّ لها ثلاثة أبواب، واسعة

من الدّاخل عميقة، وإذا حلّ المساء، خفتَ النّور في داخلها قبل أنْ يُضيئ صاحبُها مصابيحها، فتشعر أنّك داخل مغارةٍ غامضة، تحاول وأنتَ تمشي الهُوينى في أرجائها أنْ تكتشف السّحر المكنون في فضائها.

كانت المكتبة كبيرة، تحوي آلاف الكتب إنْ لم تكنْ عشرات الآلاف منها، ولا أظنّ أنّ مكتبةً في إربد كانت بحجمها في الثّمانينيّات من القرن الفائت، ومع أنّه نشأتْ مكتبة الفرقان على دوّار الجامعة لاحِقًا وكانتْ بالإضافة إلى ذلك دارَ نشرٍ معروفةٍ يومئذٍ إلاّ أنّها لم تكنْ لتتفوّق على الأمل.

مكتبة الأمل ليستْ مكتبةً عابرةً في حياتي، ضجّتْ إربد في فترةٍ لاحقةٍ بعشرات المكتبات المتوسّطة والكبيرة غيرها، لكنّها لم تأخذ من قلبي ما أخذته الأمل، لقد كانتْ جزءًا من حياتي وثيقَ الصّلة بالرّوح، فلم يكنْ يمرّ يومٌ تقريبًا دون أنْ أمرّ بها، وأقف عندها، وأتأمّل أرففها، وألمسَ كنوزها، وأقلّب صفحات كُتُبها، ساعاتٍ... ساعاتٍ طوالاً تلك الّتي كانتْ تمرّ عليّ ما بين دخولي إليها وخروجي منها.

كان في آخر المكتبة في الزّاوية اليُمنى مكتب مديرها، وكان يغيبُ في كهفه فلا يخرجُ إلاّ نادرًا، وكنتُ أشعر أنّ

غيابَه الغامض يُضفي على كتبه نوعًا من السّحر والجاذبيّة. في تلك الزّاوية كان يتربّع كتاب (الأعلام) للزِّركْلي بأجزائه الثّمانية وغلافه الكُحليّ والخطّ المُذهّب الّذي كُتِب به العنوان، والصّادر عن دار العِلم الملايين الّتي كانت تحترم الكتاب والنّشر فتُخرج كتُبَها بطبعاتٍ أنيقةٍ فاخرة. وأذكر أنّني قرأتُ مئات الصّفحات من هذا الكتاب وأنا أتنقّل بين أعلامه سَكِرًا بنجاحات أصحابه من الّذين ترجَمَ الكاتب لهم، وبقيتُ شهرَين على هذا المنوال أو أكثر، وكان صاحب المكتبة يرمقني وهو في الدّاخل خلفَ مكتبه دون أنْ يعترض، فلم تكنْ بي حاجةٌ لأشرحَ له أنّني لا أملكُ ثمنَ هذا الكتاب. فلمّا غبرتْ سنةٌ أو اثنتان على ذلك، اشترى أبي الكتاب، بذات الطّبعة فجلستُ له في البيت جلوسَ الحريص المُستهام، لا أشبع من قراءته، ولا أملّ من الرّجوع إليه، فلمّا مضتْ على ذلك عشرون سنة اشتريتُ الكتاب فضمّتْه مكتبتي وهو عن ذراعي قريبٌ في الغرفة الّتي أجلسُ للقراءة والكتابة فيها في مكتبتي الكبيرة اليوم، وظلّ على طبعته الأنيقة المُجلّدة الزّرقاء كأنّ الأمس موصولٌ باليوم!

رفوفٌ لا تنتهي، أَمَلٌ لا ينتهي، ورقٌ أصفر، كتبٌ مُكدّسة، غَبَرةٌ متطايرة، نفخةٌ حميمةٌ، قبلةٌ على جبين الكتاب، ثُمّ دخولٌ إليه. كنتُ أشتري ما أقدرُ على شِرائه، الكتب ذات

الأثمان المنخفضة، كانت هناك طبعات تُصدرها وزارة الثّقافة الرّوسيّة على ما أذكر لكُتّابها الرّوس مُترجمةً إلى العربيّة، وكانت معقولة الثّمن فكنتُ أشتريها، كنتُ أرى كتب النّقد القديم، ولكنّني لم أكنْ أُقدِم على شرائها، كان مجرّد قراءة عددٍ من صفحاتها الأولى ككتاب قُدامة بن جعفر يُسرّع في قراري بإرجاء شِرائها لصعوبة فهم محتواها. فيما بعدُ هذا الشّعور بالضّعفِ أمام لغة الكتاب في تلك السّنّ سيجعلني أنفق سنةً كاملةً في تلخيص عشراتٍ من كتب النّقد القديم بالذّات بالإضافة إلى كتب البلاغة فترةَ دراستي في جامعة اليرموك؛ وكأنّني بذلك أريدُ أنْ أتغلّب على ضعفي وأنتصر على ذاتي القديمة.

اليوم؛ ماذا حلّ بمكتبة الأمل؟ هل ضاقَ بها أم ضاقت به؟ لقد عراها ما عرا الرّسوم الدّوارس في قول ذي الرُّمّة:

أَلَم تَسأَلِ اليَومَ الرُّسومُ الدَوارِسُ

بِحُزوى وَهَل تَدري القِفارُ البَسابِسُ

وما ظلّ منها إلاّ مراجيعُ وشمٍ كما قال زهير:

وَدَارٌ لَهَا بِالرَّقْمَتَيْـنِ كَأَنَّهَا

مَرَاجِيْعُ وَشْمٍ فِي نَوَاشِرِ مِعْصَمِ

لقد تقلّصت الأملُ حدّ اليأس بسبب قلة الإقبال على شراء الكتب، وبعد أن كانت بثلاثة أبواب واسعة تحوّلت إلى باب واحدٍ ضيّق، وحلّ محلّ الكتب مطعمٌ لبيع الفلافل ودكّان آخر لبيع الخضروات. ثُمّ تحولّ المطعم والدُّكّان من بعدُ لمطاعم ودكاكين! ولم أعد أرى صاحبها القديم الذي كنت أساومه على بيع ما قرأته من الكتب الّتي اشتريتها منه لأشتري بها كتبًا جديدة أو أُبدّلها... ولعلّه ترك المهنة بعد أن لم تعد مُجدِية، وعانت الكساد والإهمال...!!

مكتبة ابن خلدون:

لا يُمكن أن تُنافس مكتبة الأمل بحالٍ من الأحوال، فلقد كانت تبيع الكتاب وتبيع معه أشياءَ أخرى كثيرة كالقرطاسيّة والأوراق والألعاب والقواميس وغيرها، أمّا مكتبة الأمل فكانت خالصةً للكتب، نقيّة من سِواها. أَضِفْ إلى ذلك أنّ كتب مكتبة ابن خلدون مع شُحّها بالنّسبة لكتب مكتبة الأمل، لم تكنْ لتُضاهي مضامينها وموضوعاتها وتنوّعها، غير أنّه مع

كلّ ذلك، كان لها أثرٌ في قلبي كأثر النّسمة إذا حملت ريحُها العطرَ للعاشقين.

كانت مكتبة ابن خلدون رديفًا للأمل، كتُبُها أخفّ وأثمانها أقلّ فناسبت بذلك فترةً من حياتي في البدايات، وكنت أسعى إليها لغير الكتب، إذ كانت تبيع أقلام التّخطيط (Pilot) ذات الحبر الأسود السّائل، وكان هذا النّوع من الأقلام قد دخل إلى الأردنّ حديثًا، وهو نوعٌ فاخرٌ وشكّل قفزةً في كتاباتي، فقد جعلني أشعرُ حينَ أمسِكَ بهذا الحبر السّائل الأسود وهو يفيضُ من بين أصابعي على الورق الأبيض أنّني صرتُ كاتِبًا مُهِمًّا أو كبيرًا. وقد كتبتُ بهذا الحبر وبنوعٍ آخر من أقلام التّخطيط أُولى قصائدي، إضافة إلى مقدّمة ديواني الأوّل (بوارق الفجر).

كان صاحب مكتبة ابن خلدون من عائلة (البوريني)، طويلاً جُهامًا، خشن الصّوت مع عمقٍ فيه لا أدري كيفَ أصفه، وكان الغليون أو السّيجارة تستقرّ في زاوية فمه، ويتصاعدُ دُخانه حاجبًا وجهه، وهو ينفثُه بين الفينة والأخرى دون أنْ يُزيح السّيجارة من تلك الزّاوية. وكان شعره يرتفعُ ككُبّة فوق رأسه ويلبس نظارة بعدسات كبيرة وإطار أسود، له هيبةُ رجلٍ أسطوريّ أو قادمٍ من عصورٍ سحيقة، كان هذا شعوري يومئذٍ

وأنا في الحادية عشرة من عمري، ولعل صبيًا في مثل سنّي كان يُضخّم الواقع بخياله الواسع، أو يرى ما لا يُرى لأنّه كان يملك قلبَ شاعرٍ، وعينَي حالم.

واليوم ماذا حلّ بالمكتبة؟ ماتت. ماتت؟ تمامًا. ولم يمت صاحبها؛ أعني ابن خلدون التّاريخيّ، وليس صاحبها (البورينيّ). انقرضتِ المكتبة وحل محلّها دكّان يبيع الألعاب والخراخيش وأدوات التّجميل.

مكتبات صغيرةٌ مُتنقلّة:

تذكّرتُ حينَ قلتُ (مُتنقّلة) ذلك الخبر الّذي أورده (إدوارد غاليانو) في كتابه (أطفال الزّمن) حيثُ اختلطتْ فيه الحقيقة بالخيال: "في تاريخ البشريّة حافظَ هاربٌ واحدٌ على الكتب سليمةً من الحرب والحريق. كانت المكتبة المُتجوّلة فكرةً خَطرتْ لسعادة الوزير الفارسيّ عبد القاسم إسماعيل في نهاية القرن العاشر؛ حَمَلَ هذا المُسافر الذّكيّ والحكيم، الّذي لا يتعب، مكتبتَه معه. شكّل (117) ألف كتاب على ظهور أربعمئة جملٍ قافلةً بطول ميل. كانت الجِمال أيضًا مُبوّبة: فقد رُتّبتْ بحسب عناوين الكتب الّتي حملتْها، قطيعٌ لكلٍّ من أحرف الأبجديّة الفارسيّة الاثنين

والثّلاثين".

ثُرى ماذا كان شعور (خورخي بورخيس) الشّاعر الأرجنتينيّ الّذي عَمِيَ في أُخريات حياته وهو يدخل إلى المكتبة الوطنيّة في (بوينس أيريس) الّتي صار مديرها وهو لا يرى؟! أمعقول أنْ يُحاط بهذه الآلاف المُؤلّفة من الكتب الّتي أنفقَ حياة عينَيه فيها ثُمّ هو لا يُمتّعهما بالنّظر إليها؟! كانت هذه مفارقة غريبة، غير أنّه إذا كان لا يرى تلك الكتب فإنّها تراه، وهو إنْ فقد تلك الرّؤية فإنّه لم يفقد تلمّس الكتب كما يتلمّس العاشق كفّ محبوبته، ويشمّ غُبارها العطريّ كما لو كان وردًا فوّاحًا تعبق به حديقةٌ غنّاء. ذلك ما كنتُ أحسّ به إذا دخلتُ مكتبة، ذلك ما كنتُ أشمّه قبل أنْ أراه وألمسه. قالت ذلكَ روايةُ (اسمه أحمد): "عُدتُ إلى عملي في المكتبة، كانت عودةَ الحبيبِ إلى الحبيب، حينَ فتحتُ الباب داهمتْني روائحُ شذيّة قادمة من الأرفف، لقد كان عِطر الرّاحلين مِمّن تركوا خلفهم آثارهم، خطوتُ خطواتٍ أخرى، ابتدأتُ أتلمّس الكتب، "لِمَ لها كلّ هذا السّحر؟!" تساءلتُ وأنا أتابع السّير مُوغِلاً في البعيد، شعرتُ بقبلاتٍ على الخدّ، إنّهم هم، أصدقائي هُرِعوا إليّ يسألون عنّي، صوتُ أوراقٍ تُفتَح، وروائح عصورٍ سحيقةٍ تفوح، وأغلفةٌ تمدّ أيديها تريدُ أنْ تُسلّم عليّ".

مكتبة صويلح:

حينما رحلتُ من إربد لأعمل في مدرسة (الرائد العربي) في عَمّان لم يكن معي من أثاث لسكني الجديد في صويلح في الحيّ الشّرقيّ القديم غير فرشة واحدة وبعض المِخدّات وقليلٌ من الصُّحون والملابس، وتركتُ ما كان لي من كتب في بيت أهلي، غير أنني آثرت أن آخذ عددًا قليلاً جِدًّا منها معي إلى عمان، ولا أكاد أتذكّر ما أخذته يومئذ باستثناء ديوان المتنبي بطبعته القديمة الصادرة عن دار المعرفة اللبنانية في أوائل الثمانينيات وبشرح العكبري. يَعرِف المُتنبّي تمامًا أنّني لم أكن لأستغني عن صحبته.

في صويلح بدأت تكبر مكتبتي وتنمو من جديد، بعدَ عامٍ واحدٍ من استقراري هناك، سجّلتُ للماجيستير في الجامعة الأردنيّة، وبدأت الكتب تغزو غرفتي، كنتُ أسكنُ في غرفةٍ وحيدةٍ ذات سقفٍ واطِي، يُنزَل إليها بدرجٍ جانبيّ طويلٍ، ويظلّ ينزل حتّى يُخيّل إليكَ أنَكَ اخترقتَ الأرض، كانت الغرفة تفتح من الداخل على مطبخٍ صغيرٍ، يتّسع عرضه لطاولة الغاز مع الواقف أمامها فقط، أمّا طُولها فكان بطول الغرفة. في الخارج كان هناك حَمّام صغيرٌ يُصعَد إليه بذات

الدّرج الّذي يُنزَل به إلى الغرفة، وينزوي جانِبًا وطرفه غير محميّ بشيءٍ، فتَحته الفراغ الّذي يرتفع لأكثر من ثلاثة أمتار، وقد كان الخروج إليه - في الشّتاء خاصّة - يُشكّل عذابًا من نوعٍ غريب، فبالإضافة إلى البرد الشّديد الّذي تمتاز به منطقة (صويلح) فإنّ هذا البرد القارس إذا كان معه شِتاء شكّل مع قاع الدّرج الأملس سببًا للانزِلاق إذا لم يَخْطُ الإنسان ببطءٍ وحذر، ولقد كدتُ أسقط من أمام باب الحمّام غير مرّة في أيّام الشّتاء... سكنتُ في هذه الغرفة أربع سنوات، ولم يكنْ صاحبها رحمه الله وغفر له يأخذ منّي فلسًا واحِدًا، كان صديقًا لأبي، وكان يعتبرني ابنَه وأنّه عليه أن يتولاّني، وزادَ على ذلك أنّه كان يدفع عنّي طوال هذه السّنوات الأربع فاتورة الماء أو الكهرباء. كنتُ عَزبًا، أجمع النّقود من راتبي المتواضع في التّدريس لأحظى برفيقة الدّرب.. أقول ذلك لا لأصف لكم معاناتي ولكنْ لأصف لكم مُعاناة الكتب، إذ إنّ ولعي الّذي خبا قليلاً في أوّل عامٍ لي هنا عادَ في العام الثّاني بالتّزامن مع تسجيلي لدرجة الماجيستير. الغرفة ضيّقة بالأساس، نمت الكتب كالنباتات في أرجاء الغرفة، تريدُ هواءً، سارتْ باتّجاه النّافذة الصّغيرة الوحيدة، تربّعتْ في ظَرْفتها، فضاقت الظّرْفة بها، ذهبت باتّجاه الضّوء الشّحيح الّذي يسمح به الباب، لم يعد الباب يفتَح بسهولة، ليكنْ... أنا مُستمرّة في تمدّدي... كفى،

انتظري حتّى أنتقل إلى شقّة أوسع. لم تكنْ تسمع.

مكتبة بدر الجديدة:

بعدَ أربع سنوات في (صويلح) مع الغرفة اليتيمة الصّغيرة، وجدتُ وردةَ القلب، ولم يكنْ من اللائق أنْ أظلّ في غرفتي الحاليّة. لم أعدْ عَزَبًا؛ فقد بدأتُ حياةً جديدةً، ولكنّ الحال لا يُمكّنني من الانتقال إلى شُقّة في عمّان لأجورها المرتفعة، فاهتديتُ بعدَ البحث إلى شُقّة تُشبهني في منطقةٍ بعيدةٍ بضعة كيلومترات باتّجاه الغرب، إنّها (بدر الجديدة)، كانت بدر ضاحيةً هادِئة وريفيّة تمامًا، تنام بيوتها البسيطة على بساط الثّرى وفي حضن الأشجار، لهذا قلتُ إنّها تُشبهني، كان إيجار الشُّقّة معقولاً؛ هل قلتُ إنّها شُقّة؟ كلا، إنّه بيتٌ مستقلّ، بأربعة غُرف، وموزّع، ومطبخ كبير وثلاثة حمّامات، وشُرفة أماميّة على عرض البيت كامِلاً، ومُقامٌ وحده على أرضٍ مزروعةً بالأشجار المُثمرة تبلغ عشرة دونمات، وفيها بِئرُ ماءٍ من ماء السّماء يفيضُ عذوبةً ونقاءً... إنّها تُشبهني الآن أكثر... لقد بدا الفرق الشّاسع بين الغرفة اليتمية الضّيقة ذات السّقف الواطئ، وبين هذه الفضاءات الوسيعة، وإذًا فالمكان لن يشكو من كثرة كُتُبي، ولا من وفودها مُهرولةً أو تطأ الثّرى مترفّقةً قادمةً من عمّان وغيرها إلى هذا البيت

الرّيفيّ المُدهِش... كان في الأرض المزوعة الّتي تنتمي له أشجار عنب وبرقوقٍ وخوخٍ وتينٍ، وسِواه، وبعدَ فترةٍ وثق بي صاحب البيت، فقال لي: كُلْ ما أردتَ مِمّا يحلو لك دون أنْ تسألني أو تعود لي في ذلك... بدأتْ موادّ الماجيستير تستدعي المزيدَ من الكتب، كنتُ أتوجّه بوعيٍ نحو النّحو القرآني، فهُرعتُ أشتري كتب التّفاسير الّتي تهتمّ بالجانب اللّغوي والبياني والنحّوي، بدأتُ بتفسير التّحرير والتّنوير لابنِ عاشور، مع التّدريس الخاصّ صار لديّ فائضٌ من المال، شجّعني ذلك أنْ أشتري كلّ كتب التّفاسير المُمكنة، لم تكنْ زوجتي تعترض على المال الّذي أُنفقه على الكُتُب أكثر مِمّا أنفقه على البيت، إنّها تعرفُ أنّني مريضٌ جيّد، وأّن المرض بالكتب من أجمل الأمراض الّتي يُمكن أنْ يكون غَضّ المرأة الطّرفَ عنها إذا وجدتْه في زوجِها يزيدهُ جمالاً. لا أدري كم تفسيرًا اشتريتُ، لكنّها كانتْ ما يقرب من ثلاثين تفسيرًا، تراوحت أجزاؤها بين عشرين وثلاثين جزءًا، مِمّا يعني أنّها كانت حوالي (800) كتابًا.

تخصّصي في النّحو، ذهبَ بي إلى كتب النّحو، لا يُمكن أنْ أعدّد الكتب الّتي اشتريتُها في هذا المجال هنا، إنّ ذلك يستغرق صفحاتٍ كثيرةٍ، ثُمّ بدأ وعيي يتّجه نحو كتب الفلسفة، استشرتُ أحد الضّالعين في الفلسفة عن أهمّ عشرةِ

كُتُب ينبغي أنْ أقرأها، نظَر إليّ مُغضبًا، ضَيّق عينَيه، سألني: هل يُمكن أنْ تختار عشر قطراتٍ من مُحيطٍ؟ ثُمّ في أيّ زمنٍ منه ستأخذ القطرات العشر هذه؟ تريدُ من الفلسفة اليونانية أم الإغريقيّة أم الشّرقيّة أم الغربيّة، الصّينيّة، أم العربيّة أم ماذا؟ شرحَ لي كثيرًا من الأمور عقّدها أكثر مِمّا ينبغي، كانت إجابته هي بحدّ ذاتها فلسفة، تَيّهني، عمدتُ إلى كتاب قصّة الفلسفة لول ديورانت، كان يُمكنه أنْ يقول لي ابدأ به. لغته أدبيّة سهلة راقث لي، العيبُ الوحيد فيه أنّه أغفل فلاسفة العرب كابن رشد والغزالي والفارابي، وغيرهم!

أصبحَ البيث بعيدًا، حينَ أتركُ زهراء وحدها فيه، في قريةٍ بُيوتاتها مُتباعدة، في مزرعةٍ لا تحوي غير الشّجر، في ليالٍ باردةٍ دامسة، حتّى أعودَ من عملي متأخّرًا أيّام التّدريس الخاصّ، وتكون هي وحدها ترعى رضيعتنا الجميلة (فاطمة)، صار من الضّروريّ الانتِقال إلى عمّان، حتّى تكون قريبةً من الأماكن الحيويّة الّتي قد تضطرّ للخروج وحدَها من أجل قضاء حاجات البيت، أضفُ إلى ذلك أنّني كنتُ قد نلتُ شهادة الماجيستير، وصار من النّاحية الماديّة الأمر متيسّرًا أكثر، وهذا ما كان.

مكتبة الطّابق الثّالث:

إنّها شُقّة في الطّابق الثّالث تُطلّ على شارعٍ هادئٍ يمضي شرقًا ليلتقي بشارع الجامعة الأردنيّة. المكان جميل، الشّارع لا يعجّ بالسّيّارات ولا بالمارّة، ويُمكنني أنْ أجلسَ في مكتبتي هنا في هذه الشّقّة أقرأ وأكتبُ براحتي. هذا حلم. حلمٌ؟ نعم، الشّارع سرعان ما صار رئيسيًا، لا أدري كيف، لكنْ لم تمرّ سنةٌ أو اثنتان حتّى صار عددُ السّيّارات الّتي تعبره في اليوم أكثر من السّاكنين على جانبَيه، لا أدري كيفَ تحوّل من شارعٍ خجولٍ إلى شارعٍ لَقْلاق لعينٍ، كانت الزّوامير لا تمنعني من القراءة

أو التّركيز في الكتابة فحسب، بل كانت تمنعنا من النّوم، ثُمّ عَمَرتْ إلى قبالتنا تمامًا صالةٌ للأفراح فجعلت جهنّم في الصّيف تهبطُ إلى شارعنا، كنتُ أجلسُ ساعاتٍ طويلةً إلى مكتبي أحاول أنْ أصوغَ بيتًا واحِدًا، أنْ أُخربشه على الورق، أنْ أنتهي من القصيدة أو من بعضِها في يومين أو ثلاثة، ولكنْ هيهات. اضطَرّني ذلك إلى استِغلال أيّام الجُمَع والصّباحات الباكرة - إذا لم يكنْ عندي دوامٌ - للكتابة والقراءة.

مكتبتي هنا كانت تحتلّ الغرفة الّتي في الزّاوية الغربية الجنوبيّة من الشُّقّة، لها شبّاكان أحدهما جهة الغرب فيمكن

أنْ تشعر بدفْءِ أشعّة الشّمس في الرّبيع أو في التّشارين عند الغروب، والثّاني جهة الجنوب، يُطلّ على الشّارع الذّاهب إلى تلاع العليّ. مساحة الغرفة مُتوسّطة، امتلأتِ بالكتب الّتي حملتُها معي من (بدر الجديدة) إلى هنا كاملة. كان هناك سريرٌ في زاوية الغرفة، كنتُ أرتاحُ عليه أحيانًا، حينَ زارني أحد الأساتذة الأتراك سَرّه في مكتبتي السّرير أكثر من الكتب، قال: "هذه طريقتُنا، إنّنا في تركيّا نخصّص زاويةً للسّرير في المكتبات الشّخصيّة ليُريح الأستاذ جسده وعقله إذا مَسّه التّعب أو اللّغوب". لا بأس، ليسَ هذا ما أردتُ قوله، كنتُ أريدُ أنْ أقول: إنّ هذا السّرير امتلأ بالكتب، صارت الكتب ترتفع فوقَه في طبقاتٍ، هبطتْ من عنده على الأرض، ملأتِ الأرضَ كذلك، صرتُ أكوّمها أمام المكتبات أنفسِها، مدّت الكتب المحجوبة في الخلفِ أياديها إلى بطون الكتب الّتي أمامها، وأزاحتْها برفق: "قليلاً يا رفيقاتي... قليلاً... لقد اختنقْنا". استجبنَ لندائِها في البداية، بعدَ شهرَين، تراكمتْ طبقةٌ جديدةٌ أمام الطّبقة السّابقة، حينَ مدّت الطّبقة الأعمق يدها مثلما فعلتْ أوّل مرّة، لم تستطعْ أنْ تُزحزحَ شيئًا مِن الكتب الّتي أمامها، هتفتْ ذواتُ الطّبقة الثّانية: "المكانُ مُزدحِم، ألا ترين الطّبقة الجديدة الثّالثة الّتي غطّتْ الفضاء الّذي أمامنا؟!".

لم يَضِق البيت بالكتب فحسب، كبرتِ العائلة كذلك، إنّها عشرُ سنواتٍ كامِلاتٍ هنا، لا بُدّ من بناء بيتٍ خاصّ، ومكتبةٍ خاصّة. وهذا ما كان!

دخلت ذاتَ يومٍ صيفيّ من شهر آب، فتحتُ الباب بسرعةٍ عليهنّ في سكونهنّ، لا بُدّ أنّني أفزعتُهنّ، ذلك أنّني سمعتُ شهقاتهنّ تتابعَ وتتوالى، هتفتُ كأنّني أتيتُ بخبرٍ مُفرِح: "إنّنا سننتقلُ إلى مكانٍ جديدٍ، مكانٍ واسعٍ مُشمسٍ، وهواؤه نقيّ، وهادِئ جِدّا ولن تَسمعْنَ أصواتَ الأبواق ولا صَخَب الحفلات... في المكان الجديد، لن تمتدّ يدٌ من الخلف إلى بطنِ أختِها لتقول لها: قليلاً يا أُخيّتي أريدُ بعضًا من الهواء والشّمس... في البيت الجديد، هناك شمسٌ وهواء كافيان لَكُنّ جميعًا". أُشير إلى الكراتين الّتي جمّعتُها في صالة البيت، هيّا إلى تلك الصّناديق، لن يطول الأمر كثيرًا، سوفَ أنقلكنّ إلى مكانٍ يُعجبكنّ.

أسمعُ بعضَهنّ يقول: أما مَلّ هذا الفتى من التّرحال؟ أما تعب من بَعْجِ بطوننا، وإلقائِنا في الظّلام، وحَمْلنا في العُلب المُغلَقة إلى بطون المراكب السّيّارة، لقد اشتقْنا إلى أنْ نرتاح. تقول كلمةٌ في بطن ديوان شِعر: "ليتَ الفتى حجرٌ". تقول كلمةٌ في ديوانٍ شِعر آخر: "لتعلمَ مِصرُ ومَنْ بِالعِراقِ ومَنْ

بِالعَواصِمِ أنّي الفَتَى". تقول كلمةٌ حلوةٌ ثالثة: "يا أَجْمَلَ الفِتْيانِ... يا عِطْرَ المواعِيدِ الحَمِيمَةِ... أيُّها المَغْسُولُ بالقُبُلاتِ... يَا وَرْدَ القُلُوبِ". نبتسم جميعًا ونمضي.

المكتبة الكُبرى:

لا أدري إنْ كان هذا سيكون المقرّ الأخير لهذه الكتب المُتنقّلة. أو أنّه سيكون نهاية المَطاف بالنّسبة لكتبي الّتي تنقلّت كثيرًا!

حينَ بنيث البيت الّذي أسكنُ فيه اليوم، انتقلث معي مكتبتي من عمّان إلى هنا؛ في شفا بدران، إحدى الضّواحي الهانِئة الهادِئة، استقرّت المكتبة في أوسع غرفةٍ في الطّابق الأوّل الّذي نعيشُ فيه، كان الطّابق الأرضي لا يزال غير مكتمل البِناء، وبالتّالي لم يكنْ ممكنًا استقرار المكتبة فيه، كانت الغرفة الّتي عن يمين المدخل في الأعلى على سَعتها قد بدأث تضيق بالآلاف السّبعة أو الثّمانية الّتي تحتلّها. بدأ التّكدّس يغزو الغرفة هنا مثلما كان يغزوها في الغرفة هناك، مع أنّ هذه حجمها ثلاثةُ أضعافِ حجم الأولى، ولكنّ الكتب لا تكفّ عن النّمو، إنّ نموّها يتحوّل إلى رعبٍ أحيانًا!

تراكمتِ الكتب الّتي اندلقث من رفوف المكتبات الجديدة الّتي أتيث بنّجار خاصٍّ لها إلى الأرضيّة، ثُمّ وراء الأرائك، ثمّ امتلأ ما وراءَها، فصارث تشغلُ ما فوقها وما تحتها، ثُمّ أخرجتُ الآرائك ولا زالت تتمدّد إلى أنْ ضاقت بها الغرفة بما رحبت، فبدأت الكتب تخرج هنا وهناك لتتنفّس من المكان الّذي حُشِرت فيه، عندَ ذاك لم يكنْ من حلّ إلا أنّ أنقلَ المكتبة إلى الطّابق الأرضيّ، كان هذا الطّابق مُصمّمًا ليكون شقّتين يُمكن الاستِفادة من عائدهما الماليّ بالإيجار، غير أنّ صداقةَ غيرِ الكتب وجوار غيرها لا يُحتَمل، فقرّرتُ أنْ أُجهّزهما للكتب، ولها فقط، وهذا ما تمّ... اشتريتُ للأرضيّات بلاطًا بُنّيًا يُشبه لون خشب المكتبات، وأتيتُ بعامل ليأخذ قياسات الجدران في الشّقتَين الكبيرتَين اللّتين فتحتُ الواحدة منهما على الأخرى، من أجل أنْ يُصمّم لها رفوف مكتباتها باللّون الّذي يتناسب مع روح الكتب، وهذا ما كان... تمدّدتِ الكُتُب على الرّفوف، وتدلّلت، وراحتْ تنتشر بسرعةٍ كبيرة، لم يمرّ وقتٌ قصيرٌ حتّى بلغتْ عشرين ألفًا، كنتُ أعودُ من سفري في البلاد العربيّة الّتي أُشارك بمعارضها بعشرين كرتونةً كبيرةً من الكتب وبزجاجة عطرٍ واحدةٍ لزوجتي! كانت الكتب تُشحَن بالبرّ غالبًا، وأحيانًا بالبحر. في معرضِ بغداد على سبيل المثال، كان الشّحن البرّي صعبًا، فقرّرتُ أنْ آخذ معي حقيبةً تتّسع لأكبر عددٍ من الكتب، وانتقيتُها من

النّادرة الثّمينة، وحينَ وضعتُ الحقيبة على حِزام الوزن كان الرّقم يُظهر أنّها أكثر من (40 كغ) ولا يُسمح إلا بـ (25)، تعاونت معي الموظّفة العراقيّة حينَ أنّ الحقيبة لا يوجد فيها من ثيابي وأغراضي الشّخصيّة أكثر من (2 كغم) وأنّ بقيّة الوزن هي للكتب، فطلبتْ أنْ أحمل معي عشرة كغم إلى الطّائرة في حقيبة ظهر، وستترك الوزن الباقي يمرّ.

من مصر أذكر أنّني اشتريتُ من مكتبة (تنمية) وحدها أكثر من خمسمئة كتاب، أكثرها مجموعات كاملة للكُتّاب الّذين أُحبّهم أو الرّوائيّين، ذلك العام الّذي أظنّه كان عام 2016م عدتُ من مصر بأكثر من ألفَي كتاب. إذا لم يكنْ عندي توقيع في المعرض، أو ندوة أو أمسيةٌ هنا أو هناك، فمعنى ذلك أنّني كنتُ أطوفُ على دور النّشر أبحثُ عن أصدقائي، بعضُ دور النّشر الوطنيّة كانت تعرض كتبًا بأثمانٍ رمزيّة، مجموعة (شوقي ضيف) مثلاً في الأدب وتاريخه كان ثمن أجزائها الّتي تُقارب الثّلاثين جزءًا بثمنِ جزئين منهما في الوضع الطّبيعيّ عندنا في الأردنّ. كان كلّ كتابٍ يُغريني بشرائه وأنا أطوفُ في أروقة المعرض، كلّ كتابٍ ولا أُبالغ في ذلك، كنتُ أسمع صوتَ الكتب يهمس في أذني: "خُذنا معك، إنّكَ لن تجدَ صديقًا ولا حبيبًا مثلنا". بعضُها كان يغضبُ لأنّني حملتُ غيرَها وتركتُها، أسمعها بوضوح تهتف بصوتٍ غاضب: "لم

تكنْ أجملَ منّا، نحنُ نعرفُ قيمتَك أكثرَ منها!!".

شِراءُ الكتب، بهذه الأعداد، قد يُسمّونه اليوم مرضًا، ويُطلِقون عليه مُصطلح (الببلومانيا)، لكنّني لستُ وحيدًا مِمّن ابتُلِي به، ولستُ أوّلاً ولا جديدًا، سَبَقني الجاحظُ بالطّبع فلا أحدَ يجهل قِصّته، وكيفَ كان عدد الكتب الهائل الّذي يُحيطُ به سببًا في موته، وهناك آخرون كثيرون، منهم مثلاً (ابن قيّم الجوزيّة)، فقد قال عنه الحافظ ابن حجر مُبيّنًا مآل مكتبته: "وكان مُغرًى بجمع الكتب فحصّل منها ما لا يُحصَى، حتّى كان أولادُه يبيعون منها بعدَ موته دهرًا طويلاً سِوى ما اصطفَوه منها لأنفسهم". وإنْ كنتُ لا أريدُ أنْ تؤول مكتبتي إلى ما آلت إليه مكتبة ابن قيّم الجوزيّة بعد موته، بل أرجو أنْ تُصبِحَ وَقْفًا، وعلمًا يُنتفَع به، وصدقةً جاريةً عن روحي بعد أنْ أُوارَى الثّرى بإذن الله تعالى.

غُرَف المكتبة حوالي عشرة، حاولتُ أنْ أوزّعها - قدر ما أستطيع - بحسب تصنيف (ديوي) العشريّ. هناك غرفة للدّراسات الإسلاميّة، تضمّ كتب التّفسير والفقه والعقيدة والحديث والسّيرة النّبويّة والتّربية. ثانيةٌ تلك الّتي تُقابلها تضمّ كتب الفِكر والفلسفة والتّصوّف وعلم النّفس. ثالثةٌ تضمّ كتب التّنمية البشريّة والتّربية والاقتِصاد والقانون. رابعةٌ

تضمّ المعاجم. خامسةٌ تضمّ كتب النّحو والصّرف والأدب والنّقد وتاريخ الأدب. سادسةٌ كتب الرّواية والمسرحيّة والسّينما. سابعةٌ تضمّ كتب الطّب والهندسة والرّياضيّات والفيزياء وبقيّة العلوم الطّبيعيّة والطّبيّة. ثامنةٌ تضمّ دواوين الشّعر. تاسعةٌ تضمّ كتب الأطفال. عاشرةٌ تضمّ كتب التّاريخ والجغرافيا والمذكّرات والسّير الذّاتية للأدباء والمُفكّرين والقادة العسكريّين والسّياسيّين. وهناك غرفةٌ أخيرةٌ تقع في الجهة الغربيّة من المكتبة تضمّ مكتبي الدّمشقيّ العريق، وتضمّ كتب المراجع الكُبرى وكتب التّاريخ المهمّة، وفيها بعضُ المكتبات الّتي تمتلِئ بمراجع الكتاب أو الرّواية الّتي قيدَ الكتابة، وقد تزيدُ عن أربعمئة كتاب، أكونُ قد جمعتُها من باقي أقسام المكتبة، فإذا فرغتُ من الكتابة، أعدتُ كلّ كتابٍ بحسبِ تصنيفه إلى رَفّه. كما أنّ في هذه الغرفة، الكتب الّتي ألّفتُها وقد بلغتْ حتّى الآن عشرين كتابًا، بعضُها وصلتْ طبعاته إلى أربعين طبعة، أحتفظُ - إذا تمكّنتُ - بخمسةِ نُسخٍ من كلّ طبعةٍ للذّكرى، كما أنّ هنالك مكتبةً عن يميني للمجموعة الخاصّة، أعني بالمجموعة الخاصّة الكتب القديمة الّتي مرّ على طِباعتها أكثر من مئة عامٍ، وكذلك بعض المخطوطات النّادرة.

في الوقت الّذي أكونُ منهمكًا في تأليف رواية أو كتاب،

سترى أنّي استعنت بالإضافة إلى سطح المكتب الواسع ببعض الطّاولات الصّغيرة عن يميني أو شِمالي تستقرّ فوقَها الكتب الّتي أحتاجُها في عملي الجديد، بعضُها يرتفع في حالات الذّروة حتّى يغطّيني أو أغرق خلفه. إنّني أستمتع بذلك جِدًّا.

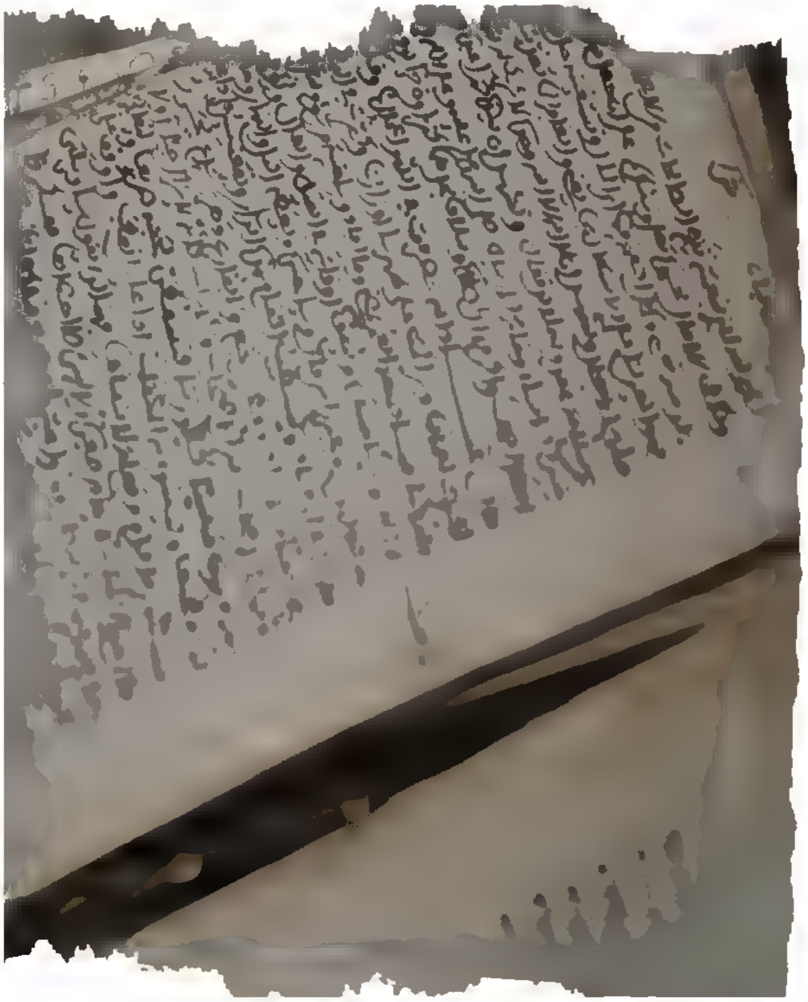

في مكتبتي، مع كتبي وبعض المخطوطات

رسالة في الطريق إلى المكتبة العامّة:

في عام 2016م بدأتُ أُراسل بعضَ أهل العِلم والرّأي في سبيل تضخيم مكتبتي الخاصّة الكبيرة لكي تُصبح مكتبةً عامّة، الرّسائل الّتي بعثتُها أو المُكالَمات الّتي أجريتُها لهذا الهدف لم يُلقِ الكثيرون لها بالاً، إنّهم غيرُ مَعذورين في استِخفافهم بفكرةٍ خلاّقةٍ كهذه، ولكنّهم مَعذورون بالطّبع في الضّنّ بكنوزهم من الكتب، فمن هو الأحمق الّذي سيتنازل عن هذه الكنوز ليُعطيها لمجنونٍ بها مثلي؟!

وجّهت بعضَ هذه الخطابات إلى وَرَثة علماءَ وحَفَدَةَ كِبارٍ مِمّن رحلوا عن هذه الفانية وتركوا خلفهم مكتباتٍ ضخمةً، كانت الفكرة ليستِ الاستِحواذَ على تلك الكتب، بل تحويلها إلى مكتبةٍ عامّة نتشاركُ نحن أصحابَ المكتبات الشّخصيّة الكبيرة في إنشائها حتّى تعمّ الفائدة. تقريبًا لم يستجبْ أحدًا!

الرّسالة الآتية نموذج، بعثث بها إلى مديرة المدرسة الّتي أعمل فيها:

السّيّدة الفاضلة مديرة المدارس الأردنيّة الدّوليّة المُحترمة

السّلامُ عليكم ورحمة الله وبركاتهُ؛ وبعدُ

فإنّي قدْ رأيث في مكتبة المدرسةِ كُتُبًا قديمةً لا تمتدّ إليها يَدُ طالبٍ بالاستِعارة، فضلاً عن أنْ تمتدَّ إليها يَدُهُ بالقِراءة، وهي كُتُبٌ لم يَعُدِ الطّالبُ في هذه المدرسةِ يرجعُ إليها أو يَستَفِيدُ منها، وقد مَضى عليها سَنَواتٌ وسنواتٌ حتّى عَلاها الغُبار، ولم تَجِدْ يدًا حانِيةً لِتُؤخذَ بينَ أصابِعها، ولا قلبًا حَنونًا لِيَضُمَّ عليها جوانِحَهُ، ولا أُذُنًا واعِيةً لتستمعَ إلى صوتِها المُتهدِّج.

وإنّني منذُ زمنٍ بدأتُ بتجميعِ الكُتُبِ من الأفاضلِ والمدارِسِ أمثالِكم لأضُمَّها إلى مكتبةٍ عامّةٍ جعلتُ لها في بيتي بِناءً خاصًّا يُطمَحُ إلى أن يكونَ ضَخمًا بإذن الله لِيُشكّلَ مهوىً لأفئدة القُرّاء جميعهم. وإنّه إنْ بقيتْ هذه الكتب على رفوفِ مكتبتكم دون أن تتحرّك من مكانها حُرِمَ الآخَرون خيرَها؛ ولكنّ العِلْمَ إنّما يكونُ بِنَشْرِه؛ فإنْ أقدمْتُمْ على خُطوةٍ كهذه فوافقْتم على نقلِ هذه الكتبِ من موضعٍ لا يُستَفادُ منه عمومًا إلى موضعٍ تَعُمّ فيه الفائدةُ فذلك أجرٌ عظيمٌ - إنْ شاء الله - لكم عندَ الله، ويندرجُ هذا تحتَ قوله صلّى الله عليه وسلّم: "أو صدقةٍ جاريةٍ".

وإنّني في المُقابِل مُستعدٌّ أنْ أساعِدَ في اختِيار كُتُبٍ جديدةٍ تكونُ أعمَّ فائدةً وأوسعَ قَبولاً يلجأ إليها الطُّلاّب في أبحاثِهم ومُطالعاتهم.

ولا أُخفيكم أنّ هذه الخُطوة؛ أي طلبي كُتُبًا من الآخَرين لم يعودوا بحاجةٍ إليها هُمْ أو مَنْ يَلُونهم قد توجّهْتُ بها إلى أساتذةٍ كبارٍ في الجامِعات أو إلى وَرَثَتِهم؛ فأبدَوْا التّعاون وأجابوني إلى طلبي رغبةً في الأجر وزِيادةً في الثّواب.

سيّدتي الفاضِلة؛ أضعُ طلبي بينَ أيديكم راجِيًا الموافقة،

وكم أكونُ سعيدًا إذا تمّ ذلك، وكم سيسعدُ الآخَرون الّذين سيعيشون مع هذه الكتب، وستدعُو قلوبُهم لكم ولِحُبّكم الخيرَ للآخَرين.

وتفضّلوا بِقَبول فائق الاحتِرام

أيمن العتوم – عمّان - 16/ 3/ 2016

صداقتي مع الكتب:

لمْ أكنْ من ذلك النّوع الّذي تضجّ حياتُه بالأصدقاء، في كلّ مرحلةٍ من مراحل دراستي، كان لي صديقٌ أو اثنان ليس أكثر، إذا قُدّر أنْ تكون هناك مجموعة من الأصدقاء تلتقي في الأسبوع مرّة كما حدث مع مجموعةٍ من المُهندسين الّذين كُنّا نلتقي معًا كلّ سبت، حتّى أسميناها (شلّة السّبت المُقدّس)، فإنّ هذه المجموعة سرعان ما انفرطَ عِقدُها بعد أنْ لم يمضِ على اجتِماعاتنا تلك سنةٌ أو اثنتان، وإنْ كُنّا قد بدأنا بقراءة تفسير القرطبيّ بشكلٍ جماعيّ بعدَ أنِ اشتراه كلّ فردٍ في (الشّلّة). لا صديقَ يدوم، ليسَ لأنّه بالضّرورة لا يحمل الواحدُ تُجاه الآخَر وفاءً لديمومة هذه الصّداقة، فهذا في هذه الأيّام ترفٌ وسُخفٌ معًا، بل لأنّ الفرقة حاصلةٌ

بالضّرورة من سُبُلٍ شتّى، فإذا كانت صداقةَ مدرسة، فإنّها تنتهي إذا ذهبَ كلّ صديقٍ إلى جامعة، وإذا كانت صداقة جامعة فإنّها تنتهي إذا أكمل كلّ صديقٍ دراسته، ثُمّ يدخل العمل والزّواج والسّفر، والتّحوّلات الفكريّة والنّفسيّة في زيادة هُوّة بين من كانوا يُسمّون أنفسهم أصدقاء، ويبدأ كلّ واحدٍ منهم يحنّ إلى الماضي الجميل ويبكي عليه، وهو حنينٌ طبيعيّ، لكنّه رومانسيّ خياليّ، يرشح منه الحُزن كأنّ البقاء معًا كان أمرًا محتومًا، وأنّ الفراق لم يكنْ واردًا في الحُسبان، ويصدق فينا ما قاله المتنبّي:

نبكي على الدُّنيا وما مِن معشرٍ

جَمَعتْهُمُ الدُّنيا فلم يتفرّقوا

في هذه الظّروف البشريّة الّتي هي تدافعٌ طبيعيّ، لا يبقَى صديقًا لك إلاّ الكتاب، وهذه حقيقة، وإنْ كان بعضُنا يراها ادّعاءً، إنّها ربّما بالنّسبة لي أوضح حقيقةٍ عاينْتُها وعِشتُها، فلا أخلصَ من الكتاب، ولا أنفعَ منه، وصدقَ أحمد شوقي إذْ قال:

أنا مَنْ بَدّلَ بالكُتْبِ الصِّحابا

لم أَجِدْ لي وافِيًا إلاّ الكِتابا

صاحبٌ إنْ عِبْتَهُ أو لم تَعِبْ

ليسَ بالواجِدِ للصّاحِبِ عابا

مع الزّمن، حينَ يتقدّم العُمر، يبدأ ذلك الخيط الّذي يربطك بالبشر يُصبح دَقِيقًا، تزداد دِقّته حتّى ينقطع في النّهاية، فتجدَ نفسَك بعد انقطاعه قد سقطتَ في أحضان الكتب. يبرز لك قول محمود سامي البارودي:

صَحِبتُ بَنِي الدُّنيا طَويلًا فَلَمْ أَجِدْ

خَليلاً، فهل مِن صاحبٍ أستَجِدُّهُ؟

ها أنذا في مكتبتي أجدُ تلك الرّاحة الّتي أبحثُ عنها، وذلك الحِوار العقليّ الّذي كنتُ أشتهيه، وذلك الإخلاص الرّومانسيّ الّذي كنتُ أتخيّله، مُحاطٌ بالأصدقاء من كلّ جهة، أنّى نظرتُ وقعتُ على غاية، وأنّى أرسلتُ طرفي سرّني ما أرسلتُه إليه. الكتاب صديقٌ صامتٌ، لكنّه أفصح لسانًا من أيّ صديقٍ آخر. ولقد أشرتُ إلى مثل هذا في رواية (اسمه أحمد): "الكتاب

صديقٌ ليس كأيّ صديق، الأصدقاء ينامون، لديهم حاجاتهم الخاصّة لا يُمكن أنْ تلتقيهم في كلّ وقت، لكنّ الكتاب يلتقيك في أيّ وقتٍ تراه أنتَ مُناسِبًا، بالنّسبة له كلّ الأوقات مناسبة؛ أيّ صديقٍ هذا!!! الأصدقاء يُعطونك ظهورهم مرّاتٍ؛ إنّهم معذورون، لديهم أسبابهم، أمّا الكتاب فلم يُعطني ظهره يومًا".

مكتبات الشّرق والغرب العَربِيّين:

طوّفتُ في البلاد العربيّة ساعِيًا خلفَ الكتاب والمعرفة، بحثُث عن الطّبعة الأولى في تلك المكتبات، لا يهمّني في أيّ بلدٍ تكون، المهمّ أنْ أركبَ الطّائرة وأمضي إليها غير آبهٍ لا بتكلفة الرّحلة ولا بثمنِ الكتاب، أنْ تستقرّ الطّبعة الأولى من كتاب (النّظرات) للمنفلوطي بين يدَي يُعادل كنزًا لا يُقدّر بثمنٍ، أنْ أحصل على العدد الأوّل من مجلّة الرّسالة، العدد الأوّل من مجلّة الهِلال، الطّبعة الأولى من مُعجَم (القاموس المُحيط)، نُسَخ ديوان أحمد شوقي أيّام كان يصدر بالأجزاء قبل أنْ يُجمَع في طبعةٍ واحدةٍ بأربعةِ أجزاء، مُؤلّفات (محمّد تيمور) المطبوعة عام 1922م الّتي صارث جزءًا من الماضي، الكتب الّتي طُبعث طبعةً واحدةً قبل مئة عامٍ ثُمّ لم تعد تُطبَع ثانيةً... كلّ ذلك يستحقّ أكثر مِمّا يتصوّر المرء.

جبتُ شارع السّعدون في بغداد بحثًا عن الكتب القديمة، كان العراق الحزينُ يومَها لا يزال حزينًا! الكتب كانت كذلك حزينةً مثله. لكنّ أصحابَها، أعني بعضَهم يعرف قيمتها، اشتريتُ في طلعةٍ واحدةٍ كتبًا بمِئات الدّولارات، أحدُ هذه الكتب كان مطبوعًا في برلين عام 1882م.

شارع المتنبّي في بغداد أيضًا شاهدٌ على آلاف الخُطُوات الّتي ذرعتُها فيه باحِثًا ومُنقّبًا عن الكتب القديمة، أتيتُ إليه متأخّرًا، كان ذلك في عام 2020م، يبدو أنّ كثيرين سبقوني إليه، وحصدوا ما فيه من العتيق الثّمين، غير أنّ بطون البيوت الّتي تمتلِئ بمثل هذه النّوادر في العراق لا زالت ترفد الشّارع التّاريخيّ إلى اليوم.

في الدّار البيضاء في المغرب، وفّر لي المعرض دُورًا جلبت لي عددًا من الكتب الّتي عنيتُ في البحثِ عنها في الأردنّ أو في الدّول العربيّة الأخرى. ما زالت حالة الفِصال بين الشّرق العربيّ وغربه وعدم توسيط الثّقافة بين الشّطرَين تعمل إلى اليوم. أدباء المغرب يعرفون أدباء المشرق، ولكنّ العكس قد لا يحدث. لا أدري السّبب، ولكنّ هناك تقصيرًا من الجهتَين، في الموضعين في الجزائر والمغرب تعرّفتُ أكثر على الشّعراء والأدباء، اشتريتُ عددًا من الكتب النّادرة، بعضُ

دواوين (مفدّى زكريّا) غير المعروفة على سبيل المثال.

في نهج (إنجلترة) في تونس، لم أدعْ مكتبةً فيها كتبٌ قيّمة إلاّ نبّشتُ فيها، كنتُ أشاهدُ في بعضِها رواياتي ودواويني بنسختها المُقلّدة، المسافة بين الأردنّ وتونس قد تكون بعيدةً جغرافيًّا، ولهذا يحدث هذا، ولكنّها على أيّة حالٍ قريبةٌ وجدانيًّا جِدًّا.

في مصر زرتُ العتبة، والحُسين، والأزبكيّة، وسور جامعة القاهرة حيثُ تنتشر بعض بَسْطات الكتب، ووقفتُ أمام الكتب القديمة المعروضة في الشّوارع طويلاً، كانوا يطلبون بها أثمانًا مُرتفعة بعدَ أن أتكلّم أوّل كلمة، إنّني لليوم على عشرات الزّيارات الّتي قمتُ بها لمصر لا أُتقن اللّهجة المصريّة!

مكتبة الإسكندريّة كانت إحدى المحطّات المشهودة بالنّسبة لي في مصر. المكتبة التّاريخيّة الّتي بناها الإسكندر لم يحرقْها عمرو بن العاص كما قيل في بعضِ الكتب، لقد تتبّعتُ ذلك، الفاتحون الأوائل ليسوا قتَلَة، لقد جاؤوا لإحياء الأرض والإنسان، والكتب أناسيّ وإنْ بهيئات مُختلفة، فلا يُمكن قتلُها!

مكتبة الإسكندريّة اليوم ببنائها الحديث، وتصميمها الجديد، وإنْ لم يُعجبْني التّصميم كوني مُهندِسًا إرثُ العروبة يجري في دمه، هي علامةٌ بارزةٌ في ثقافة مصر وفي ثقافة أمّتنا العربيّة، وأمّا إرثها التّاريخيّ الإنسانيّ فسيظلّ شاهدَ فخرها وتميّزها.

في مكتبة الإسكندرية، آذار ٢٠١٦م

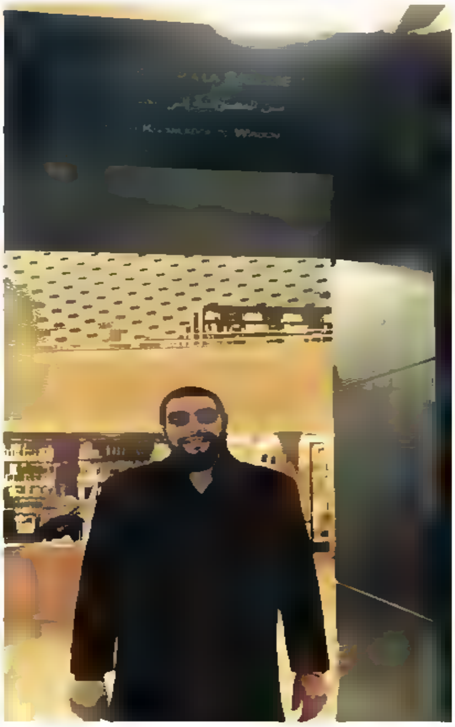

حينَ دُعيتُ إلى الكويت للمُشاركة بمهرجان البابطين الشّعريّ عام 2012م زرتُ مكتبة البابطين هذه في ذلك العام، وهي مكتبةٌ أنشأها رجل الأعمال الأديب عبد العزيز البابطين، وأنفق عليها بسخاء، وصنعَ بها معلمًا ثقافيًّا مهمًّا في الكويت، كُتُبها متنوّعة، غير أنّ أبرز ما فيها تلك اللّوحات

الجدراية الّتي تنتشر في أروقتها لشعراء كبار مثل السّيّاب وقبّاني والجواهري وأمل دنقل وغيرهم.

عدتُ إلى الكويت مرّة أخرى في آذار من عام 2016م، في مهرجان شعريّ للمقاومة، وأعجبني أنّ بعضَ الشّركات الكُبرى تُخصّص جزءًا من مبناها الضّخم مكتبةً يستفيدُ منها العاملون في الشّركة، سيكون أكثر هذه الكتب هي من النّوع المُتخصّص في الأعمال الّتي تُديرها الشّركة، لكنّها تضمّ إلى ذلك كتبًا في مجالات المعرفة الإنسانيّة الأخرى. زرتُ في ذلك العام مكتبة (الصّندوق العربيّ للإنماء الاقتصادي والاجتِماعيّ)، كانت مكتبة فخمة مفروشة بالسّجّاد الوثير، وأرائك الجلد السّوداء الفخمة تتوزّع بانتِظامٍ في ردهاتها، وأصص من الشُّجيرات الخضراء الأنيقة مركوزة على الأطراف. ويُصعَد إلى طابقها الثّاني بدرج حلزونيّ خشبيّ، لونه بنّي عتيق، بحوافّ كريستاليّة لامعة، تنعكس عليها الأضواء المُتساقطة من الأسقف البعيدة فتتوهّج، لم تكن الكتب حينَ كتبها مؤلّفوها تتمتّع بهذه الرّفاهية الباذخة، إلاّ إذا كانت من ذلك النّوع الّذي كتَبَه رِجالُ أعمالٍ بأقلامٍ من ذهب!

على جداريّة قِماشيّة نقشوا أبياتًا من الشّعر العربيّ الخالد،

بالحرف العربيّ السّاحر، بعض هذه الأبيات:

لَسْنا وإنْ كَرُمَتْ أوائِلُنا

يومًا على الأحسابِ نَتَّكِلُ

******

بلادي وإن جارتْ عليّ عزيزةٌ

وأهلي وإنْ ضَنُّوا عليّ كِرامُ

هذان البيتان ومجموعةٌ أخرى من الأبيات الخالدة مُطرَّزةً على سجّادةٍ من الصُّوف يزيد طولها عن عشرةِ أمتار في صدر قاعة اجتماعات رجال الأعمال. جميلٌ أن يجلسَ اقتصاديٌّ على كرسيّ المال الوثير يتحدّث وأرواحُ الشعراء الذين أثْرَوا الإنسانيّة تُرَفرفُ خلفه!

سجّادة الصّوف مُطرّزًا عليها أبيات خالدة من الشّعر العربيّ في الصّندوق العربيّ للإنماء الاجتماعي، الكويت ٢٠١٦م

ذكرياتي كذلك مع مكتبة عبد الحميد شومان في الأردنّ لا تُنسى، كنتُ آتيها بالمواصلات من إربد وأنا طالبٌ في الثّانويّة لأستعير من كتبها، سجّلتُ عضوًا فيها عام 1988م على ما أذكر، لم تكنْ في موقعها الحالي في جبل عمّان ما بين الدّوار الأوّل والثّاني قُبالة السّفارة العراقيّة، بل كانتْ في أوّل الشّميساني من جهة الشّرق قريبةً من جبل اللّويبدة إذا

لم تختّي الذّاكرة. وكانت الاستِعارة بالطّبع بالبطاقة الورقيّة الّتي تكون داخل مغلّف سميك مُلصقٍ على بطن الغلاف الخلفيّ من الدّاخل. لي معها ذكرياتٌ لاحقة، لجأتُ إليها في المرحلة الجامعيّة الثّانية، شكّلت كُتُبُها أحد المسارات المهمّة في حياتي، وحضرتُ عشرات النّدوات الّتي تُقيمها في قاعاتها، وكتبي موجودةً فيها لليوم، وحصل أنْ تكون الأكثر استِعارةً فيها غير مرّة.

أمّا مكتبة أمانة عمّان، فقد سجّلت عضوًا فيها متأخّرًا. أفادتْني في الكتب القديمة الّتي لم تعدْ موجوةً في غيرها، حدثَ ذلك معي وأنا أُعِدّ العُدّة لرواية (أرض الله)، ولأنّ موضوع الرّواية هو العنصريّة والعبوديّة، فقد كنتُ أريدُ كتبًا تتحدّث عن تاريخ أمريكا السّياسي والاجتِماعي بين عامي (1760- 1860م) وهي الفترة الّتي عاشَ فيها بطل الرّواية، وفي الحقيقة لم تسعفني مكتبات جامعاتنا الأردنيّة ولا غيرها في هذا الشّأن، وأسعفتْني هذه المكتبة.

في عام 2019م اشتروا خمسين نسخةً من رواية (أنا يوسف)، من أجل أنْ يناقشوها مع العاملين في المكتبة بحضوري. كانتْ مدير المكتبة مشكورةً تريدُ أنْ تجعل التّقاشيّة في مركز الحسين الثّقافي في المبنى الرّئيسيّ

للأمانة، وأنا أعرفُ أنّه وثيرٌ وجميلٌ وأنيقٌ ومُجهّز من كافّة النّواحي، غير أنّني طلبتُ منها أنْ تجعل التّقاشيّة في المكتبة نفسِها، وإذا كان بالإمكان في قاعة المراجع لأنّها تضمّ أقدم الكتب الموجودة في الأردنّ على الإطلاق، وقد استجابتْ لي، وكان الجلوس بين رفوف الكتب الّتي تحوي فيما تحويه على سبيل المثال الأعداد الأولى لمجلّة المقتطف الّتي صدرتْ عام (1876م) من أمتع الجلسات، للمكانِ سِحرُه!

في مكتبة أمانة عمّان، مناقشة رواية (أنا يوسف)، آب ٢٠١٩م

في مكتبة أمانة عمّان، مناقشة رواية (أنا يوسف)، آب ٢٠١٩م

مكتبات أوروبا:

على نهر السّين وقريبًا من كاتدرائيّة (نوتردام) المُدهِشة والّتي داهَمَها للأسف حريقٌ كبير في إبريل عام ٢٠١٩م، أقول: كانت هناك أكشاك كثيرة لبيع الكتب، كانوا يصطادون السّائحين العرب أكثر من غيرهم، إنّهم يعرفون أنّ بعضَهم

معه مالٌ كافٍ ليشتري كتابًا عمره مئتي عام بألفِ دولار، السّعر بالطّبع مُبالغٌ فيه، إضافةً إلى أنّه ليسَ من السّهل أنْ تكتشف ما إذا كان الكتاب نُسخةً أصليّة أم مُقلّدًا. مع كلّ هذه المحاذير، فقد بقيث أمام هذه الأكشاك أتصفّح الكتب القديمة المطبوعة بالفرنسيّة أو المكتوبة بخطّ أصحابها وأساومُ على أثمانها لأكثر من ساعتَين، كانت الكتب بعضُها للكتاب المُقدّس، وبعضُها أشعار فولتير، وأخرى في الأدب، وجميعها مطبوعة أو مخطوطة بالفرنسيّة، وأنا لا أعرفُ من الفرنسيّة شيئًا، ولا أدري لماذا وقفتُ هذه الوقفات الطّويلة من أجلِ شِرائها؟ أهو الهوس بمنظرها السّاحر، بلون ورقها، بكعوبِ تجليدها، وبذلك الخطّ الأنيق المُحبّر على صفحاتها؟ لا أدري. مثلُ ذلك يُقال لمثل هذا الوقوف وقفْتُه في شارعٍ لم أعدْ أذكر اسمه في غرناطة في إسبانية يعجّ بالمكتبات الّتي تتراكم على أبوابها وفي أرففها كتب قديمة قد علاها الغبار، وكانت بالإسبانية، وأنا لا أعرف من الإسبانيّة حرفًا، ومع ذلك بقيتُ أجول فيها حتّى ملّني مَنْ كان معي.

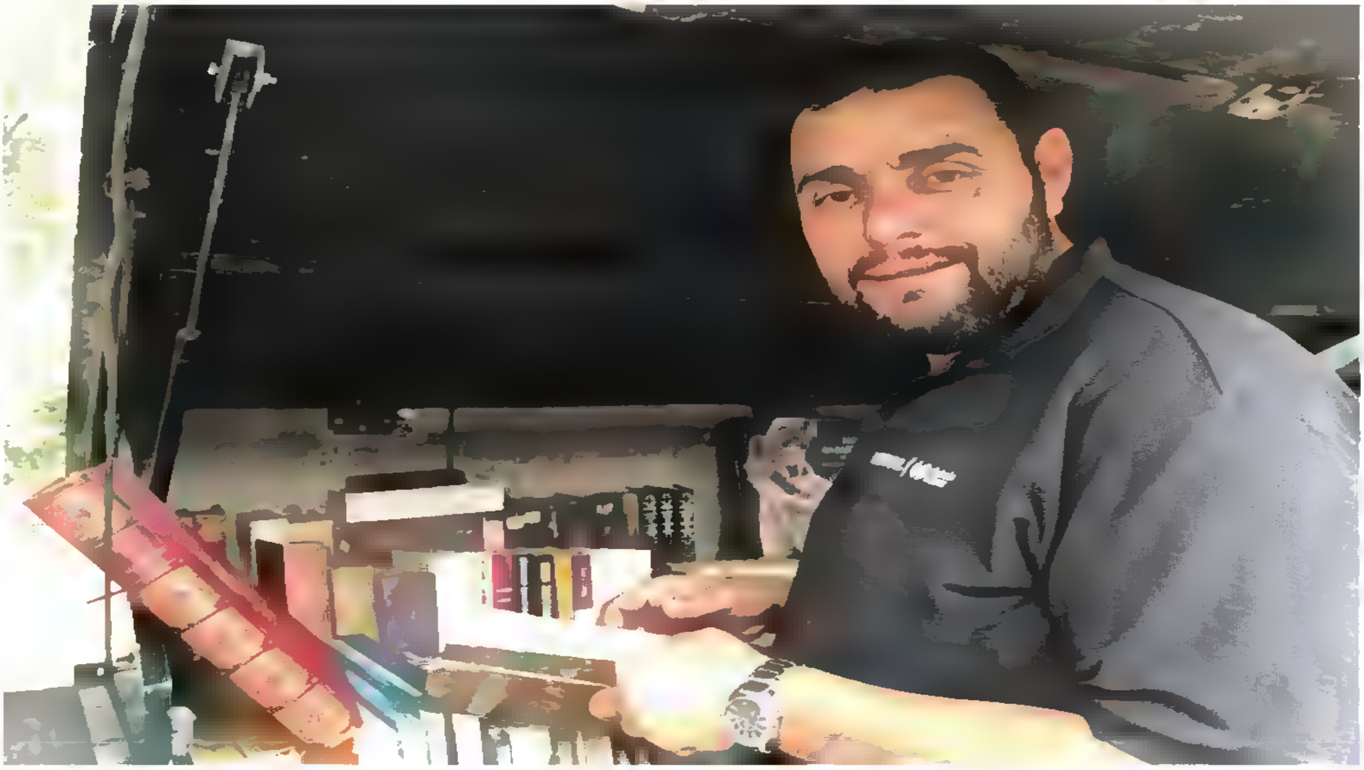

في أحد الأكشاك على نهر السَين قريبًا من كاتدرائية نوتردام، فرنسا تموز ٢٠١٨م

في إحدى مكتبات غرناطة الّتي تبيع الكتب القديمة

أثناء زيارتي لألمانيا في صيف عام ٢٠١٨م، توجّهت من

(تروسنجن) حيث أقيم إلى فرايبورغ، كان الهدف زياة الجامعة، وزيارة مكتبتها، المكتبة المُطلّة بنوافذها الزّجاجيّة الواسعة على ساحاتٍ فسيحةٍ يركز فيها الطّلبة القادمون إليها درّاجاتهم الهوائيّة كانت تضمّ قسم الدّراسات الشّرقيّة، أقمتُ فيه سحابة ذلك اليوم، كان شبهَ خالٍ؛ لم أرَ طَوال وجودي فيه إلاّ واحِدًا أو اثنين مرّوا مرورًا عابرًا، كانت المكتبة تضمّ تلك الكتب الّتي جاؤوا بها من مصر ومن لبنان أكثر من غيرهما، كان فيها كتبٌ قديمةٌ نسبيًّا، لكنّ أكثرها كان لكُتّابٍ لم أعرفْهم من قبلُ، ولا سمعتُ بهم. كان ذلك مُؤسِفًا بالنّسبة لي، يبدو أنّ ثقافتنا نحن العرب انتِقائيّة، نحن ننتقي من نريد أنْ نقرأ لهم، مع أنّ هذه الانتِقائية أسوأ العقبات الّتي تقف في وجه المعرفة الحقيقيّة، لغرابة أسماء المؤلّفين الّتي قرأتُها على أغلفة الكتب هناك ظننتُ أنّ الثّقافة الّتي يهتمّ بها الغرب غير الثّقافة الّتي نهتمّ بها نحن، وأنّهم ينتقون هم كذلك من كُتّابنا ما يريدون أو ما يحلو لهم، لا أدري الآن إنْ كان لهم كُتّابهم الخاصّون أو أنّ هناك مَنْ يكتبُ من أجلهم فقط.

في زيارةٍ لاحقة، سافرتُ إلى (شتوتجارت) من أجل زيارة مكتبتها، إنّها مكتبتها العامّة الفخمة الحديثة الجميلة الأنيقة، كانتْ بيضاء نقيّة، تغوص رفوفها النّاصعة في النّور، وتلوّن

أغلفة الكتب ذلك البياض وتُوشّيه، كان النّهار بطوله لا يكفي للمسِ كتبها أو التّمتّع بالنّظر إليها، كيفَ يُمكن أنْ تتنقّل في ردهات متعدّدة وقاعات متنوّعة ترتفع لتسعة طوابق؟! لقد لهثْتُ في أروقتها ودرجها وأنا أتابع الخطو لكي لا تفوتني حسناء واحدة من هذه الحِسان الجميلات ولو بالنّظر فقط!

في مكتبة فرايبورغ في ألمانيا وبعض كتبها العربية

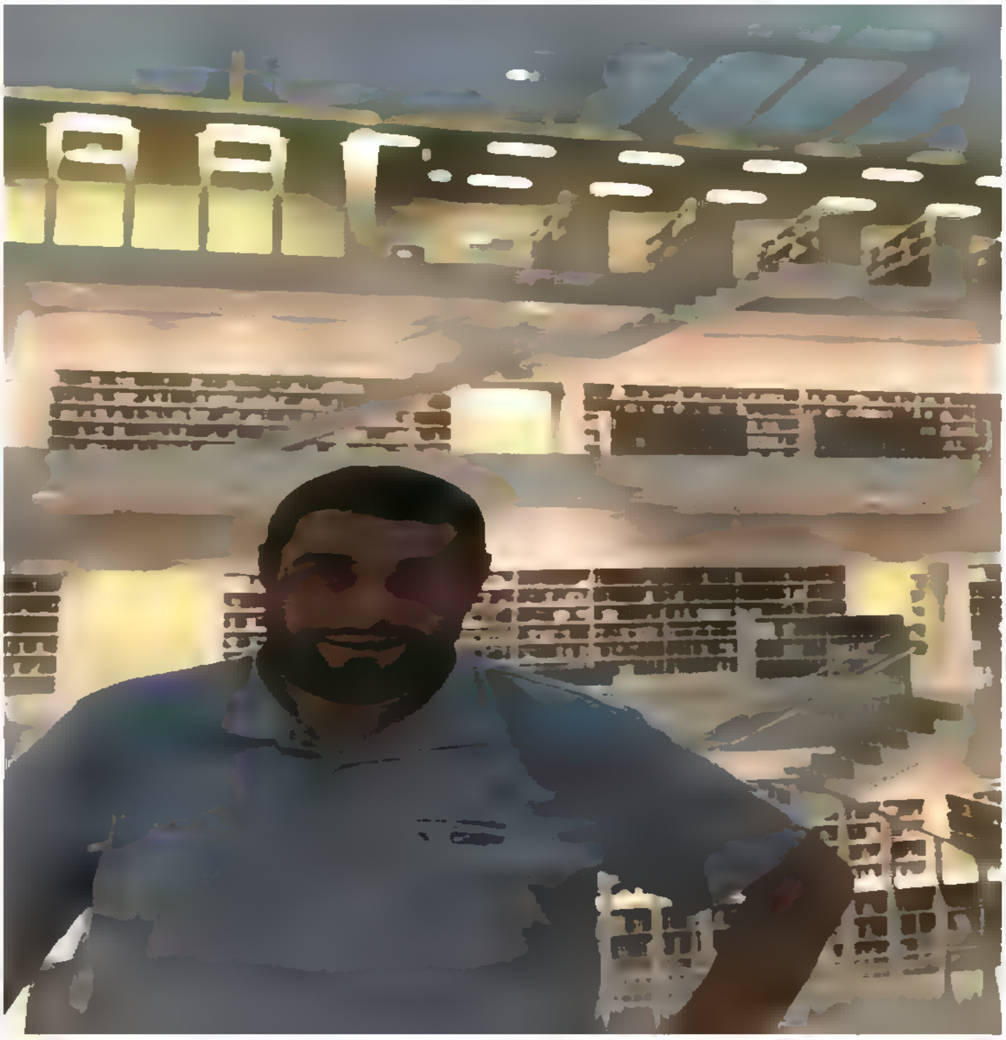

في مكتبة شتوتجارت، ألمانيا، آب ٢٠١٨م

لاحقًا في فرنسا، لم تفتْني زيارة متحف (فيكتور هيجو)، أديب فرنسا الأكبر، شاعرٌ ابتِداءً ثُمّ روائيّ عظيم، هكذا هم الشّعراء الّذين يُصبحون روائيّين. رواياته هي الّتي أزالت طبقةً من الغبار السّميك عن مشاعري في فترة الرومانسيّة إذا جازَ التّعبير، أدباء هذه الفترة يتمتّعون بقدرةٍ عجيبةٍ على استِدلال الدّموع غزيرةً من عينيك! من الجميل أنْ تتذكّر هيجو حين تزور كنيسة (نوتردام)، لقد زادَتْ روايته (أحدب نوتردام) خلودَها خلودًا، لكنّ الأجمل أنْ تراه، أنْ ترى السّرير الّذي كان ينام عليه، أنْ ترى المكتب الّذي كان يجلسُ إليه، أنْ ترى القلم الّذي كان يكتب به، ودواة الحبر الّتي كان يملأ منها قلمه، أنْ ترى طيفَه في هذه الغرف الّتي تتزيّن بلوحاتٍ

قديمةٍ كانت له فيها، وفيها لوحته هو، حدث ذلك عندما زرتُ مُتحفه. في المتحف كان الشّرطيّ الّذي يقف عند إحدى آثار هيجو يتملّانا نحن العربَ ذوي السّحنة المختلفة، سألنا بالإنجليزيّة اللغة الّتي يمكن أنْ يجتمع عليها أهل الأرض في أيّ بقعة أو صقعٍ من أصقاعها: من أين نحن؟ فأجبتُه إنّني من الأردنّ، وإنّني عربيّ، فاستدرجتْه كلمة عربيّ ليقول لنا معلومة ربّما كان يرى أنّها ستُسعِدنا لو نحن عرفناها، لكنّه لم يدرِ أنّها أحزنتْنا أكثر مِمّا أسعدتْنا، قال : «إنّ هيجو أيّام حكم فرنسا للجزائر، ذهبَ مرّة إلى هناك من أجل أنْ يعمل على ترجمة كتبه إلى العربيّة، لقد كان يُؤمن بالعربيّة وكان في حلمه أنْ تترجم كتبه إليها». لا أدري هل القصّة موثّقة في مذكّراته أو في أحد الكتب الّتي تحدّثت عنه، غير أنّ هذا ما سمعتُه من أحد العاملين في ذلك المتحف. وكأنّه كان يريدُ أنْ يقول إنّنا كغرب كنّا نسعى بشغفٍ أنْ نترجم أعمالنا إلى العربيّة، مثلما أنتم العرب اليوم تسعون بشغفٍ أنْ تُترجم أعمالكم إلى اللّغات الغربيّة.

من أمام متحف فيكتور هيجو

من داخل متحف فيكتور هيجو

المكتبات والقُبور:

وصلتُ السّاعة السادسة مساءً يومَ الخميس ٢٥-٤-٢٠١٩م إلى مطار (كوبنهاجن)، استغرقت الرّحلة من عمّان إلى كوبنهاجن خمس ساعاتٍ إلاّ ربعًا. في المطار لفتَ انتباهَ موظفة الجوازات الكتابُ الّذي كنتُ أحمله بين يديّ، سألتني عنه، قلت لها إنه رواية لديستويفسكي. فابتسمتْ ابتِسامةً واسعة، ثم لمّا أخبرتها أنني روائي زاد احتفاؤها بي، ورحّبتْ بي ترحيبًا كبيرًا. من الجميل أن تجد وأنت المُسافرُ العابرُ

هذا الترحاب الودود من مُوظّفة لا تعرفها ولا تعرفك؛ فقط لمجرّد أنك كاتب!

التقاني في المطار شخص اسمه عمرو، ركبنا معًا قطارًا يقطع (الدنمارك) إلى (السّويد) في حوالي ربع ساعة، ذلك أن المسافة بين كوبنهاجن التي نزلت فيها ومالمو التي نقصدها لا تزيد عن (٣٠) كم. بالطبع عبرنا بين بلدين دون تفتيش ولم يطلب أحدٌ منّا جواز السّفر أو أيّ إثبات هُويّة. جزء من المسافة المقطوعة كانت تحت الماء في أنفاق لا ترى فيها من البحر شيئًا. وصلتُ مع عمرو من محطة القطار عبر سلالم كهربائية إلى موقف التاكسي، كانت هناك (رغدة) و(آلاء) بانتظارنا في سيارة كبيرة، وتحركنا باتجاه الفندق الذي لا يبعد أكثر من عشر دقائق بتلك السيارة الحديثة. أرحتُ قليلاً في فندق (Garden)، ثمّ نزلتُ إلى (اللوبي) وكان عمرو لا يزال ينتظرني وانضمّتْ إليه فتاة اسمها (سارة)، وذهبنا جميعًا في جولة للتعرف على مدينة (مالمو)، وتغدينا في مطعم تركي اسمه (sultani) وكان يُعِدّ (بوفيهًا) لذيذًا.

بعد ذلك ذهبنا إلى مقهى وتناولت فيه القهوة التركية لكنني لم أستسغ مذاقها وخاصة أنني خبير بعض الشيء بالقهوة، وانضمّتْ إلينا في المقهى من بَعدُ (رغدة) وآلاء، وحدّثتُهم

جميعًا عن بعض قصص القهوة، وبعض القصائد عن المنفى كقصيدة أحمد مطر، وبعض القصائد التي تُعرّف الوطن كقصيدتَي السياب وأحمد مطر، خاصة أنّ (آلاء) ذات الجذور الفلسطينيّة كانت قد عاشت في أكثر من خمسة أوطانٍ أو ستّة ليس من بينها وطنها الأم. وحدثتهم كذلك عن قصائد الموت عند طَرَفة والشّابي والمُتنبّي وغيرهم، ولا أدري لماذا يحضر الموت حينَ يحضر الشّعر؟! ولو كنّا في مجلسٍ غير هذا لوجدتُ تفسيرًا لما يخطر في بالي.

انطلقنا بعدها في جولة ليلية، رأينا فيها برج مالمو، ووقفنا على الشاطئ الساحر القريب منه، ورأينا كذلك مكتبة مالمو وكانت مَهيبة، ولكنّنا رأيناها بهيبتها تلك من الخارج فخفق لها القلب، وطلبتُ منهم أن يُمكّنوني من زيارتها وهي مفتوحة فوعدوني بذلك، ورأينا المقبرة القريبة منها، ورأيتُ فيها قبورًا بشواهد ضخمة، فقالوا لي إنّه قبر العائلة فاستغربتُ أنْ يتّسع هذا القبر العاديّ الحجم باستثناء شاهدته لحوالي عشرة موتى من العائلة منقوشةٍ أسماؤهم على تلك الشّاهدة الرُّخاميّة، فأخبروني أنّ ما يُدفن هنا في هذا القبر ليس الجثث وإنما الجِرار، فاستغربتُ أكثر؛ فقالوا إنّهم يحرقون جثّة الميّت ويضعون رماده في جَرّة، وتُركن الجرّة إلى جانب أخواتها في هذا القبر، وزاد ذلك أيضًا من

عجبي فلم أكنْ أعلم أن الأوربّيين يحرقون جُثث موتاهم، وكنت أعتقد أن الهنود هم وحدهم من يفعلون ذلك!

في مساء اليوم التّالي في السّاعة السابعة والنّصف دُعينا إلى مبنى البلديّة الرسميّ لتناول العشاء، الّذي أقامه عُمدة (مالمو) للضّيوف المشاركين في معرض الكتاب العربي، المبنى تاريخيّ ربما يعود بناؤه إلى أكثر من ثلاثمئة سنة، فِي المدخل وأنت تصعد الدرج إلى قاعة الطعام الفسيحة يستقبلك أحدهم ليتأكّد من وجود اسمك ويُوجّهك إلى رمز الطاولة التي يجب أن تجلس إليها؛ إذ إنّ كل شخص له طاولة خاصة، وهناك طقوس وبروتوكولات في الدخول؛ تستقبلك إحداهنّ تُرشِدك إلى المكان الذي تخلع فيه سُترتك، أو ما تحمل من أغراض لكي تدخل إلى قاعة الطّعام مرتاحًا.

على باب القاعة الرّئيسيّة من الخارج يستقبلك رجل وامرأة يحملون طبقًا فيه كؤوس شراب بلّوريّة تترجرج بما فيها، تذكّرتُ ما قاله في مثلها حسّان:

إنّ الّتي ناولْتَني فرددُتها

قُتِلت، قُتِلْتَ فهاتِها لم تُقتَلِ

بزُجاجةٍ رقصتْ بما في قَعْرِها

رَقَصَ القَلوصِ براكبٍ مُستعجِلِ

كلتاهما حَلَبُ العصير فَعاطِني

بِزُجاجةٍ أرخاهُما للمِفْصَلِ

إذا قلت لهما إنّك مُسلم، يلتفت الرجل بجذعه إلى الوراء ويناولك (كأس المسلمين) الكأس الّتيي لا تحتوي كحولاً!

القاعة قديمة من طرازٍ مَلَكيّ عتيق؛ فسيحة، وعلى جدرانها في الأعلى لوحات للملوك الذين تناوبوا على حكم السُّويد، وفِي طبقة تحتهم تنتشر صور الأمراء، وفِي صدر القاعة الأعمق هناك لوحة ضخمة تتوسّط الجدار تبدو احتفاليّة وقد أخذت صورة معها.

في قاعة بلدية مالمو، السويد ٢٠١٩م

أمام قاعة بلدية مالمو، السويد ٢٠١٩م

في ظهر اليوم الثّالث، عبرتُ باتّجاه المكتبة، قبل أنْ ألجَ ساحاتها الأماميّة، انفتلتُ يسارًا لأزور المقبرة. المكتبات والقبور هما المكانان الحقيقيّان في هذا العالَم المُزيّف، كأنما يحتفظون في المكتبة بعقول البشر، ويحتفظون في المقبرة بأجسادهم أو ما تبقى منها! هذا ما أعتقده؛ ولهذا أسعى في

كلّ بلدٍ أزروه أنْ أذهبَ إليهما!

عدد مكتبات (مالمو) ثلاثَ عَشْرةَ مكتبةً؛ الرّسميّة على رأسِها، التقيتُ مديرها على عشاءٍ رسميّ، وسألني إن كانت إحدى رواياتي قد تُرجمت إلى الإنجليزية؛ فقلت له إن رواية ذائقة الموت في طريقها إلى ذلك، فقال لي: إنه سيشتريها ويقرؤها؛ شجّعتْني هذه الكلمة البسيطة على الإسراع في العمل حثيثًا من أجل ترجمة أعمالي إلى اللغات الأخرى.

حينَ خرجتُ من المكتبة، تنفّستُ عميقًا، خطوتُ خطواتٍ قلائل باتّجاه المقبرة من جديد، يفصل بين المقبرة والمكتبة شارعٌ فضّيٌّ واحدٌ، يُشبه نهرًا من الجليد يستقرّ هذان المكانان الحقيقيّان على ضِفّتَيه.

أمام مكتبة مالمو
وداخلها، السّويد، ٢٠١٩م

رحلات وجدانيّة:

كان أبي يفعلها، يمزج التّاريخ بكلامٍ يسيلُ من فمه عسلاً،

غير أنّه كان غامِضًا بالنّسبة لذلك الّذي يتهجّى الحروف. ما زلث ألثغ وأخلطُ الحروف، ويتداخل أوّلها بآخرها حينَ هبطَ بي إلى الكرك، وإلى مزارات الصّحابة في مؤتة، ثُمّ ارتفع ثانيةً إلى القلعة، ثُمّ جاء بي إلى الأزرق، في الموماة الّتي يضلّ فيها الخِرّيت، وفي المَهمَه الّذي يتراقص فيها السّبسب، طفلاً لا أكادُ أعي ما يجري، غير أنّ حجارة مسح التّاريخ بيده عليها كانت هي الّتي تفتحُ لي ذراعيها، وحينَ كانث تُعرِض عن الآخرين، كانث تُقبِلُ عليّ.؟.. هل يُمكن أنْ تسمع التّاريخ ينطق، هل يُمكن انْ تراه يتجسّد؟ هل يُمكن انْ يجلس إليك ويُسامرك، ويهمس في رِئتَيك الباردتَين بسِرّه الشّفيف وسِحره الغامض... هذا ما كان يحدثُ لي وأنا في تلك السّنّ؟ ألهذا صرثُ أتّخذ من هذا التّاريخ صديقًا في رواياتي وأشعاري، أمنْ أجل هذا جمعته في صفحةٍ واحدةٍ حينَ قلت:

ما عادَ فينا يا عليُّ مُحكِّمًا

أفلسْتَ ترجعُ كي تكونَ لنا الحَكَمْ؟!

إنّي أُعيذُكَ فالخوارج لم تزلْ

لليومِ تُقسِمُ ثُمّ تحنثُ بالقَسَمْ

وهبطَ أبي بي إلى أبي عبيدة، ومعاذ، وابن الوليد، ثُمّ صعد بي إلى بلال، وابن عوف، وأصحاب الكهف، وابن الأدهم... وسار بي الدّروب الّتي سارَها الفاتحون الأوائل، وغمر أصابعه الطّاهرة في التّراب، ثُمّ رفع به كفّه اليُمنى فَسَرَى إليّ ذلك النّسيم بعبق الشّهادة فسكن جسدي. إنّني اليوم مَدينٌ لتلك الرّحلات بكلّ كلمةٍ سارت على الدّروب المُقفِرة يومَ أعشبت بخطوات الخالدين!

أكان أبي يدري أنّ تلك الرّحلات الّتي اصطحبني إليها وأنا بين الخامسة والثّامنة هي الّتي زرعت فِيّ حُبَّ هذا الوجه الملائكيّ الّذي لا يبدو لكثيرين إلاّ وجهًا شيطانيًّا؟! لم أكنْ أعرفْ من هذا الوجه غير نشيده ونشيجه، وأمّا سواده وعويله فقد تركتُه لغيري؟! أكان أبي يدري ما يجري في دمائي وأنا أمرّ بتلك الشّواهد الغابرة الّتي لا تزال حَيّةً بنداء من غادروها وتركوا خلفهم أرواحهم تعزفُ في دمي لحنًا سماويًّا خالِدًا؟!

مع أبي وأحد طلابه في جامعة اليرموك. أمام قبر جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه في جنوب الأردن، ١٩٨١م

مكتبة الأَسرى:

في الجنوب الطّاهر قريبًا من خُطوات مُوسى في التّيه، وآهاتِ يُوسفَ في البِئر، وأنفاسِ يعقوبَ في اللّقاء، تقع سجون الاحتِلال، سجن النّقب الصّعب، وسجن (نفحة) الصّحراويّ الأشدّ صعوبةً. داخل السّجن أمام السّجين خياران لا ثالث لهما في ظلّ انعِدام الخيارات في الانحِباس القسريّ، إمّا أنْ تختار الحياة وإمّا أنْ تختار الموت، فأمّا الموت فتختاره بالعزلة والانفِصال عن مجتمع السّجن والبقاء في غرفة انفراديّة، أو تبني حولك جُدرانَك فتعيشَ داخل قوقعتك الخاصّة، فلا يكون للموجودين معك وجود، إذْ إنّ سريرَكَ وصحنَكَ وملابسكَ وغِطاءَك يُصبحان عالَمَك، فلا وجه تُحادثه، ولا صديق تُسامره، ولا تعود تتقبّل أنْ يقتحم

أحدّ حياتك ألبتّةَ. في السّجن أنا أسمّي هذا بالموت. أمّا خيار الحياة، فأقلّه أنْ تصافح يدًا إلى جوارك، أنْ تُشاركه لقمة طعامِك، أن تُلقي عليه التّحيّة ولو مرّة واحدةً في اليوم، أنْ تنظر في عينَين تتقاسَمان معك هذه النّازلة... أمّا إذا أَردْتَ أنْ ترتفع بالحياة إلى منزلةٍ أعلى فتُهرَع إلى الكتاب، تقرأ. ولكنْ ماذا لو لم يكنْ في السّجن مكتبة؟ تلك ستكون للّذين يختارون طريق الحياة أقسى المصاعب الّتي قد تَحِيق بهم. كانت بعضُ سجون الاحتِلال من هذا النّوع، فلا كتب، ولا مكتبة، ولا استعارة، ولا إعارة... فكان السّجناء يُهرّبون الكتب، ويتحايلون على ذلك بألف طريقة، أقلّها أنْ ترشو السّجان الإسرائيليّ ببعض الشّيكلات. ولكن مع هذا التّهريب تُصبح قيمة الكتاب أكبر، إنّ الكتاب هنا نادرٌ وثمينٌ، ولم يدخل بسهولة، وليسَ له ثمنٌ واحدٌ، لقد كلّف شراؤه ثمنًا، ونقلُه ثمنًا ثانيًا، وإدخاله سِرًّا ثمنًا ثالِثًا. لكنّ هذه العقباتِ كُلَّها لم تمنع الكتاب من التّسلّل من تحت شقوق الجدران، ومن بين فتحات الشّبك، ومن خلف القيود ليصل إلى مَنِ اختار الحياة بالقراءة.

كانت رواياتي من أكثر الكتب رواجًا في السّجون، ليسَ في سجون فلسطين فحسب، بل في سجون الوطن العربيّ بأغلبه، وذلك شرفٌ لم يَدُرْ في خَلدي يومًا. غير أنّه كان

حقيقةً ناصعة. خفّفت روايتي يسمعون حسيسها الأشدّ إيلامًا من بين رواياتي عن آلام المساجين، كانوا يقولون، بالمقارنة بما في الرّواية سقطَ كثيرٌ من العذاب الّذي نعانيه هنا، إنّ هذه الرّواية كانت رحمةً على قلوبنا، فإنّ مَنْ رأى مُصيبةَ غيره هانت عليه مصيبتُه. جاءَ بعدها في ترتيب التّداول رواية (يا صاحبي السّجن)، ثُمّ انفتحت الطّاقة، فصاروا يبحثون عن رواياتي كلّها، فدخلت إلى السّجون (كلمة الله)، و(حديث الجنود)، و(ذائقة الموت)، ودار الأمر على بقيّة الرّوايات كأنّ بابًا واحِدًا ينفتح لا تُغلَق من بعده الأبواب مهما كثرت!

كان ذلك في عام 2015م حينَ جاءني صوتُه عميقًا كأنّه قادمٌ من الجُبّ: "كيفك يا دكتور؟". "بخير". "أنا أيّوب...". وتوقّف قليلاً قبل أنْ يُتِمّ. وسألتُه: "أيّوب... مَنْ أيّوب؟!". فردّ: "لا يهمّ، أنا سجينٌ في سِجن نفحة الصّحراويّ في فلسطين، وقد أدخلت روايتَيك يا صاحبي السّجن ويسمعون حسيسها بالتّهريب إلى مهجعي، أريدُ أنْ أشكركَ عليهما و...". قاطعتُه: "هل أنتَ تتكلّم معي من داخل السّجن؟". ردّ: "نعم، يُسمَح لكلّ سجينٍ هنا بمكالمةٍ واحدةٍ في الشّهر لمدّة خمس دقائق يحكيها الواحدُ منّا مع أهله... لكنّني أجّلت أهلي وفضّلت أنْ أتكلّم معك لأنّني عشت معك كلّ تفاصيل

رواياتك... أنا...". وتلعثم. شجّعتُه: "تكلّم يا أيّوب.. اؤمرني..." قال: "سمعتُ أنّكَ أصدرتَ روايةً جديدةً هي كلمة الله. هل يُمكن أنْ تبعثَ بنسخةٍ واحدةٍ لي". أجبتُه: "هي لك وقلبي معها كذلك... ولكنْ كيفَ يُمكن أنْ أوصلها لك؟!". سكت برهةً، ثُمّ ردّ: "لا أدري". قلتُ: "سأتدبّر الأمر".

لم يكنْ واحِدًا فحسب؛ كان واحِدًا في كثير، المهجع من حوله كان يستمع، وتصل كلماتُهم الودودة إليّ. على الفور اتّصلتُ بأحدِ الّذين أعرفهم في الضفّة: "أنا أسمحُ لكم بطباعة ما تشاؤون مئة.. مئتين.. ألفًا من رواية كلمة الله، وتقومون بتوزيعها جميعها دون مقابل، على شرط أنْ تصل إلى أيّوب في سجن نفحة نسخة منها". فعلوا ما قلتُ لهم.

بعد شهرين من تلك الحادثة، جاءَني صوتُه عميقًا على عادته: "أنا أيّوب... وصلتْ رواية كلمة الله... ولقد وضعتُ جدولاً لإعارة رواياتك للسّجناء هنا..." وضحك قبل أنْ يُتمّ: "بعضُهم لن يأتي دوره قبل أربعة أشهر...". دمعتان صامِتان حارّتان سقَطَتا على خدّيّ. شردتُ في البعيد، أيقظني صوتُه العميق: "هل من جديد؟". سألتُه إنْ كان أحدٌ من طرفِه يُمكن أنْ يصل إلى الأردنّ؟ ردّ: نعم. قلتُ: "دعه يتّصل بي، وأنا سأقوم بما ينبغي القيام به".

جاءتْني بعدَ شهرٍ فتاة، عرّفت عن نفسِها أنّها من طرف السّجين أيّوب، قلتُ لها هل يُمكن أنْ تحملي على الجسر كرتونة من الكتب؟ ردّت متشكّكةً: "قد أستطيع". "عليكِ أنْ تفعلي. وعليكِ أنْ تأتيني كلّ شهرٍ أو شهرَين مرّة، لقد وعدتُ أيّوب أنْ أؤسّس معه مكتبةً في السّجن، وسيكون قيّمًا عليها، وعلى شؤون الاستِعارة منها". حمّلتُها في ذلك المساء حوالي عشرين كتابًا في أمورٍ مختلفةٍ في الفكر والفلسفة والعقيدة والتّفسير، إضافةً إلى كتبي... لم ينقطع الخيطُ بعدَها، ظلّت تأتيني على مدار أربع سنوات، لقد حملت على الجسر مكتبةً هديّةً منّي إلى سُجناء نفحة، السُّجناء الأجمل، الّذين كانوا يتلقّون الكتب كما تتلقّى الأرض العطشى الماء العذب. لقد كان ذلك من أشرفَ المهمّات الّتي قُمتُ بها في حياتي.

ولقد قلتُ فيهم:

تَيَمَّمُوا مِنْ تُرابِ الطُّهرِ وَاتَّسَقُوا

طُيورَ عِشقٍ، ومِنْ مَاءِ الغَمامِ سُقُوا

وقاتَلوا اللّيلَ مَزْهُوًّا بِظُلْمَتِهِ

وَحَطَّمُوا القَيْدَ فوقَ القَيْدِ، وَانْعَتَقُوا

ما ضرَّهُمْ في رَبيعِ العُمْرِ أَنْ سُجِنوا

فَالبَذْرُ رَغْمَ سَوادِ اللّيلِ يَأْتَلِقُ

أسودُ غابٍ إذا غابُوا وإنْ حَضَرُوا

يَشِيعُ مِنهُم بِقَلْبِ الغاصِبِ الفَرَقُ

لا السِّجنُ باقٍ، ولا السّجّانُ يا وَطَني

ولا الدُّموع، ولا الآهاتُ والحُرَقُ

لأَجْلِ عَيْنَيْكَ تَفْدِي الرُّوحُ آسِرَها

لوْ لمْ يَظلَّ بِها مِنْ ذَوْبِها رَمَقُ

كانوا يَبِيتُونَ في لَيلِ السُّجونِ رِضىً

مِثلَ النُّجومِ بِأَهْدابِ السَّما اعْتَلَقُوا

أَدْماهُمُ القَيْدُ لَكِنْ ظَلَّ عاشِقُهُمْ

فِي اللّيلِ يَحْدُو إلى أَنْ ضَوَّأَ الفَلَقُ

كُتُب تَحترِق:

أبشع جريمةٍ يُمكن أنْ يرتكبها الإنسان هي حَرْقُ كتاب، إنّ قتلَ نفسٍ بشريّة أهونُ عندي من حرقِ كتابٍ، لأنّ قتلَ النّفسِ يُمكن إحياؤها بقتل القاتل، أمّا حرقُ الكتاب، فهو قتلٌ لكلّ الأرواح الّتي أسهمث في إخراجه إلى حيّز الوجود، وهو إعدامٌ للمعرفة الّتي تقتلُ مِن ورائِها جيلاً بأتمّه أو أمّة بأكملها بالجهل، لكنّ الإنسان الّذي قتلَ كلّ شيءٍ وَجَدَه في حياته، لم يكتفِ بذلك، فامتدّث يده لقتل الكتب بالحرق، وفي التّاريخ من الأحداث المؤلمة في ذلك والمُخزِية معًا ما يندى له جبينُ الإنسانيّة. لقد قال الشّاعر الألماني (هاينرش هاينه) ذلك من قبلُ: «عندما يُقدِمون على حَرْقِ الكُتُب، فسيؤول الأمر بهم أيضًا إلى حَرْق البَشَرِ أنفُسِهم».

إنّ حرق الكتب مُعضلة تاريخية، خطأ الإنسان الأبشع،

وصورته القبيحة الأكثر انطِباعًا في الذّاكرة لم يسلم منه زمنٌ ولا حُكمٌ ولا مَنْ كان تباهي بهمجيّته أو ذلك الّذي ادّعى تمدّنه وتحضُّرَه.

حينَ سطا الرومان على مصر في نهاية القرن الأول قبل الميلاد، قرّر يوليوس قيصر أن يدمر الأسطول المعادي الموجود في ميناء الإسكندريّة، فأشعلَ فيه حريقًا كبيرًا، ولكنّه بدل أنْ يحرق الأسطول وحده انتشر إلى أبعد مكان، وانتقلت النيران بسرعة البرق فوق السطوح والجدران، فأكلث مكتبة الإسكندرية الكبرى عام ٤٨م فيمن أكلث.

أمّا مكتبة القسطنطينية الّتي أسّسها الإمبراطور قسطنطين الكبير عام 330م، فقد كانت ضخمة وغنية بالكتب، ابتدأث بـ (7) آلاف كتاب، ووصلت بعد مئة عام من تأسيسها إلى (120) ألف كتاب، وكانث عام 475م أكبر مكتبة في العالم آنذاك. ولكن حين تولّى السُّلطة (بازيليسكوس)، لم تدمْ سلطته لضعفِهِ إلاّ بضعة أشهر، وانتهت بالفوضى واندلاع الشغب في الشوارع، فاندلعتِ النّيران في المدينة وأتث فيمن أتث على المكتبة، وحوّلثها إلى ركام من الأنقاض.

أمّا الحرق الأشهر في تاريخنا الإسلاميّ للمكتبات فقد تمّ

على يدِ المغول، ففي أواسط القرن الثالث عشر، كانت توجد (36) مكتبة كبرى في العاصمة العباسية وحدها، أشهرها بالطّبع (بيت الحِكمة)، وحين هجمت عليها عصابات هولاكو واستباحتها، أقدمت على حرق مكتبات بغداد كلّها، ورمت خلال أسبوع في نهر دجلة عددًا مَهولًا من الكتب، لدرجة أنّ قُوّات المُشاة من الجنود والفرسان اتخذتها جسرًا تمرّ عليه، وأصبحت مياه النّهر سوداءَ قاتمة بسبب ذلك الحبر الأسود، إذْ كان هو المِداد الّذي تُحبّر به الكتب. ولقد قال الشّاعر في ذلك:

فَمَا زَالَتِ القَتْلى تَمُجُّ دِمَاءَها

بِدِجْلَةَ حتَّى مَاءُ دِجْلَةَ أَشْكَلُ

لم يتوقّف الأمر على هذه المكتبات الكُبرى، فقد وقعت مثل هذه المصائب في مكتباتٍ تنفلت من الحصر، فلم تسلم كتب اليهود في الأندلس حينَ آل أمرها إلى المسيحيّين أيّام محاكم التفتيش، وكان حرق البشر يتمّ أحيانًا في نيران تُغذّى بالكتب بدلاً من الحطب، فقد قال ذلك (فولتير): "في عصر محاكم التّفتيش، كانت تُصلى بالنار أجساد الرجال والنّساء أكثر مما يجري من حرق للمكتبات".

وإذا قفزْنا عن حرق عشرات المكتبات في العصور الوسطى وما بعدها أو المِئات منها وانتقلنا إلى ما تلا القرن الثّامن عشر الميلاديّ، الّذي يُفترَض أنْ يكون الإنسان فيه يتّسع برأي أخيه الإنسان أو لنقلْ إنّ الإقدام على حرق الكتاب في عصور التّنوير والنّهضة كما يُطلَق عليها سيكون أمرًا مُستهجَنًا وباعثًا على السّخرية أكثر من تصديقه. غير أنّ الواقع والتّاريخ يقولان غير ذلك، فقد استمرّ حرق الكتب حتى اليوم، فمكتبة الكونجرس الأمريكيّ الأشهر اليوم على مستوى العالَم، والّتي أُنشِئت عام 1800م وحصلت على أوّل دُفعة من الكتب من لندن تمثلت بـ (٧٤٠) عنوانًا، أقدمَ الجيش البريطانيّ في ٢٤ أغسطس ١٨١٤م على إضرام النّار فيها، وأعدم بذلك ثلاثة آلاف كتاب، وهو كلّ ما كانت تحتويه المكتبة!

وعندما اندلعت الحرب الفرنسيّة البروسيّة في أغسطس ١٨٧٠م، وأُجبرت مدينة ستراسبورغ الفرنسيّة على الاستسلام بعد سقوط (١٩٣) ألف قنبلة بروسيّة عليها، احترقت المكتبة الفرنسيّة عن بكرة أبيها، وتحوّل ما بداخلها من (٤٠٠) ألف كتاب إلى رمادٍ تَذرُوه الرّياح.

أمّا هولوكوست الكتب فقد حدث مساء 10 من مايو

1933م، وبعد وصول هتلر للسُلطة بأربعة أشهر، ففي ساحة دار الأوبرا ببرلين تجمّع وفدٌ كبير من الطلبة الألمان، وكانوا يرتدون لباس اتّحاداتهم ويحملون المشاعل بأيديهم، وجُلبث لهم شاحنات الكتب التي عَدّها النّازيّون مُخالِفة لأيدولوجيّتهم، في تلك الليلة أضرم الطَّلَبة النّيران في أكثر من 25 ألف كتاب من الكتب المنهوبة والمحظورة في احتفالٍ كبيرٍ تضمّن الموسيقى الحيّة والغناء، كان من بينها أعمال كُتّاب ألمان مشهورين أمثال: هينريش مان، وماكس برود، وألبرت آينشتاين، وفريدرك إنجلز، وسيغموند فرويد، وكافكا، وعشرات آخَرين. ومن الكُتّاب غير الألمان أحرقوا كتب كثيرين مثل: فيكتور هوجو، وأندريه جيد، وآرنست همنغواي، وجاك لندن، وهيلين كيلر، وجيمس جويس، ودوستويفسكي، ومكسيم غوركي، وليو تولستوي، وليون تروتسكي،... وآخرين. وألقى الزّعيم النّازيّ (غوبلز) خطابًا مليئا بالكراهية قبل أن يبدأ بنفسه إلقاء أول مجموعة من الكتب في النيران المشتعلة وهو يقول: «ها أنا أُلقي في النّار كُلّ ما هو غير ألمانيّ. ما نفعله هو التّصدّي للرّوح غير الألمانيّة».

أمّا في البوسنة فقد دكّ الصّربيون في 25 من أغسطس 1992م بقنابلهم الفوسفوريّة مدينة فيجكنيكا التي كانت

تحتوي على مكتبة ضخمة ظلت تحترق لمدة ثلاثة أيّام كاملة، ورغم الخطر الكبير كان الناس يخرجون من بيوتهم للمُشاركة في درء المأساة دون جدوى، حيثُ تحوّلت أعمال الشُّعراء والنُّقّاد وكل ما كانت تحتويه المكتبة إلى غُبار هامد.

أمّا أفغانستان فقد ازدهرت فيها المكتبات خلال عقد السّبعينيات، لكنّ مكتبة (كابول) الّتي كانت تضمّ (55) ألفَ كتابٍ دُمّرتْ بالكامل على يد التّنظيمات المُتشدّدة في عام 1996م.

وأمّا مكتبات العراق في أيّامنا هذه فقد تعرّضتْ بعد الاحتِلال الأمريكيّ لها، وسقوط بغداد في أبريل 2003م، للنّهب والحرق والإبادة، فقد تمّ تدمير المكتبة الوطنيّة العراقيّة التي تأسّست عام 1961م في بغداد، وكانت تضم في الثمانينيات ما يقرب من نصف مليون مُجلّد، وعددًا كبيرًا من الدّوريّات والصّحف والكتب النّادرة، وقُدرت مقتنياتها عشيّة الغزو الأمريكي بمليونَي مطبوعة رقميّة، من بينها أكبر مجموعة في العالم من الصحف العربية.

لم يبق من المكتبة الوطنيّة العراقيّة بعدَ الغزو شيءٌ، مجرّد طبقة سميكة من الغبار تتراكم مع الحزن والأسى والشّجن

الّذي حلّ بالبِلاد والعِباد، كما تعرّضت مكتبة الأوقاف الواقعة على بُعد (500) متر من المكتبة الوطنيّة للنَّهبِ والحَرْق في الوقت نفسه.

إنّه تاريخٌ طويلٌ من المأساة، وإنّه لا شيءَ يُفسّر ما يحدث غير نَهَمِ الإنسان - الّذي لا يشبع - للدّمار، وشَهوتِه للقتل، إنّني لا أستطيع أنْ أفهم كيفَ يُمكن أنْ يكون لمنظر الدّماء السّائلة أو النيران الملتهبة أو الكتب المُعدَمة هذه البهجة الكامنة في روحه الشّيطانيّة!!

ولقد يكون لحرق المكتبات من قبل السّلطات العسكريّة أو الجيوش دافعٌ سياسيّ أو اقتِصاديّ، لكنّ السّؤال لماذا يتمّ حرق الكتب من قبل مُؤلّفيها، ومَنْ أفنَوا السّاعات الطّوال في كتابتها، وسكبوا على أوراقها ذَوْبَ قلوبهم؟ لدينا مثال شهيرٌ في ذلك؛ إنّه أبو حيّان التّوحيديّ. كيفَ طاوعتْه نفسُه على إحراق كتبه؟! هل أصابَ عقلَه شيءٌ، أم أنّ لديه ما يفُسّر هذا العمل الغريب؟! هل حلّتْ به كآبة السّنوات الأخيرة من الحياة؟ هل آلمه قلّةُ اهتِمام النّاس بكتبه، أو عدم تقدير السّلطة لفكره وفلسفته؟ أم أنّ في الأمر غير هذا؟ لعلّ إحدى الإجابات الّتي لا نتوقّعها هي إجابته بنفسه عن ذلك حينَ كتب إليه القاضي أبو سهل علي بن محمد يعذله على صنيعه،

ويُعرّفه قُبحَ ما اعتمد من الفعل وشنيعه. فكتب إليه أبو حيّان يعتذر من ذلك: "حَرَسَكَ الله أيّها الشّيخ من سُوء ظنّي بمودّتك وطُول جفائِك، وأعاذني من مكافأتك على ذلك، وأجارنا جميعًا مِمّا سُوِّدَ وَجْهُ عهدٍ إنْ رعيناه كُنّا مُستأنِسين به، وإن أهملْناه كُنّا مُستوحِشين من أجله، وأدام الله نعمته عندك، وجعلني على الحالات كلها فداك. وافاني كتابُكَ غيرَ مُحتسَبٍ ولا مُتوقَّعٍ على ظمأ بَرَّحَ بي إليه، وشكرتُ الله تعالى على النِّعمة به عَلَيّ، وسألتُه المزيد من أمثاله، الذي وصفت فيه بعد ذكر الشوق إلي، والصبابة نحوي ما نال قلبَكَ والتهبَ في صدرك من الخبر الذي نَمَا إليك فيما كان منّي من إحراق كُتُبي النّفيسةِ بالنّار وغَسْلِها بالماء، فعجبتُ من انزواء وجه العُذر عنك في ذلك، كأنّك لم تقرأ قوله جلّ وعزّ: (كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إلا وَجْهَه لَهُ الحُكْمُ وإليه تُرجَعُون)، وكأنّك لم تأبه لقوله تعالى: (كُلُّ مَنْ عليها فانٍ). وكأنك لم تعلم أنّه لا ثبات لشيء من الدنيا وإن كان شريفَ الجوهر كريم العنصر، ما دام مُقلَّبًا بيد اللّيل والنّهار، معروضًا على أحداث الدهر وتَعاوُدِ الأيام، ثم إني أقول: إن كان - أيدك الله - قد نقب خُفّك ما سمعت، فقد أدمى ظِلّي ما فعلت، فَلْيَهُن عليك ذلك، فما انبريتُ له ولا اجترأتُ عليه حتّى استخرتُ الله عزّ وجلّ فيه أيامًا ولياليَ، وحتى أوحى إليّ في المَنام بما بعث راقدَ العزم، وأجد فاتر النية، وأحيا ميّتَ الرأي، وحثّ على تنفيذ

ما وقع في الرُّوع وتريّع في الخاطر، وأنا أجود عليك الآن بالحُجّة في ذلك إنْ طالبْت، أو بالعذر إن اسْتَوْضَحت، لتثق بي فيما كان منّي، وتعرف صنع الله تعالى في ثنيه لي: إنّ العلم - حاطك الله - يُراد للعمل، كما أنّ العمل يُراد للنّجاة، فإذا كان العمل قاصرًا عن العلم كَلاً على العالم، وأنا أعوذ بالله من عِلمٍ عاد كَلاً وأورثَ ذُلاً، وصار في رَقَبة صاحبه علاً - وهذا ضرب من الاحتجاج المخلوط بالاعتذار - ثم اعلمْ علّمكَ الله الخيرَ أنّ هذه الكتب حوتْ من أصناف العلمِ سِرّه وعلانيته، فأمّا ما كان سِرًّا فلم أجد له من يتحلّى بحقيقته راغبًا، وأمّا ما كان علانية فلم أُصِب مَن يحرص عليه طالبًا، على أنّي جمعتُ أكثرها للنّاس ولطلب المثالة منهم ولعقد الرياسة بينهم ولِمَدّ الجاه عندهم فحُرِمتُ ذلك كُلّه، ولا شكّ في حُسن ما اختاره الله لي وناطه بناصيتي، وربطه بأمري، وكرهتُ مع هذا وغيره أن تكون حُجّةً عليّ لا لي، ومِمّا شحذ العزم على ذلك ورفع الحجاب عنه، أنّي فقدتُ ولدًا نجيبًا، وصديقًا حبيبًا، وصاحبًا قريبًا، وتابعًا أديبًا، ورئيسًا مُنيبًا، فَشَقَّ عليّ أن أَدَعها لقومٍ يتلاعبون بها، ويُدنِّسون عِرضي إذا نَظَروا فيها، ويَشمَتون بِسَهوي وغلطي إذا تَصَفَّحوها، ويتراءَون نقصي وعيبي من أجلها، فإنْ قلتَ ولِمَ تَسِمُهم بسوء الظّنّ، وتَقرع جَماعتَهم بهذا العيب؟ فجوابي لك أنّ عِياني منهم في الحياة هو الّذي يُحقق ظنّي بهم بعد الممات،

وكيف أتركها لأناسٍ جاوزْتُهم عشرين سنةً فما صَحّ لي من أحدهم وِداد؟ ولا ظَهَر لي من إنسان منهم حِفاظ، ولقد اضطُرِرتُ بينهم بعد الشُّهرة والمعرفة في أوقاتٍ كثيرة إلى أَكْل الخُضَر في الصّحراء، وإلى التَّكَفُّف الفاضح عند الخاصّة والعامّة، وإلى بَيْع الدِّين والمُروءة، وإلى تعاطي الرّياء بالسُّمعة والنّفاق، وإلى ما لا يَحسُنُ بالحُرّ أنْ يَرسُمَه بالقلم، ويطرح في قلب صاحبه الألم، وأحوال الزّمان باديةٌ لعينك، بارزةٌ بين مسائك وصباحك، وليس ما قلتُه بخافٍ عليك مع معرفتك وفطنتك، وشدّة تتبُّعك وتفرُّغك، وما كان يجب أن ترتاب في صواب ما فعلتُه وأتيتُه بما قدّمتُه ووصفتُه، وبما أمسكتُ عنه وطويتُه إمّا هربًا من التّطويل، وإمّا خوفًا من القال والقيل. وبعدُ فقد أصبحتُ هامةَ اليوم أو غدًا، فإني في عَشرِ التّسعين، وهل لي بعد الكبرة والعجز أملٌ في حياةٍ لذيذة؟ أو رجاءٍ لحالٍ جديدة، ألستُ زمرةَ مَن قال القائل فيهم:

نَرُوحُ ونَغدو كُلَّ يومٍ وليلةٍ

وعَمّا قليلٍ لا نَرُوح ولا نَغْدُو

وكما قال الآخر:

تَفَوَّقْتُ دَرّاتِ الصِّبا في ظِلالِه

إلى أَنْ أتاني بالفِطامِ مَشِيبُ

وهذا البيت للورد الجعديّ وتمامه يضيق عنه هذا المكان، والله يا سيّدي لو لم أتّعظْ إلاّ بمَن فقدتُه من الإخوان والأخدان في هذا الصّقع من الغرباء والأدباء والأحبّاء لكفى، فكيف بمن كانت العين تقربهم، والنفس تستنير بقربهم، فقدتُهم بالعراق والحجاز والجبل والرّيّ، وما والى هذه المواضع، وتواتر إلى نَعْيهم، واستدّت الواعية بهم، فهل أنا إلا مِن عُنصرهم؟ وهل لي مَحيدٌ عن مَصيرهم؟ أسألُ الله تعالى ربَّ الأوّلين أن يجعل اعترافي بما أعرفه موصولاً بنزوعي عمّا أقترفه، إنّه قريبٌ مُجيب".

وبعضُ العلماء والكُتّاب فقدوا كتبهم لعلّة خارجةٍ عن إرداتهم، مثل أنْ تأكلها الأرَضَة، أو يُصيبَها العَفَن، أو تغرقَ بالماء إذا فاض، وأنا فقدتُ جزءًا من مكتبتي بعد يومٍ مطيرٍ شديد المطر، وكانت كتبي في الطّابق السُّفليّ وهو منخفضٌ عن الشّارع مِمّا سهّل دخول الماء إلى المكتبة، فامتلأت أرضها حوالي نصف مترٍ بالماء، فكلّ كتابٍ كان على الأرض، أو في الرّفوف السّفلى على هذا العلّو أو دونه من كُتُبي تَلِف،

وذابت أوراقُه في هذا الفَيَضان.

وقد فقد آخرون كتبهم بحريقٍ غير مُفتعَلٍ أتى عليها، كقصّة الإمام الحافظ ابن المُلقِّن المُتوفَّى بالقاهرة سنة (804) للهجرة والّذي بلغت مؤلّفاته حوالي (300) كتابٍ، وهي قصّة مشهورة. قال عنه الحافظ ابن حجر: "وكان عنده من الكُتُب ما لا يدخل تحت الحصر، ثُمّ إنّها احترقت مع أكثر مُسوّداته في أواخر عمره، فَفُقِد أكثرها، وتغيَّر حالُه بعدها، وكان قبل احتراقها مُستقيمَ الذّهن، فحَجَبَه ولدُه عن الناس إلى أنْ مات". وأنشدَه الحافظ ابن حجر مُخفِّفًا عنه:

لا يُزْعِجَنَّكَ يا سِراجَ الـدِّيْنِ إنْ

لَعِبَـت بِكُتْبِكَ أَلْسُنُ النّيْـرانِ

للهِ قَدْ قَرَّبْتَها فَتُقُبِّلَتْ

والنّارُ مُسـرِعةٌ إلى القُربانِ

وهناك سببٌ آخَر أدّى إلى إقدام هؤلاء على ذلك، سببٌ أشار إليه التّوحيديّ في رسالته السّابقة إلى بعضِه، قد لا يفطن

المرء إليه؛ إذ تَخلَّص بعض العلماء من كتبهم لئلاّ يتمّ التّلاعب بها من بعدهم من قِبَل الجَهَلة أو أهل الأهواء، أو دَسّ فيها ما ليس منها، وأشار الخطيب البغدادي في كتابه "تقييد العلم" إلى أن بعض المُتقدّمين كان إذا حضرتْه الوفاة أتلف كتبه بنفسه، أو أوصى بإتلافها خوفًا من أن تصير إلى مَنْ ليس مِن أهل العِلم، فلا يَعرِف أحكامَها، ويحملُ جميعَ ما فيها على ظاهره، وربّما زاد فيها ونَقَص، فيكون ذلك منسوبًا إلى كاتبها في الأصل. وهذا كلّه وما أشبهه قد نُقِل عن المُتقدّمين الاحتراسُ منه.

لم يكنِ التّوحيديُّ الوحيدَ في ذلك، فلو أشفيث على تتمّة رسالته إلى القاضي أبي سهل، لذكرتُ مَنْ فعلها قبله، ولقد نقلتْ رواية (تسعة عشر) قصص آخرين وقعوا فيما وقع في التّوحيديّ أو أشدّ، وأدارت الرّواية على هؤلاء فصلاً كامِلاً، فمنهم على سبيل التّمثيل قصّة هذا: " ثُمّ دار الكلام على يوسف بن أسباط، فقال: إنّني صعدتُ إلى أعلى جبلٍ في زماني، لا تكادُ تصل إليه إلاّ الطّيور الجارحة، وبحثتُ عن غارٍ لا تسكنه الجِنّ، وألقيتُ كُتُبي هناك، ودفعتُ صخرةً دحرجْتُها حتّى سدّتْ باب الغار، وطيّنتُ على ما تبقّى من شقوقٍ في فم الغار، وتركتُها هناك إلى يومِ يُبعثون». فسألتُه: «والغار؟». فقال: «أشرق بالنّور».

الفصل السّابع
الكِتابة

جَناحان للتّحليق

تمهيد:

هذا الفصل- في تقديري - هو لُبّ هذا الكتاب، وفي الحقيقة لا يُمكن أنْ يكون فصلاً كبقيّة الفصول، إذْ إنّه يحتاجُ فصولاً كثيرةً وكتبًا عِدّة، غير أنّني جريتُ هنا مع الكتاب كما أراد، ونثرتُ في هذا الفصل بعضَ الكلمات الّتي قد تُشير بعضَ الإشارات، وأنا - إذا مَدّ الله في العُمر والقلم بإذنه - كاتبٌ فيه كتابًا مُنفصلاً. وأمّا ما ستجده هنا فهو ما أحاطَ بالعنق دون أنْ يزيد!

الكتابةُ نَوبةُ صَرَع طويلةٍ تظلّ تطرق الدّماغ وتُمزّق القلب وتُقلِق الراحة حتى بعد الانتهاء منها، لأنّ الآثار الارتداديّة للزّلزال قد تكون أشدَّ من الزّلزال نفسه. هي مشيٌ في كهوف النّفس المُظلمة، قد تجدُ طريقكَ إلى الخروج، وقد تضلّ في

تلك المتاهة فلا تخرجُ أبدًا.

المدفوعون إلى الكتابة بالحُبّ هم وحدهم مَنْ يُمكن أنْ يحتمل آثارَها الصّعبة على النّفس، إنّها ليست نُزهة، ولا مُتعة، ولا رومانسيّة طفوليّة، إنّها عذاب، هل يُمكن أنْ تختصر الكلمة الأخيرة ما تعنيه الكتابة؟ ربّما. أظنّ أنّها أبعد من ذلك! هل يُمكن أنْ نقول إنّها موتٌ في حياة، أعني موتًا مُؤقّتًا من أجلِ حياةٍ دائمة. ربّما هذا التّعريف أقرب إلى واقعيّتها.

ولكنّهم يعترضون على هذه التّعريفات المُتشائِمة، يقولون: الكتابة ليست كما تظنّ، إنّها أوراقٌ تصرّ على الورقة، تنزف دمًا أسود، وتقول فِكرةً ما. قد يكون هذا التّعريف ملائِمًا لمن ينظر إليها من الخارج، إنْ توغّلتَ في الدّاخل، سيكون بإمكانك أنْ تسمع ذلك الصّرير كأنّه مُديةٌ تحزّ القلب، وترى ذلك النّزيف كأنّه دمٌ تخبو مع استمراره شعلة الحياة أو الرّغبة فيها.

هذه المُشتهاة القاتلة؛ أليسَ لها وجهٌ حسن؟ نعم؛ قد تكون الكتابة نوعًا من التّشافي؛ كثيرون لا يُمكن أنْ يرمّموا جروهم، ولا أنْ يتخطّوا عثراتهم، أو يتجاوزوا انهِزاماتهم إلاّ

بالكتابة.

المُستسهِلون أكثر الكُتّاب وقوعًا في الفَخّ، يقولون: «الكتابة إخراج الأفكار إلى العلن»، هي كذلك بالطّبع، وهو أمرٌ يبدو أنّه سهل، لكنّه في غاية الصّعوبة. فحتّى تخرج تلك الأفكار إلى العَلَن بالطّريقة الصّحيحة قد تخرج روحكَ معها كذلك!!

إذا كانت الكِتابة تفعلُ ذلك بالكُتّاب، تُذهلهم عن أنفسهم، فلماذا يكتبون إذًا؟ ما الّذي يدفعهم إلى أنْ يروا قطرات دِمائهم تنزفُ خلفَهم في الدّروب وهم ماضون لا يتوقّفون عن المسير؟!

لماذا نكتب؟

ما المُغري في الكتابة؟ لماذا تغوص سِكّين الحروف بكامل بهائها في قلب الكاتب، وحينَ يُشفَى من طَعَناتها تنمسح الذّاكرة السّيّئة ولا يبقى إلاّ ذلك الخَدَر اللّذيذ الّذي يدفعه إلى اقتراف ألم الكتابة من جديد؟ هل كانت الكتابةُ ولادة؟ هل كلّ آلام المخاض تزول عند رؤية المولود الجديد، وعلى شفتَيه شبحُ ابتسامةٍ هاربة، ويُعلِن عن وجوده برفس الهواء برجليه في الجهات الأربع.

نحن نكتب لنُشفَى من جراحنا، جراح الشّعور، نحن نكتب لأنّ حاجةً مُلحّةً في أعماقنا تدفعنا إلى ذلك، تدفعنا إلى التّجريب، تدفعنا إلى لذّة الخَلْق، الكتابة خَلْقٌ من نوعٍ ما، معرفة قدرتنا في إنجاز خلقٍ على نحوٍ يُثير الدّهشة، دهشتنا الطّفوليّة الأولى، أو يدفعنا إلى أنْ نفخر بما أنجزْنا.

نحن نكتب؛ لأنّنا لا نملك إلاّ أن نكتب، أنْ نقول، أنّ نسرد، أن نحكي، وأنْ نقصّ كلّ ما في أعماقنا، ربّما لو توقّفْنا عن فِعل ذلك لمُتنا. القلم إكسير الحياة، والحروف أرواحٌ جديدة، والورق إغراء بالاستمرار، وكلّ لحظات اللّقاء مع الورقة البيضاء يعني أنّ حياةً جديدةً سوفَ تُكتَب لنا، وانّنا ربّما سنعيش أعمارًا طويلةً.

لا يُمكن أنْ نُنكر أنّ إغراء آدم بالخلود هو أحد دوافعنا الخفيّة، ربّما أقواها وإنْ لم يكنْ أوّلها، إنّه السّبب الّذي ينتج عن حالة الوعي الشّديد بسيرورة الزّمن، نحن لا نريد أنْ نموت، نكتب لننجو من الموت، نكتب لكي نحظى بخلودٍ من نوعٍ خاصّ، نحظى بجمهورٍ خاصّ، بأولئك الّذين يستعيدوننا من خلال ما نكتب، ويستحضرون هالَتنا من خلال حروفنا التّي نأمل أنْ تعيش بعدنا أزمنةً عديدة.

يقول جورج أورويل في كتابه (لماذا أكتب؟) مُجيبًا عن هذا السّؤال من خلال أربعة دوافع:

الأوّل: حبّ الذّات الصّرف: الرّغبة في أنْ تبدو ذكيًّا، أنْ يتمّ الحديث عنك، أنْ تُذكَرَ بعد الموت، أنْ تنتقم من الكِبار الّذين وبّخوك في طُفولتك.

والثّاني: الحماس الجماليّ: إدراك الجَمال في العالَم الخارجيّ، البهجة من أثر صوتٍ واحدٍ على الآخَر. في تماسُك النّثر الجيّد، أو إيقاع قصّة جيّد.

والثّالث: الحافز التّاريخيّ: الرّغبة برؤية الأشياء كما هي، لاكتشاف حقائق صحيحة، وحِفظها من أجل استخدام الأجيال القادِمة.

والرّابع: الهدف السّياسيّ: الرّغبة في دَفْع العالَم في اتّجاهٍ مُعيّن؛ لتغيير أفكار الآخَرين حول نوع المجتمع الّذي ينبغي عليهم السّعي نحوه.

ويقول الكاتب العراقيّ (عبد السّتّار ناصر) في كتابه (سوق السّراي): «لقد اكتشفتُ يومًا من عمري أنّني منذورٌ لهذا

العالَم العجيب، الحلو، الغامض، الجميل، الّذي يُسمّونه الإبداع في الكتابة.. الكتابة فِردوس الكاتب، وهو وحده الّذي لن يأكل تلك التّفّاحة اللّعينة مهما كان إغراء السّيّدة العظيمة حوّاء... أنا مملوءٌ بالحياة ومزحومٌ بأسرارها الجميلة، أرى البحر من نافذة بيتٍ صحراويّ مزروع بأشواك الصّبّير، ولهذا أكتب».

أمّا نزار قبّاني فيقول:

أَكْتُبُ..

كيْ أُفَجِّرَ الأشياءَ ، والكتابةُ انفجارْ

أكْتُبُ..

كي ينتصرَ الضوءُ على العَتْمَةِ،

والقصيدةُ انتصارْ..

أمّا أنا فأكتب لأنجو، لأنجو من الحُزن والوحدة؛ كنتُ أكتبُ في البداية من أجل أنْ أُصلِحَ العالَم، مع تقدّمي في العُمر بدا

أنّني أكتب لكي لا أبقى وحيدًا! أكتب لأنجو من اللّهاث وراء الفراغ الذّابح، من أنْ أجدني قد لهوث بعيدًا عن حرارة الوجود، وأكتب لأنتصر على الجَلاّد، وعلى المقصلة، ولكي يذكرني التّاريخ بخير؛ لأنّني أُدرِك تمامًا أنّ التّاريخ لا يَنسى ولا يُنسَى.

السُّلطة والكتابة:

في أوطاننا العربيّة، نحنُ – بوجهٍ عامّ – لا نحترمُ كُتّابَنا ولا نُقدّر مُبدعينا، ذلك أنّ الأنظمة الاستِبداديّة لا تعترف بالإبداع، ولا تسمع غير الأبواق الّتي تزعق بالهتاف لها، إنّها تعمل على قاعدةٍ يعرفها الطُّغاةُ جيّدًا: "إذا لم تكنْ معي فأنتَ ضِدّي"! ولهذا أريدُ من الكتّاب العرب المُبدِعين ألاّ ينتظروا عطفَ الدّولة ولا رعايتها، أنا هنا لا أتكلّم عن كُتّاب التّدخّل السّريع الّذين ما إنْ تشير لهم السّلطة إشارةً واحدةً حتّى يستلّوا أقلامهم ويبدؤوا بالكتابة كأنّهم ليسوا إلاّ ظِلاًّ لها، بطريقةٍ مُخزية، وإذا لوّحت لهم بالدّولار سال لُعابهم و.. هذا النّوع من الكُتّاب لا يعرفُ لنفسِه رأيًا، ولا يُمكن أنْ يتّخذ موقفًا، وليس له من رِسالة إلاّ أنْ يكون كلبَ السُّلطة الوفيّ. ولِذا أقول إنّه لا مُقابل من أجرٍ ماديّ مُجزٍ للكُتّاب الحقيقيّين أصحاب الوقوف في وجه الظُّلم لا اليوم ولا أمسِ بالطّبع،

ولن يكون غدًا. لا تتوقّعوا أنْ يحتفوا بكم، ولا أنْ يفتحوا قاعاتهم لندواتكم، ولا صُحُفَهم ومطابعَهم لكلماتكم، إنّ التّرفّع عن السّلطة الشّموليّة شَرَف، وإنّ التنكّب عن طريقها عِزّ، فإذا أراد الواحد مِمّن ضَمُّوا على سِكّين الكلمة ضُلُوعَهم أنْ ينتظر التّكريم والاهتِمام من هؤلاء فقد أضاعَ عُمره في طلب المُحال، إنّنا يجب أنْ نسير في دروبنا الّتي اختططْناها لأنفسِنا دون أنْ ننتظر من أحدٍ غير الله عونًا. يعضدنا في ذلك فِكرتُنا الواضحة وكلمتنا القويّة وإيماننا الحارّ، وعنادنا على السّير في الطّريق حتّى نبلغ الغاية مهما كلّف الثّمن.

أحيانًا أنتَ لا تطلبُ منهم أكثرَ من أنْ يكفّوا أيديَهم عنك، أنْ يتركوك على باب الله تسير في أرضِه، لكنّ ذلك أيضًا لا يُقدّمونه لك، إنّهم يعتقدون أنّ تركَكَ دون رقيبٍ يُحصي عليك خُطُواتك، وحسيبٍ يَعُدّ عليكَ أنفاسَك ترفٌ لا يمكنهم أنْ يمنحوك إيّاه. لقد قالت رواية (حديث الجنود) شيئًا عن ذلك: «أنْ يقرأ النّاس كتابًا يعني أن تُغلِقَ الدّولة سجنًا» لا أدري مَنْ قال هذه العبارة مِنْ قبلُ؛ غير أنّني وأنا أحتال هنا على الزّمن بالقراءة، أرى أنّ السّجون تزداد عددًا، وتزداد ضِيقًا. في بلادنا العربيّة أعتقد أنّ السّجون تمتلئ بالمُثقّفين، وعليه فإنّ العبارة تُصبح ببساطة: أن يقرأ النّاس كتابًا يعني أن تفتح الدّولة سجنًا؛ سجنًا يتّسع لكلّ المثقّفين الّذين لا

يُصفّقون للسلطة؛ العداء بين السّلطة والمثقّف قائمٌ منذ أن خطرتْ ببال أوّل إنسان فكرةُ السّجن. ولكنْ لماذا لا يفهم السّجّانون فكرةً مُحايدة قد تجسّر الهوّة بيننا: أقبلُ الاختلاف عنك، ولكنّ اختلافي عنك لا يعني اختلافي معك. واحذرْ أنْ تُخطّئني في الرأي لمجرّد أنّه لا يُعجِبك؛ فإنّما آراءُ النّاس صورةٌ عنهم، وأنتَ لا تستطيع أن تجمع النّاسَ على صورةٍ واحدة، وليس بالضّرورة أنْ أُشبِهك ولا أن تُشبِهني».

لا أدري ما هو حال المُبدعين الغرب؟ لكنّني أعتقدُ أنّ حرّيّتهم وإيمانهم بعبقريّة الفرد قد تمهّد لهم دروبًا لم يكنْ لنا مثلها، وقد تفتح لهم أبوابًا سُدّت كلّها في وجوهنا، غير أنّ الاستِبداد ليس له عصرٌ ولا مِصرٌ ولا شرقٌ ولا غرب، فمحارق الكتب عندهم واضطهاد الكُتّاب ليست عَنّا ببعيد، ولقد عانوا يوم أن حكمت الأنظمة الاستِبداديّة في بلادهم مثلما عانينا، ويومَ أنْ كانت الكنيسة تحكم بالدّين دون العلم حُكمًا اضطُرّ كوبرنيكوس على سبيل المثال أنْ يقف أمام قناعاته مُتردّدًا خوفَ أنْ تطير رَقبتُه!

مُقابل الكتابة:

جوائزنا الأدبيّة في بلادنا العربيّة – غالبًا - مثلُها مثلُ

موقف أنظمتها من المُبدِعين، إنّها تمنحها لمن يُصفّق لها ولو كانت الكتابة هراءً، وتمنعها عن أولئك الّذين يبحثون عن النّظام في وسط الفوضى، أو الّذين يزرعون وردةً في وسط الخراب. إنّ جوائزنا إذا سلمت من أنظمةٍ تدمغها بدامغ (معنا) على قفا الكاتب، لم تسلم في كثيرٍ من الأحيان من قائمين عليها تتحكّم بهم (الشّلليّة)، وهو (مبدأ معنا/ ضِدّنا) الّذي تعمل به السُّلطة تمامًا لكنْ بصورةٍ جديدة. ولذا عليكَ أنْ تجتاز هاتين العَقَبَتين الكأداوَين: السّلطة والشّلليّة لكي تحصل على جائزة! ولكنْ ما هو شكل الجائزة الّتي تتوق إليها؟ ما هو الدّافع الّذي يجعلك تطمح إلى أنْ تحصّلهاغ؟ إنّها مجرّد حفنة من المال، قد لا تُعينُكَ على أنْ تكتبَ كتابكَ القادم؟ أهذا ما كنتَ تنتظره بالفِعل؟ مهلاً، إنّها ليست النّوع الوحيد من الجوائز الّتي يُمكن أنْ يفوز بها الكاتب! إنّ انتشار الكِتاب هو أفضل جائزة. ألم يكنْ هذا ما تريدُه؟ إنّ إيمان واحدٍ بفكرتك هو أعظمُ وأبقى من دخول ورقةٍ نقديّة إلى جيبك؟ إنّ أعظم تقديرٍ يُمكن أنْ تحصّله هو هذه الطّبعات الّتي لا تتوقّف لكتبك، وهذا الإقبال المُدهش عليها، وهذا التّداول والتّناول والتّناقش الّذي يدور حولَها. إنّني أعرفُ بعضَ من حصلوا على جوائز في بلادنا لم تنفد طبعتهم الأولى من الكتاب الحاصل على الجائزة إلاّ بعدَ سنين. أنْ يُطبَع كتابكَ في السّنة أكثر من عشر طبعاتٍ دون توقّف؛

فذلك مجدُ الكِتابة.

مهلاً مرّة أخرى؛ هل يكتب الإنسان لكي يأخذ مُقابِلاً لذلك، إنّ الكتابة بحدّ ذاتها هي المقابل المُجزي لمن يعرفُ قداسة الحرف، وإذًا فلأكتبْ، دون أنْ أفكّر فيما ستأتي به الكتابة من مكاسب أو فيما ستجرّه من مصائب. الكتابة نهر، وأنا ورقةٌ تسيل فوقه، وإذًا فلأترك نفسي تسبح مع التّيّار كما يريد. ولقد كنتُ والكتابة رفيقَين منذُ الصّرخة الأولى الّتي شققتُ بها الكون بعد أنْ خرجتُ من رَحِم أمّي، ولقد شكّلتْني الكلمات كما لم يُشكّلني شيءٌ مثلُها. ولو أردتُ أنْ أعرّف نفسي باختِصار، فسأقول: «أنا كُتُبٌ يمشي».

قَدَاسة القلم:

الخُطوة الأولى في أنْ تُصبح كاتِبًا، هو أنْ تعشقَ القلم، ليس بالمعنى المجازيّ الّذي يعني الحرف مثلاً أو النّصّ أو الكتابة، ولا بالمعنى الحقيقيّ الّذي يعني تلك الأنبوبة الّتي تحوي حبرًا وفيه رأسٌ يكتب، لا هذا ولا ذاك، بل أنْ تعشقَ قداسةَ القلم، أنْ تشعر بذلك الشّعور الّذي يشعره مَنْ يرى معشوقته، أو ذلك الشّعور الّذي يخفق له الوِجدان، هيبةً ولطفًا، رغبةً ورهبَة. أنْ تُقدّر مكانة القلم، أنْ يكون تلك النِّعمة الّتي تخشى

أنْ تفقدها لو أنتَ قلّلتَ احتِرامَك لها أو عاملْتها كما لو كانتْ تحصيل حاصلٍ. أنْ تشكر الله على هذه النّعمة في كلّ حين. أنْ تُدرك أنّ قيمة القلم لا يُمكن وصفُها ولا الإحاطة بها، حينَ تعرف أنّ ربّ الأرباب قد أقسمَ به، ولا يُقسِمُ العظيم إلاّ بعظيمٍ من خَلْقه، حين قال: «والقلمِ وما يسطرون».

لقد كان القلم في السّجن بالنّسبة لي أعزّ مفقودٍ، وأعظم مرجوّ، وأشرفَ مقصود، وأنبلَ مَأتِيّ. ولقد كنتُ أراه خلفَ أذن الشّاويش فأودّ لو أنّني أحمله من هناك من خلفَ تلك الأذن، وأضمّ عليه شغاف قلبي، وأقرّب شفتَيّ من عليائه وألثُمه. ولقد قلتُ في رواية يا صاحبي السّجن عن ذلك: «بدأتُ أنظر إلى شاويش المهجع، وهو يتمتّع بهذا الهامش من الحرّيّة، وأحسده على القلم الرّابض خلف أذنه. هل أستطيع أن أستعيره منه ولو لساعة؟! هل يقبل؟ أنا مستعدّ أن أدفع له ما يشاء مقابل ساعةٍ حميميّةٍ مع القلم. ولكنّ القلم ذكر، والورقة أنثى، وحتّى يثمر الإبداع يجب أن يتمّ التلاقي بينهما!! غير أنّ الورقة صعبة المنال كذلك. تذكّرت كم كنّا نُهدِر نعمة الأوراق قبل السّجن، كنّا نكتب على الورقة سطرًا أو سطرين، ثمّ نمزّقها. نكتب على وجهها، ونترك ظهرها. كانت هناك مساحات شاسعة بين أيدينا وما التفتْنا إليها. كان هناك مئات الأوراق مبعثرةً على أسطح مكاتبنا وما شعرنا

بقيمتها العالية. والآن نتمنّى أن نحصل على ورقة واحدةٍ فقط بحجم الكفّ ولا نستطيع».

القلم سِرّ الوجود، هو مَنْ كتب الكلمة الأولى فصارَ من بعدِه العَدَم حدثًا، فلمّا شاع بين أيدي الجهلة نَكِروا منزلته، ولم يعرفوا حَقّه، ورأوا كثرته غامزةٌ في قناة قيمته، وما يفعل ذلك إلاّ الجاهلون!

اليوم، إذا كنتَ تشعر بتلك الارتِجافة للقلب، وأنتَ تتخيّلُ نفسكَ خالِيًا من النّاس والوجود إلا القلم والورقة، فمعنى ذلك أنّ ذلك الإحساس الشّفيف الّذي يعيشُه الكُتّاب تعيشُه أنت، إنّها خطوةٌ هامّة في الطّريق إلى الكتابة. هذا ليسَ وهمًا؛ هذا ما كنتُ أشعر به في صِغري حينَ بدأتُ أتلمّس أوّل خُطواتي في هذا العالَم، وكلّما كان الإحساس حارًّا أعطاك القلم من فُيوضه، كلّما وهبتَ له فؤادَك وهبكَ هو فؤادَه بالمقابل، وجعل أفكاركَ عبر الحبر السّائل تتدفّق تدفّقًا حُرًّا عَذْبًا.

في فترةٍ لاحقة تطوّر ذلك الشّعور الأقرب إلى القداسة إلى أنّ رمي القلم بعد انتِهاء حبره هو تعذيب، أو هو غدرٌ بمن منحكَ حبره حتّى جَفّ ثُمّ أنتَ ترميه للهلاك والخراب، وبمَنْ

أولاكَ خيرَه ثُمّ أنتَ تجزيه سوءَ الجَزاء، ولقد تذكّرتُ في ذلك المرأة الأنصاريّة الّتي نجت على ناقة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم من الأسر بِمكّة، حينَ قالت: يا رسول الله، إنّي نذرتُ إن نجوتُ عليها أن أنحرَها. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَبِئْسَ ما جَزَيْتِها». وقول الشّاعر الّذي دعا على ناقته أنْ تَهلكَ وتَختنقَ بدمائها إذا هي حَمَلته وبلّغته الموضع الّذي يريد:

إذَا بَلَّغْتِني وَحَمَلْتِ رَحْلِي

عَرَابَةُ، فَاشْرَقِي بِدَمِ الوَتِيْنِ

فأَنِفْتُ أنْ أفعل، فسعَيتُ إلى الاحتِفاظ بالأقلام الّتي جَفّ حبرها، وتراكم منها عددٌ كبير، ثُمّ فَكّرتُ فيما بعدُ أنْ اشتري ذلك النّوع من الأقلام الّتي يُمكن تعبِئتها بالحبر، كان عهد الرّيشات قد ولّى، وإنْ كنتُ لا أزال أحتفظُ ببعضِها إلى اليوم، ولكنّ تعبئة الحبر من أقلامٍ لم تُصنَع لذلك بالأساس لم يكنْ ملائِمًا، وإنِ استحسنتُه في البداية، فقد كان الحبر يفيضُ في كلّ مرّة فيُلوّث يدَي، ويُلطّخ ثيابي.

مَجدُ القَلَم:

إنّه الّذي بَلّغَ عن الله في الله المحفوظ بلا واسطة، فتقدّم جبريلَ، وإنّه أوّل مخلوقٍ حَظِي ليس بشرف الوجود فحسب، بل بشرفِ سماع الكلمة الأولى من الله، فأي منزلةٍ تلك الّتي تبوأها إذًا؟ فهل تُدرك ما يعني ذلك؟

كان المتنبّي يهذي، لنقل إنّه كان كسيرًا، أو كان مأخوذًا برهبة السّيف حينَ قال:

حتّى رجعتُ وأقْلامي قوائلُ لي:

المجدُ للسّيفِ ليسَ المجدُ للقَلَمِ

لا يا صديقي، بل المجدُ للقلم، حتّى إنّ السّيف لتخضع عنقه لكلمةٍ منه، وأنتَ الّذي قلتَ:

فالخيلُ والليلُ والبيداء تعرفني

والسّيفُ والرّمح والقرطاسُ والقَلَمُ

وجدّك عنترة من قبلُ قال:

والنّقعُ يومَ طِرادِ الخيلِ يَشهدُ لي

والضَّرْبُ والطَّعْنُ والأقلامُ والكُتُبُ

وأقسمَ اللهُ بالقلم ولم يُقسِم بالسّيف، كما قال أبو الفتح البُستيّ:

إذا أَقْسَمَ الأبطالُ يومًا بِسَيْفِهِمْ

وَعَدُّوهُ مِمّا يُكسِبُ المَجْدَ والكَرَمْ

كفى قَلَمَ الكُتّابِ عِزًّا ورِفْعَةً

مَدَى الدَّهْرِ أنَّ اللهَ أقْسَمَ بالقَلَمْ

خَمِيرة الكِتابة:

ما يُميّز كاتِبًا عن سِواه أسلوبُه، فنحن حينَ نقول إنّنا نُحبّ أشعار فُلانٍ أو كتابات عَلاّن، فنحنُ دون أنْ ندري نقول إنّنا نُحبّ أسلوبَه، وإلاّ فإنّ هذا الّذي أحببْناه لم يأتِ بما لم يأتِ به الأوائل، ولا اخترعَ غير موجود، فلقد كتبَ في مواضيع

طرقها جمهرةٌ واسعةٌ من الكُتّاب قبله، لقد كتب في الغزل أو الوطن أو المدح أو الهِجاء أو الرّثاء أو الوصف أو غيرها، وهي موضوعات سبقه إليها مِئاتٌ أو آلافٌ مِمّن تقدّموه، لكنّ غزله أعجبكَ أكثر مِنْ غزل غيره، ورثاءه أحزنكَ وأشعركَ أكثرَ منْ رثاءِ غيره، وحتّى هجاؤه لامسَ مواضع مُظلِمةٍ في نفسِكَ فأضاءَها ولم يفعل غيره ما فعل. فما الّذي حدث وسبّب هذا الميل إلى هذا دون سِواه؟ إنّه الأسلوب. فالأسلوب هو الرّجل كما قال النّاقد الفرنسيّ (تين).

لا يُمكن أنْ يكون الأسلوب في أرقّ نَظمِه وأرقى سَبْكه وأدقّ نَسجه ما لم تكنْ لدى صاحبه ثروةٌ معرفيّة ولُغة خاصّة ينفرد بها تشكّلتْ عبر سنواتٍ طوال بوسائل شَتّى، أُطلقُ أنا عليها لفظ (خميرة الكتابة)!

إذا أردتُ أنْ أتوقّف عند فكرة اللّغة الخاصّة الّتي هي شكل التّعبير عن الفكرة الّذي هو الأسلوب عند عددٍ من كبار الكُتّاب والشّعراء، فإنّني سأكون أكثر إقناعًا حينَ أطلبُ منكم أنْ تتخيّلوا ما مَيّز كلاًّ من الآتين: الجاحظ، المتنبي، نزار قبّاني، سيكون هناك أكثر من شيءٍ، ولكنّ اللّغة الّتي تميّز بها كُلّ واحدٍ منهم ستكون في المقام الأوّل في التّرتيب؛ ولغة الكاتب بَصمتُه، فنحنُ اليوم نعرفُ بمجرّد السّماع للبيت بأنّ

قائله المتنبّي، لأنّ لغته هي لغة المتنبّي، وبالتّالي هي بصمته. ونحن كذلك نعرف حينَ نسمعُ جملةً بأنّ قائلها هو الجاحظ، لأنّها لغته، وبالّتالي بصمتُه. وإذًا، فإذا أردتَ أنْ تكون كاتبًا مُتميّزًا فعليكَ أنْ تكون لك لغتك الخاصّة وبصمتُك المُميّزة، والّتي لا تتأتّى بسهولة، ولكنْ بالّذي أطلقتُ عليه خميرة الكاتب، والّتي لا تتشكّل عبر ليلةٍ وضُحاها، إنّها تعبُ عقودٍ من السّنوات، وحفرٌ عميقٌ في صخر المفردات، فهل وعيتَ ما ذهبتُ إليه؟!

والسّؤال الآن: ما الخميرة الّتي شكّلتْني، أو شكّلتْ أسلوبي؟ في الحقيقة لقد أجبتُ عن هذا السّؤال بفصلٍ كاملٍ هو فصل القراءة، ولكنْ لديّ – دائمًا - ما أُضيفه هنا:

الحفظُ الّذي بدأ معي منذُ الخامسة يُمكن أنْ يكون أولى هذه الخمائر، فلا تُهمِلوا شيئًا كهذا يوقظ الذّاكرة ويزيد المعرفة، لقد كان لآلاف الأبيات الّتي أحفظُها والّتي تتصارع في عقلي إسهامًا كبيرًا في صُنع هذه الخميرة، فلكلّ شاعرٍ حفظتُ له أسلوبُه، ولكلّ شاعرٍ طريقتُه ولغتُه... أمّا أنا فكوّنتُ أسلوبي من هذه الأساليب مُجتمِعة، ولغتي من هذه اللّغات كاملة، تستطيع أنْ تقول أنا فُسيفِساء في الأسلوب واللّغة من كلّ أحدٍ، لكلّ واحدٍ مُربّعه الصّغير المُلوّن في هذه

اللّوحة الّتي تضمّ آلاف المُربّعات!

لم يكنِ الحفظُ ليصنع الخميرة العجيبة لديّ وحده، لولا ذلك التّرنّم بما أحفظ، وخاصّة بالقرآن والشّعر. لي مع القرآن قِصّة طويلة، لن أتحدّث عمّا حفظتُه منه، بل عمّا مَوْسَقَني منه؛ أعني إيقاعَه، تَناغُمَه، جُملته الطّويلة والقصيرة، نهايات آياته، تقديمه وتأخيره، الكلام المسكوت عنه، المحذوف فيه أكثر من المُثبَت، لقد مضى القرآن ليقول ما لم يقلْ أكثرَ مِمّا قال. التّوكيد الّذي فيه، كان توكيد المفعول المُطلق أكثر أنواع هذه التّوكيدات عملاً في ضلوعي وروحي، كانت نهاياتُ المُطلَق في: «ورتّل القرآن ترتيلاً». و «كلّمَ الله موسى تكليمًا». «وكلّ شيءٍ فصّلْناه تفصيلاً». و«ولا تُبذّرْ تبذيرًا» تُشكّل شيئًا غامِضًا أحاول أنْ أقوله في هذه الكلمات ولا أجدُ له تفسيرًا.

كنتُ خلفَ الإمام في الصّلوات - هذا ليس في السّنوات المُبكّرة من حياتي، بل في السّنوات كلّها - أسمعُ منه قوله تعالى: «فَتَعالَى اللهُ المَلِكُ الحَقّ» بأذنٍ غيرِ الأذنِ العابرة، النّاس يسمعونها ويرون فيها ما يرون، ولكنّهم لم يروا الموسيقى الّتي فيها. أنا أدعوكَ الآن أنْ تقرأها بالإيقاع: «فَتَعالى الله الملك الحقّ» إنّ جوارحَكَ لو قرأتَها بهذا الإيقاع

ستهتزّ طربًا، وستنتشي بالموسيقى القَلِقة المُقلقِة فيها، إنّها من بحر المُتدارك يا سادة! هكذا كنتُ أسمع القرآن وأقرؤه. السّورة كلّها إيقاع، أعني سورة طه هذه، كلّ هذه الآيات وجدتُ فيها هذا الإيقاع، رتّلْ ما سألفتُ سَمْعَ قلبِكَ إليه: «الرحّمنُ على العرشِ استوى»، «أو أجدُ على النّار هُدى»، «إنّي أنا رَبُّكَ فاخْلَعْ نعلَيْك»، «إنّ السّاعةَ آتيةٌ». «بِيَمِينكَ يا مُوسى»، «ربّ اشرحْ لي صدري»، «يَسِّرْ لي أمري» السّورة مليئة بنماذج هذا الإيقاع الخَبَبِيّ الّذي يقوم على إيقاع (فَعِلنْ)!

إنّ أحدًا من المُصَلّين – بالضّرورة - لم يكنْ يسمع مقاطع قوله تعالى: «قل هل ننبّئكُمْ بالأخسرين أعمالاً» كما كنتُ أسمعُها. قفوا معي على كلّ مقطع: قُلْ... هَلْ... وكرّره واستمع إلى شَجو الإيقاع فيها، حينَها ستُدركُ ما أعني.

لقد فكّرتُ قبل أنْ أبلغَ العشرين بأنّ القرآن له نِظامٌ موسيقيّ، كما للشّعر نِظام، ولكنّه غيرُ مُكتشَف، وصدّقتُ الفِكرة وآمنتُ بها، ورأيتُ أنّها سيطرتْ عَلَيّ إلى الحدّ الّذي اعتقدتُ فيه أنّ هذا النّظام الموسيقيّ السّاحر في القرآن لن يكتشفه سِواي، فبدأتْ أذني الّتي تدخلها الموجة القرآنيّة تُموسِقها على أحد الإيقاعات العروضيّة، ولمّا لم تكنْ تنتظم

في هذا السُّلّم الموسيقيّ، كنتُ أرى أنّ درجةً من درجاتها الزّائدة أو النّاقصة هو الّذي أفسدَ هذه الموسيقى، فرحتُ أزيدُ درجةً لِما نقص، وأحذف درجةً مثلَها لِما زاد. وقلتُ إنّ مجموع هذه الإيقاعات، لو فرغتُ لها فكتبتُها على الورق، ورتّبتُ الآيات ذات الإيقاع المُتشابه في خانةٍ محفوظةٍ لهذا الإيقاع فقط، فإنّني بعدَ أنْ أنتهي من جمع هذه الخانات الموسيقيّة المُختلفة، سيكون بإمكاني إيجاد القانون الموسيقيّ الّذي ينتظمها. لقد كان إيقاعُ عددٍ كبيرٍ من الآيات لا يحتاجُ إلى تقنين، إنّه نزل على قلبِ الأمين مُموسَقًا، مثل قوله تعالى: «فلنْ تستطيع لهُ طَلَبا». وقوله تعالى: «وزُلزِلتِ الأرضُ زلزالَها... وأخرجتِ الأرضُ أثقالَها». وقوله تعالى: «إنّ الباطلَ كانَ زَهُوقا». وقوله تعالى: «فمنْ شاءَ فلْيُؤمنْ ومن شاء فلْيكفرْ». ومثل قوله تعالى: «إنّا أعطيناكَ الكوثر». وقوله تعالى: «فَأَصْبَحُوا لا يُرى إلاّ مَساكِنُهم». وقوله تعالى: «لن تنالوا البِرّ حتّى تُنفِقوا مِمّا تُحبّون». ولو جمعتُ كلّ ذلك لبلغَ آلاف المقاطع المنظومة؟ هل كان القرآن يقول للشّعراء إنّكم ستتّكِئون على بعضِ موسيقاي الجديدة؟ ولكنْ هل فعلتُ أنا ذلك؟ أعني هل اكتشفتُ السُّلّم الموسيقيّ القرآني؟ بالطّبع لا. إنّه سِرّ. ولقد عادَ بصري فيه حسيرًا، وإنّه مِمّا تفنى فيه الأعمار، ولا أدري إنْ كانتْ فكرةٌ مجنونةٌ مثل هذه ستراودُ شاعرًا مجنونًا مثلي في المُستقبل أمْ لا؟!

هذه الموسيقى الطّاغية عليّ خميرة، إنّ هذا الإيقاع الشّعريّ أو الموسيقيّ فيما أكتبُ حتّى من نثرٍ قد بُنِي على نوتاتٍ موسيقيّة كثيرةٍ مخزونةٍ منذُ الطّفولة، إنّها كذلك فسيفساء من موسيقات مُتعدّدة، مُوسيقى القرآن، ومُوسيقى الشّعر، ومُوسيقى المعنى، ومُوسيقى السَّبْك، ومُوسيقى الصّورة، ومُوسيقى المشهد، وغيرها.

إنّ خميرة الكاتب إذا لم تكنْ قد نشأتْ على طبقاتٍ مُتراكمةٍ من المعرفة في شتّى وجوهها على مدى سنواتٍ طويلةٍ، فإنّه لن يكون كاتبًا كما يريد، ولن يكون خالِدًا ولا مُؤثّرًا، أوّل منازل التّأثير أنْ تكون هذه الخميرة كافيةً لأنْ تعجن للبشريّة كلّها خُبزَهم.

إليكَ ما أعني، في صورةٍ مُبسّطة، الخميرة تأخذُ حبوبَها من القراءة، كلّ كتابٍ هو ذرّةٌ من هذه الخميرة، لا خميرة قبل أنْ تتكوّن من آلاف الذّرّات، وإلاّ فإنّها لن تكون قادرةً على أنْ تَخبِزَ رغيفًا واحِدًا. الكتاب الّذي تُنفِقُ السّاعات أو الأيّام في قراءته قد يكون ذرّةً صالحةً أو سُوسةً، لا تُلقِ السُّوسةَ في وعاء الخميرة، ألقِ الذّرات الصّالحة، السّوسة عرّضْها للشّمس حتّى تُغربِلها مِمّا عَلِقَ بها من فَسادٍ، ويُمكنك أنْ تستخدمها

لاحقًا كذرّة صالحة، وتستفيد منها على أيّة حال. الآن ألقِ الذّرّات الصّالحة وانتظر، إنّ الخميرة تحتاجُ إلى وقتٍ لكي تُخمّر العجين، اللّحظات الحقيقيّة في الخميرة الحقيقيّة هي سنواتٌ من الصّبر المرير في خميرة الكاتب، لا تستعجل أنْ تُنضِج خُبزَك وخميرتُك غير جاهزة، إنّ الخبز سيكون عَوِيصًا، تلفظه الأفواه بعد أوّل مَضغة!

اللّغة إلى جانب ذلك جزءٌ من هذه الخميرة، ربّما اللّغة هنا تُشبه كؤوس الماء المسكوبة في البِئر العميقة، كلّ كتابٍ له لغتُه، القرآن كتابٌ له لغتُه، كتُب البشر مجموعين لها لغتها، كتاب الطّبيعة والكون له لغته هو الآخر، كلّ كتابٍ لغته هي كأسُ ماءٍ يُلقَى في بِئر الأسلوب، حينَ تتزايد هذه الكؤوس، تتزايد المفردات والأساليب، هكذا يصنع الكاتب خميرته من اللّغة، تخيّل لو أنّ هذه البِئر لم يُلقَ فيها كأسٌ واحدةٌ، فماذا ستجد فيها غير العناكب والأفاعي والطّين والرّائحة المُنتِنة، نحن نُحرّر عقولنا من العفن بالقراءة، إنّ أوّليّة القراءة هدفها إزالة ذلك العفن، ثُم البدء بالقراءات الثّانية فيما بعد بملء البِئر، فتخيّلْ من كانت بِئرُه خاليةً ويُريد أنْ يُصبح كاتِبًا لأنّه يعتقدُ أنّ المرء يُمكنه ذلك إذا أمسكَ بالورقة والقلم، وشعر بشهوةِ تَسْويد الصّفحات، ماذا سيكتب؟ من أينَ سيأتي بالمعرفة، من أينَ ستنقدح لديه الفِكرة؟ إنّه تسويدٌ حقيقيّ

للصّفحات إنْ فعل. الخميرة من المفردات والتّراكيب والأساليب أيضًا تحتاج إلى صبرٍ طويلٍ وانتظارٍ حتّى تمتلِئ البِئر، بعضُنا يظنّ أنّه إنْ قرأ مِئة كتابٍ مكّنه ذلك من أنْ يكون كاتبًا جَيّدًا، إنّ هذه المِئة كما قلت من قبلُ هي من أجل إزالة العفن الّذي تُرسّبه في البِئر علائق البشر. إنّ آلاف الكتب الّتي هي آلاف الكؤوس المُلقاة في البِئر قد لا تكون كافية. بعضُ كؤوسنا غطّت ثلثَ البِئر، إنّه تبدو للنّاظر من الأعلى جميلةً تترقرق لكنّها غير كافيةٍ، اصبرْ قليلاً، وألْقِ المزيدَ من الكؤوس، لقد امتلأ نِصفُ البِئر. يا إلهي؛ هل يُمكنني أنْ أكتب الآن؟ جميلٌ إنّها صارت كافيةً لترى انعكاسَ السّماء عليها بوضوحٍ من هنا، لكنْ عليكَ أنْ تُلقيَ المزيد. لقد فعلتُ، ألقيتُ المزيد حتّى امتلأ ثلاثة أرباع البِئر، فهل أبدأ الكتابة؟ جيّد، إنّ هذا المستوى يُمكّنك أنْ تمدّ يدكَ لتشرب فحسب، لكنّه لا يُمكّنك من الكتابة، الكتابة فيضُ ما زادَ عن امتِلاء البِئر، ألقِ مزيدًا من الكؤس فإذا فاض البِئر فاكتبْ أيّها التّائق!

لا تجعلْ ما وصفتُه لكَ سابِقًا داعيةً لك إلى اليأس، لعلّكَ عرفتَ ما أقصد من ورائه. دَعْني أُبسّطْ لك الأمر بطريقةٍ أخرى، كم كان يحفظُ المتنبّي؟ كان يحفظُ ديوانَي الطّائيّين، وهي أقلّ ما يحفظ، ديوانا الطّائيَّين وهما ديونا أبي تمّام والبحتري عِدادهما ربّما يقتربُ من عشرةِ آلافِ بيتٍ، كان

يحفظُ ربّما عشرين ألفَ بيتٍ آخَر على الأقلّ! ثُمّ هذه الحكمة وهذه الفلسفة في شِعره من أين أتى بهما؟ لقد أجاب النُّقّاد عن ذلك من قبل؛ لقد قرأ المُتنبّي الفلسفات الّتي سبقتْه الشّرقيّة والغربيّة كلّها. فهل كان يعرفُ الإلهيّات والأديان والعقائد والمِلل والنِّحَل في زمانه وما سبقَ زمانه؟ الإجابة: نعم، ظهر ذلك على سبيل المِثال في حديثه عن المانويّة الّتي لَخّصها في بيتٍ واحدٍ قالَ فيه:

وكم لظلام اللّيلِ عندكَ مِنْ يَدٍ

تُخبِّرُ أنّ المانَوِيّةَ تَكذِبُ

فهل كان يعرفُ في الطّبّ والعلوم أو يستخدم ما يعرفه فيهما من أجل أنْ يعضد فلسفته؟ بالطّبع نعم، وإلاّ فكيفَ تُفسّر هذا المزج العجيب بينهما أعني الفلسفة والطّبّ في أكثر من موضعٍ في شِعره، وهذا مثال:

يَمُوتُ راعي الضّأنِ في جهلِهِ

موتةَ جالينوسَ في طِبّه

ولو أنتَ بسطتَ وقتَك وعقلكَ أمام سينيّته الّتي يقول في مطلعها:

هذي بَرَزْتِ لنا فَهِجتِ رَسِيْسَا

ثُمّ انْثَنَيْتِ وما شَفَيْتِ نَسِيْسا

لتبيّن لك أنّكَ مُحتاجٌ أنْ ترجع ربّما إلى كتابٍ كاملٍ في الفلسفة والتّاريخ والعقائد مع كلّ بيتٍ تعبره من هذه القصيدة الّتي لم يَزِدْ عددُ أبياتها عن ثلاثين بيتًا.

نحنُ إذًا نتحدّث عن مرجعيّات قد يصعبُ حصرُها هي الّتي شكّلت خميرةَ المتنبّي؛ هل تُدرك الآن كم كأسًا ألقى في البِئر حتّى عاشَ شِعرُه وماتَ شِعرُ غيره مِمّن سَبَقَه أو جاءَ بعدَه؟!

أوّلُ النّثر:

أوّل مرّة عرفتُ أنّني أريدُ أنْ أكتب، وشعرتُ بالرّغبة في ذلك، كانت في عام ١٩٨٣م، بعدَ انتقالنا من (سُوف) إلى (إربد). كانت مكتبة الأمل - الّتي قدّمتُ لها في الفصول

السّابقة - قد بدأتْ كُتُبها تستثير عندي تلك الرّغبة، سنتان ربّما، أو أكثر من الدّروب المطروقة بين بيتنا والمكتبة نَجَم عنهما إحساسٌ أوّليّ بمتعة الدّخول إلى عالَم الكتابة، كانت مئات القصص الّتي قرأتُها هي الّتي بدأتْني ناثِرًا قبل أنْ أكون شاعرًا، يبدو أنّ الشّاعر كان موجودًا، فهو يولَد مع الإنسان أوّل مجيئه إلى هذا العالَم، ولكنْ يبدو أنّه كان نائِمًا، وأنّ القصص والكتب الأولى هي الّتي نثرت الحَبّ لعُصفوره قبل أنْ يبدأ بالتَّغراد.

بدأتُ أُخربشُ على المعنى الحقيقيّ، أقلّد أحيانًا ما أقرأ، أقرأ قِصّة (جزيرة الكنز) مثلاً، وأُفكّر بعدَ فترةِ صمتٍ وتأمّلٍ في أحداثِها وشخصيّاتها كيفَ يُمكن أنْ أُقلّدها. كان التّقليد أولى خطواتي في الكتابة. أنا صورةُ ما أقرأ. لم تكن الصّورة انعِكاسًا كامِلاً، كانت إعادة انعِكاس، أعني؛ كان معي إلى جانب المرآة مِصباح، فكنتُ أُلقي الضّوء بالزّاوية الّتي أريدُها على المشهد، فيبدو نِصفُه ويغيبُ نصفُه الثّاني، عليّ بعدَ التّأمّل في النّصف المرئيّ أنْ أتخيّل النّصف المحجوب، ثُمّ أقوم بالمزج بين النّصفَين والخروج بنصّي الخاصّ!

هل كنتُ ألعبُ مع المَشاهد؟ ربّما؛ لكنّني كنتُ ألعبُ مع الشّخصيّات الّتي تصنع المشاهد أكثر، ومع الكلمات الّتي

تصنع المشاهد والشّخصيات أكثر منهما؛ لقد كانت الكلمات لُعبتي على الحقيقة، كانت أمتعَ لُعبة أؤدّيها منذُ البدايات باحتِراف؛ كان في رأسي عددٌ لا يُحصَى من الكلمات الّتي حفظتُها وحفظتُ العلاقات النّاجمة عنها، ما كنتُ أفعله في رأسي ذاك هو أنّني كنتُ أُعيدَ خلطَ الكلمات لأُعيد إنتاج النّصّ، كان عقلي الرّياضيّ يجعلني أخرج باحتِمالات لا نهائيّة نتيجة ذلك الخلط، وكُنتُ أقارن بينها وأضحكُ في أعماقي كثيرًا للنّتائج الّتي تختلفُ في كلّ مرّةٍ باختِلاف الاحتمالات؛ وهل المعنى إلاّ عددٌ لا نهائيّ من الاحتِمالات النّاتجة عن خلط الكلمات؟! إنّ هذا هو التّفسير الرّياضيّ العِلميّ الذي عناه الجاحظ في المُفاضلة بين اللّفظ والمعنى.

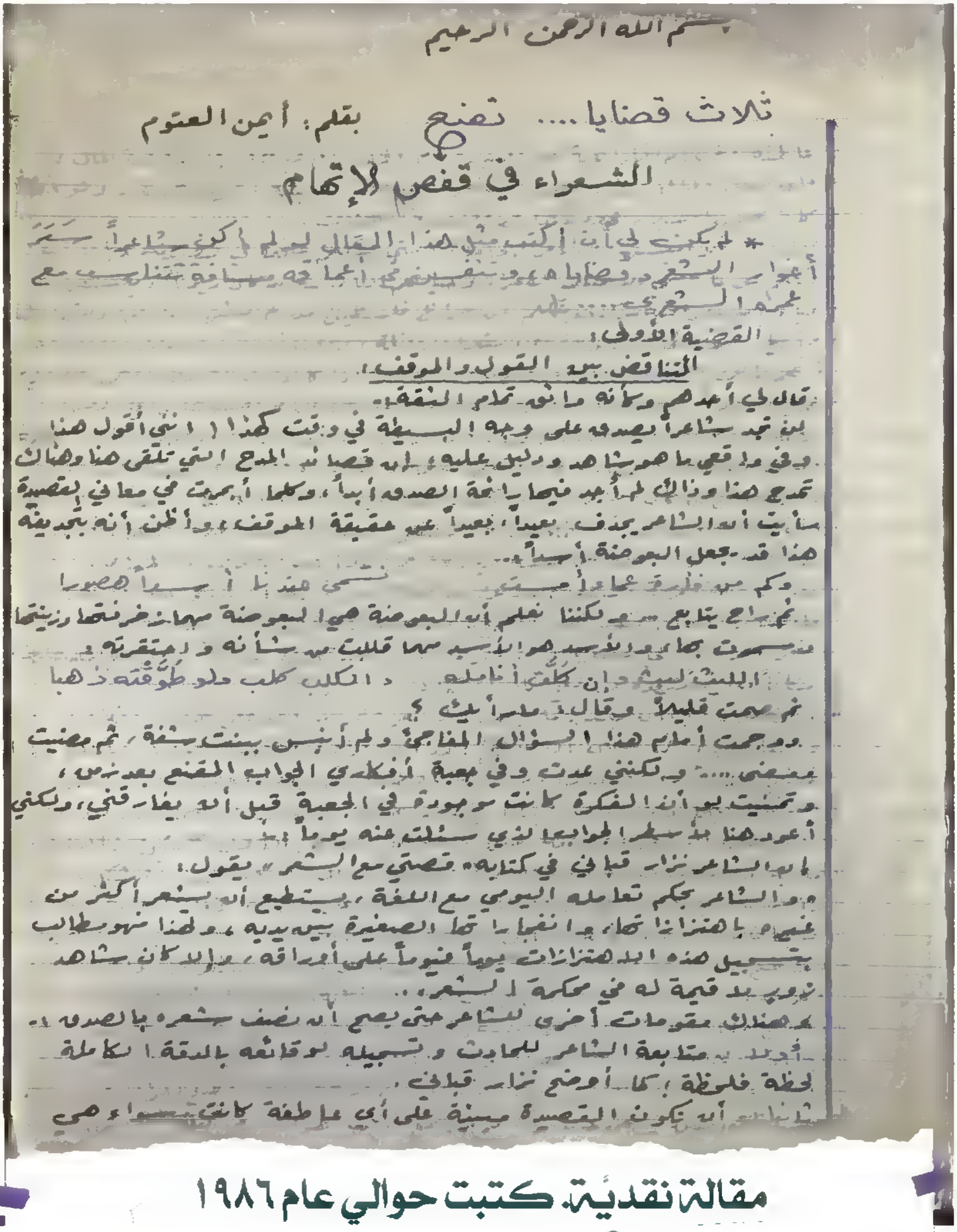
بسم الله الرحمن الرحيم

ثلاث قضايا.... تضج   بقلم: أيمن العتوم

الشعراء في قفص الاتهام

* لم يكن لي أن أكتب مثل هذا المقال [illegible] أغوار الشعر وقضاياه [illegible] مع عالم الشعر [illegible]

القضية الأولى:

التناقض بين القول والموقف:

قال لي أحدهم وكأنه ما نوى تمام الثقة:
لن تجد شاعراً يصدق على وجه البسيطة في وقت كهذا!! إنني أقول هذا وفي واقعي ما هو شاهد ودليل عليه، إن قصائد المدح التي تلقى هنا وهناك تمدح هذا وذاك لم أجد فيها رائحة الصدق أبداً، وكلما أبحرت في معاني القصيدة رأيت أن الشاعر يجدف بعيداً بعيداً عن حقيقة الموقف، وأظن أنه بتجديفه هذا قد جعل البوصلة أسيراً...
وكم من [illegible]
نموذج يتابع من لكننا نعلم أن البوصلة هي البوصلة مهما زخرفتها وزينتها من صور بحلي بعد الأسد هو الأسد مهما قللت من شأنه واحتقرته
الليث ليث وإن كلّت أظافره   والكلب كلب ولو طوّقته ذهبا
ثم صمت قليلاً وقال: ما رأيك؟
ووجمت أمام هذا السؤال المفاجئ ولم أنبس ببنت شفة، ثم مضيت بمضي.... ولكنني عدت وفي جعبة أفكاري الجواب المقنع بعد زمن، وتمنيت لو أن الفكرة كانت موجودة في الجعبة قبل أن يفارقني، ولكني أعود هنا لأسطر الجواب الذي سئلته عنه يوماً:
إن الشاعر نزار قباني في كتابه "قصتي مع الشعر" يقول:
"والشاعر بحكم تعامله اليومي مع اللغة، يستطيع أن يشعر أكثر من غيره بالاهتزازات تحت [illegible] الصغيرة بين يديه، ولهذا فهو مطالب بتسجيل هذه الاهتزازات يوماً فيوماً على أوراقه، وإلا كان شاهد زور لا قيمة له في محكمة الشعر"..
وهناك مقومات أخرى للشاعر حتى يصح أن نصف شعره بالصدق:
أولاً: متابعة الشاعر للحادث وتسجيله لوقائعه بالدقة الكاملة لحظة فلحظة، كما أوضح نزار قباني.
ثانياً: أن تكون القصيدة مبنية على أي عاطفة كانت سواء هي

مقالة نقدية كتبت حوالي عام ١٩٨٦

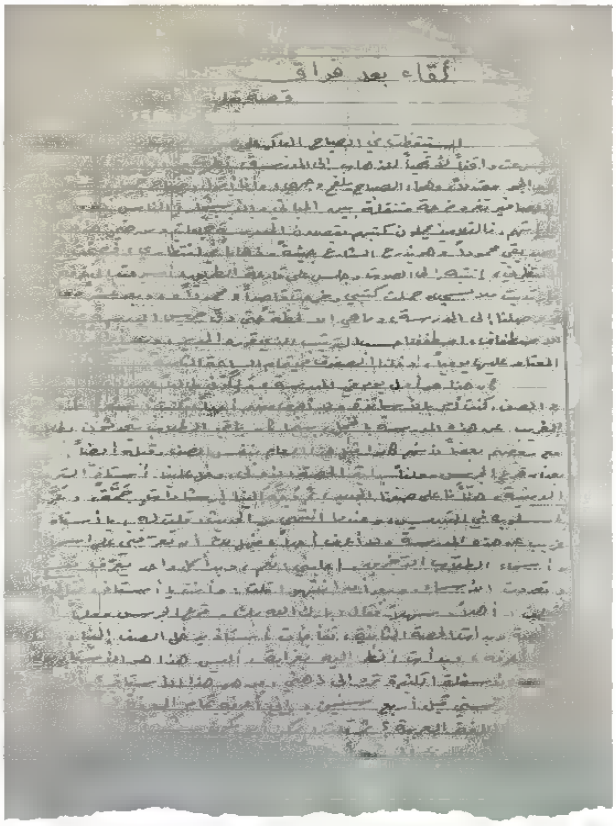

لقاء بعد فراق

لقــاء بعــد فــراق – قصــة قصيــرة – كتبــت مطلــع الثمانينــات مــن القرن العشــرين

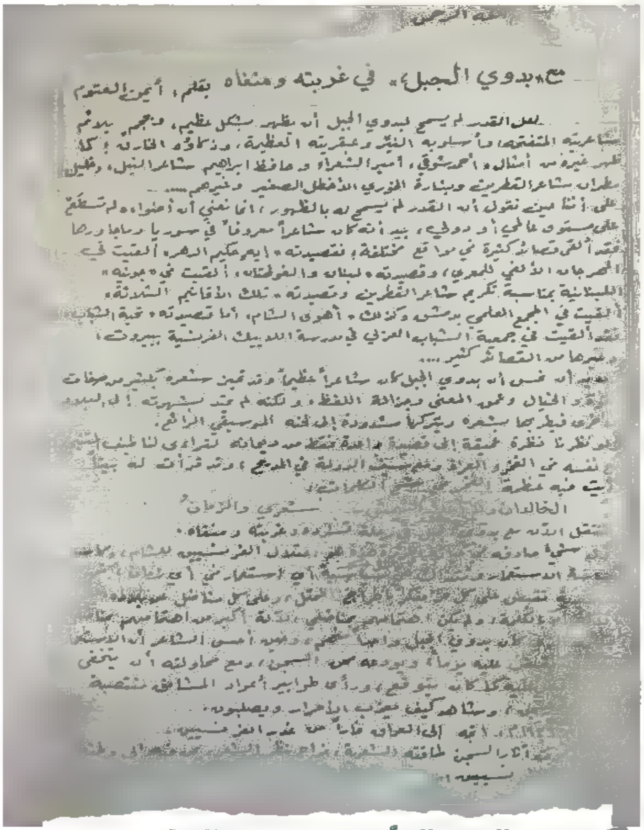

مع «بدوي الجبل» في غربته ومنفاه بقلم، أيمن العتوم

لعل القدر لم يسمح لبدوي الجبل أن يظهر بشكل عظيم، ونجم يلمع شاعريته المتفتحة وأسلوبه النيّر وعبقريته العظيمة، وذكاؤه الخارق إلى ظهر غيره من أمثال «أحمد شوقي، أمير الشعراء» و«حافظ ابراهيم شاعر النيل» و«خليل مطران شاعر القطرين» و«بشارة الخوري» «الأخطل الصغير» وغيرهم....

مقالة نقديّة عن بدوي الجبل

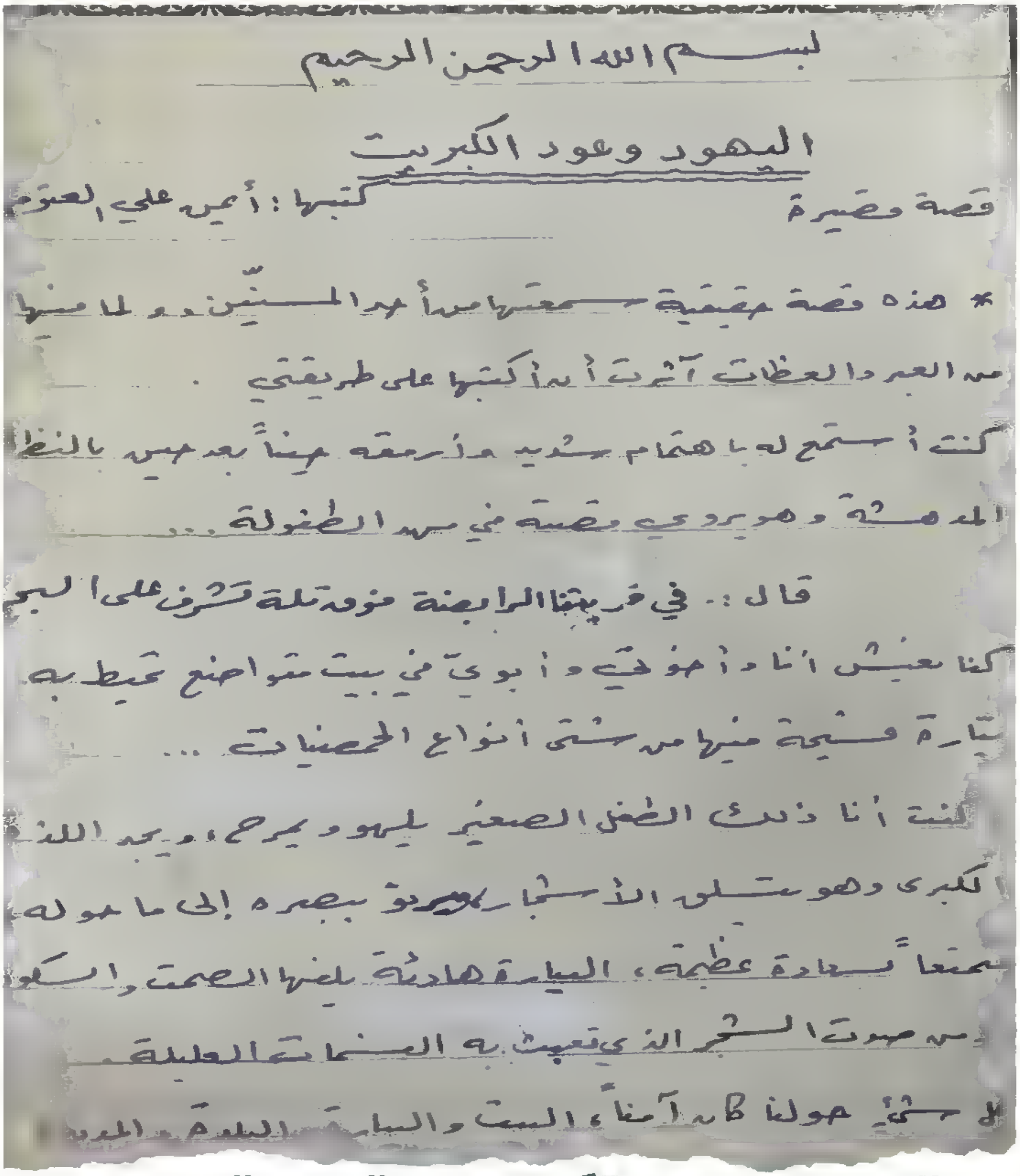

بسم الله الرحمن الرحيم

اليهود وعود الكبريت

قصة قصيرة كتبها: أمين علي العمو...

* هذه قصة حقيقية سمعتها من أحد المسنين وهو لما منها
من العبر والعظات آثرت أن أكتبها على طريقتي .
كنت أستمع له باهتمام شديد وأرمقه حيناً بعد حين بالنظ...
المدهشة وهو يروي قصة من عهد الطفولة ...
قال: في قريتنا الرابضة فوق تلة تشرف على البحـ...
كنا نعيش أنا وأخوتي وأبوي في بيت متواضع تحيط به
بيارة فسيحة فيها من شتى أنواع الحمضيات ...
كنت أنا ذلك الطفل الصغير يلهو ويمرح ويجد اللذ...
الكبرى وهو يتسلق الأشجار ويرنو ببصره إلى ما حوله
مستمتعاً بسعادة عظيمة، البيارة هادئة يلفها الصمت والسكو...
من صوت الشجر الذي تعبث به النسمات العليلة.
لا شيء حولنا كان آمناً، البيت والبيارة والبلدة والمدينـ...

اليهـود وعـود الكبريـت - قصـة قصيـرة -
كتبـت حوالـي عـام ١٩٨٢

إنتصار الفضيلة

كتبها الطالب :

أحمد علي حسين غنوم

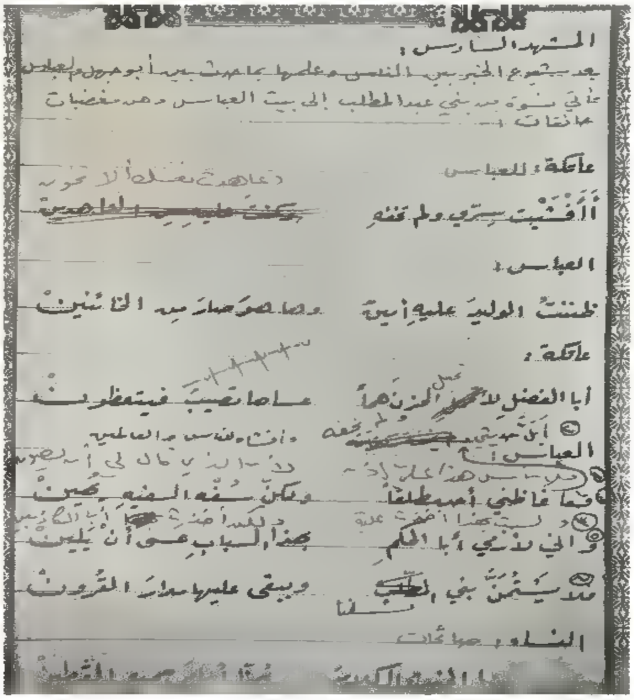

المشهد السادس :

بعد سماع الخبر ... وعلمها بما حدث بين أبو جهل والعباس تأتي نسوة من بني عبد المطلب إلى بيت العباس وهن مغضبات عاتبات .

عاتكة : للعباس

أأفشيت سري ولم تخفه ...

العباس :

ظننت الوليد عليه أمينا ... وما صار من الخائنين

عاتكة :

أبا الفضل لا تحزن ... عساها تصيب فيتعظون

العباس :

فما فاتني أن أصطلحا ... ولكن ...

وإني لأرى أبا الحكم ... بهذا السباب عسى أن يلين

فلا يستمن بني المطلب ... ويبقى عليها سادات القريتين

النساء : صائحات

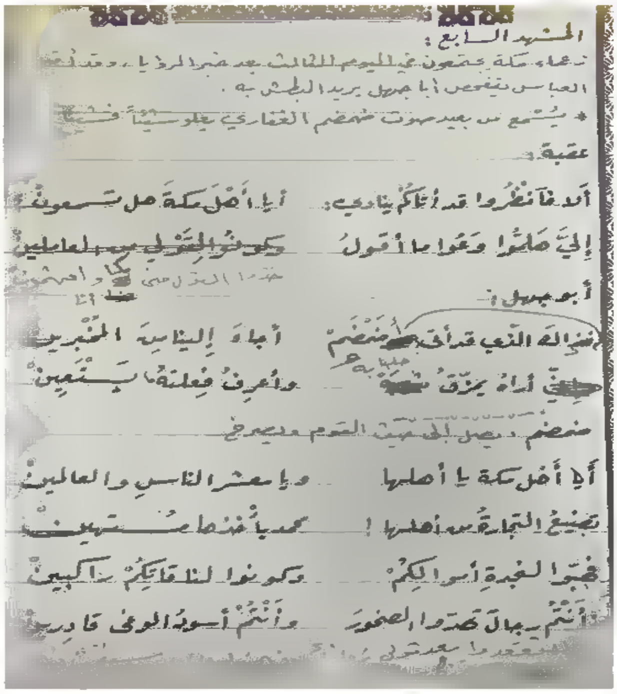

المشهد السابع :

زعماء مكة يجتمعون في اليوم الثالث بعد مضي الرؤيا ، وقد أتى العباس يتفحص أبا جهل يريد البطش به .

* يسمع من بعيد صوت ضمضم الغفاري يعلو شيئاً فشيئاً

عقبة :

ألا فانظروا قد أتاكم ينادي ... أيا أهل مكة هل تسمعون

إليّ هلمّوا وعوا ما أقول ... وكونوا القول من العاملين

أبو جهل :

... قد أتى ضمضم ... أجاء إلينا ... المخبرين

حتى أراه ... وأعرف فعلته يستبين

ضمضم : يصل إلى بيت القوم ويصرخ

ألا أهل مكة يا أهلها ... ويا معشر الناس والعالمين

تضيع التجارة من أهلها ... محمد ... مستهين

هبّوا لنجدة أموالكم ... وكونوا لنا لقائكم راكبين

أنتم رجال تصدوا الصخور ... وأنتم أسود الوغى قادرين

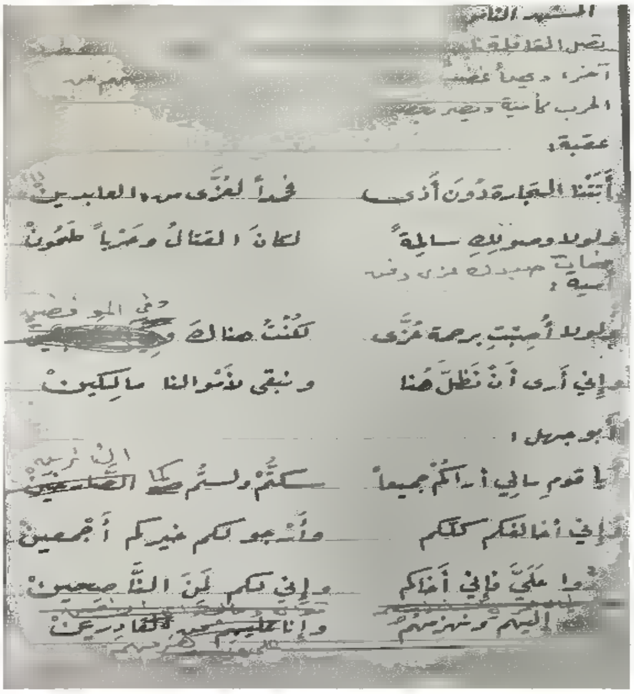

المشهد الثامن

تصل القافلة ...

آخر ... الحرب ...

عقبة :

أتتنا التجارة دون أذى ... فحداً لعزى من العابدين

فلولا وصولك سالمة ... لكان القتال وحرباً طحوناً

...

فلولا أصبت برحمة عزى ... لكنت هناك ...

فإني أرى أن نظل هنا ... ونبقى لأموالنا مالكين

أبو جهل :

يا قوم مالي أراكم جميعاً ... سكتم ولستم ...

فإني أمالفكم كلكم ... وأرجو لكم خيركم أجمعين

... عليّ فإني أخاكم ... وإني لكم لمن الناصحين

... ... وإنا عليهم ... لقادرين

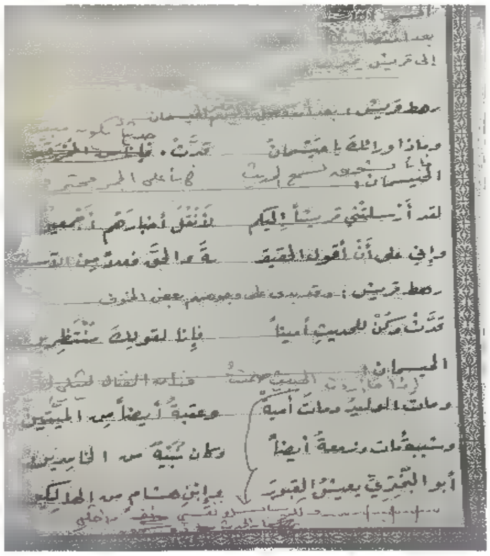
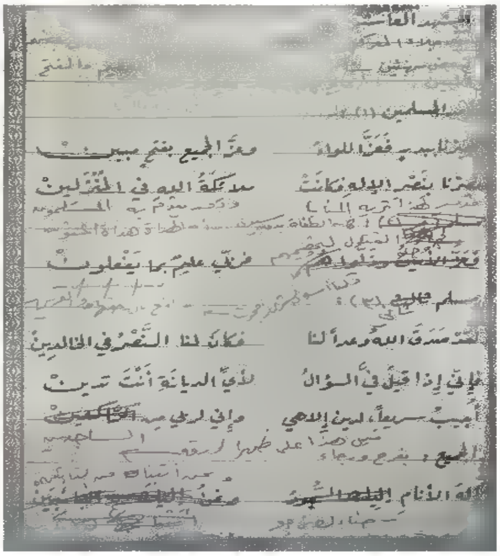

مُسودّات بعض القصص القصيرة الأولى وبعض المسرحيّات، كتبت بين عامي ١٩٨٥ - ١٩٨٧

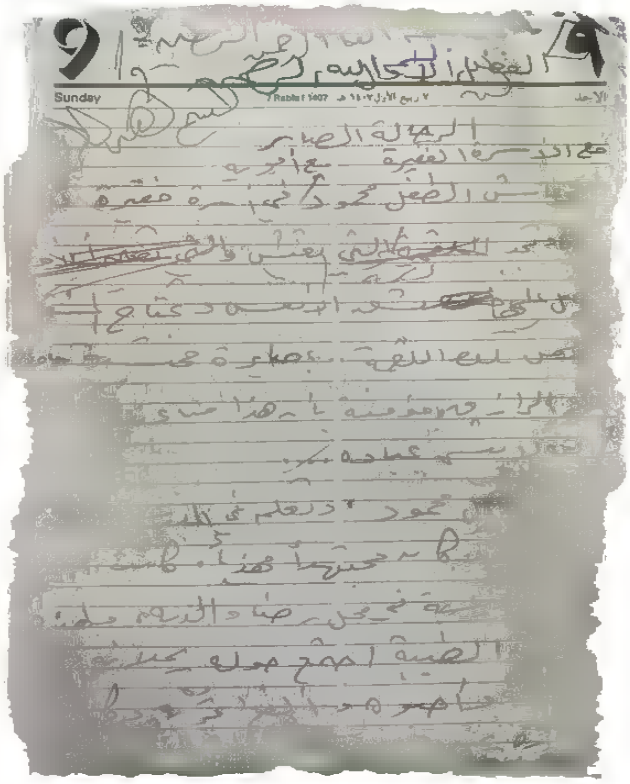
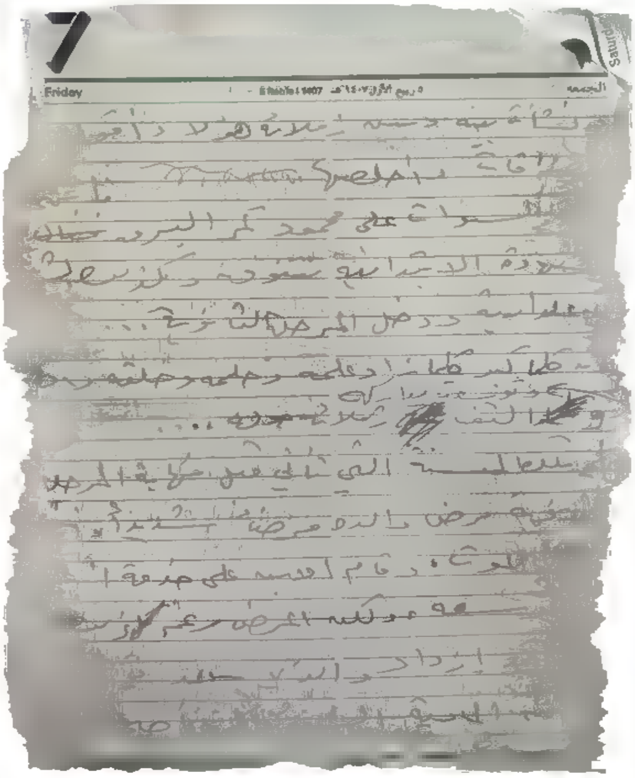

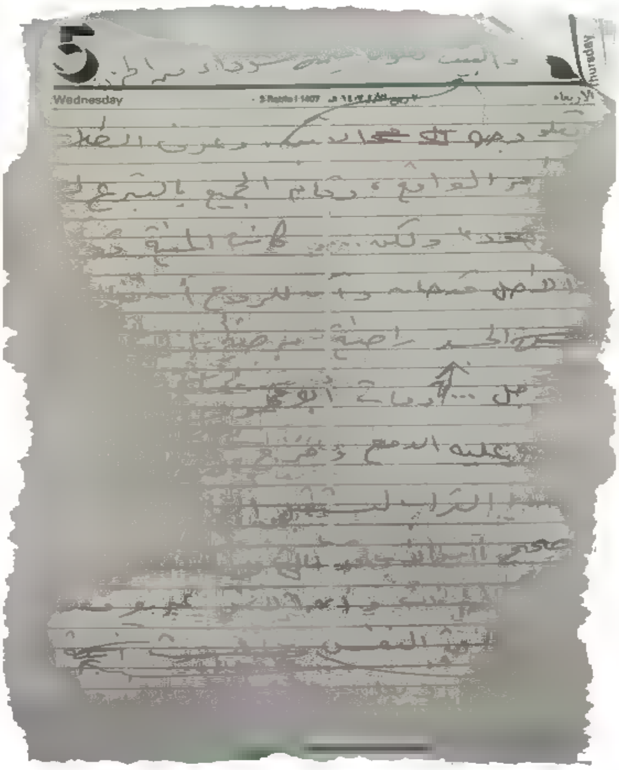

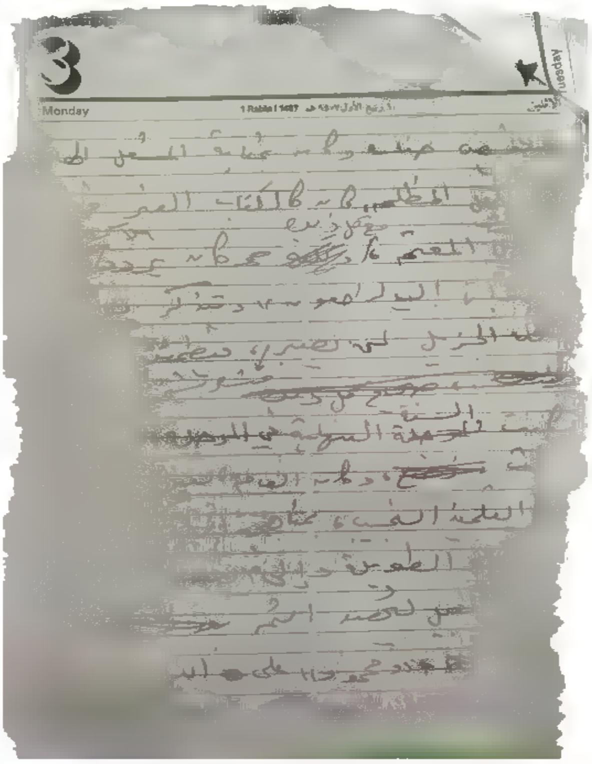

مُسودّات بعض القصص القصيرة الأولى وبعض المسرحيّات،
كتبت بين عامي ١٩٨٥ -١٩٨٧

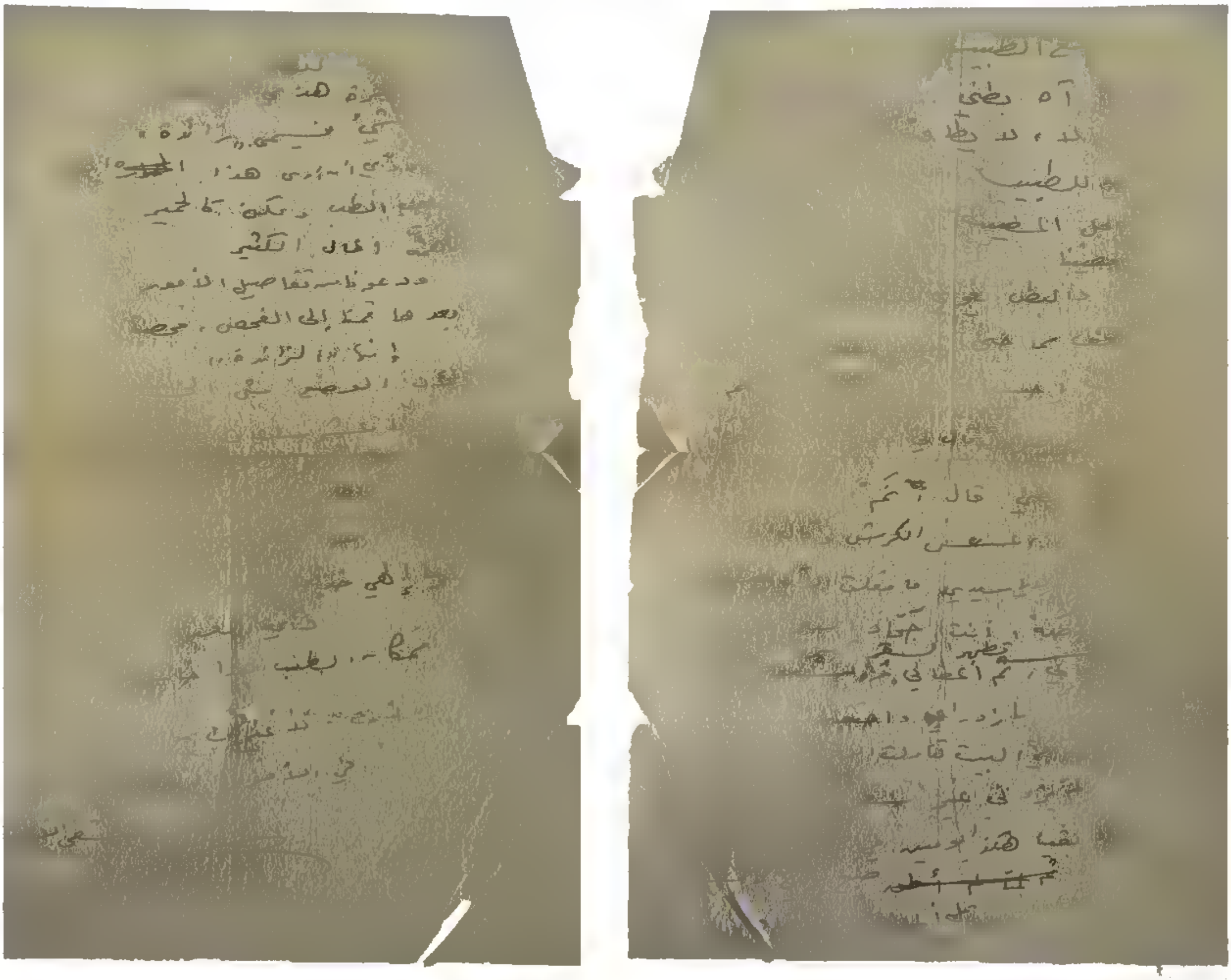

مُسْوَدّة قصيدة (مع الطبيب) - عام ١٩٨٨م

كتبتُ وأنا في الابتِدائية أكثر من عشر قصصٍ قصيرةٍ بعضُها زعمتُ على عادتي في الإيهام أنّني سمعتُها من أحدِ المُسنّين، في محاولةٍ لإضفاء الغموض والمِصداقيّة في آنٍ واحدٍ عليها، وفي عام ١٩٨٧م كتبتُ أوّل مسرحيّة شعريّة تتحدّث عن معركتَي بدر وأحد ككفّتَي ميزان.

في الإعداديّة في العام ١٩٨٧م كتبتُ قصّة (اليهود وعود

الكبريت)، و(لقاء بعدَ فراق)، و(دموع عند مصبّ النّهر)، و(انتِصار الفضيلة)، وجميعها كُتبث بخطّ اليد بعنايةٍ وتأنّق.

ثُمّ عَنّ ببالي في العامِ نفسِه أنْ أكون ناقِدًا أو باحِثًا، وذلك من قَفَزات الأحلام عندي، فكتبث بعض المقالات النّقديّة، أذكر منها: (ثلاث قضايا تضع الشّعراء في قفص الاتّهام)، و(مع بدوي الجبل في غربته ومنفاه)، الأوّل نُشِر في مجلّة المجلّة العربيّة على ما أذكر، وهي مجلّة مرموقة، والثّاني نُشِر في جريدة اللّواء الأسبوعيّة الأردنيّة، ولي معها قِصّة سأرويها في الفصل الثّامن من هذا الكتاب (فصل النّشر) بإذن الله تعالى.

لا يُمكنني أنْ أتحدّث عن خربشاتي كلّها في الطّفولة، ولا عن محاولاتي الأولى، كنتُ لا أدع القلم والورقة من يدي في ليلٍ ونَهار، بعضُ حاجاتي الأخرى تقلّصتْ لصالح الكتابة، لم يكنْ عندنا تلفازٌ في البيت فلا برامج أطفال ولا غيرها، وتقلّصتْ علاقاتي، فلم أعدْ أخرج من البيت كثيرًا، الدّرّاجة الهوائيّة وترتيبُها الثّالث في هذه الدّرّجات قامتْ ببعضِ التّعويض؛ كنتُ أركبُها ماضِيًا إلى مكتبة الأمل من أجل شراء الكتب أو تبديلها، وكنتُ قد ركّبتُ عليها من الخلف صندوقًا يتّسع لعددٍ كبيرٍ من الكتب، وإذا كان في الوقتِ فُسحةٌ،

فإنّني أقودُ درّاجتي باتّجاه الطّريق الخارجة من إربد إلى الحصن، فأسير بها حتّى أصل إلى الحصن وهي مسافةٌ تقتربُ من ثمانية كيلومترات، ولكنّها لم تكنْ مُكتظّة أبدًا كما هي اليوم، بل كانت مُنبسطة على امتداد الأفق، خاليةً من العمارات والنّاس والإشارات والمطاعم والمقاهي، لم يكنْ فيها عمارة واحدةٌ، آخر عمارة كانت مستشفى الرّاهبات الورديّة، وإذا كان الوقتُ ربيعًا، فإنّ البساط الأخضر المُمتدّ المُرصّع بألوان الزّهور المُتعدّدة والأفق الفسيح والدّرب الخالية يجعل من ذلك متعةً فائقة!

حلّت فِيّ روح الجاحظ وأنا صغير ففكّرتُ بتأليف موسوعة عن الحيوانات، مثلما فعل الجاحظ في كتابه الحيوان تمامًا، ولقد قلتُ إنّ محفوظي من الشّعر ممتاز، ولكنّه في ذلك الشّعر الّذي يتعلّق بالحيوان ضعيف، وقلتُ أبدأ بجمع المعلومات العُضويّة، أوصاف الحيوانات، طرائق تكاثرها، غرائبُ أفعالها، أماكن وجودها، وغير ذلك، ريثما يتسنّى لي أنْ أعودَ إلى وصف الحيوان في العربيّة. بعد ثلث قرنٍ من ذلك الهَوس بجمع المعلومات عن الحيوانات، برز من فترةٍ قريبةٍ هوسٌ آخَر عندي بجمع الأشعار الّتي تتحدّث عن الحيوان، بدأتُ بديوان المتنبّي لأنّه صديقي ففرّغتُ منه كلّ ما يتعلّق بالحيوان، أخذَ ذلك منّي أشهرًا لاهِثًا وراء كلّ

مفردةٍ تتحدّث عن الخيول والجِمال والأسود والفهود والنّمور والذّئاب والقرود والأفاعي والذّباب والجراد، وغيرها... التقطتْ أنفاسي بعدَ كلّ هذا، وفكّرتُ: يبدو أنّ ما أقوم به جنونٌ حقيقيّ، إنّ ذلك يستغرق منّي عشرات السّنين لو أردتُ أنْ أفعل مع كلّ ديوانِ شعرٍ عربيّ ما فعلتُه مع المتنبّي. لأتوقّفْ إذًا عن هذا الجنون، يُمكن أنْ ألجأ إلى مَنْ سبقني في ذلك، فأُراكم المعرفة، آخُذ ما فعله الجاحظ والدميري، وغيرهما مِمّن سبقوني، وأُضيف ما أعرف، قد يكون ذلك أجدى... ولكنّني تساءلتُ: كيفَ فعلها الجاحظ؟ كيف استطاع أنْ يجمع سبعَةَ مُجلّدات عن الحيوان، وكيفَ كتبَ كلّ هذه الكتب الّتي نَيّفتْ عن ثلاثمئة عنوان، أحدُ هذه العنوانات هذا السّفر ذو المجلّدات الثّمانية؟ هل كان معه فريقٌ كبيرٌ ليعمل عنده؟ إنّ هذا العمل يحتاج إلى تضافر جهود مُؤسّسات ودولٍ معًا حتّى يخرج بهذه الموسوعيّة؛ إنّ في الأمر لَسِرًّا!

المهمّ أنّني اشتريتُ أكثر من مئة مُغلّف، وكتبتُ على كلّ مغلّف اسم الحيوان، فاجتمع عندي ما يقرب من مئة حيوان، كنتُ كلّما قرأتُ معلومةً جديدةً عن هذا الحيوان أو ذاك، كتبتُه في ورقة، ودَسَسْتُها في المُغلّف، بعضُ المُغلّفات كان يحوي عشر ورقات أو أكثر، وبعضُها لم يكنْ يحوي غير ورقةٍ

واحدةٍ، إذ لم أجدْ عن هذا الحيوان إلاّ معلومةً واحدة. وكنتُ في ذيل كلّ ورقةٍ أكتبُ المصدر الّذي نقلتُ عنه وأكتبُ التّاريخ الّذي دوّنتُ فيه هذه المعلومات.

اليوم في هذه المغلّفات الّتي مرّ على كتابةِ أوراقها ما يقرب من خمسةٍ وثلاثين عامًا ستجدون تلك المعلومات الّتي جمعتُها عن الحيوان من الكتب والصحف والمجلات والمشاهدات ولو فرغت ما فيها ووصلت بعضه ببعض لخرجتُ بمجلدات ضخمةٍ، وسلسلةٍ طويلة، وكنتُ سأعتمد ما اعتمده الجاحظُ من تأديب الحَيوان؛ أي إضافة النّكهة الأدبيّة الخاصّة من شعرٍ أو نثرٍ إلى المعلومة العِلميّة. كل ذلك تَمّ وأنا في الصَّفَّين الثاني والثالث الإعدادي! ولقد وقعت في مطالعاتي تلك على أسماء حيوانات وطيور لم أعرفها ولا أدري ما هي، ولم أسمع بها من قبل، مثل (الرودونر) و(أوراتج أوتات) و(البنجوان الملكيّ) وغيرها من الأسماء العلميّة الأجنبيّة... ولكنني أثبتُّها في هذه المِلفّات على أمل أنْ أعرفها فيما سيأتي من زمن وأُعرّف بدوري النّاسَ بها!

أوّل الشِّعر:

لقد نما الشّاعر في بداياتي أسرعَ بكثيرٍ مِمّا نما القاصّ أو

الكاتب. كان الشّعر نَغَمًا شجيًّا، وروحًا مُحلّقة، استطاع أنْ يُؤرْجِحني بين الحقيقة والخَيال بطريقةٍ مُذهلة، كنتُ مُحتاجًا في تلك السّنّ - وبالطّبع حتّى اليوم - إلى ذلك التّحليق، كان الإلهام الّذي يُلقيه الله في رُوح الشّعراء هو الّذي يُمكّنهم من ذلك. لقد حلّقتُ حتّى لكأنّي أقول عن النّابغة الجَعديّ بيتَه حينَ أنشده أمام الحبيب:

بلغْنا السّماءَ مجدُنا وجُدودُنا

وإنّا لنبغي فوقَ ذلكَ مَظْهَرَا

كتبتُ أولى قصائدي في سُوف، نغمًا على التّراب، وشجنًا على السّحاب، كانتْ سُوف تُعلّمني الشّعر دون أنْ تقول إنّها تفعل، كان غيمُها في الشّتاء، وغُذوق أشجارها بعدَ المطر وقطراته تَسّاقطُ كأنّها حَبُّ الجُمان يفعل ذلك. كانتْ جبالها الّتي يقصرُ عنها النّجم وينسرب عنها الوَدْق يفعل ذلك. كانتْ روحُ طبيعتها البِكر، وصفاء مياهها الّتي لم تُلوَّث، وهدوء مساءاتها الغافية يفعل ذلك.

حينَ صرنا في إربد، بدأتُ أشتغلُ على الصّورة البصريّة للشّعر؛ أعني على الشّطرَين المُتساويَين في عدد الكلمات

والمُنتهِيَين بقافيةٍ مُتماثلة، لم يكنِ العَروض قد موسقَ أذني تمامًا، كنتُ في الصّفّ الخامسِ حينَها، ضاعَ كلّ ما خربشتُه يومئذٍ، ثُمّ غنّيتُ ما غنّيتُ من الشّعر حتّى انقادَ لي، وصرتُ أرنّم البيتَ حتّى أكتسبَ نغماته الموسيقيّة فأعيدُ النغمة دون الكلمة، وأظلّ أعيد النّغمة حتّى أصعدَ سُلّمه الموسيقيّ بسلاسة، وحتّى يُصبح بابُها مفتوحًا على مِصراعَيه، فحينئذٍ ألجُ بحذرٍ وهدوءٍ في البداية، فإذا وجدتُ النَّغَم طاوعني مع الكلمات الّتي هي مفاتيحُه، دخلتُ إلى القصيدة بكامل ثقتي، فتابعتُ إلقاء المفاتيح في الأبواب، فإذا الباب الأوّل ينفتح عن البيت الأوّل فآخذه فَرِحًا به، وأمضي به وهو بين يدي، فألقي المفتاح الثّاني فينفتح الباب الثّاني فآخُذ البيت، وهكذا حتّى انفتحتْ لي يومَها ثمانية أبواب، وتلك كانتْ قصيدتي الأولى الموزونة، كانتْ على بحر الهزج:

على الأهزاجِ تَسْهِيلٌ

مَفاعِيلُنْ مَفاعِيلُنْ

وأذكرُ أنّني عام ١٩٨٥م حملتُها إلى أبي فَرِحًا، فطار بها من الفرح مثلي وزِيادة. لقد وُلِدَ في بيتِه شاعرًا! لم أعُدْ أذكر اليوم منها بيتًا واحِدًا وقد مضى على ذلك سنواتٌ يتيهُ فيها

السّحاب فكيفَ بقطعةٍ خَداجٍ خرجث من قلبِ شاعرٍ في أوّل الطّريق، وضاعث هي فيما ضاع، ولا يعزّ مثلُها على واحدٍ مثلي، إلاّ لأنّ الأوائل من كلّ شيءٍ لها ميزتُها. ثُمّ مضى عامٌ بدا لي أنّ الشّعر فيها قد سكت، وأنّها كانت قصيدةً يتيمة، وأنّ الشّاعر إمّا أنْ يولَد شاعرًا وإمّا فلا، فإنّه في هذا لا يوجد أنصافُ شعراء، فظننتُ أنّه لم يكنْ شاعِرًا من الأساس ذلك الّذي صدح بتلك القصيدة، فتركتُه! غير أنّ الّذي ظهر فيما بعدُ أنّه لم يسكث، بل كان يتغذّى على قليلٍ من الكلام وكثيرٍ من الموسيقى، حتّى يكون قادرًا على المشي في دروب الشّعر الطّويلة والشّائكة، كان ذلك عام ١٩٨٦م وهي البداية الحقيقيّة للشّاعر الّذي صِرتُه، كانت القصيدة الثّانية الّتي كتبتُها آنئذٍ على مجزوء الكامل، ودفعث بها إلى أبي، فغيّر في بعضِها، وغنّاها معي حتّى يطمئنّ إلى أنّ أُذني الموسيقيّة سليمة، وهذه القصيدة كانث أطولَ من سابقتها، فقد وصلث إلى أربعة عشر بيتًا، ولا زلثُ أحفظُ بعضَها وإنْ نسيثُ أكثرها، فمن ذلك:

ماذا أُحدّث أو أقولْ.. عنْ أُمّتي ذات الأصُولْ

كانثْ بِحارًا في السّخاءِ ضراغِمًا إذْ ما تصولْ

قد أغدقتْ من عِلْمِها... وبِعِلْمها غَيْثٌ هَطولْ

وتمثّلتْ كلّ الحضارات القديمة في العُقُولْ

ثُمّ لم يمضِ عامٌ آخر، حتّى إذا صرنا في عام ١٩٨٧ ولي من العمر خمسةَ عشرَ عامًا كنتُ قد أتممتُ كتابة ديواني الأوّل الّذي لم يُنشَر بالطّبع، وأسميتُه (بوارق الفجر)، وفي المقدّمة، الّتي كتبتُها هي والقصائد كلّها بخطّ يدي متأنّقًا في ذلك، بدتْ ثقتي كبيرةً بما أكتب، فقد جاء فيها: «ولَطالَما كان يُداخِلني شعورٌ جامحٌ بأنّني خليفة شوقي وأعظم، ولعلّ جزءًا غير قليلٍ من قصائدي شاهدٌ على ذلك. وكان ذلك هو السّبب الّذي جعلني أُصمّم على الحصول على المركز الأوّل في المملكة كاملة، وتحقّق لي ما أردتُ على أربعِ مراحل، الأولى وفزتُ فيها على مكتب إربد، والثّانية وفُزتُ فيها على مُحافظة إربد، والثّالثة وفُزتُ فيها على جميع المُحافظات، والأخيرة وحصلتُ على المركز الأوّل أمام جميع المُتسابقين على مستوى المملكة، وبتاريخ ٢٤-٢-١٩٨٨م دُعينا للمهرجان الشّعريّ - تحتَ رعاية الأستاذ ذوقان الهنداوي وزير التّربية والتّعليم - السّابع للمُشاركة فيه، وألقيتُ هناكَ قصيدةً جاءَ فيها:

حَيّ المدارسَ وافْتَخِرْ عَلَنًا بها

إنّ المدارسَ مَصنعُ العُلماءِ

كمْ مَهَّدَتْ لذوي العُقُولِ طريقَهم

وَمَضَتْ بهمْ قُدُمًا إلى العَلْياءِ

كَمْ أَفْسَدَتْ لِلْجَهلِ كُلَّ طَرِيقةٍ

وَقَضَتْ عليهِ بِهِمّةٍ ومَضاءِ

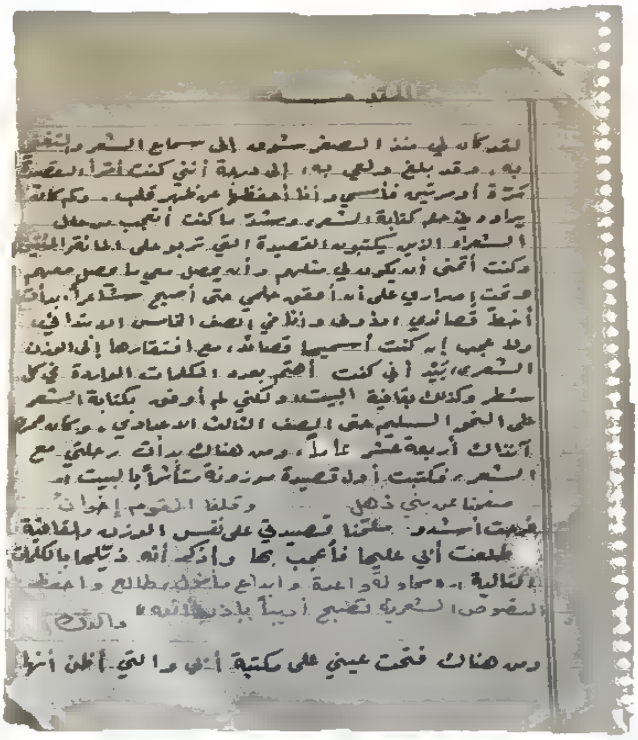
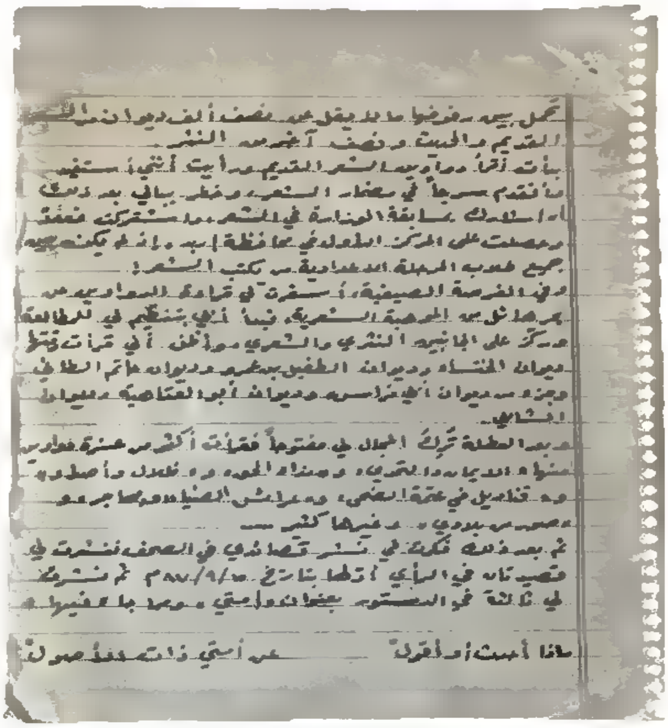
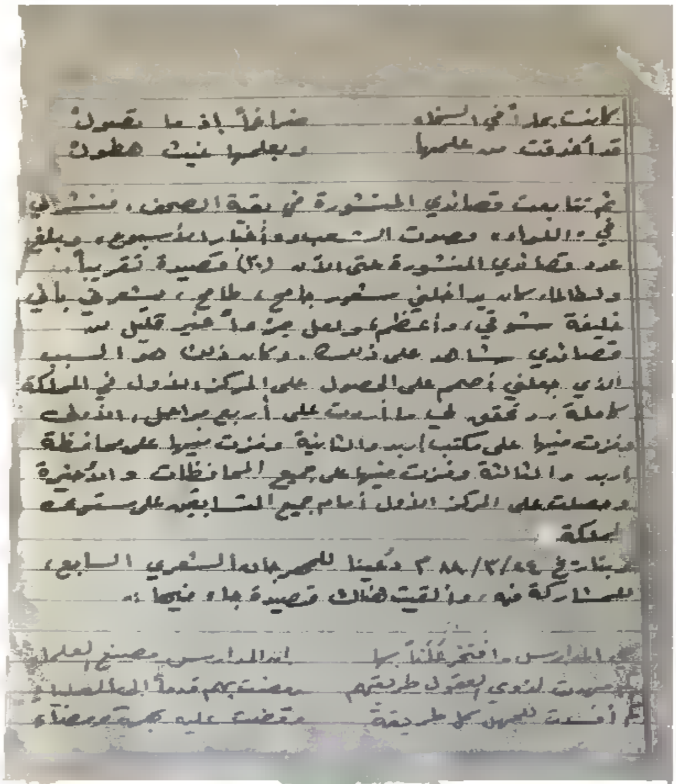
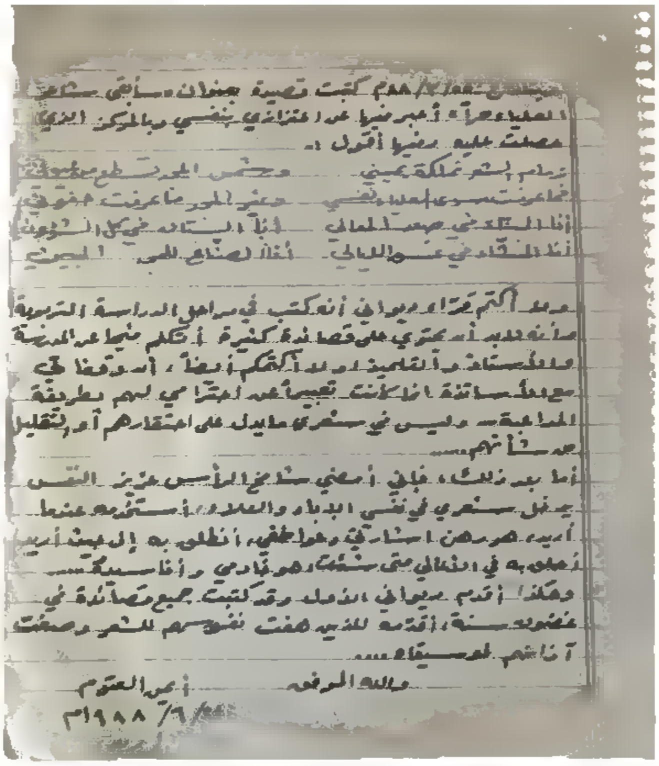

صور مقدمة ديواني الأول بخط يدي كلها . الذي كتبته عام ١٩٨٧ وأنا في الخامسة عشرة من عمري

مَوهِبةٌ أم صِناعة؟

الشّعر موهبة، والرّواية صِناعة؛ هكذا باختِصار. الشّعر تغلبُ

الموهبةُ فيه الصّناعةَ، والرّواية تغلبُ فيها الصّناعةُ الموهبةَ؛ هكذا مع التّطويل؛ حتّى لا أُغضب أبا هلالٍ العسكريّ الّذي يَعُدّ الشّعر والنّثر كليهما صناعةً في كتابه (الصّناعتَين). الشّاعر يُولَد، والرّوائي يُصنَع. الشِّعر سِرّ الله في رُوح الشّاعر، والرّواية سِرّ الطّبيعة في رُوح الكاتب. الشّعر ومضة، والرواية ضوء. الشّعر شُعلةٌ مُقدّسة والرّواية أحفورةٌ باقية. الشّعر لغةٌ مُكثّفة، والرّواية لغةٌ مُرسَلة. الشّعر طاقةٌ عُليا في البيت، والرّواية البيت. الشّعر حَدّ السّيف، والرّواية قِرابُه. الشّعر ضُوى الطّريق، والرّواية الطّريق. الشّعر صَبِيّة فاتنة، والرّواية فتاةٌ لَعوب. الشّعر خيلٌ جامحة، والرّواية فَرَسٌ سابِحة. هل هذا يكفي؟ لا، هذه ألعابٌ لفظيّة، إليكم بيان ذلك فيما سيأتي.

الشّعر اختِزال المعنى في جملةٍ أو مجموعةٍ من الجُمَل ليست واردةً في حِساب الرّواية الكمّيّ؛ إذ من مَهمّة الرّواية أنْ تأخذ هذا المعنى المختزل في الشّعر فتنثره برقّة وسلاسةٍ على صفحاتها من أجل أنْ تجعل نشوةَ المعنى تتغلغل في روح القارئ. إنّ بيتًا واحِدًا ثقيلاً يُمكن أنْ يُصيب المعنى بالتُّخمة، ولِذا فمن مهمّة الرّواية أنْ تُليّن ذلك المعنى، أنْ تُوسّعه من غير هلهلة، أنْ تُبسّطه من غير تسطيح، أنْ تجعل معه ماءً يُسيغه من غير أنْ تُغرقه.

إنّ بيتَي أبي البقاء الرُّندي في قصيدته الشّهيرة التي يرثي بهما الأندلس:

أَتى عَلى الكُلِّ أَمرٌ لا مَرَدّ لَهُ

حَتّى قَضوا فَكَأَنّ القَوم ما كانُوا

وَصارَ ما كانَ مِن مُلكٍ وَمِن مَلكٍ

كَما حَكى عَن خَيالِ الطَيفِ وَسنانُ

ليختصران تاريخًا عمره على الأقلّ (٥٠٠) سنة من أوّل دخول المُسلمين إلى الأندلس وحتّى رثائه للمدن الّتي تتساقط فيها، ثُمّ إنّه ليختصره في خيال الحالِم الوسنان الّذي لا يستمرّ إلاّ بضعَ ثوان، ولو عاش حتّى أبي عبد الله الصّغير لرأى عجبًا!!!

خُذْ مثلاً آخر من قصيدة غرناطة لنزار قبّاني، الّتي يقول في مطلعها:

فِي مَدْخَلِ الحَمْراءِ كانَ لِقاؤُنا

ما أَطْيَبَ اللُّقيا بِلا مِيعادِ!

ستجدُ أنّ الإحالات الّتي عليكَ أنْ تنبشَ فيها، قد يُخبّئ سبعةَ قرونٍ في بيتٍ أو اثنين، حينَ يقول:

غَرناطةٌ؟ وَصَحَتْ قُرُونٌ سَبْعَةٌ

فِي تَيْنِكَ العَينينِ بعدَ رُقادِ

وَأُمَيّةٌ راياتُها مَرفوعةٌ

وَجِيادُها مَوصُولةٌ بِجِيادِ

والقصيدة ذات العشرين بيتًا، ذهبث رضوى عاشور على سبيل المثال إلى نثر ما تكثّف فيها من معانٍ في روايةٍ ثُلاثيّة هي (ثلاثيّة غَرناطة) تزيدُ صفحاتُها عن خمسمئة صفحة!

الكتابة بوجهٍ عامٍّ تحتاجُ إلى صَفاءِ نفسٍ وذِهن، لكنّ الشّعر

يحتاج إلى هذا الصّفاء أكثر من الرّواية، فيُمكن أنْ تكتبَ فصلاً من روايتك وأنتَ جالِسٌ في المقهى وسطَ الضّجيج الداخليّ والخارجيّ، أمّا الشّعر فإنّ أقلّ حركةٍ أمام عينَيه تُزعِجه وتجعله يهربُ بعيدًا ولا يعودُ إليكَ إلاّ إذا شعرَ بالأمان في هُدوءٍ مُتّصل. أولئك الّذين يزعمون أنّهم يكتبون قصائدهم وسطَ صخبٍ ولجب، فإنّهم قد يفعلون، ولكنّهم لا يكتبون إلاّ هذا الصّخب واللّجب، ولا يُمكن أنْ يكون الشّاعر وسطَ هذا الضّجيج قد استطاع أنْ يتسلّل إلى فِكرته العميقة، ويأخذها بين يديه من غورٍ بعيدٍ في عقله، ويطفو بها إلى السّطح ثُمّ يُوقّعها على الورق! هناك فرقٌ في القصائد الصّاخبة الّتي تنتهي بانتهاء الضّجيج، وتلك القصائد الّتي تستمرّ لأنّها محارةٌ احتاجتْ إلى غوصٍ عميقٍ في بحرٍ هادئ!

القصيدة ليس لها وقتٌ مُحدّد للكتابة ولا الرّواية بالطّبع، غير أنّه يُمكن أنْ تكتب شيئًا من الرّواية في أيّ وقتٍ لأنّكَ تُعمِل فِكركَ أو طاقةً بسيطةً من عقلكَ لتعبّر، لكنّ ذلك قد لا يحدث في الشّعر، إنّه محتاجٌ إلى خلوةٍ، ربّما يختار أوقاته، ولا يُمكن أنْ تختار أنتَ له الوقت، وللوقتِ الّذي يختاره طبيعتُه الّتي تختلفُ عن أيّ نوعٍ آخَر من الكتابة، ذلك أنّ الشّاعر الّذي يكتب، يتجرّد من حقيقته الطينيّة، ليُسلّم ذلك الجسد وتلك الرّوح لربّة الإلهام إذا صَحّ التّعبير، وربّة الإلهام

هنا حقيقيّة ليست كربّات إلهام الإغريق، إنّها نفسُه الشّفيفةُ الّتي ينتظر وقتًا في الخلوة وحيدًا صامِتًا يُعمل فِكره بهدوء، ويصبر ربّما طويلاً حتّى يسمع حفيفَ ذيلِ ثوبِها وهي قادمة من غُيوب الجَمال تجرّ إليه ذيول الدّلال، فيهدأ أكثر، وينتظر دون أنْ ينبسَ بكلمةٍ واحدةٍ حتّى تجلسَ في حضرته، فيُرخِي لها سَمْعه وتبدأ هي ببذل فُيُوضِها له، تهمسُ في أذنَيه بالوحي الّذي سيصوغه في تلك الكلمات على الورق، ذلك هو الإلهام في الشّعر؛ هل هو ذات الإلهام في النّثر؟ لا. أمران مختلفان تمامًا. ولهذا يُصنع الرّوائيّ ويولَد الشّاعر، فربّة الإلهام لا تزور غير الّذي وُلِدَ شاعرًا، وأمّا الرّوائي فيجمع الأفكار والأوراق والشّخصيّات ويُرتّب الأحداث، ويُحيي أبطاله ويُميت، ويُسرّع في الوتيرة أو يُبطّئ، ويزيدُ في الوصفِ والحِوار أو يُنقص... وكلّ هذه أفعال تُجترح في حضور العقل، أمّا الشّعر فلا يُجترحُ إلاّ في غيابه!

بعيدًا عن الضّبابيّة والصّراع بين النّثر والشّعر في أيّهما الموهبة وأيّهما الصّناعة، من الجيّد أنْ نُجمل القول بعبارة للرّوائيّ الفرنسيّ (إميل زولا) يقول فيها: «ليس الفنّان شيئًا بدون الموهبة، ولكنْ لا تَعني الموهبةُ أيّ شيءٍ بدون العمل».

الشّعراء المُتحوّلون:

لم يكن الفصل بين الأجناس الأدبيّة يُشكّل عائِقًا عندَ المُبدِعين الأوائل، كان الجاحظ يُتقن علومًا شتّى كالفَلَك والحَيَوان والأدب واللّغة والغِناء والنّقد والتّفسير، وكان ابن سينا - الّذي اشتُهِر طبيبًا - شاعِرًا من قبلُ وفيلسوفًا، وكان ابنا زُهر الأندلُسِيَّان الجَدّ والحفيدُ طبيبَين؛ مع أنّ الإرث الحضاريّ قدّمهما لنا شاعِرَين وَشّاحَين. لم تكن حدائق بعضِ المُبدِعين الأوائل تتزَيّن بنوعٍ أو لونٍ واحدٍ من الورود، بل كانت تلك الحدائق غَنّاء، يجدُ فيها المُنتجِعُ أصنافًا شتّى، ولم يكنْ يُنظَر إلى هذا التّلوين في اللّوحة - مع غَلَبةِ لونٍ في تلك اللّوحة على سواه - بأنّه تحوّلٌ من جنسٍ أدبيٍّ إلى آخَر، بل كان النّتاج المعرفيّ للمُبدِع أو العبقريّ هو ما يُميّزه حينَ يُؤخَذ بأكمله لا مُجَزَّأً، لكنّه كان – وَفقًا للطّبيعة الّتي ركّبها الله فيه - يغلِبُ عليه أنْ يبرَع في جنسٍ من هذه الأجناسِ بعينِها فيُعرَف بها ويُشتَهَر، والأمثلة على ذلك أكثر من أنْ يأخذها قانون الضّبط والحصر كما يقول ابن خلدون. فبالإضافة إلى الأمثلة الّتي طرحتُها آنِفًا، لدينا بديع الزّمان الهمذانيّ الّذي كان شاعِرًا لكنّه برعَ في المقامات، والرّازي الّذي كان طبيبًا وموسيقيًّا، وابنُ جُبَير الّذي لم تمنعه شهرته في رحلته (رحلة ابن جُبير) من أنْ تُقدّمه شاعرًا رقيقًا يرثي زوجته (أمّ المجد) في ديوانٍ كامل، والإيطاليّ (ليناردو

ديفنشي) الّذي كان نحّاتًا ورسّامًا وشاعرًا ومُهندِسًا، والفرنسيّ (فيكتور هوجو) تحوّل هو الآخر من الشّعر إلى الرّواية، وعرفه النّاس أكثر في الرّواية لا الشّعر. ولدينا في العصر الحديث (الرّافعي) فبالرّغم من براعته في النّثر وحوزِه قصبَ السّبقِ في هذا الميدان، إلاّ أنّ ذلك لم يُلغِ كونه شاعرًا حكيمًا، وكذلك (العقّاد) صاحب (العبقريّات) ربّما قليلون مَنْ يعرفُون أنّه شاعرٌ وديوانه ضَخمٌ يتألّف من ستّة أجزاء، وكذلك (ميخائيل نُعيمة) الّذي كان من مُؤسّسي الرّابطة القَلَميّة في المهجر والنّاقد الّذي تجلّى حِسّه النّقديّ في (الغربال)، هو شاعرٌ وقاصٌّ وفيلسوف، وهو إلى ذلك مُحامٍ لم يدخل قاعةَ محكمةٍ في حياته، وكذلك (علي محمود طه) صاحب رائعة: (أخي جاوزَ الظّالِمون المدى) هو في الأساس مُهندِسٌ، لكنّ هندسته غَرِقتْ في بحورِ شِعره، ولو أردتُ أنْ أُعدّد المُهندسين الّذين برعوا في الشّعر لطالت القائمة وتشعّبتْ! وقد سبقتِ الإشارةُ إلى بعضِهم في فصل الدّراسة من هذا الكتاب.

ولنَعُدْ إلى عنوان هذه المقالة: (الشّعراء المُتحوّلون)، وأقصِدُ به هنا أولئك الصّنف من الشّعراء الّذي تركوا الشّعر وتحوّلوا إلى الرّواية. والسّؤال هنا: هل صار تحوّل الشّعراء إلى هذا الجنس الأدبيّ الرّائج ظاهرةً مُقلِقة؟ لماذا يتخلّى

الشّعراء عن شُعلة الشّعر المُقدّسة من أجل اللّهاث خلفَ بريق الرّواية الأخّاذ؟ ما الّذي يدفعهم إلى ذلك؟ أهو حُبّ الشّهرة في الفوز بقلب هذا الجيش الكبير من قُرّاء الرّواية!! أفيكون السّبب هو الجمهور ذاته الّذي رمى بقصائدهم خلف ظهره ولمْ يُولّ قلبه إلا تُجاه آفاق السّرد الرّحيبة؟ أم أنّ الأمر ذاتيٌّ عند هؤلاء الشّعراء؛ وجدوا في الرّواية صورةَ أرواحهم الهاربة من كلّ شيء، والباحِثة عن الغامض والماتع والعازِف على كلّ الأوتار!! هل يُعدّ هذا هروبًا من الشّعر تعبًا من تَبِعاته؟! أمْ أنّه بحثٌ عن الشّعر نفسه الضّائع في السّرد والقَصّ؟! لعلّ الأمر لا يُمكن اختزاله في مقالةٍ واحدةٍ، إذْ إنّه يدخل في منهج التّحليل النّفسي، وهذا المنهج يتطلّب أنْ تقفَ على نصوص (الشّعراء المُتحوّلين) لتعرفَ فيما إذا تخلّصوا من شِعريّتهم في سَرْدهم، أمْ أنّهم ما زالوا يكتبون الشّعر في الرّواية، وأنّ الحدّ الفاصل بين الشّعر والرّواية يكاد يمّحي أو يتماهَى؛ فلا تكادُ تعرفُ حينَ تقرأ نَصًّا إنْ كان هذا شعرًا أم نثرًا؟!

الشّعر والنّثر صَنعتان كما قال أبو هلال العسكريّ فيما أسلفتُ، ولكنّ صَنْعة الشّعر أصعبُ وأمتن؛ الشّعر يحتاج إلى استعدادٍ ذهنيّ، وعاطِفةٍ فائرةٍ قادِرةٍ على أنْ تُخرِجَ الكلام من أعماق الشّاعر، في حين أنّ النّثر لا يحتاجُ إلى كثيرٍ من

ذلك. والقصيدة صورة، ومجازٌ، وكنايةٌ، واستِعارةٌ، وموسيقى، وقافيةٌ ورويّ، ويفقدُ بعضَ روحِه إنْ فقدَ شيئًا من هذه المُقومات، لكنّ الرّواية المُعتمدة على تشابك الأحداث والحبكة لا يَضيرها أنْ تفقدَ شيئًا من تلك المُقوّمات أو حتّى تفقدها كُلّها، فالحَدَث وتَناميه وغُموض دهاليزه وانتظار انفجاره بعد تَعقُّده هو ما يُعوّل عليه بالدّرجة الأولى في الرّواية. والشّعر انزِياحٌ عن المعنى في حين أنّ الرّواية ولوجٌ في المعنى، ولا شكّ أنّ الانزِياح مع الحِفاظ على روح المعنى في الشّعر أعقدُ من الاشتِباك معه بشكلٍ شبه مُباشر كما في السّرد. لكنْ هل يُسوّغ كلّ ذلك رَمْي الشّعراء لتلك الشّعلة المُقدّسة في الطّين لتنطفئ!! إنّ هذا هروبٌ وجُبنٌ إنْ صَحّ؛ أمْ أنّ في الأمر شيئًا آخَر؟!

إنّ غُموض النّص الشّعريّ اليوم، وعقليّة القارئ الّتي تستنكفُ عن استِخدام آليّات التّأويل لفهم هذا النّص ربّما يُشكّلان واحِدًا من تفسيرات التّخلّي عن الشّعر واللّجوء إلى السّرد. لكنْ ماذا لو ذهبْنا إلى نهر الشّعر الخالِد لننظر إليه عن كَثَب، ونبحث عن الخالِدِ من الأبيات؛ ستعثر بلا شكّ - وعلى سبيل المثال مرّة أخرى لا الحصر - على قول زهير بن أبي سلمى:

سئِمتُ تكاليفَ الحياةِ ومَنْ يَعِشْ

ثمانينَ حولاً لا أبا لكَ يَسْأَمِ

وعلى قول المتنبّي:

وليسَ يَصِحُّ في الأفهامِ شَيءٌ

إذا احتاجَ النّهار إلى دليلِ

وعلى قول الشّابيّ:

إذا الشّعبُ يومًا أرادَ الحياةَ

فلا بُدّ أنْ يستجيبَ القَدَرْ

وأنا ضربتُ لكَ المثال الأوّل من الشّعر الجاهليّ والثّاني من العبّاسيّ والثّالث من العصر الحديث؛ لأوسّع دائرة التّدليل، فإنْ أنتَ ذهبتَ لتُعطِي لهذا الشّعر صِفةً؛ فإنّكَ ستجده واضحًا في غير ابتِذال، وبسيطًا في غير هَلْهلة، وسهلاً في غير تكلّف. لكنّه مع كلّ ذلك عاشَ كلّ هذه السّنوات وعبَر

الزّمان والمكانَ واصِلاً إلينا، وخالِدًا لأجيالٍ ستأتي؛ فهل لو عاد الشّعر إلى هذه النّماذج سيعودُ إليه قارِئُه؟! إنّه التّحدّي الكبير أمام الشّعراء المُتحوّلين، هي بلا شكّ ردّة فِعل على إعراض الجمهور عن نماذجَ من الشّعر الّذي لا هُويّة له وقد شاعث في عصرنا من مثل: «اخضوضر النُّحاس». أو: «سقطث وردة فنبتَث سمكة»!!

هل الرّوايةُ ديوان العرب الجديد؟

جاءت الرّواية مُتأخّرةً بعد أنْ كان نَهرُ الشِّعر قد سَقى الصّحراء، وحوّلها إلى جَناتٍ وارفة، تُنبِتُ ورودًا لا تذبل على تعاقب الأزمنة والدّهور. كان نهر الشّعر قد استحال إلى أسطورة، أو هكذا ظُنّ؛ أسطورة صعبة المُحاكاة مهما كانت المُحاولات البائسة الّتي تُبذَل في سبيل ذلك، أسطورة قادرة أنْ تعيش الإنسان وما بعدَ الإنسان، بل ما بعد الإرث الحضاريّ الخالد للبشريّة، حتّى ذلك النّثر الجاحظيّ أو المُقفّعي أو الرّافعيّ وهو في أوج ارتقائه وتمدّده مع كلّ محاولاته أنْ يُطامن آلهةَ الفنّ في سمائها البعيدة لم يستطعْ أنْ يهزمَ الشّعر، ولا أنْ يحلّ محلّه، واعترفَ بذلك التوحيديّ في ليلته الخامسة والعشرين من «الإمتاع والمؤانسة». فما الّذي حدث في زماننا؟! ما الّذي جعل للرّواية كلّ هذا

الحضور الطّاغي، وجعل الشّعر يتّخذ له على خجلٍ زاويةً بعيدةً يقتات على ما تبقّى له من حضور؛ حضورٍ مُتواضعٍ يُولّي - ربّما - مع آخر العمالقة الّذين حملوا روحه كالجواهريّ وعبد الرزّاق عبد الواحد وغيرهما. فهل رضي الشّعر بما أصابَه مِن فقدٍ وإعراض؟ هل اكتفى بدورٍ ثانويّ هامشيّ أمام زحفٍ لا يُمكن إيقافه من الرّواية؟ هل هو قادرٌ على تجاوز أزمة الإهمال والنّسيان فيلعقَ جِراحه ريثما تشفى ثُمّ ينهض من جديد؟ أم هل استسلم لتلك الجراح النّازفة وأيقنَ بالحتف المُحيق به؟ هل ترك نفسه هكذا يموت بهدوء دون أنْ يجدَ مَنْ يرثي له أو يُواسيه في مِحنته؟ وهل هو محتاجٌ إلى مَنْ يوقد جذوته من جديد في الدّمّ العربيّ الّذي انماع وتراقصَ على أنغام روايةٍ لا ترحم، ولا تترك له فرصةً ليلتقط أنفاسه وهي تذبحه من الوريد إلى الوريد؟

لندع الشّعر في مأساته الحقيقيّة، ونسأل: هل يمكن أنْ تحلّ الرواية محلّه، وتتسلّم الرّيادة، وتأخذ بزمام دوره الأساسيّ في كونه ديوانَ العرب؟ ها أنذا في هذه المقالة الجريحة أحاول طرفًا من هذه الإجابة.

كان كعب الأحبار يُدرك أنّ الشّعر إنجيلُ العرب وتوراتُهم حينَ سأله عمر بن الخطّاب عن ذلك، كان مُوقِنًا أنّ الشِّعر

شعلتهم المُقدّسة، وأنّ مكانته في النّفوس ارتقت إلى أنْ تكون وحيًا، بل إنّ النّبيّ محمّدًا صلّى الله عليه وسلّم حينَ قال لحسان بن ثابت: «اهجُهم وروحُ القُدُس معك» كان يُدرك قبلهما أنّ الشّعر وحيٌ لكنْ دونَ نبوّة، فجعل روح القُدُس وهو جبريل يقف إلى جانب شاعره ويؤيّده بوحيٍ من عنده، سواءً أكان هذا الوحي حقيقةً أم مجازًا، من أجل ذلك أطلق ابنُ الخطّاب فيما بعدُ قولته الشّهيرة: «الشّعر ديوان العرب»؛ يقصدُ أنّه يُسجّل أيّامهم وأحوالهم وأفكارهم، وينقُل تاريخهم ويجعل من هذا التّاريخ وسيلةً لتعريف الأمم بأخلاقهم ومآثرهم، ويرفعها بذلك إلى مستوى العالَميّة، وشايعه على ذلك أبو تمّام حينَ قال:

ولولا خِلالٌ سنَّها الشّعرُ ما دَرَى

بُغاةُ النَّدَى من أينَ تُؤتَى المَكارمُ

فمن أينَ تسلّلتِ الرّواية في الغَلَس لتحلّ محلّ الشّعر؟ هل صارت الرّواية اليوم هي الّتي تنطقُ بما كان الشّعر ينطق به من قديمٍ في العهد والزّمن؟

إذا كانت روايةٌ واحدةٌ تُطبَع اليومَ عشرات الطّبعات وتُقرأ

من آلاف النّاس في أنحاء العالَم، في حين لا يكاد يُطبَع ديوانٌ طبعةً ثانية، ولا يُقرأ إلاّ من القليل من النّاس أكثرهم يفعل ذلك من أجل الدّراسة لا من أجل الشّعر نفسه؛ فما الحاجة إلى الشّعر إذًا؟! وإذا كانت الرّواية تُقدّم كلّ شيءٍ بما فيه الشّعر نفسه، وتُغني عنه فلماذا يكتب الشّعراء إذًا ولِمَنْ يكتبون والنّاس يُولّون عنه ويُعرِضون؟! إنّه لا يُمكن لنا أنْ ننكر أنّ الرّواية اليوم هي الّتي - سواءً أعجبنا ذلك أمْ لم يُعجبنا - تُصوّر الحياةَ العربيّة بتفاصيلها اليوميّة، وما يُعانيه الفرد العربيّ من سَحقٍ من زُمَر الاستبداد والطّغيان، وتُعبّر عن همومه وتطلّعاته، وتفرد بين ثناياها مساحةً واسعة لمآلاته، بل وتُلقي الضّوء على المناطق المُعتِمة الّتي كان ينأى بنفسه عن ارتِيادها لولاها، وتُقدّم القضايا الإنسانيّة الّتي كان الشّعر يُقدّمها ويبحثها؛ كالحرّيّة وقضايا المنبوذين والمُهمّشين والمَنفيّين والموجوعين، وتصفُ حَربَه مع الآخَر وحربه مع نفسه، ونِضاله من أجل وجوده، بل إنّ الرواية ذهبتْ إلى أبعدَ من ذلك حين قدّمتْ ما يحلم به العربيّ وما يطمح إليه في خياله لتجعله يعيش هذا التّوق في صفحاتها. لكنّنا لا يُمكن أن ننكر في المُقابل أنّها تُخدّره، وتوسّع المسافة بين ما يريد وما هو كائنٌ، وتعمّق الهُوّة بينه وبين أمنياته فتجعله يرضَى بتحقيقها في دهاليزها وخلفَ أبوابها الغامضة، في حين أنّها على أرض الواقع تزيد من ألمه

ويأسه، وتجعله في نهاية المطاف يصحو على تأوّهاته وواقعه المرير دون أنْ تقدّم له عِلاجًا ناجِعًا باستثناء أفيون الكلمة السّاحرة!

إنّه زمنُ انقلاب الأذواق، زمن الاستِسهال، زمن اللّجوء إلى الكلمة للتّسلية والمتعة لا إلى الرّقيّ والجَلال. زمن الهروب من الكلمة الّتي تحتاج إلى انقِداح في الذّهن، واستعدادٍ لها بالثّقافة الواسعة العميقة، ولهذا تعملقتِ الرّواية لأنّها تُحقّق للقارئ العربيّ ذلك الهروب السّهل اللّذيذ، لكنْ ماذا لو عاد للعقل العربيّ ذلك العمق وتلك السّعة فهل سنشهدُ عودةً حقيقيّة للشّعر!!

إنّ العربيّة لغةٌ شاعرة، إنّها وُلِدَت مع الشّعر وبه وَجدث نفسَها وتألّقها، وإخالها لم تحظَ بمكانتها السّامية في غير ظلاله، وما نفذث إلى القلوب بغير وسائله، لغةُ الإحكام، لغة الشّعور في المقام الأوّل، وإنْ تعدّدث مقاماتها، لكنّها لا تخضع لغير سلطانه، ولا تتوهّج بغير شعلته المُقدّسة.

ثُمّ ها أنتَ أيّها الشّعر؛ ها أنتَ هناك في الرّكن القصيّ تتوارَى لكنّك كائنٌ، أُدركُ أنّكَ تُصارع الموتَ لكنّكَ حيّ، وستعودُ حينَ تعودُ للعربيّة مكانتُها في النّفوس، إنّها المكانة

الّتي تستقي من النهر العذب الخالد الممتدّ من امرئ القيس إلى شوقي، ومن عمر بن أبي ربيعةَ إلى نزار قبّاني.

بريق الرّواية يأخذُ اليومَ بالألبابِ والأنفاس لكنّه لا يُغني عن الشّعر للعرب بحالٍ من الأحوال، إنّما يستمدّ العربيّ وجوده من الشّعر، وَوُلِدَ ليجد في الشّعر نفسَه، وليكشفَ له هذا الشّعر دربه، وسيفعل يومًا حينَ تنتصر العربيّة في نفوسنا. وستحفظُ للنّثر مكانته، لكنّها لا يُمكن أنْ تحلّ محلّه في كلّ حين، فلا لغة النّثر قادرةٌ على أنْ تفخر كما تفعل لغة الشّعر، ولا أنْ تصفَ مثله في كلماتٍ مُكثّفاتٍ يحملنَ روح العربيّ الثائرة المتمرّدة، النّافرة المُعتدّة. ولعلّ العقّاد لم يُجانب الصّوابَ حينَ قال: «إنّ قنطارًا من القصّة لا يُساوي درهمًا من الشّعر».

طُقُوس الكتابة:

الكتابةُ لحظةُ ولادة، لحظةُ اشتعال، لحظةُ خَلْق، في لحظة الخَلْق تلك ينفصل المُبدِع عن العالَم المَعِيش، ويتّحد مع مولوده، فهل لهذه اللّحظة طقوسٌ خاصّة، هل هي سَفَرٌ في عالَمِ اللّاوعي؟ العالَم الّذي ينزاح عن الواقع لصالح الغامض والمُتخَيّل. هل هي لحظة اِنخطاف؟ انخِطاف على الصّعيد

الرّوحي أم الجِسمانيّ، أم على صعيدَيهما معًا؟ وفي عالَم الانِخطاف لا بُدّ أنْ يكون كلّ شيءٍ مختلفًا، هل هذا المختلف هو ما نُسمّيه الطّقوس؟

طقوس الكتابة كما يراها الكُتّاب هي الرّكيزة الأساسية في إبداعهم، وقد تكون جزءًا لا يُمكن الاستِغناء عنه أثناء الكتابة، مِمّا يعني فقر الكتابة أو توقّفها إنْ لم تتمّ تلك الطّقوس.

هناك مَن يكتب أمام البحر، أو في خلوةٍ في الصّحراء مُفترِشًا الأرض مع ورقةٍ وقلم، وهناك مَنْ يجد في الضّجّة طَقسَه في الانبِعاث فيكتب في المقاهي المكتظّة بالغادين والرّائحين، وهناك من ينزوي كقطٍّ هاربٍ في غرفةٍ صغيرةٍ في بيته، وهناك من يتمشّى أثناء الكتابة كأنّ تَهارُشًا في جسده يملك عليه حركاته فلا يهدأ أبدًا، ومنهم مَنْ يتأنّق، ويلبس أجمل ثيابه، ويرشّ أغلى عطوره كأنه ذاهب إلى ليلة عرسه، وهناك طقوسٌ غرائبيّة مثل الكتابة داخل المراحيض العامّة أو في السّجون.

بالنّسبة لي، المواجهة الأولى مع حروفي تُصيبني بالرّعب، أبدو مثل جنديّ مُقيّدةٍ يداه خلف ظهره وينظر إلى فوهة

بندقيّة يوشك أنْ يضغط على زِنادها زميلٌ آخَر في الجهة المُقابلة، لتنطلق الرّصاصة الأولى وتنفجر في وجهي، تلك هي لحظة المُواجهة مع انطلاقة الكلمة الأولى من روايتي. أشعر أنّني إذا تجاوزت هذه اللّحظة فإنّني أكون قد نجوت، وإنْ سقطتُ في شركَ الرّعب، أو ارتجفتْ أصابع زميلي على الزّناد فإنّني سأفقد اقتناص اللّحظة الأولى من أجل الحرف الأوّل.

حينَ أَهُمّ بالكتابة ينتابني شعورٌ بالخوفِ والقلق، ربّما أبعدَ من ذلك؛ هل هو اكتِئاب؟ قد يكون. ولكي لا أواجه الحرف أشغل نفسي بأشياء هامشيّة، أقوم بترتيب الكتب في رَفٍّ ما في مكتبتي حسب الأطوال، أتصفّح بعضَها فأقول إنّ مكانه ليس هنا، فأستلّه من مكانه وأبعثُ به إلى مكانٍ آخرَ من المكتبة على رفٍّ آخر بتصنيفٍ آخر. قد أُقنع نفسي بأنّني غير مستعدّ للكتابة وأنّ عليّ أنْ أقرأ المزيد في هذا الموضوع، فأنغمسُ في القراءة ليس هروبًا من مواجهة الكتابة. قد أقول لزهراء هل عندنا لبن،؟أنا خارجٌ لأشتري ما ينقصُ البيت، لم يكنْ خروجي إلاّ هروبًا من المواجهة، من أنّني أخافُ في كلّ مرّةٍ أُقدمُ فيها على البدء بفصلٍ جديدٍ، أو بصفحةٍ جديدةٍ، أو حتّى بجملةٍ جديدة، رهبة البدايات صعبة، إنّها مُؤذية نفسيًا إلى أبعد الحدود.

الكتابة قد تمنعني النّوم، لا أقصدُ السّهر حتّى وقتٍ متأخّر من اللّيل وأنا أكتب، لا. بل أقصدُ أنّ الفِكرة الّتي تحوم في دماغي تمنعني من أنْ أغفو، إنّها ليست فكرة واحدة، قد تنهمر على رأسي عشرات الأفكار في ذلك اللّيل، لا أدري لماذا لم تأتِ قبل أنْ آوي إلى فراشي؟! لماذا لم تأتني وأنا جالسٌ إلى مكتبي؟! ربّما لأنّ الهدوء والتّفكير الّذي يمنحه الاستِرخاء بالاستِلقاء في الفِراش هو الّذي يستدعيها بهذه الكثافة، إنّما تُمطر أفكارًا على الحقيقة، ولِذا أستعدّ لها بكتابة رؤوسها على هاتفي في خانة المُلاحِظات، أكتبُ الفكرة الّتي تكون ربّما سطرين أو ثلاثة على الهاتف، أركنه في مكانه، وأعودُ محاولاً النّوم ثانية، تهبطُ على رأسي فِكرةٌ جديدة، أمدّ يدي وأنا مُستلقٍ، أضيفها إلى سابِقاتها، وهكذا... حتّى الثّالثة فجرًا، أو حتّى أسمعَ النّداء من أحد المساجد القريبة في بعضِ الأحيان.

إذا كنتُ في السّيارة، يحدثُ ما يحدثُ معي في الفِراش، تهبطُ الأفكار عليّ وأنا أقودها، أركنُها في الطّريق عشرات المرّات لأسجّل المُلاحظات، وأتابع، أكتشفُ أنّني تأخّرتُ عن موعدي نصفَ ساعة. لديّ عذرٌ وجيه، الأفكار العظيمة قد لا تهبطُ على الدّماغ إلاّ مرّة واحدة، عليّ أنْ أُسجّلها على الفور،

وإلاّ فإنّها ستطير فجأة كما هبطت فجأة، وحينئذٍ لا يكونُ هناك سبيلٌ إلى الإمساكِ بها.

وأنا أركضُ في السّاحة الشّماليّة للبيت تزورني الأفكار بالطّريقة إيّاها، وإنْ كانت أرقّ أو أعمق في مثل هذه الحالة، لا أدري ما السّبب، ربّما الرّياضة تُساعدُ على تجلّي العقل، وصَفاء النّفس، فينعكسُ على مرآتهما ما كان رقيقًا عميقًا. أتوقّف عن الرّكض لبرهةٍ، لكي أسجّل الفكرة على الهاتف. لا تستهينوا بهذه الأفعال البسيطة، وهذه الأفكار الّتي تبدو عابرة، إنّ كتبي لم تكنْ لتكون لولا أنّني قيّدت كلّ هذا، أنا اليوم لديّ عشرات الأفكار الصّالحة لعشرات الكتب، كلّها تنتظر دورَها لتخرج إلى حيّز الوجود. والتّكلانُ على الله.

تتضافر عناصر في طقوس الكُتّاب أو مُكوّنات تكاد لا يخلو منها طقسٌ لأيّ واحدٍ منهم، لعلّ القهوة، ليس شرطًا مذاقُها المُرّ أحيانًا، ربّما لونُها، ربّما رائحتها، وربّما دُخانها المنبعث في سحائبَ مُتصاعدة مثل راقصةٍ أسطوريّة هو ما يجعلها أثيرةً عند الكثيرين. سيقول لك في النّهاية؛ رائحتها قادمةٌ من مكانٍ بعيدٍ، مكانٍ قادرٍ على أنْ يجعلني أتوغّل في مدائنَ مسحورة، تخطفني من نفسي، وتُغريني بالإيحاء، وتملأ دواتي بالحِبر.

كلّ شيءٍ يتحرّك أمامي أو في مدى بصري يُشوّشني، كلّ صوتٍ يطرق مسامعي يقف حاجزًا من جدارٍ إسمنتيٍّ عالٍ أمام أفكاري، الصّمت الذّابح بالنّسبة لحروفي هو الحياة، أنا كائنٌ يغرق في العزلة الاختِيارّية من أجل أنْ يسمح لأصابعه أنْ تُفكّر.

لي مكانٌ واحدٌ، لو قمتُ بتغييره فمعنى ذلك أنّني حكمتُ على الأفكار الّتي ولدْتُها في المكان الأوّل بالموت.

ربّما أحتاج في الرّواية إلى الفوضى في كلّ شيءٍ من حولي لأنظّم أفكاري، أنا أستمتع بفوضاي، إنّها تعيدُ ترتيبَ أفكاري، لا يُمكن أنْ أتسلّل إلى الفِكرة إلاّ عبرَ رُكامٍ من الأوراق المُبعثرة، والكتب المُتناثرة.

مكتبي حيث أكتب

الطقوس تختلف من كاتب لآخر.. فالطقوس قد تكون أوقاتًا كالكتابة في اللّيل أو النّهار، أو تكون الطقوس أشرِبةً مُعيّنة كالشّاي والقهوة، أو تكون سُلوكيّات كالكتابة بلباسٍ مُعيّن أو الكتابة جلوسًا أو وقوفًا.. وقد تكون الطقوس أمكنة مُحدّدة يُفضّل الكاتب الكتابة فيها، كتفضيل الكتابة في مقهى أو غرفةٍ ما.

من طقوس الكتابة عند الكُتّاب العرب:

الكاتب المصريّ محمد حسنين هيكل صاحب (خريف الغضب) لا يكتب مَقاله الأسبوعيّ إلا بعد العاشرة مساءً. والرافعيّ صاحب (وحي القلم) لا يكتب إلا في الليل، أما

الصحفي مصطفى أمين مُؤسّس صحيفة (أخبار اليوم) وصاحب (سنة أولى سجن)، والرّوائيّ نجيب محفوظ صاحب (أولاد حارتنا) فهؤلاء لا يكتبون إلا في النّهار. أما أنيس منصور صاحب (عاشوا في حياتي) فلا يكتب إلا في السّاعة الرّابعة صباحًا، وفي العاشرة صباحًا يكون قد أنهى كلّ ما أراد كتابته أو عمَله!

وشاعر الحبّ والسّياسة نزار قباني يكتب غالبًا وهو مُستلقٍ على الأرض أو نائِمًا على بطنه. وأحيانًا لا يكتب إلا عندما يكون في مُنتهى الأناقة كأنّه مُستعدّ للقاء حبيبته، يلبس البدلة ويضع ربطة العنق ويرشّ العطور. وقيل إنّ جبرا إبراهيم جبرا استلهم رواياته من السّير على الأقدام في شارع النّهر في بغداد.

وهناك طقوس في اللّباس، فالعقّاد وأنيس منصور لا يكتبان إلا عندما يرتديان (البيجامة)!

أمّا الروائي والطّبيب السّوداني أمير تاج السّرّ، صاحب (مَهر الصّيّاح) فيقول عن طقوس الكتابة لديه: «لا أكتب في البيت إلا نادرًا، ولا أكتب في اللّيل كما يفعل الكثيرون، وقد قمتُ منذُ سنوات طويلة، باختراع مكانٍ خاصّ بالكتابة،

أرتاده يوميًا حين أكون مُنغمسًا في نصٍّ جديد، أو حتّى لكتابة مقال من تلك التي أكتبها بصفة دوريّة، هذا المكان هو ركنٌ ليس هادئًا تمامًا، في فندق مُتوسّط بمدينة الدَّوْحة حيث أُقيم، وفي ذلك الرُّكن أفتح الحاسوب، وأنغمس بسرعة في كتابتي، ويُمكن أنْ أردّ على تحيّة عابرٍ بقُربي، ولا أنفصلُ عن الكتابة، أو أنهض وأتمشّى قليلاً وأعود».

الرّوائيّ المصريّ والمُترجم إبراهيم عبد المجيد، صاحب «لا أحد ينام في الإسكندرية»، لا ينام فعلاً طَوال الليل إذْ يُخصّصه كلّه للكتابة. يقول: «علاقتي بالكون هي الكتابة. وعاداتي أثناء الكتابة بسيطةٌ للغاية ولم تتغيّرْ منذُ بدأتُ أمارسها، حتّى عند انتقالي من منزلٍ لآخر لم أُغيّر غرفة مكتبي بما تحويه، أحتفظ فيها بثلاثة دواليب للكتب، وما يزيد عنها أتبرع به أو أُهديه للأصدقاء. أُحبّ الضُّوء الأبيض (الفلوريسنت). أكتبُ الرّوايات عادةً من بعد مُنتصف اللّيل وحتّى شروق الشّمس، لا بُدّ أنْ أرى ضوء الصّباح قبل أَنْ أخلُد للنوم، وأراجع ما كتبتُه بالنّهار». وعن نمط كتابته الروائية، يقول: «لا أعمل بشكل مُنتظَم. قد أكتبُ ثلاثة سطور أو ثلاث صفحات. أستمع إلى الرّاديو وتحديدًا (إذاعة البرنامج الموسيقيّ)، التي تبثّ الموسيقى الكلاسيكيّة والخفيفة طَوال اللّيل دون انقطاع. بجواري زجاجة مياه؛

أشرب كثيرًا منها، وربما هي سبب بقائي على قيد الحياة».

عبد السّتّار ناصر (كاتب عراقيّ) يقول في كتابه التّقديّ (سوق السّراي): «ينتابني قبل كتابة أيّة قصّة أو رواية، إحساسٌ غامضٌ جميل: أنّ هناكَ شيئًا في أعماقي يُريد أنْ يرى النّور.. لا أعرف ساعتَها لماذا أغسلُ جسدي من شوائب ما عَلِقَ به طَوال النّهار أو في ساعات اللّيل الأولى، المُهمّ أنْ أغسلَ هذا الجسد حتّى يستعدّ معي للكشفِ عن هذا الشّيء الغامض المجهول».

أمّا الرّوائيّ اللّبنانيّ جبّور دويهي، صاحب (شريد المنازل) فيكشف عن عاداته الكتابيّة قائلا: «الواقع أنّني رجلُ عاداتٍ ومَقاهٍ. أكتب في الخارج، أبعد ما يكون عن غرفة نومي، يوميًا من دون استثناء عندما أنطلق في مشروع روائيّ، بين العاشرة صباحًا والواحدة، في مقهى يكون مُتوسّط الضّجيج. أبدأ بقلم الرّصاص وأنتهي أمام لوحة مفاتيح حاسوب (أبل). وقُبَيل الفراغ من الكتابة أترك ذخيرةً لليوم التّالي أبدأ منها من جديد. لكنّني عمومًا بطيء، فلا يتجاوز عدد كلماتي التي أعدّها دائمًا المئة كلمة».

هذا بالنّسبة للكُتّاب العرب، فهل للكُتّاب الغربيّين طقوسٌ

مُشابِهة؟ قِيل إنّ الروائي والكاتب الفرنسي (ألبير كامو) صاحب (الطّاعون) كان لا يكتب إلا عندما يكون واقفًا أمام الشُّرفة!

بينما نجد في الجانب الآخر الروائي الفرنسي (بلزاك) لا يبدأ في الكتابة إلا عندما يضع بجواره سطلاً كبيرًا من القهوة، وكان يشرب من أربعين إلى خمسين فنجانًا من القهوة. وكذلك كان (فولتير) يشرب هذا المقدار من القهوة.

أمّا (ميكافللي) صاحب كتاب (الأمير)، فكان ينهضُ فجأةً من مقعده أثناء الكتابة لِيَجُوب غرفته ذهابًا وإيابًا وهو يقرأ ما كتب، وكأنّه يُلقيه أمام حشدٍ من النّاس، فإذا أعجبه وتأثّر به أثبتَه في نَصّه، وإنْ لم يتأثّر به حَذَفَه!

وأمّا (إيزابيل اللّندي) صاحبة رواية (باولا) فتقول: «أبدأ كلّ كتبي في الثّامن من يناير، هل يُمكنكم تخيّل السّابع من يناير؟ إنّه جحيم! كلّ سنة، في السّابع من يناير، أبدأ بتجهيز مساحتي الملموسة. أُخليها من كتبي الأخرى وأُبقِي على المعاجم، والمُسوّدات الأولى، والموادّ الّتي تحتوي على بحوث العمل الجديد. وفي الثّامن من يناير، أخطو سبع عشرة خطوةً من المطبخ باتّجاه المُلحَق الصّغير المُقابل

للمسبح حيثُ مكتبي، هذه الخطوات هي بمثابة رحلةٍ إلى عالمٍ آخَر. إنّه الشّتاء، وعادةً ما يكون الجوّ مُمطِرًا، أمشي بمِظلّتي وكلبي يتبعني. من هذه الخطوات السّبعة عشرة أنا في عالَمٍ آخَر، أنا شخصٌ آخَر. وتقول: أقرأ روايتي بصوتٍ عالٍ، إنْ لم تكنْ مثل الطّريقة الّتي أتكلّم بها، أُغيّرها. وتقول: في الصباح الباكر في مكتبي أُوقِد بعض الشُّموع للأرواح وعرائس الإلهام... أتأمّل لبعض الوقت... ودائما ما أُحيط نفسي بالأزهار والبخور... ثُمّ أفتح ذاتي كُلّيًا على التجربة التي ابتدأت في تلك اللحظة.

أمّا الرّوسيّ الأمريكيّ (فلاديمير نابوكوف) صاحب رواية (لوليتا) فقد عُرِف بأنّ معظم كتاباته مُعقّدة للغاية سواء في الحبكة أو في الألفاظ المُستخدمة، وكانت عاداته أنه يكتب رواياته على كروت صغيرة وبالقلم الرّصاص فقط ولا يستطيع الكتابة إلا وهو مُستلقٍ.

وأمّا (أجاثا كريستي) رائدة الرّواية البوليسيّة، فقالت: إنّ أَفضَل الأفكار تأتيني في الحَمّام، ولا أستطيع وضع التّصاميم إلا في الرياح المُمطرة!

وأمّا أبو الأدب الروسي، الكاتب (تولوستوي) فكان يرتدي

لباس الفلاحين قبل الكتابة. والحائز على جائزة (نوبل) الرّوائي الكولومبيّ (ماركيز) لم يكن يبدأ الكتابة إلا عندما يرتدي لباس الميكانيكيّ!

وأمّا أشهر روائيّي روسيا (دوستويفسكي) فقد جاء في (ذكريات من منزل الأموات) أنّه: «يظلّ أشهرًا برمّتها لا يفتح كتابًا ولا يتناول قلمًا، وأنّه كان في مُقابل ذلك يقضي اللّيل كلّه مُتجوّلاً في غرفته جيئةً وذَهابًا، غارقًا في تأمّلاته ذاهِلاً عمّا حوله، حتّى لقد كان يتكلّم بصوتٍ عالٍ في بعضِ الأحيان».

وأمّا (بولغاكوف) فقد بدأ عمله (نشيد الشّيطان) عام ١٩٢٨م، ومات في عام ١٩٤٠م وهو لا يزال يعمل به، فلقد أعادَ كتابة رواية (المعلّم ومارغريتا) ثماني مرّات، بل إنّه في ظروفٍ خاصّةٍ أحرقَ مخطوط الرّواية كامِلاً عام ١٩٣٠م، وعاد إليه بين عامَي ١٩٣٢-١٩٣٣ يُحاول أنْ يتذكّره بمساعدة زوجته (يلينا سرغيفنا).

وأمّا (ول ديورانت) صاحب كتاب (قصّة الحضارة) ذي الاثنين وأربعين جزءًا فقد كانتْ ساعاتُ عمله تستغرقُ أيّام الأسبوع السّبعة، فيقرأ نحو (٥٠٠) كتاب لكي يخرجَ بجزءٍ

واحدٍ من كتابه هذا، ويكتب ألف كلمة في اليوم، بمساعدة زوجته وابنته أيضًا، ولا يقرب التّدخين أو الخمر، ولا يأكل سِوى النّبات، ولا يهتمّ بتحيّزات السّياسة.

والأمريكيّ (ديفيد بالداتشي) يقول: «في كلّ مرّةٍ أبدأ مشروعًا جديدًا، أجلس مُرتعِبًا حتّى الموت من احتماليّة عدم قدرتي على استِجلاب السِّحر مرّة أخرى».

وإذا ذهبْنا إلى الأمريكيّ (آرنست همنغواي) صاحب رواية (الشّيخ والبحر) فسنسمعه يقول: إنه لا يكتب أثناء وقت الظهيرة أبدًا؛ لأنّه يكره الحرّ، فهو يكتب إمّا في المساء أو في الصباح. وكان إذا كتبَ في الصّباح يكتبُ في غرفة نوم واسعة ومُشمِسة، بقلم الرّصاص، وهو واقف على رجلَيه، مُنتعِلاً حذاءً أكبر من مقاسه، وعلى ورق آلة كاتبة شفّاف.

حَشْدٌ آخَر من الكُتّاب الأجانب تميّزوا بطُقوس الوقت في الكتابة فهذا الفرنسيّ (بلزاك) صاحب (أوهام مَفقودة) قد تعوّد أن يكتب ليلاً، لكنّ الإنجليزيّ (تشارلز ديكنز) صاحب (قصّة مدينتَين) كان لا يكتب إلا عند الفطور، و(أميل زولا) الّذي دُفِنَ في سِردابٍ مع (فيكتور هوجو)، وصاحب رواية (روما) كان لا يكتب إلا السّاعة العاشرة صباحًا، ولا ينهض

من مكتبه إلا بعد السّاعة الواحدة ظهرًا.

أمّا (رولان بارت) فكان لا يكتب إلاّ بنوعٍ خاصٍّ من أقلام الريشة المُفضّلة لديه، إذْ كان يجد راحة نفسية في الكتابة بها.

لكن بعض الطّقوس تبدو غريبة فلا يكتب (صاموئيل بيكت) مؤلف المسرحية الشهيرة «في انتظار غودو» إلا وهو جائع، و(هنريك إبسن) وهو مسرحيّ آخر كان لا يكتب إلاّ حينَ يضع عقربًا في قارورة فوق منضدة لحظة البدء بالكتابة. وبعضُهم كان لا يبدأ الكتابة إلاّ بعدَ أنْ يَبري مئة قلم رصاص!

وثلاثة اشتركوا في أنّهم لا يُثبِتون نُصوصهم إلاّ بعد أنْ يقرؤوها بصوتٍ عالٍ، وهم: (ميكافللي)، و(دوستويفسكي) و(إيزابيل اللّندي).

بقي أنْ أقول؛ إنّه على الرغم من أنّ بعض الكُتّاب يقعون فريسةَ طقوسهم في الكتابة، ولا يستطيعون التّهرّب منها، إلاّ أنّ آخرين يكتبون لمجرّد أنّ حاجةً غير مفهومةٍ أو مرصودةٍ تدفعهم إلى ذلك، دون أنْ يكون لا للقهوة ولا للموسيقى

الهادئة ولا لزرقة السّماء أو امتداد الأفق أو هدير الموج، أو أيّ شيءٍ آخر علاقةٌ بأيّ طقسٍ لديهم.

العُزلة للكتابة:

كان (ابن النّحّاس) يجلسُ على شاطِئ نهر النّيل، ويُفكّر في آيات الله ويُكتب أوّل كتابٍ شاملٍ في تاريخ العربيّة عن نَحو القرآن، ويُوقّع تفعيلات العَروض على مِقياس النّيل، ويترنّم بها، وسمعه أحدُ العَوامّ، فظنّه يسحر النّيل بهذا التّرنّم حتّى لا تزيد مِياهه فتغلو الأسعار، فَدَفَعه برِجله فوقعَ في النّيل، فلم يُعرَف له من بعدِها خبر. وقيل إنّ ابن خلدون اعتكفَ في مغارةٍ أربعَ سنواتٍ بين عامَي (1375-1379م) من أجل أنْ يكتب (المُقدّمة)، ولربّما مكثَ غيرَها في كهف التّأمّلات ليُنجِز كتابه في التّاريخ، كما انقطع الإمام الغزاليّ عن النّاس خمسةَ أعوامٍ في المسجد الأقصى ليُشرق قلمُه بإحياء علوم الدّين. في العُزلة كشفٌ من بعدِ حجب، وفيها يقينٌ من بعدِ شَكّ.

هل أنا أطلبُ من الكُتّاب أنْ يعيشوا هذه العزلة؟ الإجابة: نعم. لكنْ هناك مَحاذير، بعضُ الكُتّاب يظنّ أنّ العُزلة وحدها قادرةٌ على أنْ تُلهمه، وتجعل قلمَه سَيّالاً، هذا يُضاف إلى

قائمة الأوهام الّتي ذكرتُها سابِقًا، العزلةُ تُساعِدُك؛ إنّها أحدُ ثلاثةٍ، لديكَ ركيزتان أخرَيان: الأولى ذلك المخزون المعرفي عن الموضوع الّذي ستكتبُ فيه، والثّانية ذلك الاستِعداد النّفسيّ للكتابة، والثّانية أشقّ من الأولى، إذ العُزلة نفسُها تعودُ مُضجِرة، وتفتح بابًا على الكآبة إذا لم يكن الاستِعداد النّفسيّ للكتابة فيها حاضِرًا.

أمرٌ آخر، يجب أنْ تتوافر في العزلة صِفتان حتّى تكون مُثمِرة، الأولى أنْ تكون مُؤقّتة فلا تطول بحيثُ تنعكس نتائجها، وينقلبُ المأمول منها. والثّانية أنْ تكون طَوعيّة، فلن يُنتِجَ الكاتب تحت الإكراه.

هذه تجربتي الخاصّة، لقد كتبتُ رواية (حديث الجنود) على سبيل المِثال في عُزلة تامّة، استمرّت شهرَين أو أكثر. كتابي هذا (هذه سبيلي) الّذي أخطّ حروفه الآن، إنّما أخطّها وأنا في عزلةٍ منذُ ثلاثةِ أسابيع، طلبتُ من العائلة كلّها أنْ تُسافر إلى تركيّا شهرَين على الأقلّ عند بعضِ الأقارب من أجل أنْ أتفرّغ لهذه الفصول العشرة. أجلسُ الآن في مكتبتي، إذا مرّتْ ثلاث ساعاتٍ أو أربع وأنا جالسٌ إلى المكتب مُنحنيًا على لوحة المفاتيح لأكتب أفكاري تبدأ آلام ظهري بالطّفو على السّطح، الألم يبدأ من أسفل الظّهر ويستمرّ حتّى يصل

إلى أعلى الكتف، الألم في أعلى الكتف يضغطُ على أصابعي فيجعل كتابتي صعبةً، أشعر بأنّه عليّ أنْ أرتاح قليلاً، ولكنّني أضغطُ على نفسي، وأقول لو كتبتُ عنوانَين على الأقلّ في هذا الفصل الّذي أنا فيه، تستجيب اللّوزة الدّماغيّة للأمر مُرغَمةً، تمرّ ساعتان أخريان فيبدأ الألم يتراجع، أكون قد انغمستُ في القراءة والكتابة، أنسى نفسي على الحقيقة ولا أعرفُ ذلك إلاّ إذا هبطَ الظّلام، يُسدل اللّيل ستائره على كلّ شيءٍ فيسودّ.. أخرج من غُرفتي إلى الغُرَف الأخرى في مكتبتي فلا أرى على ضوء مصابيح السّور الخارجيّ غيرَ الكُتُب؛ الآلاف الواقفة على حروفها في الأرفف، شيءٌ ما يُشعرني أنّني في غابةٍ مُتشابِكة من الكتب، أشعر بالرّهبة، أريدُ أنْ أقول بالخوف، ولكنّه ليسَ خوفًا، أنا هنا وحيدٌ في هذه الغابة تُحيطُ بي كلّ هذه الكتب الّتي تبدو صامتة، ولكنّها تضجّ في داخلها بعوالمِ رؤوس أصحابها، أشعر أنّ التّهارش الّذي أصابَ رؤوس أولئك الكُتّاب حينَ كتبوها ينتقل إليّ، يختفي الصّمت، وتبدأ أصواتٌ بعيدةٌ تأتي من بين الرّفوف، إنّها أصواتُ مَن غابوا ورحلوا ولكنّهم خبّؤوا أرواحهم فيما كتبوا، إنّهم يخرجون الآن، إنّني أسمع صوتَ أقدامهم، وقد فتحوا أفواه الكتب، وانزلقوا على الرّفوف العالية، وها هم يُهرَعون نحوي... هل أنا أتخيّل؟ يا للعيشِ بين الكتب ماذا يفعل، إنّ عشر ساعاتٍ بين هذه الكتب

المجنونة ستُحوّلكَ بالتّأكيد إلى مجنون.

ظلّت العُزلة هاجس بطل رواية (اسمه أحمد)، يرى أنّها اتّضاح الرّؤى: "بَدَأَتِ الآفاق في فضاء العقل تتّسع، تتماهَى، تمتدّ، وتشكّل حالةً من الإشعاع الرّوحي لم أعهدْه من قبل، كان عليّ أنْ أكتشف أنّ الخير كلّه في العُزلة، كُنتُ أجد حلاوةً في العُزلة مع الكتاب لا تُقاس بملذّات الدُّنيا كلّها؛ لأنّها ببساطة لا تنتمي إلى الدّنيا، ولن أقول إنّها تنتمي إلى الآخرة؛ فشأن الآخرة شأن الرّاحة بعد التّعب، والجزاء بعد العمل، ولكنْ أقول تنتمي إلى عالَمٍ عُلويّ قد يُلامس أرواحنا الحيّة الّتي تنتظرنا في عالَم الغيب بشوقٍ جارف، ولا تنتمي إلى وجودنا المُخاتِل، ولا حياتنا المُزيّفة".

أوهام أُخرى:

الشّكل لا يصنع كاتبًا ولا فيلسوفًا، إذا كنتَ تظنّ أنّكَ إذا لبستَ ملابسَ غريبة ونظّاراتٍ عجيبة، ودلقتَ اللّسان، وقَعّرتَ الكَلام، وأطلْتَ الشّعرَ، وجعلتَ الغليون يستقرّ في زاوية فمك، والسّيجارة لا تُفارق إصبعَيك، والكأس لا يهبطُ عن شفتَيك، ستُصبح كاتِبًا، وأنّ النّاس سيُقدّرون كتابتك لشكلك، أو أنّ هذا الشّكل سيجعل سحابةَ الأفكار تُمطِر فوقَ

رأسَك، فهذا وَهْم. الكتابة لا علاقة لها بالشّكل ولا بالمظاهر. الكتابة الّتي يُمكن أنْ يكون لها ألفُ تعريف، وكيمائيّتها يُمكن أنْ تَنتُج من ألف تفاعل، ليس من بين وجوهها ولا كيميائها هذا الشّكل الّذي تختبِئ خلفه!

القراءة تصنع كاتبًا، وَهْم. القراءة تُحرّك العقل والوِجدان، الكتابة استِعدادٌ فِطريّ ونفسيّ. نحن نعرفُ عشرات الأشخاص الّذين قرؤوا مِئات الكتب ولم يُصبِح واحدٌ منهم كاتِبًا. الكتابة شيءٌ آخر، ربّما صِناعةٌ من نوعٍ ثقيل.

الكتابة بطريقة الغرب وبحداثتهم من أجل جمهورٍ جديدٍ، وَهْم. شرطُ اتّساع جمهورك وانتشار كتاباتك أمرٌ واحدٌ؛ أنْ تكون صادِقًا، أنْ تلعبَ دوركَ لا دورَ غيرك، أنْ تكتبَ استِجابةً لذلك النّداء الّذي شكّلته ثقافتُكَ وتاريخُك وأفكارُكَ عبر زمنٍ طويل.

كتابات ضائِعة:

لم أُثبت كلّ ما كتبتُ في أوراقي، لديّ لليومِ مئات القصائد لم تُنشَر، كما أنّ هناك مِئاتٍ أخرى نُشِرتْ في الصّحف والمجلاّت لم يحْوِها ديوانٌ مطبوعٌ أو مخطوط، وأمّا ما

نشرتُه في تلك الدّواوين فكان انتِقائيًا، وربّما حَدَّدَته بعض الغايات والتّواريخ. أمّا الّذي ضاع من كتاباتي، أو مزّقتُه أو أتلفتُه بسبب عدم قناعتي به على مستوى المُحتوى من جهة وعلى مستوى النُّضج من جهةٍ أخرى فهو كثيرٌ أيضًا.

قد يكونُ بعضُ ما ضاع أو أضعتُه لا يحمل تلك القيمة الّتي تدعو للأسف، لا أدري، ربّما. لكنّني ربّما آسفُ حَقًّا على قصيدة مُطوَّلة من الشِّعر الحُرّ تزيد عن خمسين صفحة كتبتُها وأنا في أعوامي الجامعيّة الأخيرة ربّما في عام 1997م عن يوسف عليه السّلام وإخوته، وفيها فلسفة الحبّ وويلاتُه ومعانيه وطرائقه، وأنا أظنّ أنّها كانت من النُّضج بحيثُ يُحدِثُ فُقدانها فرقًا لديّ، ولا أدري ربّما عوّضتُها عندما تقدّمتُ في السّن بعدَ عشرين عامًا بروايتي الشّاعريّة (أنا يوسف).

هناك عددٌ كبيرٌ من القصائد ظلّ على خربشاته الأولى، ولم يُبيّض، ولم يُعدّل، ولم أنشره أو أحتفظ إلاّ بالنّزر القليل جِدًّا منه، ربّما السّبب تطاول العمر، فقد مرّ على ذلك ما يقرب من أربعين عامًا وهي فترةٌ كافيةٌ أن تفقد نفسكَ لا أنْ تفقد أوراقكَ فحسب!

من المخطوطات قصيدة (رحلة الميلاد) الّتي رجعتُ إليها في أوّل شروعي بتأليف هذا الكتاب، فوجدتُ أنّها تستحقّ النّشر أو المُراجعة على الأقلّ، وهي قصيدة كتبتُها حينَ بلغتُ من العمر أربعةً وعشرين عام في عام 1996م، تتألّف من أربعةٍ وعشرين مقطعًا، أي لكلّ سنةٍ مقطع، أذكر فيه بالتّداعي الحرّ وبالشّعر الحُرّ ما كان يحدثُ لي في كلّ سنةٍ من تلك السّنوات، يُمكن اعتباره شبيهًا بالسّيرة الشّعريّة لأوّل أربعةٍ وعشرين عامًا من حياتي، والقصيدة لا زالت لديّ، وزاد عددُ صفحاتها عن مِئة صفحة، ولعلّ الله إنْ مدّ في العمر أنْ يُوفّقني إلى أنْ أضيف لها ما تبقّى من سنواتٍ تالية وأنشرها في الوقت المُناسب.

بالطّبع بعضُ المسرحيّات الشّعريّة والنّثريّة الّتي كتبتُها أكلتْه أَرَضة الزّمن، وإلاّ فإنّني كتبتُ عددًا كبيرًا منها ضاع بعضُه، ولم يبقَ مخطوطًا منها سِوى (المُشرّدون) (وبدر وأحد) و(الرّحمة المُهداة) من المسرحيّات أو السِّيَر الشّعريّة. و(الفصول الأربعة)، و(النّظافة من الإيمان)، و(أحلام القُبطان)، و(المتنبّي - مملكة الشّعر) و(مدينةٌ لا تموت) من المسرحيّات النّثريّة.

مِمّا أَسِيتُ له مِمّا فقدتُ، قصيدةٌ لم يُمهلْني الوقتُ لأختار

لها اسمًا كتبتُها عندما رحلت من إربد لعمان للعمل عام ١٩٩٩م، وقد كان لها وقعُها في قلبي للتّعبير عن هذه المرحلة الانتِقاليّة، ولم أعدْ أتذكّر منها إلا بيتين هما:

زَمَانانِ يا عَمَّانُ ماضٍ وحَاضِرُ

وَأَكْبَرُ مِنْ شَطْرَيْكِ أَنِّي أُسافِرُ

سَأنْزِفُ حتّى لا دِماءَ، وَأَنْحَنِي

لِعَيْنَيْكِ؛ حَتّى لا يُقالَ يُكابِرُ

ليس هذا فحسب، لقد ضاعت مئات الأبيات التي كتبتُها على بابِ بيتِنا في إربد، وباب بيتنا في عجمان في الإمارات، وأبواب البيوت القديمة التي عاشت في ذاكرتي، ومئات أخرى سبحث في الماء أو حَلّقت في الفضاء من الأبيات التي كتبتُها على دفاتر مَدرستي أو دفاتر مُحاضراتي في الجامعات الثّلاث، أو تلك التي كتبتُها على قُصاصةٍ ومرّرْتُها إلى جميلةٍ تجلس إلى جواري وسألتني فأجبتُها شِعرًا؛ فلقد كنتُ كأبي العتاهية لو شِئتُ أنْ أجعل كلّ كلامي شِعرًا لَفَعلْتُ، أو القُصاصة الّتي مرّرتُها إلى زميلٍ يُشاركني المادّة نفسها

وخاصّة في مرحلة الهندسة، ومئات أخرى كتبتُها على دفاتر الإجابات في الامتحانات التي كنت أقف أمام أسئلتها حائرًا لا أدري ما أقول فأفزع إلى الشِّعر، فأبرّد لاعج القلب وأحاول أن أُزيل الحيرة والقلق فأجِدُني بالكتابة ازددتُ حيرةً وقلقًا... تلك الأيّام في كليّة الهندسة أمام المُعادلات الرّياضيّة المُعقّدة، أو أمام مُختبَر التّربة ونحن نصنع خلطة الإسمنت بالمُواصفات العالَميّة، فلا أجد ما أقوله في تقرير المختبر الذي علَيّ تسليمه للأستاذ المُنتظِر غيرَ الشِّعر وغير الحرف النّازف!!! ولعلّ القصيدة الّتي كتبتُها في سنتي الأولى في الهندسة في جامعة التّكنولوجيا في محاضرة الفيزياء ما يُوضّح الحالة الّتي كنتُ أعيشُها بين الهندسة والعربيّة؛ وهي:

و(الجبرُ) لا جَبَر الإلهُ بأهلِهِ

فَمَذاقُه مُرٌّ وطَعمُ الجبرِ داءْ

و(الإكترونيّاتُ) أضنتْ خاطري

وأُحِبّها أبدًا فَتَمْنَعُ ما أشاءْ

أمّا (الدّوائر) لا أراكِ دوائرًا

حُمرًا وصُفرًا ليس فيها من رُواءْ

فإذا امْتَحَنْتُ رأيْتَني مُتبسِّمًا

فاعجبْ لِتَعْسٍ وهو يُضحكه البُكاءْ

أنا لا أُحبّ سوى (الأغاني) صوتُها

يُشجي، وقد يحلو لِسامِعهِ الغِناءْ

و(النَّحْوُ) لي مِثلُ الفواكهِ، هل ترى

شيئًا توفّر في الرّبيع وفي الشّتاءْ

وإذا (البدايةُ والنّهايةُ) أفصحتْ

عمّا بِها ألفيتَني سَعْدَ الرّجاءْ

وقِراءةُ (الغُفران) وَهْي أحبّ لي

من درسِ (حُسبانٍ) ودرسِ (الفيزِيَاءْ)

ولَحِفْظُ بيتٍ مِن قصيدٍ مُمتعٍ

خيرٌ وأفضلُ من سَخيفِ (الكَهرُباءْ)

ولَشِعْرُ (عُروةَ) و(القُشيري) باكيًا

أشهى وأمتعُ من دروسِ (الكِيمِيَاءْ)

وتَمتُّعي بقصيدِ (حَسّان) الّذي

يأتي على الظّمآنِ مثلَ قَراحِ ماءْ

وتنَعُّمي بصَحابة الشُّعراءِ خَيرٌ

لي وأَحْلى مِن جَميعِ الأصدِقاءْ

فإذا (أبو نَوّاسَ) يجلسُ جانبي

و(ابنُ الحُسينِ) بصُحْبتي و(أبو العَلاءْ)

فإليكَ عَنّي والدّروسَ؛ فإنّها

أَلْعِلمُ والجهلُ الشّديدُ بِها سَواءْ!!

أو ما كتبتُه لدكتور الرّياضيّات في محاضرة الاشتِقاق، حينَ قلت:

مُشتقّة (الجيبِ) فاعْلمْ دونَما عَجَبِ

(جيبُ التّمام)، ولا تَسْألْ عن السّببِ

أمّا اشتِقاقُكَ للأُخرى فذا يُنبي

جَيْب التّمامِ اشتقاقًا سالبُ الجيبِ

ولعلّني عقدّتُ اشتقاق (الجيب) و(الجتا) أكثر مِمّا بسّطْتُه!

لقد كنت مَجنونًا؛ كتبت مئات الأبحاث والفصول وأنا في الثانوية والقصائد والمقالات والرّدود والمُناقَشات، بعضُها لا تزال مخطوطاتها عندي... كان يبدو أنني أكتبُ في كلّ حين، كنتُ أكتب وأنا في البيت، وفي الشارع، وفي الملعب، وفي

المكتب، وفي المكتبة، وحتى في الحصص؛ فكثيرٌ من قصائدي في تلك المرحلة كُتِبتْ في حصص الرّياضيّات والفيزياء والعربيّة والجغرافيا... لقد كنتُ مهووسًا بالكتابة حتّى خيل إلي أنني أكتب وأنا نائم!!

قصّة كلّ كتاب:

لكلّ روايةٍ أو قصيدةٍ كتبتُها قِصّة، إنّها قصصٌ طريفةٌ أحيانًا، غريبةٌ أحيانًا أخرى، تكشفُ في بعضِها عن عنادٍ في تتبّع الخيوط، وعن لا مُبالاةٍ في بعضِها الآخَر، كلّ قصيدةٍ أو قُصاصةٍ من الشّعر خاصّةً تشهدُ حروفُها على المكان الّذي كُتِبتْ عنده، وعلى الحالة النّفسيّة الّتي كانتْ تَعتري صاحِبَها. بعضُها كُتِب على الأدراج الواصلة بين غُرَف المحاضرات في الكلّيّات الأدبيّة والهندسيّة. بعضُها كُتِب داخل المحاضرات في الفيزياء والكيمياء والرّياضيّات، بعضُها كُتِبَ بدمعٍ، وغيرُه بابتِسامة، كان الدمّع أحرَّ مِدادٍ يُكتب به، لا أدري لماذا تترافق الكآبة مع الكتابة. شيءٌ ليس في مُكْنة الكاتب أنْ يُسيطر عليه، ربّما المواضيع الّتي اخترتُها في النّثر والشّعر على حَدّ سَواء هي السّبب، لعلّني كنتُ أكتبُ بالسّكين، وأحفرُ بالسّكين، وأَقِفُ على حَدّ السّكين.

طاردتُ أوراقَ قصائدي ورواياتي، ذهبتُ في مطلع عام 2020م إلى طرسوس، حيثُ وُلِدَ (شاؤول الطّرسوسيّ)، ودخلتُ إلى كنيسة القَدّيس (بولس) الّذي هو هو، وتتبّعتُ خُطاه، ورأيتُه وهو يصنع الخِيام قبل أنْ يحجّ إلى بيت المقدس، وجلستُ في الموضع الّذي قيل: إنّه كان يَعِظُ فيه، وصمتُّ طويلاً لأسمعه وهو يكرز، كان صوتُه في أعمال الرُّسل يأتي عميقًا من لُجج البِحار البعيدة وإنْ كان واضِحًا... كلّ ذلك من أجل الإعداد للجزء الثّالث من رواية المسيح، بعضُ الفصول في الرّواية قد تَضطرّك إلى أنْ تسافر آلاف الأميال، من أجل ماذا؟ من أجل التِقاط عبارةٍ ضَلّت طريقها هناك، وإعادتها بين دفّتَي الرّواية!!

قَصّة رواية (يَسمعون حسيسها):

بعضُ النُّقّاد قالوا: إنّك كتبْتَ (يسمعون حسيسها) لأنّ روايتك الأولى (يا صاحبي السّجن) الّتي تُعدّ من أدب السّجون قد نجحتْ، فرأيتَ أنّ هذا الأدب سائرٌ وله سوقٌ رائجة فَرُحتَ تكتب روايتك الثّانية عن سجونٍ أكثرَ بشاعةً وفظاعةً. إنّني وإنْ كنتُ لا أحفل بما يقولون، ولا بما يعتقدون، إذْ إنّني أحفل بما يقوله ذلك النّداء الدّاخليّ في أعماقي، وأعتقدُ بصوتِ حَدْسي الّذي لا يكذب، أقول مع

ذلك؛ ففي الحقيقة لم يكنْ قَطُّ هذا هو السّبب؛ بل إنَّ لها قِصّةً مُغايِرةً تمامًا؛ ذلك أنّني قرأتُ كتاب (بالخلاص يا شباب) للكاتب ياسين الحاجّ صالح – بالمناسبة من المُفيد أن تقرؤوه أيضًا - وقد روى تجربته في سجون سوريّة، وكان الكاتب قد قضى فيها ستّة عشر عامًا، منها خمسة عشر عامًا في سجون مُختلِفة، والعام السّادس عشر قضاه في سجن تدمر، فقال: إنّ سنةً واحدةً في سجن تدمر تُعادل خمسة عشر عامًا فيما عداه على مستوى الألم والوحشيّة. وقال في ثلاثة مواضع أخرى من الكتاب: إنّ ما عانيناه نحن الشّيوعيّين في سجن تدمر لا يُساوي شيئًا أمام ما كان يعانيه الإسلاميّون في السّجن نفسه، لكنّنا وثّقنا تجاربنا من خلال الكتب والدّراسات والرّوايات إلاّ أنّ الإسلاميّين لم يفعلوا ذلك وأظنّهم لن يفعلوا. (انتهى كلام الحاج صالح). استفزّتْني العِبارة الأخيرة كثيرًا مع أنّها – وَلْنكنْ موضوعيّين - صادقةٌ إلى حدّ كبير، وهُرعت أسأل إذا كان أحد مساجين (سجن تدمر) السّابقين موجودًا على الأرض الأردنيّة، وبالفِعل أرشدني إليه بعضُ الأصدقاء، والتقيتُ السّجين الّذي كان فيما بعد هو نفسه (الدّكتور إياد أسعد)، وسجّلتُ معه حوالي خمسًا وعشرين ساعةً صوتيّة. وتفرّغتُ شهرًا كامِلاً لأقرأ ما يقرب من ثلاثين كتابًا وروايةً من الرّوايات الّتي تحدّثت عن السّجون السّوريّة لتكون رؤيتي للموضوع أكثر

شموليّة. وبعدها كتبتُ هذه الرّواية (يسمعون حسيسها)؛ وتلك هي قصّتي الأولى معها!!

في الحقيقة بعد أن أخذتُ شهادات البطل الرّئيسيّ (إياد أسعد) لإنجاز الرّواية شرعتُ بقراءة كلّ ما استطعتُ أن أصل إليه من الأعمال الّتي تتحدّث عن الفترة نفسها ومن ضمنها رواية (القوقعة)، ومع أنّ رواية (القوقعة) حفلتْ بالمشهديّة العالِية، وبالتّصوير السينمائيّ الاحتِرافيّ إلا أنّها لم تُغَطّ المساحة الأوسع مِمّا حدث في تلك الفترة البئيسة من تاريخ سوريّة والتّي تمثّلتْ في صورتها الأبشع في سجن تدمر. وبالمقابل لا أدّعي أنّ روايتي غطّت الفترة نفسها بشكلٍ كاملٍ كذلك، ولذلك قلتُ على لسان بطلها في أوّل صفحاتها: هذه الصّفحة من التّاريخ، هي صفحةٌ من كتابٍ لم يُؤلَّف فيه إلاّ القليل، وهي دعوةٌ لكلّ الأحرار الّذين عاشوا من تاريخ بلدي ما عشتُهُ ويملكون قلمًا حُرًّا أن يُسطّروا تجربتهم كما فعلتُ أنا، فيضيفوا بذلك إلى كتاب التّاريخ صفحةً جديدة، ثمّ يكتمل هذا الكتاب بمقدار ما يملك الأحرار من جرأة ومصداقيّة في رواية ما عايَشوه.

إنّها دعوةٌ لاكتمال الصّفحات، ليس من أجلنا نحن الّذين خرجنا أحياء من تلك المقابر، بل من أجل الّذين قضوا شُهداء

وهم بعشرات الألوف إن لم يكونوا بالمئات، ومن أجل المفقودين الّذين تنتظرهم أمّهاتُهم عند كلّ شروق شمسٍ وعند كلّ غروبٍ، ولا يعلم غير الله إنْ كانوا سيعودون يومًا أم سيُمعِنون في الغياب!!"

ومع اعترافي بأنّ الفترة الّتي تتحدّث عنهما الرّوايتان هي الفترة نفسُها، والجلاّد هو الجلاّد ذاتُه، والمكان هو المكان إيّاه، إلاّ أنّ من يقرؤهما ستتكشّف له عوالَم لم يطّلع عليها صاحب القوقعة، ذلك أنّه كان كما قال عن نفسه قد صنع لنفسه تلك القوقعة، وثقبَ في جدار السّجن ثُقبًا وتلصّص من خلاله على كلّ ما كان يدور أمامه في السّجن من خلال ذلك الثّقب. أمّا بطل رواية (يسمعون حسيسها) فقد تهيّأت له ظروف أوسع وأرحب، وهو على الأقلّ لم يكنْ ينظر من خلال ثقبٍ فحسب، ولا يرى من خلال عينيه وحدهما، بل هُيّئتْ له عيون كثيرٍ من المساجين الّذين نقل عنهم الواقع المُرعب الّذي عاشه مع رفاقه هناك، ثمّ إنّ علاقاته الطّيّبة مع السّجناء من الإسلاميّين أتاحت له عددًا من المُشاهدات والمشهديّات لم تكن لتتوافر لصاحب القوقعة.

وتبقى تلك الفترة مع كلّ ذلك واسعة لم تُغطّ بالشّكل الّذي تستحقّه، ولعلّ آخرين يأتون فيُكمِلون المشهد من جميع

جوانبه.

وبالانتقال إلى دقّة مشاهد التّعذيب في الرّواية، ففي الحقيقة أنّ البطل (إياد أسعد) كان مُثخَنًا بالذّكريات، ومُعتَّقًا بالتّجربة، وكان ينتظر أيّ أحدٍ لكي يُفرّغ كلّ هذا الإرث الثّقيل من الذّكريات المُرّة أمامه، وكنتُ أنا ذلك الأحد؛ فكان أمرًا عجبًا؛ إذ إنّه كان يقصّ ما كان يحدث معه بِنَهَمٍ عجيب، بل وكان يُمثّل أمامي مشاهد التّعذيب تمثيلاً بارِعًا، وكان يشعر بالارتِياح بعد كلّ مشهدٍ من هذه المشاهد الّتي يقوم بتمثيلها كأنّه كان يتخلّص بذلك من ضغطها النّفسيّ على صدره وقلبه طَوال تلك السّنوات... ومع كلّ هذه المشهديّة الّتي أتحفني بها البطل، فلا شكّ أنّني لم أصلْ إلى ما يُريده تمامًا على المُستوى الشّعوريّ؛ فنَقْلُ الألم غيرُ الألم، والحديث عنه لا يعني أنّه هو هو، ولقد قال الأوّل:

لا تشكُ للنّاس جُرحًا أنتَ صاحِبُهُ

لا يُؤلم الجرحُ إلاّ مَنْ به ألمُ

بلا شكّ منْ عاش الجرح ليس كمن وَصَفَه، وهذا يصدق على هذه الرّواية، إذ إنّ كلّ هذا الوصف فيها لا يُساوي عُشر

ما كان يحدث، وهو كما قال بطلها في أوّل صفحات الرّواية، إنّه ما رأيتُه أنا وهو جزء منه، فتخيّل معي إذًا مستوى فداحة الأمر بعد ذلك. إنّ ما كان يحدث هناك من ألوان التّعذيب وأصناف الأذى، وأشكال الإهانة، وطرائق الإعدام كان لا يُمكن بأيّة حالٍ من الأحوال أن تجود به قريحةُ أوسع مُؤلّفي أفلام هوليود خيالاً، وأجنحهم إثارة. إنّها وسائل قادمة من القرون الوسطى حيثُ الوحشيّة المُطلقة، أو من محاكم التّفتيش حيثُ الأساليب المُفرِطة في اللاإنسانيّة. ولعلّ ما كان يحدث في مُعسكرات الاعتِقال أيّام النّازيّة يُعَدّ أكثر رحمةً مِمّا كان يحدث في تدمر.

باختِصار لم يكنْ للحرف الّذي صُغت به المشهد من فضلٍ إلاّ تلك المُحاولة في رسم الصّورة أو تقريبها إلى أذهان المُتلقّين، في حين أنّ الواقع كان أبشع وأفظع مِمّا يُمكن أن يخطر ببال.

أخيرًا أودّ أن أتحدّث عنّي أنا أثناء كتابتها: لقد بكيتُ عَشَرات المرّات، ونزفتُ مع كلّ جُملة، وانتحبتُ مع كلّ حرف، وأجهشتُ بالبكاء بصوتٍ عالٍ إلى درجةٍ مُفزِعة في الجزء الأخير من الرّواية: الجزء الّذي التقى فيه ابنتَه وزوجتَه.

ولقد أثّرتْ مشاهد التّعذيب الّتي رويتُها في نفسيّتي كثيرًا، إذ إنّ كثيرًا من الكوابيس كانت تُراوِدُني خلال الشّهر الّذي كتبتُه فيها، وبعد انتهائي منها أصابتْني حُمّى شديدة أقعدتْني في الفراش عشرةَ أيّامٍ كاملةً لم أغادرْه فيها ألبتّة!!

قصّة رواية (ذائقة الموت):

تذكرون المقبرة الّتي وردَ ذِكرُها في بداية الرّواية؛ كانت هناك مقبرة حقيقيّة تاريخيّة تقع بجوار بيت جدّتي لأمّي في قرية (سوف) الّتي نشأتُ فيها، وكنتُ أنا ومجموعة من الأولاد الصّغار نلعبُ كرة القدم في مساحةٍ مَطموسةٍ من القبور المُتناثرة... ولم يكنْ يردعنا عن هذا الفِعل الشّنيع أحدٌ!! كنّا نُقلِقُ راحةَ الموتى بالتّراكض فوقَ عِظامهم وبالصّياح أثناء راحتهم الأبديّة. ليسَ هذا فحسبُ؛ بل كنتُ أركنُ ظهري على شاهدة قبرٍ قصيٍّ في اللّيل الدّامس وأراقب الشّواهد الأخرى وهي تتناثر على مدّ بصري في سفح جبلٍ شهدَ حركة الأحياء قبل قرونٍ طويلة، وتتشكّل في خيال طفلٍ مثلي عوالمُ ثَرّة. وليس هذا فحسبُ أيضًا: كان أحد أخوالي وهو يصغرني بعام مُصاب بالسَّرْنمة؛ مرض المشي أثناء اللّيل، وكان يقوم من بيت جدّتي في اللّيل من فراشه، ويمشي وهو نائمٌ ويطوف بالمقبرة في منتصف اللّيل أو في

الجزء الأخير منه، ويعود إلى فراشه كأنّ شيئًا لم يكنْ؛ خالي هذا هو الشّخصيّة الّتي جعلتُها تمشي على سور المقبرة في اللّيل في الجزء الأوّل من الرّواية!!

جدّتي قصّة أخرى ابتدأت علاقتي بها وأنا ابن سنتين، وكنتُ أقضي في بيتها أكثر مِمّا أقضي في بيتنا، وتنامت هذه العلاقة بيننا حتى وفاتها رحمة الله عليها... حينَ كبرتُ كنتُ أمرّ عليها من عمّان إلى جرش، أطرقُ بابَها فتعرفني من تلك الطّرقة؛ وتهتفُ باسمي من الدّاخل فأدخل إليها وأجلس معها طويلاً وكم كانت تُسَرّ حينَ أستعيدُ معها ذكريات تقترب من أربعين عامًا، ولم تكنْ تحظى بشيءٍ من هذا الفنّ مع الآخرين؛ وحدي كنتُ أنبشُ ذكرياتها السّعيدة وهي شابّة وأتقصّد ذلك لكي تشعر بقيمة ما أعطتْ وقد بلغت العَقد الثّامن، ولذلك كانتْ تُبادلني حُبًّا عميقًا، وتحوّلت العلاقة في أواخر حياتها إلى صداقة من نوع خاصّ، فقد كنتُ أحملها بين يدَيّ وأضعُها برفق في السّيّارة وأتنزّه معها في الرّبوع بين إربد وعمّان، وأدعو خالاتي الأُخريات لرؤيتها في بيتِ ابنتها الكُبرى (أمّي).

في آخر أسبوع من حياتها مررتُ ببيتِها بعد منتصف اللّيل وقدّرتُ أنّها ستكونُ نائمة، فقلتُ سأجرّب الصّعود عبر الدّرج

إلى غرفتها لعلّها تكون مُستيقظة، وبالفعل كانت غرفتها مُضاءة، وعرفتني من طَرْقتي وصوتي، وهويث على يديها أقبّلهما وأرجوها أنْ تُسامحني، وسألتُها إنْ كانت ترغب بالصّعود معي في السّيّارة في هذا الوقت المُتأخّر؛ ولم تتردّد بالقبول وكأنّها كانت تنتظرني كلّ هذا الوقت... بعد يومَين من تلك الحادثة ماتت دون سابقِ إنذار... شكّلَ موتُها صدمةً كبيرةً بالنّسبة لي؛ فقد فقدتُ فجأةً جدّةً كانت تعني الكثير بالنّسبة لي... وكان هذا الموت السّبب الرّئيسيّ في كتابة الرّواية، والجزء الأوّل من هذه الرّواية الذي يتحدّث عن موت جدّةٍ في المُستشفى هو الجزء الّذي يصف ما حدث معها على الحقيقة وبالتّفصيل.

قصّة رواية (حديث الجنود):

الرّواية لن تكون التّاريخ ولن ترتقي إلى حقيقته، بعضُ الحقائق تبقى أكبر من الحروف والعبارات، ولكنّها مُحاوَلة، وهي قَرْعٌ للجرس في زمنٍ ساد فيه الصّمت على الأغلب الأعمّ.

وكما قال وَرَد في الرّواية: "الحقيقة لا تموت حتّى ولو بنت عليها السُّلطةُ صرحًا من الزّيف. إنّ قلمًا واحِدًا صادِقًا

حُرًّا لَكفيلٌ بأن يُهدّم صروح الزّيف كلّها ويُقدّم الحقيقةَ ناصِعةً مُكتملةً غيرَ مُشوّهة من جديدٍ للأجيال وللتّاريخ".

جئتُ اليوم لأحقّق أمنيته الهاربة في أن أقول ما ودّ قوله ولم يستطعْ، ولأؤكّد على حقيقةٍ بدهيّةٍ هي: "أنّ التّاريخ لا يَنسى ولا يُنسى".

ولقد قال وَرْد لأصدقاء النّضال الّذين شاركوه صُنع التاريخ: "لكنْ أيّها الرّفاق لا تخافوا: امتلكوا الشّجاعة وارووها لأبنائكم أو للأجيال الّتي ستأتي من بعدكم. وإذا رويتموها لي فأَعِدُكم أنّكم إذا فعلتم ذلك فسأرويها عنكم من جديد!!!"

وخال وَرْد فيلسوف المواقف كلّها قال لي وقال لوَرْد: "الرّقاب المُعوجّة لا تحتاج إلى تقويم، بل تحتاج إلى خلع!!"

ولكنْ لماذا في هذا الوقت بالذّات؟! لأنّ الّذين يجب أن يُكرَّموا نُسُوا وأولئك الّذين يجب أن يُحاسَبوا كُرّموا ونُقّلوا في النّعيم من منصبٍ إلى آخر. إنّها محاولة لوضع النِّقاط على الحروف؛ الحروف المُبهَمة الّتي ظلّ كلّ واحدٍ يقرؤها على هواه وحسب طريقته. اليوم بعد أن تتكشّف الحقائق ستكون القراءةُ أوضح، والفهمُ أجلى، وهذا هو أحد أهمّ

غاياتي من وراء كتابة هذه الرّواية.

وإربد الّتي عشقتُ وأحببتُ، وقضيتُ فيها عَقْدَين من الزّمان تستحقّ أن يُكتَب عنها، عن أزقّتها وعن حواريها وعن مساجدها ومآذنها وذكرياتي فيها... حيثُ النّشأة الأولى... لا زلتُ أذكر كيف كنتُ أتسلّل إلى مكتبة الأمل أو مكتبة ابن خلدون أشتري بما وفّرتُه من نقود كتبًا لأقرأها؛ لتُعيد هي تشكيلي من جديد وصناعة مفاهيمي من جديد.. ما قرأتُه في إربد هنا كان في مرحلة المدرسة من الخامس حتّى الأوّل الثّانوي وفي هذه الفترة بالذّات تشكّل وعيي القرائيّ، وعلى ضوء ما قرأتُ في هذه الفترة وحفظتُ وتابعتُ نزفتُ فيما بعد؛ ولا شكّ أن بعض نزيف (حديث الجنود) كان مِمّا اكتنزتُه في هذه الفترة القرائيّة الكثيفة.

حصلتُ على وثائق الأيّام الأخيرة في اعتصام الطّلبة في الجامعة، الأيّام من 11-5 إلى 15-5-1986م، أعتقدُ أنّني وقعتُ على كنزٍ ليسَ موجودًا عند الآخرين، كانتْ شهادات خطّيّة يوميّة، بل بعضُها كتب عن السّاعة والدّقيقة واللّحظة في هذه الأيّام، عن الاختِباءات، عن الاعتِقالات، عن التّخفّي، عن الهروب، عن المواجهة، عن الوقوع... عن المُحاصرة، بل إنّني استطعتُ من خلال بعضِ هذه الشّهادات أنْ أرى الجُنود

وهم يقتحمون الأسوار، ويهجمون على المُعتصِمين، رأيتُ وجوههم، وأحسستُ بِحَرّ أنفاسِهم، وسمعتُ صوتَ أقدام أحذيتهم العسكريّة على الأرض... أمّا ما حدثَ بعدَ ذلك، فإنّني أكتبُه للتّاريخ، من أجل وطني، ومن أجل الحقيقة، لا يُمكن أنْ تكون وطنيًّا بحَقّ إلاّ إذا قلتَ الحقيقة؛ وذلك ما كان.

قصّة رواية (نفر من الجنّ):

في شهر نوفمبر من عام 2013م كنّا – أنا ومجموعة من الرّوائيّين العرب – نحطّ رِحالَنا في رِحاب صَحراء (السّراب) في (أبو ظبي) بدعوةٍ من القائمين على الجائزة العالَميّة للرّواية العربيّة؛ لنتفرّغ – كما قالوا لنا – في بضعة أيّام لكتابة نَصٍّ إبداعيّ.

كنتُ مُهتمًّا بأنْ أقفَ حاجِزًا بيني وبينَ هواجسي وخيالاتي حتّى لا تنثال عليّ بفِكرةٍ قبل أنْ أصلَ إلى المكان؛ لأنّ الفِكرة ستكون دخيلةً حينئذٍ، ولا بُدّ أنّ المكان الّذي قصدْناه أحقُّ بها من خارجه.

حينَ وصلْنا إلى هناك ماتتْ في البداية كُلُّ فِكرةٍ يُمكن أنْ

أؤسّس حولَها عملاً رِوائيًّا، غيرَ أنّ سِرّ الصّحراء وسِحرَها، وثوبَها المنسدل على مساحاتٍ مُدهِشة للرّوح أوقد في وِجداني شُعلةً لفكرةٍ ما!

في غُضون أسبوع، كنتُ قد كتبتُ القِسم الأوّل من هذه الرّواية، كنتُ أكتبُ على السّرير وفي المطعم، واثناء نِقاشنا في اجتماعنا في القاعة المُخصّصة لذلك، وفي الدّروب الخارجة من غرفتي إلى التّراب، وفي الجلسات الّتي كنتُ أجلسها وحدي فيها على الرّمل، قُبيل الغروب. أمّا اللّيل، في هذا الفراغ اللامتناهي فقد كنتُ أقطعه في التّأمّل، وتنقية الذّهن، والتّفكير في الخُطوة القادمة.

ثُمّ غادرنا المكان بعدَ تلك الأيّام ليبقى عَبَقُ الصّحراء عالِقًا في ثياب القلب... وفي عَمّان حيثُ انحنيتُ أُقبّل كَفّها الّتي رَحّبَت بي ابنًا عائِدًا إلى حضنها كنتُ أهجسُ بالبقيّة وأهذي بها.

قِصّة رواية (كلمة الله):

كان الدّافع لكتابتها مُغامرات النّاشرين الجُدد. فقد اتّصل بي أحدُهم قائِلاً: إنّه ينوي أن ينشر لي عملاً أدبيًّا ليُشارك في

الجائزة العالَميّة للرّواية العربيّة (البوكر) في أبو ظبي، وإنّه يأمُل أن يكون عندي عملٌ جاهِزٌ للنّشر وأنْ أُوافق على نشره عنده. فقلتُ له عندي عمل روائيّ - وكنتُ أقصدُ (رواية المسيح) - لكنّه يحتاج إلى سنة حتّى أُنجِزه تمامًا، فردّ وقد أصابته خيبة الأمل، ولكنّه يجب أن يكون عندي خلال أسبوعَين، لأنّه لم يبقَ أكثر من شهرٍ على آخر موعدٍ لتسليم الأعمال الرّوائيّة إلى الجائزة، وخاصّة أنّه أيضًا يحتاج وقتًا للنّشر، فقلتُ له: "وهل تُصدّق أنّني أُنجِز عملاً روائيًا مُتكامِلاً في أسبوعين؟!!"، فردّ: "نعم، أنا أُصدّق". زممتُ شفتَيّ، وقلت: "سأفكّر في عملٍ روائيٍّ جديدٍ جدير، أحاول أنْ أُنهيه بإذن الله تعالى في أسبوعَين وأقدّمه لك، واعتبِرْه عربون صداقةٍ لك بنشره في دارِكَ الفتيّة الطّموحة". وأغلقتُ سمّاعة الهاتف.

ثمّ بدأتُ أفكّر في موضوعٍ يكون مقبولاً، واهتديتُ إلى فكرة الكتابة عن التّعصّب الدّينيّ، وهذا ما كان.

بدأتُ الكتابة في 18-5-2015 وأنهيتُ الرّواية بحمد الله في 1-6-2015م وبلغ عددُ صفحاتها من القطع الرّوائيّ (275) صفحة.

كان عليّ أن أتفرّغ لها تمامًا، ولكنّني خلال الأسبوعَين كُنتُ أدرّس صَفَّيْن في مدرسة ابن رُشد، وكنتُ أدرّبهم على مسرحيّةٍ لي عنوانها: "مملكة الشّعر" تتحدّث عن المتنبّي، وكانت عندي ورشة كبيرة في البيت لتجهيزه للسّكن من بلاط ودهان وشبابيك وأبواب ومُتابعة العُمّال، أضف إلى ذلك الكثير من المواعيد الثّقافيّة والعلاقات الاجتماعيّة والأهليّة.

مع ذلك كتب الله لي التّوفيق، فكنتُ أقرأ وأكتب في اليوم ما مجموعُه ثماني ساعاتٍ أو عشرًا. ولأنّ بطلة الرّواية (بتول) تنتمي إلى عائلة مسيحيّة مُتديّنة، فإنّني قرأتُ واطّلعتُ أثناء أسبوعَي الكتابة على عددٍ من الكتب الّتي تهتمّ بهذا الموضوع، كان هناك: التّفسير التّطبيقيّ للكتاب المُقدّس، والكتاب المُقدّس. والبحث عن يسوع: د. كمال الصّليبي. وتاريخ التّوحيد في الدّيانة النّصرانيّة. والمِلَل والنِّحَل للشّهرستاني. والإغواء الأخير للمسيح لكازنتزاكيس. والتّأمّلات: لماركوس أوريليوس. والإشارات الإلهيّة: التّوحيدي. وعشرات المقالات والدّراسات عن طقوس الزّواج ولباس المسيحيّين في الأعياد والصّلوات.

قَدّمتُ المخطوط إلى دار النّشر، ومعلومٌ في الأردنّ أنّ أيّ

كتاب يُنشَر يجب أن يمرّ بقناتَين؛ الأولى: المكتبة الوطنيّة، والثّانية دائرة المطبوعات والنّشر.

حينَ قدّم مدير دار (موزاييك) للنّشر الرّواية إلى المكتبة الوطنيّة، حُوّلت مباشرة إلى مدير المكتبة الوطنيّة، الّذي قامَ بدوره بتحويلها إلى (مجلس الكنائس) للبتّ فيها؛ وكان ذلك يوم الأربعاء 3-6-2015م!!

طبعًا كان هذا الأمر مُفاجِئًا بالنّسبة لي؛ فأوّل مرّة أعرف أنّ في الأردنّ مجلِسًا للكنائس، وأنّه أيضًا جهة رقابيّة على الأعمال الكتابيّة.

صحيح أنّ الأمر ضايقني؛ لكنّه أيضًا فتحَ عينيّ على حقائق جديدة. ما زلنا إلى اليوم ننتظر ردّ مجلس الكنائس؛ ومَنْ يدري قد تُحال الرّواية إلى دائرة الإفتاء، فإذا نجث من الاثنَين – ولا أظنّها والله أعلم ستنجو – فستُحال إلى دائرة المطبوعات والنّشر، الّتي غالِبًا ما تحمل مقصلةً جاهزةً لِبَتْر الأعمال الّتي تُخالف تَوجُّهَها. ولي معها تجارب مريرة في رواية (يا صاحِبَي السّجن) وفي رواية (حديث الجنود) وفي ديوان (نبوءات الجائعين)، ومن بعدُ مع رواية (يوم مشهود).

بقينا ننتظر أنا والنّاشر حتّى تاريخ 14-6-2015م لكي تأتي موافقة مجلس الكنائس، ولكنّها لم تأتِ، فطلبتُ من النّاشر أنْ يقوم بنشرها على أيّة حال، وإذا حدثَت لها مشاكلُ أو عقبات فنحن جاهزون لتقبّل ذلك والتّعامل معه.

قِصّة رواية (طريق جهنّم):

في أواخر شهر آذار من عام 2018م بعثت (فاطمة) إليّ برسالة، كانت كلماتُها مُقتضبة: "لديّ قصّة تستحقّ أنْ تُروى". نامتْ رسالتُها بين أخواتها المئات الّتي تنتظر أنْ أفتح لها النّوافذ كي تتنفّس. أنهضتُها من بينِ أخواتها النّائمات بعدَ حين. قلتُ في نفسي: "ما أكثر الّذين يَرَون في قصصهم مادّة تستحقّ أنْ تُروى!"، كدتُ أُغفِل الموضوع، وأتجاوزها إلى رسالةٍ أخرى، لكنّني قلتُ: "لأجرّبْ"، رددتُ عليها بمثل اقتِضابها: "ابعثي القصّة هنا وسأرى". كانت فاطمة تتحدّث عن أبيها الّذي استُشهد في مجزرة سجن "أبو سليم" في طرابلس في ليبيا ضمن المئات الّذين سقطوا في ذلك اليوم المشؤوم البعيد من أواخر شهر حزيران من عام 1996م. كانت عاطفتُها – ربّما هكذا قدّرتُ – أكبر من الحَدَث نفسه، كون الّذي تتحدّث عنه في الرّسالة هو أباها. قلتُ لها في رسالة أخرى: "ابعثي لي كلّ ما كُتِب

عن مجزرة أبو سليم". لم تتوانَ، كانت مدفوعةً بحلم أنْ يُصبح أبوها بطلاً في رواية، بعد أنْ جسّد بطولته الحقيقيّة في الواقع. حينَ قرأتُ ما بعثته في المرة الثّانية، كادتْ كلّ شعرةٍ في رأسي تقف. سألتُها من بعدُ أكثر من عشرين سؤالاً، كان أهمّها: "هل هناك من أحدٍ من الّذين شهدوا المذبحة ما زال حيًّا ويُمكننا التّواصل معه؟". ردّت: "كثيرون، لكنّ معظمهم لا يُريد الحديث". اهتدينا معًا إلى "علي العكرميّ" السّجين الّذي قضى ثلاثين عامًا في سجون القذّافي. بدأتُ بمراسلته بشكلٍ شخصيّ، طرتُ إليه إلى تونس، سجّلتُ معه شهادته منذ الميلاد إلى اللّحظة الّتي كُنتُ أنظر فيها إلى عينَيه العميقتَين بشكلٍ مُباشر، كان رجلاً شهمًا وكريمًا في الحديث معي، دلّني على رفاق المحنة واحِدًا واحِدًا، أعطاني حوالي ثمانية كتب من الّذين سجّلوا شهاداتهم على شكل مُذكّرات، قرأتُها عن بكرةِ أبيها في أسبوع، استمعتُ من بعدُ إلى عشرات الشّهود، قبل أنْ أُغادر تونس عائدًا إلى الأردنّ أعطاني الوثائق الّتي بحوزته عن تاريخ السّجن السّياسيّ خلال أربعة عقود من حُكم القذّافي. كان أثمن ما حصلتُ عليه هي وقائع الأيّام الّتي سبقت المذبحة، والأيّام الّتي تلتْها، ووقائع اليوم نفسه الّتي ارتُكبتْ فيه المذبحة؛ كيفَ تمّتْ، مَنْ أَمَر بها، مَنْ كان في تلك اللّحظات مِن ذلك اليوم البعيد على رأس عمله، التّمرّد الّذي حدث في السّجن،

القنّاصة الّذين اعتلَوا أسطح العنابر، و... وكلّ شيء!!

بعدَ عودتي إلى الأردنّ، قرأتُ عن عهد القذّافي أكثر من عشرة كتب أخرى، ساعدتْني زوجتي زهراء في تفريغ الشّهادات، بقينا أكثر من أسبوعَين نُواصل اللّيل بالنّهار كي نستطيع أنْ نكتب كلّ ما تمّ تسجيله أو مُشاهدته. كان عليّ أنْ أستمع إلى القذّافي؛ اللاعب الرّئيسيّ في الأحداث كلّها، نبشت عليه قبره، واستنطقته؛ كان هو الآخر كريمًا في الكلام معي، قال كلّ شيءٍ كان يُريد أنْ يقوله ليُفسّر ما حدث، سجّلتُ روايته في النّصّ، لم أبخل عليه ولا على هواجسه بما أراد منّي أنْ أكتبه.

اعتكفتُ في صومعة الكتابة شهرًا، نزفتُ الكثير من دماء الحرف، سافرتُ إلى أوروبّا، وفي قريةٍ صغيرةٍ نائية أكملتُ بقيّة القصّة، في (تروسنجن) في ألمانيا أنهيتُ النّزف الّذي كاد أنْ يذهب بكلّ الدّماء الّتي تجري في عروقي. قبل أنْ أنتهي تمامًا كانت حربُ الكلمات قد وضعتْ أوزارها، تلك هي القصّة باختصار؛ أنا مَدينٌ لهؤلاء الثّلاثة: للقذّافي ولعليّ العكرمي ولفاطمة بشير بالطّريق الّتي مشيتُها من أجل أنْ أضع هذه الرّواية (طريق جهنّم) بين أيدي القرّاء.

لماذا أدعوكم لقراءة رواية (رؤوس الشياطين)؟

إنْ كان هناك من أسبابٍ تدعوكم لقراءة رواية (رؤوس الشّياطين)، فلديّ عشرةٌ أرى وجاهَتَها، إليكموها:

- وجبة قصيرة دسمة؛ فعددُ صفحاتها (١٩٩) صفحة؛ وهي أقلّ رواياتي في عدد صفحاتها.

- مشاهد مُكثّفة، سريعة الانتقال، عميقة الأثر العاطفيّ.

- تتحدّث عن طبيب عبقريّ يتناهشه عددٌ من الأمراض؛ بعضُها يمرّ به أكثرُنا، وربّما تقول وأنت تقرؤها: هذه الشّخصيّة تتحدّث عنّي، هذا أنا.

- تجعلك تتساءل: هل هذا الذي وقع فيه البطل هو مَرَض؟ لقد وقعتُ فيما وقع فيه تمامًا ولم أكن أعرف!

- واقعيّة في تناولها وطرحها؛ تبحث عن سبب المشكلة أكثر مِمّا تقدّم حَلاً. الرّوايات النّاجحة هي الأكثر إثارةً للمشاكل والأقلّ تقديمًا للحلول.

- تطرح عددًا من الأسئلة الوجودية والهواجس الإنسانية المَرَضيّة عن الحياة والموت والنجاح والإخفاق، ومحاولة فَهم تناقضات النفس البشريّة. الرّوايات النّاجحة هي الّتي تعلّق الأسئلة أكثر من إسقاطها في شَرَك الإجابة.

- تحوم حول الإجابة عن سؤال: هل يعرف المريض النفسيّ أنه مريض؟

- مختلفة عن روايات أيمن العتوم السابقة كلّها؛ فبعد أدب السجون وأدب الحرب وأدب الملاحم التاريخية وأدبَ الفانتازيا؛ تأتي هذه ضمن روايات الأمراض النفسية.

- تعتمد على البحث الذّاتي للبطل عن حلّ لمشكلته مع وعيه التّام بجوانب تلك المُشكِلة أو المُصيبة.

- تعتمد على فكرة: الحلّ هنا، ولكنّني بحثث عنه هُناك!

- تجارب البطل وتجاوبه مع الأديان والأفكار والمُعتقدات تكون جزءًا من الحلّ والمشكلة معًا؛ وهذا هو قمّة المفارقة في سلوك البطل.

قِصّة (ديوان الزّنابق):

في عام ٢٠١٤م كنتُ قد أعددتُ مجموعة شعريّة لي عن القدس أسميتُها (طيور القدس)، وكنتُ على وشكِ الدّفْع بها إلى دار النّشر، حينَ استوقفتْني زهراء قائلةً: إنّ آخر ما نشرتَه من الشّعر كان ديوان (خُذني إلى المسجد الأقصى) وهو شِعرٌ وطنيّ سِياسيّ، وديوان (طيور القدس) هذا الّذي تهمّ بالدّفع به للنّشر من ذات الدّائرة أيضًا، وهذا قد يُضعِف الإقبال على قراءته، فعليكَ أنْ تُفكّر بمجموعةٍ أخرى لنشرها تكون مُغايرة. سألتُها: ما رأيك إذًا؟ إذا لم تكنْ هذه المجموعة مناسبة فما الّذي ترينه مناسِبًا؟ ردّتْ بثقة: ديوان الزّنابق. تساءلتُ مستغربًا: ديوان الغزل؟ أجابتْ: نعم. سألتُ: ولكنّ قصائده كلّها من أوّلها إلى آخرها في موضوع واحدٍ هو الحبّ! ردّتْ: وهذا سببٌ وجيهٌ لكي تدفعَ به إلى النّشر، النّاس قد تملّ الحديث عن السّياسة وحتّى عن الأوطان، وقد فعلتَها في الدّيوان السّابق فانتظرْ قليلاً، وادفعْ بهذا للنّشر، فإنّ النّاس تشتاق للحديث عن حبيباتها وعن مكنونات قلوبها.

كانتْ لفتة غريبة، ولكنّها موفّقة من زهراء، لم أكنْ أفكّر في الحقيقة بنشر الدّيوان مراعاةً لمشاعرها؛ لأنّه يتحدّث عن

(ميسون)، وهو الرّمز للفتاة الّتي أحببتُها أيّام الجامعة، ومضى كلّ واحدٍ منّا في حال سبيله دون أنْ يحدثَ لهذا الحبّ ما بعدَه، لكنّ زهراء، قالت: إنّه تجربة شعوريّة إنسانيّة، وهو حالٌ مرّ بها شعراء الغزل قبلكَ كلّهم، وأنتَ لستَ استِثناءً، فأقدِمْ على ذلك!

أبطال رواياتي:

من أينَ جِئت بهؤلاء الّذين ربّما يعيشون في الرّواية أكثر مِمّا يعيشون في الحياة، إنّ بعضَ هؤلاء أخرجتْهمُ الرّواية من بطون أوراقها وصار النّاس يتحدّثون عنهم كما لو كانوا من لحمٍ ودمٍ، وكلّما رأوا ما يُشبههم أو مَن يُشبههم قفزتْ إلى الذّاكرة صورتُهم الّتي شكّلوها لهم من خلال قراءتهم لتلك الرّواية. اليوم يسألني النّاس عن (واثق) و(منى) و(سميّة) في رواية (ذائقة الموت)، وعن (إياد أسعد) و(محمود الفَحّام) في رواية (يسمعون حسيسها)، وعن (بتول) في رواية (كلمة الله)، وعن الشّيخ (عايد) و(مسعود) في رواية (نفر من الجنّ)، وعن (ورد شاهر) في رواية (حديث الجنود)، وعن (نديم) في رواية (رؤوس الشّياطين)، وعن (عمر بن سيّد) في رواية (أرض الله)، وعن غيرهم بالطّبع... كأنّ هذه الشّخصيّات حقيقيّة، يُمكن إذا كانوا محظوظين أنْ

يلتقوا بأحدها ولو لقاءً عابرًا في مكانٍ ما. إنّهم يقولون لي: ماذا حدثَ مع إياد أسعد؟ هل ما زال على قيدِ الحياة؟ إنْ كان كللك فإنّنا نُحمّلك أمانة السّلام عليه، وإذا التقيتَه فنسألك أنْ تقبّل جبهته... إنّهم اليوم مُستعدّون لكتابة رسائل تُثمّن تضحيات أبطال رواياتي، إذا كانوا أحياءً، ويُمكنهم تلقّي هذه الرّسائل الحميميّة... إنّني أصنع أبطالي من الحروف ثُمّ أصلُ هذه الحروف بعضَها ببعض، ثُمّ أنفخُ فيها فتكون بإذن الله أبطالاً من لحمٍ ودم!

شخصيّاتُ رواياتي مُستمَدّة من الواقع أصعد بها إلى الخيال، ومُستمدّة من الخيال أُنزلها على الواقع. الشّخصيّة الخياليّة تمامًا مائعة، مثل شبحٍ يُغطّيه رِداءٌ أجوف، والشّخصيّة الواقعيّة تمامًا جامدة، مثلَ صنمٍ تخرقه الرّيح. على السّرد أن يُؤلّف مزيجًا بينهما.

لقد استخدمتُ كل ما أملك من أدواتٍ في توصيفهم، لقد نَحتُّ هيئاتهم، وشكّلتُ أذواقهم، وخِطْتُ أَلْبِستَهم، وصوّرتُ طُرُقَ مشيهم في الشّوارع، ولوّنتُ عيونهم، ودرجة بحّة أصواتهم أو عرجة خُطُواتهم... من أجل أنْ أجعلهم ينتفِضون من الحرف والورق إلى الحياة والواقع، لقد كادتْ أنْ تُصبح هذه الشّخصيّات حقيقيّة تأكل الطّعام وتمشي في الأسواق.

دأبتُ على مدى أربعة أعوام من (٢٠١٤-٢٠١٨م) على الجلوس في شرفة مقهى (الأوبرج) في وسط البلد بِعَمّان، المقهى قديم، وشُرفته في الطّابق الثّاني تُطلّ على أقدم شوارع عَمّان، ومن هنا يُمكنك أنْ تشاهد مطعم هاشم، ومطعم القُدس، وحلويات حبيبة، وكشك الجاحظ، وكشك أبو علي، والمكتبة الأهليّة، ... والأهمّ من ذلك يُمكنك أنْ تُشاهدَ النّاسَ؛ النّاسَ كُلّهم، وأنا أعني ذلك؛ فعلى هذا الشّارع تعبرُ خُطُوات البشر بأصنافهم المُتبايِنة المُتناقِضة، من هذه الشّرفة يُمكنكَ أنْ ترى الغنيّ والفقير، أولئك الّذين يلبسون ثيابًا رَثّة مُهترئة لشدّة عِوزهم، وشُعُورهم مُلبّدة لطول عهدها بالماء، وكذلك أولئك الأغنياء الّذين يلبسون ثيابًا أنيقة وربطات عنق، ويركبون سيّارات فارهة، وجاؤوا ليُذكّرهم المكان العتيق بتاريخ المدينة، أو ليُشعرهم كم هم أغنياء، أو يُشعرهم الفارق الطّبقيّ الصّارخ بالرّاحة والاستِعلاء أو بالألم والحنين... من هنا يُمكنك أنْ ترى الرّجال والنّساء والأطفال، الصّغار والكِبار والّذين داسَهم قِطار الزّمن، فهَرِموا حتّى انحنث ظهورهم، وظهرث قُبّتها خلفَ انحِناءتهم تلك... من هنا يُمكنك أنْ تُشاهدَ العربَ والأجانب على حَدّ سَواء، الأجانب الّذين يلبسون ولا يلبسون خاصّة في الصّيف، شعورهم الشّقراء، عيونهم الزّرقاء،

وثِيابهم ثرثارة الألوان، جاؤوا من بلادٍ بعيدةٍ ولغاتٍ غائرة وجغرافيّات بائنة من أجل أنْ يدرسوا العربيّة في المعاهد أو من أجل أنْ يروا آثار عمّان، فالمدرّج الرّوماني وسبيل الحوريّات وغيرهما على بضع خُطُواتٍ من هذه الشّرفة السّحريّة... من هنا يُمكنك أيضًا انْ ترى الأدراج الصّاعدة إلى عددٍ كبير من الفنادق القديمة الّتي يزيدُ عمر بعضِها عن ثمانين عامًا... لقد كان الشّارع القديم يضجّ بالحياة وبالنّاس، كانت بعضُ الشّخصيّات تستوقفني، الأعمى الّذي يُنادي على عُلَب المحارم الورقيّة بإيقاعٍ رتيب، يُمكنكَ أنْ تحفظه وتشعر به من المرّة الثّانية لسماعه أو الثّالثة... عُكّازه وهو يتلمّس به الطّرق بين الخطوات العابرة، الخطوات المُفارِقة الّتي تصنع تلك المُفارقَة.... وذلك المُشرّد البائس الّذي يفترش الأرض المُتّسخة على جنبه، ويغطّ في نومٍ هانِئ رغم أقدام العابرين الّتي تكاد تدوسه في كلّ لحظة... وذلك الأعرج الّذي يتكئ على عرجته وهو يدور بين السّيّارات، وتلك المرأة الّتي تضع أعشابَها الخضراء من أجل بيعِها لذوي الفضل، مقابل قروشٍ عشرةٍ كافيةٍ لرغيفِ الخبز في ذلك اليوم الّذي كان أسودَ وصار أسود وسيظلّ أسود... أولئك الأطفال رَثّي الهيئات وهم يبيعون العِلكة... العجوز الّذي يجلسُ أمام دُكّانه يبيع حلوى من تلك الّتي سادت وبادت قبل أربعة عقود، ولا أحدَ يدري من أين يجيءُ بها، أو يعرفُ

أنّها ما زالت تُصنَع إلى اليوم... نعم لقد قضيتُ أربع سنوات، أجلسُ في تلك الشّرفة، في زاويتها الأكثر اتّساعًا وانفِتاحًا على المشهد، أراقبُ الوجوه والحركات، وأستلهم أبطال رواياتي، وأرسم خُطوطَ شخصيّاتهم، فإذا رسمتُ تلك الشّخصيّة في إحدى رواياتي، أغلقتُ عليها باب التّاويل، وعدتُ لأرسم خطوطَ شخصّيتي القادمة لروايتي الجديدة، لقد كان بطل رواية (رؤوس الشّياطين) يتسكّع في ذلك الشّارع الّذي أُطلّ عليه من تلك الشّرفة، لقد استغرقتُ سنواتٍ في مُراقبته حتّى أرسم شخصيّته في تلك الرّواية!

انفصام الشّخصيّة عند الكاتب:

إنّ التّماهي مع أبطال الرّواية الّذين يصنعهم الكاتب قد يُورثه مرضًا يُدعى (انفِصام الشّخصيّة) أو (تعدّد الشّخصيّة). هل هذا كان يُصيبني بالفِعل؟ الجواب: نعم. ذلك أنّ لأبطال رواياتي تأثيرًا عليّ مثل ذلك التّأثير الّذي أُكسِبهم إيّاه وقد يزيد، بعضُ هؤلاء الأبطال أَكَل وشَرِب معي، بعضُهم صادقني فترةً من الزّمن ثُمّ رمى بصداقتي عُرضَ الحائط وغادرني دون أنْ يقول كلمةً واحدة، مُؤلِمٌ هذا الشّعور، تخيّل أنْ لِسانَك لشدّة هذه الصّداقة، يتحدّث بالكلمات الّتي تقولها الشّخصيّة، حينَ حلّتْ بي شخصيّة (عبد اللّطيف البغداديّ)

الّذي كتبتُ عنه رواية (مسغبة) وجدْتُني أُردّد عباراته، فعلَ كثيرون ذلك معي، لكنّ أبرزهم المتنبّي، كلماته، أبياته، كانتْ تخرج من فمي دون أنْ أدري، في مواقفَ كثيرةٍ كنتُ أواجه ما أنا فيه من رَدّ السّلام أو طلبِ أمرٍ ما أو مُخاطبة جمهورٍ ما، بكلماته، بأبياته، بعضُ أبياته يأتي في مكانه تمامًا، ردّا على ذلك السّؤال أو استجابةً لذلك الموقف، بعضُها لا يأتي في مكانه، أو هكذا يُظَنّ، فيلتفتُ إليكَ مُحدّثكَ مع نظرة الاستِغراب تلك، ولِسان حاله يقول: «ما الّذي أصابك؟». وأودّ أنْ أردّ عليه: «لم يكنْ هذا أنا، لقد كان المتنبّي!» من الصّعب تصديقُ ذلك!

بعضُهم كانوا مِثل ظِلّي يسيرون معي حيثُ أسير، ربّما كان ذلك ممتعًا في البداية، ولكنّهم تحوّلوا بعدَ ذلك إلى كوابيس؛ فمُلازمتهم لي جلعتْني أراهم في الأحلام، وأتفاجأ بهم خلفَ الأبواب، ونبتَ بعضُهم من شقوق الجدران، فيما نما آخرون من أصول الأشجار، أو تعلّقوا تحتَ أغصانها!

حينَ أكتبُ عن الشّخصيّة أتخيلها، أعيشها، أتماهى معها. أدخلُ في أعماقها وألبسُها فتُصبحني. في الواقع هذا ليسَ خيالاً، دعوني أشرحُ الأمر بشكلٍ أبسط، حينَ تماهيتُ مع (إياد أسعد) في رواية (يسمعون حسيسها)، كان السّوط

الّذي يهوي على ظهره في الرّواية يهوي على ظهري في الواقع، أعني الواقع الشّعوريّ، فأتألّم وربّما أصرخ من الوجع مثله تمامًا. حينَ أُلقي يوسف عليه السّلام في البِئر في رواية (أنا يوسف)، بدأتُ بالتّخلّي عن الكتابة، ورحتُ أتخيّله عليه السّلام هناك، غُصتُ في المشهد، بقيتُ وقتًا طويلاً أتأمّله، أتخيّل اللّيل الدّامس، وجدران البِئر الرّطبة، والصّخرة الّتي في قاع البِئر، والأفاعي الّتي تسبح في مائها الضّحل... لم أكنْ أكتبُ آنئذٍ، كنتُ أتركُ نفسي للخَيال، الغوص في خيال الخيال، التّماهي مع صورة ذلك الخيال، الدّخول إلى أفقه الفسيح، فإذا مرّ وقتٌ على ذلك التّأمّل الّذي يستمرّ أحيانًا لساعاتٍ، وشعرتُ بأنّ الشّعور به يتملّكني، عدتُ إلى الكتابة، فكتبتُ بوحي ذلك التّأمّل تلك الحروف، ورسمتُ ذلك المشهد بعباراتي الّتي يُمليها عليّ شُعوري العميق!

موتُ الخيال يعني موتَ الكتابة، وكاتبٌ دون خيال لا يمكن أن يوجد، إنّنا نكتب ما نتخيّله، إنّ هذه المشاهد العظيمة، وتلك الحَيَوات المُدهشة لم تكن لتكون على الورق ولم يكن ليشعر بها الناس لولا هذا الخيال اللاّمحدود. إن الكاتب قادرٌ بالخَيال أن يصنع وجودًا داخل الوجود الحقيقي، وجودًا مُوازيًا، إنه إعادة إنتاج العدم، بل هو رسم اللاّمرئيّ ليعود مرئيًّا لكلّ من يقرأ. موتُ الخيال يعني أن

تُعيد اجترار الواقع، والواقع يراه كلّ النّاس، هؤلاء النّاس ينتظرون واقعًا جديدًا، مُختلفًا كل الاختلاف عمّا أَلِفوه، وذلك لا يصنعه إلا خَيالُ كاتبٍ مجنون. إن لم تمتلكْ هذا النوع من الخيال فلا تُتعِبْ نفسكَ بالكتابة!!

المُشكلة في بعضِ الشّخصيّات لم يكن الألم النّاتج عن التّماهي معها، وخاصّة شخصيّات السّجون في روايات السّجون، وشخصّيات الثّورة في رواياتي الآخرى، فالألم كان يُمكن احتِماله، أو تخطّيه بعدَ فترة، المُعضلة الكُبرى كانت في أمرين: الأوّل الانِتقال من شخصيّة إلى أخرى في الرّواية نفسِها؛ إذْ يتّفق أنْ يكون في شخصيّات الرّواية الواحدة النّبيّ، واللّص، والتّاجر، والطّفل البريء، والفتى الظّلوم، والأخ الغَشوم، والمرأة العاشقة، والمرأة الغانية، والسّلطان المعتدّ بسلطانه، والأمير المُتجبّر، والكاهن الكاذب، و... وهذه الّتي ذكرتُها هي كلّها على سبيل المثال شخصّيات رواية (أنا يُوسف)، وحتّى يعيش معي القارئ الشّخصيّة كان لا بُدّ لي أنْ أعيشَها أنا قبلَه وأن أكُونَها وأدخل في أغوارِها وأطوارها، وعليه كنتُ أنا في هذه الرّواية هذه الشّخصيّات كلّها دون استِثناء، وهذا ما سيُصيب كلّ كاتبٍ يتماهَى مع شَخصيّاته. الأمر الثّاني: كان في البحثِ عن سبيلٍ للخروج من هذه الشّخصيّات الّتي استحوذتْ عليّ بعدَ الانتِهاء من الرّواية.

لقد وقعتُ في حيرةٍ من أمري بالفعل، هل أنا نظيفٌ من الدّاخل من أجل أنْ أبدأ بشخصيّات روايةٍ جديدةٍ أَهُمّ بكتابتها؟ أم أنّ عوالقَ شخصيّاتِ الرّواية السّابقة ما زالت تعيشُ فِيّ؟ لم يكنْ لديّ جوابٌ بالطّبع، هذه الحيرة قادتْني إلى أنْ أستشير طبيبًا نفسيًّا. توجّهتُ إلى أحدِ هؤلاء الأطبّاء النّفسيّين المعروفين، ما جعلني أختار الحديثَ إليه عن سِواه أنّه قارئٌ جيّد للأدب، إضافةً إلى أنّني فكّرتُ أنّه يُمكن أنْ يعرفَ ما تجرّه الكتابة الإبداعيّة من ويلاتٍ نفسيّةٍ على أصحابها.

شرحتُ له أنّني كنتُ اللّصّ والنّبيّ في رواية (أنا يوسف)، وكنتَ القاتل والقتيل في رواية (كلمة الله)، وكنتُ الظّالم والمظلوم في رواية (نفر من الجنّ)، وكنتُ (الثّائر والخائن) في رواية (حديث الجنود)... فهل أنا مريضٌ بانفِصام الشّخصيّة؟ وهل ما يعلقُ بي منها أثناء الكتابة سيستمرّ معي بعدها أم ينتهي بانتهاء النّصّ؛ فبعضُ النّصوص تبدو لا نهائيّة؟! كان جوابُه بسؤال: «هل تدخل إليها بوعي؟». أجبتُه: «نعم». فردّ: «كلّ شخصيّاتكَ إذًا من صُنعِك، وكما تصنعها بوعي، يُمكنك أنْ تخرج منها بوعي، إنّ الكاتب الّذي يعرف الطّرق والزواريب المُؤدّية إلى بيوت شخصيّاته وحواريها، بالضّرورة يعرفُ كيفَ يعود منها، ويعرفُ كيفَ يرجع، وكيفَ

يفتح الأبواب الّتي أغلقها على نفسِه في تلك الغُرَف؛ لأنّه هو الّذي رَسَم تلك الطّرق ولم تُرسَم له، وهو الّذي أغلقَ تلك الأبواب بيده ولمن تُغلَق في وجهه. بقي الشّقّ الثّاني من سؤالك وهو فكرة النّظافة من الشّخصيّات القديمة للاستِعداد للشّخصيّات الجديدة؛ دعْني أُصارِحْك: إنّ هذا غيرُ ممكن، لا يُمكن أنْ تتخلّص من شخصيّاتكَ القديمة تمامًا، أنتَ كأيمن العتوم، كإنسانٍ، لستَ أنت، أنتَ جزءٌ من شخصيّاتٍ كثيرةٍ أثّرتْ فيكَ وصنعتْكَ؛ سواءً أكانتْ حقيقيّة التقيتَها في البيت أو الشّارع، أو وهميّة التقيتَها في بطون الكتب. لكنْ هناك وسيلة لخِداع الشّخصيّات القديمة ربّما بإنامتها وليسَ بإماتتها، فإماتتُها في حالة الكُتّاب يبدو أمرًا مُستحيلاً. هناك أيضًا بعضُ التّخدير لها، أو بعضَ الأمونيوم الّذي يُمكن أنْ تجلعها تستنشقه من أجل أنْ تصرفها عن التّحديق فيك، يُمكنك أنْ تصعدَ إلى أعلى جبلٍ، قريتك تتيحُ لك ذلك، أنْ تجلسَ ساعاتِ هدوء تنظر في الفراغ، لتُسقِط فيه عوالق شخصيّاتك القديمة أو بعضِها. سكتَ لفترةٍ قبل أنْ أسأله: «أهذا كلّ شيء؟» ردّ: «نعم، هذا كلّ شيء». «في فمي ماء يا دكتور؟». «أنتَ في فمك مُحيط؛ لا أستطيع المُساعدة أكثر من ذلك».

نحن نُساوي أفكارَنا:

كلّ الأفكار العظيمة الّتي لمعتْ في أذهان العُظماء كانتْ وَمَضاتٍ ضربت الدّماغ في أقلّ من ثانيةٍ، إنّها هِبةٌ إلهيّة سَخِيّة، إذا لم يُسارع الموهوب إلى ضَمّ ضُلوعه عليها، والإحاطة بها عن طريق كتابتها، فإنّها سرعان ما تنطفِئ، وكما وُلدتْ في لحظةٍ يُمكن أنْ تموتَ في لحظة.

الّذين أمسكوا بتلك اللّحظة ودوّنوها في مُفكّراتهم أو مُلاحظلاتهم، ومنعوها أنْ تفرّ، صاروا عُظماء بها، وتميّزوا عن سِواهم. إنّ الإمساكَ بتلك اللّحظة لتقييدها يتطلّب التّضحية بكلّ شيءٍ سِواه، وعليه فإنّ هذه اللّحظة قد تجعلك تنهضُ عن المائدة في وسط الطّعام، أو تستيقظُ من نومكَ في وسط اللّيل، أو توقف سَيّارتك الّتي تقودُها، أو تصرفكَ عن طُلاّبكَ الّذين تشرحُ لهم، أو تُسقِطُ اللّقمة من فمك، أو تُبلعك الشّربة الّتي في حلقك... متى جاءتْك هذه الهبة الرّبّانية فاترك كلّ شيءٍ وقبّلها من أجل عينيها، فإنّها لا تتكرّر.

قال الحافظ ابن كثير: «كان البُخاريّ يستيقظُ في اللّيلة الواحدة من نومه، فيُوقد السّراج ويكتبُ الفائدة تمرّ بخاطره، ثُمّ يُطفِئ سِراجه، ثُمّ يقوم مرّة أخرى وأخرى، حتّى يكادُ يتعدّد منه ذلك عشرين مرّةً».

أنا أفعل هذا منذُ أكثر من أربعين عامًا. كنتُ في البداية أكتبُ على قُصاصات، وأُودعها في دفاتري، ثُمّ على هذه القُصاصات وأودعها في محفظتي لأنّها صارت تأتيني وأنا في الشّوارع، ثُمّ على المُلاحَظات على الهاتف، ثُمّ أنشأتُ مجموعةً وهميّة على الواتس آب، وصرتُ أُسجّل صوتيًّا الفكرة أثناء بَرِيقها، لأنّني اكتشفتُ أنّ الكتابة تُفقد الفكرة بعضَ لَمَعانِها، والتّسجيل الصّوتيّ أسرع، وأدّى هذا إلى أنْ أُسجّل في بعضِ الأيّام أكثر من خمسين تسجيلاً صوتيًّا.

إنّني اليوم، أحتفظُ بأفكارٍ ربّما صالحة لبِناء مِئة رواية وكتابٍ قادمة، العمر قد لا يُمكّنني من أنْ أكتبها كلّها، ولكنّني صِدْتُها، وجميعها يستقرّ في مُفكّراتي، وهي في كلّ يومٍ تستغيثُ بي أنْ أخرجها من تلك القيود كما لو كانت فراشاتٍ ساحرة، أو ظِباءً نافرة، وأُطلِقَ سراحَها بالكتابة الآسِرة.

«نحنُ نساوي أفكارنا»، اكتبْ فكرتَكَ بمجرّد أنْ تخطر ببالك. لا تنتظر. هي لا تنتظرك إذا لم تُسرِع إلى الإمساك بها، إنّ ضَياعها لا يعني أنّها ستعودُ في مرحلةٍ لاحقةٍ، إنّ ضياعها يعني ضَياعها إلى الأبد؛ هل رأيتُم في حياتكم برقًا لمَع في السّماء وانطفأ، ثُمّ قرّر أنْ يلمع مرّة ثانيةً لأنّ الّذي كان من المفترض أنْ يُشاهده ويُصوّره انشغلَ برباط حِذائه في تلك

اللّحظة؟! لا، ألبتّة. إنّ اللّمَعان يأتي في الحياة مرّة واحدة، ولكنّ الانِطفاء يأتي بعدَ كلّ لمعانٍ، فهو كثيرٌ مُتعدّد قاتلٌ مُحزنٌ ذابحٌ يُوقعك في حومة النّدم إنْ لم تستثمر الفرصة، ولقد قال الشّاعر مرّة:

إذا هبّث رِياحُكَ فاغْتَنِمْها

فَعُقبى كُلِّ خافقةٍ سُكُونُ

وقال ابن المُعتزّ:

كم فرصةٍ ذَهَبَتْ فعادتْ غُصّةً

تُشجِي بطُول تَلَهُّفٍ وتَنَدُّمِ

الكتب العظيمة هي نِتاج أفكار صغيرة بَسَقَتْ في أذهان أصحابِها وقيّدوها، الفكرة الّتي لا تُكتب تَضيع؛ تُشبه سمكةً مُميّزة تسبح في البحر الواسع العميق، إنْ لم تصدْها، وتضعها في إنائك الخاصّ ضاعث بين ملايين السَّمَكات الأخرى.

الدّجاجة التي تبيض ذهبًا:

كلّ كاتبٍ لديه هذه الدّجاجة بطريقةٍ أو بأخرى، إنّها تعني كِتابًا، ربّما كتابًا واحِدًا بين عشرات الكُتُب الأخرى الّتي كتبها الكاتب، ولم يلتفتِ النّاس إلاّ إلى هذه الدّجاجة، ومع أنّ الكاتب لا يرتاح غالِبًا إلى رأي النّاس في هذا الكتاب، إلاّ أنّه يسكتُ عن ذلك مُقابل النّفع المادّي الّذي يدرّه عليه هذا الكتاب مِمّا يُريحه قليلا، ويُمكّنه من التّفرّغ للكتابات الأخرى.

كتبَ (وِل ديورانت) كتاب (قصّة الفلسفة) وهو كتابٌ واحدٌ لا أجزاء له، وهو ليس أفضل ما كتب، ولكنّ النّاس أقبلت عليه ربّما لبساطة لغته الّتي لا تتحدّث عن الفلسفة بأسلوبٍ مُعقّد، بل بأسلوبٍ أدبيّ راقٍ، ثُمّ لاختِصاره وعدم التّطويل فيه، ثُمّ لشموله عددًا كبيرًا من الفلاسفة مِمّا جعله المرجع المُختصر المُعتَمدَ في ذلك. طُبِعَ من الكتاب أكثر من مليون نُسخة، دَرّ ذلك مبلغًا جيّدًا لديورانت، مكّنه من أنْ يُغيّر مكانه من أقصى الشّرق الأمريكي إلى أقصى الغرب ويتفرّغ لكتابة (قصّة الحضارة) الّذي بلغث أجزاؤه اثنين وأربعين جزءًا، كان هذا واضِحًا: لولا دجاجة الفلسفة الّتي باضت ذهبًا لما كتب ديورانت الحضارة! فهل لكل كاتبٍ دجاجتُه الذهبية؟ أظنّ ذلك.

الباب المُوارِب:

بعضُ الكُتّاب يتعمّدون أنْ ينزعوا الثّياب عن كلماتهم فتبدو عاريةً عُريًا فَجًّا سَمِجًا مُبتذَلاً، وهم يظنّون أنّهم بذلك إنّما يكتبون إبداعًا، وما رأيث في حياتي إبداعًا يقلّل من ذوق الإنسان ويمتهنُ كرامته. فرقٌ في الحديثِ عن الشّيء ووجوده والحديث عن الغرائز فيه وتضخيمها، أنا من الّذين يعتقدون أنّ الّذين قادتهم الغرائز والشّهوات الحيوانيّة إلى الكتابة لا لهدفٍ إلا لأجل الكتابة في هذا المجال، هم من ذلك الصّنف الّذين تنتهي كتاباتهم مع انتهاء الشّهوة أو النّزوة والفراغ منها. ولديّ نماذج كثيرة في ذلك، فكلّ كتابات إحسان عبد القدّوس ومن قبله جرجي زيدان، وكتابات إدريس يوسف، الّتي تُشبه روايات عبير الّتي انتشرت في فترة السّتينيّات والسّبعينيّات من القرن المُنصرم وربّما قبلَها انتهتِ اليوم. لم يعدْ أحدٌ يقرأ لهم إلاّ النّزر اليسير. بعضُهم حقّق شُهرةً فاقعةً من وراء هذه الكتابات الشّهوانيّة لأنّ الّذين كانوا يقرؤون له في تلك الأيّام هم المُراهِقون والمُراهِقات، فلمّا انتهث فترة مراهقتهم انتهث تلك الكتابات، إنّها بالفعل تُشبه النّزوة الّتي كُتبوا فيها، تصعدُ حارّةً دافِقةً ثُمّ تنتهي في لحظة، ولا يعود لها أيّ أثرٍ. إنّ الأدب الّذي يبقى، هو الأدب الّذي يتحدّث عما يبقى من قِيَم الإنسان،

ويُعبّر عن أفكاره الّتي تتجاذبه في مُعترك الحياة الّتي تطحنه كلّ يومٍ، ويُحقّق له الخَلاص من عبوديّته، وأوّلها عبوديّته البهيميّة. أمّا الأدب الّذي يتحدّث عن الشّهوة العابرة والنّزوة الطّارئة فهو عابرٌ وطارِئٌ مثلها.

ودعونا نُجِبْ عن السّؤال: ما أسباب اللّجوء إلى الأدب المكشوف الفاضح؟ إنّها لا تعدو أنّ تكون من أجل إشباع الرّغبات المكبوتة، ومنها تلك الرّغبات الّتي أطلقتْها الحرب كما حدثَ في بعضِ الأدبّ الأوروبّي بعدَ الحربَين العالَميّتين الأولى والثّانية، وما نجم عنهما من سوقٍ للدّعارة والاتّجار بالبشر والاغتِصاب والانتِهاك. وسببٌ ثانٍ يُمكن أنْ يكون تسويقًا رخيصًا، فأسرع المال إلى جيبك ذلك الّذي يأتيكَ من الكتابة عن الابتِذال والتّفاهة الّتي تستثير الغرائز بأسلوبٍ حيوانيّ. وسببٌ ثالث قد يكون هروبًا من الأنظمة الاستبداديّة، لأنّ مُواجهتها تتطلّب شجاعةً في الكتابة عن هموم الناس وأفكارهم لا عن شَهَواتهم وحَيَوانيّتهم، فيلجأ إلى هاتين الأخيرتَين نفاذًا بجلده من رقابة تلك الأنظمة. وهو أمرٌ عيزُ مُسوّغ، فالكاتب الحُرّ تكون لديه الشّجاعة بالكتابة عن هذه الأنظمة الفاسدة الاستِبداديّة ومواجهتها بالحرف، فالحرف في هذه الحال رصاصُه وبندقيّته.

هل من المعقول أنْ يتقبّل ذوق القارئ مهما كان عُمره أو مُعتقده أو أهواؤه الحديث عن (الخراء) في روايةٍ لكاتبٍ شهيرٍ، يتحدّث عنه بالتّفصيل، ويُصوّر المشهد باللّحظة في صفحات روايته؟!

إنّني لا أُنكر وجود هذا الفُحش والحيوانيّة والشّهوة في مجتمعاتنا الإنسانيّة قديمًا وحديثًا، وهو بالطّبع لن ينتهي ما لم ينتهِ الإنسان، ولا أدعو إلى عدم الكتابة فيه، فأنا كتبتُ عن مثل هذا الواقع في رواية (خاوية)، وفي رواية (نفر من الجنّ) وفي رواية (أنا يوسف)... وغيرها، ولكنّ القرآن الّذي أرادَ أنْ يتحدّث - مثلاً - عنه في شهوةِ (زليخة) ليوسف عليه السّلام ودعوتها له لارتِكاب الفاحِشة معها، تحدّث عنها بلغةٍ إشاريّة إيحائيّة بليغة، في قوله تعالى: «هيتَ لك» في كلمتَين لا تفتحان الباب على مِصراعيه، بل تفتحان جزءًا من الباب وتُطلّ على شيءٍ من المشهد ليكون هذا سبيلاً لتخيّل النّصف الّذي لم يُفتَح الباب عليه، وهو ما أُسمّيه أسلوب (الباب المُوارب)، إنّ هذا الأسلوب غير أنّه لا يتنافَى مع فطرة الإنسان ولا مع ذوقه، هو أبلغ وأوقع في النّفس من أسلوب الباب المفتوح كامِلاً، ذلك أنّه يحترم عقل القارئ، ويُريه شيئًا من المشهدِ ليُمكّنه هو أنْ يتخيّل ما تبقّى دون أنْ يُؤذي فِطرته ولا مشاعِره، وهو أسمى مِمّا يسلبَ عقلكَ

وبصرك وحريّتك، ويفتح الأبواب كلّها لترى المشاهدَ كلّها، إنّ فكرة (الباب الموارب) هي الفكرة الأنضج والأسمى والأرقى في هذا النّوع من الكتابة.

لُغة الكتابة:

لغةُ الكاتب صورتُه. كلّ كاتبٍ ينفرد بلغةٍ تميّزه، قد يستطيع أحدُنا أنْ يُعدّد لها صِفاتٍ مُحدّدة من التّطويل أو التّقصير أو من التّقديم والتّأخير، أو من الإضافة والحذف، أو من غيرها، غير أنّه مع هذه المُحدّدات الخاصّة، لا بُدّ أنْ تكون هناك مُحدّداتٌ عامّة، يُمكن أنْ تزيدَ ذلك التّميّز تميّزًا، وتلك القَرادةُ فَرادةً. إنّها باختِصار السّير مع لغة القرآن، وهو السّرّ في الكتابة الأكثر تأثيرًا، وهذا ما دأبتُ عليه ليس في الرّواية، بل في الشّعر وفي كلّ ما كتبتُ، بل إنّني وجدتُ أنّه سِرّ المتنبّي في شِعره كذلك، ومَنْ عاشَ معه عرفَ ذلك، وتلمّسه في روحِ قصائده، وفي روحه. وحتّى لا يُسرع الذّهن إلى الاعتِقاد بأنّ المقصود بلغة القرآن هي تلك اللّغة العَقَديّة أو الفقهيّة أو الوعظيّة. أبدًا، فأنا لا أتحدّث هنا عن القرآن كنصٍّ دينيّ، بل كنصّ لُغويّ، إنّ لغتَه يُمكن أنْ تُوصفَ في هذا المجال بكلمتَين: «سَهْلٌ مُمتنع». ولكيْ أوضّحهما أو أدلّل على هاتين الصّفتين فإنّني أحتاجُ حَقًّا إلى كتابٍ كاملٍ أو كتبٍ في ذلك،

ولكنّني سأضربُ بعضَ الأمثلة الّتي تكفي لتوضيح ما قصدتُ.

ليسَ في القرآن كلامٌ صعبٌ، إنّه مُكوّن من كلماتٍ أكثرها يعرفُها الطّفل والكبير على حَدّ سواء، ويأنس بها العاديّ في اللّغة والعالِم؛ فالقرآنُ لم يستخدم على الإطلاق لغةً مُعقّدة، ولم يتّبع الحُوشيّ من الكلام، وغريبُ مفرداته الّتي قد تشكُل على بعضِنا قليلٌ جِدّا، ربّما لا تتجاوز الثلاثة في المِئة من مجموع مفرداته، مِمّا يعني أنّ ٩٧٪ من مفرداته واضحٌ ومفهوم. وعليه إذا كان بهذا الوضوح فما الّذي جعله مُعجِزًا؟ نعم إنّه سهلٌ، ولكنّه مُمتنِع. إنّه سهلٌ تظنّ أنّكَ يُمكن أنْ تأتي بمثله ولكنّ إنْ أردتَ ذلك امتنعَ عليكَ وتأبّى. فمَنْ أرادَ أنْ يكتبَ بلغةٍ هي سَهْلةٌ مُمتنِعةٌ فعليه بلغة القرآن، وماذا تعني لغة القرآن؟! تعني أنْ تختصر القول، فما كان يُمكن تأدية معناه في فقرةٍ فلا داعي للصّفحة، وما كان يُؤدّى في عبارةٍ فلا داعي للفِقرة، وهكذا. ومعناه كذلك أنْ تحذفَ في موضِع الحذف، فلا تُكمل جملةٍ يُمكن للسّياق أنْ يُكملها عنك، فإنّ إكمالَها عِيّ، وحشوٌ زائد. ومعناه ثالثًا أنْ تُقدّم ما من حقّه التّقديم، وتُؤخّر ما من حقّه التّأخير، فبعضُ الجُمَل لا يتمّ سبكُها إلاّ باستِخدام هذه التّقنية. ومعناه رابعًا أنْ تُطابق وتُقابل، فلا يتمّ المعنى ولا يتّضح إلاّ بهذا الأسلوب. ومعناه

خامِسًا أنْ تستفهم وتعلّق السّؤال، وتنادي وتعلّق النّداء، وتتّخذ لكلّ شيءٍ صورةً ومثلاً. ومعناه أنْ تستخدم اللّغة الإشاريّة والإيحائيّة، فيكون وراء أَكَمة الكلام ما وراءَها من المعنى... فهذا كلّه وسِواه أكثر منه هو (سهلٌ مُمتنِع)، يُطمِعكَ في أنْ تكتبَ مثله ويُوئِسكَ إنْ بدأت.

إنّ كتاباتِنا إذا لم تكنْ واضحة ذرتْها الرّيح. ولا أقصد بالوضوح هنا البساطة والتّسطيح فالوضوح الّذي أعنيه في الكتابة ليس نقيض العمق. بل هو العمق الّذي يُؤدّي لك المعنى في أيسر الطّرق، ولا يذهبُ بكَ في المُنعرجات المُلتوية فيُضيّعك ويَضيعُ معك. وهو ذلك الأسلوب الّذي يسكتُ عمّا يريدُ الكاتب أنْ يقوله أحيانًا ليتركَ لك أنْ تقوله أنتَ بإدراكك، إنّها اللّغة الإشاريّة كما قلت، نحن نسكت عما نريد أن نقول لتسمح هذه اللغةُ بقوله، والمسكوت عنه يفترض أن يكون أعمق وأبعد مِمّا قيل وأكثر، ليس شرطًا بالكَمّ، وإنما بما يختبئ خلف تلك اللّغة مِمّا يُمكن الحَدْس أو التّنبُّؤ به. ابحثوا خلف ما قلتُه عمّا لم أقل، فلقد جعلتُ الأول سبيلاً إلى الثّاني، ولقد قصدتُ الثّاني أكثر من الأوّل، ولله درّ المعرّي الّذي قال:

وَلَدَيّ سِرٌّ ليسَ يُمكنُ ذِكرُهُ

يَخفَى على البُصَراءِ وَهْو نَهارُ

رسالة الكِتابة:

إنّ الله الّذي أنعمَ عليّ بهذا الحرف، ومكّنني بفضله منه، أوقفني على ثَغْر، وأوجبَ عليّ أمانةً أنْ أؤدّي حقّها، فأنا اليوم – أُحاول - في كلّ ما أكتبُ أنْ أذبّ عن ديني ولغتي وعروبتي وأنْ أقول الحقّ ولو جرّ عليّ ما يجرّ، فَمَا قدّره الله ماضٍ، وأسأله تعالى القَبول، فإنْ قَبِل فَلَه المنّة، وحُقّ لي أنْ أقول وافرحتاه. وإنْ ضَرَبَ به وجهي – لا قدّر الله – فحُقّ لي أنْ أقول واحسرتاه على ما فرّطتُ في جنب الله، وواحسرتاه على ضيعة الأعمار عبثًا، وإنّني لأرجو الله ألاّ أكون مِمّن قال فيهم: «وَقَدِمْنا إلى ما عَمِلوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَبَاءً مَنْثُورًا». بل إنّ كلّ جارحةً فِيّ تدعوه أنْ أكون مِمّن قال فيهم: «والّذين جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وإنّ اللهَ لَمَعَ المُحْسِنين».

وهذا لا يمنع أنْ يكون في خاطري وخاطر كلّ كاتبٍ ذلك النّزوع والحُبّ إلى أنْ يعرفه الآخرون، أنْ يكون له ذِكْرٌ في حياته وبعد مَماته، كما قال شوقي:

فَارْفَعْ لِنَفسِكَ بعدَ موتِكَ ذِكْرَها

فالذِّكرُ للإنسانِ عُمرٌ ثانِ

أنْ يُعرَف دون أنْ تحيد به تلك المعرفة عن الحقّ، فالله خلقَ الخلقَ لنعرفه، ففي الأثر عن الله تعالى: «كُنتُ كنزًا مَخفيًّا، فأحببتُ أنْ أُعرَف، فخلقتُ الخلقَ لكي أُعرَف»، وما يدلّك على الشّيءِ أكثرُ من صانِعه.

يظنّ بعضُنا قُرّاءً وكُتّابًا أنّ الرّسالة في الكتابة تمنع الأدب، وأنّها تُخفِتُ شُعلة الفنّ، وأنّ ما تعتقدُه يجب أنْ يكون خارجَ ما تكتبه، إذ إنّ اعتقاداتك ومواقفك الفِكريّة تجعل كتاباتِك أقربَ إلى المُباشرة والوَعْظيّة. وهنا يجب أنْ نسأل: وهل الرّسالة في الأدب تمنع الفنّ بالفِعل، وأنّ على الكاتب أنْ يخلعَ رداءَها عنه قبل أنْ يُباشِر برَقمْ أوّل حرفٍ من حروفه؟! الإجابة بالطّبع: لا. فالرّسالة في الكتابة هي الّتي تجعل الكتابة ذات معنًى، وذات قيمة، ويُمكن أنْ يكون لها تأثيرٌ في نفسِ القارئ، وتملكُ الاستِمراريّة في ذاتها. ولا تنتهي غير تلك الكتابات الخالية من الرّسالة والقيمة الّتي تعتمد الإثارة الحِسّيّة مُرتكزًا لقيامها.

ولنذهبْ إلى الكُتّاب الّذين أسرعث بهم أفكارهم إلى معارج الخلود؛ هل كان هؤلاء الأدباء الخالدون إلاّ أصحاب رسالة؟! وهل أبقى الدّهرُ من الأدباء إلا ذلك النّوع الذي ضَمّن رسالته في حروفه؟ والأمثلة على ذلك في الشّرق والغرب أكثر من أنْ يُحيط بها حَصر.

غير أنّه إذا وقفْنا على الضّفّة الأخرى من النّهر فيجب أنْ نعترف أنّ الرّسالة وحدها لا تصنع كتابةً جيّدة، فلا يرفع شرفُ الفِكرة شرفَ الحرف، وما لم تكنْ أنتَ صاحبَ حرفٍ نَبَويّ فستقع كتابتُكَ في الطّين.

إنّ كلّ الّذين حُوربوا من الأدباء وضُيّق عليهم في أصقاع الأرضِ كُلّها إذا نظرتَ إلى تاريخهم ستجد أنّ الّذي جَرّ عليهم ذلك هو شَرَفُ الفكرة في شرف الحرف، وسُمّو الرّسالة في سُموّ العِبارة، وإلاّ فإنّ صاحبَ فكرةٍ ورسالةٍ لا يملك قلمًا لن تُجاوزه فكرتُه، وصاحبُ قلمٍ لا يملك رسالةً لن يرقى به قلمُه.

آبائي في الرّواية:

لقد تعدّد آبائي في كلّ فنّ، أمّا في الشّعر فقد ذكرتُ طائفة واسعةً منهم في الفصل الأوّل (الطّفولة)، ومررتُ سريعًا على

أثر بعضهم في كتاباتي، ولكنْ يبقى أنْ أُضيف هنا ستّةً آخرين من غير أهل لغتنا أو زماننا، وهم الشّاعر الرّوسيّ (بوشكين)، والشّاعر الإنجليزيّ (ويليام بليك)، والشّاعر الفرنسيّ (آرثر رامبو). والشّاعر التّركيّ (نظمت حكمت). والشّاعر الباكستانيّ (محمّد إقبال)، والشّاعر الهنديّ (طاغور).

أمّا بوشكين، فقد رأيتُ الطّبيعة في قصائده، وذلك الإحساس الشّفيف بوجودها في روحه، وأمّا (ويليام بليك) فقد وجدتُ النّفس الإنسانيّة بعنفوانها لكنْ بتسامحها في الوقت نفسه، كانتْ قصائده من ذلك النّوع الّذي يُعظّم الشّعور الإنسانيّ تُجاه الموجودات قبل أنْ تكون تُجاه الإنسان نفسه. وأمّا (آرثر رامبو) فلقد وجدتُه يسرق النّار كما ينبغي، ويعترف: «الشّاعر مسؤول عن الإنسانيّة، بل حتّى عن الحيوانات، ولا بُدّ أنْ يجعل ابتِكاراته قابلةً للشّمّ واللّمْس والسّمع... هو البحثُ عن لغة، ولأنّ كل كلامٍ هو فكرة، فسيأتي زمنٌ للّغة الكونية! ولا بُدّ للمرء أنْ يكون أكاديميًا – أكثر موتًا من حفريّة – ليؤلّف قاموسًا مِمّا لا أدري من لُغات. والضّعفاء الّذين ينغمسون في التّفكير في الحرف الأوّل من الأبجديّة سرعان ما يتخبّطون في الجنون». وأمّا (ناظم حِكمت) فقد تعرّفتُ إلى ديوانه المُترجَم ذي الأجزاء الثّلاثة

في مكتبة أبي، كنتُ في المدرسة، وكنتُ صغيرًا يومئذٍ على فهم معانيه، ولمّا كبرتُ وعرفتُ قِصّةَ نفيه وما عاناه في المنفى من عذابات، فهمتُ كثيرًا من إنسانيّته المُفرطة، وتأثّرتُ بها. وأمّا (محمّد إقبال)، فقد كنتُ أجدُ ذاتي كما أرادَ لها أنْ تكون، في بداياته مع (الأسرار والرّموز) وقد كانت بالفعل أسرارًا ورموزًا. وأمّا (طاغور) الّذي فيه من (عمر الخيّام) مَشابه، فإنّ أكثر ما جذبني إليه فلسفته للزّمن، ضياعه أمام عينَيك وانفِلاته من فروج أصابعك، ثُمّ ندمك، ثُمّ تجد عزاءً في يد الرّبّ، إنّني أعيش هذا النّصّ كلّ يوم: «كم بكيتُ أيّام الكسل على الزّمن الضّائع! بيدَ أنّه غيرُ مُضيَّعٍ يا ربّ، فلقدْ قَبضَتْ يدُكَ على كلّ لحظةٍ من لَحَظات حياتي».

وأمّا آبائي في الرّواية، فهم طائفةٌ مُمتدّة كذلك، بدايتي قراءةً وحفظًا وكتابةً كانت مع الشّعر باستثناء بعض المحاولات الأولى الخَجولة في القصّة القصيرة، ثُمّ لَمّا بدأتُ أَلِجُ عالَم الرّواية، كان ذلك في وقتٍ مُتأخّر تقريبًا، وباستِثناء بعض الرّوايات وخاصّة المُترجَمة منها الّتي أخذناها في المرحلة الثّانويّة كمنهاجٍ مُسانِد، فإنّني لم أبدأ بقراءة الرّوايات إلاّ بعدَ أنْ دخلتُ كلّيّة الهندسة في المرحلة الجامعيّة الأولى... بدأتُ بنجيب محفوظ فقرأتُ أغلبه. ثُمّ لمّا عرّجتُ على الرّوائيّين الآخرين ظلّ نجيب يُطلّ برأسه

من فترةٍ لأخرى بينهم، مادًّا إليّ روايةً أخرى من رواياته لأقرأها فيما أنا أقرأ سِواه. لقد كانت السّلاسة والبساطة والتدرّج هما سِمات ما يكتب وذلك ما أخذتُه عنه.

ثُمّ كان لي وَقَفاتٌ طِوالٌ مع الرّوائيّ (عبد الرّحمن منيف)، فقرأتُ تقريبًا كلّ ما كتب، بعضُ ما كتبَ يُشعرك بالصّدمة، بعضُه بالتّقزّز، وبعضُه يُبكيك حتّى تسيل القَطَرات من تحتِ قاع ذقنِك، هذا التّلاعب بالمشاعر هو ما استفدتُه منه، على صعيدٍ آخَر كان في (شرق المتوسّط) على سبيل المثال عبقريًا في القطع والاستِرجاع، نقطة الوقوف والتّقدم أمامها، أو التّراجع خلفها، وفي نقطة التّقدّم أنتَ تتراجع من جديدٍ؛ فلقد أفدتُ من هذه التّقنيات البسيطة المُدهشة في الآن نفسه.

ثُمّ لمّا خرجَ لي الرّوائيّ اللّيبيّ (إبراهيم الكوني) من رِمال الصّحراء عرفتُ كيفَ يكون لهذه الصّحراء ذاكرة، ورائحة، وعَبَق، وسِرّ، وسِحر، وغموض، وطقوس، ومُقدّسات، ومُدنّسات، وغرق، ونجاة، وموتٌ، وهلاك، وعَطَشٌ، وَرِيّ... كلّ ذلك صنعتْه حروفه السّاحرة، ذلك الغموض اللّذيذ باستِخدام تلك اللّغة الشّفيفة الّتي هي كالبلّور صَلدةٌ لكنّها تبين عمّا تحتَها.

ثُمّ تقدّمتْ إليّ (رضوى عاشور)، فضربتْني بمطرقةٍ على رأسي في ثلاثيّة غرناطة، ولَمّا صحوث منها، من التّاريخ المُكتنز فيها، وتلك الواقعيّة الخياليّة فيها، رحتُ ألتهم ما تبقّى من رواياتها: فَرَج، وسِراج، وخديجة وسوسن، وتقرير السّيّدة راء، وأطياف، وقِطعة من أوروبا، وجميع روايات رضوى تشترك بذلك القدر من الأمومة، الأمومة الّتي تطغى في النّظر إلى الاشياء والحُكم عليها، وهذا جانبٌ مهمّ في نظرتي إلى الأشياء أفادني – بالطّبع - حينَ كنتُ أُبدّل بين شخصيّاتي في رواياتي، فكان تقمّص دور الأمّ أو المرأة يحتاجُ إلى شيءٍ من هذا. غير أنّ أهمّ ما يُمكن أن أقول إنّني أفدتُ به من روايات رضوى عاشور هو تمتيع التّفصيل إذا جاز التّعبير، أي الحديث عن الأمور العاديّة كطَرْق بابٍ مثلاً أو دُخولِ حَمّامٍ بتفصيلٍ مُمتع، وهذا كان جليًّا في كتاباتها.

فإذا ذهبتُ إلى (صُنع الله إبراهيم)، فذلك العذاب الخفيّ، روحُه تتعذّب في كتاباته، لم يقلْ ذلك بالطّبع، أنا شعرتُ به يتحرّك تحتَ حرفه، ذلك ما أفدْتُه منه بالضّبط، أنْ يشعر القارئ بألم شخصيّاتي تحت حروفي دون أنْ تجهر الشّخصيّة بالقول بذلك. ثُمّ ذلك الغياب، الغياب الطّويل غير المُسوّغ للشّخصيّة في أنفاق العبارة، إنّه يُتقن ذلك، وأنا

أعرفُ كيفَ آخذُ من هؤلاء الرّوائيّين أفضل ما عندهم.

أمّا (الطّاهر وَطّار)، فقِصصه القصيرة، أضربُ مثلاً: «من ياسمينة إلى...» هي بالضّبط حَدّ سِكّين ذابح، يحزّكَ من الوريد إلى الوريد، إنّه يُتقنِ الإضاءات السّريعة على المشهد، الانتقالات الخاطفة بين الأماكن، وتعتيم التّوافذ الّتي تُطلّ على الفكرة، ليسَ تعتيمها تمامًا، إنّه يترك خيطًا رفيعًا يتسلّل إليها لكي تكشتف أين يقودكَ ذلك الخيط؛ ذلك تمامًا ما أفدتُه منه. مثلُ ذلك يُقال (للطّاهر بنجلّون) مع اختِلافٍ بسيط، بنجَلّون يُعدّد المكان، ستجدُ أنّكَ في مكانٍ واحدٍ، كأنْ يكون زنزانةً مثلاً كما في (تلك العتمة الباهرة) ولكنّ المكان في هذه الزّنزانة ليس مكانًا واحِدًا، وإلاّ فإنّك ستُحبَس مع السّجين نفسه إنْ لم تكنْ قادرًا في كلّ مرّةً على الدّخول على هذه الأمتار المربّعة القليلة في كلّ مرةٍ من بابٍ مُختلف؛ ذلك ما تعلّمْتُه منه.

في مرحلة لاحقة، رُبّما بعد أنْ بدأتُ بكتابة الرّواية، ظهر في المدى الجزائريّ (واسيني الأعرج)، كان ذا لغةٍ عذبة، يقطر منها الشّهد، قادرٌ على أنْ يتحدّث عن الشّعور الواحد بألفِ طريقةٍ وطريقةٍ، ومع تعدّد الطّرق في التّعبير لا تفقد اللّغة عذوبتها، ولا غُذريّتها، كأنّما جيءَ بها للّتوّ، وكأنّها

خرجتْ من قاموس الشّعور لحينه، ذلك ما تقفْتُه منه.

في المرحلة اللاحقة انضمّ إلى طائفة المُنتظِرين، أعني كتبهم، اللّبناني (ربيع جابر)، قادتْني (دروز بلغراد) إليه، كانث مختلفةً عمّا قرأث من قبل، الاختِلاف جاء في تقنية اللّغة، كان يستخدمُ جملاً قصيرة، قصيرةً للغاية، تتكوّن من كلمتَين أو ثلاثٍ، ولا يربطُ بينها بحروف العطف أو بالرّوابط الأخرى، فقط كلمتين، تبدأ عبارته بالكلمة الأولى وتنتهي بالثّانية، وبعدها نُقطة كبيرة، لتبدأ عبارةٌ جديدةٌ بالطّريقة نفسِها، يُشبه هذا الأسلوب المطارق الصّغيرة الّتي تنزل على رأسِك، إنّها لا تتوقّف، مُتعتُها في تتابعها وانثيالها على الرأس بشكلٍ مُستمرّ، لأنّ اعتِياد طَرَقاتِها المُتتابِعة يجعل له لذّة من نوعٍ غريبٍ، تُفقَد حالما تتوقّف الطّرقات أي الجُمل، أو يَتغيّر أسلوب السّرد، كأنْ يستخدم جُملاً طويلة، أو جُملاً بروابط... تلك الجُمل القصيرة المُتلاحِقة المُنهمِرة الّتي تطرق دماغ القارئ طرقًا لذيذًا هو ما أفذْته منه.

(جمال الغيطاني) في الزّيني بركات و(أمين معلوف) في حدائق النّور وسمرقند والحروب الصّليبيّة كما رآها العرب، كانا مُلهِمَين بالنّسبة لي في الكتابة التّاريخيّة، أُضيفُ إلى الغيطاني لغته التّراثيّة الجميلة.

هؤلاء من العرب، وأمّا غيرهم فهناك طائفةٌ لا تنتهي، قرأتُ في البدايات لديستويفسكي، وكانت رواياته القصيرة نسبيًا رفيقة رحلات سَفَري، أمّا المُطوّلة فقد قعدتُ لها قعودًا، ساعدني (ديستويفسكي) في الدّخول إلى أغوار الشّخصيّات، الشّخصيّات البوهيميّة على وجه الخصوص، كان يحلّ فيها حلولاً بارِعًا، يحكي بلسانها حتّى لا يُمكنك أنْ تُفرّق بينهما.

ذاتَ مرّةٍ زارتْنا صديقةٌ لزوجتي وهي أكاديميّة تُدرّس الأدب في جامعةٍ من جامعات روسيا، وأحبّتْ أنْ ترى مكتبتي، فنزلتُ معهما، وحينَ دَخَلَتْ غرفة الرّوايات الّتي تضمّ أكثر من خمسة آلاف رواية، سألتْني عن الّذين أُحبّهم من الرّوائيّين الرّوس، فأخبرتُها بالطّبع عن ديستويفسكي وعن غوغول ومكسيم غوركي ورسول حمزاتوف وتولستوي وتشيخوف وبوشكين، وقدّمتُ عليهم الأوّل منهم، فسألتُها السّؤال بدوري، فقالت: ليس ديستويفسكي هو المُفضّل عندي، ولا حتّى فيمن عرفتُ في روسيا، المُفضّل عندي هو (ميخائيل بولغاكوف)؛ هل قرأتَ له؟ أجبتُها: لا، مع أنّ كلّ رواياته موجودةٌ في مكتبتي، المُشكلة هي أنّني لا أستطيع أنْ أقرأ هذه الآلاف الخمسة من الرّوايات ولم يُرشّحه لي

أحدٌ من قبل، فردّت: أنا أُرشّحه لك، ومتأكّدة من أنّه سيُعجبك. أخذتُ قولَها على مَحمل الجِدّ، وبدأتُ أقرأ له (قلب كلب)؛ فأدهشني الفِعل، تلك اللّغة الّتي يتحدّث بها كلبٌ وهو يُزري بأفعال البشر، كان ذلك مفتاحًا لأدخل عالَم بولغاكوف الرّوائيّ الّذي قِيل إنّه قُتِل مسمومًا من قبل السُّلطات - وهو بالمناسبة قَدَر الكثيرين من الكُتّاب الأحرار عبر العالَم - في الأربعينات من عمره، ولعلّ التّرجمة الّتي كانت من حَظّ ديستويفسكي دون غيره من الأدباء الرّوس في السّبعينيّات هي الّتي قدّمته على سواه، مع أنّ سامي الدّروبي وهو أوّل وأشهر من ترجم أعمال ديستويفسكي إلى العربيّة، لم يُترجمها عن الرّوسية، بل ترجمها عن ترجمتها من الفرنسيّة!

الرّوس أكثرُ من أبدعوا في الوصف، لِذا أنا أحبّهم؛ فأنا وَصّافٌ كذلك. ولغتهم الشّرقيّة تُشبه لغتَنا، لها النّكهةُ ذاتُها، فنحنُ أبناءَ الشّرق نُرقّص اللغة، ونجعلها وهي تموج بجذعها تعبق رائحة البَخور والبَهار الكامنة فيها.

ثُمّ جاء بعدَ الرّوس أو معهم الكثيرون، جاء الكاتب اليهوديّ (عاموس عوز) وعرفتُ من خلال روايته (قصّة عن الحبّ والظّلام) كيفَ نشأت دولة إسرائيل المُحتلّة عن كَثَب، بلغة

الأديب الخبير، لقد أفادني في فهم عقليّة اليهود أكثر مِمّا قرأته في كتب التّاريخ، ذلك أنّ كتب التّاريخ لا تدخل إلى عقول العِرْق الّذي تتحدّث عنه، وبالطّبع لا تدخل إلى قلوبهم، وهذا ما أسعفني فيه عاموس عوز، فقرّرتُ أنْ أعرفَ الأدب اليهوديّ أكثر بالقراءة لمثل هؤلاء الكُتّاب.

بعضُ الرّوائيّين الخالدين مثل (هِنريك شينكوفيتش) أسعفني في ذلك الحلم الّذي ظلّ يُراودني منذُ طفولتي في أنْ أصفَ المقبرة وصفًا يليقُ بجلالِها وجمالها، وهدوء ليلها وغُموضه، لم أجدْ وَصّافًا أعظم من (شينكوفيتش)، كان يصف كأنّك ترى، ما رأيتُ دِقّةً في الوصف في كلّ ما قرأتُ من رواياتٍ عبر أكثر من عشرين عامًا كما يفعل، هذا ما تعلّمْتُه منه. انظر إلى هذا الوصف في روايته (كوفاديس): «بدأتْ تلاويح الفجر تنثر لونَها الرّماديّ على الأشجار والأبنية وشواهد القُبور المُنتشرة. بات الطّريق ليس خاليًا تمامًا. بائِعو الخضار يتّجهون بحميرهم وبِغالهم المُحمّلة بالبضائع نحو البوّابة، لكي يصلوا إليها عند افتِتاحها. وعَجَلاتُ العَرَبات المُحمّلة باللّحوم تُقرقع هنا وهناك. كان الضّباب خفيفًا، لكنّ السّائر إذا ما أراد النّظر خلاله من بعيد وجد الآخَرين أشباحًا مُتحرّكة. ظَلَّ فينكوس يُتابع هيئة ليفيا النّحيلة الهيفاء الّتي سَبَحتْ في ضوءٍ فِضّيّ كلّما تَقَدّمَ

الفجرُ في مجيئه". وها أنتَ ترى، إنّه ليسَ وصفًا رائعًا بالكلمات فحسب، إنّ الكلمات هنا صورةٌ وصوتٌ ولونٌ ورائحة، إنّ الوصف يجعلك ترى. على مثل هذه الطّريقة في الوصفِ درّبتُ نفسي في رواياتي، هذا ما أفدتُه من شينكوفيتش، ولْيكنْ؛ إنّه بارعٌ كذلك في وصفِ الشّخصيّات ورَسْمِ خُطوطها كذلك، إنّ إتقان الوصف من أجل أنْ يعيشَ معك القارئ المشهد ويراه كأنّه فيه من أصعب التّقنيات الّتي على الرّوائيّ البارع أنْ يُتقنها، ويُدرّب نفسَه عليها باستِمرار.

أمّا وصفُ المُدن، وضبابها، وسُقوط أضوائها، وشوارُعها الغائمة، وناسُها الحالِمون، وبيوتُها القديمة، ومَواقدها الدّافِئة، ودُخان شتائِها، ورَذاذ مَطَرِها في الضّحوات... فلم أجدْ من ينقع غُلّتي في ذلك مثلُ (كارلوس زافون) في روايته (ظلّ الرّيح) الّتي تقع ضِمن ثلاثيّة مقبرة الكتب.

وأمّا (ماركيز)، الّذي بدأ معي عقب الثّانويّة العامّة، وتعتّق معي وأنا في السّجن، وما قرأتُه هناك، فإنّني لا أجدُ (مئة عامٍ من العُزلة) الّتي قدّمته لنوبل جميلة بالحدّ الّذي تتفوّق فيه على (خريف البطريرك)، لقد تعلّمتُ من الخريف الرّبيع في الوصف، ظلّتْ هيئة البطريرك لا تفارقني وأنا أكتبُ (نفر من الجنّ)، لقد تلبَّسها (مسعود) تمامًا.

طائفةٌ أُخرى من الصّعب الوقوف عند كلّ واحدٍ منها، هناك (غاليانو) الّذي أعاد تقويم التّاريخ البشريّ بناءً على قِيمَه وكرامته من خلال (أطفال الزّمن). وهناك (ساراماغوا) الّذي تعلّمتُ منه الرّؤية في (العمى)، وهناك في هذه العُجالة من الأمثلة السّريعة (باتريك زوسكيند)، فلقد تعلّمتُ منه أنّ (الحمامة) إذا وقفتْ أمام الباب فلم تستطع الحراك جعلتْ قريحتَك تتحرّك عبر ثمانين صفحةً من الوصف المُدهِش. إنّ أهمّ ما يميّز زوسكيند برأيي هو وصف الرّائحة في (العطر)، لقد درّبتُ نفسي من خلاله على الإمساك بخيوط الرّائحة ونثرها في أنوف القُرّاء حتّى تحس أنّها تغلغل في مواضع الشّمّ فتملؤها مُتعتّقةً بها. انظرْ إلى هذا النّصّ من (العِطر) يصف ولادة البطل الّذي وُلِدَ وَسْط الرّائحة: "وفي باريس بطبيعة الحال كانت الرّوائح على أشدّها، فباريس كانت أكبر مدن فرنسا، وداخل باريس كان هُناك مكانٌ مُحدّدٌ بين شارع أوفير وشارع فيرونيري أي في مقبرة الأبرياء، حيث كانت الرّوائح الكريهة تُهَيمنُ بصورةٍ جهنّميّة. فعلى مرور ثمانمئة سنةٍ كان موتَى مُستشفى نُزُل الرّبّ والأديرة المُجاوِرة يُدفنون هنا؛ يوميًّا خلال ثمانمئة سنةٍ كانت الجُثث المُتفسّخة تُجلَبُ بالعشرات لتُوارَى التّراب في قبورٍ طويلة أو في القبور العائليّة وفي مأوى بقايا الجُثث، عظمةً فوقَ

عظمةٍ طيلة ثمانمئةِ سنةٍ. وفيما بعدُ فقط، عشيّة الثّورة الفرنسيّة، عندما انهدمت بعضُ القبور الجماعيّة بصورةٍ خطيرة، وعندما دَفَعَتِ الرّوائحُ المُنبعثة من المقبرة المُزدحمة سُكّانَ الجِوار لا إلى الاحتِجاج فحسبُ، وإنّما إلى انتِفاضاتٍ حقيقيّة، عندئذٍ فقط أُغلِقت المقبرة ونُقِلت مِلكيّتُها العقاريّة، فجُمِعت ملايين العِظام والجماجم ثُمّ أُهيلت في جوفِ قبور مونمارتر الجماعيّة. وفي مكان المقبرة السّابقة أقيمت ساحةُ السّوق. وهُنا في أكثر أماكن المملكة بأسرِها زَخَمًا بالرّوائح، وُلِد جان باتيست غرنوي في السّابع عشر من تموز 1738م. كان أشدّ أيّام السّنة حَرًّا، فقد جثمتِ الحرارةُ كالرّصاص فوق المقبرة بحيثُ كانت تضغطُ بُخار التّفسُّخ المُتصاعد من مزيجٍ من البِطّيخ المُتعفّن والقرون المُحترقة باتّجاه الأزقّة المُجاوِرة. كانت والدة غرنوي عندما جاءَها المَخاضُ تقف أمام عَرَبة سَمَكٍ في شارع أوفير وهي تُقشّر نوعًا من السّمك الأبيض الّذي سَبَق أنْ نَظّفَته، ورائحة السّمك هذا الّذي يُفترض أنّه قد جاء من نهر السّين صباحًا كانت قد تَصاعدت لدرجة أنْ غَطّت على روائح الجُثث. لكنّ والدة غرنوي لم تَعِ لا رائحة السّمك ولا رائحة الجثث، إذ إنّ أنفَها لم يعدْ قادرًا على استِقبال أيّة رائحة، بالإضافة إلى أنّ جِسمها كان يُؤلمها، وأنّ الألم قد أماتَ عندها أيّة حساسيّة تُجاه الانطِباعات الخارجيّة

للوجود. كلّ ما كانت تبغيه هو أنْ يتوقّف الألم وأنْ تخلص من عمليّة الولادة بأسرع ما يُمكن. كانت هذه ولادَتَها الخامسة. وكلّ ولاداتها السّابقة كانت قد أنجزَتْها أمام عَرَبة السّمك. وفي الحالات جميعها كان المواليد إمّا أمواتًا أو أنصافَ أموات. فاللّحمُ المُدمَّى الّذي كان يخرجُ من رَحِمها لم يكنْ ليختلف كثيرًا عن أحشاء السّمك المُكوَّمة أمامها، ولم يحتفظ بمظاهر الحياة أطول منها. ومساءً كانت تنقل الكُتلة كلّها بكل ما فيها لتنجرف إلى المقبرة أو النّهر".

التّدفّق في الكتابة:

لطالَما سُئلتُ هذا السّؤال: "كيفَ يُمكن لكاتبٍ مثلك أنْ يكتبَ روايةً أو روايتَين في السّنة الواحدة؟ إنّنا نعتقد أنّ كتابةَ روايةٍ تحتاج بعد سنةِ كتابتِها إلى سنةٍ أخرى للتّخلُّص من شخوصها، لكي يبدأ المرء التّفكير بعملٍ روائيّ جديد!!". طبعًا مَنْ يقول ذلك لم يجرّبْ أنْ يكتبَ رواية ولا كيفَ تُكتَب الرّواية، وهي بالطّبع أعقدُ وأصعبُ مِمّا كان يتخيّل لكتاباتها حين أطلقَ حُكمَه هذا، ومن جهةٍ أخرى لم يقرأ أوسعَ، بحيثُ تُظهر له قراءته المُوسّعة سذاجة هذا الطّرح وبساطته.

في الحقيقة لستُ مُهتمًّا بالرّدّ على هذا الحُكم أو التّساؤل،

قد لا يَعنيني، فلستُ بِدعًا من الرّوائيّين في ذلك، غير أنّني أفردتُ له هذه الإجابة من أجل بعض مَنْ يُطلِقون هذا التّساؤل مُندهِشين أو مُتعجّبين وهم يُريدون بالفِعل أنْ يعرفوا، وأنْ يطّلعوا على تجربةٍ حقيقيّة تُجلّي لهم هذا الشّك، وتُوضّح لهم هذا الغموض. حسنًا أوّل خطأ وقعَ فيه هؤلاء أنّهم صدّروا حُكمهم إمّا على وهمٍ تشكّل في أذهانهم، أو قِياسًا على قدراتهم أو ما يعرفون، وكلا الأمرين يُجانب الصّواب والحقيقة.

من الضّروري قبل أنْ نُجيب بشكلٍ مُوسّعٍ عن هذا التّساؤل أنْ نُقرّر في البداية حقيقةً هي: أنّ كثرة الكتابة لا تعني الرّداءة، وأنّ قلّة الكتابة لا تعني الجودة، وأنّ القيمة إذا توزّعت على أكثر من عملٍ قلّت، وأنّها إذا توزّعث على أعمالٍ قليلةٍ زادث أو تكثّفث.

يقول المُتسائِلون إنّ كثرة الكتابة ستُؤدّي بالكاتب إلى أنْ يُكرّر نفسَه. قد يكون هذا بالطّبع أمرًا مُحتملاً، ولكنْ دعوني مثلما أفعل بالعادة أقف على الضّفّة الأخرى من النهر وأسأل السّؤال المُعاكس: هل وُجِدَ كُتّاب كانوا غزيري الإنتاج ولم يُكرّروا أنفُسَهم؟ سيكون الجواب: نعم، موجودون والتّدليل عليهم كثير. إذًا، المسألة في الحُكم هي الحُكم على المُنتَج

بعدَ أنْ يصدر، فلا أحكامَ مُسبَقة، ولا يجوز أنّ نقرّر ما نظنّه أو ما نتخيّل أنّه الحقيقة. فما الحقيقةُ إذًا؟! الحقيقةُ أنّ هناكَ صِنفًا من الكُتّاب أنتجوا عددًا من الكُتُب ربّما يفوقُ عددُها ما يُمكن أنْ يدخل في الحساب المَنطقيّ، وكان لكلّ كتابٍ نكهتُه وفِكرتُه وجمالُه.

إنّ ما يمنح العمل مِصداقيّته هو قيمةُ ما فيه، والسّرعة أو البطء في الكتابة ليسا مقياسَين لا للجودة ولا للرّداءة، ومثلُ ذلك يُقال لمن أنتجَ روايةً واحدةً في حياته أو أنتج مئة رواية.

لكلّ عملٍ قوانينُه الّتي تحكمه، وضوابطُه الّتي تعمل فيه، وما يُنتجه الكاتب هو ما يُلزِمُ به نفسه من قوانين يضبطُ بها إيقاع عمله، ففي حينَ لا يستطيع أنْ يجلسَ كاتبٌ أمام أوراقه وعمله غير ساعةٍ واحدة، هناك كاتبٌ قادرٌ على أنْ يجلسَ عشر ساعاتٍ في محراب إبداعه، فإذا أنتج الثّاني عشر أضعاف ما أنتج الأوّل فذلك أمرٌ طبيعيٌّ غيرُ مُستغرب، ولا يحقّ لنا القول إنّ كِتابَ الأوّل أجودُ من كُتُب الثّاني العشرة!

أمير الشّعراء أحمد شوقي كتب قصيدته المَلحميّة عن

دمشق:

سَلامٌ من صَبا بَرَدى أَرَقُّ

ودَمْعٌ لا يُكَفكَفُ يا دِمَشقُ

بليلةٍ واحدة، وسافرَ بها صباحًا ليُلقيها هناك، لم يقلْ له أحدٌ: "إنّكَ كتبْتَها بسرعة، وكان عليكَ أن تتأنّى وتتأنّق في ذلك، إنّ قصيدة من خمسةٍ وخمسين بيتًا كانت تحتاج منكَ إلى أسبوعٍ حتّى تنتهي منها!!".

سِرّ الإبداع وزمنه لا يحكمه قانونٌ؛ لأنّه هو القانون نفسُه، إنّه يتغيّر ويتحوّر حسب الحالة الإبداعيّة النّفسيّة، فينكتب ربّما في ليلةٍ بذات الرّوح الّتي يستجلبُ آخَرُ عشرَ ليالٍ لينكتب بها!

لا العددُ القليل من الرّوايات والكتابات مَدعاةٌ للتّباهي بأنّها عميقة وأنّها كُتِبث على مَهَلٍ وبإتقان وأنّ عملاً ما أخذ عشر سنوات أو عشرين، ولا العدد الكبير مَدعاةٌ للتّباهي كذلك، وأنّ عملاً ما أخذ أسبوعًا أو أسبوعَين. ما يجب أنْ يتباهَى الكاتب به هو قِيمةُ ما قَدّمه، والإضافة الّتي أضافَها إلى

مجموع الإنتاج الإنسانيّ في هذا المجال.

في الحقيقة أنا أَعُدُّ نفسي من الكُتّاب الكُسالَى أو قليلي الإنتاج. وهذا ليسَ ادّعاءً، بل هو حقيقة، ذلك أنّني أقيسُ نفسي إلى ما أنتجَه كثيرٌ من الكُتّاب فأقفُ أمامهم مُستقِلاًّ ما كتبث. ولو عرفَ بعضُ النّاس المُستنكِرين إنتاجَ بعضِ الكُتّاب لأصابَها الذّهول. بالطّبع لديّ – دون مبالغة - أكثر من مئة نموذج حاضرة في ذهني للكُتّاب غزيري الإنتاج، ولو أردتُ أنْ أظفرَ بألفٍ منهم لفعلث، ولكنّني أكتفي بالأمثلة الآتية أُقدّمها من غير ترتيب ولا اتّفاق:

1. كَتَبَ الجاحظ أكثر من (300) كتابٍ في حياته، أحد هذه الكُتب على سبيل المِثال هو كتاب (الحَيَوان) الّذي يتكوّن من سبعة أجزاء، وعدد صفحاته وحده أكثر من أربعة آلاف صفحة!!

2. كتبَ ابن جرير الطّبريّ عَشَرات الكتب، أذكر منها فقط كتابَين، هما تفسير الطّبريّ الّذي يتكوّن من (13) مُجلّدًا، وكتاب تاريخ الطّبريّ الّذي يتكوّن من (11) مُجلّدًا، وتَعداد صفحات هذين الكِتابَين وحدهما حوالي عشرين ألفَ صفحة!!

3. كتب الإمام الذّهبيّ أكثر من (200) كتابًا، أحدُ عناوين هذه الكتب، كتابه المشهور: (سِيَر أعلام النُّبلاء) الّذي يقع في (18) مجلّدًا، ويزيد عددُ صفحاته عن عشرة آلاف صفحة!!

4. كتَبَ ابن سينا الطّبيب والفيلسوف والشّاعر والمُوسيقيّ، الّذي عاشَ أكثر من ثُلُثَي حياته مريضًا ومُطارَدًا ومَنفيًّا ومُسافِرًا، ومات وعمره (57) سنة، أقول: كتَب (276) كتابًا، أحدها – على سبيل المِثال – كتاب القانون في الطّبّ؛ الكتاب الّذي كان الغربُ يَعُدُّه كتابَ الطّبّ المُقدّس في جامعات أوروبّا حتى أواخر القرن التّاسع عشر الميلاديّ.

5. أمّا الرّازيّ، فقد كتبَ أكثرَ من (130) كتابًا، واحدٌ منها هو كتاب (الحاوي) في الطّبّ، ويتكوّن من (20) مُجَلَّدًا! قال عنه (ول ديورانت) في كتاب (قصّة الحضارة) في المجلّد السّابع، الجزء 13، ص 191: "وأشهر أطبّاء هذه الأسرة الرّحيمة على بكرة أبيها، هو أبو بكر محمّد الرّازي (844 – 926م) اشتهر بين الأوروبّيين، باسم (رازيس)، وكان أبو بكر كمُعظَم كبار العلماء والشّعراء في وقته فارسيًّا، يكتب بالعربيّة. وكان مَولده في بلدة الرّيّ، ودرس الكيمياء بنوعَيها، والطّبّ في بغداد، وألّفَ (131) كتابًا، نِصفُها في الطّبّ، ضاع معظمُها. ومن أشهر كتبه كتاب الحاوي وهو كتابٌ في

عشرين مُجلّدًا، ويبحث في كلّ فرعٍ من فروع الطّبّ، وقد تُرجم هذا الكتاب إلى اللغة اللاتينيّة".

6. كتبَ عَبّاس محمود العَقّاد صاحب الثّقافة الموسوعيّة أكثر من (100) كتاب. ونحوًا من (15) ألف مقالٍ، وجُمِعت بعدَ موته في (26) مُجلّدًا ضَخمًا.

7. كتبَ نجيب محفوظ الحائز على جائزة نوبل للآداب حوالي (55) روايةً في حياته، غير آلاف المقالات والنّصوص والسّيناريوهات الّتي كتبها للمُسلسلات، وغيرها. وفي عام 1975م نشر ثلاث رواياتٍ في ذلك العام وحده هي: حكايات حارتنا، وقلب اللّيل، وحضرة المُحترم.

8. كتب الرّوسيّ (أنطون تشيخوف) أكثر من (200) رواية وقِصّة ومسرحيّة، ومات وعمره (44) عامًا!!

9. كتب (يوكيو ميشيما) اليابانيّ (40) رواية، و(18) مسرحية، و(20) مجموعة قصصية، وجُمِعت مقالاته في (20) كتابًا، وانتحر عن عمر (45) عامًا!!

10. كتب (بلزاك) الرّوائي الفرنسي الّذي تُوفّي سنة

1850م عن عمرٍ قريبٍ من الخمسين، أكثر من (90) روايةً، وكان يكتبُ في اليوم (7) ساعاتٍ مُتواصلاتٍ.

11. كان الفيلسوف الدّنماركيّ (كيركيجارد) يكتب بتدفّق لا نهائيّ، فقد كتبَ أكثر من أربعةَ عشرَ كتابًا وثمانيةَ عشر مُجلَّدًا من اليوميّات والتّأمّلات، والأفكار حول أعماله ومُلاحظاته اليوميّة فقط في فترةٍ لا تتجاوز (8) سنواتٍ، وتُوفّي في الثّانية والأربعين من عُمُره.

12. أنتجَ الرّوائيّ الإنجليزيّ (ترولوب) (47) رواية، بالإضافة لمجموعات قصصيّة ومسرحيّات وكُتُب فكريّة؛ واللاّفت أنّه قام بكلّ ذلك أثناء اشتغاله بوظيفة حكوميّة في مكتب البريد، ولم يكن مُتفرغًا كما يُظنّ بأحوال الكُتّاب، بل كانت وظيفته تتطلّب منه الكثير من الأسفار. وفي سيرته الذاتيّة يحكي أنتوني سِرّ تلك الإنتاجية: "لقد أثبتُّ لنفسي عادةً أن أكتب وساعتي أمامي، وأتطلّب من نفسي إنتاج (250) كلمة كل رُبع ساعة. وظهر لي أنّ المئتين وخمسين كلمةً تتدفّق بسلاسة مُتزامنة مع حركة عقارب السّاعة. هذه التّوزيعة مَكّنَتْني من إنتاج ما يزيد على عشر صفحات من رواية عاديّة في اليوم، وإذا حافظتُ على هذا النّهج على مدى عشرة أشهر، فذلك يُنتج ثلاث روايات في ثلاثة أجزاء

في العام".

13. كتبَ ديستويفسكي رواية (المقامر) خلال (20) يومًا لأنه كان مُحتاجًا للمال، وكان قد وعد ناشرَه بأن يُسلّمها له خلال ثلاثة أسابيع، وهذا ما حدث فعلاً، بينما كان في الوقت نفسه يكتب روايته الخالدة: (الجريمة والعقاب) الّتي يقتربُ عددُ صفحاتها من (1000) صفحة، وقد أنجزَها خلال أشهر!

14.كتبَ (فيكتور هيجو) الرّوائيّ الفرنسي روايته (آخر يوم لمحكوم بالإعدام) خلال أسبوع، وقِيل خلال يومٍ واحد. والرّواية (157) صفحة.

15. كتبَ (ويليام فوكنر) روايته (بينما أرقدُ محتضرة) من مُنتصف اللّيل وحتى الساعة الرابعة فجرًا على مدى ستّة أسابيع عندما كان يعمل في محطّة توليد كهرباء.

16. قيل إنّ (آرنست همنغواي) كتب إحدى رواياته، ولعلّها (لمن تُقرَع الأجراس) خلال أربعة أيّام فقط.

17. كتبَ (إسخيلوس) الّذي تُوفّي في القرن الخامس قبل الميلاد (٩٠) مسرحيّة لم يَصِلْ إلينا منها إلا سبعٌ.

18. كَتَبَ الرّوائي المسرحيّ اليونانيّ (يوربيديس) (92) مسرحيّة ورواية، وصلَ إلينا منها (١٨) عملاً فقط، إذا ما ضمّنّاها مسرحية (ريسوس) المشكوك في نسبتها إليه.

19. كتب (سوفوكليس) صاحب المسرحيّة الأشهر (أوديب) حوالي (١٢٠) مسرحيّةً، وصل إلينا منها (٧) فقط.

20. كتب (ديوكاسيوس ككيانس) كما جاء في كتاب (قصّة الحضارة) تاريخ روما من روميليوس إلى أيّامه سنة (٢١٠) م في ٨٠ مجلّدًا خلال (١٩) عامًا ابتدأ به وهو في عمر الخامسة والخمسين وأنهاه في عمر الرّابعة والسّبعين؛ بمعنى أنّه كان يكتب أكثر من (٤) مجلّدات في السّنة؛ أي أنه كان يكتب المجلّد في أقلّ من ثلاثة أشهر!!

21. كتبَ (كولن ويلسون) صاحب الكتاب الشّهير (اللامنتمي) أكثر من (100) كتاب، وكان ينشر في السنّة الواحدة ثلاثة كتب أو أربعة.

22. كَتَبَ المصريّ (عبد الرحمن بدوي) أكثر من (150) كتابًا توزّعث على الفلسفة والتّرجمة والتّحقيق، وكان أغلبها في الفلسفة، ما يقفنا أمام سؤال: لو كتبَ في غير الفلسفة

فكم سيكون قد أنجز؟

23. ألّف الإمام الغزالي خلال مدّة حياته (55 سنة) الكثير من الكتب في مختلف صنوف العلم، حتى قيل: إنّ تصانيفه لو وُزّعت على أيام عمره لأصابَ كُلَّ يومٍ كتابٌ. وقد وضع الباحثان جميل صليبا وكامل عيّاد قائمة بمُؤلّفات الغزالي ضمّت (228) كتابًا ورسالة، ما بين مطبوع ومخطوط ومفقود.

24. كَتَبَ (ابن عساكر) المُتوفّى عام (571 هجريّة) ما يزيد عن خمسةٍ وثلاثين عنوانًا، (تاريخ مدينة دمشق) وحده من هذه العناوين بلغَ عددُ أجزائه ثمانين جُزءًا، بما يقرب من خمسةٍ وعشرين ألف صفحة!

25. كتب الموسوعيّ الرّحالة الشّاعر (ياقوت الحمويّ) المُتوفّى عام (622 هجريّة) عن ستّةٍ وأربعين عامًا مؤلّفاتٍ ضخمة، اثنان فقط منها هما (معجم الأدباء) و(معجم البلدان) عددُ صفحاتهما يقتربُ من عشرة آلاف صفحة!!

26. الإمام الطّبراني المُتوفّى (360 للهجرة)، زادث مؤلّفاته عن (75) مؤلّفًا، كما ينقل عنه الحافظ الذّهبيّ في

تذكرة الحُفّاظ: "كنتُ أنام على البواري؛ أي الحُصُر، مدّة ثلاثين عامًا".

27. ابن الجوزي المُتوفّى سنة (597 للهجرة) كَتَبَ نحو (300) كتابٍ في التّفسير والحديث والتّاريخ واللّغة والطّبّ والفقه والمواعظ وغيرها من العلوم، وقال عنه الذّهبيّ: "ما علمتُ أنّ أحدًا من العلماء صنّفَ ما صنّف هذا الرجل".

حسنًا، دعوني بعد فيضِ الأمثلة هذه، أُمارس اللّعبة إيّاها فأقفُ على الضّفّة الّتي يقف عليها المُندهِشون. أكادُ أسمعهم يتهامسون: إنّ زهير بن أبي سُلمى كانت القصيدة تمكث عنده حولاً كاملاً يُنقّحها ويُدقّقها، حتّى سُمّيت القصائد من هذا النّوع بالحَوْليّات، صحيحٌ لكنّ ذلك جزءٌ من الحقيقة وليست الحقيقة كاملة، إنّ القصائد الّتي تمكثُ عندَ الشّاعر حولاً كامِلاً هي قصيدةٌ أو اثنتان لا أكثر، تلك القصيدة الّتي ستكون من المُعلّقات، ولذلك يَعتني بها صاحبُها أشدّ الاعتناء، لكنْ لن تمكثَ عنده كلّ قصيدةٍ من قصائده حولاً وإلاّ فإنّ هذا الثّمانينيّ الّذي سَئِمَ تكاليف الحياة سيكون قد عاش العمر الّذي عاشَه نوح، حتّى تكون قصائدُه كلّها حوليّة!

دعونا نتخيّل لو أنّ صاحبنا المُتنبّي فعل ذلك فمعناه أنه

كان يتوجّب عليه أن يعيش ثلاثمئة سنة بعدد قصائده، في حين أن أشهرها كالقصيدة الميميّة التي عاتب فيها سيف الدولة لم تمكث في جُعبته إلا يومين أو ثلاثة حتى نَثَرها كما ينثر الفارسُ الكنانةَ في وجه مَمدوحه المُعاتَب، وغادر!

إنّني ما زلتُ معكم على ضِفّتكم، أسمعكم من جديدٍ تتهامَسون، انظرْ إلى (أُمبَرتو إيكو) لقد مكث عشر سنوات وهو يكتب (اسم الوردة)، ولم يكتبْ في حياته كلّها غير ستّ رويات. وهذا (هيرمان هسه) مكث يكتب في (لُعبة الكُرَيّات الزُّجاجيّة) عشر سنوات كذلك؛ حسنًا؛ فأنا لم أقلْ بخلاف ذلك، لكنْ لماذا تستشهدون بهما، ولا تستشهدون بمن كتب الرّواية في أقلّ من ثلاثة أسابيع من كبار الكُتّاب كفيكتور هوجو وديستويفسكي؟! إذًا لا تُقدّسوا الأوّل ولا تَرْجُموا الأخِيْرَين، كلاهما له أسلوبه في الكتابة وطريقته في السّير في هذه الدّرب الغامضة المُسمّاة (الإبداع)!

هل تريدون منّي أنْ أقفَ على ضِفّتكم أكثر؟ نعم. وليكنْ، تقولون: إنّ (تشارلوت برونتي) لم تكتب غير روايةٍ واحدةٍ في حياتها هي (جين إير) وكانت كافيةً لتخليدها، وإنّ (إيميلي برونتي) لم تكتبْ مثلَ صاحبتها غير روايةٍ واحدةٍ في حياتها هي (مُرتفعات ويذرنغ)، وأنّ (مارغريت ميتشل)

لم تكتبْ مثلَ صاحبتَيها غير روايةٍ واحدةٍ هي (ذَهَبَ مع الرّيح) ولم تذهبْ هي مع الرّيح، إذْ خلّدها عَمَلُها هذا، حسنًا أنا أعرفُ هذا قبل أنْ تتهامسوا به، ولكنْ لماذا لا تستشهدون بآخرين مِن أصحابِ أصحابِ الواحدة، كتبَ بعضُهم أكثر من ثمانين رواية، مثل (أجاثا كريستي)؟!

إنّ دراسة حياة كاتبٍ ما وفَهْم طريقته في الإبداع لا يُمكن أنْ تتمّ من خلال روايةٍ واحدةٍ مثلما تكون ناتجةً عن عددٍ وفيرٍ أو جيّد من الأعمال، من أجل هذا ربّما اشترطَ النُّقّاد القُدماء كابن سَلاّم في (طَبَقات فُحُول الشّعراء)، والأصمعيّ في (الأصمعيّات)، وابن قُتيبة في (الشّعر والشّعراء) عددًا من الشّروط حتّى يُعدّ الشّاعر فحلاً، منها: الاقتِدار، والتّصرّف في الأغراض الشّعريّة فيكتبَ في أكثرَ من غرضٍ شعريّ، ووَفْرة القصائد الطِّوال. وحين سُئِل الأصمعي عن الشّاعر الجاهليّ الحادِرة أجاب: "لو كان قال خمس قصائد مثل قصيدته لكان فَحْلا". وكان يعني قصيدة الحادرة الّتي مطلعها: "بَكَرَتْ سُمَيّة...". وإذا قِسْنا ذلك على الرّواية مع الفارق، فإنّ أصحاب الواحدة من الرّوائيّين امتلكوا بالطّبع شرطَ الاقتِدار، وفقدوا شرطَي التّصرّف (الكتابة في أكثر من غَرَضٍ أو موضوعٍ)، والوَفْرة (كتابة أكثر من عملٍ مُطوّل)!

نعم، هناك روائيّون من أصحاب الواحدة كالذين ذكرتُهم سابِقًا، ولكنّهم نُسُوا كأنهم لم يوجَدوا أو كأنّهم لم يولَدوا، فلم تكنْ واحدتُهم سبيلَهم للشّهرة أو الخلود كهؤلاء، ومثلُ ذلك أيضًا يُقال لأولئك الذين كتبوا العَشَرات من هذه الرّوايات ثُمّ أصبحوا بعد ذلك نَسْيًا مَنسيّا!!

إذًا أين هو المعيار الصّحيح في جودة ما يُكتَب؟! وما هي عوامل بقائه؟!

المِعيار مرّة أخرى هو القيمة، هو ما ينفع الناس لكي يعيش مع تعاقب الأزمنة، المعيار هو نقديٌّ بالضّرورة، وحدّده القرآن بقوله تعالى: "فأمّا الزَّبَدُ فيذهبُ جُفاءً وأمّا ما يَنفعُ النّاسَ فيمكُثُ في الأرض". واسألوا الآن بعد ذلك لماذا خَلَدَت أعمالٌ دون أخرى؟! لماذا عاشت أشعار المُتنبّي وستُنسَى أشعار كثيرين؟! لماذا ستظلّ أعمال شكسبير تُحلّل وأبطاله تُشرَّح، وستُنسى أعمال كثيرين؟! لماذا ستعيش الفكرة في أعمال غسّان كنفاني وستموت في أعمال مَن سوّقوا الانبطاح وذَوَبان الهوية والخضوع لِمُدية الجَزّار تحت مُسمَّيات التّعايُش وقبول الآخَر الكاذِبة؟!

القضيّة في النّهاية نِسبيّة، إن حِياكة ثوبٍ في يومٍ مُمكِنة،

وحياكة ثوبٍ في عام مُمكنة أيضًا؛ لكنّها بالضّرورة لن تُنتج ذلك الثّوب الذي فكّر فيه النّسّاج أوّلَ بَدْئِه في العمل؛ لا لونه ولا شكله ولا تداخل الخيوط فيه؛ إنه بالضرورة ثوبٌ آخَر.

في النّهاية؛ لنفترضِ الآتي، لو أنّ كاتبًا عاديّ القُدرة، لكنّه عالي الانضِباط، أرادَ أنْ يُدرّب نفسه على الكتابة، فقرّر أنْ يقرأ فصلاً واحِدًا من كتابٍ في اليوم، ويكتبَ صفحةً واحدةً، فمعنى ذلك أنّه يستطيع أنْ يكتب (365) صفحةً في السّنة، لنقلْ إنّها (350) صفحة، والأسبوعان المُتبقّيان يرتاح أسبوعًا، ويُراجِعُ ما كتب في الأسبوع الثّاني، إنّ هذا يعني أنّه يستطيع أنْ يكتبَ كتابًا مُكتملاً في السّنة إذا ألزمَ نفسَه بساعةٍ واحدةٍ يوميًا، هي الّتي تستغرقه في قراءة فصلٍ من عشر صفحات، وكتابة صفحته اليوميّة اليتيمة تلك. إنّ هذه السّاعة الّتي قد تضيع من أيّ واحدٍ منّا في اليوم، وقد يضيع أضعافُها كذلك في كلّ يوم، قادرةٌ بهذا الانضِباط أنْ تُنتجَ كتابًا جيّدًا في السّنة، مُعتمِدةً على القراءة الّتي هي طَعامُ الكاتب الجيّد وشَرابُه، وعلى تدريب النّفس على كتابة الصّفحة، الّتي تُصبح يسيرًا جِدًّا كتابتُها بالتّمرين والدّربة والمِراس، ولا أريدُ له أنْ يتحمّس الكاتب الكريم فيكتبَ أكثر من صفحة. كتابٌ واحدٌ في السّنة، يعني (30) كتابًا على الأقلّ في ثلاثين سنة، إنّ هذا يعني أنّك صرتَ من أكثر

الكُتّاب إنتاجًا، إنّهم سيقولون لك بعدَ الكتاب العاشر لماذا هذه الغزارة في الإنتاج؟ من أين تأتي بالوقت لتكتب هذا كلّه؟ من أينَ آتي بالوقت؟ إنّني لا أبذلُ أكثر من ساعةٍ واحدةٍ في اليوم يا سادة. مرحبًا بكَ إلى نادي الكُتّاب الحقيقيّين!

حُبسة الكتابة:

نقيضُ التّدفّق في العنوان السّابق. الحالة الّتي تُشبه خريفَ العمر، وضَعْفَ البَصر، واختِلاطَ الرُّؤى، وعدمَ القُدرة على المُضيّ إلى الأمام، وقَطْع الطّريق بخُطًا تُجرّ فيها القَدَمُ جَرًّا، بعدَ أنْ كانت تَنهبُ الأرضَ نهبًا.

قد تحدثُ الحُبسةُ عَرَضًا بين كتابات ماراثونيّة مُرهِقة، ما يُسمّى بالحُبسة المُؤقّتة؛ إذ يتوقّف العقل ليأخذ هُدنةً أو استِراحة، ثُمّ يُعاود البدء من جديدٍ، ويرجع إلى سابق عهده، وهذا أمرٌ طبيعيّ، ومن الضّروري أنْ يتقبّله الكاتب كَعَرضٍ صِحّيّ لا مَرضيّ. أمّا أنْ تبدأ الحُبسة ولا تنتهي، فيمرّ العام والعامان دون أنْ يكون قادرًا على أنْ يخطّ حرفًا واحِدًا، فلا بُدّ أنّ في الأمر خللاً جَللاً. إذا جاءت هذه الحُبسةُ الكاتبَ في منتصف العمر، فقد تعرضُ له حادثةٌ أو هَزّة عاطفيّة شعوريّة

تُعيده إلى سبيل الكتابة مرّة ثانية، ولكنّها إذا جاءت في العقود الأخيرة من العُمر فقد يكون الخروج منها مُستحيلاً.

يقفُ الكاتبُ أمام المرآة، وينظر في وجهه مَلِيًّا، ويُدقّق النّظر فيما تحتَ عينَيه، يرى رُعب اللّحظة، إنّه يشعر بذلك في رأسِه، صوتٌ غيرُ صادرٍ من الشّفتَين، ولا من قَسَمات الوجه، ولا من الخارج، إنّه صوتٌ من داخله، صوتٌ أقربُ إلى تقريعِ مُعلّمٍ لتلميذٍ، أو أبٍ قاسٍ لابنه الصّغير: "لماذا لا تكتب؟ هل شاخت أفكارُك ولم تعد تملك الخروج من رأسكَ أيّها العَجوز؟!". ينقطع الصّوت الأوّل، يُشيح الكاتب بوجهه عن المرآة، ينظر عن يمينه يرى نفسَه خارجَه، وصوتٌ يَرْشَحُ بالخوف والأسى لا بالتّأنيب والتّقريع، يُخاطبُ به نفسَه الّتي تنظر إليه صامتةً من هناك: "أَمَعْقُولٌ أنّ هذا التّدفُّق كُلَّه في الأفكار سينضب وهذا الحماس في الكتابة سيخفت؟ وأنّني لم أعدْ قادرًا على كتابة حرفٍ واحدٍ؟!". يشعر بعجزٍ مُحزنٍ بعدَ العبارة الأخيرة هو ذات الشّعور لبطلٍ في الماراثون حقّق أرقامًا قياسيّةً فيما مضى، لكنّه اليوم لم يعدْ قادرًا على أنْ يخطو خطوةً واحدة؛ إنّه مَشلولٌ تمامًا!!

إنّه خوفٌ من الآتي حين يَمُرّ العُمر قَطاةً عَزَّها شَرَك كما قال المجنون، وأنت ترى أنها صائرة إلى النّهاية لا محالة. كُلّ

شيء ينتهي، وهذا الخوف من هذه النهاية قبل أن تقع هل هو مَرَضٌ أم أمرٌ طبيعيّ؟ أتنتابُ الكاتبَ مثلُ هذه الهواجس وهو لمّا يبلغ الحافّة التي تصبح عندها هواجسه حقيقية وقادرةً على إلقائه من تلك الحافّة إلى وادي الموت، وَيْحَه! فَلْيعشْ لحظته الآن لا لحظته البعيدة، وليُعطِ دون أن يُفكّر في العاقبة ولا يقع فيما قاله ابنُ زهر الأندلسيّ:

كلّما فَكَّر في البَيْنِ بَكَى

وَيْحَهُ يَبكِي لِما لَمْ يَقَعِ؟!

هناك حُبسةٌ من نوعٍ مُختلفٍ؛ ماذا إن أحسّ أحدهم دائما أنه يستطيع كتابة أشياءَ عظيمة، وعند إمساكه القلم لا يستطيع سوى أن يخطّ بضع كلمات فقيرات. هذه حُبسةٌ لا تدوم، سَبَبُها قلّة الدُّربة، وانشِغال البال، وضياع الهدف، والتّسويف، واللامُبالاة، وقلّة القراءة. وليس سببَها مرورُ العمر، ونضوبُ الفكر، وضعف العقل، ودُخول الخَرف. تبدو النّجاة من الأولى ممكنة، لكنّها لا تبدو كذلك في الثّانية، ولذلك كان العُلماء الأقدمون يعرفون هذه الأخيرة القاتِلة، فإذا شَعَروا بها قالوا في أخَرةٍ من حياتهم لطُلاّبهم: "لا تأخذوا عنّا".

في تمّوز من عام 2020م عُهِد إليّ أنْ أكتبَ مقدّمة النُسّخة العربيّة من كتاب (حياة أخرى: عن الشّيخوخة والكِتابة والذّاكرة والهِجرة والحُبّ...) بترجمة (فلورا مجدلاوي) وهو كتابٌ أقربُ إلى السّيرة الذّاتيّة لكاتبه الرّوائيّ السّويديّ (ثيودور كاليفاتيدس). الشّعور الّذي ينتابُكَ وأنْتَ تقرأ هذه السّيرة، هو مزيجٌ مُختلط من الحزن والتّعاطف والأسى والحنين، كأنّكَ ترى نفسكَ مكانَه وهو ينعَى قلمه في مرحلةٍ مُتأخّرة، كانت المُقدّمة محاولة لفَهم هذه الحالة من الحُبسة الّتي يودّ فيها الكاتب أنْ يُطلق بهذه الصّفحات الأخيرة القليلة رصاصة الرّحمة على رأسه، وهي ذات الرّصاصة الّتي يُطلقها الإنجليز على رأسِ الحصان الّذي فاز في مسابقاتٍ كثيرةٍ ولكنّه هَرِمَ الآن ولم يَعُدْ جديرًا إلاّ بتلك الرّصاصة الأخيرة الّتي تنقله إلى العالَم الآخر حيث لا أحزان ولا أوجاع!

لقد كانت مُقدّمتي تأصيليّة في بدايتها لهذه الظّاهرة: "الرّكن الّذي قام عليه هذا النّصّ هو حُبسة الكتابة، وهذه الحُبسة الّتي قد تصيب الكاتب في أيّ مرحلةٍ من عمره، قد تكون أشدّ وأقسى في مراحل حياته المُتأخّرة، المراحل الّتي تبدأ فيها دورة الحياة تُعيده إلى طفولته عبر ذكريات يظنّ

أنّه نَسِيها ولكنّه يكتشف أنّها تُلحّ عليه في كلّ لحظةٍ وكأنّها حدثت اليوم أو أمس ولم يمرّ عليها كلّ هذه العقود المتطاولة من السّنين!

حُبسة الكتابة أو حُبسة الكاتب، مُصطَلحٌ ربّما يُظنّ أنّه حديثٌ، فلا أحدَ يعتقدُ أنّ هذه الحُبسة أصابث - على سبيل المِثال - الجاحظ توفّي (868م) الّذي كتبَ أكثر من ثلاثمئة كِتابٍ، ومات تحت كتبه الّتي رُدِمث فوقَه وقد تجاوز عمره مئةَ عامٍ، ولا أصابث التّوحيديّ توفّي (1023م) إذ كان عنده - على ما يبدو - فيضٌ من الكتابة وتدفّقٌ غير مشروطٍ، حتّى إنّه فَكّر أكثر من مرّة لسقوطه في آبار الاكتِئاب أنْ يحرق كُتُبَه، ولربّما نجح في إحدى هذه المحاولات.

ربّما يشكّ المرء أنّ هذه الحُبسة قد أصابث بعضَ هؤلاء الكُتّاب فتمنَّوا أنْ تنتهي حياتهم وهم في هذا المجد قبل أنْ يُداهمهم الجدب والمَحل في الكِتابة، وفي هذا قُتِلَ المُتنبّي عام (965م) ولَمّا يتجاوز الخمسين من عمره وهو في أوج شُهرته، وانتحر ستيفان زفايفج عام (1942م) وهو في قِمّة عَطائه. وكذلك انتحر آرنست همنجواي عام (1961م) بعد أنْ وصل إلى القمّة في المجد والشّهرة، هل كان انِتحارهم بسبب شعورهم بهذه الحُبسة؟ أو خوفًا من أنْ تستمرّ إلى

زمنٍ يتحوّلون فيه إلى آلاتٍ صَدِئة كما يصفُ بعضُهم؟ ربّما.

توني موريسون الحاصلة على جائزة نوبل للآداب عام 1993م تتبرّأ من هذا المُصطَلح، ولكنّها حينَ تشرحُ تبرُّؤها منه تقع فيه، تقول: "أنا أتبرّأ من هذا المصطلح، تمرّ عليك أوقات لا تعرف ماذا تفعل فيها، وقد تتعثّر في الوصول إلى كلمات أو حدث، لذا إذا كنت حسّاسًا، فلن تستطيع الكتابة. لقد كتبتُ رواية (المحبوبة) بعدما قضيت ثلاث سنوات من التفكير فيها. وبدأت في كتابة المخطوطة بعدما تعرفت على الشخصيات وبعد التغلب على الخوف من خوض المُعترَك الكتابيّ، ثم استغرقت كتابتها ثلاث سنوات أخرى. وفي تلك السنوات الثلاث الأخرى كنت أعمل دون أن أدوّن كلمة واحدة!".

الكاتب ثيودور كاليفاتيدس ربّما من النّوع الّذي أصابته هذه الحُبسة وهو في نهاية العَقد الثّامن من عمره، إنّه حينَ أرادَ أنْ يقول لنا ذلك، قالَه بهذه السّرديّة الّتي تتدفّق حيويّة، وتفيضُ جَمالاً، وهذا من المفارَقات.

ولكنْ – مهلاً – ما الدّوافع الّتي قد تُؤدّي إلى حُبسة الكاتب؟ (كاليفاتيدس) يجيبُ عنها حينَ يقول: "كان خوفي

الأكبر دائمًا هو أنني قد أجعل نفسي محطّ سخرية. فأكتب شيئا فظيعًا، يُضحِك عليّ حتى طيور النورس المحلّقة فوق مياه خليج ستروممن في ستوكهولم". هذا الشّعور بأنّ البِئر قد فرغت من الماء، هو شُعُورٌ ربّما يُلازم الكاتب كلّما هَمّ بكتابة نَصٍّ جديدٍ، إنّه يشعر أنّ النّاسَ لو أرادتْ أنْ تملأ من بِئره ماءً فلن تجد سِوى الطّين.

ولكي يطمئنّ (كاليفاتيدس) إلى أنّ هذه الحُبسة شيءٌ مُتوقّعٌ الوقوع فيها في أيّ عمرٍ أو زمن، راحَ يسردُ لنا مَنْ وقعَ فيها قبله، فهو يقول: "أحيانا، وببساطة لا يستطيع المرء أن يكتب. حتى إنَّ أديبًا مبدعًا بموهبة السويدي الراحل يوران تنستروم هجر مخطوطة له في منتصف العمل عليها، إذ لم يستطع أن يضيف سطرًا واحدًا إليها. والكاتب السويدي الكبير فيلهيلم موبيري، فضَّل الموت على العجز الأدبي". لكنّ كاتبنا يُقاوم الموت على الصّعيدَين الفيزيائيّ والحَرْفيّ، ويريدُ ألاّ يموت، إنّ نِداء الحياة أثمن من عجز الموت، وهو حَيّ، ويستطيع أنْ يفعل شيئًا، ولربّما كانت لديه القدرة مثل العنقاء أنْ يخرجَ من الرّماد. والوسيلة لأنْ يجدَ نفسه مدفوعًا بتلقائيّة إلى الكتابة، هو أنْ يُعَطى غليونه الخاصّ الّذي تزوّجه منذ أكثر من نصف قرنٍ، وغرفةً هادِئة: "أعطني منفضة سجائر وسأعطيك قصةً!" هكذا كان يتفاخر

تشيخوف الخجول".

الحُبسة قد تصيبُ أيّ كاتبٍ، لكنّ السّؤال: هل يستسلم لها؟ ما الّذي يجعله يستسلمُ يا تُرى، وهو يعرفُ أنّ الكتابة قد تساوي حياةَ الكاتب، إنّ الكاتب خارجَ كلماته ميّت. سيبقَى سؤال الجدوى قائِمًا حتّى لو حاول الكاتب أنْ يقول لنفسه: لقد اكتفيث، آنَ لي أنْ أرتاحَ قليلاً، وآنَ لهذا الفارسِ أنْ يترجّل! كَلاّ، ليسَ هذا ما يحدثُ في العادة للكُتّاب، إنّ الاستِسلام إمّا أنْ يكونَ موتًا قَدَريًّا يبعثُه الله من خلال مرضٍ أو حادثٍ ما، أو موتًا بيدٍ أخرى، أو انتِحارًا، أمّا خارج هذه الأشكال فسيكون من العبث أنْ تستسلم أو تُقنِعَ نفسكَ بأنّكَ تفعل، سيظلّ ذلك الهاجس يدور في عقلك مثل نحلةٍ لا تهدَأ: تستطيع أنْ تكتب، وليسَ هناك ما يحدّ حقّكَ في ذلك، أنتَ مَنْ تضع هذه العقابيل. عليكَ أنْ تتحرّر منها، ولِذا من المُجدي أنْ يبدأ الكاتب بالبحث عن الإجابة عن هذا السّؤال: "لماذا تحظى الكتابة بكل هذا الوزن في حياتي؟". وسيجد الجوابَ بسيطًا: لأنّها تساوي حياتي، والتوقّف عنها يساوي التّوقّف عن الحياة. وسيجد تقريره الآخر في قوله: "أما الآن فقد حان الوقت كي أترك كل هذا ورائي. حان الوقت كي أهاجر من نفسي، تمامًا كما هاجرت من بلدي. لا مكانَ له. ولن يتقاعدَ عن الكتابة حتّى لو بلغ اثنين وثمانين عامًا كما حدثَ

مع والده، ولا حتّى مئةً وعشرين عامًا كما حدث مع تلك المرأة في إيجينا عندما كان يشتري الفُستقَ من متجرها. وسيخلص الكاتب كما خلصَ في هذا الكتاب الرّائع إلى المقولة الأكثر صِدقًا في حالته والّتي قالَها له أبوه وهو صغير: "نحنُ لا نستسلمُ أبدًا".

عناوين الرّوايات:

لم تكنْ لديّ فِكرة واضِحة تمامًا عن العنوان الّذي سأختاره لروايتي الأولى وأنا أكتبها، غير أنّ تربيتي الّتي كانت في بداياتها بلاغيّة أضاءتْ قليلاً من النّفق الّذي سأعبره، وسيُصبِح سِمةً مُميّزة. كانت روايتي الأولى عن تجربتي في السّجن، وكان يوسف الّذي دخل السّجن معي، له صاحِبان في القضيّة نفسها، فكان كلّما رآهما مُقبلَين علينا يقول لهما: "يا صاحبَي السّجن". فرَسَخت العبارة الّتي هي من سورة (يوسف) في بالي، فلمّا كتبتُ عنه في روايتي الّتي تتحدّث عن تجربتي في السّجن بعدَ خروجي منه بما يقربُ من خمسةَ عشر عامًا، قفزتْ تلك العبارة الّتي كان يقولها إلى ذهني، فقرّرتُ أنْ تكونَ عُنوانًا للرّواية؛ هكذا كانت البِداية. ثُمّ لَمّا جِئتُ للرّواية الثّانية فكّرتُ أنْ يكون العُنوان على غِرار الأوّل من القُرآن الكريم، وبعدَ تفكيرٍ، وتأمّل في الأمر قرّرتُ

أنْ يكون ذلك نهجي في تسمية رواياتي.

بالطّبع لديّ أكثر من خمسين سببًا، قلتُها كثيرًا وقلت سِواها في لقاءاتي الصّحفيّة وفي ندواتي، ولكم أنْ تجدوا غيرَها، إلاّ أنّ النّصّ القرآني يبقى ساحِرًا فوقَ كلّ ذلك، وسِحرُه البلاغيّ البيانيّ، ولغته المُكثّفة الإشاريّة، وتَراوُحه بين الوضوح الأوّليّ والعُمق التّأمّلي، وعبورُه الزّمان والمكان والجغرافيا والخَلْق يُرشّحه دائِمًا لأنْ تبرز عبارةٌ من عِباراته أمام ناظِرَيّ كلّما فكّرتُ في أنْ أختار عنوانًا.

في مرحلةٍ لاحقة كبرتْ فاطمة وحسن وأُميمة، وبقي الصّغير الحسين، دخلوا في مهمّة اختِيار عنوان الرّواية معي، فعلتْ ذلك ابتِداءً من رواية (حديث الجنود)، كانت فاطمة تبلغ من العمر عشر سنوات فقط أو أقلّ من ذلك. سَهّلتْ المهمّة على العائلة، اخترتُ للرّواية الّتي تتحدّث عن أحداث جامعة اليرموك عام 1986م أكثر من عشرة أسماء، وطرحتُها للنّقاش بينَ يدَي زهراء وفاطمة، رَشّحْنا ثلاثةَ أسماء للقَبول أكثر من الأسماء الأخرى، واتّفقْنا في النّهاية على (حديث الجنود)، كان معنى كلمة حديث في التّفاسير (قِصّة) وهذا ما أردتُه، وكانت كلمة (الجنود) تُفسّرها الكلمة الّتي تليها (فرعون) رمز الظّلم والتّجبّر، وهذا ما أردْتُه أيضًا.

فوقع الخيار عليه.

كُنتُ أشرح لهم أنّ الاسم يجب أنْ يكون بين كلمة إلى ثلاث كلمات لا أكثر، فالعناوين الطّويلة لا تبقى طويلاً في الذّاكرة، وأفضل الأسماء ما كان وسطًا أيّ من كلمتَين، وهذا ما تُلاحِظونه في رواياتي، ثُمّ قلتُ للعائلة: خير الكلمتَين ما كان مُضافًا يتبعه مُضاف إليه، أو ما كان مبتدأ يتبعه خبر. وهذا ما فعلْناه، يُمكنكم أنْ تعثروا على النّوع الأوّل من خلال أسماء رواياتي الآتية: (ذائقة الموت)، (كلمة الله)، (حديث الجنود)، (طريق جهنم)، (رؤوس الشّياطين)، (أرض الله). وأنْ تعثروا على النّوع الثّاني من خلال (اسمُه أحمد)، و(أنا يوسف).

ولأنّ المكتوب يظهر من عنوانه كما يقولون، فعلى الكاتب أنْ يَعتني بهذا العنوان جيّدًا، ولا يستعجل في أنْ يخطّه على الغلاف الخارجيّ؛ بعضُ رواياتي استغرقَ التّفكيرُ في عنوانٍ لها واختِيارُه أكثرَ مِمّا استغرقتْه أربعةُ فصولٍ أو خمسةٍ من الكتابة. بعضُ هذه العناوين لأنّه يُقطّر الرّواية وُلِدَ قبلها، بل هو الّذي جلبَها إلى الورق، وبعضُها نبتَ أثناء الكِتابة، وبعضُها استغرقَ أيّامًا وأسابيع للوقوع عليه بعدَ الانتِهاء من الكتابة، وبعضُها الرّابع سار معي إلى منتصف الرّواية أو بقي إلى

مَشارف نهايتها لكنّه تخلّى عنها وعن دوره لصالح اسمٍ آخر؛ هذه الطّرائق الأربعة عشتُها كلّها في اختيار عناويني.

العُنوان بابُ الرّواية، بل هو عَتَبَتُها، وكثيرٌ من الدّراسات تذهبُ إلى دراسة العناوين دون المضامين، تحتَ مُسمّى (عَتَبات النّصّ)، واحدةٌ من هذه الدّراسات فعلت ذلك مع العناوين الّتي أختارُها. يجبُ أنْ يتحلّى الكاتب بالذّكاء والصّبر وهو يُقدِمُ على خُطوةٍ كبيرةٍ وخطيرةٍ مثل هذه؛ أقول كبيرة لأنّ العنوان الّذي تختاره معناه أنْ تجمع عشرات الآلاف من الكلمات فتُكثّفها في كلمة أو كلمتَين. وخطيرة؛ لأنّ العنوان إذا كان غير مُلائِم أو خادعٍ فإنّه سيقود إلى غير الطّريق الّذي تذهبُ فيه قافلة القراءة، إنّ عنوانًا صحيحًا بالضّرروة يقودُ إلى نهايةٍ صحيحةٍ، وموقعٍ تتكشّف - مع الوقت وعبور الفصول - دلالاتُه وإشاراته.

إنّ إحكام الخيوط حول القارِئ يبدأ من العنوان، فإذا كان جاذِبًا وقع القارئ في الشَّرَك، ثُمّ يكون ألذّ شركٍ يُمكن أنْ يقع فيه حينَ يُبحِر في المضمون، ويكتشفُ كلّ مرّةٍ إجابةً على سؤالٍ يُلحّ في ذهنه طَوال الوقت: لماذا اختار الكاتب هذا العنوان دون سِواه؟! وحينَ يعثر على إجابةٍ يكون كالّذي يعثرُ على كنزٍ، فتراه يطوي الرّواية على غلافها ليقرأ العنوان

من جديد، ويتنهّد، ثُمّ يبتسم لأنّه أدركَ المغزَى من ذلك. إنّ الكاتب الجيّد لا يجعل القارئ يعثر على هذا الكنز بسهولة، عليه أنْ يجعله على مراحل كأنّها أُحجية، في كلّ مرّة يفكّ جزءًا من الأحجية، فإذا بلغ ثُلُثَها الأخير، جَمَع أجزاء الأحجية وفَكّ رموزها، وفَرِح بعثوره على كنزه رغم طُول تَعَبه.

لقد صدر لي حتّى الآن بفضل الله خمس عشرة رواية، جميعُ عناوينها اقتُبست من القرآن الكريم، وهي استراتيجيّة ألزمتُ نفسي بها، وستُصبح إحدى سِمات ما أكتب، وأنا فَخور بذلك؛ فلقد سارَ على ما سِرتُ عليه، وصنَع صنيعي، وقلّدني في ذلك كثيرون، منهم كُتّاب وسياسيّون وقادةٌ عسكريّون.

إنّني مُؤمنٌ بخلود النّصّ القرآني، ليس لآخرِ بشريّ سيعيش على سطح هذه الذّرّة التّائهة المُسمّاة كوكبَ الأرض فحسبُ، بل لِما بَعدَ فَناءِ آخرِ بشريٍّ على سطحها، هل ستُواصل هذه الذّرّة مَسيرها الأبديّ التّائه لآلافٍ أُخرى من السّنين أم لملايين؟ في هذه السّنوات الطّوال جدًا ستكون لغة القرآن هي اللغة الحيّة الوحيدة، وستكون عناوين رواياتي بإذن الله مثلَ شَجَرةِ الخُلد ما زالت تُبرعم كأنّما سُقِيت بماء سماويّ

في صحراء العَدَم.

لقد تعدّدت المواضيع الّتي تتحدّث عنها رواياتي، بين أدب السّجون، وأدب الفانتازيا، وأدب الماورئيّات أو الميتافيزيقيا، وأدب الحرب، والرّواية التّاريخيّة، والرّواية النّفسيّة، وأدب الحرّيّات، وأدب الاضطِهاد والعبوديّة والعنصريّة، وغيرها... وبالرّغم من تباين مواضيع ما أكتبُ على طرفَي نقيض، إلاّ أنّني وجدتُ لكلّ موضوعٍ عنوانًا دالاً أبلغَ الدّلالة على المضمون من القرآن الكريم، أليسَ هذا وجهًا من وجوه إعجازه؟!

ماذا تعلّمتُ من القرآن في الكِتابة؟

القرآن مَنجمٌ مُذهِل، الّذين يأخذون به على أنّه عقيدةٌ وتشريع دون أنْ يأخذوا جانبه الأدبيّ القَصَصيّ المُدهِش فاتَهم - بالضّرورة - خيرٌ كثير. الأسلوب القرآني مُفيدٌ إلى أقصى حَدّ للرّوائيّين، لا أعني العرب منهم فحسب، أو أولئك الّذين يقرؤون العربيّة، بل لكلّ روائيّ وكاتبٍ على وجه الأرض، ولو قُطّر لهم الأسلوب في مقالٍ أو بضع صفحات على شكل نُقاطٍ إشاريّة لأفاد الغَربُ منه كثيرًا، هذا الكتاب الّذي نَزَل لهم كما نزل لنا، ولرّبما تتوجّه اليومَ رسالتُه إليهم

قبل أنْ تتوجّه إلينا.

القرآن الّذي يحوي قصصًا كثيرة، قصص الأنبياء والصّالحين والأشرار والملائكة والطّغاة، قدّمهم لنا في سِماتٍ شخصيّة تظهر وتختفي، كأنّ وراء وجوههم الحقيقيّة أقنعةً من ضباب، ثُمّ وَضَعهم في إطارهم الزّماني والمكاني بطريقةٍ ساحرة، وسرَد عنهم بطريقةٍ لو أردتُ التّحدّث عمّا أفادني التّأمّل له في طرائق السّرد الموجودة فيه، لاستغرق ذلك منّي كتابًا مُستقلاً، لكنّني أُجمل هنا بعضَ ما أفدتُه، باختصار:

- أفادني القرآن في الخَيال، فلا يوجَد خيالٌ أوسعُ مِمّا جاء به هذا الكتاب، ولقد خَبِرتُ كلّ ما كتب الأقدمون والمُحدَثون فما وجدتُ مثله، وكان يدعوك إلى أنْ تُسلّم نفسَك للخيال الفسيح فيه بقوله: "ألم تر..."، "أفلا ينظرون..." والرّؤية هنا والنّظر قلبيّة، وامتِدادٌ للخيال الّذي لا حدود له، إذ إنّه يدعوك إلى أنْ تتخيّل أقوامًا أو أحداثًا أو أمكنةً مرّ عليها قرون أو عشرات القرون، انظر فقط لقوله تعالى: "أَلَمْ تَرَ إلى الّذين خَرَجُوا مِن دِيارِهم وهُم أُلوفٌ حَذَرَ الموتِ، فقالَ لَهمُ الله مُوتُوا، ثُمّ أحياهم". وإنّكَ لتستغرق في تخيّل هذه الألوف من النّاس وقد اضطُرّوا إلى مغادرة ديارهم، ولا ندري ما الّذي اضطرّهم إلى ذلك، فالخيال يسمح

أنْ تجعله يظنّ أنّه قد يكون لحقَ بهم زلزال أو بركانٌ أو طوفانٌ، أو حريقٌ، أو ريحٌ تذرو أعاصيرُها متاعَهم وثيابَهم ودُورَهم في كلّ اتّجاه، أو طيورٌ ربما تُشبه الغربان النّاعقة، لكنّها تقصد قلوبهم فتَنقُبُها، وعيونَهم فتفقؤها، ورؤوسَهم فتأكل منها. أو قتالٌ داخليّ بينهم، أو قتالٌ من عدوّ خارجيّ... كلّ هذا مسموحٌ به في آفاق الخيال، إنّهم خرجوا حَذَر الموت، لكنّ الموت يأتي على أشكال لا حصر لها، بعضُه ما قلتُه آنفًا، ويُمكن أنْ تضيف إليه غيرها الكثير... ثُمّ انظر إليهم يُهرَعون بآلافهم وفيهم الصّغير الباكي والكبير العاجز والمرأة النّائحة الّتي تحمل رضيعًا بين يديها أو صُرّةً فوقَ رأسِها.. ولكَ أنْ تتخيّل كيف يركضون والموت يركضُ خلفَهم، هل هو وحش، أم كائنٌ حيّ؟! هل يرونه أم يسمعون حفيف قدمَيه فحسب وهو ينهب الأرض من ورائهم؟! وهم يُحاولون النّجاة، وقد تشتّت بعضُهم لأنّه لم يُبصرِ الطّريق من الصّدمة، وسقطَ بعضُهم من الإعياء، وآخرون وقعوا في الحُفَر أو في أيدي الموت الّذي لا ندري على أيّ هيئةٍ وقع في يده، لكنِ اسمحْ لنفسك أنْ تتخيّل دون أنْ تضع شروطًا أو قيودًا... ثُمّ انظرْ إلى هذه الكتلة الهاربة النّافرة وقد علا صوتُ هياجِها وهَرَجها وفَزَعها، ثُمّ لمّا مضت بها الطّريق إلى غايةٍ ظنّوا فيها أنّهم قد نَجوا من الموت، وأفلتوا من براثنه، وأرادوا أنْ يُريحوا... جاءهم الموتُ في صدورهم، إنّ الموت

الّذي هربوا منه خلفَهم لَقِيهم في وجوههم من أمامهم: "فقال لهم الله موتوا"!! هل يُمكن أنْ تترجم الفزع الّذي ارتسم على وجوههم وهم يرونه أمامهم بعدَ أنْ تركوه خلفَهم؟!! هل يُمكن أنْ تتنبأ بالشّعور الّذي في قلوبهم حينَ أيقنوا أنّ كلّ ما قطعوه وعانَوه في الهروب من شيءٍ وجدوا أنّ هذا الشّيء لم يكونوا يهربون منه، بل كانوا يهربون إليه؟!! ثُمّ لمّا وقعوا في حفرة الموت، وتردّوا في رِمالها، مرّ عليهم زمنٌ لا ندري كم هو، ولكَ أنْ تتخيّل ماذا حدث في هذا الزّمن، مِن تَوالي الرّياح السّافية والرّمال الطّامرة على القبور الدّارسة تُعفّيها فلا يظهر لها أثرٌ، كأنّه ما مرّ هنا قومٌ ولا ماتوا، فإذا - بعدَ ذلك كُلّه - قُدرةٌ علويّة تقول لهذه الرّوامس وما فيها من العِظام الرّميمة، قوموا: "ثُمّ أحياهم". تبدو كلمة (أحياهم) هنا عاديّة، ولكنّها صادمة، مُرعِبة، مُوتّرة، مُقلِقة، مُفزِعة، و... وقُلْ ما شِئت... هل يُمكن أنْ ترى كيفَ تقومُ من القبر بكلمة؟! فترى مَنْ قامَ قبلكَ وقد غطّاه التّراب، وعفّر وجهه الثّرى، وترى بعينَيك من يقوم من تحت الأرض بعدَك، فتسمع أصواتَهم المرعوبة، وأنفاسَهم المُتلاحقة تستجلبُ هواء الحياة إلى صدرٍ كان الموتُ يسكنه... إنّ أوسع خيالٍ ليجدُ في أنْ يستمرّ في تخيّله أمرًا صعبًا، لكنْ لا تتوقّف، عليكَ أنْ تتخيّل مَنْ تعرّفتْ مِن النّاس إلى ابنها أو رضيعها فضَمّته إلى صدرها، وراحت تنشج. عليك أنْ تتخيّل

من رأى أباه العجوز فسارع إلى مُساعدته في أنْ ينهضَ من رقدته، وأبوه غير مُصدّق... تخيّل ما شِئت... القرآن يُساعدك على ذلك، النّص الإشاري يدعوك إليه، ولا يضع لذلك حدودًا ولا حواجز... أترى؟! إنّ هذا بعضُ ما يقع في خيال الرّوائيّ حينَ يتأمّل سطرًا واحدًا، ليس آيةً كاملة، وإنّما هو جزء من آية: ""أَلَمْ تَرَ إلى الّذين خَرَجُوا مِن دِيارِهم وهُم أُلوفٌ حَذَرَ الموتِ، فقالَ لَهمُ الله مُوتُوا، ثُمّ أحياهم".

- تعلّمتُ من القرآن، استِخدام العُقَد الصّغيرة، أثناء العُقْدة الكبيرة، وحلّ العُقَد الصّغيرة في أماكنها، وإبقاء الكبيرة إلى النّهاية، تعلّمْتُه من قِصّة يوسف عليه السّلام في سورة يوسف. فالعُقَد الصّغيرة: الأزمة الّتي وقعت بين الأب الّذي لا يُريد أنْ يذهب يوسفُ إلى المرتع وبين أبنائه، كانت أزمة نفسيّة، عبّر عنها حِوارٌ داخليّ وخارجيّ طويل في رواية (أنا يوسف)، لكنّ هذه العُقدة انحلّت، حين طلبَ يوسف بنفسِه من أبيه أنْ يسمح له بالذّهاب مع إخوته، فأُسقِط في يد الأب، ولم تعدْ هناك حجّةٌ مُقنعةٌ يقولها لأولاده كي يستبقيَ يوسف عنده. من العُقد الصّغيرة التّشاور على قتله، والجِدال بينهم على ذلك، فوقع من أجل ذلك خلافٌ بين إخوته حتّى كاد بعضُهم يفتكُ ببعضٍ، وكان الحَلّ: "قالَ قائِلٌ مِنهُمْ لا تَقْتُلوا يُوسَفَ وَأَلْقُوه في غَيَابَةِ الجُبّ". فانحلّت هذه العُقدة

الصّغيرة بإلقاء يوسف في البِئر. ومن ذلك أيضًا حُبّ زليخة أو امرأة العزيز ليوسف، حتّى ذهب الحُبّ ببصرها، وقد تحدّثت الرّواية بشكلٍ مُفصّل عن مستويات هذا الحبّ القاتل، وكان الحلّ بالإيمان، فلمّا آمنث ذهبث شهوة الحُبّ عند زليخة، ولمّا رُدّ إليها بصرُها، اقتنعث بالقرب عِوضَ الامتِلاك. ومن العُقد الصّغيرة كذلك الأزمة الّتي حدثث في مَنْح زليخة جسدها ليوسف بالكامل، إنّ اللّحظة الحازمة، ذروة التّأزّم كما يقولون، حينَ استلقث على السّرير بعدَ عشرات المُقدّمات المُطمْئِنة وقالث ليوسف: "هيتَ لك". وتشتعل جوارح يوسف، ويكون الحلّ بالتّخيّل، تخيّل (رأى برهان ربّه)، فقضى على كلّ شَهوةٍ لديه... إنّ قصّة يوسف في القرآن تتمتّع بعددٍ من الحُبكات الصّغيرة الّتي تُحلّ في أثناء تشابك الحُبكة الكبيرة، لقد علّمني القرآن أنْ أفعل ذلك في رواياتي، وما اكتسبْتُ هذا الفنّ بهذا الجَلاء إلاّ من القرآن الكريم.

مثالٌ آخر، نومُ الفِتية في الكهفِ ثلاثمئة سنةٍ أو تزيد، لم يكنْ حلاً لعُقدةٍ كُبرى، كان عُقدةً من العُقَد الصّغيرة في قِصّتهم، مع أنّها ثلاثة قرون، يا إلهي.. لكنّ حَلّها كان بالاستِيقاظ والذّهاب إلى القرية من أجل شِراء الطّعام، وكان سببها الهروب؛ الهروب بالمبدأ من الظُّلم. ثُمّ إنّ موتَهم أوّل ما

عُثِرَ عليهم لم يكنْ حَلاً كذلك للعُقدة الكُبرى، هو أكبرُ من نومهم، أعني عُقدةُ موتِهم أكبرُ من عُقدةِ نومهم، مع أنّ نومَهم استغرق ثلاثمئة سنة، وموتهم لم يستغرق غيرَ بعضِ نهار، إلاّ أنّ عُقدة الثّانية أكبر، والسّبب دخول متغيّرات كثيرة، منها استيقاظُهم أوّل مُتغيّر، دهشتُهم من الشمس والهيئة والمكان، هل نَسُوه؟ بَحثُهم عن وسيلة بقاء، المال؛ فالطّعام... دخل مُتغيّر رابعٌ أو خامسٌ هنا، حركتُهم، الحركة تغيير، دَفْعٌ للمشهدِ إلى الأمام، لم يكنْ أحدٌ لِيَعلَمَ ولا هم، إلاّ الله، أنّ هذه الحركة ستكون بداية النّهاية، السّادس من هذه المُتغيّرات النّاس والملك، هذا الجمهور الّذي عرفهم فاعتبرهم أبطالاً، ربّما أصبحوا في أقلّ من نصفِ نهارٍ أبطالاً، وقد ظلّوا أحياء في ذاكرة أحبّتهم أو المُؤمنين على شاكلتهم قرنَين أو أكثر من الزّمان... هل هناك متغيّر سابع، الهروب الأخير، كم يُشبه هذا الهروبُ الأخير الهروبَ الأوّل، فرقان فقط بينهما، الأوّل من الظّالم المُتجبّر، والثّاني من العادل المُحبّ. الأوّل هروبٌ نحو الحياة والثّاني هروبٌ نحو الموت، عجبًا؟! أيكون الهروب من الظّالم حياةً، والهروب من العادل موتًا؟! هل هناك مُتغيّر ثامن؟ بالطّبع أنا لم أعدّد كلّ شيءٍ. هذه الحيرةُ في أمرهم، والنّدم على فُقدانهم من الّذين لحقوا بهم في الهروب الأخير من عدم تكريمهم، وتعويضهم عن ثلاثمئة سنة من البُعد القسريّ والتّهجير والمُطاردة والجوع

والتّفي... الحيرة عقدةٌ ثالثةٌ هنا، أصغر من أختيها النّوم والموت، وما الحلّ؟ بِناء مسجدٍ على قبورهم؟ إذا كانت هذه الّتي قُلتُها كلّها عقدًا صغيرةً لكنّها متفاوتةٌ في الحجم فأين العقدة الكبرى في الرّواية إذًا؟ إنّه نوعٌ من العُقد الّذي تعلّمْتُه من هذا القرآن وبنيتُ عليه عددًا من رواياتي؛ العُقدة الكبرى في هذه الرّواية هي الرّسالة الّتي يريدون أنْ يُوصِلوها من هذه الأحداث كلّها، إنّها أكبر من مجرّد حياتهم وموتهم، إنّ الثّبات على المبدأ؛ الثّبات على ما تعتقده أهمّ من حياتك. لقد تعلّمْتُه من قصّة أهل الكهف. ولكنّه موجودٌ في كلّ مكانٍ، ويُمكن أنْ يحدثَ من جديد، وفي المُستطَاع أنْ تُصاغ حوله رواياتٌ عديدة، وقد صيغتْ، اختلفَ كُتّابها، واختلفتْ أزمنتهم، واختلفتْ كذلك لُغاتهم، وظلّتْ عُقدة المبدأ والموت في سبيله مُلهِمةً لروايات كُتبت، وروايةٍ ستُكتَب.

- تعلّمتُ من القرآن اللّغةَ الإشاريّة، اللّغة الّتي تبدو واضحة، فهي كذلك، ولكنّها تُخبِّئ خلفَها جيشًا من المعاني، تُتيحه طريقة السّبك القرآني الّتي سَمّاها (الجرجاني) نظريّة (النّظْم). فأنتَ تذهبُ في كلمة (تحسّونهم) إلى معنًى ما، ولكنّ القرآن يريدُ أنْ يسوقكَ إلى خلافه. أنْ تذهبَ إلى التّنكير في بعضِ الكلمات ليفتح الباب على مِصراعَيه في تأويلها. إنّها لُغة سهلةٌ ممتنعة، كما أسلفتُ.

- تعلّمتُ من القرآن أنّ نصفَ المشهد يكفي، وأنّ مفتاحًا يُلقَى أمام الباب لكي تكون قادرًا بهذه القطعة الصّغيرة أنْ ينفتح المشهدُ أمامك بأكمله، فكلمة (هيتَ لك) تكفي عمّا وراءها، وهي مفتاح باب الخَيال لمشهدها. "ولا تكونوا كالّذين آذَوا موسى" تكفي في أنْ أتخيّل مدى الأذى الّذي لحق بموسى من وراء بني إسرائيل.

- تعلّمتُ من القرآن فنّ الحِوار بين الشّخصيّات، بما يُناسبُ مستواها العقليّ والفكريّ، فحينَ قالت مَلِكةُ سبأ لقومها: "أَفْتُوني في أمري ما كنتُ قاطعةً أمرًا حتّى تَشْهَدُونِ" كانت تنطقُ عن رأيٍ حصيفٍ، فالمُشاروة تعني أكثر من عقلٍ، لكنّها فوجِئت، أو فوجِئنا نحن أنَّ قومَها لم يردّوا عليها بالمستوى العقليّ الّذي خاطبتْهم به، بل بالمستوى العَضَليّ، لأنّهم عضلاتٌ تبطش، لا عقولٌ تُفكّر: "قالوا نَحنُ أُولُو قُوّةٍ وأُولو بَأسٍ شَديدٍ": فأرجعوا الرأي إلى القُوّة لأنّهم لا يعرفون جيشًا وسلاحًا غيرها، وهذا ما يُناسبُ طبيعتهم، لكنّها ردّت رَدًّا آخر يُناسبُ مستواها العقليّ وفَهمها الطّبائع البشريّة: "إنّ الملوكَ إذا دخلوا قريةً أفسدوها"، فأنتم تُشبهونهم بهذا الرّدّ، ولكنّها وصلتْ إليه بعقلها. هكذا يُدار الحِوار بما يتّسق مع مستوى الشّخصيّة، وهذا ما أفدْتُه من هذا الكِتاب العظيم.

- تعلّمتُ من القرآن تقنية النّهر الّذي يصل منبعَه بمصبّه، كان القرآن أفضل مَنْ يربطُ بين أجزاء القِصّة من خلال التّصدير، إذْ إنّه يرمي حَدَثًا ما، يبدو أنّه لا علاقة له بجسم القِصّة الرّئيسيّ، ثُمّ تراه يلتقطه في نهاية القِصّة، فيَصِلُ آخرَها بأوّلها؛ حدث في حُلم يوسف في أوّل القِصّة، ثُمّ جاءتْ أحلامٌ أخرى صرفتِ الذّهن عن الحلم الأوّل، فإذا شارفتِ القِصّة على النّهاية، رمى القرآن بقفلة الحلم الأوّل، مشهديًّا وسرديًّا نَصّيًا بالحرف في قوله تعالى: "يا أبتِ هذا تَأويلُ رُؤيايَ مِنْ قَبلُ قَدْ جَعَلَها رَبّي حَقّا". وكلمتا (قبلُ، حَقًّا) أهمّ من الرّؤيا نفسِها، لأنّ كلمة (قبلُ) تربطُ البداية بالنّهاية، وكلمة (حَقًّا) تُمشهِدُها على أرض الواقع.

- تعلّمتُ من القرآن إحداث الفجوة في السّرد الزّماني والمكاني، الفجوة الّتي تقع فيها بغتةً ولا تصحو إلاّ وأنتَ تُمسِكُ بالحافّة الأخرى، فتنتظر خلفَكَ فتُدرك المعنى، كان ذلك على سبيل المِثال في قوله تعالى: "قال الّذي عنده عِلمٌ من الكِتاب أنا آتيكَ به قبلَ أنْ يرتدّ إليكَ طرفُكَ فلمّا رآه مُستقرًّا عنده". لقد حدثت فجوةٌ بين ارتِداد طرفِ سُليمان عليه السّلام وبين الإتيان بالعرش أعمقُ من حفرة الانهِدام، ومن جديدٍ يتركُ لك القرآن الحُرّيّة في أنْ تتخيّل ما حدث في

عمليّة جَلْب العَرْش، ولم يُجبْ عنه أحدٌ بما فيهم الرّسول صلّى الله عليه وسلّم الّذي نزل عليه هذا الوحي إلى اليوم، لكي يقول لك إنّ خيالكَ هو الإجابة. ثُمّ انظرْ هذه الفَجَوات المُتعمَّدة أيضًا في الحِوار بين الشّياطين والجنّ وبين سُليمان في هذا الموقف نفسِه، إنّها فجواتٌ تحترمُ عقل القارئ، فلم يظهر في الحوار صراحةً مَن اختار سليمانُ مِن بينهم، ولا الصّيغة الّتي وافقَ بها، ولا شُروطه ولا تعليماته، كلّ ذلك اختزله بكلمة: (فلمّا).

- تعلّمتُ من القرآن أسلوب توزيع الأحداث لا بالطّريقة (التّصاعدية) من الزّمن الأبعد إلى الزّمن الأقرب، ولا بالطريقة الحديثة الّتي يُسمّونها (القطع والاستِرجاع)، بل بالطّريقة التّناثريّة، لا تَقُلْ صِفات الشّخصيّة كلّها مرّة واحدة، انثرها على أجزاء الرّواية وفصولها، لا تَقُلِ الأحداث كلّها مرّة واحدة، انثرها لا على التّرتيب ولا على التّعيين، وافعلْ ذلك أيضًا في الأمكنة؛ بَعْثِرْها ما استطعت... لقد فعل القرآن ذلك في قِصّة موسى، فلم يُشِر إلى صفاته الجسديّة في سورةٍ واحدةٍ أو موضعٍ واحد، فقال في سورة القصص عن قوّته البدنيّة: "فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْه" وهي صفة تُسمّى خارجيّة، وحدّثنا عن صفاته الدّاخليّة كالأمانة والحياء والورع، في قصّته مع ابنتَي شُعيب في قوله تعالى: "فَسَقَى

لَهُما ثُمّ تَوَلّى إلى الظّلِّ فقال رَبِّ إنّي لِما أَنْزَلْتَ إَليّ مِن خَيْرٍ فَقِيرٌ". وقوله تعالى: "إنّ خَيْرَ مَنِ اسْتأجَرْتَ القَوِيُّ الأمين". وفي الأخيرة فِكرة أنْ تكون صِفاته الشّخصيّة لا يقولها الرّاوي ولا يقولها البطل نفسُه، بل تأتي من طرفٍ ثانٍ من الشّخصيّات. وحدّثنا عن قُوّة شخصيّته وقُدرته على الإقناع في قوله تعالى في سورة الشّعراء في حِجاجه لفرعون: "وتلكَ نِعمةٌ تَمُنُّها عَلَيّ أنْ عَبَّدْتَ بَني إسْرائِيل". أما تناثريّة المكان، فقد وردَ قَصْرُ فِرعون، واليَمُّ الّذي ألقِي فيه، واليمُّ الّذي نجا فيه مع قومه، والبحرُ الّذي عبره من أجل أنْ يلتقي الخِضر، والأماكن الّتي زاراها معًا، وغيرها، كلّ هذه الأمكنة لم تُذكر في سورةٍ واحدةٍ، بل تناثرت، وتبعثرت، والمقصود في حالة الرّواية، ألاّ تحشد صِفات الأمكنة حشدًا دون أنْ تجعل بينها فُرَجًا للنَّفس.

- تعلّمتُ من القرآن ما يُسمّى بمصطلحات البشر القصّة الغرائبيّة أو العجائبيّة، أو (الفانتازيا)، مثل أنْ تتكلّم الوحوش، أو تُخاطب الحيوانات الإنسان، ومع أنّ الفانتازيا مُصطلحٌ حديثٌ وربّما يُدِلّ به أهلُه، إلاّ أنّ هذه الغرائبيّة موجودةٌ في القرآن وفي الكتب السّماويّة قبل آلاف السّنين، فالنّملة قالت لقومها: "ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرون". والنبيّ تفاعل مع هذا الخِطاب

الحنون، فتبسّم ضاحِكًا. كان يُمكن أنْ نعدّ هذا من الغرائب الّتي لا تحدث، وكان من المُستحيل تصديقُها لولا أنّ القرآن نقلَها لنا. فإذا كان عندي أو عند الرّوائيّين اليوم من يستخدم هذا الأسلوب، فلْنعلمْ أنّه لم يكنْ جديدًا، وإنّما سَبَقَنا به القرآنُ قبل قرونٍ طويلة. مثلُ ذلك يُقال لأحاديث الحيوان كلّها في القرآن. انظر الحِوار بين الهدهد وسُليمان: "أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ". وانظرْ كيفَ يكون الإيحاء في حال النّحل: "وَأَوْحَى رَبُّكَ إلى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الجِبالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ ومِمّا يَعْرِشُونَ". هل يكون قولاً تسمعه، فتتجاوبُ معه، فتعلَم، فتعمَلُ بما تعلَم، أم إلهامًا يُلقيه العليّ القدير في رُوعِها؟! وكيفَ يكون رُوع النّحل حتّى يتلقّى هذا الإيحاء الإلهيّ العظيم؟!

- تعلّمتُ من القرآن النّهايات المفتوحة، والنّهايات المسكوت عنها، من جديدٍ يفعل القرآن ذلك من أجل أنْ يترك لكَ المجال واسعًا في التّخيّل، انظر إلى هذا الغموض في الأحداث التّالية، أو الإيهام فيها، في قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السّلام: "إنّي ذاهبٌ إلى ربّي سيهدين". والنّهاية الاستِباقيّة المفتوحة في الحوار الّذي دار بين الله والملائكة في قصّة بدء خلق الإنسان: "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا

وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ". والنّهاية المفتوحة الغامضة في قوله تعالى: "وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ" فالمتاع الّذي إلى حينٍ، أيُّ حينٍ هو؟ إلى موتِ آدم، أم إلى موت البشر كلّهم، أم إلى موت الأرض، أم حينٍ مفتوحٍ لا ينتهي، أو غامضٍ لا يُعرَف؟! أم حينٍ يساوي لحظة، أم حينٍ يساوي الأبد، فالحين في هذا التّعبير المُنكّر تتساوى فيه اللّحظةُ مع الأبد، هذا ما يُسمّى انقِباض الزّمن، فلا تدري أيّ زمنٍ هو المقصود، إنّه الغموض من جديد.

أنا كاتبٌ إنسانيّ:

لستُ إسلاميّا بالمعنى الضّيّق الّذي يطرحه أصحاب (الأدب الإسلاميّ) الّذي لا أعترف بوجوده، ولا أرى لوجوده مُسوِّغًا من الأساس. إنّ هذا المُصطَلح حديثٌ كلّ الحداثة، جديدٌ كلّ الجِدّة، لم يألفه عصرٌ ولا مِصر من الجاهلّية إلى يومنا هذا، ولم يُطلِقه من النّقّاد القُدامى أحدٌ، ولا المُعاصرين، وإنّما نبتَ عند قومٍ رأوا المدّ اليساريّ للأدب في السّتّينيّات والسّبعينيّات من القرن الماضي، فظنّوا أنّهم بذلك يحمون أدبَهم، ويرعون سِماته، وبدل أنْ يكون هذا الأدب واسعَ

الآفاق، بعيدَ النّظرة، حكموا عليه بذلك بالتّقوقُع والاضمِحلال. ليسَ هناكَ أدبٌ إسلاميّ؛ لأنّه إنْ كان فقد وقعتَ في شَرَكَين؛ الأوّل أنّ هناكَ أدبًا كُفريًّا، وهو ما لم يكنْ موجودًا، الأدب بمعزلٍ عن الدّين أي بمعزلٍ عن أحكامه فيما لا يخرجُ عن حدوده لم يقفْ أمامه لا الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، ولا مَنْ جاء بعدَه من الصّحابة أو من الخُلفَاء، فقد قرأ كعبُ بن زهير أمامه:

بانتْ سُعادُ فقلبي اليومَ مَتبولُ

مُتيَّمٌ إثرها لم يُفدَ مَكبُولُ

ثُمّ أوغل في صِفاتها الجسديّة، فقال:

وما سُعادُ غداةَ البَيْنِ إذْ رَحَلُوا

إلاّ أغنُّ غَضِيضُ الطّرفِ مَكحولُ

تجلو عَوارِضَ ذي ظَلْمٍ إذا ابتسمت

كأنّه مَنهَلٌ بالرّاحِ مَعْلُولُ

هيفاء مُقبِلةٌ، عجزاءُ مُدبِرةٌ

لا يشتكي قِصَرٌ منها ولا طُول

ولم يُكفّره أحدٌ من الصّحابة، ولا فسّقه، ولم يَلُمْه لا الرّسول ولا سِواه، بل إنّ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم قام فَخَلَع عليه بُردتَه تكريمًا له، وما زالت بردة تلك القصيدة شاهدةً على هذا التّعامل الرّاقي مع الأدب.

ثُمّ إذا كان هناك مُقابلٌ للأدب الإسلاميّ، والّذي نعتُّه أنا بالأدب الكُفريّ، فمعنى ذلك أنّ كلّ ما قيلَ في الجاهليّة قبل الإسلام يجب أنْ يُحرَق ويُلغَى من الذّاكرة ومن تُراث العرب، ولكنّ الحقيقة أنّه حُفِظ ونُقِل، وأثبته الرّواة إلى أنْ وصل إلينا في يومنا هذا، والمُفارقة أنّ أكبر مَنْ حفظوه ونقلوه هم الصّحابة، بل ليسَ هذا فحسب، بل الأكابر منهم، إذ كان الخلفاء الرّاشدون الأربعة مُغَرمين بهذه الأشعار، فقد كان عمر بن الخطّاب على سبيل المِثال يحبّ شعر زهير بن أبي سلمى ويحفظه، وكان عليّ بن أبي طالب يُحبّ شعر امرئ القيس ويحفظه. فليسَ كلّ ما جاء به مَنْ عاش قبل الإسلام شرًّا، ولا كلّ ما جاء به مَنْ عاشَ بعدَ الإسلام خيرًا، فلكلٍّ خيرٌ وشَرّ، ونحن نأخذُ الخير مِمّن كان في أيّ عصر كان، وندع

الشّرّ. وفي المأثور: "الحِكمةُ ضالّة المؤمن أنّى وجدها فهو أحقّ النّاسِ بها".

الشَّرَكُ الثّاني، الّذي يقع فيه هؤلاء الّذي يسقطون في هذه المغبّة هو هذا التّقوقع الّذي يجعل كلّ مَنْ يُخندقهم في هذا الخندق يبتعد عنهم وعن أدبهم، فلا يقرأ لهم أحدٌ إلاّ نزرٌ قليلٌ مِمّن هو على شاكلتهم، ولم يأتِ لا في القديم ولا الحديث ليقع في هذه الهوّة.

وأمّا أنا فأُقدّم نفسي على أنّني كاتبٌ إنسانيّ، أكتبُ لمن يختلفُ عنّي أو يختلفُ معي قبل أنْ أكتبَ لمن يُشبهني، وأنا أمتحُ من كتابٍ لم يجِئ للمسلمين وحدهم، ولا للعرب دون سِواهم، بل جاء للنّاس كافة: "وما أرسلناكَ إلاّ كافّة للنّاس"، فهذه العالَميّة الّتي دعانا إليها هذا الكتاب، هي الّتي أكتبُ بروحٍ منها. أبحثُ عن تلك القِيم الإنسانيّة المُشتركة، فأكتبُ فيها، وأعلم أنّ أخي في الإنسانيّة حينَ يقرأ ما أكتب بلغته

أو مُترجَمًا سيتأثّر به ويجدُ فيه شِفاءه، لأنّني أتحدّث عن المواجع المشتركة، عن الهموم الّتي تقضّ مضاجعنا جميعًا، برسالةٍ إنسانيّة شفيفةٍ راقية، لا تستعدي أحدًا، ولا تستجلبُ ناقِمًا، هذا إلى جانب أنّني غير مُمالِئ أو ممارٍ في الحقيقة

حتّى ولو جرّت عليّ الثّبور والويلات.

أكتبُ في تلك المواضيع الّتي فطر اللهُ النّاسَ عليها، وفطرهم على حُبّها أو نبذها، أكتبُ في الحريّة وأنبذُ العبوديّة، أكتبُ في المساواة وأنبذُ العنصريّة، أكتبُ في التّاريخ ليُشاهد الغائبون حقيقته، وليشهد النّاسون مشهده.

تقنيات الكتابة في فنّ الرّواية:

العمليّة الإبداعيّة عمليّة مُعقّدة حَقًّا، ليست عمليّة ميكانيكيّة، وليست رحلةً تحتاجُ إلى خارطة طريق، لا يُمكن أنْ تخضع لقانون، أو لمعادلات رياضيّة. لكنّها أيضًا ليست شبحًا يتعذّر رؤيته أو الحديث عنه، إنّ الكتابة في النّهاية صنعة، فإذا كان الشّعر الّذي ينفلث من أيّ تقنين وضع له النُّقّاد الأوائل قواعد وأصولاً، فما بالُنا بالرّواية؟ إنّه من المُمكِن أن نُمسك ببعض الدّروب التي تقودنا إلى شيء من فهم هذه العملية الخارجة عن القوانين والكيفيّات، أنْ نضع بعضَ الصُّوى على الطّريق، بعضَ الإشارات المُساعِدة، لكنّها ليست كُلَّ شيءٍ، بل ليست شيئًا أبدًا إذا لم تكنْ الموهبة مع التّخطيط موجودَين كأهمّ ركيزتَين في إبداع النّصّ؛ أيِّ نَص!

كَلِمات قبل البدء:

لا شيءَ أثمنُ من الحرف الصّادق، إنّه أقدرُ مَنْ يُغيّر وجه التّاريخ والإنسانيّة، فلقد كان الكونُ كُلّه حادِثًا بكلمة؛ كلمة (كُن). وكان عيسى كلمة؛ كلمة الله. وكان الفتح في الأندلس بكلمة؛ كلمة طارق بن زياد. وكان الحُكم في العراق بكلمة؛ كلمة الحجّاج، وكان النّصر في عين جالوت بكلمة؛ كلمة قُطُز.

وأنتم أيّها الكُتّاب الّذين يبدؤون تاريخ كتابتهم، إنْ كُنتم تؤمنون بقدسيّة الكلمة فلسوف تُعطيكم هذه الكلمة من فُيوضِها، آمِنوا بها تُؤمِنْ بكم، قدّموها تُقدّمكم، ارفعوا من شأنِها ترفعْ من شأنكم.

إنّكم تكتبون بالعربيّة؛ أجلّ اللّغات وأعظمها، وأَدْوَمِها وأَخْلَدِها، فكلّ لغةٍ لا تعيش أكثر من خمسة قرون حتّى تتبدّل وتتغيّر وتتحوّل، إلاّ لغتكم فإنّها خالدة إلى آخر بشريّ على وجه هذه الأرض ولو امتدّ الزّمن إلى مئات الألوف من السّنوات، ذلك لأنّها لغة القرآن، والقرآن لا يموت، فالعربيّة تبعًا لذلك لا تموت! فاملؤوا قلوبكم بحبّ العربيّة، واكتبوا بأسلوبها السّهل المُمتنِع، الّذي يُشعِر باللّذّة والمُتعة وأنتَ تقرأ بها، أو تملأ فمَكَ من حروفها، وتمثّلوا معي قول الشّاعر: "يا

مُشْمِسَ أيّام الله بِضِحكة عينَيكَ.. ترنّمْ من لغة القرآن فرُوحي عربيّة".

أيّها الرّائِعون، إنّ كتاباتِنا تدخل إلى قلوب النّاس؛ لأنّها تُخاطب تلك القلوب، فإنْ رأيتم أنّ القلوب قد أعرضت عنها فاعلموا أنّكم لم تكتبوا بِمِداد أرواحكم، ولم تَحْتُوا على حروفكم أفئِدَتَكم، فإنّ ما يخرج من القلب يصل إلى القلب دون وسيلة. وإنّ مَنْ جعل لكتابته غايةً نبيلةً شريفة، فإنّ تلك الغاية ترتفع به على قَدْر سموّها وشَرَفها، فبالأفكار العالية يعلو الكاتب، وبمخاطبة العقل والقلب والرّوح يرتقي، وأمّا أولئك الّذين يُخاطِبون الغرائز فستظل كتاباتهم عند تلك الغرائز لا تُبارح مُستنقعًا آسِنًا سرعان ما سينفضّ النّاس عنه وينبذونه، ولربّما يَلعنُونه.

إنّ الطريق طويلة، ولكنّ بدايتها خُطوة، وإنّها لتحتاج إلى زادٍ مُتجدّد، فلا تُخلوا أنفسكم من القراءة في كلّ حين، واصحبوا الكتاب في كلّ آن، واجعلوه مَحطّ قلوبكم، ومَهوى أنظاركم، ولا تتركوا القراءة حتّى يشيب الغراب، فإنّه ما من كاتبٍ جيّدٍ إلاّ كان قارِئًا جيّدًا، وما أحكم ما قاله المُتنبّي:

أعزّ مَكانٍ في الدُّنا سَرْجُ سابحٍ

وخيرُ جليسٍ في الزّمانِ كِتابُ

الرّواية في – شكلها الحاليّ – فنّ حديث. وهو في الأساس غربيّ. وجذورها قديمة؛ عند اليونانيّين، وكانت تُمَسرح، وعند العرب مثل (البخلاء) للجاحظ توفّي 255 هـ. ومثل (المقامات) لبديع الزّمان الهمذائيّ توفّي 398 هـ. وأمّا (محمد حسين هيكل) فيُعدّ رائد الرّواية العربيّة الحديثة حينَ كتب رواية (زينب) عام 1914م.

الرّوائيّة صناعةٌ لكنّها فَنّ، أدواتٌ لكنّها موهبة، تَقنياتٌ لكنّها خيال. ومَهمّة الرّواية تعليق الأسئلة في عقل القارئ، وليس بالضّرورة الإجابة عنها.

مراجع في فنّ كتابة الرّواية:

لقد كُتِبَ في هذا عشراتُ الكتب، وخاضَ فيه كثيرٌ من الخائضين مِمّن هو روائيّ أو كاتبٌ غير روائيّ، أمّا الرّوائيّون وكِبار الكُتّاب الّذين استهواهم الأمر، فجَذَبَهم إلى الكتابة فيه - وإنْ بدرجاتٍ مُتفاوتة - فهناك على سبيل المثال: الرّوائي غابرييل ماركيز له مقالاتٌ متناثرة في نصائحه للرّوائيّين الشّباب جمَعها المُترجم (صالح علماني) في كتاب (كيف

تُكتَب الرّواية)، ثُمّ ترجم له في كتابٍ آخَر لِوَرشة سيناريو في ثلاثة عناوين هي (كيفَ تُحكى حكاية. ونزوة القصّ المُباركة. وبائعة الأحلام). وميلان كونديرا في كتابه (فن الرّواية) بترجمة (خالد بلقاسم) الّذي ضَمّ سبعة فصول تكشفُ - فيما تكشف - نظرةَ هذا الرّوائيّ إلى الشكل والطّريقة الّتي تُكتَب بها الرّواية مُدلّلاً على ذلك بنماذج روائيّة من أوروبّا. أورهان باموق في كتابه (الرّوائيّ السّاذج والحسّاس) قال عنه: "هذا الكتاب هو كُلٌّ مُتكاملٌ يضمّ مُعظَم الأشياء الّتي عرفْتُها وتعلّمْتُها عن الرّواية". أمّا مارغو يوسا ففي كتابه (رسائل إلى روائيّ شابّ) فكان أكثرَ وضوحًا من سابِقَيه في إلقاء الضّوء على تقنيات الكتابة حينَ تحدّث في كتابه هذا عن الأسلوب وعن الرّاوي وعن المكان وعن الزّمن وعن مستوى الوقائع... وغيرها. أمّا أُمبرتو إيكو ففي (اعترافات روائيّ ناشِئ) يتحدّث عن حكايات السّيرورة: سيرورة التّكوين، وسيرورة البِناء، وسيرورة التّفكير بالأصابع، وسيرورة التّشخيص. ويُجيب (إيكو) في هذا الكتاب، على العديد من الاستفسارات التي وصلت إليه حول الرّواية البوليسيّة، وكيف تكتب الرّواية من ناحية العنوان والمعنى والسّيرورة الكِتابيّة، وكيفيّة بنائه لعمارته الرّوائيّة. أمّا (دوروثي براندي) ففي كتابها (لياقات الكاتب) الّذي قسّمته إلى سبعة عشر فصلاً، تتحدّث عن الوعي واللاّوعي

في الكتابة، عن الكتابة بمُخطَّط زمنيّ، عن عدوى الأسلوب في الكتابة، وعن تدريبات الكتابة. مِثلُ كتابِها هذا ولكنْ بتطبيقات أكثر، وأَعُدّه كتابًا ممتازًا للرّوائيّين أو الكُتّاب الجُدُد لأنّه يحوي نماذج للتدرّب على كلّ مهارة، كتبَ بيتر كلارك (أدوات الكتابة - 49 إستراتيجيّة ضروريّة لكلّ كاتب). أمّا إدوارد بلشن ففي كتابه (الرّواية وصَنْعة كتابة الرّواية) بترجمة سامي محمّد، فإنّه أعطى وجبةً خفيفةً، لكنّها مُفيدة في هذا المجال. وهناك كتب تقليديّة لكن تأخذ منها ما تجدُ فيه الفائدة، مثل كتاب (فنّ القصّة) للدّكتور محمّد يوسف نجم، وكتاب (فنّ كتابة القصّة) لحسين القبّاني، وهما من المطبوعات القديمة، ولا أدري إنْ أُعيدت طباعتهما أم لا.

بالطّبع، هذا غَيضٌ مِن فَيض، وهناك كُتُب تجدُ فيها فصولاً تُسعفك في هذا الفنّ، إذ لم تُكتَب كلّها في هذا المجال، من ذلك: (مقال في الرّواية) ليوسف اليوسف، و(الزّنّ في الكتابة) لراي برادبيري. و(لماذا أكتب) لجوروج أوريل. و(غرف تنتمي لأصحابها) لدريان موبي. و(الكلمة في الرّواية) لميخائيل بختين. و(لماذا نكتب) لمجموعة من الكُتّاب النّاجحين، بتحرير ميريديث ماران. و(حياة الكتابة) وهو مجموعة مقالات مُترجمة عن الكتابة، قام بترجمتها عبد

الله الزّماي.

متى أكتب؟

تُشبه الكتابة عمليّة ولادة. وتشبه عمليّة صعود إلى جبلٍ يعصمك من الرّتابة والنمطيّة والتّسطيح. وتشبه الأعمدة الأربعة الّتي عليكَ أن تجهّز خشبها وتُقيمها فوق أرضّية صلبة ثمّ تبدأ البناء عليها. وتشبه زراعة شجرة تتعهّدها بالنّمو حتّى تؤتي أكلها، وأثناء ذلك تسقيها، تُراقبها، وتُشذّب ما شذّ من أغصانها، وقد تنتظر زمنًا طويلاً حتّى تنضُجَ ثمارُها. وتُشبه صدعًا طويلاً في القلب، وشَقًّا عميقًا في الرّأس كلّما فكّرت أكثر ازداد الصّدع طولاً والشّق عُمقًا، ولا نَجاة!

تقسيم الكتابة على الوقت بصورة نمطيّة ليسَ حقيقيًّا، ما من كاتبٍ تكون له أوقاتٌ مُحدّدةٌ لا يحيد عنها في الكتابة، ربّما يُغلّب وقتًا على وقت، يعتادُ أنْ يكتبَ في وقتٍ ما، فيكون هذا الوقت جزءًا من طقوسه في الكتابة.. هذا مُمكن، لكنْ أنْ يظلّ على ذلك القانون فلا يخرج عليه فهذا من غير المُمكنات، إذْ إنّ الكتابة من أهمّ شروطها كسر المألوف، والتّمرّد على السّائد. غير أنّه في حالتي، إذا كان مُفيدًا أنْ أتحدّث عن تجربتي، فأنا أميلُ إلى القراءة في اللّيل، والكتابة

في الصّباح. هذا بوجهٍ عامّ، لكنّني أكتبُ في كلّ وقتٍ، إذْ لا وقتَ مُحدّدًا للكتابة عندي، وخاصّة كتابة الأفكار لأنّها لا تنتظر وقتًا مُناسِبًا حين تطرقُ دماغك. إنّ ذلك قد يجعلني أحلم بالكتابة أحيانًا، أستيقظ من الحلم لأكتب الفكرة الّتي راودتْني في ذلك الحُلم. وقتُ الكتابة عند هذا الصّنف الّذي لا تكفّ الفكرة عن الدّوران في مخُيّلته ليس له قانون يضبطه. لكنّ الأمر إذا كان بالتّغليب، فأنا أميل إلى نموذج (أنيس منصور)، لقد كان يبدأ الكتابة في كلّ يومٍ على السّاعة السّادسة صباحًا، وينتهي منها على العاشرة. أربع ساعات هي كلّ ما يريدُه ليومه من الكتابة. أنا أفعل ذلك غالبًا، غير أنّني أستمرّ في الكتابة إلى الثّانية أو الثّالثة. تواجهني أحيانًا مشكلة أنّني أكون في عملي في التّدريس في المدرسة، فيُصبح من اللاّزم أنْ أعيد ترتيب خلايا دماغي، وأعكس برمجتها تمامًا، فأكتب في المساء أو في اللّيل. ولهذا فإنّ أيّام العُطل يكمنُ جمالُها عندي في الاستيقاظ المُبكّر من أجل الكتابة، متعة صياغة الحروف بعد نومٍ متّصل يجعل العقل أكثر اتّقادًا ليصوغ نَصًّا أكثر جمالاً.

هناك كاتبٌ آخر أتقاطَع معه في بعض النّقاط في زمن الكتابة اليوميّ، إنّني أكتبُ أحيانًا عشر ساعاتٍ، ربّما بلزاك الّذي مات عن خمسين عامًا تقريبًا احتاج أنْ يزيدَ هذه

السّاعات قليلاً ليُعوّض العمر الّذي ينقضي بسرعة، كما قال كاتب السّيرة البلزاكيّة: "عُرِفَ بلزاك بنظامه اليوميّ الصّارم في الكتابة اللّيليّة لساعاتٍ طويلة، إذ ينام كلّ يومٍ في السّادسة مساءً ويستيقظُ في الواحدة صباحًا ليبدأ - مستعينًا بعددٍ هائلٍ من أقداح القهوة - الكتابة لسبعِ ساعاتٍ مُتواصلة. وبعدَ أنْ يتناول إفطاره في الثّامنة، ويرتاح لبضع ساعاتٍ، يعود مُجدّدًا لمواصلة الكتابة سبع ساعاتٍ أخرى".

أكثر من رواية في الوقتِ نفسِه:

لعلّ من المُفيد في هذه التّجربة أنْ أذكر أنّه ربّما كانت تمرّ عليّ أوقاتٌ أكتبُ فيها أكثر من رواية، أو أُوقف كتابةَ روايةٍ ما لأبدأ الكتابة في روايةٍ أخرى، ومن الطّبيعيّ أنْ تجدوا في النّشر روايةً نُشرت هذا العام لكنّها كُتبت في العام الفائت، فأنا لا أنشر بحسب تاريخ ما أكتب غالبًا. على سبيل المثال كتبتُ أجزاء من حديث الجنود قبل أنْ تنتهي (ذائقة الموت)، كنتُ أكتب (رؤوس الشّياطين) مع (صوت الحمير) مع (يوم مشهود) في الوقت نفسه. وكتبتُ الجزء الأوّل من رواية (المسيح) مع جزءٍ من رواية (اسمه أحمد)، وجزءٍ من رواية (تسعة عشر) في وقتٍ متداخلٍ أو مُتقاربٍ أو في الوقتِ نفسه.

تأتيني أحيانًا عبارة مُقتطعةٌ من نَصٍّ روايةٍ يُمكن أنْ أكتبها في المُستقبَل، العبارة حقيقيّة، وقد تكون فِقرةً كاملة؛ فماذا أفعل؟ أتركُ الكتابة في الرّواية الحاليّة، وأعودُ إلى ملفّ أفكار رواياتي، وأستخرجُ الرّواية الّتي تنتمي إليها هذه الفقرة وأكتبُها، ثُمّ أطلق زفيرًا حارًّا طويلاً، أغلقُ المِلفّ القديم، وأعودُ إلى الرّواية الحاليّة وأتابع الكتابة فيها!

الآن أنا أكتب هذا الكتاب (هذه سبيلي) وقد بدأتُ به أثناء كتابتي لرواية (مَسغبة)، فلمّا أنجزتُها دخلت على الخطّ رواية (يُبدِئ ويُعيد) وهي رواية تتحدّث عن بداية الكون، وأنا منذُ ما يقربُ من سنةٍ أكتبُ (يوميّاتي) في زمن (الكورونا) كلّ صباح، ومُخطّط رواية (أحمد بن الحسين) جاهزٌ هو الآخر ينتظر منّي إشارة البدء، وقد أنجزتُ قدْرًا معقولاً منه. ثُمّ الحلقات الّتي أنشرها على قناتي على اليوتيوب، بدأتُ بتفريغها، من أجل (موسوعة المتنبّي)، وإنّني عازمٌ على أنْ أخصّص لها نصفَ ساعةٍ صباحيّة تسبق البدء بأيّ شيءٍ آخر، وهذه الكتب السّتّة اندمجَ زمنُها فلم يُبدأ بأحدها بعدَ نهاية أخيه، بل بُدِئ بها كلّها، وتداخلت أزمانُها معًا!!

المدّة الزّمنيّة لإنجاز الرّواية:

ربّما أكون قد تحدّثت عن هذا بطريقةٍ أو بأخرى من خلال عنوان (التّدفّق في الكتابة) من هذا الفصل، ويُمكن الرّجوع إلى هناك للاستِئناس به. في الحقيقة لا يُوجَد زمنٌ مُحدّد، ولكلّ رواية طبيعتُها كذلك، بعضُ الرّوايات تحتاج إلى استِعداد قرائيّ، لا أدري إنْ كان هذا يدخل أيضًا في زمن الكتابة، من تجربتي الاستِعداد للرّواية خاصّة في الرّوايات التّاريخيّة يحتاجُ ربمّا وقتًا أطول من وقتِ كتابة الرّواية نفسها، على سبيل المثال لا الحصر، احتاجت رواية (أرض الله) الّتي تتحدّث عن تاريخ العبوديّة في أمريكا في القرنين الثّامن عشر والتّاسع عشر الميلادِيَّين إلى ستّة أشهر للقراءة وجَمْع المعلومات حول ذلك، ولم تحتجْ إلاّ إلى شهرَين لكتابتها، أي أنّ الاستِعداد لها أخذ ثلاثة أضعاف وقتِ كتابتها، ومثلُ هذا تمامًا حصل كذلك في رواية (يوم مشهود).

بعضُ الرّويات تكون أحداثُها استرجاعًا لحالةٍ مرّ بها الكاتب أو شاهَدَها، مثلما حدث مع فيكتور هيجو في آخر يوم لمحكوم بالإعدام، ولذا لم يأخذ منه وقتُ كتابتها أكثر من أسبوع. بعضُنا يكتبُ يومًا ولا يستطيع أنْ يكتبَ في اليوم الثّاني، فإذا كان مُتوقّعًا من الرّواية أنْ تستغرقَ معه ستّة

أشهر فإنّها بهذا تحتاج إلى سنةٍ من أجل ذلك، إنّها طبائع الكُتّاب يا سادة، أنا اليوم في مزاجٍ حسن، فقد أكتبُ ثماني ساعاتٍ أو عشرًا في جلوسٍ واحدٍ، وقد يَمُرّ أسبوعٌ بعدَ ذلك لا أقدر على لمس الورق، أو الجلوس لساعةٍ واحدة، إنّها كيمياء الكتاب، رائحة الإبداع الّتي لا يُمكن وصفُها ولا الإمساكُ بها.

على سبيل المثال استغرقت كتابةُ رواية (يا صاحبي السّجن) خمسة أشهر لإنجازها، في حين إنّ رواية (كلمة الله) كُتِبت في أسبوعَين، بالمُجمل فإنّ المدّة الّتي قضيتُها في إنجاز رواية من رواياتي كان يتراوح بين هاتين المُدّتَين؛ بين أسبوعَين في أقصره إلى خمسة أشهرٍ في أطوله.

دوائر الرّواية:

إنّها لا تبتعدُ كثيرًا عن دوائر الخليل بن أحمد الفراهيدي في العَروض، فكما كانت دوائره تُشكّل الإيقاع الشّعريّ وموسيقاه، فإنّ دوائري تُشكّل الإيقاع النّثريّ وموسيقاه. في كلّ دائرة؛ هناك نهرٌ وروافد.

الشّخوص، والمكان، والزّمان، والأحداث، والسّيرورة،

والصّيرورة، كلّها دوائر مركزها هو مركز الرّواية، ومحيطها من الأصغر للأكبر تتداخل فيه السّيرورة مع الصّيرورة. ففي دائرة الشّخصيّات، تكون الشّخصيّة الرّئيسيّة (نهر) والشّخصيّات الفرعيّة الّتي تخدمها (روافد). وفي دائرة الأحداث؛ الحدث الأكبر؛ جسم الرّواية (نهر)، والأحداث الصّغيرة الّتي تدعمها (روافد). وفي دائرة السّيرورة والصّيرورة: العُقدة الكُبرى (نهر) والعُقد الصّغرى (روافد). والحلّ الأكبر (نهر)، والحلول الصُّغرى (روافد).

الآن؛ رَقّصْ كلّ عنصرٍ كما ينبغي، ما يصلح للمكان غير الّذي يصلح للشّخوص، الموسيقى الّتي يجب أنْ تُسمعها للشّخوص تختلفُ بين مَنْ كان ذوّاقًا ومن كان عابرًا، عليكَ أنْ تعرفَ كيفَ ومتى تبدأ ذلك الرّقص مع تلك الموسيقى.

الكتابة بخطّ اليد أم على الحاسوب؟

الكتابة بخطّ اليد أم على جهاز الحاسوب؟ لا أعني هنا كتابة المُسوّدات أو الوُرَيقات الّتي تضمّ بعضَ الملحوظات؛ فهذا من السّهل كتابته بخطّ اليد على الورق، إنّما أعني كتابة جسم الرّواية الأكبر بعد أنْ يجتاز الكاتب مراحل القُصاصات الأولى.

ربّما داء الحنين يعود للظّهور هنا، خاصّة إذا كنّا قد مارسنا الكتابة بهذا الأسلوب، أعني باستخدام القلم والورقة... لكنْ لِمَ لا يُصيبنا الحنين إلى الطّريقة الأقدم في الكتابة؟ لماذا لا نحنّ إلى الكتابة على الرّقوق أو على جلود الغزال، ولماذا لم تعدْ للكتابة بالرّيشة المغموسة بحبر الدّواة هذا الحنين، ولا نتكلّم إلاّ عن قلمٍ وورقة؟ ربّما لو أنّ أحدَ أجدادنا عاشَ فترة الخَضْرمة بين الكتابة بالرّيشة المغموسة وبقلم الرّيشة، سيكون لديه هذا الحنين الموزّع بين الطّريقتين والّذي يميل إلى الطّريقة الأقدم... لماذا نغوصُ أكثر في التّاريخ ونسأل: لماذا لا نَحِنُّ إلى عصر الكتابة عن طريق النّقش على جدران الكهوف وعلى الحجارة؟

نحن الآن نُوازِنُ بينَ عصرَي الكتابة بالقلم على الورقة، أو بالنّقر بالأصابع على لوحة مفاتيح الحاسوب، ونَحِنّ إلى الأقدم؟ لكنّ هذه الفترة الّتي تتنازعها المُفاضلة بين هاتين الطّريقتين، سوفَ تنتهي، وسيأتي عصرٌ جديدٌ من الكتابة، لا ندري كيفَ يكون؟ لكنْ ربّما يكون عن طريق التّصويت، أعني يُصوّت الكاتب بالكلمات الّتي يريدُ أنْ يصوغها في كتابه، وجهاز الحاسوب الذّكيّ الّذي أمامه يُحوّل هذه الأصوات إلى حروفٍ مصفوفةٍ على الشّاشة. وحيَنها سيظهر مَنْ يتباكى

على الطّريقة القديمة في الكتابة، وهي النّقر الجميل على مفاتيح الحروف، وسيأتي مَنْ يتغزّل بالصّوت العَذْب النّاتج عن ذلك النَّقْر في مُفاضَلته مع الطّريقة الجديدة الّتي لا تبدو بحسب رأيه إلاّ أصواتًا جوفاء تستطيع الببّغاء أنْ تردّدها أفضل منه! دائمًا للجديد الخوفُ منه وازدراؤه، وللقديم الحنينُ إليه وتعظيمُه، وهذا الصّراع بين القديم والجديد، لم يكنْ وليدَ عصرنا هذا فحسب، لقد انتبه إليه الأقدمون أكثر منّا. لكنْ لحظة: هل قلتُ الأقدمون؟ إنّهم لم يكونوا أقدمين بالنّسبة لمن عاشَ معهم! وإذًا فالمسألة نِسبيّة، وهذا تمامًا ما أورده ابن قتيبة المُتوفّى سنة (276 ه) في كتابه (الشّعر والشّعراء) حينَ قال: "ولم أسلُكْ فيما ذكرتُ من شِعرِ كُلّ شاعرٍ مُختارًا له سبيلَ مَن قلّد أو استحسن باستحسان غيرِه، ولا نظرتُ إلى المُتقدّم منهم بعين الجَلالة لتقدمِه، ولا المتأخِّرِ بعين الاحتقار لتأخُّرِه، بل نظرتُ بعين العدل إلى الفريقَين وأَعطَيْتُ كُلاًّ حَظَّه، ووَفَرْتُ عليه حَقَّه"، وقال أيضًا: "فإنّي رأيتُ من عُلمائنا مَن يَستجيد الشِّعر السّخِيف لتقدُّم قائله، ويضعه في مُتخيَّرِه، ويرذل الشِّعر الرّصِين، ولا عيب له عنده إلاّ أنه قيل في زمانه، أو أنّه رأى قائله، ولم يَقْصُرِ اللهُ العَلمَ والشِّعرَ والبلاغةَ على زمنٍ دون زمن، ولا خَصَّ به قومًا دون قوم، بل جعل ذلك مُشتَرَكًا مقسومًا بين عبّاده في كلِّ دهر، وجعل كلَّ قديمٍ حديثًا في عصره".

صناعة هيكل الرّواية:

أُجمِلها في خمس خطواتٍ، كلّ واحدةٍ تقودُ لأختها، تدخل من الباب الّذي يُفضي إلى الغرفة الواسعة، غرفة الرّواية؛ هناك تُؤثّثها على مَهَل، وتتأنّق في إحضار الأثاث الّذي يليق بكلّ جزء فيها، فإذا انتهيتَ من ذلك، ألقيتَ نظرةً أخيرة على هذا الأثاث الّذي نمّقتَه بعقليّة هندسيّة مُبدِعة، ثُمّ خرجتَ من الباب في الجهة المُقابلة، إلى الفضاء الفسيح؛ حيثُ النّهاية.

الخطوة الأولى: هل الفكرة جاهزة وكلّ ما يتعلّق فيها حاضرٌ؟

يختلف الرّوائيّون في ذلك: نجيب محفوظ يرى أنّ كلّ ما يتعلّق بالرّواية من شخوص وأزمنة وأمكنة وأحداث وعُقَد ونهاية يجب أن يكون جاهزًا وكاملاً في ذهن الرّوائيّ قبل البدء. كثيرون لا يرون ذلك منهم يحيى حقّي، وأنا منهم. الفكرة هي الأساس، ما يحدث بعد ذلك يُمكن أن ينشأ في لحظات الكتابة. في الواقع لا يُمكنك أن تتخيّل رواية من (300) أو (400) صفحة كاملةً قبل البدء؛ هذا مُستحيل!! أبدأ بمُخطّط؛ أعرفُ الطّرق الرّئيسيّة، لكنّني أجهل الفرعيّة

منها، قد تقودني السّرعة إلى أنْ أدخل هذه الفرعيّة لأرتاح قليلاً، أو لأبتاع ما يُمكن أنْ يجعل منظر غرفة الرّواية جميلاً، أو مُدهِشًا.

الخُطوة الثّانية: الأوراق المَرجعيّة:

الورقة دائمًا مع القلم حاضران؛ اكتبْ متى جاءتْك الفكرة وفي أيّ مكان على الإطلاق؛ وأنتَ في المكتب أو الشّارع أو السّيّارة أو نائمٌ أو تأكل أو... إذا كُنتَ من الّذين يكتبون ملاحظاتهم على هواتفهم فافْعل، لا تؤجّل كتابة أيّة فكرة؛ إنّ الفكرة كالبذرة تختبِئ في داخلها شجرةٌ باسقة. إذا كنتَ على عجلةٍ من أمركَ تخافُ أنْ تطير الفِكرة منك؛ فسجّلْها بالصّوت. وابدأ بجمع أوراقك:

1. **أوراق الشّخصيّات:** أنتَ لستَ كلّ الشّخصيات، ولكنّها كلَّها أنت. لا تُقحم نفسكَ في كلّ شخصيّة عندما تُصوّرها، وأقحم كلّ شخصيّة فيك حينَ تبدأ الحديث عنها. ومع ذلك فهذا لا يمنع من أن تُحمّل بعضَ الشّخصيات بعضَ أفكارك. ربّما هي أفكارُها، لكنْ كُنْ على درايةٍ بذلك.

أحد الرّوائيّين الكِبار ذهب وطلب من مدير السّجن أن ينام

في السّجن أسبوعًا من أجل أن يعيش نفسيّة السّجين لأنّه أراد أن يكون بطلُ إحدى روايته سجينًا..!!!

2. أوراق المشاهد: كُنْ (كاميرا) مفتوحة على كلّ الاتّجاهات وتصوّر كلّ اللّحظات، لا تُوقِفْها ولا تُنهِها. اجعلْ حواسّك تعمل جميعًا، واستخدمْ خيالَك، وأَغمِضْ عينيك وتخيّلِ المشهد كاملاً قبل أن تبدأ بصياغته. الخيال سِرّ الصّنعة هنا. إذا لم تكنْ قد درّبْتَ خيالكَ من قبلُ على الإحاطة بالزّمكان لأيّ حدث، فافْعل الآن؛ أنتَ كاتبٌ عاديٌّ بدون خيالٍ خَلاّق.

٣.أوراق الحبكات الرّئيسيّة والفرعيّة: الكاتب الجيّد لا يكتفي بحبكةٍ واحدةٍ تكون كبيرة. إنّ حواسّ القارئ ستكون حينئذٍ كلّها موجّهة نحو هذه الحُبكة اليتيمة، مِمّا قد يُدخل الملل عليه؛ اصنع الحُبكات الصّغيرة، وخَطّط لذلك، اكتبْه على الورق، وحدّد في أيّ المراحل ستبرز هذه الحُبكات، وفي أيّها ستنتهي، مثل فقاعة مُسافرةٍ تنفثِئ بعدَ أنْ تطير لمسافاتٍ غير بعيدة.

الخطوة الثّالثة: الفصل الأوّل: أصعب فصل؛ لأنّه يجب أن يتضمّن:

١. التّشويق عن طريق: اللغة، المشهد، الغموض اليسير أحيانًا.

٢. الطّول: يجب أن يكون قصيرًا: فلو كانت كلّ فصول الرّواية تتراوح بين (٧-١٠) صفحات وهو الأفضل؛ فالفصل الأوّل يُفضّل أن يكون بحدود (٣-٤) صفحات.

٣. نَثْر ما في السّلة من وُرود: أعني رَمي الشّخصيّات دون الخوض في التّفاصيل أمام القارئ.

٤. الأعمدة الأربعة في البناء ستكون هنا، وإنْ لم يُبنَ فوقها. فقط مَركِزُها على الأرضيّة.

نموذج للفصل صفر في رواية حديث الجنود، أو في رواية كلمة الله أو خاوية أو يوم مشهود، يكشف لكَ كيفَ بدأتُ مشاهدي: الغموض في (حديث الجنود)، ولعبة الضّمائر في (كلمة الله)، الاختزال والتّكثيف في (خاوية)، والمُباغتة في (رؤوس الشّياطين) هذه معظمها فصولٌ تبدو أنّها خارج سياق الأحداث، وأنّه لا علاقة لها بصلب القصّة، هذا ما يبدو، لكنْ عليكَ أنْ تُدهِش القارِئ بأنّها في صميم العمل الرّوائي بعد أنْ يقطع أكثرَ من ثُلُثهِ.

البداية في حديث الجنود: (في رحلة مدرسيّة، التقط أستاذٌ صورةً لأربعة طلاّب في الصّفّ الثّالث الابتدائيّ، كانوا يقفون على مدرّج آثار قديمةٍ ذات حجارة سوداء، الأوّل من اليمين كان قصيرًا يتوزّع شعره الكثيف على رأسه كأنّه قبّعة، تتهدّل أطرافها حتّى أذنيه، ويلبس كنزة صوفٍ زرقاء. والثّاني كان أطول من الأوّل ذا شعرٍ ناعمٍ أشقر، وعينَين مُلوّنتَين، وبنطاله مال جزءٌ منه إلى اليسار قليلاً وارتفع إلى منتصف بطنه فشدّ على ما اجتمع عند ساقيه. والثّالث كان ينظر إلى السّماء كأنّه يبحث عن نجمةٍ هاربةٍ في منتصف النّهار، والرّابع كان يبتسم كأنّه يُدرِك أنّ الغد سيكون أجمل من اليوم.

أنا كنتُ صاحب البنطال المائل!!».

الفصل الّذي يحوي الإشارة بطريقة غير واضِحة، فيها بعضُ الغموض والرّمزيّة لِما ستكون عليه بقيّة الفصول. وانتِقاء صورة البطل من بين عددٍ من الصّور المُتجمّعة معه.

والبداية في (كلمة الله) ولعبة الضّمائر في المتكلّم والمُخاطب، وعلاقتها لاحقًا بالنّص: «مَنْ يُبصر الطّريق؛ فقد

عَمِيث كلُّ السّبل...!! هؤلاء الّذين يحترفون الكَذِب جعلوا من كلّ كلمةٍ وَحيًا كأنّ أحدًا لم يتحدّث بمثل هذا الّذي أقوله من قبلُ...!! ألم يسمعوا بأولئك الّذين انشقّ لهم البحر؟! أو أولئك الّذين انحملوا في الفُلك، أو حتّى أولئك الّذين خاطَبوا إبليس في أوّل الخُروج؟!! ألم يسمعوا أحدًا يُخبر عن الله سِواي!!».

والبداية الاختِزاليّة في رواية (خاوية): « كان لا بُدّ من الحُزن؛ الطّريق الطّويلة ليسَت محفوفةً بالأمل، ولا بالورود! لا تُصدّقوا، كانت مليئةً بالشّوك، والحُفَر، وكانت مُظلِمةً ومُخِيفةً، وكانَ على البائسين أنْ يعيشوا كلّ الآلام الفظيعة الّتي تحزّ القلبَ بسكّينٍ صَدِئ، وكانَ عليهم أنْ يحزنوا وحدهم لأنّ قصصهم الرّهيبة وُلِدَت منسيّة!!».

الخطوة الرّابعة: الفصول اللاّحقة:

عليكَ أنْ تصنع ما يُسمّى بـ (الورطة)، والورطة في اللّغة الطّين، ومعنى ذلك أنْ يغوصَ معك في الطّين فلا يكون الخلاصُ منه أو منكَ سهلاً. ويكون ذلك بتقنياتٍ مُتعدّدة، منها التّطوّر السّريع في الأحداث، الباب ذو الزّاوية الحادّة الّذي ينفتح ببطءٍ على المشهد، المشهد الّذي أزرعه في

خياله، ومع انفتاح الباب البطيء أجعله يتحرّق شوقًا ليرى ما يحدث، فإذا أدركتُ أنّه على وشك أنْ ينفجر أو يملّ، أفتح البابَ على مِصراعَيه، فلا يستطيع احتمال رؤية ما انتظره طويلاً دفعةً واحدةً في لحظةٍ خاطفة.

التّفنّن في صياغة التّطوّر الدّراميّ مُهِمّ كذلك، يُمكن أنْ يتمّ ذلك من خلال المُنعطفات المُفاجِئة، ومُخالفة المُتوقّع، واستِباق النّهايات.

الخطوة الخامسة: نهاية السّباق:

نهاية السّباق، الفصول الأخيرة، القَفْلة، شكل النّهاية... حين ذاب الثّلج كَشَف ما لم يكنْ مُتوقّعًا، يفترض أنّ القليلين من القرّاء هم الّذين تصدق توقّعاتهم بعد ذوبان الثّلج، ولكنّ هؤلاء القرّاء كانوا قد رافقوا تراكمات الثّلج أثناء تطوّر الحدث في الرّواية حتّى خبّأ تحته كلّ هذه المفاجآت.

مُسوّدات الرّوايات:

المُسوّدات جزءٌ من التّخطيط الصّحيح والمهمّ عندَ كتابة الرّواية، إنّ كتابتها على الحاسوب أو أيّ طريقةٍ تكنولوجيّة

حديثة لا يمنع بحالٍ من أنْ يكون لها مُخطّط، بل ذلك ضرويّ لاكتِمال العمل ونُضجه. ما من روايةٍ كتبتُها من الرّوايات الخمسَ عَشرةَ إلاّ وكان لها مُخطّط في دفترٍ أو أكثر مكتوبٍ بخطّ يدي، أُحصي فيه الشّخصيّات، وأسماءها الحقيقيّة والمُستعارة، وطريقة استِعارة هذه الأسماء إذا كانت الرّواية تاريخيّة، والاسم الحقيقيّ يجلب المشاكل القانونيّة له بطلاً، ولي كاتِبًا. وكذلك أدوار هذه الشّخصيّات، وأطوارها، وخطوطها من الخارج ومن الدّاخل... كلّ شيءٍ أُعدّه له سلفًا بعد أنْ أتخيّله. على الأمكنة أنْ تلعبَ دورها في الرّواية وبالتّالي في المخطّط، إنّ روايةً بدون مُسوّدة من هذا النّوع، لا يُمكن أنْ تولَد صِحّيّة، ستكون ناقصةً طرفًا من أطرافها، وعُضوًا من أعضائِها، إنّ المُسوّدة تُتيح لهذا المولود أنْ يأتي مُكتمِلاً، وتُسندُ الأدوار إلى أعضائِها بحرفيّة، ولا تنسى دورَ أيٍّ منهم، لكنّ الكتابة دونها لا بُدّ أنْ تُظهر تشوّهها في جانبٍ من الجوانب.

لكنْ أينَ أكتبُ؟ اعتيادُ الكتابة في رُكنٍ مُعيّنٍ قد يكون أمرًا حسنًا، جزءٌ من التّناغم بينكَ وبينَ المكان بالألفة الطّويلة يُسهّل أمر الكتابة، وينعكس هذا التّناغم مع المكان على التّناغم مع الأفكار، لكنّ التّقيّد بذلك دائِمًا أمرٌ غيرُ ممكنٍ في الحقيقة، أفكاري ليسَ لها مكان، قلتُ ذلك سابِقًا، أكتبُها فورَ

أنْ تبزغ، لكنّ فصولي أبحثُ لها عن مكانٍ أتآلف معه، أيّ مكانٍ، لكنّه ليسَ مكانًا غريبًا عنّي، وليس صاخِبًا، ولا مُعتِمًا.

مكتبي في غرفتي الّتي تقع جهة الجنوب هو أكثر الأمكنة مُناسبةً لي، أكون بين كتبي الّتي تصل إلى خمسين ألفَ كتاب، مُحاطًا بها من كلّ جانب، مُحاصَرًا بجمالها حِصارًا لذيذًا، حيثُ الهدوء التّامّ، والسّكون الأخّاذ. لكنّني مع ذلك، يُمكن أنْ أكتبَ في مقهى، اعتدتُ في فتراتٍ مُتقطّعة، أنْ أجلسَ في ركنٍ قصيّ في مقهى في عمّان وآخر في السّلط وأكتب نَصّي، بعضٌ من رواية (خاوية)، ورواية (صوت الحمير)، و(رؤوس الشّياطين)، و(طريق جهنّم) وُلِدَ في هذه المقاهي.

المُسوّدات لم تكنْ دفاتر أو أوراقًا دائِمًا، كانتْ قُصاصات، وأوراقًا مُمزّقة، أو فواتير. حينَ كنتُ أكتبُ رواية (نفر من الجنّ) في صحراء السّراب، كنتُ أذهبُ إلى المطعم، فأنسى أنْ آخذ معي قلمًا، وحينَ يأتي النّادل لي بالطّعام، تنهال عليّ الأفكار، وحين أفتّش جيوبي ولا أجد ما يُعينني على الإمساك بأفكاري أو عباراتي، أصيح بالنّادل أنْ يأتيني بقلمٍ وأوراق، ويأتيني بالفعل بالقلم، ولكنّه لا يجدُ أوراقًا، فأطلبُ منه أنْ يقصّ لي من بَكَرَةِ الفواتير على آلة المُحاسَبة الخاصّة

بالمطعم، فيقصّ الورق، كان يقصّ بِشَدِّهِ بيده من البَكَرة، فينقطع على غير انتِظام، فأقبلُ به على الفور، وكان ورقًا رقيقًا جدًّا، ومُكَرْبَنًا، فإذا ذهبتَ تكتبُ عليه بدت الحروف المخطوطة في بطن الورقة كأنّها مُكرّرة في ظهرها لكنْ بلونٍ هو لون الكربون، ومع ذلك كانت هذه الأوراق المُمزّقة كنزي في تفريغ أفكاري قبل أنْ تطير، وفي لَمّ شتاتِها فيما بعدُ لكي تُصبح ما أصبحتْ عليه الرّواية بعدَ حين.

لستُ وحيدًا في اتّخاذ المقهى أحدَ أمكنة الكِتابة، فقد قرأتُ أنّ (فيرناندو بيسوا كان من عُشّاق القهوة والمقاهي. يجلسُ في طاولته المُعتادة كلّ يومٍ ليُقابلَ زملاءه الكُتّاب، يُدخّن، يقرأ ويكتبُ ويلتهم فناجين قهوة (البيكا) البرتغاليّة المُحلاّة، وهي قهوةٌ قويّة تُشبِه الإسبرسّو لكنّها أكثر خفّة وأفتح لونًا من نظيرتها الإيطاليّة. وفي مقهى (المرأة البرازيليّة) تحديدًا كتبَ بيسوا كثيرًا من كُتُبه وكُتُب أقرانه الّذين اخترعهم، وقد ذكر بيسوا أنّه كتبَ جزءًا من مقاطع كتابه الأشهر (اللاطُمأنينة) في هذا المقهى مُستخدِمًا قلمَ رصاصٍ غيرِ مبريّ وورق ساندويتشات أبيض حصل عليه من المقهى».

مُسوّدات رواياتي، لا قانون لها، قد تكون صفحاتها مُلطّخةً

بكلامٍ غير مفهوم، وإشارات غير واضحة، وأسهم ترتفع وأخرى تنزل، وخَرْبشاتٍ وشَخْبطاتٍ هُنا وهناك، قد تكون الصّفحة الواحدة مليئة بالكلمات حتّى إنّها ليركبُ بعضُها فوقَ بعض، وقد تكون شبه خاليةٍ إلا من كلمات قلائل تسرح في الصّفحة كأنّها سهلٌ فَسيحٌ مُمرِع! إنّ الحديث عنها قد يطول، ولذا أكتفي بوضع نماذج لها هنا.

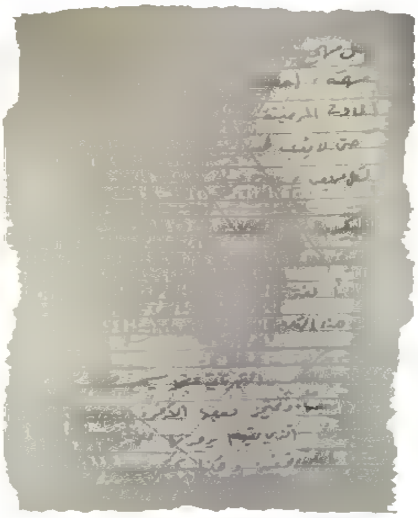

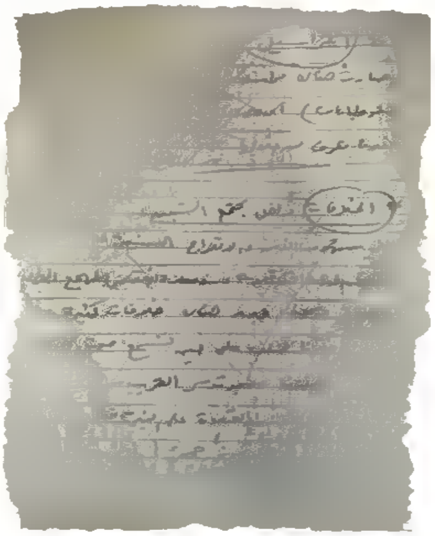

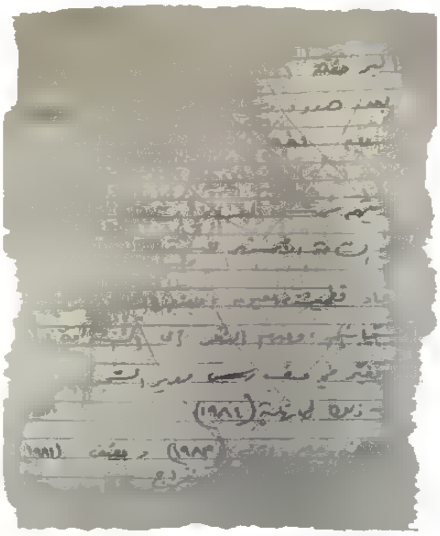

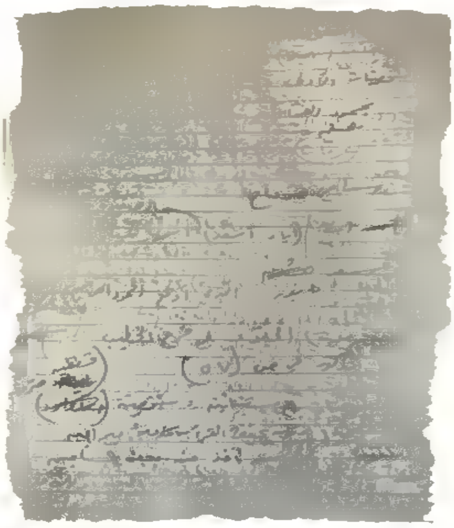

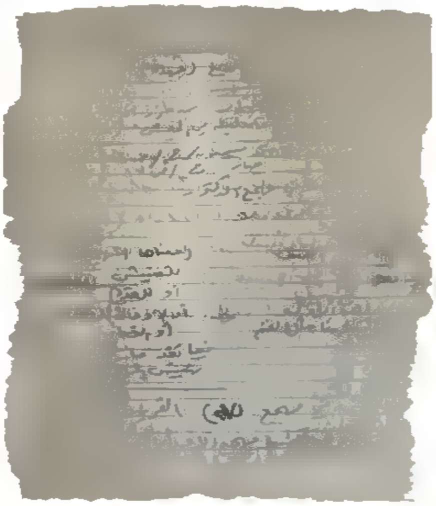

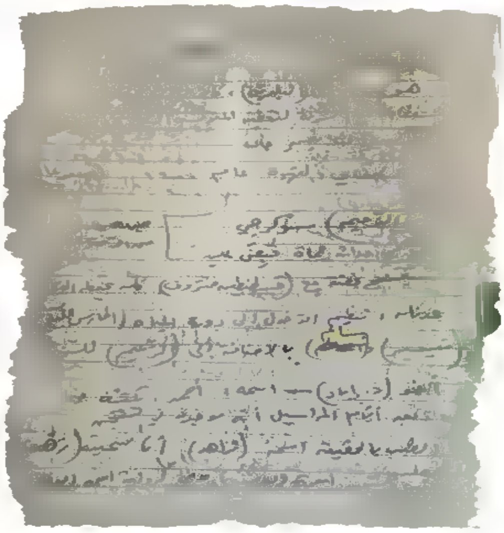

من مسودات رواية
(يسمعون حسيسها)

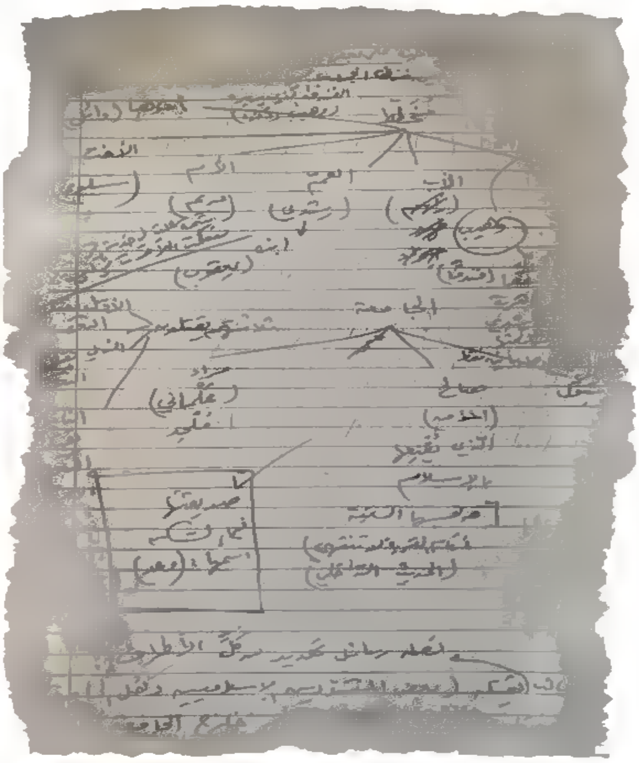

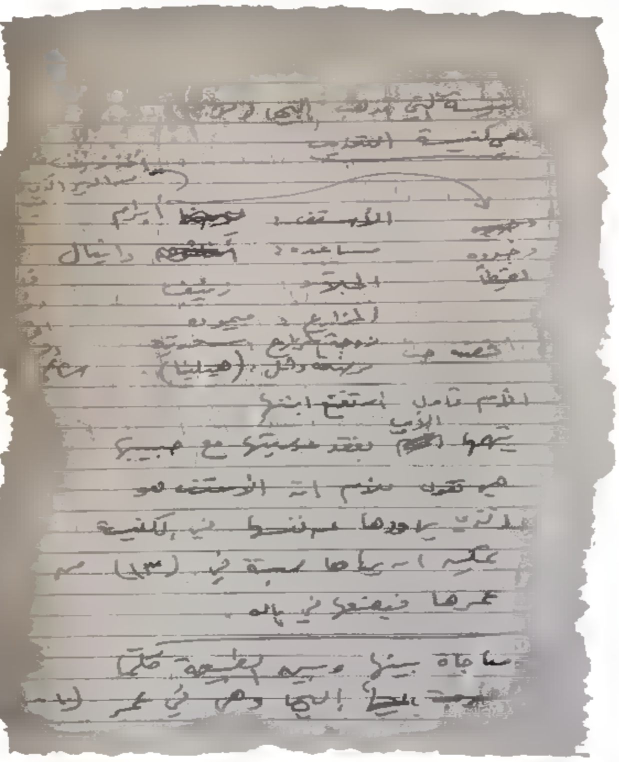

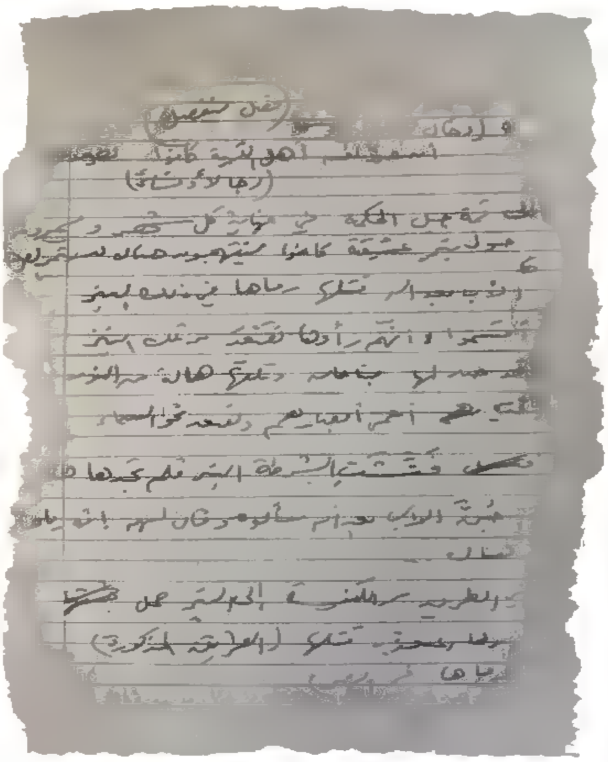

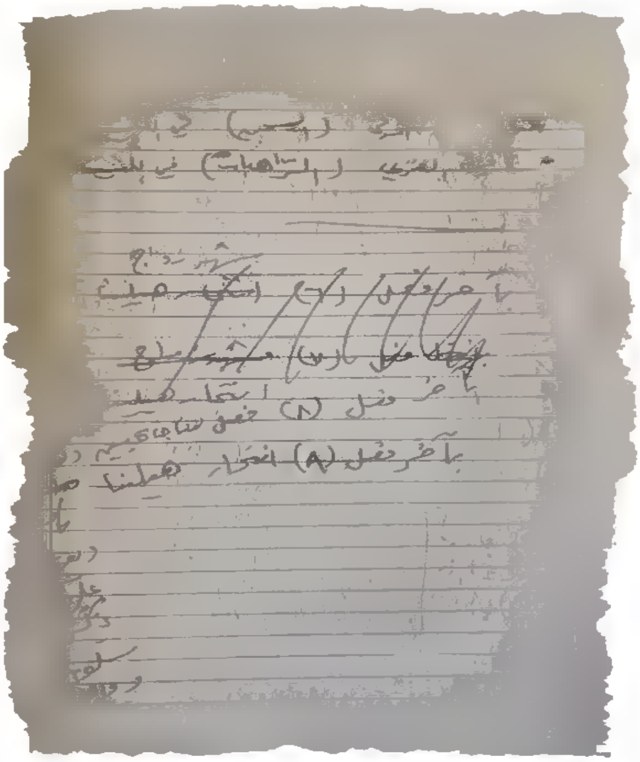

مُسوّدات رواية (كلمة الله)

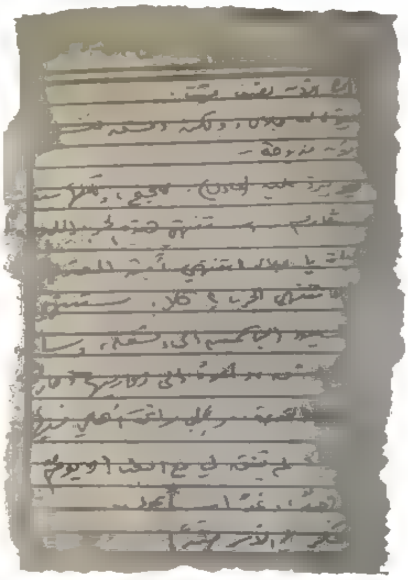
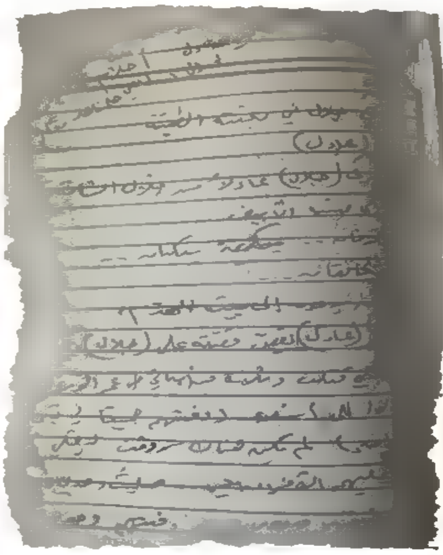
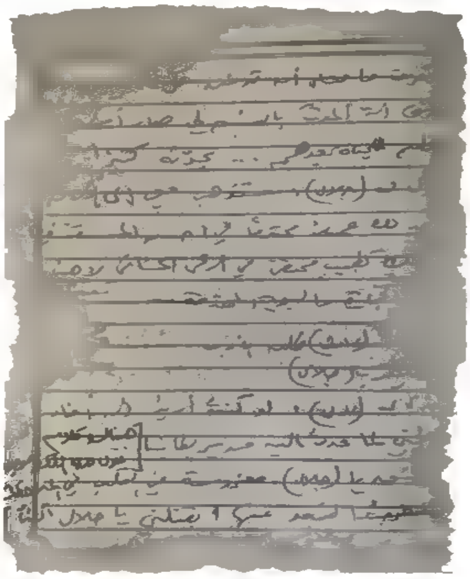
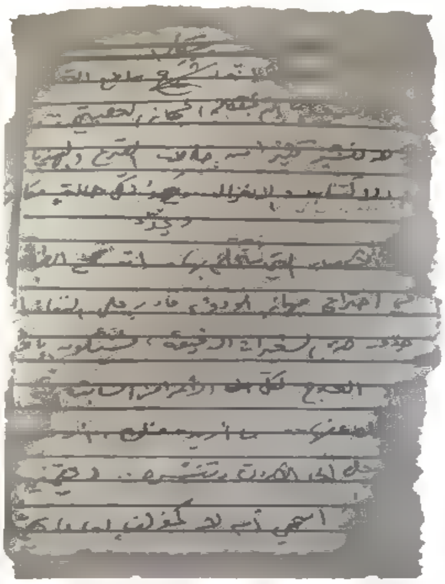
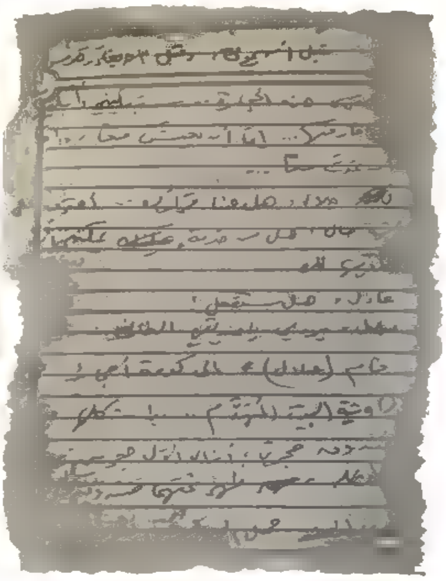
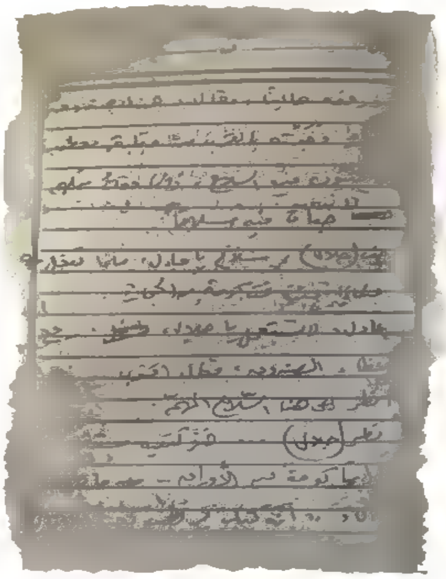

من مسوّدات رواية (خاوية).

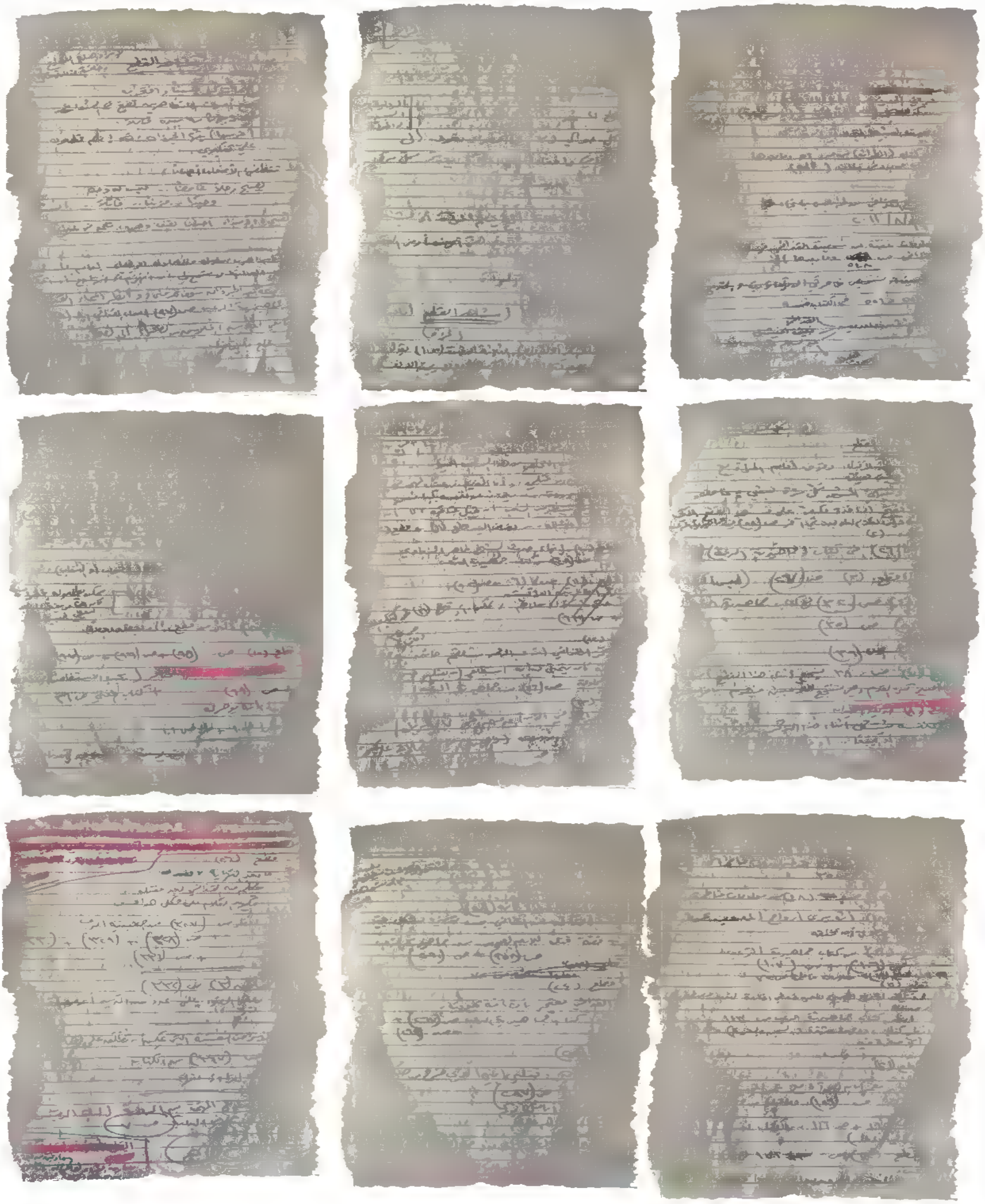

من مسوّدات رواية (طريق جهنّم).

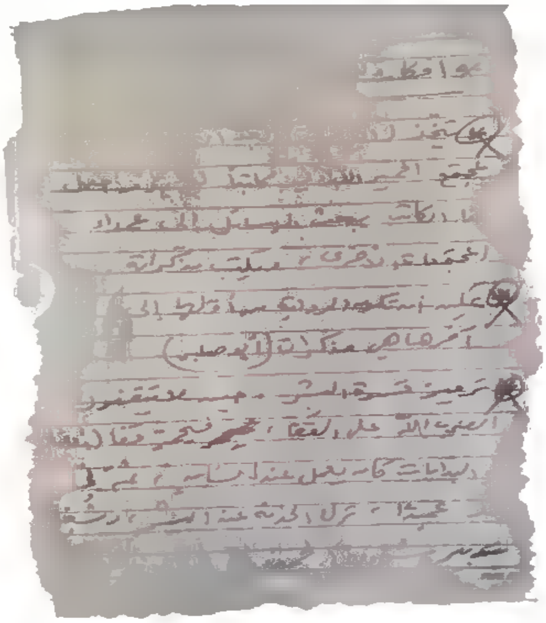
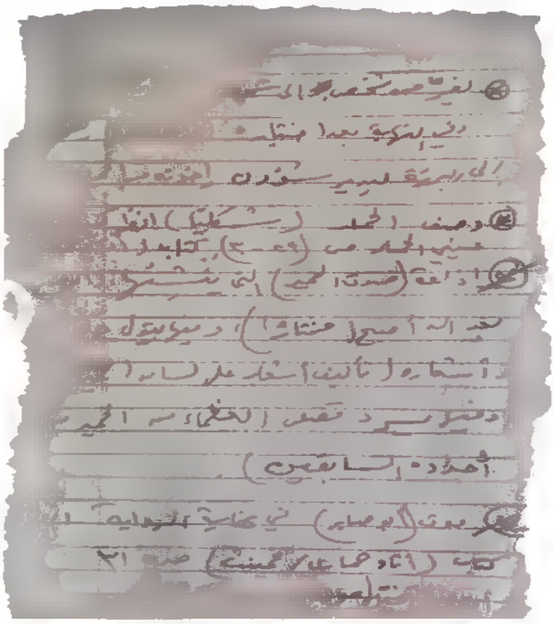
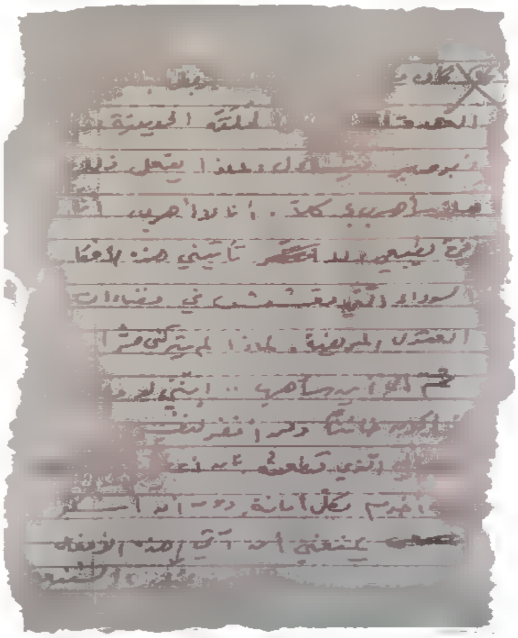
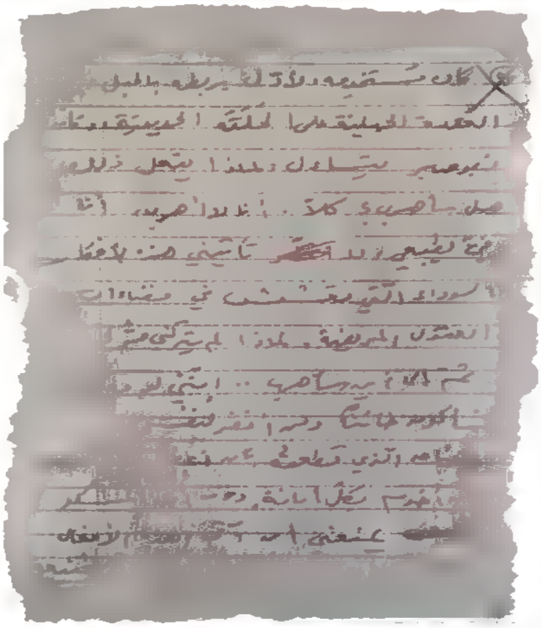
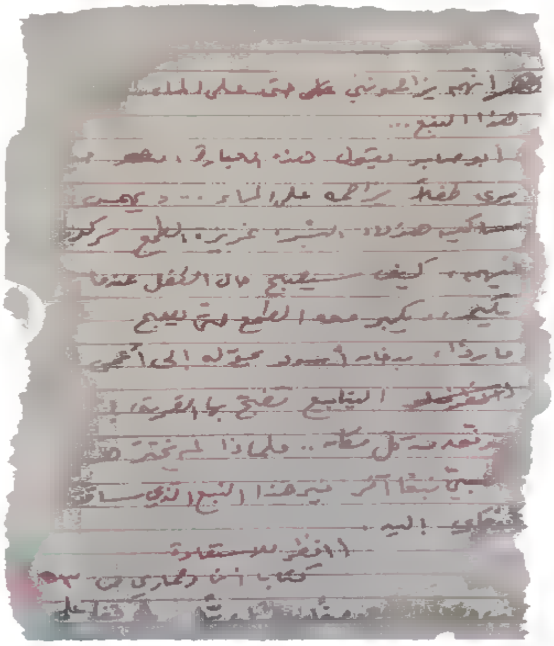
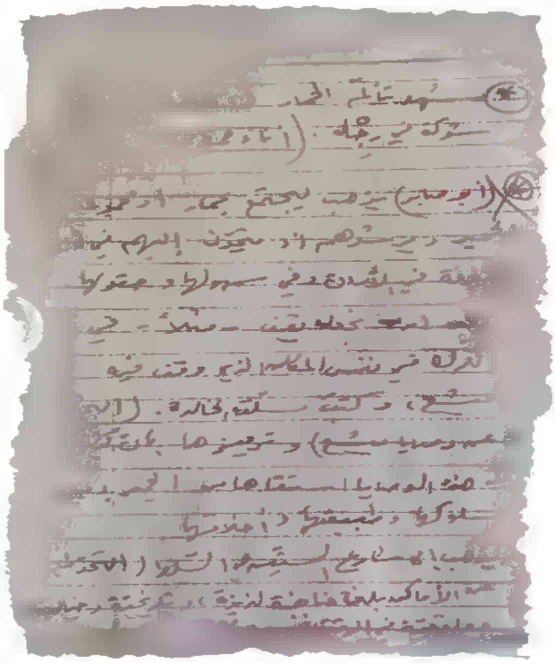

من مُسوّدات رواية (صوت الحمير).

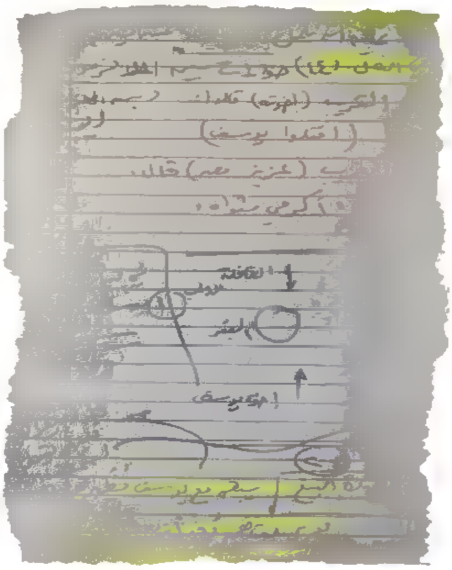
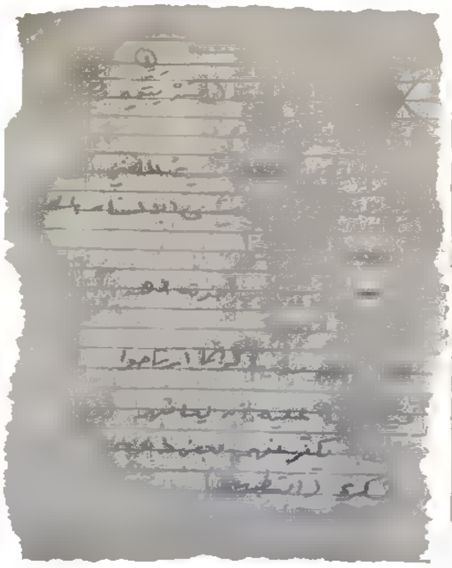
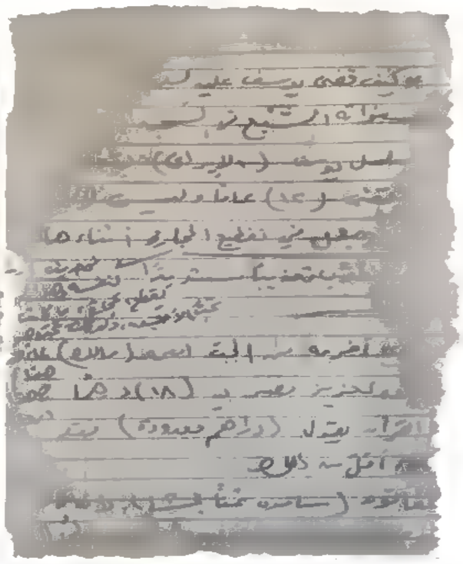
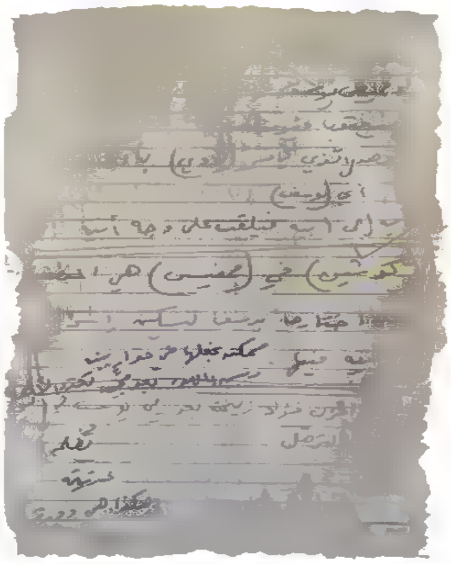
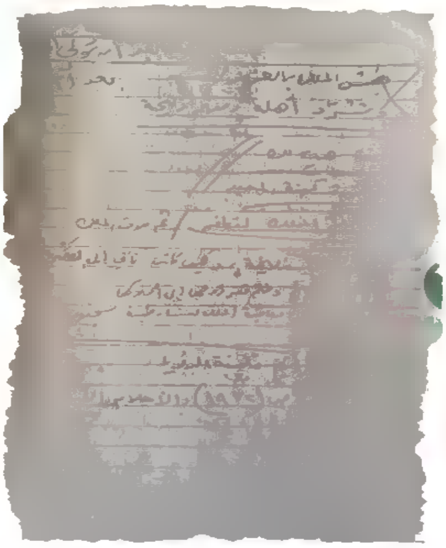
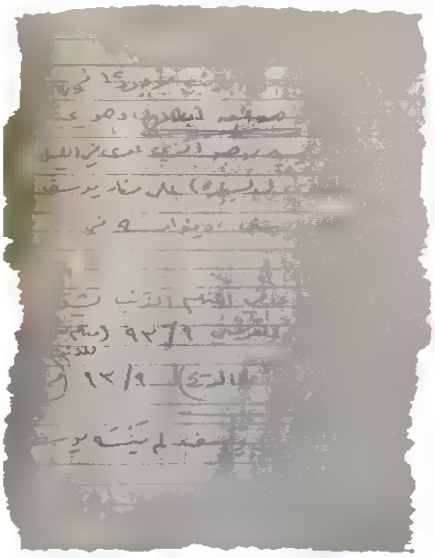
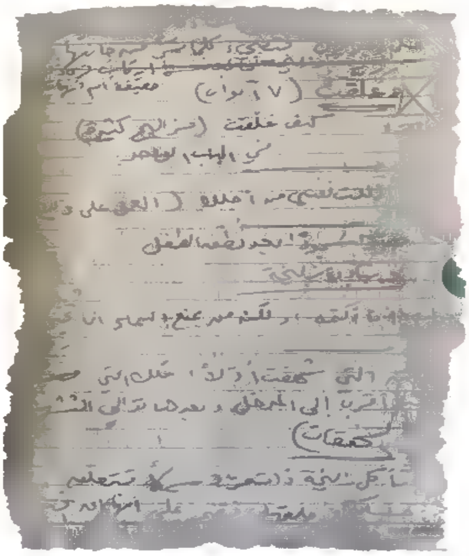

من مسوّدات رواية (أنا يوسف)

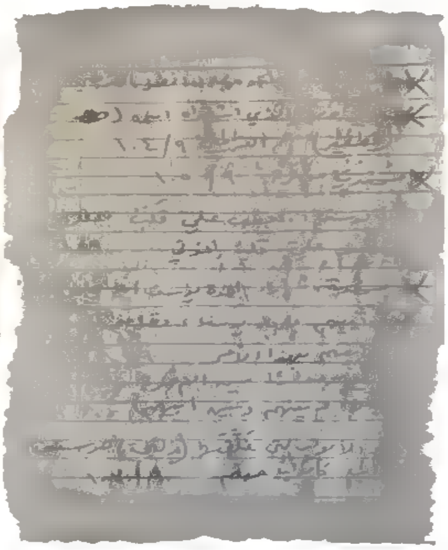

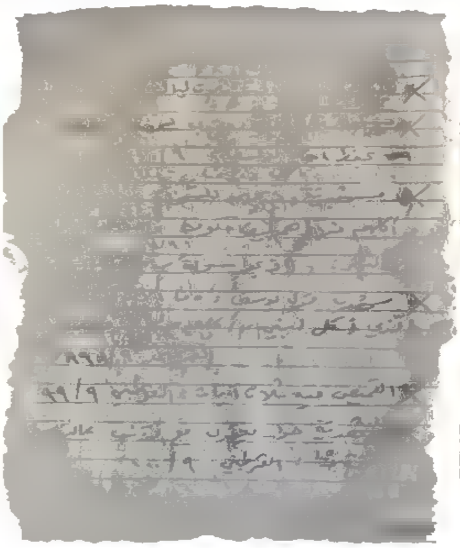

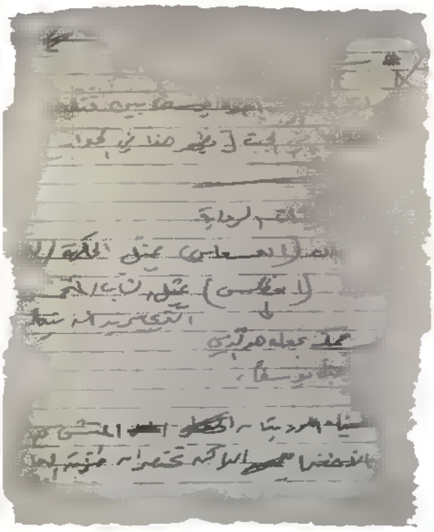

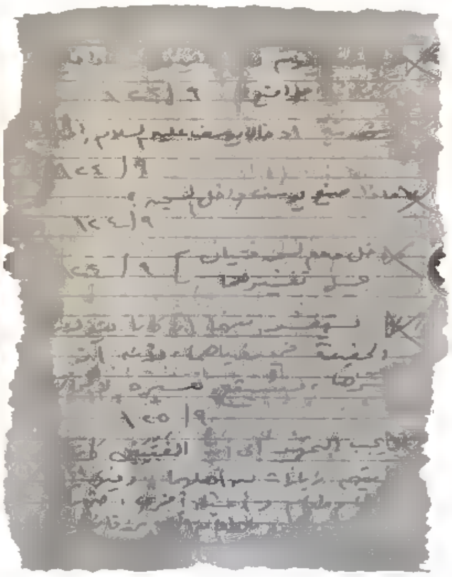

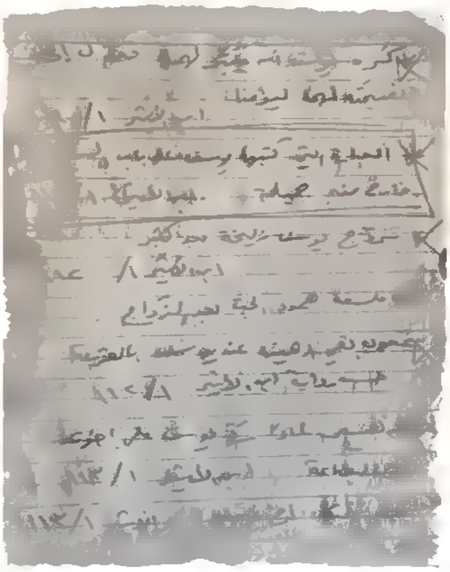

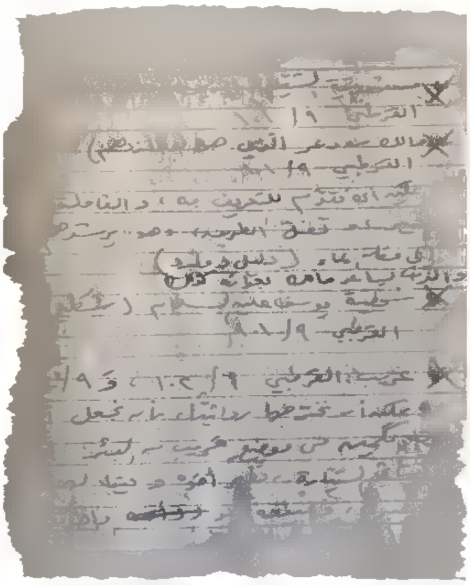

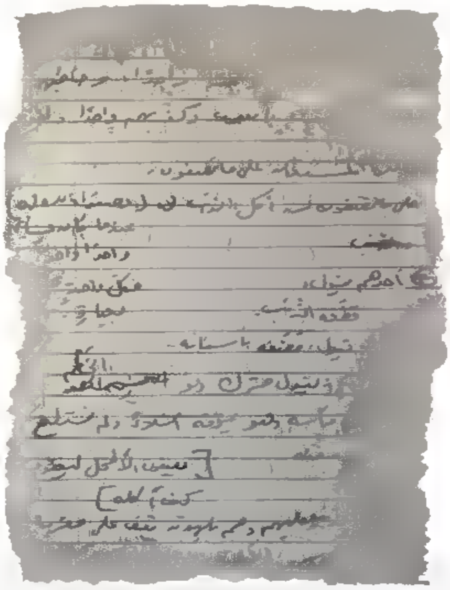

من مسوّدات رواية (أنا يوسف)

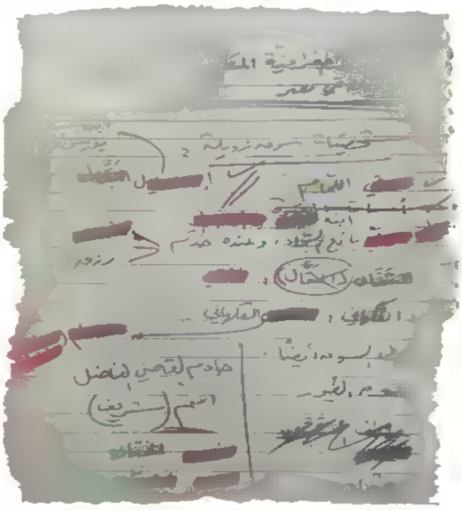

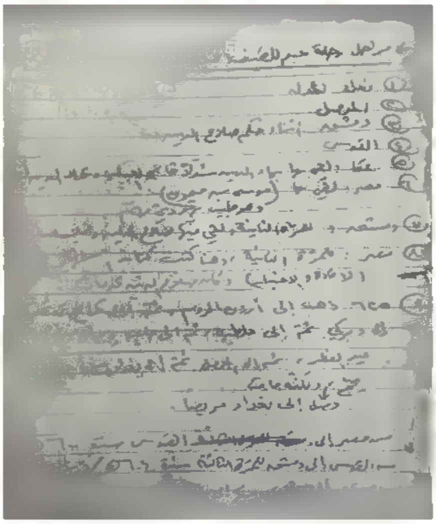

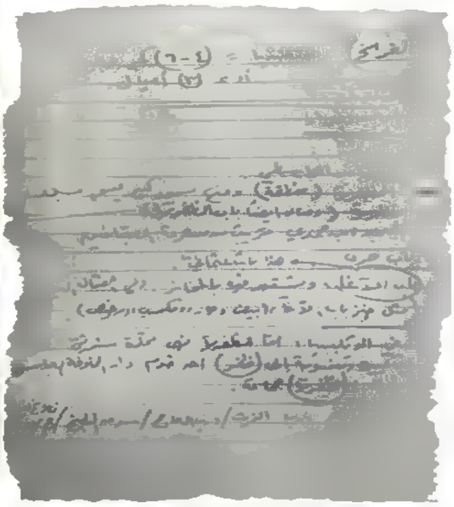

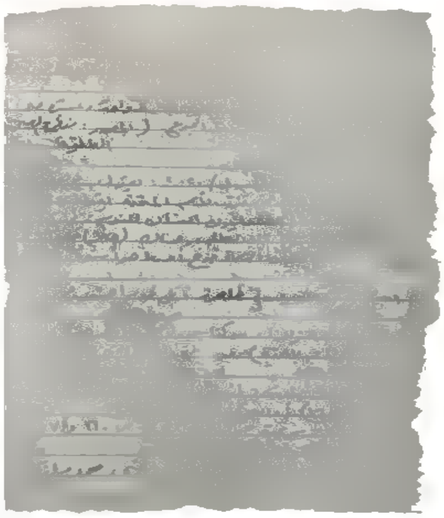

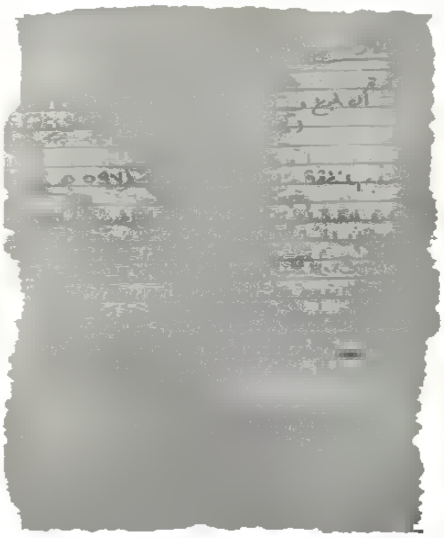

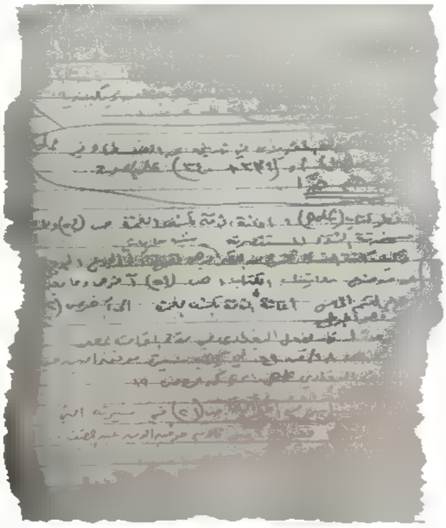

من مُسوّدات
رواية (مسغبة).

تَقنِيَات مُهمّة في كتابة الرّواية:

١. الرّبط الذّكيّ: بين الفصل الأوّل والأخير؛ في الشّعر

يُسمّى ردّ الصّدر على العجز، أو (التّصدير)؛ هنا يُمكن توضيح ذلك من خلال ربط مكانٍ برز في أوّل الرّواية بمكانٍ ظهر في آخرها، إمّا بتغيّر في الشّخوص الّذين حَلّوا في المكان بعدَ مرور هذه السّنوات، أو بحلول الشّخص نفسِه، لكنْ بإظهار فِعْل الأيّام فيه، على سبيل المثال: (أوّل قاعة دخلها وَرْد في رواية حديث الجنود هي آخر قاعة خرج منها أيضًا. في أوّل الرّواية: « رائحة الخشب المُنبعثة من المقاعد المرصوصة على هيئة قوس مُنبعج - وقد لوّحتْها الشّمس - زكمتْ أنفي وأنا أدخل القاعة (201) بعد درجٍ طويل". في آخر الرّواية بعدَ حوالي 400 صفحة: " في آخر شهر مايو كنتُ أدخل القاعة (201) لأؤدّي آخر امتحان. وقفتُ على بابها. عبرتْني صور الماضي. خمس سنين مرّتْ على وقفةٍ مُشابهة أمام هذا الباب؛ كانت هذه القاعة هي أوّل قاعةٍ دخلتُها في الجامعة، وها هي آخر قاعةٍ أدخلها كذلك. هل كنتُ أعرف أنّني سأبدأ بهذه القاعة وأنتهي بها!! ابتسمتُ: كانت البدايات جيّدة أرجو أن تكون النّهايات كذلك".

كذلك الذّئب الّذي ظهر في أوّل رواية (أنا يوسف) هو الّذي ظهر في آخرها، وهو (الأطحل) الّذي بدأ مع الرّواية، وها هو ذِكره يَرِدُ في آخر صفحةٍ في الرّواية: "ووقفَ الأطحل على نَشَزٍ من الأرض، ورأى النّاسَ كأنّهم الغربان يطوفون حول

التّابوت، فعوى حتّى سمعه أهل الأرضُ كلّهم، وصاح: "وا أسفا على يوسف!". وكان ليلاً طويلاً، وعواءً مُستمرًّا لم يتوقّف إلى اليوم!!".

ومِثلُ ذلك يُقال للرّصاصة المحفور عليها حرف (ميم) في رواية (يوم مشهود)، فقد ظلّت خيطًا غامِضًا يربطُ أوّلها بمنتصفها بنهايتها. ومِثلُه (جميل) الطّفل الّذي أغرقَ (حافظ) في أوّل الرّواية، وعادَ ليُزوّجه أخته في آخرها. وعليهِ قِسْ وهو في رواياتي وفي غيرها، ظاهرٌ أتمّ الظّهور لمن رَبَط، وجَمَع الخُيوطَ بعضَها إلى بعض.

2. الإيهام: أهمّ تقنية ولا يُتقنها غير المُتمرّسين. وقد يكون في قِصّة الرّواية الّتي يكتبها في أوّل الرّواية في صفحاتٍ منفصلة أو في آخر الرّواية. وقد يكون في رسالة إلى ابن البطل أو حفيده كما فعل (أنطونيو غالا) في رواية (المخطوط القرمزيّ). وقد يكون اعتبار أيّ توافق بين أحداث الرّواية وشخوصها في الواقع هو محضُ صدفة كما فعل (غازي القُصيبي) في رواية (شُقّة الحرّيّة).

3. تعدّد الأصوات: (تعدّد الضّمائر) لكنْ قد يكون ذلك مَقتلاً؛ فيجب أن يُستَخدَم بذكاء. ومقتلُه يأتي من أنْ تتعدّد

الأصوات ولا تختلف السّمات، بمعنى يُعدّد في الشّخصيّات ولكنّها كما لو أنّها شخصيّة واحدة، وذلك لأنّ واحدةً منها سَكَنَتْهُ ولم يستطع الخروج منها، فظلّ يُكرّرها في بقيّة الشّخصيّات، فتبدو كأنّها مُتشابهة إلى حدّ التّطابق، وهذا من مقاتل الرّواية. إضافةً إلى أنّ الضّمائر قد تختلطُ عليه، فتتداخل، فيتكلّم ضميرٌ لشخصيّة وهو يقصدُ غيرها. الأمر يحتاجُ إلى انتباهٍ دائم، ويقظةٍ وتركيز.

4. القَطْع المكافِئ: ما يُسمّى في البلاغة العربيّة بالالتِفات: فوائد الالتِفات: إثارة الانتِباه بعد أن يكون مجرى الأحداث قد اتّخذ نوعًا من الرّتابة، لأنّ هذا النّوع من الرّتابة قد يسبّب إمّا الملل، وإمّا التّيه والبُعد عن أحداث الرّواية. أتحدّث كشخصيّة تُميل قلبَ القارِئ إليّ، لكنّه بعدَ فترةٍ من حديثي يَملُّه، وعليّ أنْ أعرف متى يُمكن أنْ يحدث ذلك، وحَلُّه يكون بطريقتَين: إمّا أنْ تُغيّر الموضوع الّذي تتحدّث فيه، أو تعملُ قطعًا مُكافِئًا لكَ فتُعطي الكلام لشخصيّة أخرى، وقد تُعطيه لأيّ سبيلٍ يجرّ الحديثَ بعيدًا عنك.

5. مُستوى اللّغة: لكلّ شخصيّة لغة خاصّة: وعلى الرّوائيّ أن يُلمّ بكلّ مستويات اللّغة لشخوصه المُختلِفة. أمّا في السّرد الّذي لا يكون على لِسان الشّخصيّات أنّى كانت هذه

الشّخصيّات، فعلى هذه اللّغة أنْ تبدو جليّة مُمَيِّزةً لصاحبها في حالة الوصف، أو في الحوار الدّاخليّ، أو في تحرّك الأحداث أمامًا أو وراءً.

6. الخَيط النّاظم: أو مُرافقة البطل أو الجسم المَشدود: يشبه ساق الشّجرة، على البصر ألاّ يتحوّل عنه، وتلك هي مهمّة الرّوائيّ القدير. في رواية (الموت عمل شاقّ) لخالد خليفة، كان الخيطُ النّاظم هو الجُثّة الّتي تمرّ في تابوتها عبر نُقاط التّفتيش، والمهمّة كانت إيصالها إلى القرية الّتي وُلِدت بها من أجل دَفْنها هناك، وهي بعيدةٌ عن المكان الّذي ماتت فيه؛ فكلّ الأحداث جرت من حولِ هذه الجُثّة ومن أجلها، لقد كانت الخيطَ النّاظم للرّواية، كذلك في رواية (ثلاث خطوات إلى المشنقة) للكرديّ (جان دوست) تغيّرت الأحداث بالقطع والاستِرجاع، أو بالتذكّر، أو بالمضيّ قدمًا، أحداثٌ كثيرةٌ جرت، ولكنْ ظلّت الخطوات الثّلاث الّتي يصعدها البطل إلى حبل المشنقة هي الخيط النّاظم. في رواية (تسعة عشر) ظلّ الرّقم هو الخيطُ النّاظم، فقد كان هناك تسعة عشر أمرًا في تسعة عشر شيئًا، فمثلاً الرّيشات كانت تسعة عشر، والشّجرات كانت تسعة عشر، والشهوات كانت تسعة عشر، والفلاسفة كانوا تسعة عشر، وطوابق المكتبة كانت تسعة عشر... وهكذا إلى تسعة عشر أمرًا من

هذه الأمور، أضِف إلى ذلك أنّ فصول الرّواية كانت ثمانية وثلاثين فصلاً وهي حاصل ضرب اثنين في تسعة عشر.

7. عنصر المُفاجأة: توجيه نظر القارئ إلى استنتاج صفات مُعيّنة خاصّة بشخصيّة ما، أو توقّع حدث معيّن بناءً على مقدّمات منطقيّة. ثمّ مفاجأة القارئ بعكس ما كان يتوقّع أو يظنّ. جميعُنا ظنّ (جان فالجان) لصًّا بسرقته للرّغيف في رواية (البؤساء) لكنّه تبيّن في النّهاية أنّه " خُلِق ليكون الشّمعةَ الّتي تذوب في سبيل أن يحظى غيرُها بالنّور».

٨. إثارة التّعاطُف: على الرّوائيّ أن يكون قادِرًا على أن يثير في نفس القارئ الحزن والفرح. والغضب والرّضى. والسّلام والحرب. والرّعب والهدوء. والخوف والشّجاعة. والغموض والوضوح. والتّعقيد والبساطة. وهذا فيما يتعلّق – غالبًا – بالشّخصيّات والأمكنة. هل يمكن أن تحاصر قارئك عاطفيًا، هل يمكن أن تصيبه في فؤاده فلا يستطيع أن يحبس دموعه؟ يُمكن أنْ تصنع ذلك بمحاولة استدرار التعاطف مع الشخصية من خلال المبالغة في حالة اللطف لديها أو القسوة. يقولون لي إن قراءة رواياتك إما أن تدخلنا في نوبات بكاء مُتتابعة أو في انهيارات نفسيّة مُتعدّدة؟

أقبلَ عليّ ذاتَ مرّةٍ أحدُهم في معرضِ كتابٍ من المعارض الّتي أحضرُها عادةً، فقال لي: «عليكَ أنْ تدفع الأجور الّتي دفعْناها للطّبيب النّفسيّ». فنظرتُ إليه مستغربًا، ومُستهجِنًا من رجلٍ أراه لأوّل مرّةٍ يُقحم نفسه هذا الإقحام ويطلبُ إضافةً إلى ذلك مالاً هو أجرٌ للطّبيب النّفسيّ الّذي عادَه؟! فقلتُ له: «لم أفهم. هل أعرفك؟». ردّ: «لا يهمّ أنْ تعرفني، إنّما أنا وابن أخي نعرفك. إنّ ابن أختي ذا الأعوام السّتّ عَشْرَةَ عندما قرأ روايتك (يسمعون حسيسها) دخل في نوبةٍ اكتِئابٍ شديدةٍ اضطررنا معها لمراجعة الطّبيب النّفسي على ستّ جلسات حتّى بَرِئَ من الحالة الّتي أدخلتَه فيها بهذه الرّواية». نظرتُ إليه مبتسِمًا: «وما علاقتي أنا بذلك؟». ردّ: «أنا لا اسالكَ عن العلاقة، فقط أريدُ أنْ تدفع لي المئتي دينار الّتي دفعتُها». صمتُّ أنا وهو، ثُمّ انفجر بالضّحك، وضحكتُ معه، قلتُ له: الحقّ عليك، كان واجبًا أنْ تُحذّره إذا كنت تعرفُ حساسيّته. أنا في الحقيقة لا أكتبُ لكي أؤلم قُرّائي، ولا أنْ أُدخِلهم في هذه الحالات النّفسيّة الصّعبة، فهذا ليسَ هدفًا من أهدافي أبدًا، ولكنْ إذا كان الواقع يجرّك إلى هذه المساحة، وتزيينه أو تزييفُه أو تجميلُه خيانة، فلا بُدّ إذًا أنْ نقول الحقّ والحقيقة».

من التّجربة الطّويلة في إثارة التّعاطف، حينَ تكتُب عليكَ

أنْ تعيشَ الحدث، إمّا أنْ تمرّ بتجربةٍ مُشابهة، أو تُدرّب نفسكَ على توسيع الخَيال حتّى يُمكن أنْ تعيشَ تلك التّجربة بكلّ تفاصيلها، وتنقلها من الحروف إلى الواقع.

٩. **الجملة المُكثّفة:** تلك الّتي تصلح حِكمةً أو فلسفةً أو مَثلاً. تكون أحيانًا قفلةً لمشهد، أو نهايةً لِحوار، أو توصيفًا لحالة، أو إجمالاً لموقف.

١٠. **اتركْ قلبَكَ في المِحبرة:** اجعلْ لونَ مِدادِكَ أحمر، ولا يكون ذلك إلاّ إذا كنتَ صادِقًا مع نفسِكَ وصادِقًا فيما تكتب، أعني صِدق التّقمّص والخيال، أهمّ وسيلتَين لرفع درجة حرارة الكلمة، تقمّص الشّخصيّة الّتي تكتبُ عنها سواءً أكانت من البشر أو الشّجر أو الحجر أو الحيوان، ووسّع خيالك بحيث ترصُدُ حركة الهواء قبل أنْ ترصدَ حركة الحَيّ.

١١. **لا تستعجلْ ولا تستجلبْ:** لا تستعجل النّهايات ولا تستجلب طائر الكتابة؛ أي لا تُرغمه على المثول بين يديك، ولكنْ في الوقت نفسه لا تتركه يطير محلّقًا بعيدًا عنك؛ انثُرْ له دائمًا حَبّ الرّضى حتّى يأتيك طائعًا؛ فإنْ أتاك فلا تُضيّعه بالالتِفات إلى سواه.

١٢. استخدمْ أساليب تشويقية: هناك وسائل كثيرة، قلتُ بعضَها في النّقاط السّابقة، أضيفُ إليها على سبيل المثال: أن تنتهي الفصول بأسئلة ليس شرطًا أن يجد القارئ إجابة لها، لكنّها تفتحُ على الفصول اللاّحقة، أو فصلٍ مُعيّن. استخدمتُ هذه التّقنية في رواية (نفر من الجنّ)، فلو نظرتَ إلى نهايات فصولها فستجد هذه الأسئلة: «ما الّذي أصابك يا (سَرْمَد)..!!». «كيف ماتت أمّي يا خالتي؟!». « مِن أينَ جاء هذا الحجر؟!!». « إنّها ثلاث أصابع.. هل ستكون أكثر من ذلك حينَ تكبُر؟!». في نهايات الفصول من الخامس حتّى الثّامني عشر.

١٣. الاهتمام بالتّفاصيل: عبارة (البلاغة في الإيجاز) عبارة صحيحة، قد تصلح للشّعر أو لأيّ نوعٍ من الكتابة، لكنّها قد لا تكون صحيحةً في حالةِ الرّواية أو في الكتابة السّرديّة، فالسّرد بالأساس تطويل، فلا تقلق مِمّن يقول لك: كان يُمكن أنْ تقول الفكرة في سطر، فلماذا قُلتَها في عشرة أسطر؟ قُل لهم: الفكرة في غير هذا الموضع قد يُحيطُ بها سطرٌ، لكنّها في موضعي أنا لا تُحيطُ بها غير عشرة أسطر، ولكلّ مَقامٍ مقال.

لا أريد من الكُتّاب الّذين قد يُنعَتون بكتابة التّفاصيل،

ويصفونها بالمُمِلّة أنْ يقلقوا، وعليهم أنْ يتقبّلوا هذا من القُرّاء أو النُّقّاد على حَدٍّ سواء. فإذا كنتَ تعتقدُ أنّ الأمر يتطلّب التّفاصيل، وأنّ العاطفة المُتوقّدة فيك وفي قلمك لا تخمدُ إلاّ بذكر التّفاصيل فلا تستمعْ لهذه الآراء ولا تتردّدْ في كتابتها. فكُتّاب التّفصيل من الكِبار يصعبُ حصرهم، من ديستويفسكي إلى إبراهيم الكوني مرورًا برضوى عاشور.

١٤. التّعويض باللّغة: قد تكون وسيلةً لقلّة الحدث في فصلٍ ما، أو في موضعٍ ما من مواضع الرّواية، لا بأس من بعضِ (الدّراما) الّتي قد تخرجُ قليلاً عن صلب الموضوع. التعويض باستخدام لغةٍ وصفٍ شاعريّة، الهدف منها ربط ما حدثَ من فجواتٍ صغيرة، أو تسريع بعض الأحداث البطيئة، أو لفتِ الانتِباه إلى جهةٍ معيّنة، فإذا كان لفتُ الانتِباه إلى شخصيّة من شخصيّات الرّواية، فأحسنُ لفتٍ يتمّ هنا هو استِخدام الوصف الشّاعريّ في استِدرار العاطفة تُجاهها.

من التّعويض أيضًا، خَبطةٌ مُفاجِئة على عنق الأحداث لَلَيِّها وإرغامها على السّير إلى منطقةٍ جديدة، تُشبه الاستِراحة الجانبيّة على الطّريق السّريع، تجدُ فيها مساحةً لإلقاء بعضِ الظّلال، أو بعضِ الكلمات المُلهِمة، بطريقةٍ لا يشكّ فيها القارئ أنّها خارج الفكرة أو الموضوع، بل تراه يعتقدُ اعتِقادًا جازِمًا

أنّها في صُلب الموضوع، هل هذه خديعةٌ له؟ سَمِّها ماشِئت.

في رواية (أنا يوسف) استخدمت هذه التقنيات في محاولتي لجعلها مَشُوقة، بعضُ مقاطعها قصيدة مَنثورة، وفلسفة مُتأدّبة.

١٥. الضّربة الخاطفة: تكون حينَ يفعلها الرّوائي لمفاجأة انتِهاء الحدث في الحبكات الصّغيرة، حين يُنهي الأمر بضربةٍ خاطفة ويُسرع إلى الاختِباء خلفَ حَدَثٍ جديدٍ. وقد تكون الضّربة الخاطفة في البداية قبل أنْ تبدأ الأحداث، وذلك بإيراد جملةٍ صادمة كأنّها تقرّر النّهاية من البداية، انظر مثلاً إلى بداية رؤوس الشّياطين: «ماتتْ أُمّه العام الفائت، ودُفِنَتْ في المقبرة الفوقا إلى جانب أخَواتِها السّتّ؛ كانتْ أصغرهنّ، وآخرهنّ موتًا».

١٦. التّفريغ العاطفيّ: أقصدُ به ما يحصل بعد الإنجاز، لعلّه الجائزة بصورةٍ أو بأخرى، بعد أن تنتهي من الكتابة عليك أن تركض لتنفض عنك وَهَجِ الكلمات الّتي عَلِقَتْ بِرُوحِك. لا تَعُدْ للنّصّ أبدًا، إلا قبل أنْ تدفعه للنّشر لتُلقي عليه النّظرة الأخيرة.

سِيرة روائيّة:

مُحاولاتي في كتابة سيرة روائيّةٍ ليست جديدة، منذُ عَشرِ سَنَوات وأنا أُحاول، لم أفعل؛ ربّما لأنني وجدث تعويضًا عن ذلك في بعض سِيَر أبطال رواياتي. على أية حال، النصّ الآتي نموذج لهذه المحاولات، وقد يكون تطبيقًا عمليًّا لبعض التّقنيات الّتي تحدّثث عنها سابِقًا في طريقة الكتابة:

فجأةً مثل مَنْ يستيقظ من حُلمٍ وجدتُني بين أحضان الفاتِنة الأولى جامعة العلوم والتّكنولوجيا الأردنيّة. كان لِزامًا عليّ أنْ أظلّ مُحدّقًا في الفراغ أمامي لكي أتأكّد من أنّني صحوث؛ وقد أضطرّ إلى أن أصرخَ صُراخًا عالِيًا لأسمعني فأعرف أنّني غادرتُ حُلمًا جميلاً للتوّ لكنّني لا أذكر منه شيئًا. حزمتُ أمتعتي، وشيّعتني أمّي بالدّعوات، وعيناها تغرورقان أنّ هذا الولد الانطِوائيّ سيدخل عالَمًا خُيّل إليها أنّه لا يعيشُ فيه غير الوحوش، وأنّ البقاء فيه لِمَنْ يملك عضلاتٍ مفتولةً وقُدرة على المُراغمة والجِدال الطّويل، والّتي لم أكن أملك منها شيئًا. نَدّتْ دمعتان حارّتان من عينَيها، مسحتْهما وهي تُداريهما لكي لا أرى وجهها الملائكيّ الأبيض قد اتّشح بالحُمرة وشابَه بعضُ التّغضينات: «مع السلامة يا ابني... عُدْ إلينا سالِمًا».

تذكّرتُ قول أحمد شوقي: «الأمّهاتُ قلوبهنّ رقيقةٌ». تابعث

السّير وقد اضطربتُ قليلاً من الموقف، وسرحتُ - كعادتي - بعيدًا قبل أن يُعيدني إلى الواقع صوتُ أبي هاتِفًا: «كُنْ قويًّا. تعرف أنّ الطّريق الصّاعدة إلى القمم لا يصمد إلى نهايتها غير الأقوياء».

لم يرافقْني في يومي الجامعيّ الأوّل أحدٌ. شخصٌ ما - عرفتُ فيما بعد أنّه صار وزيرًا - استقبلني مع مجموعةٍ أخرى نَشِطة على البوّابة الرّئيسيّة، كان بعضهم يقف وفي يديه عددٌ من المنشورات، لم أكلّفْ نفسي عناء النّظر فيها، وآخرون كانوا يجلسون إلى مقاعد متراصّة تحت أشعّة الشّمس دون أيّ وقاية، وكانوا ينحنون على أوراقٍ وينهمكون في كتابة بعض البيانات عليها. تجاوزتُ الّذي صار وزيرًا فيما بعد، وأخذتُ أمشي في عالَمي الجديد، الّذي بدا قِطعةً أخرى من أرضٍ مجهولة تتعرّف إليها قدمايَ للتّو.

كانت كلّ البنايات مُتشابِهة، والدّخول إلى إحداها يُشبِه الدّخول إلى سِواها، صفائح جداريّة خرسانيّة صفراء بلون الصّحراء تنتصب أمامكَ كقدرٍ على الوشكِ الاصطِدام به دون أن تملكَ القُدرةَ على الإفلاتِ منه. مشيتُ مع تيّارٍ من النّاس قالوا إنّه يمضي إلى قاعات التّسجيل، انخرطتُ فيهم مُهطِعين إلى غاياتهم، وسرعان ما اكتشفتُ أنّني ذُبتُ

بسلاسةٍ في القطيع. منذ ذلك اليوم صارت فِكرة القطيع تبرز لي في كلّ عملٍ أكتبه، على الأغلب احتلّت هذه الفكرة أكثر من ثلاث روايات من رواياتي حتّى الآن. مشى القطيع على هُدى الأوّل الّذي كان يُمكن أن يضلّ طريقه بسهولة لولا أنّ (المرياع) وهو الكبش الأقدم كان يمشي معه في المقدّمة.

في القاعة ذات البهو العالي والفسيح، بدا أنّ يومَ تطاير الصّحف مُصغّرًا قد أُحضِرَ إلى هناك، فالعشرات إنْ لم يكن المئات يتحرّكون بطريقةٍ عشوائيّة يُسارِعون بالانتِقال من مكانٍ إلى آخر تغرقُ عيونهم في اللّهفة والحيرة وهم يُحاولون التِقاط مادّة من هنا أو مادّة من هناك لِيُثبِتوها في صحيفة أعمالهم أعني في جدولهم الدّراسيّ. كان الأمر شاقًّا بالفعل، اضطُرِرتُ هناك لألجأ إلى ذوي الجُذُر العالِية، والّذين يملكون في رصيدهم سنواتٍ سابِقة من الخبرة في المرور بموقفٍ مشابِهٍ؛ إنْ لم يكنْ هو الموقف ذاته.

طقطقت آلةُ الطّباعة القديمة الّتي يستقرّ على جانبيها شريطٌ دائريّ بلاستيكيّ ذو دبابيس تُحكم وُلُوجَها في ثقوب كثيرةٍ على جانِبَي الأوراق ذوات الخطوط والخلفيّات الخضراء، ودارت دورةً كامِلةً، ليمدّ موظّف التّسجيل يده بطريقةٍ آلية دون أن ينظر إلى الطّابعة، ثمّ يقطعها من الجزء

المُخصّص للقطع، وينظر إليها نظرةً خاطِفة ويهتف كذلك بصوتٍ آليّ: أيمن علي... ثمّ يمدّها باتّجاه الصّوت الذي قال له: نعم.

أخذني لؤيّ إلى الكافتيريا، كانت مليئة بالغِزلان، بعضُها كانت تجثو في مرابضها ترتاح من عناء يومٍ تسجيليّ شاقّ، تتنهّد... تأخذُ نَفَسًا من طول عناء... وبعضها الآخر راحت تدور ببلاهةٍ تبحث عن شرابٍ باردٍ تُطفِئ به حرّ ذلك اليوم الصّيفيّ من أواخر شهر آب. أمّا أنا فاتّبعتُ عادتي الّتي لم أغيّرْها منذُ كنتُ طِفلاً؛ رحتُ أتأمّل كلّ شيء، وأنسِجُ بخيالي كثيرًا من القصص والحكايا لأرويها... لكنّني توقّفتُ في مُنتصَف شرُودي لأسأل: ولكنْ لِمَنْ سأرويها؟!

في المساء بُعَيدَ العصر كان عليّ أن أنساح في حَواري مجمّع الشّيخ خليل وأزقّته أبحثُ عن مأوى، لم يكنْ من السّهل أن تجد غرفةً تحنو على بقاياك المُنهكة في ذلك اليوم، بل في ذلك العامِ بأكمله. ذهبتْ محاولاتي كلّها أدراجَ الرّياح. لم أتركْ عمارةً إلاّ وطرقتُ أبوابها مثل شحّاد، لكنّ أحدًا لم يُعطِني شيئًا والأدهى أنّه لم يتبرّعْ بإرشادي إلى مكانٍ أجدُ فيه سكنًا طُلاّبيًّا يقيني مغبّة أن أبيتَ ذلك اليوم في الشّارع. شابٌّ واحدٌ فقط لم أفهمْ عليه كثيرًا وهو يرطن – تبيّنَ لي

أنّه يمنيّ وصار فيما بعدُ من أعزّ أصدقائي - دلّني على شارع الجامعة.

طُفتُ الشّارع الّذي يبدأ من دوّار وصفي التّلّ في جذره الشّماليّ، صعودًا إلى دُوّار الإسكان مرورًا بدوّار الجامعة وانتِهاءً بدوّار النّسيم في جذره الجنوبيّ. كان الشّارع أبله هو الآخَر، لم يُعطِني أيّ دَفْعةٍ لتشجيعي في البحث من أيّ نوعٍ. لكنّ الحاجة للرّاحة الّتي بدأ وزني الثّقيل يطرق بها مسامعي قد ألحّث عليّ أن أتابع البحث. في منتصف الصّعود نحو الجنوب صاحَ بي أحد القابِعين خلفَ طاولةٍ مستطيلةٍ عتيقةٍ داخل دُكّانه القديمة: هناك شقّة، من هنا... وقبل أن يُكمل دار من خلف طاولته، وتابعَ معي وهو يضع يده اليُسرى على كَتِفيّ وباليُمنى يُشير إلى موقع الشّقة. كانت الشّقة تبعد حوالي ٣٠٠ متر في شارعٍ فرعيّ يمتدّ من شارع إيدون باتّجاه الغرب.

قال لي صاحِبها: (٧٥) دينارًا في الشّهر، ثلاثُ غرف وحمامّان ومطبخ، وتستطيع أن تختار أصدقاءَكَ الّذين يسكنون معك على ألاّ يزيدوا عن خمسة. الخبيث كان يحسبُ كلّ شيء، في الأسبوع الّذي تلا سكَني طلبَ منّي عشراتُ الطُّلاّب أن يُشارِكوني الشّقّة فاعتذرتُ، وبدل أن

يدفع الواحد ١٥ دينارًا، تكلّفتُ وحدي المبلغ كامِلاً، لأنّني أعرف أنّ مزاجي لا يُعجِبُ أحدًا، وطريقتي في الحياة لا تتّفق مع أحدٍ، وبدل أن أخسَرَ في كلّ يومٍ صديقًا، قرّرتُ أن أدفع ٦٠ دينارًا أخرى بدل هذه الخسارات، وكسبتُ في النّهاية نفسي.

في عطلة نهاية الأسبوع عُدتُ إلى قريتي الّتي فيها نشأتُ (سُوف)؛ أتريدون أن أحدّثكم عن سوف؛ إنّها تحتاج – على الحقيقة – إلى رواية كامِلة من أجل أن أفِيَها حَقّها، لكنْ لا بأس من الاختِصار. سوف فتاةٌ وُلِدَتْ قبل أكثر من ثلاثة آلاف سنة وما زالتْ في العشرين؛ هل أعجبكم هذا الوصف؟! قد يكون أزعجَ بعضكم؛ دعوني أُعِدِ المحاولة مرّة أخرى: ساحِرةٌ في اللّيل، وادِعةٌ في النّهار، صافِيةُ القلب كأنّ أرضَها سماء، عقدتْ صداقةً أبديّةً مع النّجوم، فهي لا تُفارقها حتّى في الضَّحوات الصّيفيّة، واتّخذتْ من الماء شِريانًا لها فينابيعها ثرثارة التّدفّق تروي كلّ شيءٍ في الوادي، وتُنبِتُ السّحر من كلّ لونٍ بهيج، وفي الشّتاء تُصرّ على أن تلبسَ طاقِيّتها البيضاء لأشهرٍ طويلة. أظنّ أنّ هذا الوصف أدقّ قليلاً خرج عن العموميّات، وسامِحوني إنْ لم يُعجِبْ بعضَكم.

من سُوف حملتُ في (بكب) الأمتعةَ الّتي تركها أهلي في

بيتهم الرّيفيّ الصّغير، وانطلقتُ بها إلى إربد في حيّ القصيلة حيثُ أسكن. وهناك رمَيْتُها في غرفة الجلوس فتكوّمت مثل جبل في منتصف الغرفة، ظلّ هذا الجبل بعد ذلك شهرين حتّى ذاب؛ كنتُ آخذُ منه ما يهمّني لأقضي فيه حاجةً مُستعجَلة؛ في البداية أخذتُ فرشةً واحدةً مع أغطيتها وركنتُها في غرفة النّوم القصيّة حيثُ أهجع في آخر اللّيل... وحينَ جاء أحد أصدقائي الّذين درسوا معي الإعداديّة للمبيت معي في الشّقّة، اضطُرِرتُ لأسحب فرشةَ جديدةً من الجبل المُتكوّم وأركنَها في غرفةٍ أخرى لينام عليها، وقبلَ النّوم اضطُررنا معًا للبحثِ عن بعض أدوات المطبخ لنصنع (قلاّية بندورة)... وهكذا... ظلّ الجبل يصغر يومًا بعد يوم بحسب الحاجة إلى أن ذابَ تمامًا، واستغرق ذوبانه التّدريجيّ هذا ما يقرب من شَهرَين!!

في نهاية الفصل الأوّل ظهرت مواهبي الكيميائيّة عند إعلان النّتائج، كانت العلامات تُوضَع على لوحة إعلانات خشبيّة ذات حوافّ من الألمنيوم، وكان بإمكان الطّالب أن يعرف النّتيجة من خلال رقمه الجامعيّ، بالطّبع كانت أوّل صدمة لي حيثُ أظهرت النّتيجة رُسوبي الشّنيع في المادّة. لن أقول ما السّبب على وجه الدّقّة في هذا الرّسوب الّذي لَطَمني على وجهي بعد أنْ كنتُ متفوّقًا في التّوجيهي

وحصلت على معدّل قريبٍ من الـ (٩٥). لن أقول إنّه المتنبّي الّذي رافقني كتابًا وشعرًا وهلوسةً في كلّ مراحل حياتي الجامعيّة، ولن أبالغ إنْ قلتُ إنّه ما زال يرافقني بشكلٍ هستيريّ إلى اليوم. ولن أقول إنّها كتب الأدب الّتي كانت تتفوّق على كتب الهندسة كلّما أراد زائرٌ أن يُلقِيَ نظرةً على مكتبي القابع في زاويةٍ مهملةٍ من غرفتي البائسة. ولن يقول هو عالَمي الخاصّ الهائم والخياليّ والّذي يختلف عن (الهِيكسان) و(الدّيكسان) والمعادلات الكيميائيّة الجامِدة الّتي تحوّلك إلى مادّة زئبقيّة لا تعرف على أيّ أرضٍ ستستقرّ!!!

المهمّ ليسَ الصّدمة بحدّ ذاتها؛ المهمّ ابتِلاع الصّدمة. كان يُمكن للخيال المطّاطيّ الّذي أمتلكه أن يجعل هذه الصّدمة تغوص عميقًا في تلك التّلافيف دون أن تُحدِثَ ضجّة ولا ضوضاء ويمرّ الأمر بسلام لولا أنّ صدمةً أثقل من سابِقتها رَطَمتْ جُمجمتي سريعًا حينَ اكتشفتُ أنّ مادّة الفيزياء أيضًا أبث أن تصعدَ معي بكلّ جاذبيّتها الثقيلة إلى الأعلى حيثُ النّجاح بل آثرت أن تغوص إلى القاع العميق وترسُبَ هناك في مستنقع الإخفاق. وبهذا أكون قد حملتُ نصفَ الفصل ونجحتُ في نِصفه الآخَر.

المشكلة لم تقف عند هذا الحدّ؛ هناك مَنْ ينتظر النّتيجة ويترقّبها مثل ترقّب القِطار الّذي يمرّ بالقرية في العام الواحد مرّة أو مرّتين ليحملهم إلى عالَم الأحلام والجنّة المُشتَهاة حيثُ المدينة الّتي تضمّ كلّ عجيبةٍ. انتظر الأهل القِطار فلم يمرّ، طال انتظارهم ولم يسمعوا حتّى صافِرته، في النّهاية، أمسكتُ أنا الصّافرةَ بيدي ومن بعيد حيثُ يقف القِطار دون أن يتزحزح مترًا واحِدًا أسمعتهم صافرةَ الإنذار أو قل صافرةَ الإخفاق.

الإخفاق ذاكرة وليس واقِعًا. حينَ يتحوّل إلى ذاكرة تُسيطر عليك فاعلمْ أنّك أخفقتَ على الحقيقة حينها. ولكنّك إذا حاربتَ الذّاكرةَ السّيّئة بالإنجاز، بالإرادة، بالجلوسِ إلى نفسِكَ ومحادثتها، ومعرفة ما تريد، وتسليط الضّوء على مُنجَزاتها السّابقة لكي تُبصرَ طريقكَ القادمة فاعلم أنّكَ لن تفشل. وهذه هي الاستراتيجيّة الّتي اتّبعتُها لأنجح في كلّ أمور حياتي فيما بعد، وقد نجحتُ، وأريدكم أيضًا أن تنجحوا بإذن الله.

أيّها الأصدقاء الرّائعون لا تذهبوا بعيدًا لديّ الكثير من الأفكار لأخبركم بها، ولأشارِككم مُرّها وحُلوها، ولكنّني مُضطرٌ لأنْ أغادر قليلاً من أجل أن أجمع هذه الأفكار في

باقةٍ جميلة، ثمّ أعود بها وأقدّمها إليكم وهي تضجّ بالجَمال!!.

في نهاية السّنة الرّابعة ألقيتُ قصيدةً: (السّلم للأجيال) أمام ما يقرب من ألف طالبٍ في مدرج الكلّيّات الطّبّية وبحضور عدد من الأساتذة والعُمداء، كان ذلك صيف عام ١٩٩٤؛ تسبّبت القصيدةُ بفصلي من الجامعة فَصلَين وإلغاء ساعاتي الصّيفيّة. كان عليّ أن أجلس في البيت، لم أنتظرْ لحظةً واحِدةً لكي أندبَ حظّي، وألعن الظُّلم؛ فكّرتُ أنْ أُضيءَ قلبي وأمشي في الظّلام، وهكذا كان. قرأتُ في ستّة أشهر حوالي أربعين كتابًا؛ بالطّبع كانت رياضة القراءة عندي لم تكتمل تمامًا، لكنّ الأكثر نجاعة كان الكتابة. قصائدي حتّى ذلك التّاريخ كانت تزيد عن ٣٠٠ قصيدة، اشتريتُ لها ورقًا مُسَطّرًا مُوحّدًا وكتبتُها بخطّ أسود سائل من قلمٍ شهيرٍ آنذاك من نوع (Pilot) واجتهدتُ أن يكونَ خطّي جميلاً وأنيقًا. وهكذا حوّلتُ الأشهر السّتّة الّتي كان يُمكن أن تكون سوداء بالكامِل إلى بيضاء كأنّها النّهار الضّاحي. وفي هذه الفترة بالذّات حاولتُ أن أبتعدَ عن الأصدقاء والأهل لأخلو بنفسي وأستطيع أن أعرفَ ما أريد؛ ومن أجل ذلك سكنتُ في شُقّة مع أحد أصدقائي التّاريخيّين وغادرتُ أهلي مع أنّهم كانوا في المدينة نفسِها إربد.

في السّنة الخامسة من دراستي للهندسة دُعيتُ لألقي قصيدة في قلعة عجلون على هامش مؤتمر نظّمته نقابة أطبّاء الأسنان آنذاك، كان ذلك في تمّوز على ما أذكر من عام 1996، تسبّبت تلك القصيدة من جديد في اعتِقالي واحتجاز كلّ ما كتبتُ، ومصادرة كلّ ورقة حُرِّرت بخطّ يدي، وقُيّدتُ بالزّرد وساقوني إلى محكمة أمن الدّولة، حكمت عليّ المحكمة العسكريّة بسنة ثمّ خفّفتْها إلى ثمانية أشهر، وعلى عادتي في الاستِفادة من كلّ ظرف، لم أشكُ الزّمان الّذي يُحارَب فيه مُبدِعٌ مثلي كما كنتُ آمُل، ولكنّني بحثتُ عن ضوءٍ في نهاية النّفق كما يقولون. في السّجن انفتح لي عالَمٌ آخر كأنّ الله هيّأني لأكون فيه، وهناك سطّرتُ قصائدي في ديوان نشرتُه فيما بعد تحت عنوان: "نبوءات الجائعين"، ورويتُ تجربتي بشكلٍ مُوسّع في رواية: "يا صاحِبَي السّجن". اليوم إنْ كان من نصيحة أنصحُ بها زُملائي: كُنْ أنتَ ولا تُكنْ سِواك، أكثرُنا سِوانا؛ تُشكّله آراءُ النّاسِ عنه، أو تُصادره العَقَبات والهموم. واعلم أنّ العقبات إنّما وُجِدَت لكي تتجاوزها وتتغلّب عليها، لا لكي تقف أمامها عاجِزًا، وإنّ لذّة الانتِصار بتخطّيها تساوي لذّة النّجاح كلّه، بدل أن تجلس واضِعًا يدكَ على خدّك، منزويًا في قاع العَقَبة، مثل بائسٍ في قعر صخرةٍ نهشه ذئب الأسى ولم يجد لجراحه حتّى مَنْ يَلعَقُها.

خرجتُ من السّجن أبيًّا عزيزًا، مثل رمحٍ لم ينكسر، ومثل ساريةٍ لم تنحنِ، ومثل منارةٍ لم تنطفئ... التّجربة قوّتْني وأمدّتْني بالثّور. والقراءة زادتْ من وعيي. أحد الأشياء المهمّة الّتي زادتْ من ثباتي بعد لُطف الله في السّجن هي القراءة والحِوار مع الآخرين، والتّأمّل، وقلتُ ذلك في روايتي الّتي تتحدّث عن حقبة السّجن: لقد قرأتُ في ثمانية أشهر داخل السّجن ما لم أقرأه في ثماني سنواتٍ خارجه.

كان عليّ أن أكمِلَ الفصل الأخير بعد خروجي من السّجن في الهندسة، وأبدأ الفصل الأوّل في اللّغة العربيّة. والعربيّة قصّة تطول، ورواية يصعب المرور بها فحسب، عند العربيّة قِفْ بإجلال، وانحنِ لعظمةِ الحرف الخالد فيها. ولو قُدّر لي فيما بعد فسأقول تجربتي مع هذه المعشوقة السّاحرة بما يشفي الغليل إن شاء الله.

خرجتُ إلى سوق العمل مُهندِسًا، كان عليّ أن أعمل لأمرين: الأوّل أن أقي أهلي مؤونة الإنفاق عليّ بعد كلّ الّذي فعلوه من أجلي، وصبرهم الطّويل على ما مرّ بي. والثّاني كان عليّ أن أدفعَ نفقات دراستي في جامعة اليرموك طالِبًا في كلّيّة الآداب في قسم اللّغة العربيّة. عُيّنتُ مُهندِسًا تنفيذيًّا براتبٍ

شهريّ مقداره (130) دينارًا، في شركةٍ هندسيّة في إربد كانت قد حَظِيَت بعطاءاتٍ من وزارة التّربية والتّعليم الأردنيّة لبناء مدارس تابعةٍ لها. كان عليّ أن أصحوَ في الصّباح الباكر أقف على ناصية الشّارع الرّئيسيّ القريب من بيتنا في إربد لأستقلّ الباص إلى مجمّع الأغوار، ومن هناك أركب الباص الّذي سيُقلّني إلى موقع إنشاء المدارس في قرية (سُوم). وفي السّاعة الحاديةَ عشرةَ بعد أن أطمئنّ على سَير العمل، كان عليّ أن أغادر الموقع عائِدًا إلى إربد من أجل اللّحاق بمحاضراتي في جامعة اليرموك. كان الأمر شاقًّا على الحقيقة ولكنّه كان مُمتِعًا لأنّ البداية مع الحديد والإسمنت الّذي يُقسّي القلب والنّهاية مع العربيّة الّتي ترقّقه وتُعيد إليه الحياةَ بعدَ الموت.

في سنتَين كنتُ قد أنهيتُ دراسة العربيّة وحصلتُ على المركز الأوّل على جميع كلّيّات الجامِعة. وكان ذلك يومَ فراق الهندسة؛ إذ بعدها عملتُ معلّمًا للّغة العربيّة إلى اليوم.

وها أنا كاتِبٌ أحاطتْني بالعناية آيةُ الله في قوله: "وعَلَّمَكَ ما لم تكُنْ تعلَم، وكان فضلُ الله عليكَ عظيمًا".

الفصل الثّامن
النَّشر

"كان أبو أيّوب سُليمان بن داوود الشّاذَكوني من الحُفّاظ الكِبار، وتُوفّي في أصبهان سنة 234 ه، رُئِيَ بعد موته في النّوم، فقيلَ له: ما فعلَ الله بك؟ قال: غَفَر لي، فقيل: بماذا؟ قال: كنتُ في طريق أصبهان، فأخذني المَطَر، وكان معي كُتُب، ولم أكنْ تحتَ سقفٍ أو شيء، فانكببتُ على كُتُبي حتّى أصبحتُ وهَدَأ المطر، فغفر الله لي بذلك في آخَرين".

من كتاب (فتح المُغيث بشرح ألفيّة الحديث)، للحافظ السّخاويّ

تمهيد:

في عام 2012 نشرتُ أوّل رواية لي، وهي رواية (يا صاحبي السّجن)، لم يكنْ أحدٌ يعرفني على وجه الأرض بأنّني روائيّ، حتّى أقرب الأصدقاء، بل وعائلتي لم تكنْ

تعرفُ ذلك، كنتُ قد حظيتُ ببعض الانتِشار المحدود لشِعري، وكان سَجني الأوّل بسبب قصيدةٍ قد ساهمَ في انتِشار شِعري قليلاً، ولكنْ أنْ يُقال إنّني روائيّ، فذلك ما لم يكنْ يُصدّقه أحدٌ. وإذًا فإنّ نشر رواية، وهي الأُولى، يُعدّ مغامرة غير محسوبة النّتائج، وتبدو مُحاولة يائِسة، من باب رَفْع العتب، أنّني أضفتُ إلى كوني شاعرًا صفةً جديدةً بدخولي عالَم الرّواية، ولو برواية واحدةٍ. لا أحدَ آنئذٍ، ولا حتّى قلبي كان قادِرًا على التّنبؤ بالمآلات، ستُباع منها عشر نُسَخٍ على الأكثر كما قال أوّل ناشِرٍ توجّهتُ إليه، وإذا كنتُ محظوظًا، فإنّ عشر نُسخٍ أخرى سيقبلها الأصدقاء على شكل هدايا، أمّا ما تبقّى من الطّبعة الأولى وهي ألفُ نسخة، قبل أنْ تُصبِحَ فيما بعدُ ألفَي نُسخة فإنّه سيتعفّن في المخازن، وستأكلها دابّة الأرض كما أكلتْ مِنسأةَ سُليمان عليه السّلام.

اتّصل بي النّاشر وقال لي على الهاتف: "إنّ روايتك قد صدرتْ، وقد وصلتْ إلى مكاتبنا، ويُمكنك أنْ تأتي لتأخذَ نُسخَك منها". طار قلبي من الفرحة، إنّها فرحةُ أوّل مولود، كنتُ في المدرسة في فترة التّدريس، ما إنْ أنهيتُ الدّوام حتّى ركبتُ سيّارتي وطرتُ بها إلى دار النّشر، وكدتُ أصطدم بعشرات السّيّارات في الطّريق، وأقع في ألفِ حادث، لم أكنْ مُسيطرًا على مشاعري، كانتْ مزيجًا من الفرحة والخوفِ

معًا، وكان هذان الشّعوران مثل موجتَين تتصارَعان، تطغى مَوجةُ الفرح على الخوف فينزوي في زاوية من قلبي، ثُمّ يبدأ مَدّ الخوف، ويتعالَى، ويهدُر هدير البحر الهائج، وتطغى موجته على الفرح، فينثقب القلب في زاويةٍ منه، ويجفّ ريقُ الحلق، وأدوس على الكوابح لأتفادَى حادِثًا جديدًا.

المهمّ وصلتُ بشقّ الأنفس، كانت الطّريق لا تبعدُ أكثر من (5) كم، ولكنّني شعرتُ أنّها خمسون لصخب الأمواج المُتدافعة في داخلي. كيفَ يُمكن أنْ يكونَ الشّعور بالطّفل الأوّل الجميل البهيّ الهادِئ الرّائع بعدَ أربعين عامًا من الانتِظار وأنتَ تحضُنه بين يديك، هذا تقريبًا كان شعوري وأنا أنظر إلى غلاف روايتي الأولى. حاولتُ أنْ أحتفظَ برباطة جأشي، وأبدو هادِئًا، ولكنْ هيهات. حمّلتُ نصيبي من الرّواية في سيّارتي في الصّندوق الخلفيّ، وأخذتُ نسخةً منها وضعتُها إلى جانبي على الكرسيّ الّذي بجواري، وطَوال الطّريق لم أرفعْ نَظَري عنها، وأنا أنظر إليها بعين الإعجاب، وأتملّى نعومة غلافِها وزُرقتَه الهادِئة، وحينَ أقفُ عند الإشارة الضّوئيّة، أتناولُها وأقلّب صَفَحاتِها، وأَشمُّ رائحة أوراقها، وأتخيّل فرحةَ زهراء معي حينَ أصلُ إلى البيت.

استقبلتْ معي زهراء هذا المولود الأنيق بفرحةٍ تُوازي

فرحتي، كانت هذه أولى الخُطوات الّتي تقول بصمت: "استمرّ". مع أنّ موجة الخوف كانت إذا طغت على أختها تنوحُ قائلةً: "ألفُ نُسخة.... يا ويلتاه... مَنْ سيشتريها؟!".

في الحقيقة ليس هذا غرضي من هذا التّمهيد لهذا الفصل، غرضي أنّ أقول إنّني آمنت بما كتبت، ولِذا فإنّ الانتِشار يأتي بعدَ الإيمان، وبعدَ الإيمان يأتي بالعمل لا بالتمنّي، بالطّبع أنا أعيشُ الإيمان منذ أوّل حرفٍ خَطَطْتُه على الورق، بقي العمل؛ فما العمل؟ تذكّرت ما قرأت في سيرة الحبيب من أنّه كان يعرضُ نفسَه على القبائل وهو يدعوهم إلى دينه، فقلت أعرضُ نفسي على المكتبات، لن تطرق المكتبات باب بيتي وتقول لي: "إنّ عندكَ روايةً رائعة، وإنّنا نرجوك ونتوسّل إليك أنْ تحظَى مكتبتُنا بمئة نُسخةٍ منها"، فأنتَ لستَ كاتبًا مشهورًا، ولو كنتَ مشهورًا على الحقيقة فلن تفعل المكتبات مع ذلك، ذلك!

الحلّ كان بسيطًا؛ عرضتُ نفسي على القبائل، أخذتُ الكراتين، حملتُها على ظَهري، والأكياس الثّقيلة شددُت أكفّي عليها، وطُفتُ على المكتبات الصّغيرة والكبيرة، بعضُها نظر في وجهي نظرة إشفاق، وبعضُهم أخذَ نسخةً للتّجريب، وصنفٌ ثالث أخذ خمس نُسخٍ فقط بِرَسْم البيع، أيْ أنّه لم

يدفع فلسًا واحِدًا لي، وقال حينَ تُباع ستُعطيك ثمنها، وارجعْ إلينا بعدَ شهر. بالطّبع كان ذلك سيكون مُوئِسًا على نحوٍ فظيع. لم أيأسْ. أنا أعرضُ نفسي على القبائل، وما زلتُ، وسأبقى؛ لديّ بِضاعة، إذا أعجبتْكم فخذوا بها، وإنْ لم تُعجبْكم فدعوها، لا أحدَ يُكرِهُكم على شيء.

بدأتِ الرّوايةُ بالتّململ، هل هي ماردٌ عِملاق، يبدو أنّ الله أرادَ لها ذلك. تسرّب إصبع العملاق إلى طُلاّب الجامعات، كانتْ أوّل مكتبةٍ وضعتُ فيها كتبي في الأردنّ كلّها هي مكتبة الجامعة الّتي تربضُ على الجهة المُقابلة للبوّابة الرّئيسيّة للجامعة الأردنيّة قبلَ النّفق. أحدثَ هذا الإصبع بعضَ الحركة، انفلتَ من الماردِ إصبعٌ آخر، اتّصل بي صاحبُ المكتبة الّذي وضعتُ عنده النّسخ الخمسة في اليوم الثّاني: "لقد بيعت النُّسخ، تعالَ خُذ نقودَك، وائتِنا بعشر نُسخ". بيعتْ النّسخ العشر في اليوم نفسِه، ثُمّ مَدّ العملاق ذراعه، فجرفَ كلّ شيءٍ في طريقه، لم يمرّ أكثر من ثلاثة أسابيع حتّى كانت الطّبعة الأولى قد نفدت. أنا كنتُ ألهثُ من الصّدمة والفرحة معًا. في الطّبعة الثّانية بدأتُ أضع شروطي على النّاشر، لم تكنْ شروطًا في الحقيقة، كانت أمورًا عاديّة يحظَى بها أيُّ كاتب، ألاّ أطبعَ على حِسابي، وأنْ يكون لي نسبةٌ من أعداد الرّواية آخذها نُسخًا. لم يكن النّاشر في هذه

الحالة يتكلّف شيئًا، كانت روايتي قد درّت عليه أرباحًا في الطّبعة الأولى، وها هي تفعل في الطّبعة الثّانية، واستمررتُ أحمل الكراتين بين يدَي وعلى كاهلي، وأطوفُ بها بين المكتبات، توسّعت في هذه المرحلة المكتبات الّتي تطلبُ النّسخ في وسط البلد، ثُمّ الطّبعة الثّانية فارقتْ أختها سريعًا، ودّعت ابنتها القادمة للانتِشار. اليوم بعد مرور حوالي ثماني سنوات على ذلك، بلغَ عددُ طبعات الرّواية أكثر من ثلاثين طبعة. ما أريدُ قولَه في نهاية هذا التّمهيد: لا تنتظرْ أحدًا أنْ يأتيك ويعرف كتابكَ ويشتريه؛ احملْ كتابك وطُفْ به على كلّ مكانٍ يُمكن أنْ يفتح أبوابه لك، وإنْ أغلقها في وجهك، فحاولْ مرّة أخرى معه، الأبواب المُغلَقة مثل البشر لا تبقى على حالةٍ واحدةٍ طَوال الوقت.

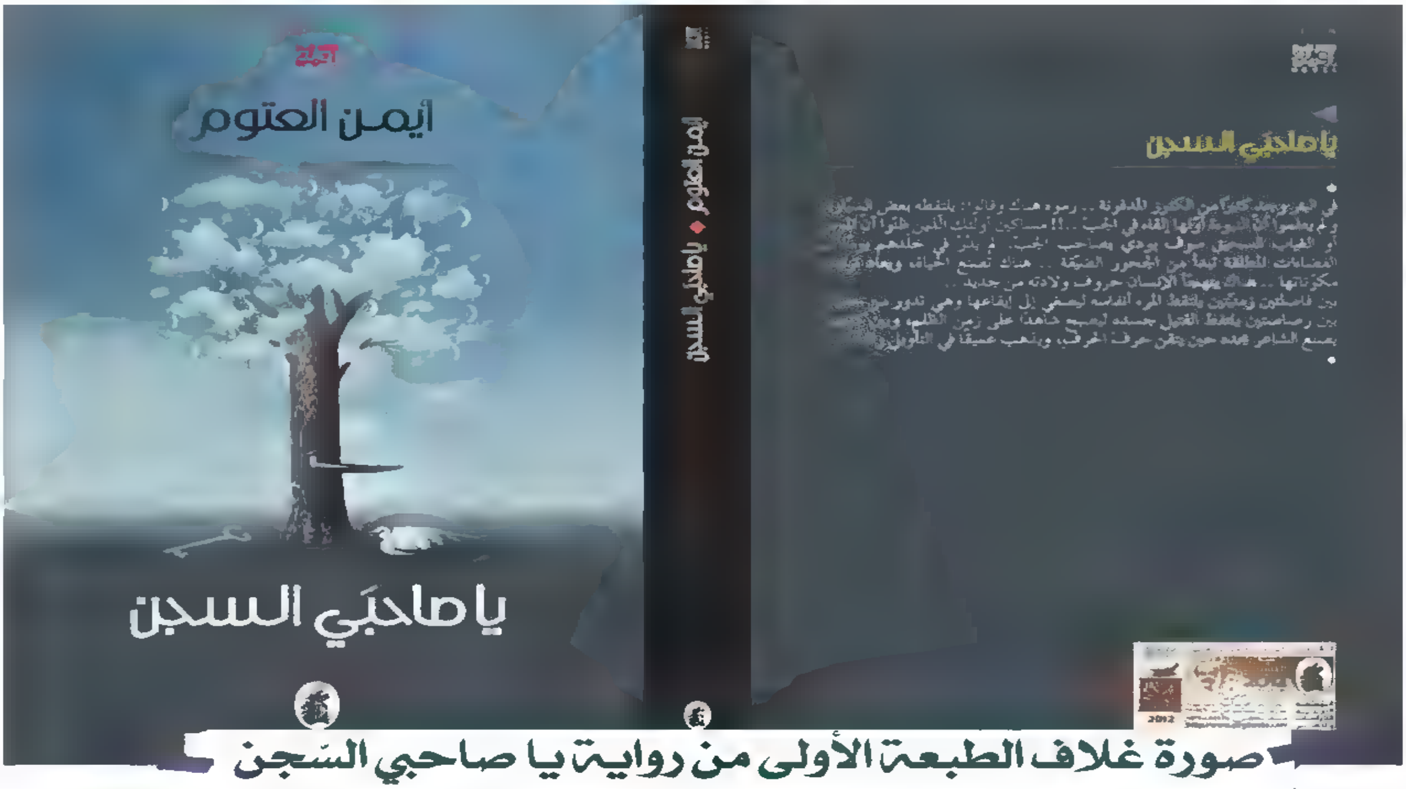

صورة غلاف الطبعة الأولى من رواية يا صاحبي السّجن

فلسفة النّشر:

إنّ القرن العشرين الّذي مضى على انصِرامه عقدان من الزّمن، كان قرنَ تسارعٍ في كلّ شيءٍ، فقد شَهِدَه أناسٌ رَكِبوا الخيول وجرّوا عرباتهم على ظهورها، وأولئك الّذين حرثوا الأرض بالعجول وربّما لا زالوا يفعلون ذلك إلى اليوم، وشَهِده كذلك الّذين حفروا الآبار بأيديهم وحصدوا القمح بأيديهم وأضاؤوا أسرجة الكاز في اللّيالي الدّامسة بأيديهم، و.... هؤلاء كلّهم أيضًا شَهِدوا عصر التحدّث عبر الأقمار الصّناعيّة، وخاطبوا أحبابَهم في القارّة الأخرى بكبسة زرّ على هاتفٍ خلويّ، في حين أنّهم كانوا ينتظرون شهرين أو ثلاثة حتّى يسمعوا خبرًا من طرفهم أو أكثر من ذلك، اليوم الحادثة الّتي

تحدثُ في أوروبّا في قريةٍ نائيةٍ قليلة السُّكّان في اليونان على سبيل المثال يُمكن مُشاهدته لا بعدَ حدوثه بلحظاتٍ، بل مشاهدته وهو يحدث. ولقد عجب عمّي (عقلة) أشدَّ العجب وهو يتحدّث إلى ابنه في أمريكا وهو يحرثُ الأرض في قريتنا في (سُوف) كيفَ يستطيع أنْ يُحادث ابنه عبر الهاتف مُمسكًا به بيُسراه، وعودُ الحراثة بيُمناه تحت زيتونةٍ وقفَ عندها ليتمكّن من سَماع صوتِ ابنِه على الطّرف الآخَر، وظلّ عمّي يُحدّث بها كلّ مَنْ قابله لشهورٍ في القرية بعدَ ذلك، وهو يضربُ كَفًّا بكفّ، ويهزّ رأسه.

مثلُ هذا التّسارع حدثَ للنّشر وللورق، صارث آلاف بل مِئات الآلاف من الكتب تصدر في اليوم الواحد، العدد الّذي كان يستغرقُ ربّما عشرات السّنوات ليقوم به فريقٌ من النَّسّاخين أو الوَرّاقين قد فرغوا أنفسهم لذلك. هذا التّسارع الجنونيّ في الإنتاج، عضده تسارعٌ جنونيٌّ آخَر في التكنولوجيا، فلم تعدْ هناك حاجةٌ في بعضِ الأحيان إلى الورق من أجل نشر الكتاب، صار دُعاة حماية البيئة يَعُدُّون قَطْع الأشجار من أجل صِناعة الورق جريمةً لا تُغتفر، وصاروا يدعون إلى إيجاد وسائل بديلة غير قتل الطّبيعة، أو التّحوّل إلى النّسخة المرئيّة من الكتاب لا الملموسة!

هل سيُصبح الورق محفوظًا في صور المتحف التّاريخيّ الّتي سَلكَها النّشر عبر مسيرةٍ طويلةٍ امتدّت من الكتابة على الحجر والنّقش على جدران الكهوف إلى الجلد والكعوب، ثمّ إلى الورق بصورته الحاليّة؟ السّؤال يحتاج إلى تَمهُّل قبل الإجابة، فالإجابة المتسرّعة أو العاطفيّة لن تُجدي هنا نفعًا.

بالطبع كلّ ثورةٍ على القديم تُجابه بمُقاومة شديدةٍ مُستميتةٍ من أنصار هذا القديم، وهذه الثّورة لن تتوقّف، وهي من طبيعة البشر، وما فُطِروا عليه، بل إنّ حُجّتهم في عدم اتّباع الأنبياء كانت: "إنّا وَجَدْنا آباءَنا على أُمَّةٍ وإنّا على آثارِهِمْ مُهْتَدُون". لكنْ مهلاً. الجديدُ اليوم إذا مرّت عليه عقود، أو قرون سيُصبح قديمًا، وسيأتي مَنْ يتمسّك بهذا الجديد الذي صار قديمًا، وهكذا دواليك. فما الحلّ إذًا؟

في الحقيقة إنّ أكثرَ نظرةٍ مُتفائلة إلى الكتاب الورقيّ تقول إنّه لن يصمدَ أكثر من بضعة عقود. وأنّ النّسخة الضّوئيّة أو المرئيّة أو الإلكترونيّة ستحلّ محلّه، تمامًا كما حلّ كُلُّ جيلٍ من الهواتف محلّ الجيل الّذي سبقه، ابتِداءً من الهاتف ذي العُلبتَين البلاستيكيّتين، إلى الهاتف البدّالة، إلى الهاتف ذي السّمّاعة والأرقام الدّوارة، إلى ذي الأرقام الثّابتة، مرورًا بالهاتف اللاسلكيّ، إلى الهاتف الخلويّ، وانتهاءً بالهاتف الذّكيّ

الّذي اختصر الإذاعة والتّلفاز والصّحافة والإعلام ودُور النّشر والعلاقات البشريّة بأصنافها كلّها في قطعة أصغر من حجم الكفّ الواحدة!

الحقيقة الأخرى أنّ عالَم الغيب - الّذي نتكهّن نحن هنا بأحداثه – مَحفوفٌ دائِمًا بالمُفاجآت، فلا أحدَ كان يتكهّن مثلاً على أنّ مكتبةً تحوي مليون كتابٍ أو أكثر مثل مكتبة الكونغرس الأمريكيّ يُمكن أنْ تُحفظ على هارد ديسك يُمكن حملُه في الجيب! فما الّذي يجري، هل هذا التّسارع في المعلومات وفي نقلِها، وفي تحويلها، يُمكن أنْ يكون التّسارع الّذي يسبق الانفِجار، وبالتّالي الانهِيار؟! ربّما، لكنّ ذلك ليسَ أكثر من خيالٍ رومانسيّ.

إنّني في حيرة، عَشَرات الآلاف من الأوراق الّتي كتبتُها أو حبّرتُها، وحجزتْ جدارًا كامِلاً في مكتبتي، سوفَ ينتهي بها الأمر إلى أنْ توضع على (فلاشة) لا وزن لها؟!

ولْيكنْ، هذا يحدثُ دائمًا. البشريّة في تطوّر، إنّ أهمّ نُقطةٍ في النّجاح في النّشر أو غيره هو تقبّل التّغيير والإفادة منه، إنّ البشر لن يتغيّروا، أعني لن يُصبحوا ذوي بشرةٍ زرقاء، ولن تكون قاماتهم أطول من أطول الأشجار في الغابات اللّفّاء،

ولن يعيش الواحدُ منهم مليون سنةٍ، والعقل الّذي مُنِحَ لهم، لا حدود لِما يُفكّر به، ولكنّه لن يخرج عن المُحيط الّذي وَضَعَه الخالقُ فيه، ولو كان هذا المحيط هو الكونَ نفسَه، وإذًا، فإذا أرادَ أنْ يقرأ، فالمُعوّل عليه القراءة لا الوسيلة، وإذا عزم على القراءة فالمُعوّل عليه الكتاب، لا الصّورة الّتي ظهر عليها الكِتاب، وإذًا فالأمر لم يتغيّر كثيرًا، بل لم يتغيّر ألبتّة، إنّ عليه في النّهاية أنْ يقرأ، والقراءة لا تكون إلاّ من كِتاب، لكنّ وسيلة القراءة تختلف، وصورة الكتاب كذلك تختلف. أمّا الشّيء الّذي لن يختلف أبدًا، فهو أنّ حضاراته وتقدّمه وتطّور وسائله لن يكون إلاّ عبر هذين الممرَّين الحتمِيَّين، وهما: القراءة والكتاب.

الآن، النّاشر الجيّد، والقارئ الجيّد، والكاتب الجيّد، هو الّذي يتقبّل هذا التّغيير، ويُطوّر من قدراته على أساسِه، ولا يبقى مُتمترِسًا خلفَ حُبّه القديم، فإذا كان يحبّ القراءة من الورق الآن فلْيكنْ لك ذلك ما دام ذلك مُتاحًا، لكن لو افترضْنا أنّ الكتاب الورقيّ اختفى تمامًا في أقلّ من خمس سنين؛ هل ذلك مُمكِن؟ بالتأكيد، بل إنّه يختفي في أقلّ من ذلك، أنا أتحدّث كإمكان، لا كسيرورة منطقيّة أو عقليّة... وعليه حينَ يختفي ولا تجدُ ورقةً واحدةً في أيّ مكانٍ، مثلما لا تجدُ اليوم صخرةً منقوشةً مُهيّأة للقراءة، فهل تبقى جالِسًا على

أرصفة اليأسِ والانتِظار أم تأخذ زمام المُبادرة وتمضي إلى الخُطوة الجديدة؟

إنّني واحدٌ من الّذين عاشوا في الكتب وبين الكتب ومن أجل الكتب لأكثر من أربعين عامًا، ولم أشهد خلالَ هذه العقود الأربعة في تحوّل الكتاب إلى النّسخة الصّوئيّة مثلما شهدتُه في العامَين الأخيرَين منهما. لا أريدُ مثلي مثل مُحبّي القديم أنْ يختفي الكتاب الورقيّ، وأجاهدُ مع كثيرين آخرين كي يُناضلَ الورقيّ ويبقى على قيد الحياة، ولكنّني في المُقابل لن أجلسَ باكِيًا إذا انتهت حقبتُه، ومضى إلى وديان الأحافير التّاريخيّة، سأتكيّف مع الوضع الجديد، وأبحثُ عن أفضل السُّبل لاستِثمارها والإفادة منها.

غير أنّ هناكَ شعورًا، لا أدري إنْ كان مجرّد شعور، من ذلك النّوع الرومانسيّ الّذي يستند إلى العاطفة دون العقل، من أنّ الكتاب الورقيّ لن يموت في زماننا، وأنّ كلّ محاولات الضّوئيّ لطمسه لم تُفلِح تمامًا، بل تبدو كأنّها لم تؤثّر فيه أبدًا، فَمَنْ يُشاهدْ معارض الكتب الّتي تعجّ بمئات دور النّشر الّتي تعرض مئات الآلاف من الكتب الورقيّة وتَهافُت النّاس عليها وعلى شِرائها يعتقدْ أنّ دَوْر الكتاب الضّوئيّ ما زال بعيدًا، وأنّ الكتاب الورقيّ يُكافح بقوّة، ويفوز في معاركه. غير أنّه

لا أحد يستطيع أنْ يتكهّن إلى أيّ مدًى سيظلّ الورقيّ يحتفظ بهذا الفوز في تلك المعارك! ربّما بعدَ خساراتٍ مُتعدّدة لاحقة سيُضطرّ إلى اللّجوء لتكنيك التّعايش، بمعنى أنْ يسيرا معًا هو والكتاب الضّوئي جنبًا إلى جنب، دون أنْ يستبيح أحدُهما دمَ الآخَر!

دعونا نفترض افتِراضًا، قد يراه بعضُنا غريبًا، أو يستبعده بعضُنا الآخر، ولكنّني لا أراه غريبًا ولا أستبعده؛ دعونا نفترض أنّ شبكة الإنترنت سقطت فجأة، تعطّلت تمامًا أو عُطّلت، وتعطّلت تبعًا لذلك كلّ وسائل التّواصل الضّوئيّة، ومن ضِمنها بالطّبع الكتاب الإلكترونيّ، فما الّذي سيحدث؟ إذا كُنّا قد توقّفْنا منذُ مدّة عن إصدار الكتاب الورقيّ، فإنّ هذا الانهِيار لشبكة الإنترنت سيُعيدنا إلى العصور الحجريّة، وسنحتاجُ إلى زمنٍ طويلٍ للعودة للكتاب الورقيّ، ليس بسبب قلّة الإنتج أو بُطئِه، ولكنْ بسبب الفارق التّقني، والاعتِياد على الإلكترونيّ، وغياب الورقيّ إلى درجة النّسيان، وسنبدو كما لو كُنّا في زمنٍ كانتْ تُقرأ فيه الكلمات المنقوشةُ على جُدران الكهوف. فإذا كان لدينا هذا الافتِراضُ قائِمًا، فأعتقدُ أنّ صُنّاع النّشر عليهم ألاّ يتوقّفوا عن إصدار الكتاب الورقيّ، وأنّ عليهم وعلينا المُواءَمةَ بين الحالَين!

إنّني أرى أنّ الحياة دورةٌ ذات (اقتِرانٍ جيبيّ)، إنّها موجودةٌ تبدأ من الصّفر ثُمّ تصل إلى الذّروة ثُمّ تنحطّ إلى الصّفر من جديدٍ، ثُمّ تواصل انحطاطها حتّى تصل الحضيض، ثُمّ تبدأ الصّعود من الحضيض، حتّى تصل إلى الصّفر ثانية، ثُمّ تواصل صعودها إلى الذّروة، وهكذا... ربّما هذا ما سيحدثُ مرّة أخرى بشعوري العاطفيّ لا العقليّ، لأنّ الغيبيّات يدخل القلب إلى منطقتها أكثر مِمّا يدخل العقل - أقول ربّما هذه الدّورة هي الّتي ستصيب النّشر والقراءة، وأنّ هذه الأجهزة الذّكيّة الّتي هي ربّما في الذّروة الآن، ستبدأ حسبَ طبيعة الاقتِران الجيبيّ بالهبوط من جديد!!

بدايات:

حلمتُ بالنّشر وأنا طفل، كان غايةَ ما أحلمُ به وأنا في الصّفّ السّادس أو السّابع، كنتُ قد خربشتُ حتّى ذلك العمر بعضَ القصص القصيرة وبعضَ القصائد، ولم يكنْ من دارٍ لتنشر لطفل، ولكنّ سقفَ أحلامي كان أكبر حتّى من نشرٍ كهذا، وإنْ كنتُ أشعر بمقدار الفرحة الطّاغية فيما لو نشرتْ لي صحيفةٌ قِصّة أو قصيدة، كنتُ أرى ذلك قبلَ أنْ يحدث، وأبتسمُ وأنا أشاهدُ نفسي ممسِكًا بالصّحيفة ككاتبٍ كبير، يُطالِع مقاله أو نَصّه المنشور بقليلٍ من السّخرية، وكثيرٍ من

لا أذكر في أيّ صفّ، ربّما كان ذلك وأنا في الصّفّ الثّاني الإعداديّ (الثّامن)، حينَ راسلتُ عددًا كبيرًا من المجلاّت العربيّة من أجل النّشر، كنتُ أشتري المجلاّت من مكتبةٍ في شارع إيدون قريبًا من سرفيس المستشفى العسكريّ، ومن وكالة حجازي في وسط بلدة إربد على دُوّار البريد القديم. أوّل ما أصنعه، كنتُ أكتبُ العناوين وأبدأ بالمراسلة، ربّما راسلتُ أكثر من عشرينَ مجلّة، كلّها خارج الأردنّ من أجل أنْ ينشروا لي، كثيرٌ منها اعتذر، فلقد ردّتْ إحدى هذه المجلاّت برسالةٍ تقول فيها: "إنّ موضوع قصيدتي عاديّ جدًّا وإنّه نَمَطيّ، وإنّه لا يصلح للنّشر". أمّا بقيّة المجلات فلم تُكلّف نفسَها بالرّدّ عليّ.

هذه الرّدود لم تُحطّم ذلك العصفور الصّغير ذا الجناحَين الأزغبَين الّذي كُنتُه، أعترفُ أنّها آلمتني جِدًّا، وأعترفُ أنّ الّتي لم تردّ عليّ آلمتني أكثر من الّتي رفضتني، ولكنْ كنتُ – وما زلتُ – عنيدًا، عنيدًا جِدًّا.

أنا أقول إنّ هذا قد يحدثُ معكم، ستجدون مَنْ يأنفُ أنْ ينظر في وجوهكم، أو يستكثر الرّدّ عليكم، أو يُحقّر من

شأنكم، إنّه لن يستطيع أنْ يفعل ذلك إلاّ إذا سمحتم له، ولا يُمكن أنْ تسمحوا له إلاّ إذا كنتم لا تثقون بما تقومون به، نصيحتي أنّه إذا كنتَ مؤمنًا بما تفعل أشدّ الإيمان فقاتلْ من أجل هذا الإيمان، ولن يضيعَ جُهدكَ سُدًى. أمّا إذا كان إيمانُكَ بما تكتبُ ضعيفًا، ليسَ لأنّك حكمتَ على نَصّكَ بالضّعف، بل لأنّك لا تريد أنْ تُقاتل، فحينئذٍ أنصحك أنْ تستسلم وألاّ تُواصل السّير في الطّريق، فلا غاية تبلغها إلاّ بقتِال ومُغالَبة، وهذه سُنّة كونيّة إلهيّة، جَعَلَ النّجاحَ بالعمل والمُجاهدة لا بالقعود والتّمنّي، وإلا فإنّ الخالق – حاشاه – لا يكون عادِلاً إذا ساوى بين مَنْ يَعملون ومَنْ لا يَعملون، وقد قال: "وقُلِ اعملوا". وإنّه إلى ذلك لم يُساوِ من قبل بين الّذين يعلمون والّذين لا يعلمون.

الغرور الّذي يُصيب رؤساء التّحرير أو الصّحف، وخاصّة المعروفة منها لم يُؤثّرْ في إدماني الطَّرْقَ على الأبواب، لديّ خياراتٌ أخرى، وأنا عازمٌ على استخدام خياراتي جميعها، ومُحاولاتي لن تتوقّف، إنّه ليس لها عددٌ محدّد عليّ أنْ أستسلم عنده، وأقول يائسًا: أنا أعترف، لقد انتصرتم في نهاية المطاف، بل سأجدّد المحاولة المئة كأنّها المحاولة الأولى؛ فأنا عنيدٌ بصورةٍ لا يُمكن تصديقُها!

بقيتُ أراسلُ الصّحف للنّشر فيها أكثر من عامٍ، ربّما عامَين لا أذكر تمامًا، ومع ذلك لم تنشرْ لي، وقدّر الله أنّ إحدى الصّحف المحلّيّة رئيس تحريرها يعرفُ أبي، فلعلّه أشفقَ على ابن صديقِه فنشر لي نَصًّا، كانت هذه الصّحيفة هي صحيفة اللّواء الأسبوعيّة، وكان رئيس تحريرها هو (حسن التّلّ) رَحِمَه الله تعالى.

ومن هناك بدأت الخيوط المُتشابكة تتفكّك، والدّروب الوعرة تتمهّد، وبدأتُ مع الصّحف أنشر بلا انقِطاع. اليوم ترون أنّي أنشر ما أريد، النّاشرون يُبادِرون في أنْ يأخذوا كتابي القادم، ذلك مِن فَضْلِ الله عليّ، ولكنّني عانيتُ سنواتٍ طوالاً، وتعبتُ تعبًا مُضنِيًا، ورُفِضتْ نصوصي رفضًا قاطِعًا حتّى وصلتُ إلى ما وصلتُ إليه، ما أريدُ أنْ أقوله لكم: عليكم أنْ تصبروا في قطفِ الثّمرة، وعليكم أنْ تُعانوا قبل أنْ تُحصّلوها، وعليكم أنْ تعدّوا كلّ ذلك أمرًا عاديًّا. لو أتتك الموافقةُ من أوّل نصٍّ ستنشره فاعلمْ أنّ في الأمر خللاً، عليكَ أنْ تُراجعه، وتُفكّر في الموافقة لا أنْ تفرح بها، فمن الطّبيعيّ أنْ يستمرّ الرّفض ربّما حتّى النّصّ العاشر، على الأقلّ هذا من تجربتي، وأنا في هذا الكتاب لا أفعل أكثر من نقل هذه التّجربة إليكم.

النّشر الدَّوَّار:

منذُ أنْ قَبِلَتْ أولى الجرائد بنشر كتاباتي الأولى وكان ذلك عام 1986م، وجدتُني مدفوعًا بقوّة غريبةٍ، وطاقةٍ جَبّارةٍ إلى النّشر في كلّ الجرائد الّتي كانت تصدر في الأردنّ، فَنُشِر لي في جريدة الرأي، والدّستور، والشّعب، واللّواء، وأخبار الأسبوع، والأهالي، والمجد، ... وغيرها، ولم أتوقّف عن النّشر في أيّ جريدةٍ أستطيع أنْ أُراسلها، أو تقبلُ بنشر كتاباتي فيها، وبلغ عدد القصائد الّتي نُشِرت لي في عام 1987م، ولم أكنْ قد جاوزتُ الخامسةَ عشرة من عمري حوالي ثلاثين قصيدة.

ثُمّ لمّا غادرْنا الأردنّ إلى الإمارات حيثُ سيعمل أبي في جامعة عجمان، بدأتُ أراسل المجلاّت والجرائد الخليجيّة، فراسلتُ المجلّة العربيّة، ومجلّة الفيصل، وغيرهما، ونشرتا لي بعضِ نتاجاتي. ثُمّ كتبتُ في جائزة الشّيخ راشد بن حميد بحثًا مُطوّلاً عن شعر الطّفولة، وفاز بجائزة الدّولة التّشجيعيّة لا الجائزة الأصليّة، ذلك لأنّه كان يُفتَرض في المشاركين أنْ يكونوا من مواطني دول الخليج لا من المُقيمين فيها.

حينَ بدأت المجلّة العربيّة في السّعوديّة تقبل بنشر مقالاتي

النّقديّة وقصائدي فيها، أمطرتُهم بعد أوّل موافقةٍ بعددٍ كبيرٍ من النّصوص، أذكر أنّني كنتُ أبعثُ لهم كلّ أسبوعٍ أو أسبوعَين نَصًّا، ولقد كان يُقبَل بعضُها، ويُركَل بعضُها، غير أنّ مكافآتي الماليّة على المنشور منها كانت مُجزِية في ذلك الوقت، وساعدتْني على أنْ أستمرّ.

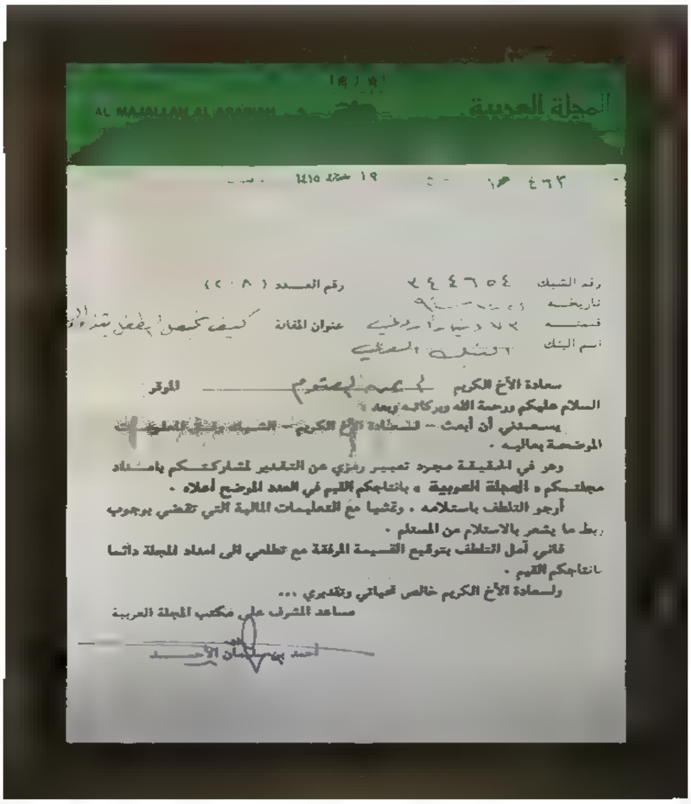

المجلة العربية

AL MAJALLAH AL ARABIAH

٤٦٣ /م — ١٩ ... ١٤١٥

رقم الشيك ٢٤٤٦٥٤ — رقم العدد (٢٠٨)

تاريخه

قيمته — عنوان المقالة

اسم البنك

سعادة الأخ الكريم ... المؤقر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد :

يسعدني أن أبعث – لسعادة الأخ الكريم – الشيك وفق المعلومات الموضحة بعاليه .

وهو في الحقيقة مجرد تعبير رمزي عن التقدير لمشاركتكم بإمداد مجلتكم « المجلة العربية » بإنتاجكم القيم في العدد الموضح أعلاه .

أرجو التلطف باستلامه . وتمشيا مع التعليمات المالية التي تقضي بوجوب ربط ما يشعر بالاستلام من المستلم .

فإني آمل التلطف بتوقيع القسيمة المرفقة مع تطلعي إلى إمداد المجلة دائما بإنتاجكم القيم .

ولسعادة الأخ الكريم خالص تحياتي وتقديري ...

مساعد المشرف على مكتب المجلة العربية

أحمد بن سليمان الأحمد

المجلة العربية

AL MAJALLAH AL ARABIAH

٦٣٤ /م — التاريخ / ١ ... ١٤١٤ — المرفقات /

الموضوع

رقم الشيك — رقم العدد ١٧٢

تاريخه — السنة

قيمته — عنوان المقالة

اسم البنك

سعادة الأخ الكريم أيمن العتوم المؤقر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته :

يسعدني أن أبعث – لسعادة الأخ الكريم – الشيك وفق المعلومات الموضحة بعاليه .

وهو في الحقيقة مجرد تعبير رمزي عن التقدير لمشاركتكم بإمداد مجلتكم « المجلة العربية » بإنتاجكم القيم في العدد الموضح أعلاه .

أرجو تلطف سعادتكم باستلامه . وتمشيا مع التعليمات المالية التي تقضي بوجوب ربط ما يشعر بالاستلام من المستلم .

فإني أمل التلطف بتوقيع القسيمة المرفقة مع تطلعي إلى إمداد المجلة دائما بإنتاجكم القيّم .

ولسعادة الأخ الكريم خالص تحياتي وتقديري ..

مساعد المشرف على مكاتب المجلة العربية

أحمد بن سليمان الأحمد

مكافآت من المجلة العربيّة، وبحث أناشيد

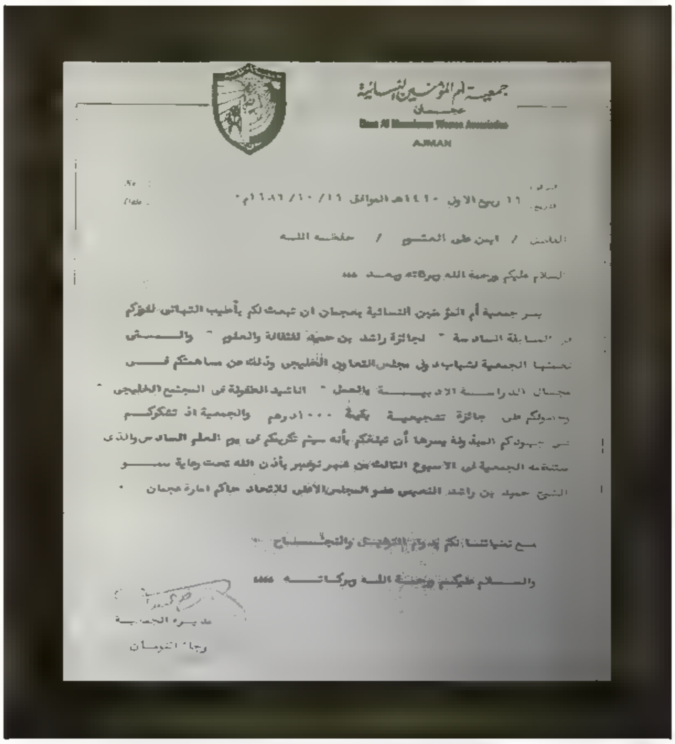

جمعية أم المؤمنين النسائية

عجمان

Umm Al Mumineen Women Association

AJMAN

التاريخ : ١٦ ربيع الأول ١٤١٠هـ الموافق ١٦/ ١٠/ ١٩٨٩م

الفاضل / أيمن علي العتوم / حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد ...

يسر جمعية أم المؤمنين النسائية بعجمان أن تبعث لكم بأطيب التهاني لفوزكم في المسابقة السادسة " لجائزة راشد بن حميد للثقافة والعلوم " والتي تنظمها الجمعية لشباب دول مجلس التعاون الخليجي وذلك عن مساهمتكم في مجال الدراسة الأدبية بالعمل " الأناشيد الطفولية في المجتمع الخليجي " بحصولكم على جائزة تشجيعية بقيمة ١٠٠٠ درهم والجمعية إذ تشكركم على جهودكم المبذولة يسرها أن تبلغكم بأنه سيتم تكريمكم في يوم الحفل السادس والذي ستقيمه الجمعية في الأسبوع الثالث من شهر نوفمبر بإذن الله تحت رعاية سمو الشيخ حميد بن راشد النعيمي عضو المجلس الأعلى للاتحاد حاكم إمارة عجمان .

مع تمنياتنا لكم بدوام التوفيق والنجاح

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...

مديرة الجمعية

رجاء النومان

لقد نشرتُ قبل أنْ أبلغ الثّانية والعشرين، وقبل أنْ أتخرّج في الهندسة أكثر من ثلاثمئة قصيدة، وحينَ نشرتُ دواويني الخمسة فيما بعدُ لم يُنشَر من تلك الّتي نُشِرت في الصّحف أكثر من (10) قصائد، بنسبة 3% فقط! لعلّ اعتبارها من

البدايات هو الّذي زهّدني في نشرها في دواوين لاحِقًا، وخوفي من النّقد لقلّة نُضجها سببٌ آخر، فلقد قالوا من قبلُ: "مَنْ ألّفَ فقد استهدَف"؛ أي جعل نفسَه هدفًا، ولم أكنْ جاهِزًا بعد لأكون كذلك.

المنشورات الأولى للقصائد والمقالات مُعظمها في الثّمانينيات من القرن المُنصرم

ثلاث قضايا.. تضع الشعر في قفص الاتهام «٢»

بقلم:
ايمن العتوم

القضية الثالثة:
الشطط

نوعان من الشطط

شطط شعراء الشعر الحر الذي يفتقر الى الوزن والقافية، يلقون في متاهات لا بداية ولا نهاية لها، ذلك لان [illegible] مبنيا على اي اساس من المنطقة او المعنى المفهوم الا تصفيف الكلمات. ويضحكون على انفسهم حين [illegible] غامضة غير مفهومة ظانين ان ذلك يرفع من [illegible] الادبي مع انه ينقص بهم الى الحضيض، هؤلاء [illegible] ليسوا كذلك - يجب «في رأيي» ان يحاسبوا [illegible] ويعاقبوا اسوأ العقاب، لانهم انما يقومون بجرم [illegible] يدخلون عالم الشعر من الطريق غير المسموح به، او [illegible] الطريق الذي يعاقب عليه قانون الشعراء ومن يخالف [illegible] في حكم محكمة الشعر يجب ان يقبض عليه وينال [illegible] اللائق به، ولو كنت رئيسا لتلك المحكمة لحكمت عليه بما [illegible]

- تهمة عدم الاستعمال الصحيح لمصطلحات اللغة العربية، [illegible] لاحكام المادة (.../...) المتعلقة بذلك يجب ان تفرض [illegible] الرقابة ولا يسمح بتداولها الا اذا ثبتت صلاحيتها من [illegible] الرقابة.

[illegible] المس بحقوق الشعر العمودي والسخرية منه [illegible] واغلاق باب الظهور في وجهه وفقا لاحكام المادة (...) يجب ان يعامل بالمثل فلا يسمح له بنشر اي ديوان [illegible] النوع من الشعر.

[illegible] الظهور على حساب الغير والدعوة الى الاعتراف بمن [illegible] وفقا لاحكام المادة (.../...) يجب ان [illegible] باتلاف الامسيات الشعرية او تداول اشرطته بين القراء

[illegible] نتناول هذا النوع من الشعر في تعمق [illegible] النبتة لله وهو ما حدث فعلا فعلينا نحن [illegible] ان نحاربه ونقوم بحملة واسعة ضده تمكننا [illegible] تدريجيا. وهؤلاء هم الذين ذكرهم القرآن [illegible] عنهم في آية الشعراء

«[illegible] يتبعهم الغاوون، الم تر انهم في كل واد يهيمون [illegible] يقولون ما لا يفعلون». انظر انه شطط لا تهالكي الذي [illegible] القرآن الكريم في هذه الآيات، تراهم في كل واد يهيمون [illegible] الوديان المفتوحة امام هذا الصنف ليهيموا فيها بالخداع [illegible] والبهتان، وبالتالي يقولون ولا يفعلون ويناقض قولهم [illegible] ومتى لم يكن التزام كان نفاق، وهذا النفاق الشديد هو [illegible] فيه كل «شعراء» النثر ولعله تحضرني طلاسم وجدتها [illegible] كتاب مكتوب على غلافه ديوان شعر.. يقول:

[illegible] الرعد والماء وقلبه الحي
[illegible] حتى الظل

وترشح بالحلم وذاكرة الشعر
وحين لا توقظه الدنيا
[illegible] ليزدوج فيها العالم

انه الغيبيا، وتهويشا وطلاسما كهذي هي التي تهوي به في قعر السخافة والبلاهة مهما كان يظن انها ترفعه.

الشاعر ليس عالما طوعا للكلمات ولا يهتم بشكلها مثل ما يهمه مفهومها والفائدة المرجوة منها، انه صاحب ارادة كلماته اذا اراد فهي اقوى من السيف وامضى واذا اراد فهي هبات النسيم والحل يوظف شعره في المكان الملائم، ويحصل على زبدة الفائدة في النهاية انه الوحيد الذي يستطيع ان يجعل الكلمة تزهر، وتعطي مفعولا ايجابيا في نفس القارىء ولكن ما معنى هذه التهويشات التي تزيد عقل القارىء طلسمة والتي تأخذ مكانا في الكتابة دون فائدة، ترى ما الذي يدفع بمثل هؤلاء حتى يجعلوا تنزعهم سلبيا مستغلقا على الفهم؟!!

ان شطط هذا النوع من الشعراء، لا يغتفر لهم لأنه شطط جاهل معرض عن الحقيقة، ولو كان جاهلا فقط، لكان لنا - ودون ارادة منا - ان نأخذ بقوله تعالى «واعرض عن الجاهلين» اما ان يكون جاهلا مع علمه بالحق، فهو مصر الان على الباطل مستغلقا لان تشوه صورته وان يلاقي العداوة الشرسة من جميع الشعراء ولهم الحق كل الحق في ذلك.

ب - شطط شعراء النوعين «العمودي والحديث»؟؟

وهؤلاء شططهم مؤقت، ترتبط بظروف معينة تفرض عليه ذلك، فاذا ما زالت هذه الظروف عاد الشاعر نادما على ما قال اسفا لما حدث.

يقول محمد الزبيري في ديوانه:

«وانا اذكر ان قصيدتي في استعطاف الامام والشكوى من اهوال السجون انتشرت في صفوف الشعب انتشارا سريعا قبل ان تصل النسخة المرسلة الى الامام»

ويقول.. «ومن جهة اخرى فان المبالغات في المدح والشكوى [illegible] الحاكم والمحكومين الذين ارهقتهم الاقدار تحت رحمته فاضطرهم بقسوته واستبداده ومنطقه الثقيل الى ان يعد حوه ذلك المدح الذي يتحول بطبيعته الى لون رمزي من الوان الهجاء»

لقد كان الزبيري شاعرا ثائرا ساءه فساد النظام في اليمن، فثار هو وزمرة من اصحابه على الحاكم ونظامه، وهو يبين في قوله هذا، ان شططه الذي حصل عندما كتب قصيدة فيها بعض المدح للامام، انها انما كانت تحت ظروف جعلته يتصرف هكذا حتى يستدر عطف الامام عليه وعلى اخوانه فيخرجهم من السجن، بيد انه اقر، ان قصيدة المدح تتحول بالتالي الى لون من الوان الهجاء.

يقول فهمي هويدي في احدى مقالاته:

انما النقطة [illegible] في امرين، اولهما حق [illegible] او [illegible] لحتمال شططه

صدر عن نزار قباني لا يدخل في اطار انكار الله بطبيعة الحال، ولن تمنعنا ان يتسم حديثه عن الله سبحانه وتعالى بالقدر الواجب من الاجلال والتوقير الا اننا اذا استقبلناه بحسبانه صادرا عن شاعر فقد نقول انه غلب اعتبارات الصنعة واطلق العنان للتعبير بغير ضابط فجاء كلامه على ذلك النحو غير المستحب.

ويقول:

هذه الخصوصية في شأن الشعراء ربما كانت داعيا لنا لكي نترفق ونتفهم ونحتمل حتى ونحن ننكر عليهم ما يقولونه ونرفض الكثير مما يقولونه وربما لو لفتت انظارهم واسدي اليهم النصح بالرفق المفترض المطلوب حينا لكانوا اكثر مراعاة لمشاعر الناس، واكثر تدقيقا في القيم التي يدافعون عنها، ويروجون لها. وقد حدث ان نشرت في صنعاء مؤخرا قصيدة قديمة لاحد الشعراء الكبار في اليمن الشمالي كانت لحدى عباراتها محملة ايضا بمعنى المساس بالذات الالهية، وعندما راجعه بعض العقلاء فانه بادر الى نشر اعتذار في احدى الصحف اليومية واعلن على الملأ انه بريء من تلك القصيدة التي نظمت في ظروف خاصة تغيرت فيما بعد»

وكيف نستطيع ان نواجه الشعراء الكبار ونوجه لهم الاتهام الشديد هم بطبيعة الحال سيتقبلون نصحك ولكنهم اعلم منك بذلك، وهم يدركون ان ما قالوه الان قد يندمون عليه غدا، ولكنها العاطفة التي تملي عليهم [illegible] بالخاطفة اذا بدأت تتاجج داخل صدره، ليكبتها ويحاول القضاء عليها، انه لمن الصعب فعل ذلك، والافضل ان يدعها تخرج كما تشاء هي وكما يشاء هو، فلا يترك لها كل المجال الواسع وانما يحد من شدة انفجارها، انها كالفرس الجامح تملي ارادتك عليه باللجام فاذا انت خففت من حدة ثورانها كانت النتائج افضل.

وهذه الخصوصية التي يجب ان لا يعاتب عليها الادباء والشعراء لا تحق لغيرهم كما بين فهمي هويدي، ثم ان محاسبة الشاعر ليست هكذا غير منظمة فتحاسبه على كل شيء، انما يجب ان تنطلق من يقين راسخ ومبدأ ثابت فتراعي ظروف الشاعر التي نظم فيها القصيدة ثم تنظر الى لغة الشاعر فربما استعماله للكلمات فقط هو الذي اثارك ضده، وكثيرا ما يحصل هذا، اذ ان الفكرة التي كتب بها كلمات قصيدته تناقض الفكرة التي فهمتها من هذه الكلمات.

وعلى كل فان شطط هذا النوع من الشعراء مقبول في [illegible]

جريدة اللواء الأسبوعية ١٩٨٨/٨/١٠

جريدة "الأهالي" الأسبوعية
١٩٩٥/٩/٧
العدد ٢٣٠

٨

من هنا

تبعثر

● ايمن العتوم

الشيب يقبع في طريق
الليل
أكثر ما قضيت العمر
امشي كي اراه
فهل اراه...؟
يا رب اني قد مللت من
الحياة
عمري تبعثر فوق أحرفي
الثماني
اتقضى بين التساؤل
والتأوه والتألم والشكاه
وانا كالشعاري اسافر
وحدا
واعيش مرتحلا
وما يوما تلقاني ارتياح
ورضيت اكتب باسمه
اللهم عن فيض
الجراح
فإذا انا ما زلت انزف
والحروف تقل للنهب
ابتداء
من صباح الليل حتى
يبتدي ليل الصباح
ومشاعري!! الى
المشاعر؟
لم ... تبعها

وللكفاح
يا رب وحدي
ليس يعضدني إذا ما زارني
يوما سعار الضيق
. إخواني . واهالي
وليس هناك من قد يمسح
الاحزان عني
حين تنحرني عذاباتي
انا وحدي
كشامخة من الاشجار في
ليل العواصف والرعود
كالخيمة السوداء تنتالها
الرياح
وتمتطي ظهر الشباك
والنجود
هل كان حقا ان اظل مسافرا

وحدي
وما لي من حدود؟
واعيش انتظر الوجود وما
انا بين الوجود.
يا رب
اين اسير والدرب التوى
وانا عميت
وجاء وحش الليل وابتدا
الصعود
يا رب إني قد قطعت الشوط
نصف الشوط
هل لي ان أعود؟
يا ربه...
ماذا قد يفيد...؟!!!!

اربد
١٩٩٥/٧/٢١م

جريدة
«صوت الشعب»
الأردنية اليومية
ألغيت حاليا
١٩٨٧/١١/٢٨م

سنمضي

سنمضي للقنية في ثبات … وفي عزم تخر له الرواسي
سنمضي في دروب الحق دوما … وناخذ حقنا والاخذ قاسي
لانا لا نرى للذل طعما … وهذا الذل للاحرار كاسي
اليس الموت كاسا علقميا؟ … وكل الناس من ذا الكاس حاسي
نخاف الله لا ربا سواه … ولن نخشى لعبد اي باس
سنتبع ديننا في كل حال … ونطلب حقنا من غير ياس
فلن نرضى سوى الاسلام دينا … ولن نرضى سوى القران اسي
تحل به مشاكلنا جميعا … يرفرف عدله فوق الاناس
به تبقى البرية في افاق … وتحيا بالسعادة لا المآسي
سنحمله ونمضي في يقين … لان به الشفا مما نقاسي

شعر: ايمن العتوم

جريدة الشعب ١٩٨٧/١١/٢٨م

الاربعاء ٢٨/٢/١٩٩٠م

في مسجد الرسول

شعر ايمن العتوم
المدينة المنورة

النور من لألاء سمتك يسطع
والمسك من جنباته يتضوع
والقلب بالحرم الشريف متيم
وبما احتواه من القداسة مولع
والعين شاردة تحار بما ترى
من هيبة تعمر الندي وتسمع
والاذن تصغي للاذان فتنتشي
ويهزها الصوت الشجي الاروع
وتحس افواج الملائكة الالى
تاقت اليهم سجد او ركع
ويهزني ترتيلهم ودويهم
كالنحل او كالطير اذ هي تسجع
في موقف من روحه وجلاله
يأتي على قلب الشقي فيخشع
ويزيل عن قلب العصي قساوة
حتى يثوب الى الرشد ويرجع
ويؤوب الدرب السوي مسارعا
فهنا العصي وان تمادى طيع
والكل افواجا تسير الى الهدى
ويشدها امر الصلاة فتهرع
والنفس يحروها الخشوع اذا رات
قبر النبي ويحتويها الموضع
ووقفت يملكني الجلال امامه
والطرف مغض والجوارح خشع
بالامس كنا نملك الدنيا وما
في الكون للاسلام طرا خضع
واليوم يضعف في الديار مضلل
ويحل ما يهوى الهوى ويشرع
يا سيد الثقلين بثت بيننا
فتن وللاعداء فينا مطمع
تاهت بهم سبل الرشاد فاصبحوا
حيرى وشرعته الرشيدة ضيعوا
جاءوا بما تأباه نفس موحد
فالخطب حقا فادح ومروع
يا مرشد الدنيا الى نبع الهدى
ومزيل عنها ظلمة تتقشع
اني اتيت وفي الخواطر مطلب
والنفس لا تفتأ تريد وتطمع
يا سيدي اني قليل بضاعة
لكن حسبي منك انك تشفع
يا خير من قد سار من فوق الثرى
ستردد الدنيا الهتاف وتصدع
انا بغير محمد لا نقتدي
ولغير شرعة ربنا لا نتبع

مدرسة سوف

مدرسة سوف من اقدم المدارس في المملكة فقد تأسست عام ١٩٤٥ درس فيها والدي الابتدائية ودرست انا فيها الصف الاول الابتدائي وبسبب تنقل والدي معلما ومتعلما في الجامعات نأيت عنها وعن مسقط راسي سوف

وبعد عشر سنين وفي عصر يوم من ايام صيف عام ١٩٩١ كنت على موعد معها فالتقيتها خالية وليس فيها ما يؤنسها الا اشعة الشمس التي كانت تمتد على جدرانها وسلمالتها تدفئها وتحنو عليها
وتوجهت نحو غرفة الصف التي درست فيها وجلست هناك فهاجت بي الاشواق ولمحت امامي صور الماضي وتذكرت كم مر هنا من طلاب وتبدل من معلمين كثيرين وتغيروا وما زالت هي كما هي بكل معالمها التي نقشت في ذهني منذ ان كنت صغيرا
ولئن كنت اعجز عن التعبير في مثل هذه المواقف الخالدة الا انني حاولت ان اقترب ولو قليلا لاسطر بعض ما جاش في صدري من خلال هذه الابيات.

مرة اخرى على الاشواق القى
وجهك السمح وهذا النور طلقا
انقش الحب على ذاكرتي
فهو في مستقبل الايام ابقى
كم سنين غبرت يا مهجتي
سبقت منصرم الازمان سبقا
البين البسمة الغراء ام
اسبغ الدمعة من جفني عتقا
اكل البين حشاشات الجوى
ورمى الحب لشوقي ما تبقى
مرة اخرى تداوي جرحنا
بعد ان حول قلب الصب مزقا
في حسى علمته معنى الهوى
وجفا لولا هواك لم يرقا
طبع الحب على القلب الهنا
فلماذا انا دون الصحب اشقى
مرة اخرى وفيها فرحتي
يا زمان الهجر وصلا مستحقا
كلما ارنو اليها يشتكي
قلبي الملهوف في جنبي خفقا
غادر يا زمن البعد فلا
بين قلبي وحديد الصخر فرقا
بعد عشر من سنين التقي
تشرق العين بدمع الحب شرقا
جئتك اليوم ايا مدرستي
وفؤادي من دم الالام يسقى
وقف التاريخ فيك وقفة
وبك الدرب الى الامجاد شقا
اسال القلب وهل انسى الصبا
ام سيتني البين ما في القلب حقا
هذه داري وهذا منزلي
انا في محضن الامال صدقا
هتف القلب وغنى خاطري
كلما لاحت لي الاحلام برقا
المس الحائط او احضنه
مثل طفل حضنته الام شوقا
واخال الارض مدت يدها
لصغير كاد ان يوشك غرقا
هاهنا صفي وهذا مقعدي
وهنا خطت لي الاقدار بلقا
وهنا المجد هفا لي باسما
وهنا كانت بي الامال ترقى
كم تخذت الدرس لي منتهجا
يكشف الظلمة او ينشد افقا
[illegible]سري انت فهل لي غاية
يرتجى فيها فؤادي اليوم عتقا
[illegible] لما تدركي بعد العنا
فالشقا بعدك قد اوغل حرقا
[illegible] من انت رياض زخرفت
من رياض الخلد ريحانا وعبقا
[illegible] انهار الهوى في خاطري
فمتى تسلي الحشا عرقا فعرقا
انت حبي وحياتي والمنى
ففؤادي غير حب ما تلقى
عشت فيك كل يوم مشرق
يكتب الامال ازهارا وورقا
كلما لاحت لنا ايامنا
لدواعي البعد عنك قلت سحقا
فاغفري لي يا حبيبتي زلتي
واعهدي الا تزيدي الجرح عمقا
[illegible] اول الكون [illegible] ناشىء
[illegible] هذا القلب رقا

جريدة «اللواء» الأسبوعية ٧/٧/١٩٩٣م

أيها الليل

شعر ايمن العتوم

هائم الفكر بليل احلك
انشد الحب لنفسي وله
انا جيك وقد اتعبني
ليلك القاسي وزهر الليلك
كم طموح سار مثلي دربه
بثبات رغم وعر المسلك
وتحدى في اباء شامخ
فلك النجم ونجم الفلك
انا فوق السحب ابني منزلا
عز الا عن طموح مهلك
ايها الليل وقلبي واجف
لست ابكي لضياء مدلك
«العتوم» النبت لا يخشى الدجى
لا ولا من ظلمها قد يشتكي
لو عراه ما تسمى باسمه
جل ما يخشاه بيت الدرك

●●●

ايها الليل الكئيب القاتم
ائتني بالفجر حلوا حالم
رغم ما تبعثه من وحشة
انا في حضن الاماني نائم
صب في الحب الذي قد صاغه
خاطري المضنى وقلبي الهائم
وامنحني صورة الحسن التي
تنعش النفس فاني سائم
اي سر فيك قد اخفيته
عن نديم، هو بعد النادم
نسمة تبعثها في خاطري
وقعها في النفس وقع صارم
ذكرتني يوم وصل عادل
بعد ان ماطل خل ظالم
كل من ذاق الهوى اغرقته
وانا في بحرهن العائم

●●●

رحت صبحا في الهوى متبلجا
وشعورا في الجوى مختلجا
خاشع الطرف وقلبي حائر
ولساني في هواها لجلجا
رغم ما عانيته من بعدها
سحرها الفتان قلبي ولجا
اسعدتني ثم اشقتني معا
ويل حبي فيه او منه النجا
ليت من يملكني فلسمني
في حياتي كل يأس ورجا
فالني ليل قتيل نجمه
يا ضياء العين انت المرتجى
تائه في بحر حبي فارسمي
لي طريقا في الهوى منتهجا
واقع في شرك الحب الذي
وحده الملك ان ينفرجا

جريدة «اللواء» الأسبوعية ١٧-٢٤/ ٤/ ١٩٩١م

سوف... يا روضة لم تَخلق

شعر: أيمن العتوم

ذات المكان وذات ملبوسي الشرق
وبنفس أشواقي المظلمة للتلاقي
لله كم ضحك الزمان بوجهنا
فأضاء ليلي كالصباح الأبلق
أيظل يجمعنا الوداد على الهوى
أم نستقل بفرقة ونمزق
كتب الزمان قصائدي في لوحه
وأقر أني فيه غير موفق
مزقتها من بعد أن مزقتني
فالشعر يصدق والهوى لم يصدق
بكيت عيوني على حقيق ذلكي
دمعاً وأي الدمع لم يترقرق
لا تبتئس كل الصحاب متيم
من عاش فينا مرة لم يعشق
لكن عواطف شاعر متحمس
ليست عواطف كاذب متملق
كم كنت قبل هواي أحلف أنني
لن يستبد بي الهيام ويرتقي
لكنني من بعد سحر عيونها
عمري لها، ما فات منه وما بقي
تنادي على المجد دعك من الهوى
ويركب قافلة المعالي فالحق
لك غاية ترنو إليها كلما
أومت إليك فشد عزمك واسبق

●●●

يا أرض سوف ويا ترابا ضمني
وحضنتني على ... لم تقلق
أين الطفولة أين عهد مراحها؟
أيام زهر حياتنا لم يورق
يا سوف لا حسب يطيب ولا غنى
إن يخفق الوالي بغيرك يخفق
لك ما يؤرقني إليك إذا اختلى
بي جنح هذا الليل، كل تشوقي
رحماك لا حب كمثل حرقة
ويعيش بالقلب المعنى المرهق
يا طيب منسمها أرق إذا هفا
ولحن في فكر المحب المطرق
أبحرت في لج الغرام فمركبي
إن يلق ربانا سواك يغرق
أعلو لأنسام الربى فلعلها
تهب الشفاء للوعتي وتحرقي
يا دار حب أنت قد أنشأتني
أنساك بعد تغيب وتفرق
أنسى، وما أنسى؟ فأنسى جدتي
يا منية في جو حبي حلقت
هي بعد أمي الأم بل هي منبع
منها العواطف والمحبة أستقي
ثم هل ترى أنساك جدي غاديا
في همة للكرم بعد الشرق؟
سأظل أذكر ما حييت جبالها
وزهورها، وجمال عهد ريق
وأريق شعري جدولاً متسلسلاً
في حبها، وأجلها في منطقي
ومحبتي وقف عليك فهين
يا سوف ما يلقى الفؤاد وما لقي

جريدة «رحاب الجامعة» جامعة العلوم والتكنلوجيا ٢٧/ ٢/ ١٩٩١م

يا قاذف المـوت

يا قاذف الموت الزؤام
وصانع النصر المبين
اتراك تغدو بالهدى اسطورة في العالمين؟
اتراك تحيا في خيال المبدعين
ام ان في النصر الذي حققته
سر دفين
الكل يدري... غير اني
لست ادري

* * * *

ما منصب المتفيهقين امام ما تحياه
الا كالقزم
انت الذي ابطلت بالايمان فلسفة الامم
فلك العلا في الساح والمجد الاشم
فاصعد الى رأس القمم
نحو العلا
واسلك طريقك نيرا وسط الظلم
رغم العدى
ارهم بعزمك بعض ما ذاقته غاد او ارم
ابقوة الايمان ارجعت البلاد لاهلها
ام بالبريد وسيلة الشجب الاصم
ام بالهتاف لمجدنا وديارنا...
ام بالخطاب وبالكلم
الكل يدري... غير اني
لست ادري

* * * *

احجارة الاطفال قد قهرت صواريخ العدى
يا للعجب!!
ايزول جيشهم القوي اذا اتاهم هادرا
سيل العلب!!؟
ايفر خوف الطفل والحجر الذي في كفه
جيش لجب؟؟
اتراه قومي... ما السبب؟
الكل يدري... غير اني
لست ادري

* * * *

انا لست ادري غير اني موقن
ان السحابة لن تطول
ولسوف ينداح الظلام ويشرق الفجر الجميل
فيضيء عتمات الغسق
ولسوف تعرف عودة الاكوان
للايمان من صوت الصليل
والنصر يبدو للخلائق كالفلق
ويزول عهد الغاشمين ووطأة الظلم الثقيل
فلسوف ترجع غزة
يافا وعكا والجليل
ومعابد الرحمن ترجع والخليل
ولسوف نطرد كل عربيد دخيل
وبظل نور الحق والايمان انا
سوف نحيا

ايمن العتوم
اربد

جريدة «اللواء» الأسبوعية ١٩٨٧م

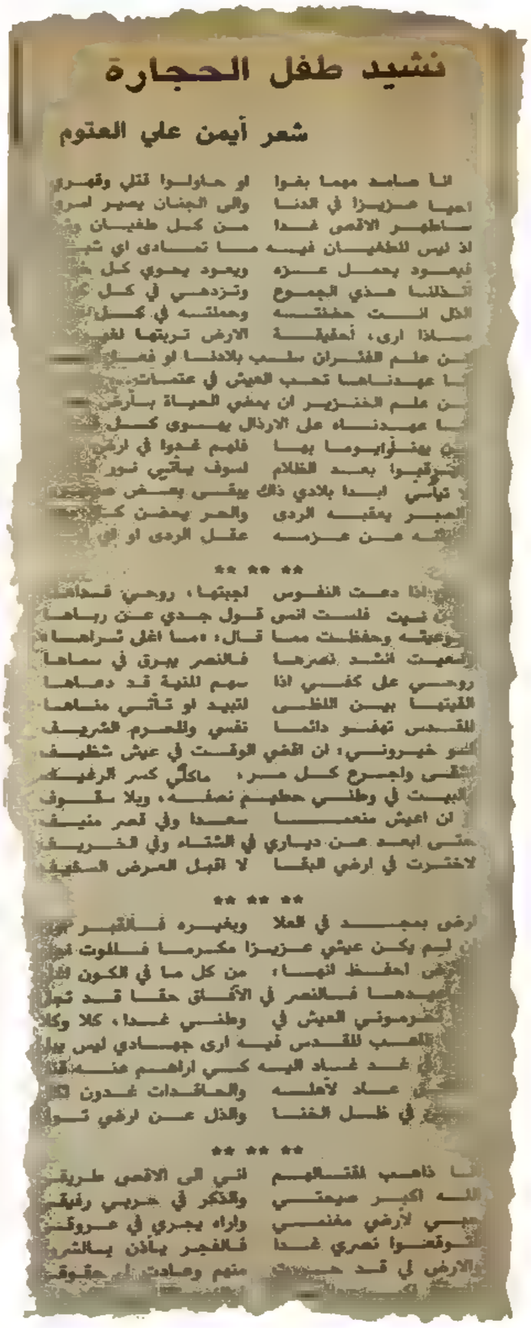

نشيد طفل الحجارة

شعر أيمن علي العتوم

انا صامد مهما بغوا — لو حاولوا قتلي وقهري
احيا عزيزا في الدنا — والى الجنان بصير امري
ساطهر الاقصى غدا — من كل طغيان و...
اذ ليس للطغيان فيه — ما تمادى اي شبـ...
فيعود يحمل عزه — ويعود يحوي كل ...
اتخالنا هذي الجموع — وتزدهي في كل ...
الذل انت حفظته — وحملته في كل ...
ماذا ارى، أحقيقة — الارض تربتها لغير...
من علم الفئران سلب بلادنا او غصـ...
انا عهدناها تحب العيش في عتمات...
من علم الخنزير ان يمضي الحياة بأرض...
انا عهدناه على الارذال يهوى كل ...
...ن يهنؤا يوما بها — فلهم غدوا في ارض...
...ترقبوا بعد الظلام — لسوف يأتي نور ...
لا تيأسي ابدا بلادي ذاك يبقى بعض ...
الصبر يعقبه الردى — والحر يمضي كل ...
...ه عن عزمه — عقل الردى او ...

** ** **

...اذا دعت النفوس — لجبتها، روحي قدا...
...ن نبهت فلست انس قول جدي عن رباها
...وعيته وحفظت مما قال: «ما اغلى ثراها»
...لعهدت انشد نصرها — فالنصر يبرق في سماها
روحي على كفي اذا — سهم المنية قد دعاها
القيتها بين اللظى — لتبيد او تأتي مناها
القدس تهفو دائما — نفسي والحرم الشريف
...لو خيروني: ان اقضي الوقت في عيش شظيف
...في واجرع كل مر، ماكلي كسر الرغيف
...البيت لي وطني حطيم نصفه، وبلا سقوف
لن اعيش منعما — سعدا وفي لعمر منيف
حتى ابعد عن دياري في الشتاء وفي الخريف
لاخترت في ارضي البقا — لا اقبل العرض السخيف

** ** **

ارضي بمجد في العلا — ويغيره فالقبر ...
...ن لم يكن عيشي عزيزا مكرما فالموت ...
...ض احفظ لتهما: من كل ما في الكون ...
...عهدها فالنصر في الآفاق حقا قد تهل...
...حرموني العيش في — وطني غدا، كلا وكلا
...الشعب للقدس فيه اري جهادي ليس ...
...في غد غاد اليه كي ارلهم عنه ...
...ن عاد لأهله — والحاقدات غدون ...
...في ظل الغنا — والذل عن ارضي تو...

** ** **

...نا ذاهب لقتالهم — اني الى الاقصى طريقي
الله اكبر صيحتي — والذكر في حربي رفيقي
...بي لارضي مغنمي — ولواه يجري في عروقي
...توقعوا نصري غدا — فالفجر يأذن بالشروق
...والارض لي قد ... — منهم وعادت لي حقوقي

جريدة «اللواء» الأسبوعية ١٠/ ٢/ ١٩٨٨م

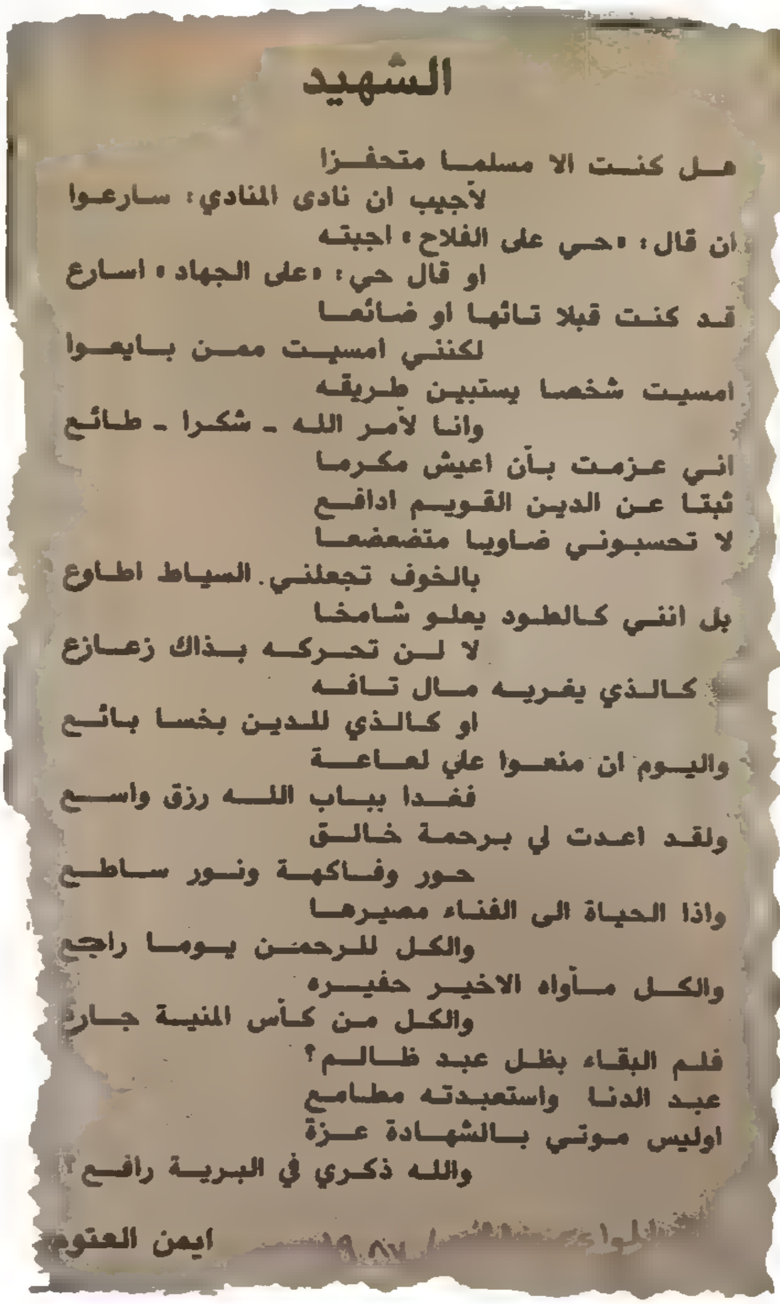

الشهيد

هل كنت الا مسلما متحفزا
لأجيب ان نادى المنادي: سارعوا
ان قال: «حي على الفلاح» اجبته
او قال حي: «على الجهاد» اسارع
قد كنت قبلا تائها او ضائعا
لكنني امسيت ممن بايعوا
امسيت شخصا يستبين طريقه
وانا لأمر الله ـ شكرا ـ طائع
اني عزمت بأن اعيش مكرما
ثبتا عن الدين القويم ادافع
لا تحسبوني ضاويا متضعضعا
بالخوف تجعلني السياط اطاوع
بل انني كالطود يعلو شامخا
لا لن تحركه بذاك زعازع
كالذي يغريه مال تافه
او كالذي للدين بخسا بائع
واليوم ان منعوا علي لعاعة
فغدا بباب الله رزق واسع
ولقد اعدت لي برحمة خالق
حور وفاكهة ونور ساطع
واذا الحياة الى الفناء مصيرها
والكل للرحمن يوما راجع
والكل مأواه الاخير حفيره
والكل من كأس المنية جارع
فلم البقاء بظل عبد ظالم؟
عبد الدنا واستعبدته مطامع
اوليس موتي بالشهادة عزة
والله ذكري في البرية رافع؟

ايمن العتوم

جريدة «اللواء» الأسبوعية ١٠/ ١٢/ ١٩٨٧م

قصّتي مع (بدويّ الجبل):

أوّل مقالةٍ نقديّة كتبتُها كانت عن الشّاعر السّوري البديع (بدوي الجبل)، كنتُ قد قرأتُ ديوانه كامِلاً، وأطربني طربًا شديدًا، إلى الحدّ الّذي حفظتُ مِئات الأبيات منه، وكنتُ أترنّم ببعضِها وأنا نائمٌ من شِدّة تعلّقي بها، وكانت بائيّته أشدّها

علوقًا في ذهني، تلك الّتي يقول في مطلعها:

لا الغوطتانِ ولا الشّبابُ أدعو هَوايَ فلا أُجابُ

أينَ الشّآمُ مِنَ البُحيرةِ والمآذنُ والقِبابُ؟!

وقُبورُ إخواني وما أبقى من السَّيْفِ الضِّرابُ

فقرأتُ ثَمّة عنه، ولمستُ في قصائده غُربته، فكتبتُ عن تلك الغربة الرّوحيّة فيها، وبعثتُ المقال إلى جريدة اللّواء، فنَشَرَتْهُ في صفحةٍ كاملةٍ من صفحاتها. ويبدو أنّ الجريدة وقعتْ في يد المُناضِل (أكرم زعيتر) وقد جاوز الخامسةَ والسّبعين، فقرأ المقالة، فأعجبتْه وأعادتْه إلى صديقه الشّاعر الّذي كان قد مات من سبع سنين تقريبًا وقتَ نشر المَقالة، فهاجتْ به الذّكرى إليه، وأعادتْه إلى أيّامه معه، فاتّصل برئيس تحريرها آنذاك المرحوم حسن التّلّ، ليسأله أنْ يُعرّفه على هذا الكاتب الّذي استطاع أنْ يفهم شِعر صاحبه، ويُوقِظه من قبره ويُجلسه إلى جانبه ليُسامره، فضحك حسن التّلّ طويلاً، وقال له: سأعرّفك عليه بالطّبع، ولكنْ هل تعرف أنّ هذا الكاتب الّذي أعجبك هو طالبُ مدرسة، إنّه لا يزال في الصّفّ الثّالث الإعداديّ!

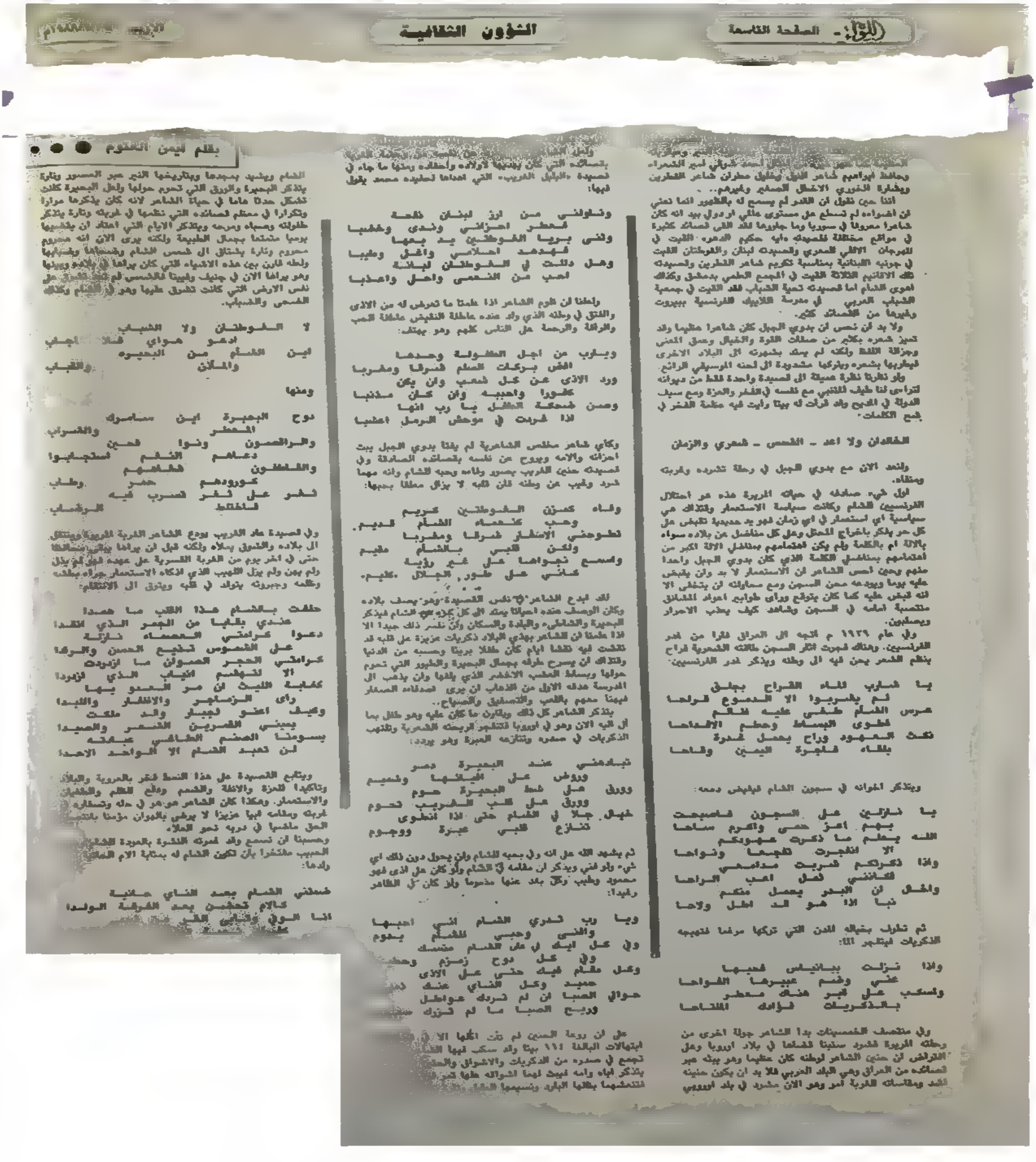

اللواء - الصفحة التاسعة

الشؤون الثقافية

الأربعاء ١٩٨٨/٦/٢٩م

بقلم أيمن العتوم

مقالتي عن الشّاعر بدوي الجبل المنشورة في جريدة اللّواء في ٢٩-٦-١٩٨٨م

الكُتّاب المَرغوبون:

أنا واحدٌ منهم، لا ينفكّ الرُّعب يثقبُ قلبي كلّما هممتُ بدفْع نَصٍّ من نصوصي إلى النّشر، الرُّعب يأتيني من زوايا عدّة، ومستويات مُختلفة، إنّه يأتي على هيئة أسئلة لا إجابة بالطّبع لها: هل تراجعتَ في هذا النّصّ في أدائكَ عن نصّكَ السّابق؟ هل ستركنُ إلى النّجاح الّذي حقّقته روايةٌ ما من رواياتك السّابقة؟ هل هذا النّصّ جديرٌ بالنّشر؟ ماذا سيقول القُرّاء عنه؟ إنّه سيُسقِطك! ماذا سيقول النُّقّاد عنه؟ إنّه سيُدمّرك. لو اكتفيتَ بما نشرت. توقّفْ. تمهّل. إنّكَ لا تملك قوّة سِحريّة ولا إلهامًا ملائكيًّا لتكتب كلّ هذا، وليست لديكَ كلّ هذه الثّقة لتدفع به غير مكترثٍ بما يُقال عنك وما سيُقال؟!

أسئلة كثيرةٌ غير هذه تُشبه المطارق الرّفيعة الّتي تهوي على الدّماغ، ليس ثمّةَ مهربٌ منها. غير أنّ هذا الشّعور بالرّعب مع كلّ عملٍ جديدٍ، بدا أنّه لا يُصيبني وحدي، بل يُصيب كِبار الكُتّاب. وبدا أنّه صِحّيّ من أجل أنْ تمتلك الحِسّ النّقدي الذّاتيّ الّذي يجعلك تُمحّص ما تُقدّم، وتَهَبُه وقتًا كافيًا من التّدقيق والمراجعة، وتُفلتر ما كان شائبًا أو زائدًا؛ إنّه أمرٌ طبيعيّ، والّذين لا يشعرون به من الكُتّاب هم المرضى، إذ إنّ فقدان سمة النّقد الذّاتيّ عند الكاتب هي طامّة كُبرى!

يدُ أبي:

لم أدفعْ بروايةٍ إلى النّشر، قبل أنْ يقرأها أبي، أبي الّذي تعلّمتُ منه الكثير، تعلّمتُ منه هنا الدّقّة، حتّى في الحركة وفي علامة التّرقيم، ناهيكَ عن الدّقّة في اللّغة والنّحو والحرص على ألاّ يكون في الرّواية أيّ خطأ، ما لم يكنْ بعدَ ذلك في مقدورنا. من أجل هذه الدّقّة ستلحظون أنّ كثيرًا من حروف هذه الرّوايات مَشكولٌ ومَضبوط، فلا تكاد تمرّ كلمةٌ دون ضبط، وهذا النّهج فيه توضيحٌ للمعنى، وإزالةٌ للإبهام، ورِسالةٌ في التّعلّم، إذ إنّني أضبطُ حركة الاسم الممنوع من الصّرف على سبيل المِثال في حالة الجرّ حتّى ينتبه القارِئ إلى ذلك.

قراءة أبي للرّواية تعني أنّني أتعلّم منه كلّ مرةٍ جديدًا، فالعربيّة السّاحرة خِضمّ لا يحدّه حَدّ، ولا أزال أستأنسُ برأي أبي في رواياتي إلى اليوم، وكان أبي يقرأ ما أبعثه إليه سطرًا سطرًا وحرفًا حرفًا، ويُصحّح الخطأ أو الخطل، ويُقوّم المُعوجّ، ثُمّ يُجمِلُ رأيه في الرّواية في النّهاية في ورقةٍ أو ورقتَين، فمن رأيه في رواية (اسمه أحمد): "الرّواية سَدّتْ مكانًا مُهِمًّا في تاريخ بلاد الشّام". ومن رأيه في رواية (أنا يوسف): "عبّرت الرّواية عن حقيقة الأوضاع السّياسيّة في

مصر قديمًا، وقد ينسحبُ هذا كذلك إلى هذا العصر من استبداد الزّعماء، والمُنافقين من حولهم، والآكِلين بالدِّين من الكَهَنة قديمًا وحديثًا". ومن رأيه في رواية (أرض الله): "أرى أنّها من أهمّ رواياتك إنْ لم تكن أهمّها. هي انتِصارٌ للحقّ والحرّيّة بمفهومهما العالَميّ". ومن رأيه في رواية (مسغبة): "الرّواية جِدٌّ مُمتِعة بلُغتها وتعابيرها ومعانيها. استغرقني الضّحك الطّبيعيّ دونما تكلُّف لطرافة بعضِ مواقفها العجيبة".

رأي أبي برواياتي

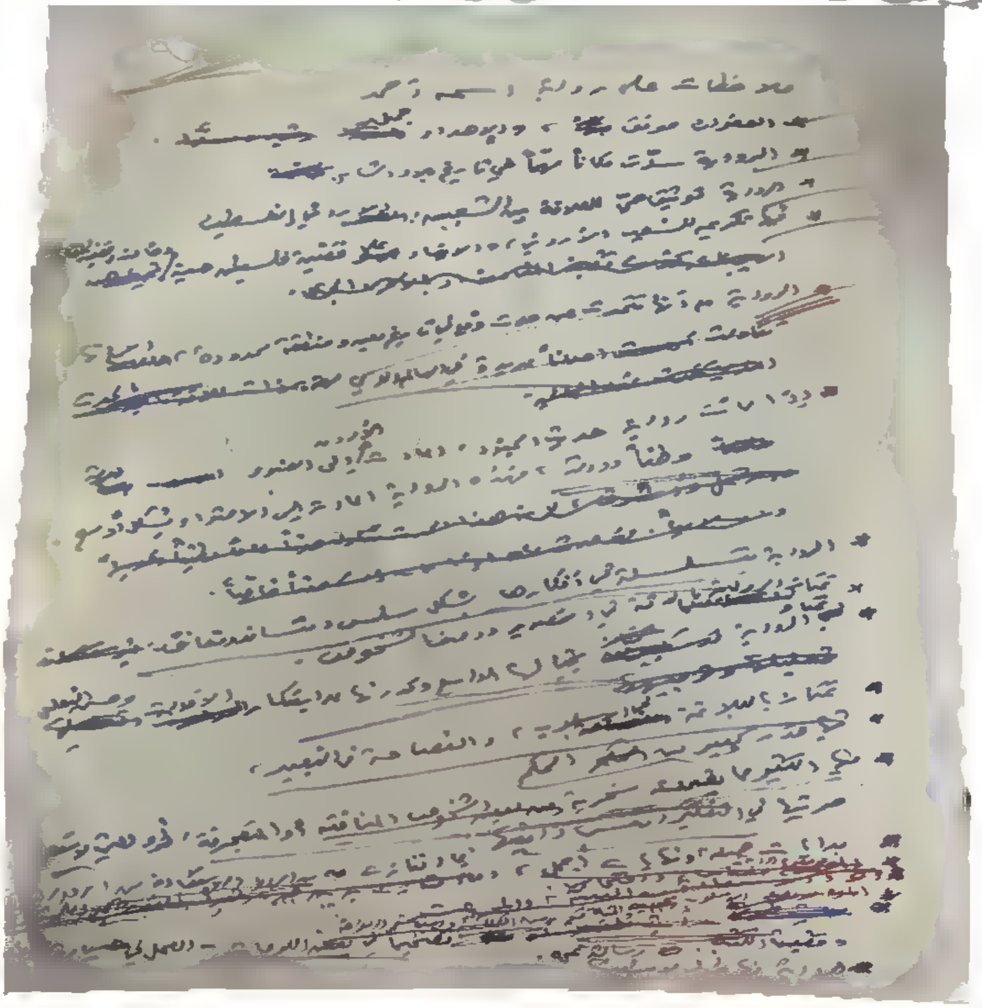

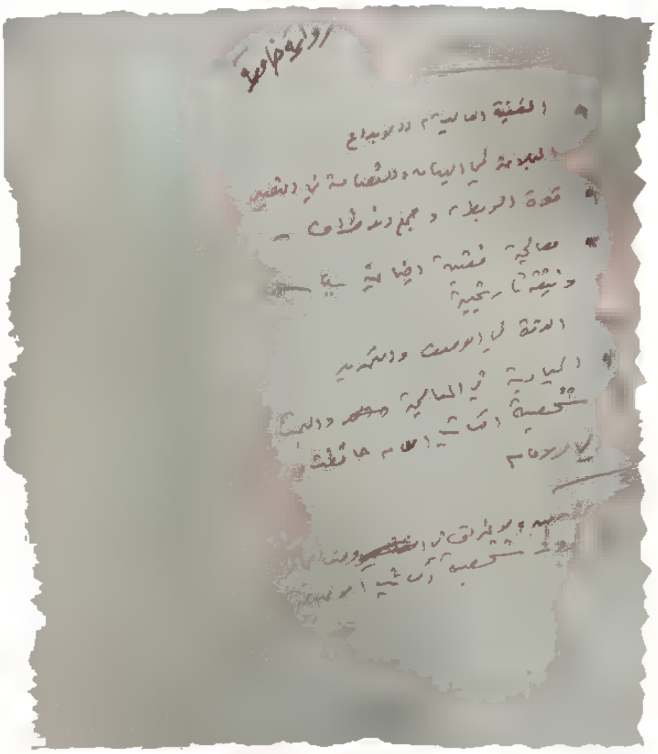

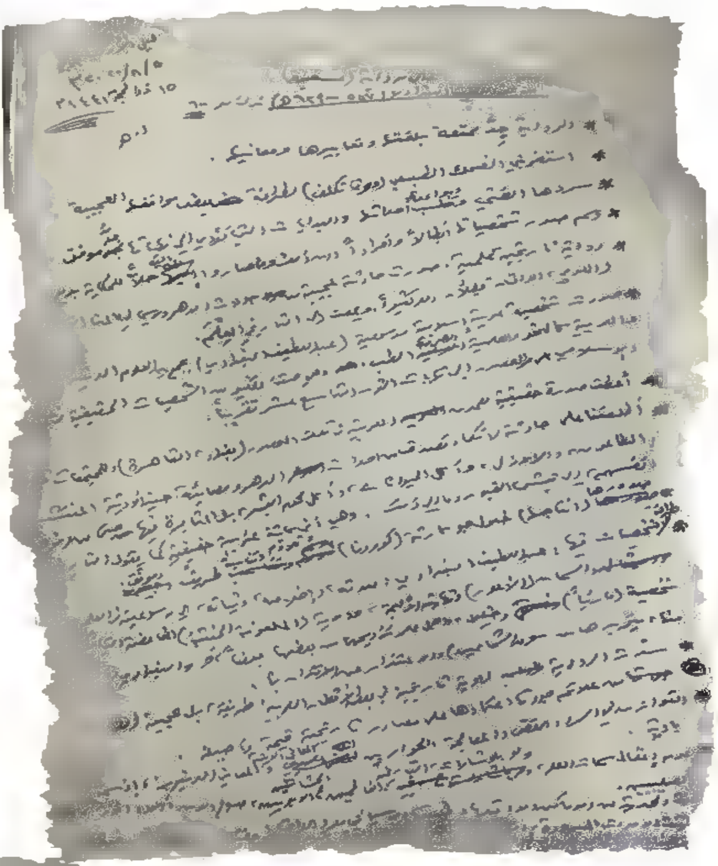

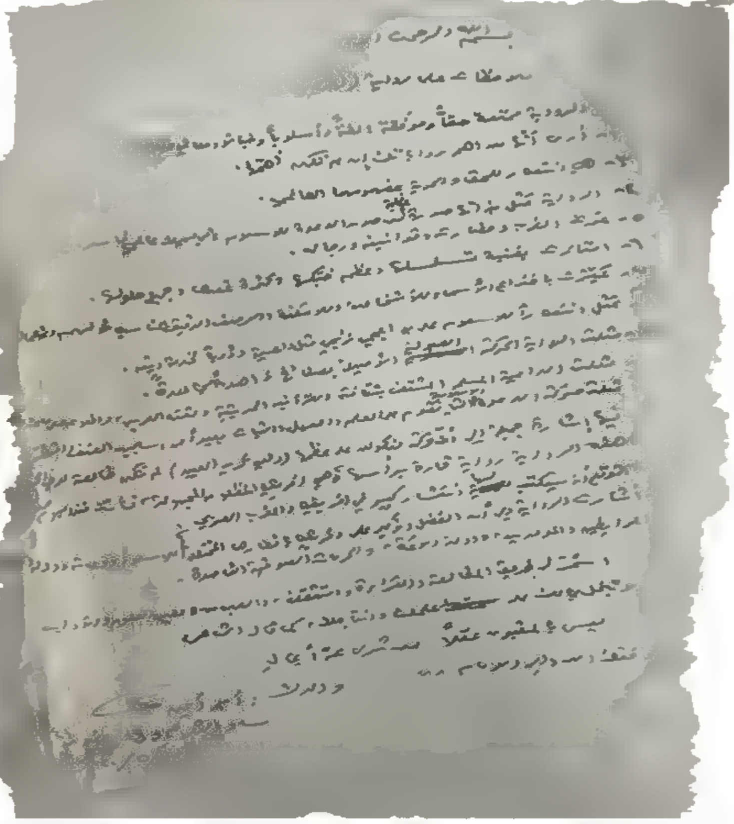

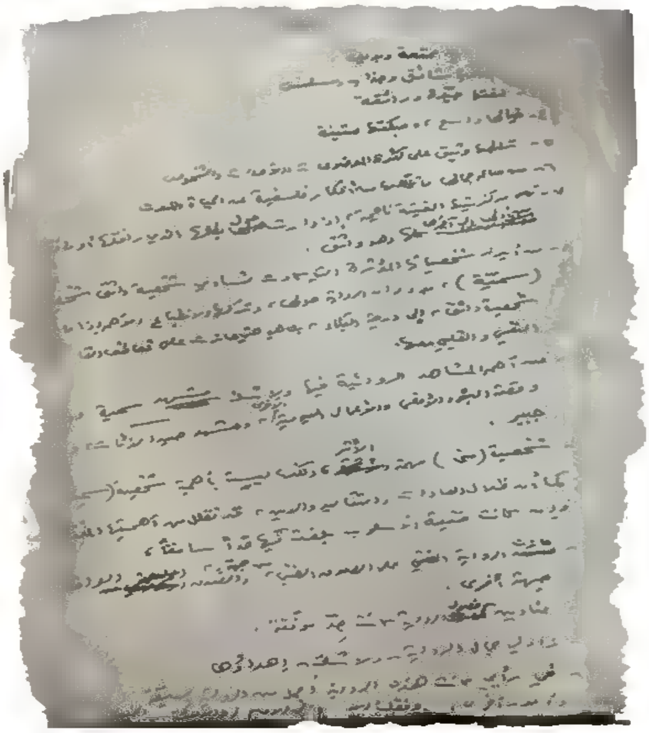

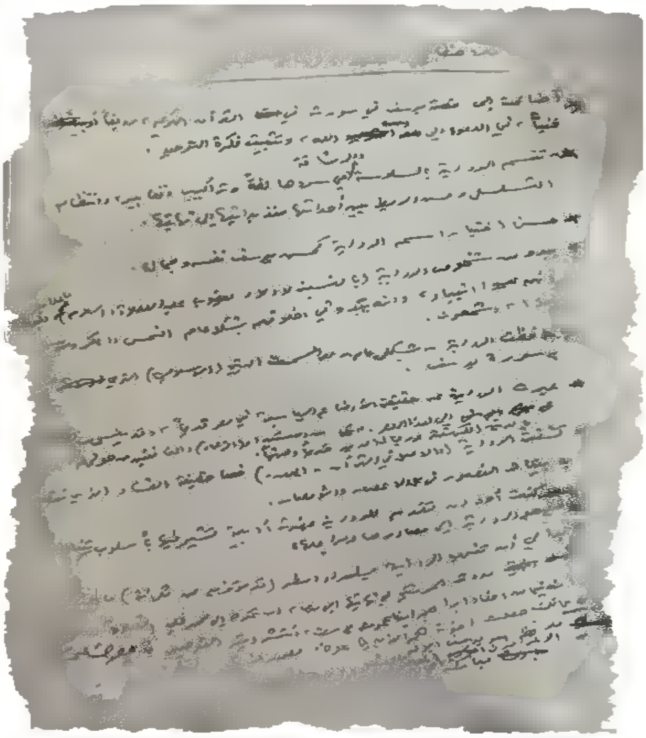

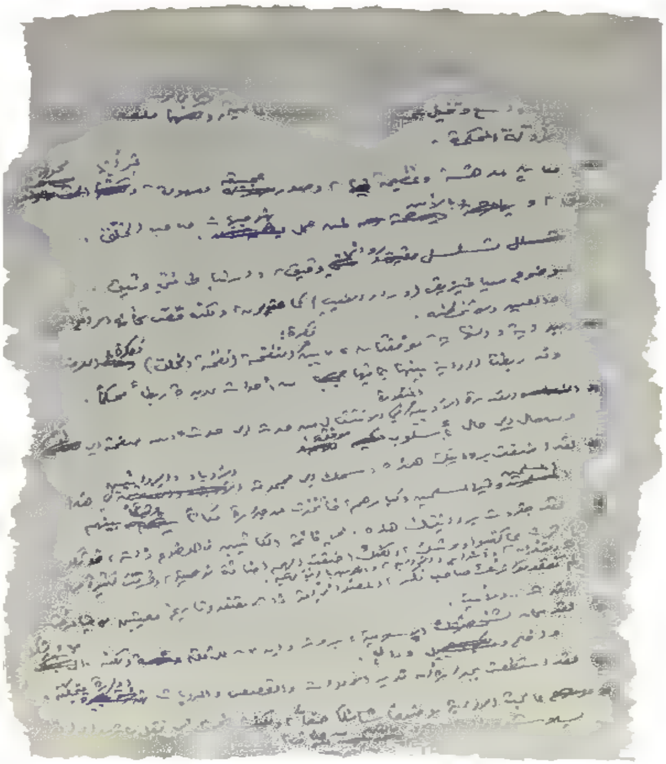

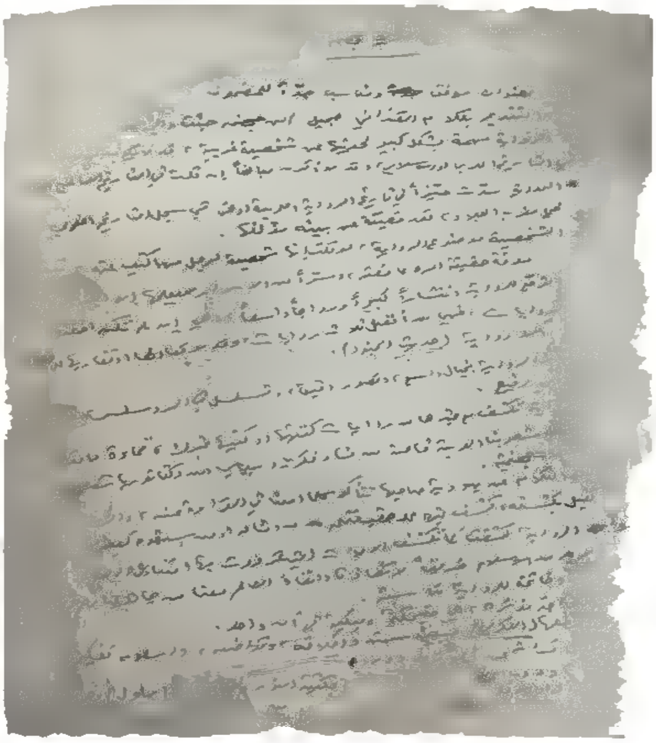

خُبز الكتابة:

الكتابة في وطننا العربيّ بوجهٍ عامّ لا تُطعِمُ خُبزًا، وأظنّ أنّها في العالَم الغربيّ والأمريكيّ أيضًا لا تُطعم اليوم خُبزًا

كما نتخيّل، فكثيرٌ من كُتّاب الغرب يُعانون ولا يستطيعون أنْ يعيشوا فقط على ما يكتبون، الأمر في أوطاننا العربيّة بالطّبع أقسى وأنكى، فلا أحدَ حتّى ولو كانت كتبه تُطبَع عشرات الطّبعات يُمكن أنْ يكتفي ببلّ الرّيق الّذي تأتي به صِناعة الكتابة، كانوا يقولون: "إنّه يعيشُ على سِنّ قلمه" أي تضمن له الكتابةُ حياةً كريمة، ولعلّ هذا حدث بالفِعل في عالَمنا العربيّ في فترةٍ ما، لستُ مهتمًّا كثيرًا بالبحث عنها، فكلّنا نعرفُ أنّه لا يُثري الكاتب مِمّا يكتب ألبتّة، وعليه أنْ يُكافح في عملٍ حقيقيّ من أجل أنْ يتمكّن من الاستِمرار بعيدًا عن أوهام الغِنى الّتي تدور في أذهان بعضِنا عن مردود الكتابة، غير أنّ العمل بعيدًا عن الكتابة في دوامٍ طويل قد يُعرقِل هذه الكتابة، ويصرف الكاتب أنْ يتفرّغ ولو قليلاً لها، ولقد صدق المتنبّي حينَ قرنَ الأدب مع الفقر في قوله:

وسِرْتُ قَصْدَكَ لا أَلْوِي عَلى أَحَدٍ

أَحُثُّ راحِلَتَيّ الفقرَ والأدبا

من تجربتي، دفعتُ من جيبي - في البداية - على كُتُبي حتّى وقفتُ على قَدَمَيّ، ولم تكن الكتابة لتغُنيني عن العمل، ولم أتفرّغ لها يومًا، بل عملتُ في الهندسة في مواقع صعبة،

وعملتُ في التّدريس واحدًا وعشرين عامًا ولا زلتُ، ولم أثبت على مدرسةٍ واحدة، إذْ كنتُ أقفز من مدرسةٍ إلى أخرى بعد عامٍ دراسيٍّ واحدٍ وأحيانًا أكثر، ولقد تنقّلت في هذين العَقدين من التّدريس عبر عشر مدارس مختلفة على الأقلّ. ومعلومٌ أنّ التّدريس يأخذُ من الجَهد في الجسم والعقل ما يأخُذ، ولا بأسَ من استِحضار أبيات إبراهيم طوقان في هذا الصّدد، وقد كان يعمل معلّمًا حينَ قال:

حَسْب الْمُعَلِّم غُمَّـةً وَكَآبَـةً

مَرْأى الدَّفَاتِرِ بُكْـرَةً وَأَصِيلا

مِئَـةٌ عَلَى مِئَةٍ إِذَا هِيَ صُلِّحَتْ

وَجَدَ العَمَى نَحْوَ الْعُيُونِ سَبِيلا

وهذا كلّه مُضنٍ، ويُمكن أنْ يصرف ذِهنك عن الكتابة، بل قد يُحبِطك، ويدفعك إلى الاستِسلام ونسيان الأمر. غير أنّني تغلّبتُ على ذلك، باستِثمار الوقتِ الصّحيح في القراءة الصّحيحة، وراكمتُ تلك المعرفة أثناء الانهِماك بالعمل، حتّى إذا حانتْ فرصةٌ مهما كانتْ ضئيلةً للكتابة كتبت.

ومع ذلك، فليس مطلوبًا من الكتابة أنْ تُطعِمَ خُبزًا، يكفي أنّ فيها فوائد جَمّة أخرى غير المال، ويكفي أنّها تَشفي ويُستَشفَى بها.

غير أنّ هناك مُعضِلةً أخرى، هي أنّ الكاتب الّذي يسيرُ كِتابُه، لا يلبثُ أنْ يُزوّر ويُقرصَن وتُنتَج منه نُسخ مُقلّدة. وأنا أعتقدُ أنّني من أكثر الكُتّاب الّذين قُرصِنتْ كُتُبهم في الوطن العربيّ. فما إنْ تمرّ طبعتان أو ثلاثة من الكتاب حتّى ترى نُسَخه المُقلّدة تملأ السّوق، من غير اعتِبار للكاتب الّذي يتوقّع أنْ يجد بُلْغةً من وراء كِتابه بعدَ تَعَبِه المُضني وسَهَرِه الطّويل، ولا اعتِبارٍ لدار النّشر الّتي تعبث هي الأخرى.

ولقد حاولتْ دور النّشر الّتي نشرتُ معها أنْ تُحارب التّزوير، ولكنّ التّزوير في بلادنا العربيّة فَنّ، وله فنّانوه ومَهَرتُه، بل هو بورصةٌ يتنافسُ فيها عباقرة التّقليد، فتراهم يُسمّون نُسَخهم المُزوّرة (بالماستر)؛ أي أنّها طِبق الأصل، يتحدّون بها النّاس أنْ يكتشفوها، وهم يُدِلّون بذلك على صِغار المُزوّرين الّذين يزوّرون نُسخًا رديئة، تُكتَشفُ من النّظرة الأولى قبل أنْ يُفتَح الكتاب، فالغلاف ألوانه غير واضحة، والقَصّ غير مُتساوٍ في أطراف الكتاب، والورق رديءٌ وخفيف مثل الورق الّذي تُلفّ به ساندويتشات الفلافل،

والسّطور في الأوراق مائلة، وحبرها غير واضح، وإذا أنتَ فركْتَها بإصبعك امّحت الحروف... كلّ هذا لا يُقدِم عليه كِبارُ المُزوّرين، فهم يتحاشون هذه الأخطاء جميعها. ويقع التّنافس بين المُزوّرين، أمّا الكاتب والنّاشر الأصليّ فلا شأنَ لهما، فقد باعا الطّبعة الأولى من الكتاب وهذا يكفيهما!

أمرٌ آخَر يقع في هذا الشّأن، وهو نشر صيغة الـ (PDF) من الكِتاب، وهو رَفعُه مجّانًا على مواقع معيّنة على الإنترنت وسهولة الحصول عليه، وتحميله على حاسوبك أو هاتفك المحمول من دون أيّ تبعاتٍ ماديّة. في الحقيقة لم أعارضْ هذه الطّريقة من أوّل ما حصلتْ مع كتبي، وكان بعضُ القُرّاء يشعر بالذّنب لإقدامه على أمرٍ كهذا يَحرِم الكاتبَ من حقوقه المادّية، فيرجع إليّ معتذرًا ومُستأذِنًا أنْ يقرأ الكتاب بهذه الصّيغة المجّانية، فأسمح بذلك، وأقول لهم: الإذن مفتوح حتّى من دون رجوعٍ إليّ، بل إنّني أزلتُ كلّ حَرَجٍ لديهم في هذا الأمر عندما كنتُ أنا أنشر على صفحات التّواصل الخاصّة بي على الإنترنت روابط الوصول إلى هذه الرّوايات.

ومع وجود هذين الأمرين؛ القرصنة، والنّسخة الإلكترونيّة المجّانية، اللّذَين يظهر أنّهما من المصائب الّتي تحلّ على الكاتب العربيّ، إلا أنّني رأيتُ فيها وجهًا إيجابيًّا وجميلاً،

فلقد أتاح التّزوير أنْ يحصل الفقراء على كُتُبي بنصف السّعر، وأتاح الـ (PDF) أنْ يحصل المَنفيّون والنّاؤون عليها مجّانًا، وهذا وسّع دائرة انتشاري إلى الحدّ الّذي كان التّحميل فيه لكتابٍ من كتبي، أو مجموع كتبي يصل إلى نصف مليون تحميل من هذه النّسخ المجّانيّة، وإذا كانت الرّسالة مُقدّمةً على المادّة كما أعتقد، فيا مرحبًا بمصيبةٍ جميلةٍ مثلِ هذه!

أنْ تصل كلمتي إلى أكبر عدد من النّاس، هو المجدُ الّذي أسعى إليه، فإضافةً إلى ما سبقَ، قمتُ بمبادراتٍ شخصيّة، من أجل وصول الكتاب إلى القارئ وانتشاره، من ذلك أنّني في ندواتي كنتُ أحمل دائمًا كرتونةً من الكتب، أسأل الجمهور أثناء النّدوة أو في نهايتها بعضَ الأسئلة الخفيفة، وأُهدي مَنْ يُجيب عنها إجابةً صحيحةً واحِدًا من كتبي. كما أنّني ساهمتُ في إنشاء بعض المكتبات في المُخيّمات الفلسطينيّة في الأردنّ؛ كمخيّم غزّة، وتبرّعتُ لهم بكلّ كتبي، وبمجموعةٍ أخرى غيرها. أمّا المدارس والمكتبات العامّة والمكتبات الوقفيّة فقد تبرّعتُ لها بعددٍ كبيرٍ من الكتب، وذلك من فضل الله عليّ. وطفتُ إلى ذلك بسيّارتي في يومِ فراغٍ من شغلي على الجامعات الأردنيّة من جامعة اليرموك في الشّمال إلى جامعة الحسين بن طلال في الجنوب، وأهديتُ كلّ جامعةٍ عشر كتبٍ من كتبي لمكتباتها. إنّ هذا ما

أسعى إليه. وما أرى فيه النّفع. والمادّة تأتي به أو بغيره، يأتي بها الله.

دُور النَّشر:

ليست كلّها سواءً، بعضُها لا يحمل من فنّ النّشر إلاّ اسمه، وبعضُها يرتقي إلى أنْ يكون ركيزةً مُهمّةً في صِناعة الكاتب، وصِناعةُ النّشر فَنّ، وهو رِسالة؛ أيًّا تكنْ هذه الرّسالة. ودُور النّشر الّتي تُسوّق الكتب ذات المواضيع الرّخيصة من أجل البُلْغة قصيرة الأعمار لأنّها قصيرة الأنظار، لا تستمرّ. وأمّا من دَفَعتْها غاية، وأوقدتْ هِمّتَها رؤيةٌ واضحة، وقامتْ على مُؤسّسيّة لا على أشخاص، فهذه الدّور هي الّتي تبقى.

عانيتُ في أوّل نَصٍّ نشرتُه، عانيتُ كثيرًا، بعض النّاشرين تَقالّ ما لديّ، أو استخفّ به وبي، ولا ألومُ أحدًا، فأنا أُدرك أنّ هذا أمرٌ طبيعيّ في مسيرة كلّ كاتبٍ يريدُ أنْ يحفر اسمَه في الصّخر، أنْ يتعثّر، أنْ يجدَ من الصّدّ والاستِهانة والاستِهزاء ما لا يُمكن وصفُه، وهل يُمكن أنْ تقف دون أنْ تتعثّر؟! إنّما القيام من السّقطة مع الإصرار خيرٌ من المضيّ في الطّريق دون عوائق، فإنّ قلّة العائق تعني قلّة الأثر والتّأثير.

كان هذا التعثّر في البدايات، ثُمّ لمّا صارتْ رواياتي سَيّارة، صارتْ دُور النّشر الكبيرة - بحمد الله - تسألني التّعاون معها وأنْ أكونَ ضِمن كُتّابها، ولم يزدْني ذلك إلاّ حمدًا لله وشكرًا، فما كتبَ القَبولَ لِما أكتبُ إلاّ الله، ولم يُبطِرْني ذلك أو يدفعني سوءُ تعاملهم معي في البداية إلى أنْ أُصعّر خَدّي لا سمَحَ الله، ولا أنْ يدفعني الغضب المُحتمل من تصرّفهم مع الكُتّاب إلى أنْ أُعرِض ازوِرارًا عمّا يتقدّمون به إليّ، فأنا - ربّما - لو كنتُ مكانهم لتصّرفتُ على النّحو الّذي تصرّفوا عليه، ولكنّني كنتُ على الأقلّ سأفحص النّصّ المُقدّم إليّ، لعلّه يكون واعِدًا فأَمضي به خُطوةً إلى الأمام بَدَلَ أنْ أظلمه بالإهمال والانصِراف عنه، وإلقاء السّؤال المُتعالي المُتعجرف: "هه... ومَنْ تكون؟".

مع مُؤسّسة فلسطين للثّقافة:

لَقِيَتْني الدّار ولم ألقَها، كان ذلك قبل أوّل رواية، وكان اللّقاء بها مع الشّعر، وهي الدّار الّتي طبعتْ ديواني (خُذْني إلى المسجد الأقصى) عام 2009م، وكان باكورة ما نُشِر لي، ومع أنّه لم ينتشر انتِشارًا واسِعًا، لكنْ حسبُه أنّه الجرسَ الّذي عُلِّقَ أوّل مرّة. كانت الدّار تنشر للكُتّاب الّذين يحملون قِيمَ الوطن والعودة والمُقاومة والصّمود والأصالة، بغضّ النّظر عن لونه

السّياسيّ، وكان مَقرّها دمشق قبل أنْ تندلع الأحداث فيما يُسمّى بالرّبيع العربيّ، ولا أدري ما صنَع الله بها، ولكنّ ذكراها في القلبِ طيّبة، كلّما مرَّ بها الوجد فاحث.

مع المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر:

تأسّستِ الدّار عام 1969م في بيروت على يد الدكتور عبد الوهاب الكيالي ضِمن مشروعه الثقافي الفكري، اغتيل الدّكتور عبد الوهّاب عام 1981م بمكتبه ببيروت، ولكنّ هذا لم يُوقِف الدّار، وما زالت علامةً بارزةً في صِناعة النّشر، وقد مرّ على تأسيسها أكثرُ من نصف قرن، وتُعدّ من الدّور العريقة، بدأتُ عندهم بروايتي الأولى، ووجدتُ الاحتِراف والدّقّة في أعمالهم، وتعلّمتُ من مُديرها اليوم الأستاذ ماهر الكيالي شقيق الدّكتور عبد الوهّاب كثيرًا من الأمور في النّشر، كان جادًّا، صبورًا، هادِئًا، مُتعاونًا، يعرفُ ما يريد، وكان دقيقًا في مواعيده، لا يعدُ بشيءٍ من ذلك دون أنْ يفي.

نشرتُ في هذه الدّار ثلاثة عشرَ عملاً خلال خمس سنوات، منها ثماني روايات، وخمسةُ دواوين، وهي كلّ ما نشرتُ من الدّواوين، ومن ضِمنها الدّيوان الأوّل الذي نشرتُه (مؤسّسة فلسطين).

استقطبت الدّار كبار الكُتّاب العرب الّذي نشروا عندها، أمثال أستاذي الدّكتور إحسان عباس، والدّكتورة وداد القاضي من لبنان الّتي لم أجدْ في مختارات النّثر العربيّ أجمل مِمّا اختارت، وقد عرفتُ أنّها لا زالت حيّة، فبعثتُ لها مع الأستاذ ماهر بتحاياي وشكري على سِفرها الجميل (مُختارات من النّثر العربيّ). ومنهم إلى ذلك الشّخصيّة الجدليّة نوال السّعداويّ، وقد قرأتُ لها عن اعتِقالها في كتابها (مذكّراتي في سجن النّساء)، ومنهم أساتذتي في فنّ الرّواية: عبد الرّحمن مُنيف، وجبرا إبراهيم جبرا، وإبراهيم الكُوني، ومُنيف الرّزّاز، وغازي القُصَيبيّ. ومنهم كذلك أنيس صايغ صاحب الموسوعة الفلسطينيّة، الّذي تعرّض لمحاولة اغتيال عام 1972م بطَرْدٍ مُفخّخ أُصيب على إثره بضعفٍ في النّظر، وبُتِرتْ بعضُ أصابعه.

نشرت الدّار كذلك عبر مسيرتها الأعمال الكاملة لمُفكّرين معروفين، من ذلك الأعمال الكاملة للشّيخ محمّد عبده، وقد أهدتْني الدّار إيّاها. كما نشرتْ لمحمّد جابر الأنصاريّ، وعبد الرّحمن بدويّ، من أهل الفكر والفلسفة. وآخرون يطول الحديثُ عنهم. لقد كان وجودي بين هذه القامات دافِعًا لي إلى الاستمرار، كنتُ نبتةً صغيرة، تحاول أنْ تشقّ طريقها في

حديقةٍ مليئة بالورود من كلّ صنفٍ ولون.

مع دار المَعرفة:

ابتدأتْ علاقتي بهم في عام 2015م، حينَ اتّصل بي من غير سابق معرفةٍ مديرُها الأستاذ علاء شوبَك، وقال إنّه يودّ التّعاون معي في موضوع نَشْر كتبي، كانت رواياتي قد صارتْ معروفةً في الأردنّ، وفي بعض الدّول العربيّة لكنْ بصورةٍ محدودة، فقلتُ له: "نجلس ونتحدّث"، وكان عليه أنْ يأتي من مصر لهذه الغاية، وخشي أنْ يتكبّد هذا الوقت والجُهد ويقطع هذه المسافة ولا يكون بيننا اتّفاق، فطمأنْتُه، ولمّا التقينا، كانت طبيعة اللّقاء أنْ أقدّم خطوةً باتّجاهه ويفعل مثلها باتّجاهي، أعتقد أنّنا في البداية التقينا في المنتصف، كنتُ أنا كذلك مُتخوّفًا من ألاّ أنجح في مصر مثلما نجحتُ في الأردنّ، وكانت تجربة جديدة، لكنّه قال لي إنّني سأجعل رواياتك تنتشر في مصر كلّها خلال عامَين، وقد صدق. فأعمالي بسبب نشاط هذه الدّار النّاشطة لا يُمكن مقارنة انتشارها بما قبل ذلك.

الدّار تأسّست عام 2007م، كانت رؤيتها تقوم على أنّ القراءة هي أصل التّغيير، وأنّ إنشاء جيلٍ قارئٍ يتمّ بثلاث

ركائز هي: توفير الكتاب بالثّمن المعقول، مُلامسة الواقع، وتشجيع الكُتّاب الشّباب. وهذا ما سعث إليه، فالدّار تُقيم كُلّ عامٍ مسابقةً للكتابة يتمّ فيها اختيار عملَين على الأقلّ من الأعمال المُتميّزة للشّباب الذين لا يجدون فرصة لنشر أعمالهم.

اليوم الدّار تُقدّم خدمةً جليلةً للأدب العربيّ بنشرها كلّ ذي قيمة، وإعراضِها عن السّفاسف من الأعمال الّتي تتسابق الدّور الأخرى لنشرها لأغراضٍ تجاريّة بحتة. وهي إلى ذلك تُقدّم خدمة مثلها للأدب العالَمي، بنشر ترجماتٍ جديدةٍ لكبار الكُتّاب العالَميّين. ما زال التّعاون في النّشر بيننا قائمًا؛ وهذا الكتاب (هذه سبيلي) هو أحدثُ ما أدفعُ به إلى دارهم الغَرّاء.

مع عصير الكُتُب:

كانوا يمزحون في البداية، ذوو الرّوح المرحة من المصريّين، حينَ نقفُ على حاجز في معرض القاهرة الدّولي للكتاب، يخفضُ الشّرطيّ الواقف على الحاجز رأسه، وينظر إلى الجالسين في السّيّارة، أنا بينهم، يقولون للشّرطيّ: "نحن عصير الكتب". يضحك، ويُشير بأصابع يديه كأنّه يحمل كأسًا ويقول: "طَبْ وِالنّبي هات لك كُبّاية". ويضحك

أصحاب الدّار ونتابع سيرَنا.

بدؤوا بفكرة مناقشة كتاب، أو نصائح لمن يريدُ أنْ يقرأ في مجالٍ معيّن، كان النّقاش يدور على صفحات التّواصل الاجتِماعيّ، على الفيسبوك بوجهٍ خاصّ. كان الشّباب الّذين ملّوا من الفراغ وإضاعة الوقت في غير فائدة، قد وجدوا الأمر هنا مُسلّيًا ومُفيدًا في الوقت نفسِه. بدأ عصير الكتب يتحوّل من العالَم الافتِراضيّ إلى العالَم الواقعيّ، لديه جيشٌ من المُتابعين، ويستطيع أنْ يُشكّل عقليّتهم بالصّورة الّتي يطمح لها. تصرّفَ بذكاء، ونزل إلى النّاس، وأعطاهم الكِتاب مجّانًا، أو باعه بجنيه واحدٍ، أي بثمن حبّة (طَعميّة)!

التقيتُه في عام 2016م، منذُ بدايات تحوّلي للنّشر في مصر، مديرها الأستاذ محمّد شوقي، هادئٌ، خفيض الصّوت، لا يتكلّم دون أنْ يُطلق تلك النّظرة الضّيّقة من عينه، كلماته دافِئة، يعرفُ كيفَ يُميلك إلى صفّه وإنْ لم يكنْ كثير الكلام أو بليغًا، يكفيه الصّدق. وهكذا بدأتُ أنشر معه، كتبتُ للدّار أقوى ما كتبتُ في ظنّي، رواية (تسعةَ عشر) الرّواية القادمة من عالَم ما بعد الموت. ثُمّ توالى التّعاون بيننا إلى أن استقرّ على خمس روايات.

ما يُعجبني في الدّار، ديناميكيّتُها، سريعة، تتموّج مع الحركة كأنّها مِن ماءٍ لا من جسد، تصل إلى ما تهدف، فقد حصلت في عام 2019م على أفضل دار نشرٍ في معرض القاهرة الدّولي في تلك السّنة. لا شكّ أنّهم أضافوا لي الكثير، وتعلّمتُ منهم جديدًا في كلّ تعاونٍ بيننا. أمنياتي لهم أنْ يستمرّوا في إدهاشِنا.

دُور نشرٍ أُخرى:

الثّلاثة السّابقة دون الأولى ذهبت بالكثرة الكاثرة من أعمالي، غير أنّني لم أُفوّت التّعاون مع دورٍ أخرى لأسبابٍ منها التّرجمة إلى اللّغة الفرنسيّة والإنجليزيّة كما تمّ مع دار الإبداع الفكريّ في الكويت الّتي نشرت لي رواية (أرض الله)، وهي الرّواية الّتي حلّقتُ فيها بعيدًا عن هموم الوطن العربيّ، وذهبتُ إلى هموم الإنسان الإفريقيّ ومعاناته مع تجارة العبيد في أمريكا.

أمّا دار (روائع مجدلاوي) فقد نشرت عندهم النّسخة المُصوّرة من (أرض الله) لليافعين، إذْ قمتُ باختِصارها مع المحافظة على جسم القِصّة من حوالي مئة ألف كلمة إلى حوالي ثلاثين ألف كلمة، وقد ذهبَ ثُلثاها وبقي الثّلث،

والثّلث كثير، أو والثّلث خير. وقد جَهِدت الدّار أنْ تُخرجها بأحسنِ حُلّة من حيث الرّسومات الّتي تُمثّل اللّباس والطّعام والسّكن في القرن الثّامن عشر في أفريقيا حيث عاش البطل، وفي أمريكا حيث أُخِذ إلى هناك عبدًا. وهذه تجربتي الأولى للكتابة للنّاشِئة ما بين (13-18) سنة. وسأحاول إنْ شاء الله أنْ أخوضَها من جديد.

دار ديوان الكويتيّة أخذت حقوق نشر روايتي (صوت الحمير)، وهي روايتي الأولى من نوعها في هذا المجال؛ فهي رواية ساخرةٌ بطلُها حمار يُكنّى (أبو صابر) يقوم بتعليم البشر الفلسفة. الدّار حديثةُ عهدٍ بنشرٍ، لكنّهم يقتحمون سوقَ النّشر بقوّة، ولديهم استراتيجيّات في الانتِشار واضحة، ويعملون ضمنَ فريقٍ مُتحمّس. ومُتفائلٌ بالتّعاون معهم.

في النّشر الإلكتروني، لي تجربة واحدة مع موقع (أبجد)، وهو موقعٌ تأسّس عام 2012م، يُمَكّن قُرّاءه من التّسجيل وإنشاء مكتبات افتراضيّة تحتوي على كتبهم التي قرؤوها سابقًا، والتي يقرؤنها حاليًا والتي سيقرؤونها لاحقًا. كما أنه يُمكّن القراء من كتابة مراجعات واقتباسات مختلفة حول الكتب وإثراء صفحات المُؤلّفين. أنا أعُدّه النّسخة العربيّة الأمثل من موقع (GoodReads). تعاوني معهم كان بنشر

كتبي كلّها من الرّوايات والدّواوين بالصّيغة الضّوئيّة، وشرائها من الموقع، وقراءتها على مُمَكّنات القراءة. هذا الأسلوب ليس مُنتشِرًا في بلادنا العربيّة، لكنّه في الغرب سائر، وأظنّ أنّ المسألة بالنّسبة لعالَمنا العربيّ مسألة وقت، حتّى يُصبح هذا النّوع من الشّراء والقراءة سائِرًا عندنا كذلك.

وفي النّشر الصّوتي، كانت لي تجربة ثريّة جِدًا مع (كتاب صوتي) الّذي تعاقدتُ معه على نشر رواياتي العشر الأولى، بل إنّني سجّلتُ الحادية عشرة بصوتي وهي (رؤوس الشّياطين). كثيرون - بسبب ضيق الوقت - يُفضّلون القراءة بالسّماع، أنا من هؤلاء، وفي أوقاتٍ كثيرةٍ أفعل ذلك. في هذا الموقع سمعتُ أكثر من خمسين كتابًا خلال عامَين. كنتُ أستمع إلى كتبهم الّتي تنتقي منها ما تُفضّله إمّا أثناء قيادتي للسّيارة الّتي تستغرق منّي ساعتَين على الأقلّ يوميًا بسبب عملي. أو أثناء ركضي في السّاحة الشّماليّة للبيت لمدّة ساعةٍ ثلاثَ مرّات في الأسبوع.

تعاونتُ كذلك مع موقع (مدوّنات الجزيرة)، ونشرتُ في فترة ما بين عامَي (2016-2018م) حواليَ (100) نصّ بين مَقالة أو قصيدةٍ. ولا أُنكِر أنّني التقيتُ في هذا الموقع

بزملاء كثيرين أفدتُ مِمّا كتبوه.

أمّا بالنّسبة للتّرجمة، فقد تعاقدتُ في مطلع عام 2019م مع دار ديوان التّركيّة على ترجمة رواية (أنا يوسف)، ورواية (يسمعون حسيسها) إلى اللّغة التّركيّة، وهي تجربة أطمحُ إلى خوضِها بأوسع ما يُمكن وبأكبر عددٍ مُمكنٍ من اللّغات، وقد أنجزت الدّار رواية من الرّوايتَين، وشارفتْ على إنهاء ترجمة الثّانية.

أمّا تجربتي مع (متجر أيمن العتوم) الإلكترونيّ، الّذي أُنشِئ من أجل أنْ يخدم مَنْ لا يستطيع الوصول إلى كتبي الورقيّة بسبب الحاجز الجغرافيّ، أو مَنْ يرغب بالحصول على توقيعي. المتجر فَعّال بشكلٍ جيّد، وإنْ كان طلبُ شراء كتابٍ أخفّ بالطّبع وأقلّ بكثيرٍ جِدًّا من طلبِ شِراء ساندويتشة (شاوِرما)!

المتجر يُتيح شراء الرّوايات والدّواوين الشّعريّة من أيّ مكان في العالم. ويُمكنه أنْ يُؤمّن الكِتاب إلى دول الاتّحاد الأوروبّيّ وأمريكا وكندا وأستراليا، بالإضافة إلى الأردنّ ودول الخليج العربيّ ومصر ولبنان والمغرب والعراق.

والرّابط الإلكترونيّ له، هو: www.aymanotoom.net

وسائل التّواصل الاجتِماعيّ:

كانوا يقولون لم يكنْ يحملُ السّيفَ إلاّ فارسٌ، ولأنّ الفروسيّة هبةٌ ودُربةٌ معًا، فما كان يركبُ إلاّ فارس، وما كان يقول: "يا خيل الله اركبي" إلاّ شُجاع، فما نَفْعُ أنْ يكونَ لديكَ جوادٌ جميل، مَتينُ السَّبْك، وأنتَ لا تُحسنُ أنْ تركبه، فقد قالوا: "ليسَ هناك خيولٌ سيّئة، هُناك فرسانٌ سيّئون".

ومن قبلُ قال المتنبّي:

وما تنفعُ الخيلُ الكِرامُ ولا القَنا

إذا لمْ يكنْ فوقَ الكِرامِ كِرامُ

وقلتُ من بعده:

وما نَفْعُ الخُيُولِ مُطَهَّماتٍ

إذا ما قَلَّتِ الأدنَى الجِيادُ

أسوقُ هذا الكلام، للتّدليل على أنّ وسائل التّواصل

الاجتِماعيّ أتاحث للمُفكّر العالِم والأحمق الرّاسبِ في المدرسة أنْ يستخدمها وينشر عليها ما يشاء ويُدِلّ برأيه، فلقد ساوتْ هذه الوسائل بين العالِم والجاهل، والمُثقّف والمُتثاقِف، كما ساوى المُسدّس بين الشّجاع والجبان، ومع ذلك، فإنّ كلّ ما وَفَدَ إلينا من عقل الإنسان في مُخترعاته له وعليه، فلقد قالوا إنّ صاحب اختِراع الدّيناميت نَدِم على اختِراعه وهو على فراش الموت لمّا رأى أنّ هذا الاختِراع يُستخدَم في الحروب والتّدمير، فأوصى أنْ تُستثمر ثروته في إطلاقِ جائزةٍ تُمنح باسمه في مجال السلام وغيره، تلك هي جائزة (نوبل). ومع ذلك فإنّ للديّناميت وجوهًا حسنةً كثيرةً، فما فُجّرت الجبال واستُخرِجت كنوزُها، بأحسنَ مِمّا فعل هذا الدّيناميت. وقرأتُ أنّ (كلاشينكوف) مُكتشِف البندقيّة الآليّة الّتي سُمّيت على اسمه ماتَ مُتحسّرًا؛ لأنّه جلبَ الهلاك والموت للإنسان؟! وما أرادَ هذا لهذا!!

إنّ في وسائل التّواصل شرًّا كثيرًا، لكنْ لِمَ لا نأخذُ منها خيرَها، ونُفيدُ منها ما زالت لا تعبأ بك أَسْتَخْدَمْتها أمْ أعرضتَ عنها. وهي سيفٌ سيعبرك أو يعبر خلالكَ أيّها البشريّ شِئتَ أم أبيت، ولِذا عمدتُ إلى الجزء الّذي يُمكن أنْ أُفيدَ منه، فاستخدمْتُها على هذا الوجه. اليوم صَفَحاتي على الفيسبوك والتّويتر والإنستغرام، هي منبرٌ واسعٌ جليلٌ لإيصال أفكاري

وكلماتي إلى النّاس، إنّها منبرٌ يختصر المسافات والأزمنة في أنْ يلتقي القُرّاء كاتبهم من خلال البثّ المُباشر مثلاً... إنّ ما يُنشَر من اقتبِاساتٍ أو مُراجعاتٍ أو مُحاورات حول كتبي عليها، لهو خيرُ وسيلةٌ لكي تشدّ قارئِكَ إليك، وتُشكّل لديه تواصلاً يُغني عن اللّقاء الفيزيائيّ الجسديّ المُتعذّر.

ثُمّ إنّ حلقاتي عن المتنبّي الموسومة بـ (كرسيّ المُتنبّي) الّتي أنشرها على قناتي على اليوتيوب، هي بمثابة ندوةٍ طويلة الأمد، وسلسلة من المُحاضرات مُستمرّة، أُطلّ فيها على المُتابِعين، فيَنْتَدُون في مجلسي، ويسمعون ما أريدُ قولَه، لقد صارت مثل هذه البرامج في بعضِ الأحيان بديلاً عن الصّالونات الأدبيّة الّتي كان يلتقي فيها الكُتّاب الكبار مع مُريديهم أو تلامذتهم، مثل صالون العقّاد المعروف، وصالون ميّ زيادة الشّهير الّذي كان يحضره كِبار كُتّاب مصر حتّى ولو كانوا على طَرفَي نقيضٍ في الرأي مثل الرّافعي وطه حُسين.

وُجوه مُتعدّدة:

إنّ لكلّ شيءٍ وجوهًا كثيرة، لن يكون له وجهٌ ثابتٌ، أعتقدُ أنّ تعدّد الوجوه هو طبيعة الخلق، وأنّ حِكمة الله في

الاختِلاف، ونقض الثّبات وديمومته، من أَجَلّ ما أراد للإنسان أنْ يعرفه، ولِذا قال: "قل أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا". إنّ النّفسَ تتوقُ إلى التّغيير، وتتشوّف لساعةٍ وساعةٍ ليستا مُتشابهتَين، لأنّ القلوب إذا ملّث لنمطيّة الصّورة صَدِئت. ولقد قال في عُلاه عن بني إسرائيل: "لَنْ نَصْبِرَ على طَعامٍ واحدٍ". وأنا كذلك، وأظنّ أنّ الكثيرين يُشاركونني الرأي، لن نصبر على غِلافٍ واحد، فأخرجْ لنا مِمّا قالته فصول روايتك، هذا بعضُ ما من أجله أُعدّد أغلفة رواياتي، قد يُخالفني فيه بعضُكم فيقول، إنّ الغلاف بصمةُ الكِتاب، فنحن نعرفُ الكتاب من غلافه، لأنّ غلافَه لو تعددت طَبَعاته فصارت مِئة، يظلّ الغلاف هو هو مُشيرًا في كلّ طبعةٍ إلى الكتاب نفسه، الرّاسخة صورته في ذهنيّة القارئ. لكنْ مهلاً، أنا أغيّر الغِلاف لا أغيّر العُنوان، إنّما يُعرَف الكتاب من عنوانه لا من غلافه، فإنّ أزمنةً كثيرةً من تطّور النّشر والطّباعة مرّت على الكتاب ولم يكنْ له غلافٌ أو لوحةُ غلاف، ولكنّه لم يمرّ عليه زمنٌ - حتّى ولو كان مُتناهِيًا في القِدَم - لم يكنْ له عنوان، فبصمةُ الكتاب عنوانُه لا غِلافه.

إلى ذلك، فإنّ فلسفتي في تعدّد لوحات الغلاف مع كلّ طبعة، يُمكن أنْ تقصد إلى أنّ كل غلاف يُعبّر عن جزء من الرواية أو عن شيء من رُوحها في كل مرّة؛ إذ لا يُمكن أن

يكون غلافٌ واحدٌ قادرًا على اختصار روح الرواية بأكملها والعوالم التي تضجّ داخلَها من أوّل فصلٍ فيها إلى آخره.

أفلمة الرّواية:

هل يُمكن أنْ نُحوّل الرّواية إلى فيلم؟ مُمكن. هل هذا التّحويل يُفقِد الرّواية جزءًا من روحها؟ نعم. كثيرًا أم قليلاً؟ يعتمد ذلك على قُدرة المُخرج في أنْ يتقمّص روح الكاتب والكِتاب، وهذا لا يحدثُ إلاّ في حالَين، إذا عاشَ المُخرِجُ تجربةً شبيهةً بتلك الّتي عاشَها الكاتب، أو إذا كان المُخرِج مُثقّفًا ثقافةً تساوي ثقافة الكاتب أو تزيدُ عليها، والحالان ليستا سهلةَ التّحقيق أو التّحقّق عند كِبار المُخرجين، فما بالكَ إذا تصدّى للأمر مُخرجٌ عاديّ. والمُخرِج الّذي يُقدّر الأمر بشكلٍ حَسَن، يعرف أنّ تحويل الأعمال الأدبيّة الكبيرة إلى السّينما تحدّ شاقٌّ وصَعبٌ.

من التّجارب الّتي يحسُن ذِكرها في هذا المجال، أنّ ماركيز على سبيل المثال رفض أنْ تُحوّل روايته الأشهر (مئة عام من العزلة) إلى فيلم رفضًا قاطِعًا. ومع أنّه كتب بعضَ النّصوص للسينما ابتِداء، إلاّ أنّه لم يقبل لرواياته ذلك بوجهٍ عامّ، ولم تنجُ من هذا الاستِثناء إلاّ "قصة موت معلن"

و"الحب في زمن الكوليرا".

ولا أدري أين قرأتُ أنّ كاتِبًا حضر عَرْضَ مسرحيّته بدعوةٍ من المُخرِج، الّذي لا شَكّ أنّه أرادَ أنْ يرى الكاتب ثمرة جهوده مع طاقمه الفنّان حتّى استطاعوا أنْ يخرج العمل بهذا الإتقان. وبالفعل استجاب الكاتبُ للدّعوة، وجلسَ في الصّفوف الأولى يُتابع العرض المسرحيّ، وقبلَ أنْ تنتهي خرج من المسرح وهو يصيح: "هذه ليست مسرحيّتي... هذه ليست مسرحيّتي".

إنّ هذا ما يحدث؛ لكنّه ليسَ خطأ المُخرج أنّه فقدَ الشّرطين اللّذين قُلتُهما آنِفًا، إنّ الفيلم هو وجهة نظر المُخرج عمّا قرأ من الرّواية، إنّها انطِباعه عنها، قامَ بإلباس وجهة النّظر هذه للمُمثّلين فخرج الفيلم بهذه الصّورة، وهي بالضّرورة ليست وجهة النّظر لقارِئ آخر، إذ إنّ وجهات النّظر حول الرّواية أو الآراء فيها تتعدّد بتعدّد القراءات لكلّ واحدٍ منهم؛ خطيئة الفيلم هنا أنّها تُلزِمك بوجهةِ نظرٍ واحدةٍ هي وِجهة نظر المُخرج كما قلتُ، ولو أنّكَ قرأتَ الرّواية قبل أنْ تحضر الفيلم، لربّما صِحتَ كما صاح الكاتب الآنف الذِكر: "هذه ليست الرّواية"!

إلاّ أنّه مع مثالب هذا التّحويل، لا يُعدَم الخير في أفلمة الرّوايات إذا جازَ التّعبير، ولا أريدُ أنْ يُفهَم من كلامي السّابق أنّني ضِدّ هذه الأفلمة بالمُطلَق، فلقد كانت لي تجربة جيّدة لا أدري إنْ تمّتْ أم لا مع رواية (يسمعون حسيسها) بتحويلها إلى فِلم. ومُؤخّرًا استُشِرتُ في أفلمة رواية (طريق جهنّم)، وفي الأمر خيرٌ لا يُنكَر!

الفصل التّاسع
علاقات ومُراسَلات

وَإنّي لَنَجمٌ تَهتَدي بِيَ صُحبَتي

إذا حالَ مِن دونِ النُجومِ سَحابُ

غَنِيٌّ عَنِ الأَوطانِ لا يَستَفِزُّني

إلى بَلَدٍ سافَرتُ عَنهُ إيابُ

(المُتنبّي)

تمهيد:

أُحبّ النّاس والحياة. وأريدُ الخير للآخرين كما أريدُه لنفسي. وأسعى إلى أنْ أتركَ أثرًا طيّبًا في كلّ مَنْ ألتقيه، ولو بكلمة أو بشَطْرِها. وأنْ يتركوا فيّ الأثر نفسَه. تعلّمتُ من أمّي هذا القلبَ المُحبّ، ومن أبي أنْ أُبقي على خيطٍ ولو رفيعٍ

بيني وبين مَنْ يختلفُ معي ألاّ ينقطع. وكانَ يُسمِعني بيتَ الشّاعر الجاهليّ شِمْرِ بن عمرو الحنفيّ:

وَلَقَدْ مَرَرْتُ عَلَى اللّئيمِ يَسُبّني

فَمَضَيْتُ، ثُمَّتَ قُلتُ: لا يَعنيني

وكنتُ أفهم أنّه (لا يَعنيني)، أنّه إنّما قصدَ سِواي ولم يقصدْني؛ ولهذا أمضي في سبيلي دون أنْ أسأل أو أُعاتب. ولكنّني عندما كبرتُ قليلاً، وضممتُ هذا البيت إلى إخوانه من الأبيات في (الأصمعيّات)، عرفتُ أنّ الشّاعر يقصدُ تَجاهُلَه لهذا اللّئيم، وأنّه إنّما تَجاهَلَه ليزيدَ في إغضابه، (والنّارُ تأكلُ بعضَها إنْ لم تَجِدْ ما تأكلُهْ) كما قال ابن المعتزّ. يعضده قول المُؤمّل بن أُمَيل أورده أبو تمام في الحماسة:

وكم من لئيمٍ وَدّ أنّي شَتَمْتُهُ

وإنْ كانَ شَتْمِي فيهِ صابٌ وعَلقَمُ

وَلَلْكَفُّ عن شَتْمِ اللّئيمِ تَكَرُّمًا

أَضَرُّ لَهُ مِن شَتْمِهِ حينَ يُشتَمُ

نشأتُ في بيئةٍ محدودة، في قريةٍ صغيرةٍ، تغفو على سفح جبلٍ بهدوء كأنّها تريدُ أنْ تنسى العالَم، أو ينساها هذا العالَم المُتوحّش، مُنطوية، باردة، ووحيدة، أخذتُ منها هذه الصّفات في البدايات، كان عالَمي يقتصر على أولاد الحارة الّتي أعيشُ فيها وكانوا من أولاد العمومة والأتراب، وكانوا قليلين، ولهم ما لي، وبهم ما بي؛ من البَساطة، وخُفوت الذِّكر، وجَهْل ما يأتي به الغيب. ربّما كان غايةُ آمالنا بعدَ أنْ نعودَ إلى بيوتنا ألاّ نتلقّى توبيخًا أو تقريعًا على اتّساخ ملابسنا من أمّهاتنا، وألاّ تحمرّ آذانُنا بعدَ قَرْصٍ أليم!

إنّ الغاية الّتي حدّدها الله في فلسفة الخلق بقوله: "لِتعارَفوا" أمدّتْني بقوّة عجيبةٍ من أجل أنْ أتعرّف إلى أيّ أحدٍ، أيّ أحدٍ دون أنْ أضعَ أيّ حاجزٍ من دينٍ أو لون أو عِرْق أو جغرافيا، بالطّبع دون أنْ أَهُون أو أتنازل عن مبادئي، ولكنّه تعارفٌ يوسّع دائرة الفهم، ومعرفة الآخَر، وأنا أعتقدُ أنّ كثيرًا من الحُكم على الآخر المُتضمّن إلغاءه أو إقصاءه أو حتّى تكفيره وقتله سببُه الجهل بهذا الآخر. إنّ المعرفة هي سبيل السّداد، وسبيل اجتناب الأخطاء، ولهذا أسعى إلى توسيع هذه العلاقات، فتراني أطوفُ البِلاد والأوطان، أبحثُ عن

الكتب، وعن القُرّاء، وعن البيوت القديمة، وعن النّاس البُسطاء، وعن المُثقّفين، وعن الجرائد المُمزَّقة، والشّوارع الحزينة، إنّها أرواحنا نحن البشر، وأنا أريدُ أنْ أعيشها وأُعايشها!

جنون الغُموض:

حرّكت فِكرة الرّسائل فِيّ مشاعر كثيرة مُختلِجة في أعماقي، الرّسائل كانت تعني لي الغُموض، الحنين، الرّحيل، الشّوق، الحُزن، الهَجر... ومشاعر رومانسيّة أخرى كثيرة. كنتُ فتًى يافِعًا، وشاعرًا بدأ يتهجّى حروف الشّعر، ولِذا فإنّ هذه المشاعر أوّل ما تسكنُ روحَه، فوجدتُ فيها تعويضًا عن أنْ تذهبَ بي إلى الحوافّ الكارثيّة، حتّى ولو كانت وهمًا، كأنْ يُصيبني حنينٌ غامضٌ إلى شيءٍ أجهله حتّى يكاد يقضي عليّ، أو يُصيبني حزنٌ على فقدِ شيءٍ لا أدري ما هو لكنّني أحسّ به، حتّى يكاد هذا الحزن يُفتّتُ كبدي... أقول وجدتُ التّعويض عن رهافة هذه المشاعر وتفريغها بالكتابة؛ أعني كتابة الرّسائل. كانت حَلاً سِحريًا لمشاكلي العاطفيّة، وكنتُ أجدُ متعةً في تخيّل مَنْ أكتبُ إليه، ومُتعةً مُضاعفة في الكتابة نفسِها، وراحةً غيرَ مُفسَّرة بعد الانتِهاء من ذلك.

في مرحلة الثّانويّة أصابني هَوَس كتابة الرّسائل هذه؛ راسلتُ مئات الناس مِمّن أعرف ومِمّن لا أعرف، وراسلتُ الصُّحُف والمجلاّت، القافلة، والفيصل، والمجلّة العربيّة، وبعض الهيئات أطلب منها نشاطاتها القادمة وهي في دولة أخرى ويتعذّر علي حضور تلك النّشاطات، لم يكنِ الحضور هو الغاية، كانت الغاية هي الرّسالة، كتابةُ هذه الرّسالة، كانت أصابعي تتحرّك على الورق تُريد أنْ تبكي من السّعادة، وهي تُسوّد الكلمات، ثُمّ تُبيّضها بخطٍّ أنيقٍ على ورقةٍ أخرى. لا زلتُ أحتفظُ بالمُسوّدات في أرشيفي، العودة إليها والقراءة فيها اليوم تُعطيكَ فِكرةً واضحة عن ذلك الهَوَس اللاّمعقول، لكنّها تُفسّر الطّوفان الّذي كان ينفجر في داخلي آنئذٍ.

لم أتوقّف عن كتابة الرّسائل في كلّ يومٍ. لا أذكر أنّ يومًا مرّ دون أنْ أكتبَ رسالة، بل ربّما كتبتُ في اليوم رسالتَين أو ثلاثًا أو أربعًا... وإذا لم أجدْ مَنْ أُراسله كنتُ أخترع شخصًا أو هيئةً يُمكنني فِعْلُ ذلك مَعها. راسلتُ منتدى الفكر العربي لِيُخبرني بالفائزين في مُسابقةٍ لم أشترِكْ بها! وراسلتُ المجلاّت لأسأل عن إصداراتٍ لم تصلْني مع أنّني لم أبتغْها! وراسلتُ هيئة الإذاعة البريطانية (B B C) لأسأل عن برنامج سعيد الكرمي (قَوْل على قَوْل) الّذي كان قد توقّف عن تقديمه!

وسّعتُ دائرة مُراسلاتي، فراسلتُ الشّعراء أستكتبُهم مُقدّمةً لديواني الّذي لم يكتملْ بعدُ، راسلتُ النّائب الأردنيّ الشّاعر (يوسف العظم)، ولا أدري إنْ كان مثلُ هؤلاء الكِبار يأخذون رسائلي على مَحمَل الجِدّ، أم أنّهم كانوا يُدارونني بعد أنْ يعرفوا عمري الحقيقيّ.

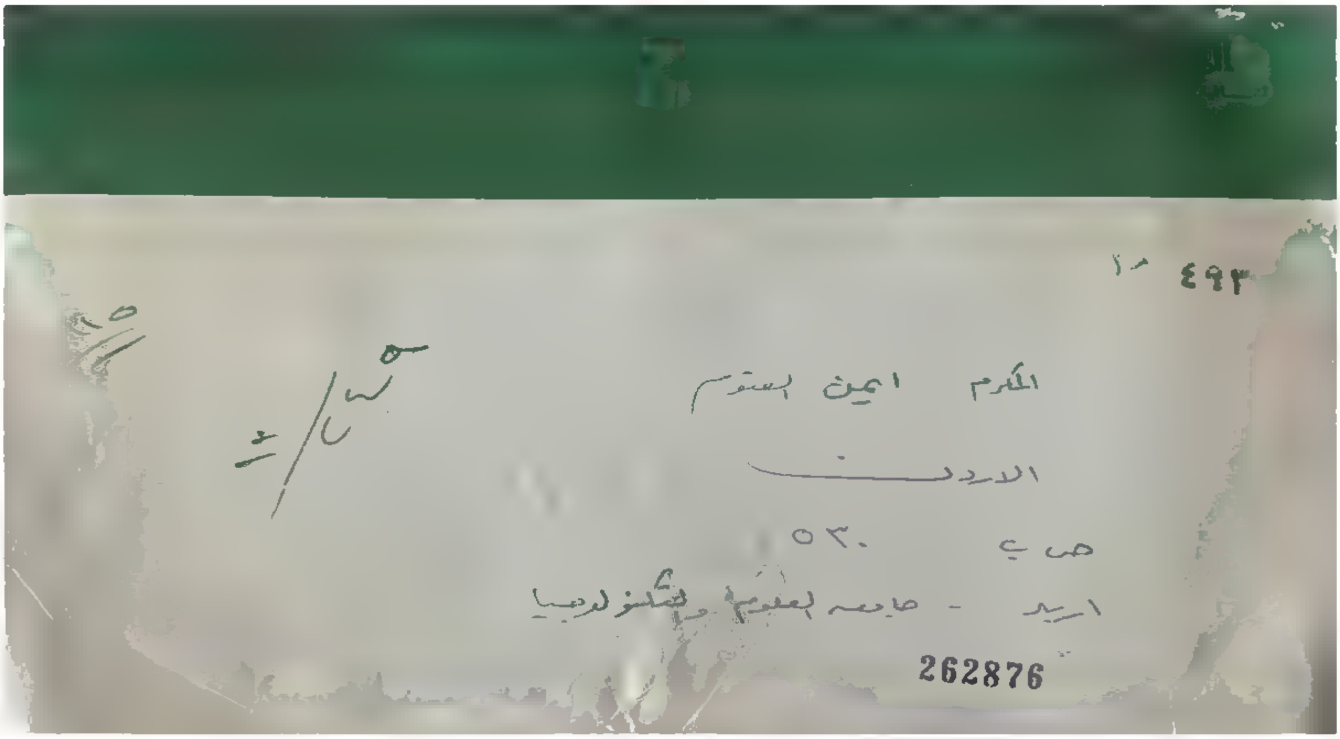

٤٩٣ ١م

المكرم ايمن العتوم

الاردن

ص ب ٥٣٠

اربد - جامعة العلوم والتكنولوجيا

262876

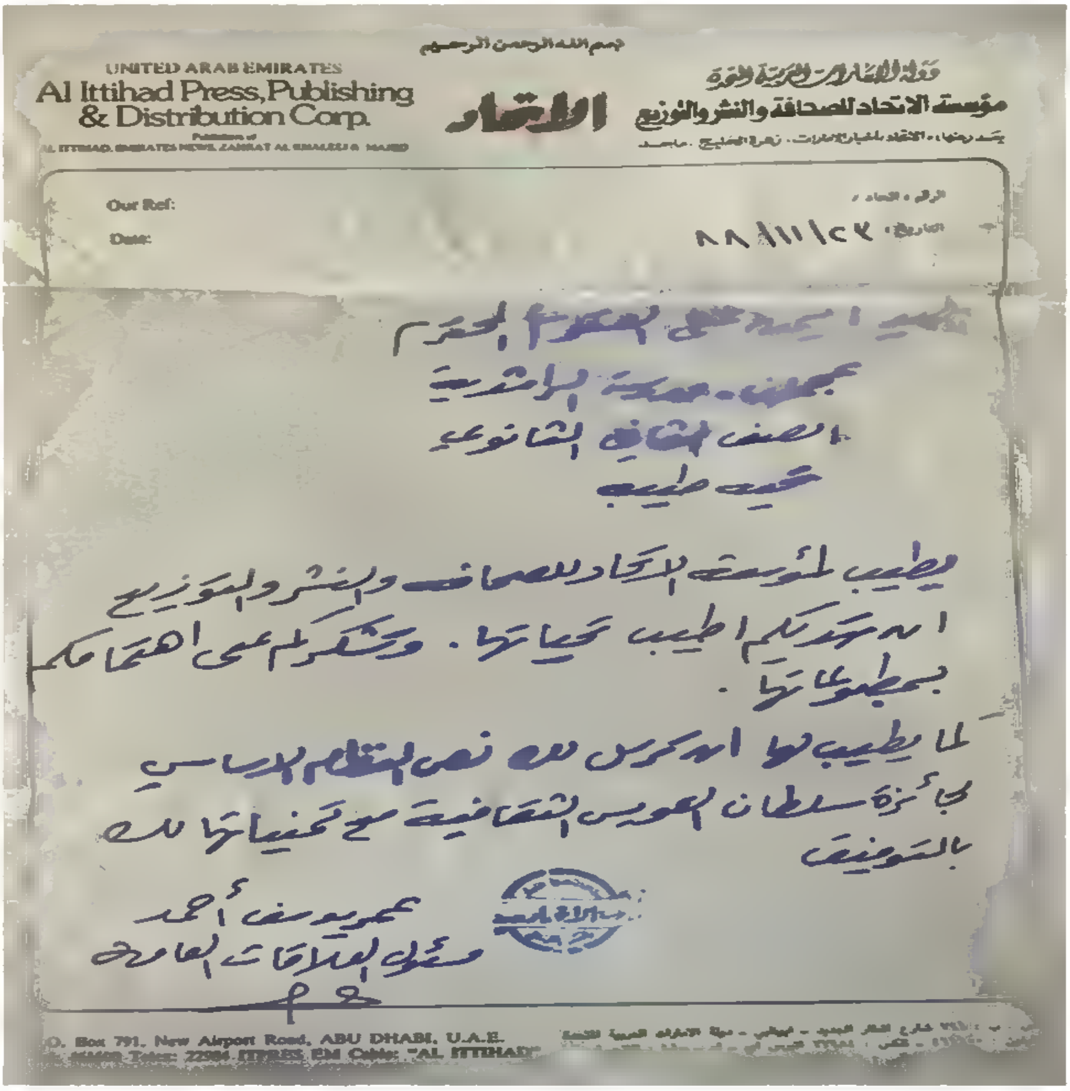

بسم الله الرحمن الرحيم

UNITED ARAB EMIRATES
Al Ittihad Press, Publishing & Distribution Corp.

دولة الإمارات العربية المتحدة
مؤسسة الاتحاد للصحافة والنشر والتوزيع

الاتحاد

Our Ref: — الرقم :
Date: — التاريخ: ٢٤/١١/٨٨

عزيزي أيمن علي العتوم المحترم
عجلون - عنجرة - الراشدية
الصف الثاني الثانوي
تحية طيبة

يطيب لمؤسسة الاتحاد للصحافة والنشر والتوزيع ان تهديكم أطيب تحياتها. وتشكركم على اهتمامكم بمطبوعاتها.

كما يطيب لها ان ترسل لك نص النظام الاساسي لجائزة سلطان العويس الثقافية مع تمنياتها لك بالتوفيق

عمر يوسف أحمد
مسؤول العلاقات العامة

P.O. Box 791, New Airport Road, ABU DHABI, U.A.E. Telex: 22984 ITPRESS EM Cable: "AL ITTIHAD"

مراسلات الصحف والمجلات

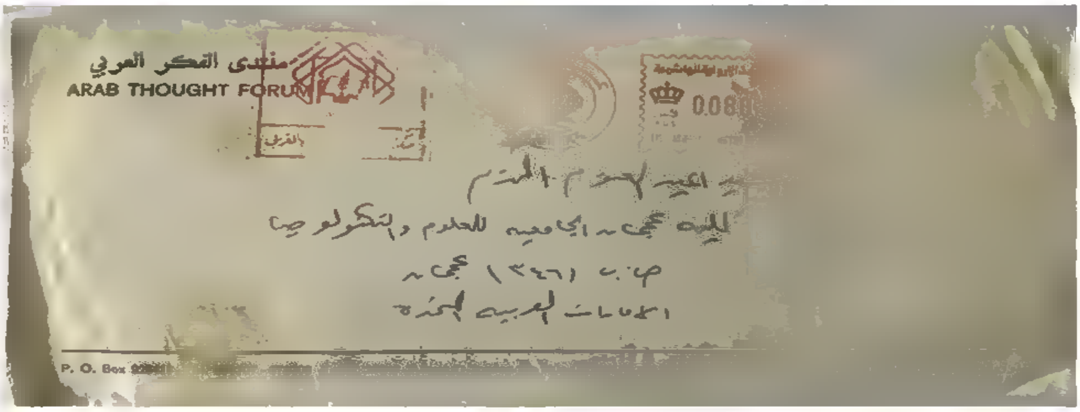

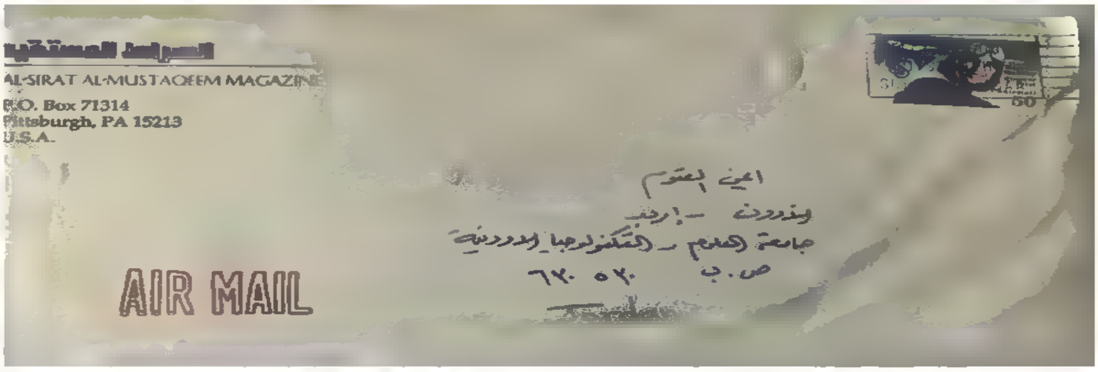

مراسلات الصحف والمجلات

راسلتُ كذلك حاكم الفايز رحمه الله الّذي سُجن في سوريّة

حوالي ربع قرن، راسلْتُه بعدَ خروجه من السّجن، والتقيتُه واستمعتُ إليه، وأهديتُه بعضَ قصائدي، كان وجهه خارطةَ تاريخٍ يُمكن أنْ تقرأ عليها سيرةَ نِضالٍ طويلة. وراسلتُ المهندس ليث شبيلات الّذي سُجن مرّاتٍ كثيرة، وكنتُ معه في إحداها، وكان نقيبًا لنا نحن المُهندسين ذات مرّة، ولا يزال يتمتّع بالقول الثّابت إلى اليوم. وراسلتُ ضافي جمعان الّذي اعتقل عام 1957م بتهمة الانتِماء لحركة الضُّبّاط الأحرار في الأردنّ وقيامها بانقِلابٍ عسكريّ، ثُمّ اعتقل في سوريّة المدّة الّتي اعتُقلها رفيقُه حاكم، تصل إلى ربع قرن رَحِمه الله تعالى، والتقيتُ تيسير الحمصي أمين عامّ حزب البعث الأردنيّ في السّجن، وأعطيتُه أُذنَيّ هو وبقيّة أعضاء حزبه؛ لأتعلّم، والعِلمُ من الرّجال مُقدّم على العِلم من الكتب، فإن اجتمعا على خيرٍ كان بهما الخير.

أكثرُ من ألفِ رسالة كتبتها في السّنتَين (١٩٨٨-١٩٩٠م)، ولو أنّني حذفتُ منها التّحايا التّقليديّة في البداية، وأبقيتُ على نظرتي للحياة في تلك السّنّ لخرجتُ بكتاب جيّد عن محاولة فتى مثلي لفهم الوجود. لقد كانت نظرتي مليئةً بالشّكّ، والحيرة، والقنوط، والسّوداويّة، وقلة الحيلة، والحزن، والذّهاب إلى مصبّ الأنهار، والبكاء على رحيلِ حبيبةٍ مُتخيّلة، وطَلَب الغُفران من الله على ذنبٍ لم أرتكبْه!

رسائل إليّ:

الرّسائل الّتي تصلُ إلى صفحة الفيسبوك تكونُ بالعَشَرات في اليوم، في البداية كانت لديّ طاقةٌ لأقرأها جميعَها، أو أكثرها وأردّ على كلّ واحدةٍ منها، مع تسارع وصول الرّسائل إلى ذلك البريد الإلكترونيّ، لم يعدْ لديّ وقتٌ، بالطّبع لو أردتُ أنْ أفعل ذلك لقضيتُ اليوم كلّه في الردّ عليها، ومع أنّ بعضَها يكون لإلقاء التّحيّة، أو السّؤال عن شيءٍ لا تعرفه، أو طلبٍ غريب، أو أمورٍ أخرى فارغة، إلاّ أنّ بعضَها يكون قَيِّمًا، ومن الصّعبِ أنْ تجدَ المُفيد وسطَ هذا العاديّ الطّاغي، ولهذا ضاع الأوّل في زحمة الثّاني.

كلّ رسالة تعتقد أن قصّتها تستحقّ أن تُروى. وبعضها هو كذلك، ولكن أين هو العمر الذي لديك لتكتب كُلّ هذا. غير أنّه لا تعدم أنْ تجدَ رسالةً من القيمة والأهمّيّة، تقعُ في قلبِكَ بحيثُ إنّها تكون أصلاً في كتابة روايةٍ ملحميّة تبلغ خمسمئة صفحة كما حدثَ في رسالة (فاطمة) من ليبيا، الّتي نتج عنها رواية (طريق جهنّم).

الفِكرةُ أنّ اقتِناص الرّسالة الّتي قد تُنتِجُ عملاً أدبيًا من بينِ

مئات الرّسائل ليسَ أمرًا شاقًّا فحسبُ، ولكنّه غير مُمكِن في سيفِ الوقت، بيدَ أنّ القَدَر قد يُخرج هذه الرّسالة اليتيمة من القعر حيثُ تتراكمُ فوقَها أكداسٌ من الرّسائل العابرة الفارغة، ويضعها أمام ناظِرَيك، ليقول لك: تفضّلْ؛ هذا ما يجب أنْ تبحثَ عنه. أنا مُمتنّ لكَ أيّها القَدَر، غير أنّ هذه الرّسالة النّافعة لا تعبر مئات الرّسائل السّاذجة كلّ يومٍ، إنّها تحتاج إلى وقتٍ طويلٍ لتفعل، لكنّني أطلبُ منك: هل يُمكنكَ أنْ تبعثَ لي بها كلّما عرفتَ أنّني بحاجةٍ إليها، ولو كان ذلك كلّ يومٍ، لا أريدُ أنْ أنتظر طويلاً حتّى تُقدّم لي هديّةً ثمينةً كهذه!!

رسائل أبي:

حينَ سُجِنتُ عامَ 1996م، كان أبي يتواصل معي على صعيدَين مُهمَّين، الأول التّواصل الجسديّ البصريّ، والثّاني التّواصل الرّوحيّ. فأمّا البصريّ فلمْ يُخلِ أسبوعًا من الفترة الّتي قضيتُها خلفَ القُضبان إلاّ زارني فيها، وأمّا التّواصل الرّوحي، فكان يُخاطبني بقلمه؛ يكتبُ إليّ الرّسائل، وينشرها في الصّحف، حتّى وإنْ كانتْ هذه الصّحف غيرَ مسموحٍ لها بالدّخول إلينا في السّجن. كانتْ رسائلُه تقول لي ما لم يقلْه حينَ يفصل بيننا زُجاج الطّاقة الّتي يراني من خلفها في

سجن سواقة وفي سِواه. رسائلُ أبٍ حانٍ يرى في هذه الكلمات تثبيتًا لابنه، فالأب أفضل مَنْ يُقدّر قيمة الكلمة في التّثبيت وفي رفع المعنويّات، وفي القضاء على اليأس والذّهاب بالحزن، وقصّة طلحة بن عبيد الله مع كعبِ بن مالك حينَ وقف إلى جانبه، وشدّ على يدَيه وعانقه إذْ تاب الله عليه، هي في ذات الباب، وقول كعب: "والله لا أنساها لطلحة". هو قولٌ يصلح لكلّ حالةٍ مُشابهةٍ حينَ تجدُ مَنْ يقفُ إلى جانبك، ويشُدّ من أَزْرِك، ولا يتركك وحيدًا نهبًا للأفكار السّوداء، وأنا أقول: "والله لا أنساها لأبي أبدًا".

الرّسائل الّتي تفيضُ بالعاطفة من جهة، وبما يراه الأب في ابنه من الصّبر ويَحُثّه على مزيدٍ منه، وما فيها من لغةٍ عالية، وأسلوبٍ أدبيّ، هي فريدةٌ في بابِها، وإنْ نُشِرت فإنّها ستكون نموذجًا لكلّ نوعٍ من هذه العلاقة بين الأب وابنه، أو بين أيّ اثنَين إذا ما وقعت لأحدهما محنةٌ من نوعٍ ما، وامتلك الثّاني أداةً جليلةً ليخفّف عنه؛ وهي الكلمة.

وفَنّ الرّسائل بين الأدباء أو بين المُحبّين أكثرُ ما يُنشَر هذه الأيّام، وهناك عشرات الكتب الّتي طُبِعث في هذا المجال، وقرأتُ أكثرها. وهي تكشفُ في معظمها عن الجانب الإنسانيّ في أدباء أو مُفكّرين استأثرت أفكارُهم وفلسفاتهم

بألبابنا، ولم نلتفت إلى الجانب البشريّ منهم، إنّهم أناسٌ عاديّون، يفرحون ويحزنون، يُصابون باليأس، وتقتلُهم الوحدة، وتنهشهم الظّنون، ويُمكن أنْ يُفكّروا بالانتِحار.

من قديمٍ قرأتُ (رسائل من السّجن) لسمير الهُضيبي، وكانت رسائله إلى خطيبته (مريم)، وقد قرأتُها قبل أنْ أصل إلى الثّانويّة، وتأثّرتُ بلغتها البسيطة الصّادقة المُحبّة. وقرأتُ وأنا في أوّل عهدي بالجامعة كتاب (يوميّات قلعة المنفى) وهو عبارة عن رسائل قصيرة بعثها الكاتب المغربيّ عبد اللّطيف اللّعبيّ إلى زوجته من السّجن بين عامَي (1972-1980)، ولشدّ ما تأثّرتُ بلغتها المُكثّفة، وقِصرُها سببُه استِحالة كتابة رسالة طويلة، فقد كانوا يستخدمون القُصاصات الّتي قد يعزّ وجودُها أحيانًا، في صفحة (29) من هذا الكتاب، نجدُ هذا النّموذج لهذه الرّسائل القصيرة: "بعدَ أيّامٍ قلائل تنقضي سنةٌ كاملةٌ على وجودي في هذا السّجن؛ زمنٌ قصيرٌ وطويلٌ في نفس الوقت، صعب التّحديد. لا شيءَ يُدهِشني لحدّ أنْ ينزع منّي الصّبر، لقد تعوّدتُ على هذا الفضاء الضّيّق، على الجُدران والقُضبان، على رفاق المحنة، وعلى هذا المُربّع الصّغير من السّماء، على الأشجار والمنازل القليلة الّتي أستطيعُ رؤيتها من بعيد. لكنّ العالَم الخارجيّ يُزمجر مع ذلك في داخلي".

وقرأتُ مُتأخّرًا كتاب (هروبي إلى الحرّيّة - أوراق السّجن 1983-1988م) لعلي عزّت بيغوفيتش، وهو من أهمّ ما قرأتُ في هذا المجال لأنّه كان في رسائله من سجنه يُفلسِفُ الحياة، ويصوغ نظرته إلى الإنسان، وقد بلغَ عددُها نحوًا من أربعة آلاف قُصاصة عن الحياة والنّاس والحرّيّة، والدّين والأخلاق. وقد فكّرتُ أنّ أحوّل كل واحدةٍ منها إلى قصيدة، وأُحوّل الكتاب إلى ديوان، لكنْ تطاول العمر ولم أُنفّذْ فكرةً عظيمةً كهذه، وكان مثل كثيرين يومئذٍ يكتبون رسائلهم على عُلَب الدُّخان، ويقومون بتهريبها، ولذلك جاءتْ قصيرة، والقِصر يدعوك إلى أنْ تُكثّف ما تريدُ قوله، وتحذف كلّ ما ليسَ له ضرورة، وتنفذ إلى الفكرة مُباشرة، ومن نماذج قصاصاته، هذه الّتي تملك رقم (2152): "يعتقدُ بعضُ النّاس أنّ انتِماءهم الدّينيّ يُحرّرهم من مسؤوليّة التّفكير". وهذه رقم (3230): "تسأل أنثى الثّعلب والدتَها: هل يوجد يا أُمّي أحدٌ أذكى منّا في هذا العالَم؟ نعم يا ابنتي؛ أولئك الّذين يرتدون فِراءَنا!".

يُضاف إلى ذلك من كتب الرّسائل العشرات، مثل رسائل السّيّاب، ورسائل كافكا، ورسائل أنطونيو غرامشي... غير أنّ الرّسائل الّتي بعثَها أبي ذهبتْ بالفرادة من جهتَين؛ رُقِيُّ أدبِها،

ولغتِها، وأسلوبِها من جهة، ونفي الظّنون والشّواغل بضرب الأمثلة في الصّابرين عبر التّاريخ، وتقديمهم صورةً تُحتَذى من جهةٍ أخرى، فهي أدبيّة تاريخيّةٌ عاليةٌ في الجهتَين.

كتبَ أبي لي وأنا في السّجن ثمانيًا وثلاثين رسالة، يقول عنها في المقدّمة: "ولقد رافقتُه فيها على مدى تسعة أشهرٍ من يومِ دخوله سجن المُخابرات العامّة في عَمّان إلى أنْ خرجَ من سجن سواقة في صحراء الجنوب، أعيشُ معه في ليلي ونَهاري بخيالي، مُتأمِّلاً حالَه، مُراقِبًا حَرَكاتِه، مُتمليًّا طلعتَه الواثقة، واختِلاطه مع السّجن من صالحين بشكلٍ طبيعيّ، وطالحين إكراهًا واضطِرارًا، وأزوره في هذه المُعتَقلات إلاّ سجن المُخابرات لمحظوريّة هذا الأمر والتّكتُّم عليه، فأرى منه شابًّا مُؤمِنًا، وشاعرًا حَسّاسًا، ورجُلاً متطلِّعًا إلى العُلا، يملأ عليه أقطارَ نفسِه التّفكيرُ في شأنِ أُمّته، وما ران عليها من الجهل والبُؤس والشّقاء على أيدي رُوّادها، فيعتصر نفسَه الحانيةَ الألمُ المُمِضّ، مُتطلِّعًا فيها إلى غدٍ مُشرقٍ عزيزٍ، تعودُ فيه إلى سابقِ عهدها خيرَ الأمم وطليعتها".

وعن مضمونها يقول: "وما هذه المقالات إلاّ رسائل في جهاتٍ مُتعدّدة. أوّلها لشباب هذه الأمّة وأبنائها في مَيْعة

الأعمار، أنّهم أوّل مَنْ تُحاك عليهم المُؤامرة ليُستَغفلوا بالمُلهِيات والمُغرِيات، ويُبعَدوا عن واجبهم الحقيقيّ تُجاه أمّتهم وشعوبهم رجالاً بُناةً في تاريخها العريض".

وعن صورة تعامله كأبٍ معي كابنٍ، يقول: "أنْ أتركَ له الخيار في التّعبير عن نفسه وواقعه بالصّورة الّتي يراها، وهي ولا شكّ صورةٌ سليمةٌ لأنّها لا تخرج - أنّى انداحث - عن مُحيط الحقّ، وأنْ أحترمَ طريقةَ تفكيره، وأدع له المجال في مُمارسة حرّيّته فيما يرى، ليكون ابنَ زمانه لا زماني، وإنْ كانا مُتقارِبَين، إذْ لم يشطّ عن السّكّة، ولم ينكص – حماه الله – عن سَمْته السّامي، بل ازدادَ تألُّقًا في الأنظار، وتعلُّقًا بالحقّ، وتقدُّمًا في العلم والإبداع خطواتٍ وخطوات، حتّى غدا اليوم – والفضل لله – ملء سَمع مُجتمعه وبصره، بل أبعدَ من حدود هذا المُجتمع وإطاره، تتنامَى شاعريّته، ويُفتَح عليه في باب الرّواية أيّما فتحٍ والحمدُ لله".

واخترتُ أربع فقراتٍ من هذه الرّسائل وقعث في مواضع متفرّقة منها، في بدايتها ومنتصفها ومُختَتمِها. في الموضع الأوّل، قوله: "وأنتَ ولدي الحبيب أيمن، كأنّي بكَ تخطُو إلى قاعة المحكمة، لِتُقاضَى على أشعارك، وتحتقبُ في نفسِكَ مثل هذه المعاني الكبيرة، ويملأ قلبَكَ الإيمانُ بالله المتعال،

ويملكُ عليكَ جوارحَكَ حُبُّك لوطنكَ الكبير، ويتغلغلُ في شغاف فؤادك وِدادُكَ لأهلكَ ومواطنيك، وتمتلِئ جوارحُكَ عِزةً وفَخارًا يفيضان على إهابك، أنّكَ غُصنٌ رطيبٌ من دوحةٍ فينانة، هي أمّة الإسلام العظيم، فأنتَ بمثل هذه المعاني كبيرٌ كبير، عَظُمَ في عينكَ امتِحانُ الآخرة، وصَغُرَ امتِحانُ الدُّنيا".

وقال في الموضع الثّاني: "وتكرّرت زياراتي للمُعتقل، وفي كلّ مرةٍ كنتُ أراك فيها، كنتَ تبدو كالطّود الشّامخ عِزّةً وإباءً، والصّخرةِ الصّلدةِ ثباتًا ورسوخًا. تعتصمُ بإيمانك، وتتدرّع بوعيك، وتتحصّن بعقيدتك، وتَئِلُ إلى رُكنٍ من الله عظيم. تزول السّماوات والأرض ولا يزول، وتَحُول الشّمس عن مدارها ولا يَحُول. كيف لا؛ وقد رضعتَ حُبَّ القرآن منذُ أنْ كنتَ طفلاً لا تتجاوز الرّابعةَ من عمرك، ونشأتَ على الصّدقِ وقول الحقّ، مُذ درجتَ على درب الحياة وليدًا، وتربّيتَ على الإخلاص لهذه الأمّة، وحُبّ أوطانها، والولاء لتراثِها وتاريخها".

وكتب إليّ في الموضع الثّالث: "ولدي الحبيب، إنّني أخذتُ على نفسي عندَ كلّ إفطارٍ أنْ أدعوَ لك، دعوةَ والدٍ بارٍّ به ولدُه، ولا سيّما وأنا أتذكّرك وأنتَ بيننا في أيّامكَ الخوالي،

تأخذُ مكانكَ بين إخوتك على المائدة، وأنتَ واسطةُ عِقدهم، الحاني عليهم حُنُوّ الوالد، والأخ الكبير، المُؤثِر لهم على نفسه بكلّ شيء. أتذكّركَ أجلْ، فآسى، ولكنْ أعودُ إلى نفسي فأقول بكلّ عزمٍ وإيمان: لا بأس، فقد تركتُكَ لرعاية الله وحِفظه، ثُمّ وكلتُكَ لإيمانكَ وهو عظيم، وسُمُوّ نفسِكَ وهو جليل".

وهذا مُقتطفٌ رابعٌ أخيرٌ من هذه الرّسائل الزّاخرة، الّتي تفيض شجوًا وشجنًا، وثباتًا وشموخًا: "يا أيمن إنّ والدتكَ تُسلّم عليك، وتُقبّل مُحيّاكَ النّاضر. وهي ما نسِيَتْكَ لحظةً من يومِ أنْ أُخِذت إلى أنْ زُجّ بكَ أخيرًا في صحراء الجنوب، فهي تذكركَ عند كلّ شروق شمسٍ وعند كلّ غروب، وتذكركَ بياضَ النّهار عند كلّ صلاةٍ، فتدعو الله أنْ يحفظَ عليكَ دينكَ ويُثبّتك على الحقّ، ويفكّ أسرك. وتذكركَ سوادَ اللّيل إذا اللّيلُ سَجا، إذ تقوم تُصلّي متبتّلةً لله داعية، أنْ يجعل عليكَ السّجنَ مراحًا فسيحًا، وأنْ يُصبّركَ على ما أنتَ فيه من تضييقٍ وحصر، وضَنٍّ بالحرّيّة، وتقتيرٍ بالوقتِ والفُسحة، وتهيئة الظّروف.

وإنّكَ لتراها، وهي تُمارس أعمالَها داخل البيت، ساكنةً وأمرُها طبيعيّ، ولكنّكَ إذا أمعنْتَ في حقيقتها وجدتَها تتقطّع حزنًا عليكَ من داخلها، ويُمِضّها الأسى والألم لبُعدِكَ

عنها، وحبسِكَ خلفَ الجُدران، لا لذنبٍ اقترفْتَه، بل لقولٍ في صالح الوطن".

لقد كتبَ إليّ أبي كلّ هذا، رسائل ذات رسائل، وحروفًا لها نُبوّتها، وكلماتٍ لها ما بعدها. وأنا؟ كتبتُ لأبي رسالة من السّجن واحدةً يتيمة، فقد انشغلت بكتابة الشّعر، إذْ إنّ ديوان (نبوءات الجائعين) كُتِب بأكمله خلفَ تلك القُضبان. ومِمّا جاء في رِسالتي الّتي كتبتُها في 31-10-1996 إليه:
"سلام الله عليكَ أبي... وأنا أتذكّر كلَّ ما فعلتَه من أجلي فأتضاءل تواضعًا أمام جلالِك، وأُحقّرُ من شأن نفسي أمام شأنك، وأذوبُ خجلاً من تفانيكَ في سبيل قضيّتي... دربٌ مشيتُ فيه مؤمِنًا، فوجدتُكَ تشدُّ على يدي، وتلك نعمةٌ كُبرى، وما ينبغي لأبٍ مثلِ أبي إلاّ أنْ يكون كذلك، وما كان له – أستغفره – أنْ يُثبّط من هِمّتي، أو يُعاتبني، أو يستهون ما أنا فيه، وإنْ كنتُ أعلم – وهو شعورُ كلّ أبٍ – أنّه يتألّم في أعماقه من أجلي، وبقضِّ مضجعه ظنُّه أنّي على بعضِ أحوالي مأروق.

سلامُ الله عليكَ أبي... يملؤني وجهك الرّبّانيّ كلَّ أُسبوعٍ بجلاله، ويغمرني نوركَ فأبقى أعيشُ عليه ما بقي من الأسبوع، أستهدي به في ظُلُماتِ سجني، وفي عبشاتِ نفسي،

فلا أجد إلاّ خيرًا، ولا تُبادرني إلاّ الطُّمأنينة، فأخلو مع ذاتي، وأنا أسبّح بحمد الله، وأشكره على هذه الهبة؛ هبة السّجن".

ومع هذا؛ فلا شيءَ يُذكَر، إنّما هي مُناسبة لقول كلمة طيّبة، فلا نحنُ تِهنا مع موسى في التّيه، ولا نحن أُلقينا مع إبراهيم في النّار، ولا نحنُ أُرِيدَ لنا أنْ نُصلَب كما أُريدَ بعيسى عليه السّلام، ولا نحنُ نُشِرنا مع زكريّا في الشّجرة، ولا قُطِعت أعناقنا مع يحيى في القلعة، ولا تساقطَ لحمُنا وجِلدُنا مع أيّوب في حُوران، ولا كُسِرتْ رُباعيّتنا مع محمّد في أُحدٍ... لا شيء... ولكنّنا حُبِسْنا فما أردْنا لهذا الحبْسِ إلاّ أنْ يكونَ شاهِدنا على كلمة الحقّ، وقولِها أنّى كان ثمنُها.

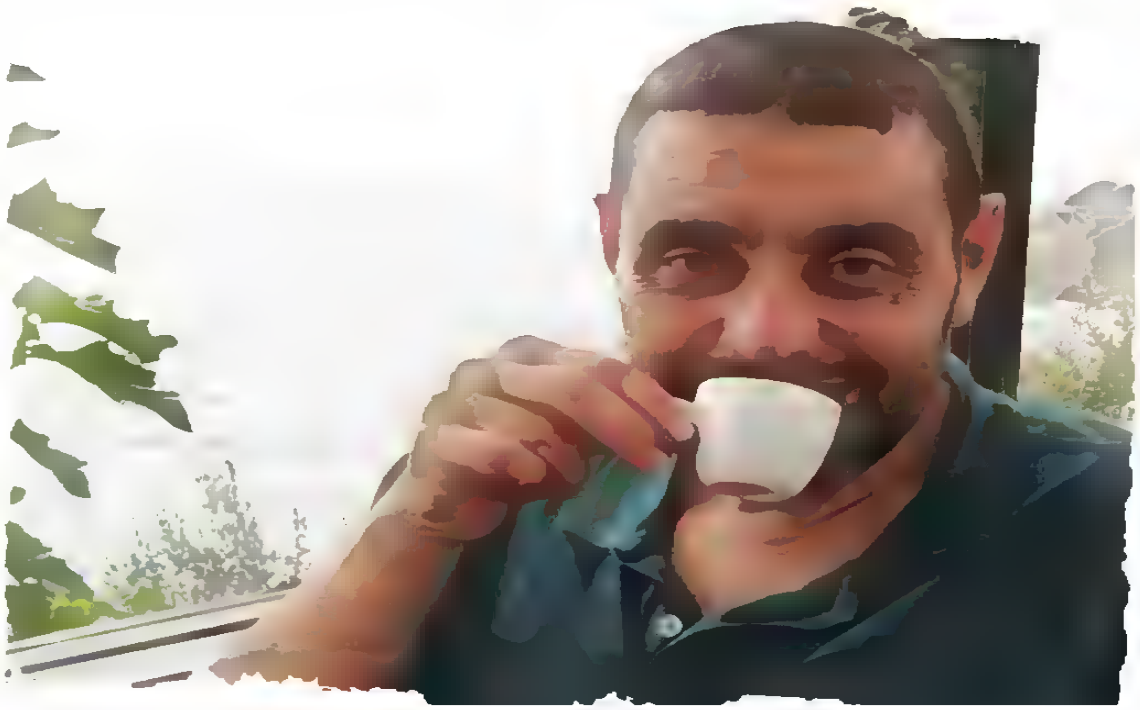

مع القَهْوة:

ربّما، شيءٌ ما غامضٌ بالوجه القَدَريّ، أنْ يكون للقهوة كُلُّ هذا الحضور قديمًا وحديثًا، وأنْ تنتشر في أصقاع الأرض هذا الانتِشار الّذي ربّما لا يُوازيه انتِشارٌ آخَر. وأنْ تقرأ عن أدباء - كما ذكرتُ في طقوس الكُتّاب في الفصل السّابع؛ فصل الكِتابة من هذا الكتاب - كانوا يشربون أربعين أو خمسين فنجانًا في اليوم، وأنا منهم. وإنْ بدأتُ أُرغِمُ نفسي على التّقليل منها، حتّى لا يُهاجمني عِشقُها أكثر من هذا فيكون ذابِحًا؟!

لم ترافقْني القهوة من البدايات، جاءت متأخّرة، أنا الآن أُحاول أنْ أتذكّر متى التصقت بي التِصاقًا لا فِكاك منه، في البداية كنتُ أشربُها كما يشربُها النّاسُ عامّة، إذا دُعيتُ إليها، ولم أَدْعُها أنا، إذا كنتُ في ضِيافة أحدهم. إذا كان هناك مأتمٌ أو فرح، فالقهوة فيهما سَواء، كما قال المعرّي:

وشَبِيهٌ صَوْتُ النّعيّ إذا قيسَ

بِصَوتِ البَشيرِ فِي كلّ نادِ

أَبَكَتْ تِلْكُمُ الحَمامَةُ أَمْ غنّتْ

عَلَى غُصْنِ فَرْعِها المَيّادِ

لعلّ الذّاكرة تُنعِشني، إنّها بدأتْ بتلك الصّورة، ذلك الفنجان الصّغير الّذي لم يعدْ يُقنعني، فبدأتُ أشربُ فنجانًا كبيرًا، عندما بدأتُ هذه المرحلة، نبّشتُ في صور ذاكرتي، فوجدتُ أنّ هذا الفُنجان الكبير لم يكنْ يستقرّ على أيّة طاولةٍ في أيّ مكانٍ، إنّه يستقرّ على مكتبي في تلك اللّحظات الّتي أهيمُ فيها! أهيمُ؟ هل أنا من هذا النّوع الّذي يذهبُ به الحرفُ بعيدًا؟ بالطّبع. أريدُ أنْ أجدَ مَنْ هو قادرٌ على أنْ يُساعدني على ذلك ولو كان وهمًا. هل القهوة هي الّذي كنتُ أبحثُ عنه إذًا؟ هل كانت هي القادرة على أرجحتك في الوَهْم أو في الهُيام؟ أمْ أنّها على النّقيض من ذلك؛ إنّها القادرة على الأخذ بيدك إلى مقامات التّركيز، وأنتَ في الكتابة تحتاجُ إلى هذا التّركيز. أمْ أنّها كانتْ تفعل الأمرين؛ الضِّدّين في الوقتِ نفسِه، فالكتابة تحتاجهما معًا، تحتاج هُيامًا من أجل خيالٍ أوسع، وتحتاجُ تركيزًا من أجل رؤية للتّفاصيل في ذلك الخيال الواسع، والقدرة على صياغته بالحروف؟ هل أنا وجدتُ بهذا الإجابة؟ لا، لا أظنّ. للقهوة سَطوةٌ من نوعٍ آخَر، لها حُضورٌ طاغٍ ليس عليه دليل، ولا له تفسير، لكنّه حضور، على أيّة هيئة جاء، فإنّه فيك.

وفي كتاب (قهوة نامة) لعبد الله النّاصر يذكر هذا النّص الطّريف عن علاقة الفيلسوف الوجوديّ (كيركيجارد) مع القهوة: "في حِواره مع طبيبه اشتكى كيركيجارد من ضعفٍ مُزمنٍ في جسده، فقال له الطّبيب: "أنتَ ضعيف لأنك تُدمن القهوة وتمشي قليلاً، وطلبَ منه التّوقّف عن القهوة وممارسة المشي الطّويل، وحينَ نَفَّذ كيركيجارد النّصيحة وعادَ للطّبيب بعدَ شهرٍ، مُخبِرًا إيّاه بعدم تحسُّنه وباستمرار ضَعفه، قال له الطّبيب: هذا لأنّكَ أسرفْتَ في المشي وتوقّفتَ عن القهوة. حينَها قال كيركيجارد مقولته الشّهيرة: حينَ أشربُ القهوة تكون هي سببَ ضعفي، وحينَ لا أشربُ القهوة يتسبّب ذلك بضعفي. إنّ هذا يُلخّص مشكلة الوجود الإنسانيّ!".

كما وردَ في (قهوة نامة) النّص الآتي: "الوجه الآخَر للقهوة في حياة كيركيجارد يُمكن استقراؤه من طَقسِه اليوميّ الوجوديّ مع القهوة، والّذي يرويه كاتب سيرته الذّاتيّة جواكيم غراف، إذ يحتفظ كيركيجارد بخمسين نوعًا من أقداح القهوة، وكلّ مرّةٍ يجلس لتناول قهوته يبدأ الطّقس بمشهدٍ هو أشبه بالتّسخين الفلسفيّ اليوميّ. إذ يطلب كيركيجارد من خادمه أنْ يختار قدحًا واحِدًا من أقداح القهوة الخمسين وأنْ يُعطيه مُبرّرًا فلسفيًّا لاختياره ذلك

القدح دون غيره. ثُمّ يبدأ الفيلسوف بعدَ ذلك بملء القدح الفارغ بجبلٍ من السُّكَّر قبل أنْ يقوم بصَبّ القهوة السّوداء القويّة فوق هرم السُّكَّر وتأمُّلِ مشد ذَوَبان السُّكَّر بإخلاصٍ، ثُمّ تَجرُّع وحل القهوةِ دُفعةً واحدة!".

وكان (بلزاك) يشرب أكثر من أربعين فنجانًا من القهوة كما مرّ، وكتب حولَها: "القهوةُ قُوّةٌ عُظمى في حياتي؛ لاحظت آثارَها على نِطاقٍ مَلحميّ، فالقهوةُ تُحمّصُ دواخِلَك". ويقول: "تمرّ القهوةُ مِن حِجاب المَعِدة إلى الدّماغ كأنّها الكهرباء، وتنبعثُ منها إشعاعاتٌ تستعصي على التّحليل"، ولهذا فهو "يوصِي الباحثين عن إكسير البُنّ بشرب القهوة على مَعِدةٍ خالية للحصول على أفضل النّتائج".

لم أكنْ أطلبُ – في الغالب - من أحدٍ أنْ يصنعَ لي قهوتي، وخاصّة تلك الّتي أصطحبُها معي إلى مكتبتي، من أجل أنْ تكون رفيقتي في الكتابة، كنتُ أصنعها بنفسي، درجة التّحميص يجب أنْ تكون بينَ بين، منزلةٌ بين المنزلتَين، إنّ سوادَها قاتم، وإنّ شُقرتها فاضِحة، وأنا أريدُ ما كان مُغرِيًا، وهو ما بينهما. ثُمّ على الماء في الدّورق أنْ يُوضَع فاتِرًا، لا هو ساخنٌ ولا بارد، فإذا ارْتكزتِ الدَّلَّةُ بمائها الفاتر، وأُوقدتِ النّار الخفيفة تحتها، فيجب الانتِظار لأقلّ من دقيقةٍ من أجل رَفْع درجة حرارة الماء، فإذا أعلنَ الماءُ عن نفسِه، وصار جاهِزًا لاستقبال أشهرِ ضيفٍ يُمكن أن يذوب فيه، فإنّها ثلاثُ ملاعق مُمتلِئة ناضجة، أُسقِطُ ذرّاتها من مسافةٍ فترٍ فوق الدّلّة على الماء، تذوب في الماء السّاخن، يكونُ أشدّ ما يكون لها شوقًا، فيُخفيها فيه، تخجل بعضُ هذه الذّرّات من هذا العِناق الحميم، فتتكتّل في زاوية، محاولةً ألاّ تذوب، وهي تعلم أنّها مُحاولةٌ بائِسة، لا يقفُ أمام الحرارة شيء، وليس على العشق أنْ يكون خجولاً، أُساعِدُها على الذّوبان، أُحرّكها بالمِلعقة حتّى لا يبقى لها منها شيءٌ، تصير كلّها في الماء، في رُوحه، الماء الّذي يُغمِضُ عينَيه وهو يلتهم كلّ هذا الجَمال، ثُمّ تبدأ الحرارةُ دورَها، البُخار الّذي تُصعِده فوق الدّلّة، إنّه أشبه براقصةٍ مُتجرّدة، يتماوج صعودًا، يختزن فيه رائِحة

القهوة الأسطوريّة، تدخل في أنفي، أشمّها طويلاً، تُدوّخني الرّائحة، يُوقظني صوتُ التّشيش، القهوة لم تحتمل كلّ هذه الحرارة، فتفيض، تصعد من الدّلّة المملوءة إلى نِصفها في طريقها إلى الإنسِكاب، أتداركُها سريعًا قبل أنْ تفيض، أرفعُ الدّلّة قليلاً، إلى حرارة مناسبةٍ تُساعد على الهدوء، أذيبُ بالملعقة ما دار، وما خرجَ عن المدار، كصوتٍ يُعيد الصّوفيّ إلى حلقته، ثُمّ أُقرّب الدّلّة من الحرارة، أُعطي الحرارةَ فُرصتَها، وأُعطي البُنّ فرصته الثّانية في محاولة أنْ يفيض، قبل أنْ ينسكب مُغادِرًا الحوافّ أرفعه من جديدٍ إلى مسافةٍ كافية إلى الهدوء الثّاني، أسكبُ رُبع الدّلّة في الكأس، وأعيدُها إلى النّار، ثُمّ تسعى إلى أنْ تفيض، أسكبُ في الكأسِ ما أرادَ أنْ يفيض، أُكرّر الرّفْعَ والخَفضَ، والقبضَ والبسطَ على هذا النّحو أربعَ مرّات، حتّى إذا كُلّ ما في الدّلّة من القهوة استقرّ في الكأس، وقد علته طبقةٌ كثيفةٌ من القَتَر، فيه بعضُ الفُقاعات الّتي لا تكادُ ترى، حملتُ كأسي جذلان، كأنّني أضع ذراعي في ذراع معشوقةٍ، وأهبطُ بها إلى مكتبي، وأُمنّي نفسي معها بنصٍّ جميل تفوح منه رائحةُ السّحرِ!

في حالتي، رافقتني القهوة وقتَ الكتابة بشكلٍ دائم، لم أكنْ أستمرّ في الكتابة إذا لم يكنْ قَدَح القهوة أو كوب القهوة الكبير إلى جانبي. هل كانتْ تُساعدني على الكتابة؟ مَنْ

يستطيع من الكُتّاب أنْ يقول: نعم. إنّها مجرّدُ مَشروبٍ ساخنٍ، يقول كثيرون. لكنْ؛ هل كانت نوعًا من الارتِباط الشّرطيّ الذّهنيّ، بحيثُ لم أكنْ لأكتبَ حرفًا واحِدًا قبل أنْ أرتشفَ من قدح القهوة ما يُعينني حتّى على البدء؟ ربّما. إنّه سؤال مُحيّر بالفِعل: ما المُميّز في القهوة؟ مذاقُها؟ إنّها مُرّة. لونُها؟ إنّها سوداء، ثُمالتُها في قعر الكأس؟ إنّها أقربُ إلى التّراب. إذًا ما السّرّ في القهوة؟ لا أحدَ يستطيع أنْ يُجيبك. دعكَ من كلّ تأويلات الأُدباء؛ إنّهم يتلاعبون بالكلمات. ودعكَ من كلّ تأويلات الأطبّاء؛ إنّهم يتلاعبون بالكيمياء. واستسلم لها بروحك، فإنّما القهوة روح، ولا تُعرَف إلاّ بها!!

مع الطّبيعة:

لقد وُلِدتُ في أحضانها، فمن الطّبيعيّ أنْ تستأثر بجزءٍ كبيرٍ من كتاباتي، لقد قُلت إنّ الّذين لم تلدْهم شَجَرةٌ أو نَخْلةٌ أو نهرٌ أو جبلٌ أو سماءٌ بعيدة لا يُمكن أنْ يُصبِحوا كُتّابًا أسوياء، الكُتّاب الّذين تلدهم العُلَب الإسمنتيّة والقواطع الحديديّة سيُنتِجون أدبَ الإسمنت والحديد!

في البدايات، في أيّامي الأولى، الطّفولة الشّاعريّة، قضيتُ مع الجبال أكثر مِمّا قضيتُ مع النّاس، جزءٌ من هذه العلاقة

مع الطّبيعة أثّر على علاقتي مع النّاس، فسَلّلَ إليّ حُبّ العُزلة، غير أنّ هذه العُزلة والانِطواء اللّذين كانا في البداية، انتهيا عندما كبرتُ، وأقبلتُ على الحياة والنّاس، غير أنّه في خضمّ اللّهاث الأسود الّذي يُسبّبه السّعي وراء الرّزق والنّاس لا زلتُ إلى اليوم أشعر بحاجتي بين فترةٍ وأخرى إلى الاختلاء بالطّبيعة بعيدًا عن النّاس، في مرحلة الجامعة في التّكنولوجيا كنتُ أفعله كثيرًا، خفتَ مع الزّمن، لكنّه ما زال موجودًا وقد أُنفّذه على الفور دون سابق تخطيط، أخرج إلى كهفٍ أبيتُ فيه ثلاث ليالٍ، أوقدُ النّار، أقرأ على النّاس سِرّ الشّعر، وأتأمّل الغروب، أستمع إلى صوتِ الطّبيعة في هدوء اللّيل، وأنام في الكهف على التّراب.

عزلة عن العالم مع الكهف والنار

مع الجمهور:

نحنُ صُورةُ أفعالنا، إذا كان في أفعالنا الحُبّ والتّواضع وخَفْض الجَناح، فستتشكّل هذه الصّورة عنّا في أذهان الآخَرين. أنا بسيطٌ، عاديٌّ، واضح. لم أجدْ أجمل من أنْ تكون بسيطًا تتصرّف على سجيّتك. ليسَ مُهمًّا الصّورة الّتي يُشكّلها النّاس عنك، أنتَ أبسط مِمّا يظنّون، هذه الصّورة غالبًا ما تكون خاطِئة، لأنّها ليسَ ما رأوه منك، بل ما رسموه هم بِناءً على تخيّلهم عنك، وفي الحقيقة إنّها ليست أنتَ بالضّرورة؛ إنّها ذات الصّورة الّتي رَسَمَها المُشرِكون للرّسول صلّى الله عليه وسلّم، لقد تخيّلوه مَلاكًا، لا يأكل كما يأكلون، ولا يمشي على أرضٍ بل يطير في جَوّ، ولا يعرفُ النّاس، بل تتوق النّاس إلى صورته في الغَمام، لكي يظلّ في بُرجه العالي: "وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ". لكنّه على العكس من ذلك تمامًا، إنّه بشريٌّ بسيطٌ، يحبّ التّواصل مع النّاس، يفرح لذلك، ويعتبره نعمةً إلهيّة، تأخذ الجارية أي الطّفلة الصّغيرة بيده كما في الحديث فتنطلقُ بهِ حيثُ شاءَت، لا يدع يَده من يدها حتّى تدعها هي. وكان يَكُون في مِهْنَةِ أَهْلِهِ يعني في خِدمَةِ أَهلِه، فإذا حضرتِ الصّلاة خرجَ إلى الصّلاة. تلك البساطة هي ما يقولُه دينُنا.

أتواصل مع النّاس في النّدوات، أذهبُ إلى بعضِ لقاءاتٍ يدعونني إليها شخصٌ أو اثنان أو بضعة أشخاصٍ، أو إلى ندواتٍ يحضرها مِئات الأشخاص، لا يختلفان عندي، ولا أُميّز لقاءً عن لقاء. إذا كنتُ قادرًا على العَطاء، ولديّ ما أقولُه فإنّني ألبّي الدّعوة، وقد ألتقي من يريدُ الالتِقاء بي في مقهى أو شارعٍ أو مكتبة، أو في قاعةٍ مُتهالكة، أو قاعةٍ مُؤثَّثة، في شَمال الأردنّ أو جنوبه القصيّ النّائيّ، داخل وطني أو خارجه، لا يهمّني إنْ كان الوقتُ صيفًا أو شِتاء. إذا تمّ اللّقاء على كراسيّ من الدّيباج أو مقاعد من خشب مَكسور، فكلّ هذه المظاهر عَرَضٌ لا أثَر لها على الجوهر، عليّ أنْ أقول كلمتي حيثُ أُدعى ما دام في الأمر مُكنة.

في مَعرِض عمّان الدّولي للكتاب في عام ٢٠١٤م كان عندي توقيع لقُرّائي، استمرّ التّوقيع حوالي ستّ ساعاتٍ، وكان لا يزال في الطّابور أناسٌ، وقد انتهى وقتُ المعرض، فوقفتُ وقلتُ للّذين يقفون في انتِظار التّوقيع: «ها أنتم ترون أنّ وقت المعرض قد انتهى، ولكنّني سأبقى معكم حتّى أوقّع لكم جميعًا، ولن أخذل مَنْ جاء من أجل ذلك». بالطّبع بدأ مسؤولو المَعرِض يصيحون بأنّ الوقت انتهى، وبقيتُ مُنهمِكًا في التّوقيع لا أدري ما يحدث، ثُمّ أُطفِئت الأنوار بعد عدّة

تحذيرات، فوقّعتُ لكلّ واحدٍ على ضوء هاتفه، ثُمّ قام المسؤولون بإغلاق أبواب المعرض وألزمونا بالخروج، فخرجتُ ووقّعتُ لهم في السّاحة الخارجيّة في موقف السّيّارات. كنتُ أريدُ أنْ أقول للقُرّاء: إنّكم منحتموني وقتَكم بقراءة أعمالي، أنا مُمتنّ - بَعد الله - لكم، ومن جزاء هذا الإحسان أنْ أنتظر معكم، وألاّ أخذكم.

معرض عمّان ٢٠١٤م

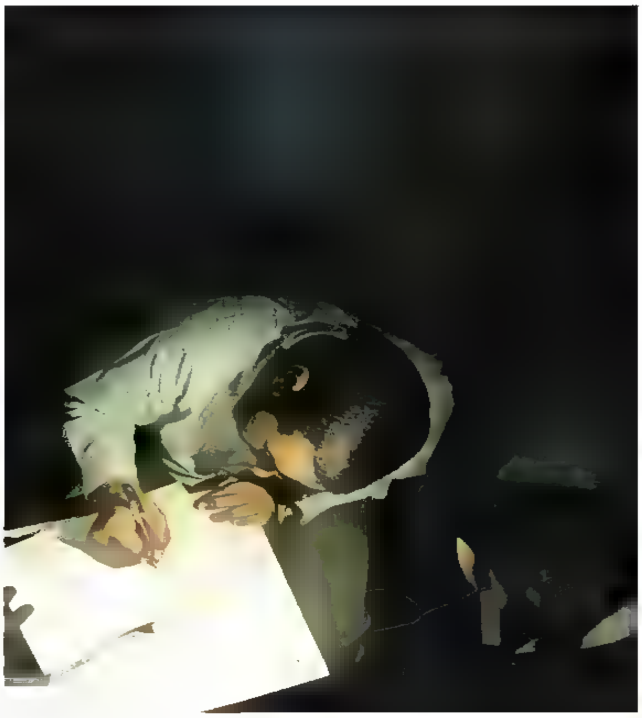

من توقيع جملون، الّذي أُطفِئت فيه أنوار المعرض
عمّان ٢٠١٤م

مَعارض الكتُب:

حينَ يصير في الجيب ثمنُ تذكرة الطّائرة أطير، إلى أقاصي الأرض، ألتقي النّاس، فإنّ الوحدة قاتلة، وإنّ في وجوههم حكاياتٍ تَعِدني وعدًا حسنًا، وإنّ في الاستِماع إليهم فائدةً أكبر مِمّا قد ينجم عن ذلك من أذًى، فإنّ في بعضِ العزلة شِفاءً ودواء.

شاركتُ في معارضَ عربيّة كثيرة، في مصر، والجزائر، وتونس، والمغرب، وعُمان، والعراق، وإسطنبول، وبالطّبع حيثُ أقيم في عمّان. لقد كان التِقاء الكاتب بجمهوره من أجمل ما يحدث له، ربّما لا يفوقه غيرُ شعوره بالرّاحة الّتي تعقبُ الانتِهاء من كتابٍ مُضنٍ.

كان القُرّاء يقفون في طوابير طويلة لساعاتٍ أطول من أجل أنْ يحصلوا على توقيع هذا المسكين، أو يسمعوا منه كلمةً هو أحوجُ إليها منهم. إنّ أكبر مُكافأةٍ يحصل عليها الكاتب أنْ يرى كلّ هؤلاء الرّائعين يتهافتون على كتبه، ويتناقلونه بينهم، وأنْ يقرأ لكَ شخصٌ لا تعرفه، في أرضٍ تجهلها، في بيتٍ منزوٍ من زُقاقٍ، تحت ضوء مصباحٍ لا يصل إليكَ نوره، حرفكَ، وأنْ يُمسكَ بقلمه ويخطّ تحته ما رآه جديرًا بالإعادة والحفظ، والتّرداد في الخلوات بين النّفسِ والنّفَس؛ لهو - حقًّا - مجدُ الكتابة؛ مجدٌ أكبر من أكبر جائزة، وأعظم تكريمٍ يُمكن أنْ يحصل عليه الكاتب!

كنتُ أتعمّد أنْ ألتقي قُرّائي في أيّ مكانٍ، دون أنْ يكون للّقاء أيّ أبّهةٍ أو أيّ ترتيبٍ مُثقلٍ لأصحابه، ولذا التقيتُ النّاسَ في شوارع القاهرة وفي شوارع تونس، وفي بوسعيد وفي الأزقّة والحارات، وسلّمتُ عليهم وأنا أشدّ سعادةً منهم، والتقطتُ معهم الصّور التّذكاريّة وأنا مُحتاجٌ إليها كحاجتهم أو أشدّ، وأكلتُ الفول على العربات، والكشريّ على الأرصفة، وتسكّعتُ في الطّرقات في بغداد في شوارعها الّتي قضمَ الحُزنُ تُفاحّةَ قلبِها، وفي المرافِئ الّتي تُعيدُ للوجوه المُسافرة لونَها، وبهجتَها. وحينَ كنتُ أوقّع لقُرّائي، لم أكنْ أكتفي

بالتّوقيع فذلك شأن الّذين يعدّون غير ذلك إضاعةً للوقت، بل كنتُ أكتبُ مع التّوقيع كلامًا يخرج من القلبِ ليقع في القلب، أخطّ بيتًا من الشّعر أو حِكمة، وأسأل القارئ أو القارئة عن اسمه أو اسمِها، فإذا كان اسمُها سلمى، كتبتُ لها بيتَ بشامة بن حَزْنٍ النّهشليّ:

إنّا مُحيُّوكِ يا سَلْمى فَحَيِّينا

وإنْ سَقَيتِ كِرامَ النّاسِ فَاسْقِينا

وإنْ كان اسمها ليلى، كتبتُ لها بيتَي المجنون الشّهيرَين:

وكنتَ وعدْتني ياقلبُ أنّي

إذا ما تبتُ عن ليلى تَتُوبُ

فها أنا تائبٌ عن حُبّ ليلى

فما لكَ كلّما ذُكِرتْ تذوبُ

بالطّبع، كثيرٌ من الأسماء الّتي زخرفَ الشّعراء لها أبياتًا لم

يعد النّاس يُسمّون بناتهم بها، فقد اختفت أو تضاءلت أسماء مثل: (سميّة)، وإلا كنتُ كتبتُ في الإهداء بيت الحادرة:

بَكَرَتْ سُميّة غُدوةً فَتَمَتّعِ

وغدتْ غُدُوَّ مُفارِقٍ لم يَرْجِعِ

ولا (أميمة)، وإلاّ كتبتُ لها بيتَي الشّنفرى:

أميمةُ لا يُخزِي نَثاها حليلَها

إذا ذُكِرَ النِّسوانُ عَفّتْ وجَلّتِ

كأنّ لها في الأرضِ نَسْيًا تَقُصُّه

على أَمِّها، وإنْ تُكلّمْكَ تَبْلَتِ

ولا (خولة)، وإلاّ كتبتُ لها بيت طرفة بن العبد:

لِخَوْلةَ أطلالٌ ببرقةِ ثهمدِ

تَلُوحُ كباقي الوَشْمِ في ظاهِرِ اليَدِ

ولا (سُعدى) وإلاّ كتبتُ لها بيت التّابغة الذّبياني:

أُسائِلُ عن سُعدى وقد مرّ بعدَنا

على عَرَصاتِ الدّارِ سَبعٌ كوامِلُ

ولا (عبلة) ولا (عَزّة)، وإلاّ كنتُ كتبتُ للأولى بيتَ عنترة:

يا دارَ عبلةَ بالجِواء تكلّمي

وعِمِي صباحًا دارَ عبلةَ واسلمي

وكتبتُ للثّانية بيت كُثيّر:

هنيئًا مريئًا غيرَ داءٍ مُخامِرٍ

لِعَزَّةَ من أعراضِنا ما استحلَّتِ

وهكذا، كنتُ أكتبُ ذلك كأنّني أحاور قُرّائي، ولقد قدّرتُ

أنّي وقّعتُ منذُ عام ٢٠١٢م العام الّذي صدرتْ لي فيه أوّل رواية ما يقرب من مئة ألفِ توقيع، نثرتُها على كتبي المنشورة في أصقاع العالَم، وما مَللتُ ولا كَللتُ، كلّ هؤلاء الّذين ينتظرون هذه السّاعات لا ينتظرون توقيعَك (خربوشتك) في نهاية هذا المطاف، إنّهم ينتظرون من كاتبهم المُفضّل كلمةً تُضيء لهم ولو شيئًا من الدّروب المُظلمة الّتي لا تنتهي.

لقطات مختلفة من معارض في عَمان

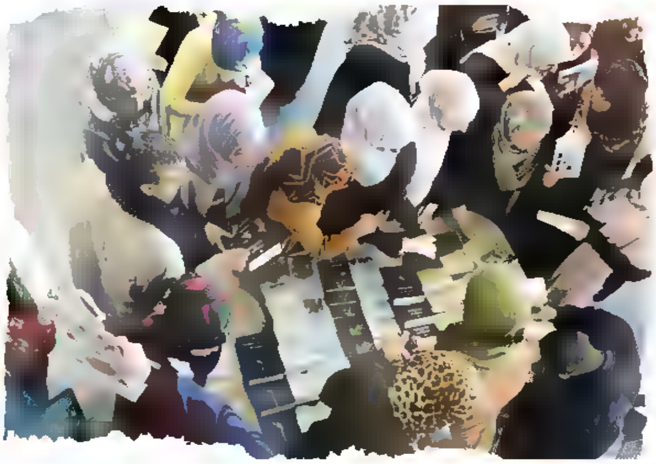

لقطات مختلفة من معارض في عمّان

زُرتُ الجزائر في معرض كتابها السّنويّ مرّتين، وسأبقى أزورها بإذن الله كلّما سنحت الفرصة، شعبُ الجزائر ودودٌ، وقُرّاؤه يتشوّقون إلى اللّغة العربيّة المُشرِقة والكتب

المكتوبة بها، وهم إذا أحبّوا كاتِبًا احتفَوا به احتفاءً كبيرًا فوقَ الوصف، هذا ما وجدتُه منهم، لقد كانوا يتوافدون من أنحاء الجزائر الشّاسعة كلّها ليحضروا المعرض، ويحظوا بفرصة لقاء الكاتب والكتاب، إحداهنّ قالت إنّها بدأتْ رحلتها منذُ الفجر والشّمسُ في خدرها لم تستيقظ؛ لقد قَدِمتْ من الجنوب على مسافة تقترب من ألف كيلومتر بالقِطار من أجل أنْ تلحقَ بالتّوقيع أو بالنّدوة في الثّانية أو الثّالثة ظُهرًا! ماذا يُمكن أنْ تقول لمثل هؤلاء؟ إنّك إنْ فرشتَ لهم القلب والورد كان ذلك قليلاً في حقّهم.

لقطات مختلفة من معرض الكتاب في الجزائر بين عامَي ٢٠١٧-٢٠١٩م

لقطات مختلفة من معرض الكتاب في الجزائر بين عامَي ٢٠١٧-٢٠١٩م

في المغرب يتحلّقون حولكَ تحلّق السّوار إذا أحاطَ بالمعصم، والقِلادة إذا أحاطت بالعنق، شعبٌ جميل، يعنيه من أمره ألاّ يتدخّل في شؤون غيره أو يتطفّل عليه، كأنّهم

يعملون بمقول الشّاعر: «مَنْ راقبَ النّاسَ ماتَ هَمًّا». أسواق المغرب خارج معرض الكتاب من أجمل الأسواق، أعني الأسواق الشّعبيّة؛ إنّها تمتلئ بالخير، وتضجّ بالعَفْويّة والبساطة، مُتدرّعةً بالحيوية، مُتجمّلةً بالأمل، تمور بكلّ ما هو جميل.

معرض الدّار البيضاء يُقدّم المودّة قبل أنْ يُقدّم الثّقافة، في أيّام التّوقيع كنتُ لا أخرجُ من هناك حتّى يُعلن المعرض عن إغلاق أبوابه، إنّهم إنْ أحبّوك رأيتَ منهم عجبًا!

مقتطفات من معرض الدار البيضاء ٢٠٢٠م

أمّا معرض بغداد الدوليّ لعام ٢٠١٩م فقد تلقّيتُ دعوةً رسميّة للمشاركة فيه من إدارة المعرض. سافرتُ من عمّان يوم السّبت ٩ فبراير على الخطوط الجوّيّة العراقيّة السّاعة

(٥:٣٠) مساءً ووصلتُ إلى بغداد في الثّامنة. في المطار أخذتْ إجراءات الحصول على الفيزا بعضَ الوقت، ووصلتُ الفندق (فندق بغداد) في شارع السّعدون السّاعة (٩:٣٠) مساءً.

صباح يوم الأحد بعد الإفطار في الفندق أخذت (تاكسي) إلى المعرض ووصلتُ إليه في العاشرة والنّصف صباحًا. التقيتُ ببعض القُرّاء. ومنذ الثانية عشرة وأنا أوقّع لكلّ من يراني، وفي السّاعة الثّالثة عصرًا كان هناك حفل توقيع مُعلَن عنه سابِقًا. واستمرّ حفل التّوقيع أكثر من ستّ ساعات.

من مكتبة إسماعيل الحجّي (أبو خالد) في المعرض اشتريتُ بعض الكتب القديمة، بعضُها طُبِع في بداية القرن العشرين. وكثيرٌ منها ما زال بحالٍ جيّدة. ووضعتُها عند النّاشر الّذي ينشر كتبي (دار المعرفة المصريّة) من أجل شَحْنِها مع المُشاركين الأردنيّين في المعرض.

خرجْنا من المعرض وذهبْنا إلى العَشاء، في مطعم يعمل الأوزي بطريقةٍ لذيذة.

مقتطفات من معرض بغداد الدّولي، ٢٠١٩م

مقتطفات من معرض بغداد الدَولي، ٢٠١٩م

صباح يوم الاثنين ١١ فبراير، ذهبتُ منذ الصّباح إلى شارع المتنبّي، وطُفتُ مكتباته واشتريتُ بعض الكتب القديمة، على سبيل المثال اشتريتُ كتاب بُغية الملتمس المطبوع في مجريط (مدريد) عام ١٨٨٢م، وكان ثمنه سبعة عشر آلاف دينار عراقيّ، ما يُعادل ثمانية دنانير أردنيّة، قريبًا من عشرة دولارات أمريكيّة.

في شارع المتنبي في بغداد، ومع المتنبي

في بغداد في معرض الكتاب الدولي عام ٢٠١٩

تمشّيتُ في الشّارع إلى آخره، حيثُ يقف شامِخًا على عوادي الزّمان تمثال المُتنبّي، أزعجني أنّ الاهتِمام به وبالمكان ليس على مستوى عَظَمتِه، كان هُناك غنّاؤون

يزعقون بأصواتٍ مُزعجة، وكان المكان غير نظيفٍ ولا مُعتَنى به، أردتُ أنْ أعتذر له ليس عن العراق، فالمُتنبّي ليس للعراق وحده ولا للعرب وحدهم، إنّه للنّاس أجمعين، فأردتُ أنْ أعتذر له عن الإنسانيّة كلّها. التقطتُ صورًا لي إليه، وألقيتُ عنده بعض أبياته، واستعدتُ روحَه. في الشّارع توقّفتُ على عادتي أمام بسطات الكتب، كان هناك فتاةٌ لا تتجاوز السّادسة عشرة من عمرها في تقديري تتفحّص الكتب، وتسأل البائع عن رواية (يسمعون حسيسها)، فيردّ عليها معتذرًا أنّها بيعت كلّها ولكنّه سيأتي بنسخٍ جديدةٍ منها، رأيتُ خيبة الأمل على وجه الفتاة، لم يكنْ أحدٌ منهما يعرفني بالطّبع، أنا مثلي مثل أيّ قارئٍ عابرٍ في الشّارع. لحسن الحظّ كانت معي نسخةٌ من الرّواية جلبتُها معي من عمّان، وحملتُها عندما خرجتُ اليوم من الفندق. تدخّلتُ في الحديث، سألتُ الفتاة: هل تريدين نُسخةً من الرّواية؟ التفتتْ إليّ دون انْ يعجبها تدخّلي، كانت تريدُ أنْ تقول لي: «وما علاقتك أنت؟ لماذا تتدخّل فيما لا يعنيك؟». وأظنّ لولا ذقني الّتي أعطتْني بعضَ الوقار لحظتَها لقالت كلامًا غير هذا، غير أنّني سارعتُ بالقول: «أنا أيمن العتوم». نظرتْ إليّ مُتشكّكةً، ونظر البائع إليّ كذلك بذات العينَين، وحينَ دقّقتِ النّظر وربطتْ بين الجسد والصّورة بدا لها أنّه يُمكن أنْ يكون الواقف أمامها قد عبر الفضاءات من الأردنّ وهبطَ في لحظةٍ أمنيةٍ مستحيلةٍ

من السّماء في العراق، عاجلتُها بالسّؤال وأنا أفتح الصّفحة الأولى من الرّواية وأُمسِكُ بالقلم: «ما اسمُكِ؟ أريدُ أنْ أوقّع لك». أجابتْني وسطَ ذهولٍ باسمها، وقّعتُ لها الرّواية، ومددتُ بها إليها، تلعثمت على الحقيقة، أعرفُ كيفَ تتوقّف الكلمات على اللّسان دون أنْ تغادر الفم في مثل هذه المواقف. أعطيتُها الرّواية ومضيت!

عُدتُ من شارع المتنبّي إلى المعرض، حيثُ كانت عندي ندوة مع الرّوائي العراقيّ سِنان أنطون صاحب رواية (يا مريم)، و(الفهرست)، وغيرهما، وهو روائيّ عراقيّ مُقِيم في أمريكا منذ عام ١٩٩١م. وكانت ندورة حواريّة قادها معنا باحث عراقيّ يدرّس في جامعة سامرّاء، ثُمّ دار حوار مع الجمهور في النّهاية.

في قاعة النّدوات هذه كانت هناك جداريّة كبير على يمين الجالسين ترتفع لأكثر من عشرة أمتار، وبعرض أكثر من ستّة أمتار، فيها صور المدعوّين إلى المعرض من أنحاء الوطن العربيّ وخارجه.

بعدها بقيتُ مع الجمهور أوقّع لهم. وفي المساء غُدنا وتعشّينا كما في اليوم السّابق.

الثلاثاء صباحًا تمشّيت في شارع أبي نواس، قريبًا من نهر دجلة. مشيث حوالي ثلاثة كيلومترات، وانعطفتُ إلى شارع السّعدون، ووجدتُ صفًّا من المكتبات تبيع الكتب القديمة والحديثة، فاشتريتُ عددًا من الكتب القديمة وبعض الدّراسات عن شعر المتنبّي.

لقد بدا واضِحًا في هذه المعارض الّتي طُفتُها من أقصى الشّرق العربيّ حيثُ (عُمان) إلى أقصى الغرب العربيّ حيثُ (المغرب) أنّنا نأخذ بِقَدْر ما نُعطي، وأنّ سعادة العَطاء أعظم من سعادة الأخذ، وأنّ قارِئًا واحِدًا يحتفي بما تكتب هو كنزٌ مَذخور، فكيفَ بهذه الأعداد الغفيرة من القُرّاء الرّائعين الّذين يملؤون القلبَ وردًا وعِطرًا.

لقطات من معرض إسطنبول للكتاب العربي ومكتبة الشبكة العربية في تركيا

في حُبّ مصر:

قبل ما يقربُ من أربعين عامًا، في صباحِ آذاريٍّ دافِئ، كانتْ

أمّي تُعدّ لي الفَطور، وتغلي الحليب مع شيءٍ من الكعك، قبل أنْ تُهيّئني تمامًا للذّهاب إلى المدرسة، كانت المدرسة هي: «مدرسة عبد العزيز جاويش»، كان ذلك في القاهرة في مدينة نصر، في حيّ رابعة العدويّة، في الطّابق الحادي عشر من عمارةٍ قديمةٍ تستقرّ في أسفلها (أمّ السّيّد) الّتي تخبز (العيش) الذي كنتُ أشتريه لعائلتنا، ساخِنًا حارًّا، شهيًّا، وأتلذّذ بطعمه مهما كان مخلوطًا بالقشّ وبعضِ الأخشاب الصّغيرة أو الحصى. حدث ذلك في نهاية السّبعينيّات من القرن المنصرم، عندما كان السّادات يظهر على الشّاشة واضِعًا غليونه في زاوية فمه في خطاباته المُتلفَزَة، يشدّ على بعض الحروف، نابِرًا بعض الكلمات بطريقة تمثيليّة استعراضيّة لا شكّ أنّها عاشت في ذاكرتي إلى اليوم، وهو يحاول أنْ يتخلّص من عقدة عبد النّاصر في شعبيّته الطّاغية، بالتّعويض عن ذلك ببطولاته وأمجاده في حرب الـ (٧٣) الّتي كرّس فيها نفسَه بطلاً مُطلقًا استطاع أنْ ينتصر على عدوٍ خرافيّ في معركةٍ أسطوريّة. كلّ ذلك في ذلك الصّباح يعتمر الآن في ذاكرتي من أجل أنْ أصوغ هذه العبارات الّتي تنفلتُ من بين مسارب القلب. أمّي تعود إلى الحليب، تسكبه في كأسٍ بلّوريّة صافية فيزداد صفاءً، وأنا أشربُ من أجل أنْ أكبر، ولا شكّ أنّه ما من أحدٍ منّا كبر دون أنْ تكبر معه هموم الحياة، وتزداد تشعّبًا. ازدياد الوَعي يعني

اتّساع رقعة الحُزن. كان صباحًا جميلاً بكلّ ما فيه لولا أنّ أمّي راحتْ تُلبسني لِباس طلبة الابتِدائيّ المُوحّد الّذي كان أقرب إلى التنّورة، إنْ لم يكنْ كذلك بالفعل، وعلى الصّدر تتدلّى (كرافتة) زرقاء، تُشبه تمامًا تلك الّتي تتدلّى على صدور الصّغيرات الذّاهبات في الصّباحات الباكرة إلى ذات المدرسة. وأنتفض، وأصرخ لأنّ ذلك اللّباس لا يُناسبني، وتستيقظ فِيّ الرّجولة مرّةً واحدةً، فَجّةً غليظةً، وأرفض أنْ أنصاع إلى توسّلات أمّي من أجل أنْ يمضي ذلك اليوم على خير، متذرّعًا، بأنّ هذا (المريول) لم يُصنع لرجلٍ مثلي. وتحتاج أمّي ربّما إلى نصف ساعةٍ بكلّ ما تملك من كلماتٍ ودودة من أجل أنْ تقنعني بالأمر. ويُقرَع جرس الحِصّة الأولى، وأُساق إلى المدرسةِ سوقًا. وفي الصّفّ تستقبلني أبلة (سُعاد) لأنّ فِيّ رائحة فلسطين، والنّهر المُقدّس كما كانت تقول، كأنّني أوّل القادمين لا آخرهم، كانت تنتظر صبيًّا هائِمًا مثلي من أجل أنْ تكتمل الجوقة المؤلّفة من طلاّب الصّفّ وطالِباته لنبدأ النّشيد الجماعيّ، الّذي يُوقِظ الآن الحنين، ويمسح الغبار عن الوطن، ويحنو على القلب الطّعين، ونهتفُ كأنّما نصطفّ في معركةٍ لا صفّ، ونقف أمام قائدٍ عسكريّ لا مُعلّمةٍ حَنون:

بِلادي بلادي اسْلَمِي وَانْعَمِي

سَأرويكِ حينَ الظّما مِنْ دَمِي

أتذكّر ذلك اليوم، لأنّني ما نسيتُه كلّما زرتُ القاهرة فيما بعدُ، فيها رَبِيث طِفلاً، وزُرتُها في مطلع شبابي، وها أنا في كهولتي لا أستطيع أنْ أُفارقها إلاّ لكي أعودَ إليها في كلّ عامٍ، فلماذا كان حُبّ الأوطان ذابِحًا إلى هذا الحدّ؟! ولماذا يفعل بنا كلّ ذلك، ونحن نرى أنّ سادتَه الجاثمين على صدورنا أذاقونا أنواع الأذى، والجوع، والضّيم، والهَوان، واضطرّونا إلى المنافي، وألجؤونا إلى الكُفر بكلّ شيءٍ، أكان على السّادة والقابضين على عنق الأوطان أنْ يكسروها أو يكسرونا ليظلّوا جالسين على كراسيّهم المركوزة على عِظامنا، وجِلدنا، وعيوننا المَفقُوءة.

ها أنذا في معرض الكتاب في القاهرة، أنظر فأرى البريق في العيون رغم البؤس، والإرادة رغم الوَهْن، والرّضى رغم رماد الغضب، والمُضيّ في الدّروب رغم الخوف. معرضُ القاهرة الّذي يُعدّ الأوّل في العالَم العربيّ من حيثُ السّعة والجمهور، والثّاني عالَميًّا ربّما بعد معرض فرانكفورت، لا يظهر بالمستوى الّذي يرتقي إلى مكانته وشمعته وتاريخه الطّويل؛ ما من لافتاتٍ تدلّك على دور النّشر، وما من خريطةٍ

تُنبِئكَ بكلّ جناحٍ وما يضمّه من كنوز، والخِيَم تنتشر بشكلٍ عشوائيّ، والأمور كأنّها في مزادٍ في سوقٍ للخُضار، والأوساخ تملأ الطّرقات، والدّروب المُوصِلة إلى مُبتغاك من الكتب مليئة بالأتربة، لا مُمهّدة ولا مبسوطةٍ ولا نظيفة، يختلط الحابل بالنّابل، والرائح بالغادي، فلا تكاد تعرفُ لكَ رأسًا ولا قَدَمًا، ولا وجهًا ولا قفًا!!

ومع كلّ ذلك الّذي نقوله من حبّنا لمصر، وحُبّنا للكتاب، نقول: إنّ روّاده ما زالوا يُثبِتون رغم الإهمال الظّاهر بوجهٍ عامٍ في كلّ مرافقه، أنّهم تجاوزوا كثيرًا من ضعفِ التّنظيم، وأنّهم كانوا أكبر من المُعيقات، وأنّ أولئك الّذين توافدوا من مختلف المحافظات والمناطق بكلّ ألوانهم وتقاسيم وجوههم هم وجه هذا المعرض البهيّ البهيج، وهم وردته النّاضرة، وياسمينه الشّذيّ. إنّ هذه الأفواج الّتي تراها من الشّباب في العشرينات من أعمارهم لتدلّ على أنّ الأمّة ما زال قلبُها نابِضًا رغم الموت الّذي سِيقُوا إليه، وما زالت روحها حيّة، توّاقة إلى المعرفة رغم الضّيق الّذي عانَوا منه، وعلى هؤلاء معقد الأمل في المستقبل، وعلى أكتافهم - شبابًا واعِيًا قارِئًا حصيفًا - ستتغيّر الأحوال، وتتبدّل الوقائع، وتصير المُجريات إلى ما فيه الخير، لكي نعود أمّةً قارِئةً بحقّ، فما من أمّة قارئةٍ تجوع، وما من أمّةٍ قارئةٍ تُستعبَد، وإنّه قد قيل:

«مَنْ قرأ عرف، ومَنْ عرفَ اغترف».

مقتطفات من معرض القاهرة الدولي للكتاب بين أعوام ٢٠١٦-٢٠٢٠م

الفصلُ العاشِر
عَقَبات وتَخَطّيات

قالَتْ حُبِستَ فَقُلتُ لَيسَ بِضائِري

حَبسي وَأَيُّ مُهَنَّدٍ لا يُغمَدُ

أَوَما رَأَيتِ اللَيثَ يَأَلَفُ غيلَهُ

كِبرًا وَأَوباشُ السِباعِ تَرَدَّدُ

وَالشَمسُ لَولا أَنَّها مَحجوبَةٌ

عَن ناظِرَيكِ لَما أَضاءَ الفَرقَدُ

وَالبَدرُ يُدرِكُهُ السِّرارُ فَتَنجَلي

أَيّامُهُ وَكَأَنَّهُ مُتَجَدِّدُ

(عليّ بن الجَهْم)

تمهيد:

لن تجري الحياةُ على ما تريد، إنّها ليست جالسةً على تلك القارعة تنتظركَ أنْ تقول لها تلك الكلمة، إنّها أمّ هؤلاء جميعًا، هؤلاء؟ بشرًا وشجرًا وحجرًا وأدواتٍ! ذلك الوعاء الّذي يجمع كلّ شيءٍ. إنّ حياةً تجري على ما تُريد هي وجهٌ من وجوه المأساة، بل هو أقسى ما فيها؛ إذْ إنّ التّمنّي لا يُصلِح العمل ولا يَصلُح له، وإنّ اقتران اللّذّة بالجُهد ينفي عن المجد صِفةَ السّهولة، فلو كان سهلاً لما كان مجدًا، وإنّ الضّنكَ بعدَ الضّنى والسّنة بعدَ الشّهر لينفي عنها صِفة العجلة، فلو استعجلتْ لَما أتتْ، أو أتتْ شَوهاء، وإنّ مجدًا ناضِجًا ليحتاجُ زمنًا جديرًا بنُضجه، ولقد قالوا: «من استعجلَ حُرِمَ».

لقد سُجِنتُ أكثر من مرّة، ولكنّ ذلك ليسَ سيّئًا، ولقد فُصِلتُ من دراستي وعملي غيرَ مرّة، ولكنّ ذلك ليس النّهاية، ولقد مُنِعتُ من كثيرٍ من المنابر، ولكنّ ذلك ليسَ فناء السُّبُل. إنّ خلفَ كلّ أَكَمةٍ شجرة، وإنّ وراءَ كلّ صحراء واحة، وإنّ بعدَ كلّ جهدٍ ثَمَرة. وإنّ دمعةَ فرحٍ يطول لتسبقُ دمعةَ حُزنٍ يزول. ولقد قضيتُ حياتي كما قضى الكثيرون؛ نحاول مُلكًا

أو نموتَ فتُعذَر، وما ضرّني أنْ لم أصل ما دمتُ على الطّريق؛ فموسى مات في التّيه. وما ضرّني أنْ قد حيلَ بيني وبين ما أبغي، فما من نبيٍّ ولا عظيمٍ إلاّ حيلَ بينه وبين ما يبغي، غيرَ أنّ قلبَ الأنبياء لا يعرفُ اليأس، ونحنُ أولى بالأنبياء وبالأمل.

مُجتمع السّجن:

بغيضٌ، يعومُ في الجَهل، مُخيف، لَزِج، قَلِق، حَلَزونيّ، لا وجه له، رأسُه ذيل وذيلُه رأس، قاتل، يُمكن أنْ يكون حتفَك دون أنْ تدري، لا يُوجَد سِجنٌ وخاصّة في بلادنا العربيّة يُنقِذك، السّجن كُرَتان من حديدٍ لساقيك في الماء يشدّانكَ إلى الأسفل لتغرق، لتنتهي، أو لتكون غيرَكَ!

تلك الثّياب الّتي تُذكّركَ بأنّكَ مُجرِمٌ في كلّ نظرة. العيون الّتي تلتقي وقتَ الطّعام تريدُ أنْ تنهشَ الآخَر. الحركات السّريعة في ساحة التّشميس خلفَ الظّهور، الأيادي الّتي تطعنُ في الخَفاء، العلاقات المشبوهة، والصّداقات المُستحيلة؛ ليسَ في السّجن ما يدعو إلى التّفاؤل، ولا يُمكن حتّى التّعايش مع الآخرين فيه، الرّائحة الكريهة، البثور، الأمراض الّتي لا تنتهي، الصّرخات، السّباب، الشّتائم، الشَّبَح،

الألفاظ النّابية، الأوضار... كلّ ما يخطر ببالك من هذه القذارات... ليس فيه ما يبعث على الرّاحة. لكنْ؛ نحنُ أولئك الّذين نخرج من هناك أحياء، نعيشُ بهذه الكلمة: (لكنْ)، إذا نحنُ كنّا على درجةٍ من الوعي بحيثُ عزلْنا أنفسنا عن الآخرين، يعني أنْ تعزلَ جزءًا من المجتمع عن المُجتمع الكامل، أو ربّما لن يكون هناك ما تقدر على أنْ تعزله سِوى نفسِك، تُحيطُ نفسَك بذلك الجِدار الصّلد الّذي يحميك من تغوّلات هذا المجتمع المُرعِبة. لم يكنْ بِناء الجدار سهلاً، كان يحتاج إلى لَبِناتٍ كثيرة، في مقدّمتها إرادة العُزلة، ثُمّ الثّقة بالنّفس، ثُمّ القُوّة الأخلاقيّة والسّلوكيّة والبدنيّة، ثُمّ القراءة، وهي القوّة المعرفيّة. كان يُمكن لأحدنا أنْ ينجو من تبعات السّجن الذّابحة بإقامة ذلك الجِدار. والسّؤال: كم من السّجناء نجح في إقامة ذلك الجدار؟ قليلون.

لم يكنْ ذلك الجِدار يعني انبتات التّواصل مع مجتمع السّجن، فهو مجتمعك شِئتَ أم أبيت، ولا يُمكن إلغاؤه ولا حتّى تجاوزه؛ لكنّه يعني تقنين طريقة التّواصل، وبدلاً من أنْ تفتحَ له الباب على مِصراعَيه، كان يُمكن أنْ تتواصل معه من النّافذة، وليس أنْ تفتح ظَرفتَيها، ظَرفةٌ واحدةٌ تكفي، وأحيانًا كان يُمكن أنْ تُشير بيدَيك من خلفِ زُجاجِها. وفي الدّاخل، لكَ عالَمُك. عالَمُكَ الّذي يضجّ بكلّ ما تشتهي،

وسيتكفّل الكتاب بأنْ يفتح لك أبوابَه!

في السّجون:

هل أخرجُ من السّجن غاضِبًا مِمّا حصل معي وحاقِدًا على الّذين صادروا حرّيّتي، من أجل قصيدة، قصيدة يا قوم، لم يكنْ في الأمر غير قصيدة؟ هل أخرجُ كارهًا للمجتمع والقانون والحياة؟ كان يُمكن أنْ يحدثَ ذلك معي أو مع واحدٍ تعرّض لمثل ما تعرّضتُ له. لكنّ شيئَين مَنَعاني من ذلك؛ إيماني بأنّ ما كُتِب في اللّوح ماضٍ إلى يومِ القيامة فلا طاقةَ لي ولا لهم بِحَرْفِه عن مُضِيّه ذلك، ولا طاقةَ لهم بتغييره حتّى ولو أرادوا، والأمر الثّاني ثقافتي - بحمد الله - الّتي حالت دون أنْ أقع في هذه الهُوّة السّحيقة.

اخترتُ من أجل ذلك أن أُفرّغ غضبي بالكتابة، أنْ أُوجّه تلك الطّاقة الجَبّارة بالمزيد من الجلوس إلى الكتاب، بمُصادقته، بالذّهاب معه إلى أبعدِ الأشواط. لقد طهّرتُ نفسي بتلكَ القراءة وبذلك الإيمان من فَوْرة الغضب وسوء مآله، ومن دَخَن الحقد وسَواد مصيره، فأبدلتُ الغضبَ شجاعة، والحقدَ حُبًّا، وكتبتُ ما كتبتُ من بعدُ بهما، ولقد قلتُ وأنا خلفَ القُضبان بعيدًا عن دراستي في كلّيّة الهندسة ولم يكنْ

قد تبقّى على تخرّجي فيها غيرُ فصلٍ واحدٍ:

أنا ما حقدتُ على السّجونِ، وليسَ لي
قلبٌ لِيَحقِدَ؛ بل لِيَعشَقَ لا جَرَمْ!

إنّي أُحِبُّكَ لو تَوزّعَ خافقي
هَذِي القُلوبَ لَفاضَ سلسَلُها وَعَمْ

السّجن فُسحة:

على أنّنا نبحثُ عن الأمل لأنّنا يائِسون، وننتظر الفَرَج لأنّنا مكروبون، ونُمنّي أنفسَنا بشمسٍ مُشرِقةٍ لأنّنا نعيشُ في ظلامٍ كثيف. هذا ما أرادتْ أنْ تقوله رواية (طريق جهنّم):

فِي السِّجْنِ فُسْحَةُ حالمٍ، ظَلّتْ أمانيهِ تَدُورُ عَلَى عَجَلْ

في السّجْنِ يَخْتَلِطُ الخَيالُ مَعَ الحَقِيْقَةِ،

والحَقِيقَةُ بِالخَيالِ،

كأنَّما لَهُما البِدايَةُ والنِّهايَةُ ذاتُها،

كُلٌّ يَسِيْرُ إلى أَجَلْ

في السّجنِ رُعْبُ اللّحظةِ الأُولى كَرُعْبِ اللّحْظَةِ الأُخْرى،

فَمَا مِنْ لَحْظَةٍ تَمْضِي بِلا فَزَعٍ يُمزّق حُلْمَنا،

وَلَقَدْ يَمُرُّ بِنا الهُدوءُ على خَجَلْ

في السّجنِ يَنْسَحِقُ الأمانُ،

وَتَسْتَفِيقُ على جِدارِ القَلْبِ بُرْعُمَةُ الوَجَلْ

أَوَكُلّما غَطّى على شُبّاكنا لَيْلٌ مِنَ اليَأسِ المُعَتَّقِ

وَاسْتَطالَ تَقُولُ دامِعَةُ المُقَلْ

هَلْ مِنْ أَمَلْ؟

فَيَقُول عُصفورٌ يُنقّطُ بالعَسَلْ:

أَجَلّ أَجَلْ!!

كيفَ واجهتُ الأذى؟

لقد صدقَ أبو العتاهية، حينَ قال:

لكلّ ما يُؤذي وإنْ قَلّ ألمْ

ما أطولَ اللّيلَ على مَنْ لم يَنَمْ!

وصدقَ المتنبّي حينَ قال:

وَاِحتِمالُ الأَذى وَرُؤيَةُ جانيـ

ـهِ غِذاءٌ تَضوى بِهِ الأَجسامُ

غير أنّني ما اتّخذتُ طول اللّيل للبُكاء، ولا شِدّة الأذى للجهر بالشّوء، ولا احتماله سبيلاً إلى الاستِكانة لا قدّر الله. كنتُ أحيانًا ألعقُ جراحي وأسير، «وأعرفُ أنّ الجراحَ تُضيءُ الطّريق دماءً ونارْ، وتُذهب عتمة هذي النّفوس الكِبارْ. وتشهدُ أنّ الّذي نَزلتْ عنده، أحقّ بمجدٍ عَلا ما له من قَرارْ».

في سجن سواقة مع بعض السّجناء الزّملاء أواخر عام ١٩٩٦م

في سجن سواقة في الأردن عام ١٩٩٦

حينَ فُصِلتُ من جامعة العلوم والتّكنولوجيا عام 1994م وأنا في السّنة الرّابعة فصلَين دراسِيَّين ومُنِعتُ خلالهما من

دخول الجامعة، كان ذلك بسبب قصيدة (السّلم للأجيال) الّتي ألقيتُها في أحد مُدرّجات الجامعة الكبيرة، كنتُ طائر الجامعة الغِرّيد، وأرادوا ألا أغنّي، لا أدري كيفَ يُمكن أنْ تمنع طائِرًا من الغِناء؟!

كان عليَّ أنْ أُواجه الحقيقة، أنا مفصولٌ من الجامعة، بلا عمل، ولا أيّ شيءٍ، لا أستطيع دخول الجامعة حتّى ولو لإلقاء بعضِ التّحايا على سِرب الظّباء الوارِدات ماء القلب. ماذا أفعل؟ الحلّ ليسَ صعبًا. انزويتُ في غرفتي، انزِواء الاتّساع لا انزِواء الانذِواء، وانِزواء الانتِشار لا انِزواء الاضمِحلال، فأنا لا أؤمن بالبُكاء على الأطلال بالمعنى السّلبيّ؛ اشتريتُ أكثر من خمسة آلافِ ورقة وأكثر من عشرة أقلام من الحبر الأسود السّائل ماركة (Pilot) اليابانيّة الّتي أحبّها، كان الورق الّذي اشتريتُه من ذلك النّوع الّذي تكون أطرافُه مثقوبة لكي يسهل وضعُها في المِلفّات، وله هامش بمقدار بوصةٍ من اليمين، يليها خَطّان أحمران يبعدان بمقدار سنتيمتر واحدٍ أو أقلّ عن الثّقوب، ويُشيران إلى بداية الكتابة؛ من هنا ابدأ الحرف، هذا ما يقولانه؛ هذا ما أسمعه!

هجمتُ على آخر ما قرأتُ، لخّصْته ربّما في ثلاثمئة صفحة، لا أدري لم يعدْ كثيرٌ من هذه المُلخّصات لديّ، انتهى

التّلخيص، فهجمتُ على مُسوّدات شِعري، منذ أوّل قصيدةٍ كتبتُها في عام 1986م، استخرجتُها من بين الأوراق المتراكمة والمُكدّسة، وبدأتُ أبيّض أشعاري منذُ أوّل تفعيلةٍ كتبتُها، وقسّمتُها إلى السّنوات، فبدأتُ بتبييض ما كتبتُه في عام 1986م، لم يكنْ كثيرًا، لا أعتقدُ أنّه تجاوز بضع قصائد أو مُقطّعات. ثُمّ رحتُ أبيّض كل ما كتبتُه في عام 1987م من قصائد، كان عددها ثلاثة أضعاف ما كتبتُه في العام السّابق على الأقلّ، وهكذا، كلّ سنةٍ في سنتها، أجمعُ قصائدها المُسوّدة وحتّى تلك المُبيّضة أو المكتوبة بخطّ جيّد، لأنّني كنتُ أريدُ أنْ تكون جميعها في السّنوات كلّها مكتوبةً على المنهج نفسِه، بالأسلوب الجديد نفسه... نحنُ نتحدّث عن تسع سنوات من الكتابة، استطعتُ أنْ أبيّضه في خمسة أشهر أو أكثر قليلاً، أظنّ أنّ الصّفحات كانت بالآلاف... ولكنْ لِمَ كنتُ أفعل ذلك؟ هل كنتُ أهربُ من الفراغ إذا جلستُ مُدّةَ فَصْلي من الجامعة دون أنْ أفعل شيئًا؟ هل كنتُ أهربُ من المَلَل؟ أم من الوقوف على حقيقة ما حدث معي؟ لقد كان قاسِيًا بلا شَكّ؟ هل كنتُ أهربُ منه أم من نفسي، ألاّ أواجهها؟ قد يكون الهروب من ذلك كلّه، ولكنّه هروبٌ حميد؛ فقد أَسفرَ عن كتابة آلاف الأوراق، ما زلتُ أحتفظُ بها إلى اليوم أو أكثرها في أرشيفي!

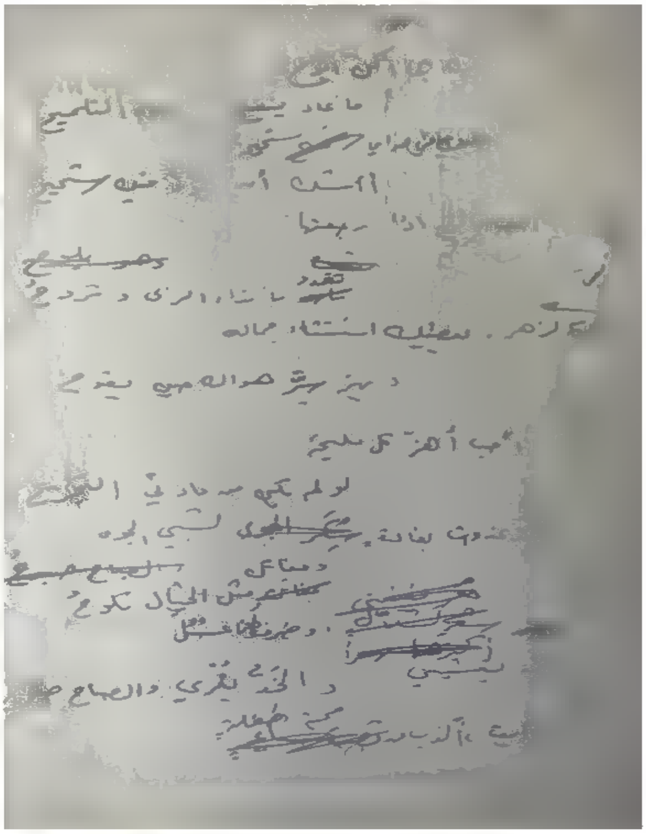

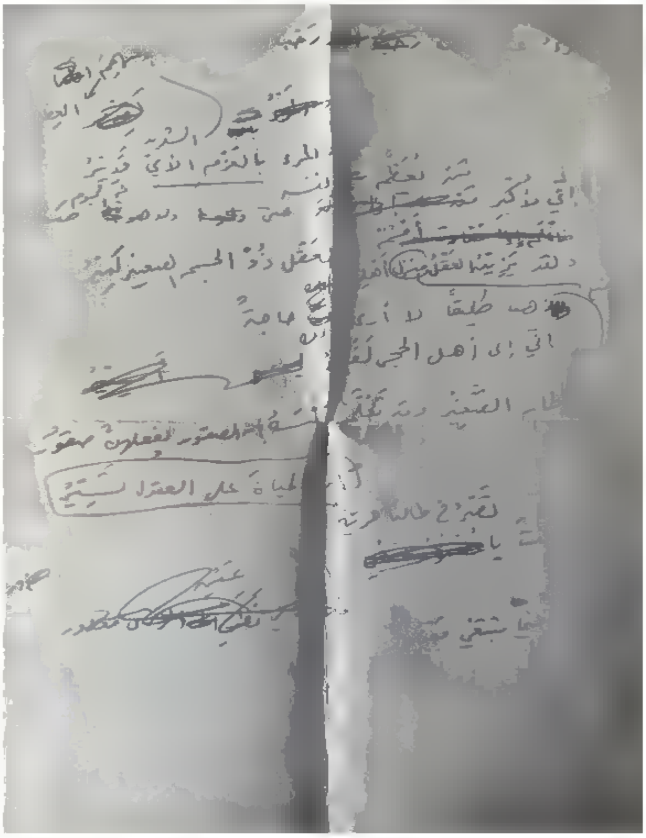

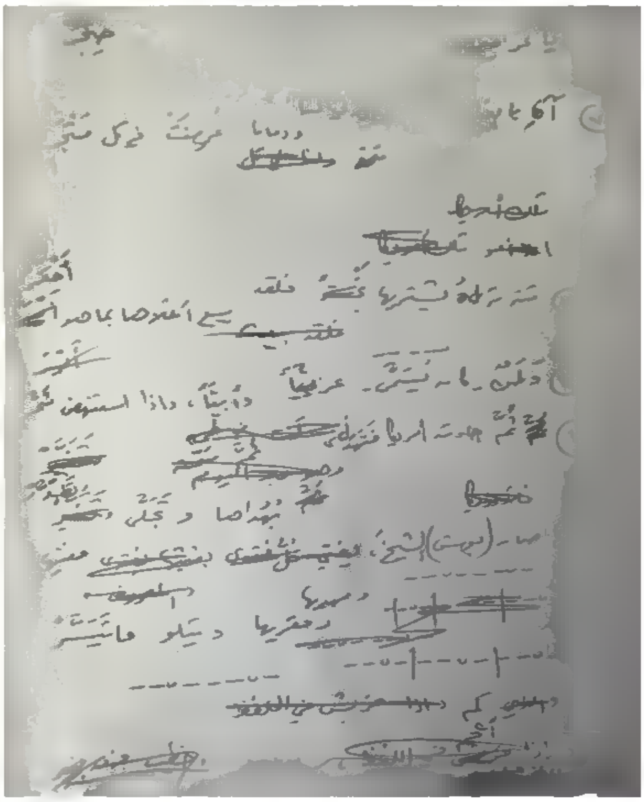

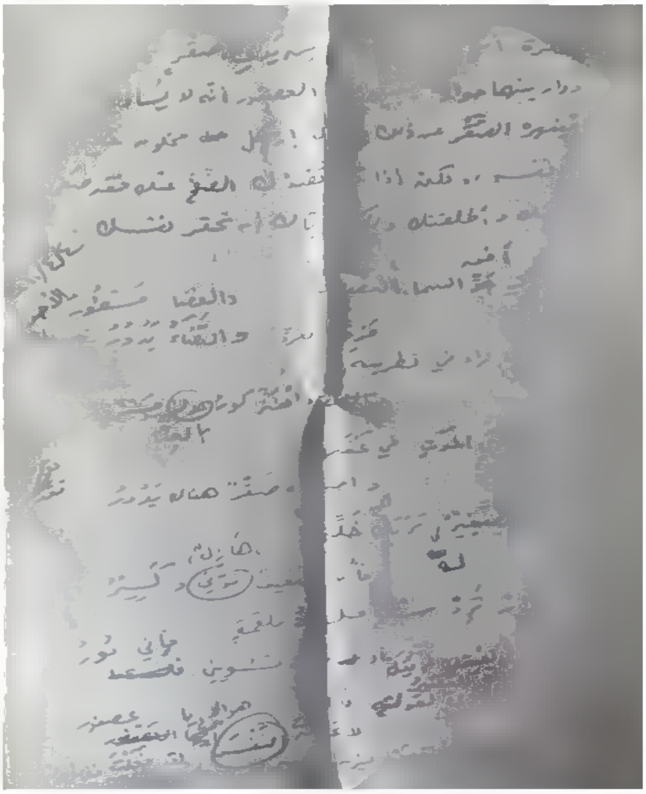

مُسوّدات بعض القصائد

لم أكدْ أعودُ إلى الجامعة بعدَ عقوبة الفصل حتّى فتّش

رِجال الأمن غرفتي ونبشوا أوراقي، وأخذوا مِلفّات شِعري، وصادروا بعضَ أشرطة الفيديو لأمسياتي الشّعريّة، واحتجزوا كثيرًا من أوراقي الخاصّة، في ليلةٍ مشهودة، من ليالي خريف عام 1996م، كان مِمّا أخذوه كذلك مِئات القصائد الّتي كتبتُها ووعدوا بإرجاعها، ودخلتُ السّجن، وخرجتُ منه، ومرّ على ذلك ربع قرنٍ، ولم ترجع تلك القصائد، فإذا جاءَ وقتٌ ما في حياتي أو بعدَ موتي، وأفرجتْ دوائرُ الأمن عن هذه القصائد، فيُمكن أنْ تُضاف إلى بقيّة الكتابات المفقودة الّتي أفردتُ لها عنوان (كتابات ضائعة) في الفصل السّابع سابقًا!

كُنّا في السّجن نُهدَى إلى نجدَين، أو طريقَين، لم يكنْ لهما ثالثٌ في حالتنا نحن السّياسيّين، إمّا طريق الجنون والتّقوقع داخل ثقب العزلة الخاصّ، وإمّا نفضُ الغبار عن الفؤاد الّذي راكَمَه الهَمّ وطولُ التّرقّب، والانطِلاق إلى البوّابات الفسيحة، اخترتُ الطّريق الثّاني بالطّبع؛ فأنا أعرفُ ما أريدُ، دفنتُ نفسي وقلبي وروحي وجوارحي في الكتب، رُحتُ أقرأ بنهمٍ ليسَ له إلاّ تفسيرٌ واحدٌ: إنّه محاولةٌ للتّغلّب على السّجن الحقيقيّ بالسّماح للرّوح بالتّحليق، وكانت القراءة تمنحني هذه الفرصة. لا أدري إنْ ظلّ في مكتبة السّجن كتبٌ لم أقرأها إذا استثنيت بعضَ الكتب الّتي لا تستهويني ككتب

النّجاح والتّنمية البشريّة، وبعضِ الكتب الّتي لا تهمّني ككتب المِهَن والحِرف، وكتب الرّياضة، وباستثناء هاته الكتب، لقد قرضتُ ما تبقّى قَرْضًا!

يَحبِسونك؟ يستطيعون. لقد فعلوا وانتهى. الأمر بعدَ ذلك يتوقّف عليكَ وعندك. واجِهْه بشجاعة. أنا واجهتُه بالكِتاب. لقد كان الكتاب تعويذة النّجاة لي من الموت كما قلت.

في عام ٢٠٠٠م سُجِنتُ لثلاثة أيام في نظارة مركز أمن الجنوبي في إربد، كانت قَذِرةً جدًا، أرضُها رَطْبة ولَزِجة لكثرة البول الّذي يمتزج بالتّراب والوسخ، وكانت تقبع تحت الأرض، ومليئة بالموقوفين المُجرمين. وكان أحدهم قد نام إلى جانبي وكان شديد الشّخير، وقد منعني شخيرُه من النّوم على شدّة تَعَبي، فهززتُه ففتح إحدى عينَيه ونظر إليّ بها ثم عاد إلى نومه كأن بعوضةً هي التي أقلقتْ منامه؛ فلمّا ركن إلى النوم واطمأنّ إليه رجع إلى عادته القديمة من الشّخير ولكنْ بنغمةٍ أعلى، فمنعني ذلك من مجرد الغفوة، وكنتُ منهكًا أريدُ أنْ أنام ولو على فِراش القاذروات اللّزج هذا، فهززتُه من جديد، ففعل ما فعله في السّابق، وصرتُ كلّما يغفو أعمد إلى هَزِّهِ قائلاً: غَيِّرِ الجنب الذي تنام عليه لكي يتوقف شخيرُك، فكان يفعل ذلك مُضطرًّا أو دون وعي،

وقد استمرّ يعلو صوته بالشخير بعد دقائق قليلة من نومته واستمررتُ أنا في إيقاظه ليغيّر الجنب الذي ينام عليه لأحظى بقليل من خمود الشخير علّني أتمكّن من مراوغة النوم أو سرقته لأحظى بالسقوط في بئر النّوم، ولكن هيهات. ولا أنكر أنّني كنتُ أجدُ متعةً في إيقاظه وإفساد نَوْمته كما أفسد عليّ نَوْمتي ومنعني منها، إلى أن حدث بعد عدد من المرات ما لا يُحمَد عُقباه إذ استيقظ في إحداها وقد انزعج لكثرة إيقاظي فهبّ يشتم ويصرخ ويهمّ بالبطش بي لولا أنّني سارعتُ إلى تهدئته والطلب منه ألا يغضب، وأنّني أعاهده ألاّ أعود لمثل فَعْلتي الشّنيعة هذه مرّةً أخرى. إنّ بعضَ المِزاح مع شخوص السّجن يمنحك فرصةً للتّأمّل، ما زالت كلّ شخوص السّجن الّتي عايشتُها في أكثر من سجنٍ تعيشُ في ذاكرتي ومُخيّلتي، في خمسِ رواياتٍ لي تتحدّث عن السّجن لم أُنفِقْ من هذه الوجوه أكثر من عُشرها. السّجنُ مَنجَم!

في عام 2016م، جرّتني رواية (حديث الجنود) إلى الاعتِقال. لا بأس. إنّه أمرٌ يبدو طبيعيًا في حالتي. خرجتُ سريعًا. عليّ أنْ أتغلّب على مرارةٍ كهذه، اقترحتْ زهراء أنْ أذهبَ إلى البوسنة والهرسك، كان ذلك في شهر كانون الأوّل، "نحن في الشّتاء" قلتُ لها، سيكون الجوّ قارِسًا، ردّت: أجملُ

من أجل أنْ تُكمِلَ الفصول الأخيرة من الجزء الثّاني من رواية (المسيح). هذا ما كان بالفعل. في ثلاثة أسابيع قضيتُها بين الجبال والثّلوج، كتبتُ أربعةَ عشر فصلاً هي الفصول الّتي كان عليّ أنْ أُتمّ بها هذا الجزء الثّاني من هذه الرّواية.

بِلادٌ مَنكوبة:

كثيرًا ما يسألونني: لماذا لا تكتب عن السّجون في فلسطين؟ لماذا لا تكتب عن السّجون في العراق؟ إنّ سجون تونس تاريخُها يطول وشرحها يمتدّ فلماذا لا تكتب عنها؟ أين سجون المغرب من رواياتك؟ ويستمرّ السّؤال الجارح عن كلّ بلد. يا قوم إنّنا بلادٌ مَنكوبة، سورها سور سجنٍ كبيرٍ كما قال مُظفّر النّواب: "فهذا الوطنُ الممتدُّ من البحر إلى البحرِ سُجُونٌ مُتلاصقةٌ؛ سَجّانٌ يُمسِكُ سَجّانْ".

إنّني لو أردتُ أنْ أُعطي كلّ بلدٍ حَقّه من الكتابة عن سجونه، لكانَ عليّ أنّ أكتب اثنتين وعشرين روايةً بعدد بلداننا العربيّة المُمزّقة على الأقلّ... ولكنْ أما شَبِعنا من الحُزن والأسى؟! أما هناك فرجةٌ للأمل؟! لقد كتبتُ خمسَ روايات، إنّها كافيةٌ وزِيادة... إنّ العمر لا يتّسع لضيق

السّجون، وإنّها بلادٌ عربيّة كثيرةٌ، ولكنّها سجنٌ واحدٌ، مَنْ علّم السّجّان الوحشيّة في الشّرق هو الّذي علّمها للسّجّان في الغرب، والحديث عن سجنٍ في بلدٍ ما يتشابه عن الحديث عن سجنٍ في بلدٍ آخر، إنّ محنة السّجن في بلادنا العربيّة واحدة، إنّ وجهها منذُ أكثر من سبعةِ عقودٍ لم يتغيّر ولم يتبدّل، إنّه هو هو، قاتلٌ لا يشبع من الدّماء، يلبسُ قناعًا زائفًا من الحرّيّة والدّيمقراطيّة:

حُرِّيَّةُ الرّأيِ وَالتَّعْبِيرِ أَقْنِعَةٌ

وَالأَمْنُ ثَوْبُ تُوَشِّيهِ الدِّعاياتُ

الحرف تُهمة:

لم تسلمْ رواية يا صاحبي السّجن من المُحاصرة والمُضايقة والمنع في البداية، ولم يسلمْ كذلك ديوان نبوءات الجائعين من مثل هذه المعاملة، كان الأمر يتوقّف على السّماح للكتاب من دائرة المطبوعات والنّشر الّتي لم نكنْ نأخذ موافقتها بسهولة، وكان الانتِظار أحيانًا يطول، لكنّ هذين الكتابَين مرّا رغم بعضِ المُنغّصات، أمّا الرّوايتان اللّتان مُنعِتا وحُوصِرتا حِصارًا تامّا، فهما (حديث الجنود)، و(يوم مشهود).

حديث الجنود، ذهبتْ محاربتها شوطًا بعيدًا جِدًّا؛ إذْ رُفِعتْ عليها قضيّة من دائرة المطبوعات والنّشر، وصدر بحقّي أنا والنّاشر قرارٌ بالتّغريم، ثُمّ استأنفنا، وبقيتْ في أروقة المحاكم أربع سنوات بين عامَي (2014-2018) حتّى انتهتْ. لقد اعتقلتُ بسببها من الشّارع، ومُنعت من دخول الجامعات لمنافشتها أكثر من عشر مرّات، ولم يُسمَح لها بإعادة الطّبع حتّى إنّ الناشر امتنع عن إصدار طبعات جديدة منها، مما اضطرّني لطبعها بطريقة غير عاديّة خارج دار النشر واستمررت في تسويقها، وأعلنتُ أوّل مُحاكمتها عن أنّني سأوزّعها مجّانًا لكلّ مَنْ أراد وحدّدتُ لذلك زمناً ومكانًا، لا أدري أيّ يومٍ هو من شهر (5) من عام 2014م، ولكنّه كان على دوّار (باريس) في جبل اللّويبدة بعمّان. حكاية حديث الجنود طويلة، ولا يُمكن اختِصارها ببعض الصّفحات. الدّولة استندتْ في تُهمها إلى أكثر من خمسين موضعًا في الرّواية. الرّواية بالطّبع تناولتْها كثيرٌ من المواقع الإعلاميّة، وعملتْ عنها الجزيرة برنامجًا خاصًّا بها هو (خارج النّصّ). وقد نشرتُ على صفحتي على الفيسبوك يوم 7 أكتوبر عام 2018م النّصّ الآتي: "إسدال الستارة على مُحاكمة رواية حديث الجنود: بدأت القصة عام ٢٠١٤م حين وقفتُ أمام المدعي العامّ في عمّان بتُهمٍ عدّة منها إثارة النّعرات

العنصريّة والمذهبيّة من خلال مواضع في الرّواية الصّادرة في العام نفسه، راوحت القضيّة بين مَد وجَزر، وحبس وغرامةٍ، وكفالة وتمييز... ثُمَّ بعد أربع سنوات كاملات، قضت المحكمة اليوم في سابقةٍ حميدة بعدم المسؤولية عن التهم المُسندة إليّ وإلى الناشر، ممّا يعني بلغة أخرى أننا خرجنا بعد هذا الماراثون القضائي بِحُكْم البراءة.

من أجل ذلك أودّ أولاً من كل قلبي أن أشكر القضاء الأردنيّ الذي أثبت اصطفافه الوثيق إلى جانب حرية الرأي، وأشكر ثانيًا كل القضاة والمُدّعين العامّين والمحامين والشّهود الذين تناوبوا على القضية طوال هذه السّنوات الأربع، أشكر كلّ جلسة تحمّلوا فيها عناء النّظر في القضيّة والادّعاء فيها أو الدّفاع عنها، ممتنًّا لكل هؤلاء بكلّ دقيقةٍ من وقتهم.

وأشكر ثالثًا النّاشر المُؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر مُمثّلةً بصاحبها الأستاذ ماهر الكيالي الذي تحمّل هو الآخر تبعات هذه القضيّة وجرى عليه ما جرى عليّ وظلّ صامدًا إلى آخر لحظة.

سعيدٌ أنا جدًّا بالنهاية التي آلت إليها القضيّة، وسعيدٌ أكثر أنّ حديث الجنود أصبحت بحمد الله حرّة".

أمّا (يوم مشهود) الّتي تحكي حروبنا مع إسرائيل، وتقف عند معركة الكرامة وعند بطلها مشهور حديثة الجازي فقد احتُجِزت النّسخ القادمة من مصر في مطار عمّان في شهر نوفمبر من عام 2019م، ولم يُسمَح لها بدخول الأردنّ إلى اليوم، وكان من المُقرّر أنْ تُقام لها ندوة حواريّة في مؤسّسة عبد الحميد شومان يُشارك فيها أساتذةٌ في الأدب والشّعر كِبار، وروائيّون من خارج الأردنّ، ولكنّ النّدوة مُنِعت كذلك، ولم تُقَم منذ ذلك التّاريخ إلى اليوم. ثُمّ بعث وزير الإعلام عن طريق أحد المعارف أنّه يُمكن أنْ يُسمَح لها بالدّخول والمناقشة إذا عُدّلت هذه المواضع المُشار إليها، وأمّا المواضع فكانت اثنين وعشرينَ موضعًا، يضيقُ المَقام عن ذِكرها، ولكنّني أذكر موضعين أو ثلاثًا منها على سبيل المثال.

الموضع الأوّل: "ضَحك الملك، وقال له: "أنتَ منذ اليوم ضابط صفّ". علّق له مديره في المساء على كتفه لا على ذراعه شريطتَين لا واحدة، وصل الخبر إلى غلوب، أمر بنزع الشّريطتَين قبل أنْ يطلع الصّباح، وإعادته إلى عريف، قال بهدوء: "أنا قائدُ الجيش، وأنا الّذي أمنح الرُّتب". فقالوا له: "إنّ الملك قد أمر بذلك". ردّ عليهم: "قولوا للملك إنّ الجنديّة تعني الانضِباط، وعلى هذا الجنديّ أنْ ينتظر دوره حتّى يحصل على رتبته بحقّ".

والموضع الثّاني: "حزنتْ غولدامائير على اغتيال الملك، لقد نصحتْهُ من قبلُ: "إنّك تُعرّض نفسكَ للجماهير". فغضب، وعقّبتْ: "متى يفهم القادة العرب أنّ السّرّيّة جزءٌ من الأمن؟".

بالطّبع هناك عشرون موضعًا غير هذين، وأنا ضربتُهما لا لذاتهما، فقد يكون غيرهما في نظر الدّولة أصعب من هذين، ولكنّني اخترتُ لا على التّعيين.

كان ردّي أنّني لن أغيّر حرفًا واحِدًا مِمّا كتبت. وتساءلتُ إذا كان قد ظلّ في العصر الّذي نعيشه اليوم مَنْ يُفكّر بهذه العقليّة الانتِقاميّة المريضة الّتي لم تخرج عن عقليّة السّبعينيّات من القرن المنصرم. وقلتُ: إنّني سوفَ أنشرها على وسائل التّواصل الاجتِماعي وعلى مواقع النّت مجّانًا، حتّى تصل إلى أقاصي الشّرق والغرب، وهذا ما حدثَ فعلاً.

مَنْع ومَنْح:

إنّهما وجهان لخليقةٍ واحدة، المَنْعُ هنا هو مَنْحٌ هناك، والمنح هنا هو منعٌ هناك، لا أدري لِماذا قفز إلى ذهني قول ابن عطاء الله السّكندريّ في حِكَمه: " رُبّما أعطاك فمنعَك،

وربّما منعكَ فأعطاك، ومتى فتحَ لكَ باب الفَهم في المَنْع صار المَنْعُ عينَ العَطاء».

بعضُنا يظنّ العالَم مُتوقّفًا على كلمته، وبعض الدول المَهزوزة تظنّ نفسها دولاً عُظمى ذات تأثير، وهي لولا أن المال الذي تُنتِجه آبارُها يعيش عليه اقتصادُ الدُّوَل الغربية وأمريكا ومصانع أسلحتها لما عرف أحدٌ عنها شيئًا! لا أقول ذلك إهوانًا، ولكن من المُؤسِف والمُحزِن معًا أننا ما زلنا نُناضل من أجل أن يهدم بعضُنا بعضًا، ونتقاتل داخل حدودنا كي ننهزم معًا في معارك لا رابح فيها إلا مَن أشعلها من خارج جلدتنا.

في بعضِ المعارض العربيّة أُزيلت كتبي من طاولات العرض، ومُنِعت من البيع، الكتب قنابل موقوتة - كما قلت - لا تدري متى تنفجر! لست مستاءً مِمّا يحدث بالطّبع، إنّني أذكره ضمن هذه التّجربة، لأنّه هدف هذا الكتاب من أوّله إلى آخره، أنْ تجدَ فيه ما هو نافعٌ ليُحفّزك، ليدفعكَ إلى الأمام، ليكون مُلهِمًا لك، إنّ هذه المُحاربة أمرٌ طبيعيّ، لا تَجعَلْها تُوقِفك، ولا تظنّ أنّها لن تحدث، إنّها تحدث، دائمًا، وبأشكالٍ مُختلفة، وأساليب مُتعدّدة.

وما التّتيجة؟ اليوم، ماذا نَجَم عن ذلك؟ الأمر سهل؛ أسهل مِمّا يتخيّل مَنْ أرادوا أنْ يضعوا الصّخور في الدّروب، أو يملؤوها بالحُفر، أو يزرعوها بالشّوك. أنا أترك كلّ هذا خلفَ ظهري، ليس أمرًا مُهمًّا، ولولا أنّه يعكس ما نحنُ عليه، ما عليه أنظمتنا الرّجعيّة ما قلتُه، ولكنْ لنعدْ إلى السّؤال: والآن ماذا بعدَ كلّ هذا؟ طُبعث يسمعون حسيسها أربعين طبعةً حتّى الآن، الطّبعة الواحدة تزيدُ في بعضِ الأحيان عن ألفَي نُسخة! إنّ للمصيبة وجهًا ضاحكًا. إنّ المحنة ليستْ إلاّ قِناعًا يختفي خلفَها الخير لِمَنْ صبر وثبت، وكان يعرفُ ما هو وما يريد، ويثقُ بأنّه حتّى يتّقد الحجرُ عليك أن تُوْرِيَ الزَّند.

في حضن الدّولة:

ليسَ خَشِنًا دائمًا، قد يكون أنعمَ من ريش النّعام، إنّها تسعى وراءك بكلّ ما تملك من طاقات، ولكنّها لا تدري أنّكَ تسعى وراءَها بمثل ذلك السّعي. لو تبادلْنا الضّفاف؛ لو تبادلْناها مرّة واحدة؛ لربّما عَذَر بعضُنا الآخَرا

أنا من المُؤمنين بأنّه يجب أنْ تُدار معركةٌ حول النّص حتّى يخرجَ مُنتصرًا، النّصّ الّذي يدخل مثلَ ولدٍ خجول ويخرج مثل فتاةٍ بريئة ليسَ نَصًّا، إنّه أشبه بقطعةٍ حلوى تُنسَى

حلاوتها بعدَ أنْ تُؤكل. النّص الحقيقيّ يجب أنْ يُحدِثَ زوبعة، يجب أنْ يغيّر مَسار النّهر، ويجب أنْ يُرعِد في السّماء من أجل أنْ يُعلِن عن نفسه، ويُبرِق فيها من أجل أنْ يَهدي الحيارى. كانت المعارك النّقديّة فيما مضى، في النّصف الأوّل من القرن المُنصرم تتكفّل بتَعرِية النّص، أعني بذلك النّحت الّذي يُشتغَل على الحجر الكريم حتّى يُضيء، وكلّما مرّ به الزّمن ازدادَ بريقُه لمعانًا. اليوم هذه المعارك النّقديّة استسلمتْ، ورُفِعتْ أقلامُها، وجَفّتْ صُحفُها. لم يعدْ هناك نُقّادٌ حقيقيّون، لأنّه لم يعدْ هناك قُرّاء حقيقيّون من هؤلاء النّقّاد، صار النّقد وظيفةً لزاويةٍ أسبوعيّة في صحيفةٍ ورقيّة باهتة يتقاضَى صاحبُها قرشَين، ثُمّ حتّى هذه الزّاوية ماتتْ بموت الصّحيفة نفسِها. هذا الفراغ الّذي تخلّى عنه النُّقّاد إمّا لعلّةٍ فيهم فلم يعودوا يقرؤون، وإمّا لعلّةٍ في الكاتب فلم يعدْ يُثير حفيظةَ أحدٍ، ولو كان ذُبابة. أقول اليوم مع انتِهاء دَوْر هؤلاء إلى غير رجعةٍ على ما يبدو، تقوم الدّولة اليوم بعملهم، يمرّ النّص بهدوء، صحيحٌ أنّه مَكين، ولكنّ مرورَه يُشبه مرور قطيعٍ من الظّباء له حفيف لكنّه لا يَلفِتُ نظَر أحد، فالطّريق خالية، عندها تتقمّص الدّولة دور الأسد، تعتقد أنّ النّص الظّبي يُثير شهيّتها فتهجم عليه، فيسيلُ دمه، فترى أنّه مات، ترجع لترتاح فتُهاجمُها الرّائحة من جديد، ولكنّها رائحةُ المسك، إنّ النّص الجيّد الّذي تُهاجمه الدّولة يحدثُ معه هذا.

تنتشر الرّائحة أكثر، تملأ أنوف البعيدين، يتوقّفون قليلاً ليصطادوا الرّائحة، يتبعونها، تتبعها حواسّ أخرى كثيرة من الأطراف القريبة والحدود البعيدة، إنّ رائحة دم النّصّ الجيّد تتجاوز كلّ الحدود والسّدود، ما إنْ ينتهي نهارُ الذّبح حتّى تكون الرّائحة في كلّ بيت! هذا ما تفعله الدّولة مرّة أخرى!

الفصل الحادي عَشَر
نصائح

فَما كُلُّ ذي لُبٍّ بِمُؤْتِيكَ نُصْحَهُ

وَما كُلُّ مُؤتٍ نُصحَهُ بِلَبيبِ

وَلَكِن إِذا ما استَجمَعا عِندَ واحِدٍ

فَحُقَّ لَهُ مِن طاعَةٍ بِنَصيبِ

(أبو الأسود الدُّؤليّ)

تمهيد:

في الحديث: «الدِّينُ النّصيحة». وتاريخُ النّصائح طويل، وبعيدٌ في الأمد، فالأنبياء والصّالحون جميعُهم تسنّموا هذا الدّور، من خلال حياتهم مع أقوامهم، وقد ذكرها القرآن باللّفظ في حالة صالح عليه السّلام حين قال: « فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ

وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ولَكِنْ لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ».

وعند العرب مثلُ ذلك كثيرٌ في جاهليّتهم وبعدَ إسلامهم، وكان الواحد إذا عركتْه الأيام، وعَجَمتْ عيدانَه الأحداث، وغبرتْ له في الحياة سِنُون، رُجِع إليه، ولُجِئ إلى خبرته أو حكمته، وقديمًا قال الشّاعر:

خَلِيلَيَّ ليسَ الرّأيُ فى جَنْبِ واحدٍ

أَشِيْرَا عَلَيَّ اليومَ ما تَرَيانِ

والنّصيحة ركائزها ثلاثٌ؛ التّجربة، والعِلم، والصّدق، فإنْ فقدتْ إحداها عرجتْ كما تعرج البطّة، وهنا سأحاول أنْ أقول ما أعرف، لن تجدوا جديدًا كثيرًا، إنّني في هذه الفصل ألخّص ما قلتُه في الفصول العشرة السّابقة، أُقطّر التّجربة الّتي مررتُ بها، لأضعها لكم في نصائح مُقتضبة، ما هجم منها على الخاطر دون ترتيبٍ أو تقديمٍ أو تأخير، فمن صفة النّصيحة أنّها لا زمنَ لها، ولا مُناسبة، أعني النّصيحة الّتي تصلح أنْ تُقال في كلّ حينٍ، لأنّها عامّة، وتصلح أنْ تُقرأ كما تُقال كالأمثال، وتصلح أنْ تَرِد على الذّهن كما تُقرأ. ففي

نصيحة أبي جعفر المنصور لابنه على سبيل المثال قال له: «خُذْ أهبة الأمر قبلَ حلوله، فإنّ ثمرة التّواني الإضاعة، وكُنْ عندَ رأسِ كلّ أمرٍ لا ذَنَبِه». فأنتَ ترى أنّها تصلح لكلّ زمان، ولكلّ أحدٍ.

هذه النّصائح هي في الكتابة والحياة، وهما العنوان الفرعي لهذا الكتاب بالتّحديد، فقد تجدُ فيها ما كان صالِحًا للحياة، أو نافِعًا للكتابة، ولقد قضيت حياتي في الكتابة، أو قضيث كتابتي في الحياة، فهما مُتداخِلان، فما كان نافِعًا للحياة كان بالنّسبة لي نافِعًا للكتابة، فلا كتابة مستقيمة إلاّ بحياةٍ مستقيمة، لا أعني حياةً سعيدة، فلا توجد من الأساس حياةٌ سعيدة بالمفهوم المادّي الضّيّق، ولكنّني أعني حياةً تُجالد فيها العيشَ حتّى كأنّه مِخلبٌ ناشبٌ في الشّدق، وتلك استقامتُها!

والنّصيحة لمن أعارك أذنه، لا لمن أعاركَ قفاه. وعظتها لا تقع إلاّ في القلب، والله يقول: « إِنَّ فِي ذلكَ لَذِكرى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ».

فلقد قال في مواضع العِظة؛ الأذن والقلب، أحمد شوقي:

لَقَد أَنَلتُكَ أُذنًا غيرَ واعِيَةٍ

وَرُبَّ مُنتَصِتٍ وَالقَلبُ في صَمَمِ

والشّاعر من قبله قال:

لا تعترضْ في الأمر تُكفَى شُؤونَهُ

ولا تنصحنْ إلاّ لمن هُوَ قابِلُهْ

وكما أمر اللهُ نبيّه صلّى الله عليه وسلّم بقوله: «خُذْ من أموالهم صدقة». فإنّ لكلّ مالٍ صدقة، وإنّ العِلمَ خيرُ المال، وإنّ صدقته النّصيحة، وإنّ النّصيحة مرآة العقل، وإنّ مَنْ عرضَ نصيحته على النّاس، فقد عرض عليهم عقلَه.

بهذه النّصائح الثّاليات ألخّص لكَ الكتاب أو بعضَه كما قُلت، وأجمع تفاريقه في موضعٍ واحدٍ، فإذا عَنّاكَ أنْ تقرأ الكتاب، ووجدتَ ذلك ثقيلاً عليك، فاقرأ هذه النّصائح فإنّها زُبدة ما حبّرْتُ في الصّفحات السّابقات، ولا تفرّقْ بين نصيحةٍ تسير إلى سِنّ القلم، أو نصيحةٍ تسير إلى دَفق القلب، أو ثالثةٍ تسيرُ إلى خفق العزيمة، فإنّ ما كان منها أخلاقيًّا لا يقلّ عمّا كان

منها مِهنيًّا، فالحياة هذه الوجوه المتعدّدة، وأنا في كلّ ما سأقوله إنّما اتّخذتُه لي سبيلاً، وأنفذتُه في أموري، منهاجَ حياةٍ وعلامةَ دروب:

1. قال تعالى: «أقبِلْ ولا تَخَفْ».

2. قال صلّى الله عليه وسلّم: "احْفَظِ اللهَ يَحفَظْك, احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ, إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ الله, وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بالله".

3. قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: "عِشْ ما شئت فإنّكَ مَيّت، وأَحْبِبْ مَنْ شئت فإنّك مُفارِقه، واعملْ ما شئت فإنّك مَجزيّ به".

4. أَقْنِعْ نفسَك بما قاله المعرّي:

وإنّي وإنْ كنتُ الأخيرَ زمانُهُ

لآتٍ بما لم تستطعْهُ الأوائلُ

5. آمِنْ بذلك الصّوت الّذي تسمعه في قلبكَ بوضوح.

القلوب لا تكذب.

6. دَوِّنِ الفكرة التي تخطر ببالك، لا تنتظرْ لحظة. الأفكار تطير بلمح البرق إنْ لم تكتبْها. ليس لديّ فكرة؟ هل لديك نصف فكرة؟ دوّنها أيضًا. لديك ملاحظة عابرة؟ ماذا تنتظر؟ كل شيء لا يُكتب يموت.

7. أنتَ صورةُ ما تراه في نفسِك، فإنْ رأيتَها عظيمةً، عاليةَ الهِمّة، قادرةً على أنْ تصنع ما تُفكّر به، فهي كذلك، وإنْ رأيتَها عكسَ ذلك كانت كذلك.

8. في الحديث: "اقرؤوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه". ما هممتُ بكتابة حرفٍ إلاّ وقدّمتُ بينَ يديه قراءةً من كتاب الله، كان القرآن أكبرَ مُعينٍ لي في تنظيم أفكاري، وفي تنسيق عباراتي، وفي سَبْكِ جُمَلي، بل لقد كان له أوّلُ الأثر وأكبره في الإيقاع النَّغَميّ أو الموسيقيّ الّذي أكتبُ به النّثر أو الشّعرَ على حَدٍّ سَواء.

9. اقرأْ حتّى يَشيبَ الغُراب!

10. الحرفُ إلى الحرف كَلِمة. الكَلِمةُ إلى الكلمة جُملة.

الجملة إلى الجملة كتاب. هكذا يولد الكُتّاب. النّص لا يأتي دفعة واحدة. أنت منذ ستّة أشهر لم تنم بشكل جيّد؛ الكتابة تحتاج إلى ذلك.

11. اصنعْ نفسَك بنفسِك، فلن يكتب على الورقِ سِواك، ولن يكون هذا المكتوب سوى ثمرةِ عقلك، ولن يكون هذا العقل مُثمرًا إلاّ إذا أخذت بسبل الغراس والرّعاية والتّعهّد الصّحيحة. وضربت العربُ المثل: "رجلٌ عِصاميّ". من قول النّابغة الذّبياني:

نَفسُ عِصامٍ سَوَّدَتْ عِصاما

وَعَلَّمَتهُ الكَرَّ وَالإِقْداما

وَصَيَّرَتهُ مَلِكًا هُماما

حَتّى عَلا وَجاوَزَ الأَقواما

12. طَوال حياتي كان يحدث هذا؛ كان هناك مَن يقف في الطريق يريد أن يسدّها، وكان هناك مَن يلقي بالحجارة، وكان هناك من يُشعل الحرائق، وكان هناك من يشتم الكواكب

السَّيَّارة، وكان هنالك أيضًا من يبصق في النّهر المُتدفّق الجاري، وصنفٌ كان يحاول بقرنَيه أن ينطح الجِبال، وكان هناك كذلك مَن يصرخ من أسفل الوادي... قد تجدون أنتم في طريقكم أناسًا على هذه الشاكلة؛ لديهم مخزون كبير من الوقت لكي ينتقدوا بلا أساس ولا علم ولا فهم؛ مجرد صِياح عالٍ، وهل غير الطبل الأجوف له كل ذلك الصوت؟! التّجاهل أفضل ما يُمكن الرّدّ به على هؤلاء.

13. لا تدخلْ في معارك جانبيّة مهما يكن الأمر؛ رَكّزْ على أهدافكَ البعيدة العالية، وامضِ دون أن تلتفتَ وراءكَ أبدًا.

14. ما تواضعتْ أحلامي رغم كلّ الخيبات الّتي وقعتُ فيها. عددتُ الخيباتِ أمرًا طبيعيًّا.

15. لم أكنْ لأسمح لهذا الألم أن يُسيل دمي مع الحِبر؛ إذًا فلن تُصبح كاتبًا. الكتابة ألمٌ والرّفاهية عدوّها!

16. سامِحْ، فإنّ المُسامحة لأجلكَ لا لأجله، إنّها جزاءُ راحةِ القلب، وصفاء النّفس، إنّك مُحتاجٌ في إبداعكَ إلى ذلك من أجل أنْ تستمرّ. فإنّ نُكَتَ القلوب تتّسع وتسودّ إذا لم

تقذفُ بها خارجك، قال ذلك كثيرون قبلي، اسمع قول عمرو بن كلثوم:

وإنّ الضِّغْنَ بعدَ الضِّغنِ يَبدُو

عليكَ، ويُخرِجُ الدّاءَ الدَّفِينا

17. إن المواقف لا تُغيّر الناس ولكنّها تكشفهم على ما جُبلوا عليه. ولكلّ إنسانٍ مَعدِنُه، ومن الطّبيعيّ بعد رحلة طويلة ألاّ تظفر بأحد.

18. في الحديث: "اسْتعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان، فإنّ كُلّ ذي نِعمةٍ مَحسود".

19. استمعْ إلى صوتِ قلبك، أصغِ إلى روحِكَ الطّموحة، ولا يُثَبِّطَنّكَ المُرجِفون فهم أكثر من أن تُحصيهم، ولا يُوئِسَنَّكَ الحاسِدون فهم أقربُ إليكَ من شِراكِ نَعلِك.

20. اصطحبْ أبطالَك إلى قاعات الطعام، تسكّعْ معهم في الشوارع، اصرخْ عليهم من بعيد قبل أن يدهسهم القطار. احملْ لهم طبقًا من الحلوى. لوّن بالفحم أو الطبشور

وجوههم. لا تجعلهم أحياء في خيالك أمواتًا على ورقك... يجب على الحياة التي تعيش في عقلك أنْ تتداخلَ مع الحياة التي تعيشُ فيها.

21. ابقَ ماضِيًا إلى أهدافِكَ الكُبرَى وكُنْ نورًا لا ينطفِئ، ورمحًا لا ينكسر، ورايةً لا تنحني.

22. التّعلّم المستمرّ هو ألاّ تتوقّف من جهة، فإنْ قرأتَ ألفَ كتابٍ، فزِدْ عليها. وهو أنْ تُعدّل سلوكَكَ في القراءة أو الكتابة بناءً على ما تعلّمْتَه من أمرٍ أبانَ لك بعضَ الخللِ فيما مضى من جهةٍ أخرى، فالاستمرار في التّعلّم يعني الاستمرار في التّطوّر.

23. اتّصفْ بالحِكمة، حتّى وإنْ كنتَ في أوّل الشّباب، فإنّ جدّكَ المتنبّي قال:

ليسَ الحَداثةُ في سِنٍّ بمانعةٍ

قَدْ يُوجَدُ الحِلْمُ في الشُّبّانِ والشِّيْبِ

24. تقبّلِ التّغيير، وصحّحْ أخطاءَك، واستفدْ منها. كلّ

خطأ إذا قلبتَه على وجهه الآخر بانَ لكَ وجه الصّواب فيه.

25. دَعْ شيئًا من الغموض يُحيط بحروفك، الحرف الواضح فقاعة؛ سرعان ما تنفثئ مُخلّفةً رذاذًا بارِدًا.

26. استمعْ لِمَنْ ينقدك، وخُذْ منه ما أفادك؛ ليسَ كلّ ناقدٍ يريدُ بكَ سوءًا. حتّى وإنْ كان كذلك، فإنّ خلفَ النّار المُشتعلة نورًا كاشِفًا.

27. استعنْ بغيرك في أنْ يُرْشِدَك إلى ما تقرأ، فلو كنتَ قارِئًا نَهِمًا فإنّ هناك مَنْ قرأ أكثر منك، "وفوقَ كلّ ذي عِلمٍ عليمٌ". وإنْ كنتَ تعرفُ الطّريق فإنّ فيها بعضَ ما خَفِي عنك: " الرّحْمنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا».

28. لا تُعجَبْ بما قرأتَ أو ما كتبتَ حتّى ولو طبّقَ الآفاق وسارتْ به الرُّكبان، وتحدّث به القاصي والدّان، واذكرْ نِعمة الله عليكَ دائِمًا، وأرجِعْ ما بوّأك من المنزلة لفضله، وكِلِ الأمور كلّها إليه.

29. آفة الإبداع الهَجْر، بل الهَجْر آفةُ كلّ شيءٍ إلاّ في الذّنوب. كم من كاتبٍ أو شاعرٍ أو فنّان ملأ الدُّنيا بإبداعه

وشغلهم به، كانوا قاماتٍ، ونجومًا عالية، أحبّهم النّاس، وشُغِفوا بما يُقدّمون، ثُمّ اختفى هذا المُبدِع من السّاحة تمامًا كأنّه لم يكنْ، قد يكون لذلك أسبابٌ نفسيّةٌ أو اجتِماعيّة، أو التّقدّم في العُمر. لكنْ إذا أيقنْتَ أنّ الإبداع رسالة، وهو طريقٌ يستمرّ فيه المرء بالمشي، على قدر استِطاعة العَطاء وقوّته وأوانه، لكنّه لا يتوقف بحالٍ من الأحوال. فإنْ كنتَ من هؤلاء، فلا تُغيّبْ نفسكَ؛ شُدّ العزم، وتابع المسير، فإنّ المُبدِع يعطي ما دامتْ فيه حياة.

30. التّراجيديا خلّدتِ المسرحيّات اليُونانيّة القديمة؛ الحرف الخالد يحتاج بعضًا من هذه المآسي. لا تتورّعْ من أنْ تكون تراجيديًّا بأقصى ما تستطيع إذا تطلّبَ النّصّ ذلك.

31. أنجِزْ ما تريدُ كتابته بثقة، وبتصميم، ومُضِيٍّ حثيث، لكنْ لا تتسرّعْ، وأعدِ النّظر في كلّ فصلٍ تكتبه، ولا تُخرجه قبل أنْ يطمئنّ إليه قلبُك، فإنّما السّرعة مَهلَكة. قال مُرارُ بن سعيد الفقعسيّ:

إذا شِئتَ يومًا أنْ تسودَ عشيرةً

فَبِالْحِلمْ سُدْ لا بالتّسرُّعِ والشّتْمِ

32. أنصفِ النّاسَ يُنصِفوك. ولا تستهنْ بما يكتبون وإنْ كان قليلاً حتّى لا يستهينوا بما كان كثيرًا منك، وأقبِلْ عليهم يُقبِلوا عليك. فإنّ عاقبةَ الإدبار إدبارٌ مثله. واسمعْ قولَ معن بن أوس:

إذا أنتَ لم تُنصِفْ أخاكَ وجدْتَهُ

على طَرَفِ الهِجْرانِ إنْ كان يعقِلُ

إذا انْصَرَفَتْ نَفْسِي عَنِ الشَّيْءِ لم تكدْ

إليه بوجهٍ آخِرَ الدّهرِ تُقبِلُ

33. كُنْ مغامِرًا في الحياة، ومُقامرًا في الفُرص، ومُجازِفًا في الخِيارات.

34. أظْهِرْ أفضل ما لديكَ في الكتابة أو في الحياة، فإنّ الله مُطّلعٌ عليه والرّسول والنّاس: "وقُلِ اعملوا فسيرى اللهُ عَمَلَكُم ورسُولُه والمُؤمِنون".

35. الحَرفُ قَطاة؛ الخَيال طُعم. القَلَم صيّاد. الورقة

قَفَص.

36. اعتذرْ عن نفسكَ في التّقصير أحيانًا عذرًا لا يجعلها تتمادى فيه، بل تُعيدُ إلى النّفسَ ألقَ البدايات الدّفّاقة. فإنْ عددتَ نفسَك الّتي بين جانبيكَ صاحبكَ الّذي تصحبه، وتُحادثه، وتُناصِحه، فاسمعْ قولَ سالم بن وابصة:

إذا ما أتتْ من صاحبٍ لكَ زَلَّةٌ

فكُنْ أنتَ مُحتالاً لزَلّتِهِ عُذْرا

37. أنتَ وأيٌّ آخر، إنّما تقفان على ضِفّتَين مُتقابلتَين، إذا خالفكَ في الرأي فلا تنزعجْ، تلك طبيعة الأشياء، جرّبْ أنْ تقفَ على ضِفّته مرّة.

38. المُثابرة والاحتِيال على الفُتور ركيزتان أقَسى من الصّخرة في الوادي العميق، وأعلى من النّجمة في السّماء البعيدة.

39. يُبلّغ الله العبدَ ما أراد إنْ جعله حسبَه. هذا يصلح للكتابة كذلك، إنّها ليستْ مِمّا أُوتيتَه على عِلم، بل مِمّا أوتيته

على توفيقٍ من الله. تذكّرْ معي قول عليّ بن أبي طالب:

إذا لم يكنْ عونٌ مِنَ الله للفَتى

فأوّلُ ما يَقضي عليهِ اجتِهادُهُ

40. ما تَفعلُه في رأسك يعيشُ في رأسك، ما تكتبهُ يعيشُ في رؤوس الآخرين.

41. لا أحدَ سيُحقّق لكَ حُلمَك، ولا أحدَ سيُعينُكَ على تجاوز مِحنتك وإنْ تودّد إليكَ بالكلمات اللّطيفة، أنتَ مَنْ تصنع نفسَك، وأنتَ مَنْ ترفعُ رايتَكَ بين العالَمين.

42. اصحبْ مَن تراه خيرًا منك، فإنّ العقل يُعدي. وإنّ بهم شفاعة الآخرة، فإنْ لم تكنْ فشفاعة الدُّنيا. قال الشّافعيّ:

أُحِبُّ الصّالحينَ ولستُ مِنهُمْ

لَعَلّي أنْ أنال بهم شَفاعَةْ

وأكرهُ مَنْ بِضاعته المَعاصي

وإنْ كنّا سَواءً في البِضاعَةْ

ومن صحب ذا علمٍ اقتبسَ من نوره، واقتفَى أثره، قال صلّى الله عليه وسلم: "لا تُصاحبْ إلاّ مؤمنًا، ولا يأكلْ طَعامَكَ إلاّ تقيّ". وقال طرفة بن العبد:

عَنِ المَرْءِ لا تَسْأَلْ، وسَلْ عن قَرِينِهِ

فكُلُّ قَرينٍ بالمُقارَنِ يَقتَدِي

43. اخلُ بنفسكَ في عُزلةٍ حميدة ساعةً في اليوم، ويومًا في الشّهر لا ترى فيها أحدًا، كان الغزالي يفعل تلك السّاعة كلّ يومٍ، لكي يُنقّي نفسَه من خَبَث الحديث مع النّاس.

44. الأحلام الصّغيرة للنفوس الصّغيرة. أحلامك تستحقّ أنْ تُقاتل من أجلها. قال المتنبّي:

إذا غامرتَ في شَرَفٍ مَرُومِ

فلا تقنَعْ بِما دُونَ النُّجومِ

45. الأبواب المُغلَقة تشي بكنوزٍ مَخبوءة، افتحْ كل الأبواب المُغلَقة الّتي تراها في رأسك، لا تَخَفْ مِمّا هو خلفَها حتى لو كان رمادًا.

46. خُضِ الصّعاب، فما شيءٌ سهلٌ يستحقّ أنْ يُنال، أو يُقال إنّه نِيل. قال المتنبّي:

ذَريني أَنَل ما لا يُنالُ مِنَ العُلا

فَصَعبُ العُلا في الصَّعبِ وَالسَّهلُ في السَّهلِ

47. اتعبْ في البداية لتجدَ ثمرة ما تريده بعد هذا التعب. ولا لذّة لراحةٍ دونَها؛ قال أبو تمّام:

بَصُرْتَ بالرّاحةِ الكُبرى فلم تَرَها

تُنالُ إلاّ على جِسْرٍ مِنَ التَّعَبِ

48. تَغافَلْ ما استطعت، فإنّ التّغافُل فنّ. وحينَ تستعصي العُقدة، يكون الحلّ به. قال بشّار بن بُرد:

إذا كُنتَ في كُلِّ الذُنوبِ مُعاتِبًا

صَديقَكَ لَم تَلقَ الَّذي لا تُعاتِبُه

49. تغابَ إنِ اقتضَى الأمر، بعضُ المواقف يحتاجُ إلى ذلك، فالتّغابي من سِمات السّادة في رأي صاحبنا أبي تمام:

لَيسَ الغَبِيُّ بِسَيِّدٍ في قَومِهِ

لَكِنَّ سَيِّدَ قَومِهِ المُتَغابي

50. لا تُواسِ الشّخصيّة الّتي تبكي في رأسك؛ إذا كان الإبداع يتطلّب أن تزيدَ في تعذيبها من أجل أن تستمرّ بالبكاء فافعلْ!

51. مِقدار ما يُحبِطُك به الآخرون لا يتجاوز 1%. الإحباط يأتي من داخلك لا من خارجك.

52. كُنْ حكيمًا في معرفة نفسِك. فإنّ ضعفكَ لا يعرفه معرفةً حَقّةً سِواك، ولا يستطيع أنْ يُحولّه إلى قُوّةٍ سِواك. على صعيد الكتابة، إنْ كان ضعفُكَ في الوصف أو في الحوار

أو في الجملة الطّويلة، فتعلّمْ كيفَ تتغلّب عليه.

53. تَمَتّعْ بلياقةٍ جِسميّة؛ فقديمًا قالوا: "العقلُ السّليم في الجسم السّليم"؛ تناولْ طعامًا قليل السّكّريّات والتّشويّات، ومارسِ الرّياضة يومًا بعدَ يوم بشكلٍ دوريّ، وحافظْ على وزنك. يُمكنك مُمارسة المَشي أو الرّكض أو السّباحة ثلاث مرات في الأسبوع لمدة خمس وأربعين دقيقة إلى ساعة. أنا أفعل ذلك، ألزمتُ به نفسي منذ فترة طويلة. نجيب محفوظ كان يركن سيّارته بعيدًا عن مكتبه في جريدة الأهرام، ويمشي إليها مدة تقارب نصف ساعة كلّ يوم، آخرون من الكُتّاب جعلوا ذلك نمط حياتهم، كُنْ أنتَ منهم؛ على الدّم أن يتجدّد، وعلى القلب أنْ ينبضَ بشكلٍ صحيح؛ من أجل أنْ يُفكّر العقل بشكلٍ صحيحٍ كذلك.

54. اعتزلْ ما يؤذيك؛ كما قال عمر بن الخطّاب؛ فإنّ كثيرًا مِمّا يتوجّهون إليكَ بالنّقد لم يقرؤوا ما كتبت، ولم يعرفوا ما أنت!

55. مجموع الشّخصيّات التي تصنعها ليس أنت؛ لا تُملِ عليها أفكارك، دَعْها تتحدّث بحرّيّة، اكتبْ ما تقوله دون أن تُملي عليها شيئًا، أو أن تُغيّر في شهادتها حرفًا.

56. اخلُ وحدكَ في قمّة جبل مرّةً واحدةً كل أسبوعَين أو مرّةً كُلّ شهر. على الرئتين أن تتنفّسا هواءً نظيفًا، الخَيال الّذي تكتبُ به يحتاج إلى ذلك.

57. أوقدْ جذوة الإبداع. أشعِلْ نار الموهبة المُقدّسة؛ اجعل القراءة حَطَبها.

58. لتكنْ لديكَ مرجعيّةٌ فيما تكتب، المرجعيّات الكُبرى؛ القرآن فالحديث فالشّعر القديم فالبيان، ثُمّ أيّ كتابٍ من بعدُ، الكتب خيوطٌ مَنسولة، حروفُكَ الّتي تكتبُها هذا الثّوب المَنسوج.

59. الولادة مُعجِزة؟ الكتابة كذلك.

60. أعِدْ إنتاج ما تقرأ، فإنّ القراءة الّتي لا تُنتِج - بالتّلخيص، والمحاورة، والمناورة، والحِفظ، والتّطبيق - ليست قراءة، يُمكن أنْ تعتبرها هدرًا للوقت. النّصّ الّذي لا يُعاد إنتاجه مُحصّلته تساوي صفرًا، والجُهد المبذول فيه ضائعٌ ومهدور.

61. لا يوجد وَرَمٌ حَميدٌ في جَسَد النّصّ، النّصّ يتعافَى

بانتشار الخلايا السّرطانيّة فيه، لا تُمارِسْ عليه دور الطّبيب الحاذق؛ فإنّما أنت مجرّد كاتب!

62. شكّلْ تجربتكَ الذّاتيّة بالتّأمّل؛ فالكون كتاب مفتوحٌ.

63. انقُدْ نفسَك؛ "الرّجوع إلى الحقّ خيرٌ من التّمادي في الباطل".

64. الكتاب المنشور لم يعد ملكك ودخل في مشرحة النّقّاد والقُرّاء. وتذكّر الآراء كلّها صحيحةٌ عند أصحابها؛ فإنْ لم يُعجبك أحدها فخُذ منه صوابه ودع خطأه، ولا تُحقّر رأيًا مهما كان.

65. النّصّ فُسيفِساء؛ ما من نصّ جاء من الفراغ. فأنتَ إذًا تلوّن فسيفساءك بما تختار لها من أحجار!

66. لا شيء يُخبرك بأنّ ما كتبتَه هو نَصٌّ جيّد، النُّصوص مثل المواليد الجُدُد؛ بعضهم يعيش وبعضهم يموت، أَلْقِ ما في تلك الرَّحِم في ذلك المُعترك الذي يُسمّى الوجود على أيّة حال، المُعترَك سيتكفّل بإخبارك إذا كان ما

ألقيتَه جديرًا بالعيش أم لا.

67. البئر الفارغة لا تَسقي الماء. "كباسطِ كَفَّيْهِ إلى الماءِ لِيَبْلُغَ فاه وما هُوَ بِبالِغِه".

68. ورقتُكَ الّتي خربشتَها ذلك المساء البعيد ورميتَها، واستقللتَ ما فيها، صارتْ عند آخرين كِتابًا، البدايات كلّها صعبة، الطّرق كلّها مجهولة، فلا تحتقرْ من حروفِكَ شيئًا إذا همسَ بدفءٍ في رِئتَيكَ الباردتَين، فالله جلّ في عُلاه قال: "وكلّ صغيرٍ وكبيرٍ مُستَطر". والشاعر قال:

لا تحقرنّ صغيرةً ... إنّ الجِبال مِنَ الحَصى

69. هل نريدُ أنّ نكون أمّةً تقودُ العالَم؟ الأمر بسيطٌ غاية البساطة، معقّد في الوقتِ نفسِه غايةَ التّعقيد، علينا فقط أنّ نطبّق أوّل كلمة نزلث في القرآن: "اقرأ". حينَ سُئل (فولتير) عن الّذين سيقودون الجنس البشريّ، أجاب: "الذين يعرفون كيف يقرؤون". مَنْ أكثر أمّة تقرأ في العالَم اليوم؟ إنّها الأمّة اليهوديّة. أرأيت؟! إنّهم يقودون العالَم.

70. هل رأيت تلك السّنديانة؟ وَرَقُها الآن يُخشخِشُ

تحت قدمَيك، لقد كنتَ خائفًا من ألاّ تَكبر. كم مرّ على ذلك العهد الذي خلّفْتَها وراءكَ وأنت يائس من أن تعيش؟ صار جذعها اليوم غليظًا إلى الحَدّ الذي لا يُمكن لأيّ ريح أن تقتلعها. وصارتْ باسقةً عاليةً إلى الحدّ الذي لا يُمكن للشّمس أن تتخلّل أغصانها، وصارت مُمتدّة إلى الحدّ الذي لا يُمكن لظلّها أن يبلغ مُنتهاه! أتذكُر؟ هي نصّك الذي خشيت أن تبتلعه الأرض وتدوسه الأقدام، أيُّها الخائف اليائس: تَبًّا لخوف لا يدفعك إلى المُقامرة، وتَبًا ليأس لا يدفعك إلى المُجازفة!

71. الحرف الّذي تُشرق عليه الشّمس خيرٌ من الحرف الّذي عليه تغرب. الأفكار الإبداعيّة في الصّباح تتمتّع بنورٍ واثقٍ قويّ يسيرُ بدأبٍ ليبلغ النّهار، ذلك لا يعني أنّ المساء لا يتمتّع بنورٍ هادِئ شفيفٍ عابقٍ بالشّجن.

72. أتقِنْ كلّ سطرٍ تكتبه، أمعن النّظر فيه غير مرّة. لا تُخرِجْ ما لستَ راضِيًا عنه، لا تجعل سوط الوقت أو سوط النّهايات يجلد ظهرك. فإنّ العمل المُؤثّر هو العمل النّاضج المُتقَن. والحبيب عليه الصّلاة والسّلام قال: "إنّ الله يُحبّ إذا عمل أحدُكم عملاً أنْ يُتقِنه".

73. للنّجاح ثمن؛ كُن مُستعدًّا لدفعه. ربّما الثّمن تركُ ما تشتهي، فقد قالوا: "لن تصل إلى ما تريد إلاّ بترك ما تشتهي". ربّما أمورٌ أُخرى أقلّ ألمًا كالمُغامرة، والعُزلة، والبقاء على قيد الحلم.

74. النُّصوص التّامّة هي نصوصٌ مُعالَجة، لا يُمكن إلاّ أن تولد من جُمَل ناقصة. اكتبْ ذلك النقصان ليتمّ لك ذلك الكَمال.

75. الدّربُ وعرة، والغاية بعيدة، والزّادُ قليل؛ فأنّى يكون لكَ ما تُريد؟! قيل للشّعبيّ: "من أينَ لكَ هذا العِلمُ كُلّه؟". قال: "بِنَفْي الاعتِماد، والسَّيْرِ في البِلاد، وصَبْرٍ كصَبر الجَماد، وبُكُورٍ كبُكُور الغُراب".

76. يعرفُ العطش من ظَمِئَ الهواجر، ويعرف الجوع مَنْ صامَ الدّهر، ويعرفُ الطّريق مَنْ صادته الحُفر. فلا رِيّ إلاّ عن ظَمَأ، ولا شِبَع إلاّ عن جُوع، ولا وصول إلاّ عن سَيْر.

77. أنتَ مَدينٌ لجهةٍ ما، اجعل دَيْنك الّذي تُريدُ أنْ تسدّه، هو أنْ تُقدّم الخير والنّفع للبشريّة فيما تكتب. قال المُقنّع الكِنديّ:

يُعاتِبُني في الدَّيْنِ قَومي وَإِنَّما

دُيُونِيَ في أشياءَ تُكْسِبُهُمْ حَمْدا

78. اصنعْ لُغَتَكَ الخاصّةَ بك، وأسلوبكَ الخاصّ، وطرائقكَ الخاصّة. وضَعْ بَصْمَتكَ بثقة.

79. سينتقدونكَ على أيّة حال. سيُقلّلون من شأنِ الحرفِ على أيّة حال. سيثقبون القارب الّذي تتشاركانه على أيّة حال. "قَدْ بَدَتِ البَغضاءُ مِنْ أَفواهِهم وما تُخفي صُدورهم أكبر". دَعْ كلّ هذا، التّجاهل نِعمةُ الله عليك إنْ أتقنْتَها: "وأعرضْ عن الجاهلين". وبعضُ السُّمّ دواء.

80. أأَبِيْتُ سَهرانَ الدُّجى وتَبِيْتُهُ

نومًا، وتَبغِي بعدَ ذاكَ لَحاقي؟!

البيتُ للزّمخشريّ، والعمل به لك.

81. إذا شكّلتَ عجينة النصّ فلا تُوقِدِ النّار لتُنضِجها قبل أن تمرّ بمرحلة الاختِمار.

82. من الطّبيعيّ أنْ يسخروا منكَ في البداية، فُطِر البشر على ذلك! إنّه نوعٌ من الدّفاع عن النّفسِ أمام عملٍ يُشعِرُ أحدَهم بالعجز، إنّه تصرّفٌ بِدائيّ لا يكاد ينجو منه أحد. عبد الملك بن مروان استقالّ كُثيّر عزّة لِصِغَرِ حجمه وسَخِرَ منه، فردّ عليه كثيّر: "كُلٌّ عندَ محلّه رحبُ الفِناء، شامخ البِناء، عالي السّناء". فكنْ أنتَ كذلك.

83. رصيدُكَ الّذين لا يسخرون، ويريدون أنْ يقرؤوا لك. حينَ أصدر كولن ولسون كتابه (اللامنتمي) عام 1956م أبدى عددٌ من النُّقّاد الإنجليز ازدِراءَهم للعمل واستِخفافهم به، وعَدُّوه مجرّد سياحةٍ في مجموعةٍ من الكتب وسِيَر أصحابه. ضَرَبَ القُرّاء بذلك عُرضَ الحائط، وتدفّق الكِتاب إلى مكتباتهم. اليوم لا يُذكر ويلسون إلاّ ويُذكر معه هذا الكتاب، مع أنّه واحدٌ من مئة كتابٍ صدرت له!

84. في بعضِ المواقف؛ السّكوت جواب. والعِيّ فصاحة، فتحلّ بِهما. قال عليّ بن أبي طالب:

وأسكتُ عن أشياءَ لو شِئتُ قلتُها

وليسَ علينا في المَقالِ أَمِيرُ

أُصبِّرُ نَفْسي باجتِهادي وطاقَتِي

وإنّي بِأَخْلاقِ الجَمِيعِ خَبِيْرُ

85. الإلهام لا يُوزِّعُ نَفسَه على الكُتّاب، الكُتّاب هم الذين يُوزّعون أنفسهم عليه.

86. الظُّروف ليست سببًا للإخفاق بأيّة حالٍ من الأحوال. النّاجحون هم بالضّرورة جالدوا ظروفًا أقسى من ظروفك وأصعب من أن تتخيّلها، ولكنّهم لم يفعلوا ما فعلت؛ فلم يُعلّقوا إخفاقاتهم كُلّها على تلك الظروف، ولم ينسُوا أنّنا نحن من نصنع ظُروفَنا، وأنّ النّهر لا يتوقّف عن مَسيره إذا واجهته الصّخرة، إنّما يلتفُّ حولها. ولا تكسرهم العاصفة، ولا بأس من الانحناء لها حتى تمرّ، الانحناء لا يكون ضعفًا دائمًا، قد يكون ذكاء؛ "ولا تنحني السّنبلة إلاّ إذا كانت مُثقلة".

87. إنّ القطرة إلى القطرة ماء، وإنّ الغُصنَ إلى الغُصنِ شجرة، فإنْ اشتدّ عودُك في الكتابة، وبسقتْ شجرتُك، فلا تبخلْ على ذوي الأغصان الصّغيرة أنْ تنهضَ بهم ما

استطعت. قال السّموأل بن عادِياء:

ارفَعْ ضعيفكَ لا يَحُل بك ضعفهُ

يومًا فتُدركَه العواقبُ قد نَما

يَجزيك أو يُثني عليك وإنّ مَن

أثنى عليك بما فعلتَ كمَنْ جَزَى

.88 دائمًا هناك بداية جديدة؛ ابدأ من حيثُ ظننتَ أنّكَ انتهيت، ولا تريدُ المواصلة، دَعْ ذلك الشّعور. البدايات قوّتها الدّافعة كفيلةٌ بأنْ تُغيّر ذلك المِزاج السّيّئ عندك. والعليّ يقول: "لا تقنطوا من رحمة الله".

.89 ليس هناك عباقرة بالمعنى الرومانسيّ، هناك مُثابرون. لقد قالوا إنّ العبقريّة أصلها اللّغويّ من كلمة (عبقر) الّذي هو وادي الجنّ، يكون فيه لكلّ شاعرٍ رَئِيٌّ يُعلّمه الشّعر فهو بذلك عبقريّ. واعتِقادهم أنّ لكلّ شاعرٍ شيطانًا، قاله أحدهم:

إنّي وكلُّ شاعرٍ مِنَ البَشَرْ

شَيطانُهُ أُنثى وَشَيْطاني ذَكَرْ

ثُمّ صارتْ تُقال لمن يأتي بما لم يأتِ به غيره، واستطاع أنْ يفعل ما لم يفعله الآخرون في شروطهم الطّبيعيّة. قال ابن الأثير: عبقر: قريةٌ يسكنها الجنّ فيما زعموا، فكلّما رأوا شيئًا فائِقًا غريبًا مِمّا يصعبُ عمله ويدقّ، أو شيئًا عظيمًا في نفسه نسبوه إليها.

90. ليس للنّص إيقاعٌ واحد، إنّه خليطٌ من الإيقاعات المُتضاربة المُتداخلة، صوتُ بعضِها أعلى من بعض، شَجَنُ بعضها أشدُّ من شَجَنِ بعضها الآخر، إنها أمواج، الأمواج لا تتشابه ولكنّها يمكن أن تتداخل؛ لضبط هذا الإيقاع الذي لا يُضبَط عليك قبل أن تكون عازفًا جيّدًا وقائدَ أوركسترا جيّدًا.

91. لا تترك الأمور الصغيرة تُقلقك؛ فصلٌ في روايةٍ لم يتمّ، بيتٌ من قصيدةٍ لم يُمكّنها من القفلة. حرفٌ في كلمةٍ تاهتْ منكَ في الطّريق، صورةٌ غرقتْ من مخيّلتك في البحر. الصّغائر صغائر، لقد هيّأت نفسك لما هو أعظم وأجلّ. قال المتنبّي:

إذا اعتادَ الفَتى خَوْضَ المَنايا

فَأَهْوَنُ ما يَمُرّ بِهِ الوُحُولُ

92. الشُّعور السّلبيّ تُجاه الأشياء لا يصنعه الآخرون لك، إنما تصنعه أنتَ لنفسك، نَظِّفْ خَبَثَك، ونَقِّ قلبك، وطَهِّرْ روحك، فالكتابة الحقيقيّة تحتاج إلى هذا كلّه.

93. يبعث الله للحَرفِ رَسولاً من الإلهام، فأكرمِ الرّسول تُكرِمِ الرّسالة.

94. قد يقتل الألم الإبداع وقد يُحييه، أنتَ مَن تختار كيف تتّخذ من هذا الألم سُلّمًا لصعودك.

95. الوقتُ هو الحياة على الحقيقة. تنتابني رغبة يوميّة بالبكاء على الوقت المهدور دون فائدة. إننا نقتل أثمن ما يمكن أن نملك؛ أثمن من كلّ عَرَض. أغلب النّاس يشكون من قلّة أوقاتهم، ولو تأمّلوا ووعَوا لشكَوا من كثرة إهدارهم لأوقاتهم. ويُروى للحسن البصريّ: "يا ابنَ آدم إنّما أنت أيّامٌ مَجموعة، فإذا ذَهَبَ يومُك ذَهَبَ بعضُك".

96. لا تكتب من غير دافع، أو غاية.

97. لا تُجرِ سِباقًا مع أحد. العوالم تختلف. مَضامير السّباق مُختلفة. إذا كان لا بُدّ فأجْرِ هذا السّباقَ مع نفسك، وحاولْ أن تتفوّقَ عليك.

98. عليك أن تعرف ما تريد، وعلى أهدافك أن تكون واضحة، كثيرون يريدون ويرغبون لكنهم لا يعرفون ما يريدون ولا ما يرغبون. في الحقيقة لا يُمكن أنْ تعرفَ ذلك إلاّ إذا جلستَ مع نفسك. الحقيقة الّتي تبدو أكثر وضوحًا أنّ أغلب البشر يُولَدون ويموتون ولم يجلسوا مع أنفسهم ساعة.

99. المُقارنة مُفسِدة مُحزِنة على أيّة حال، إذا كان لا بد من المُقارَنة فقارنْ بين ما كنتَ عليه وبين ما صرتَ إليه، بالطّبع يجب أن تكون قد تقدّمْتَ أشواطًا بعيدة في كل مرّة. هل الرّسالة الأولى إلى الحبيبة تُشبه الرّسالة الأخيرة؟!

100. الأصدقاء قليلون، بل نادرون... لا أقلّ من الأصدقاء، فلا تتوهّمْ في كُلّ مَن تعرفه صديقًا فتتّكئ عليه، ثم تكتشف أنّ كَتِفه مِن ماء... من الطّبيعيّ ألاّ تجد في الحياة صديقًا واحدًا يُعينك على تحقيق غاياتك، وعداوة

النّاس أمرٌ حتميّ، فلا تجعله أمرًا مهمًّا، ومَنْ في الدُّنيا كلّهم يصدقُ فيهم قول أبي نواس:

إِذَا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لَبِيبٌ تَكَشَّفَتْ

لَهُ عَنْ عَدُوٍّ فِي ثِيَابِ صَدِيقِ

وقول الطُّغرائيّ:

أَعْدَى عَدُوِّكَ أَدْنَى مَنْ وثِقْتَ بِهِ

فَحاذِرِ النَّاسَ وَاصْحَبْهُمْ على دَخَلِ

فَإِنّما رَجُلُ الدُّنيا وواحِدُها

مَنْ لايُعَوِّلُ في الدُّنيا على رَجُلِ

101. لَأَنْ تشغلَ نفسَك بنقل الجبال حجرًا حجرًا خيرٌ لكَ من أن تشغلها بمُجادلة النّاس حتّى ولو كنتَ على حَقّ.

102. شخصيّتك النّاجحة ليست نِتاجَ عمرك ولا

شهادتك ولا وظيفتك. إنّها مزيجٌ مُركّب من نُسختك الّتي قَرَأتْ عبر عقود طويلة، وفكّرتْ، وتأمّلتْ، وقاستْ، واختبرتْ ألفَ وجه للحياة، ولم تأبه إلا للوجه الذي يُشبهها.

103. لستَ الوحيدَ المُلقى عليه هذه الأعباء كُلّها؛ فلا تيأسْ ولا تعجزْ. كلّما كنت أغدو - في الصّباح الباكر أيّام الصّقيع والشّمسُ لم تُشرِقْ بعدُ - إلى عملي في التّدريس مُتثاقلاً أرى عُمّال المُياومة والباطون في هذا البرد ينتظرون أن يبتسم لهم القَدَر بأن يَمُنّ عليهم رَبُّ عَمَلٍ فيأخذ أحدَهم ليعمل ذلك اليوم وهو لا يدري ما يحدث له في الغد. إنّكَ في النّصّ تُعاني بردًا قارِسًا وظلامًا دامِسًا، ووحشةً طويلة، ومجهولاً في غدٍ لا تدري أينَ تسير بكَ الأحداث... إنّه لأمرٌ يبعثُ على التّفاؤل، أنتَ تسيرُ في الاتّجاه الصّائب!

104. الاستمرار والصّمود من أجل النّهاية، فالقطرة الواحدة لا تفلق الصّخر من مرّةٍ واحدة، ولكنّها بالاستمرار تكسرها وتفلقها. والنّهايات المأمولة لا تأتي إلا بعد عناء ومسيرة طويلة، أدركَ المتنبي ذلك فقال:

ولم أرَ في عُيوبِ النّاسِ شيئًا

كنقصِ القادرينَ على التّمامِ

105. لا تَدَعِ النّقد الجارح يُوقِفك، والسّخرية والازدراء يكسرك، وواصل انطلاقكَ في العمل المُثمر والعَطاء دون كَلَلٍ أو مَلَل. أغلبُ النّاس مَفطُورون على التّهوين من شأنِ الآخرين، إنّهم كذلك؛ لن تستطيع تغييرهم، ولكنّك تستطيع تغيير نفسك بقلّة الاكتراث بما يقولون.

106. تحقيقُ الغايات يكون على قَدْر السَّعْي، فلقد قال الله في أسلوب حصر بلاغي: "وأنْ لَيْسَ لِلإنْسانِ إلاَّ ما سَعَى، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى". كما قال شوقي:

وما نَيْلُ المَطالِبِ بِالتَّمَنِّي

وَلَكِنْ تُؤخَذُ الدُّنيا غِلابا

وقال ابن هانِئ الأندلسيّ:

وَلَمْ أَجِدِ الإنْسانَ إلاَّ ابْنَ سَعْيِهِ

فَمَنْ كانَ أَسْعَى كانَ بِالمَجْدِ أَجْدَرَا

107. أعْطِ بِقَدْر ما تُريد أن تأخذ، فالنّص الّذي تُعطيه قلبكَ يُعطيكَ قلبَه، والّذي تُعطيه ظهركَ يُعطيكَ ظهرَه.

108. لا تختلق الأعذار، "كفى بالمرء اعتذارًا تَرْك الاعتذار"، إذْ تَجنُّبُ القيام بعملٍ يضعك في منزلة الاعتذار هو أَجَلُّ اعتِذارٍ مُمكن!

109. أفكارُك تستحقّ أنْ تُقاتل من أجلِها مثل أحلامك. كلّهم قاتلوا من أجل ذلك: الأنبياء، والقادة، والشّعراء، والعُلماء، وطائفةٌ من الّذين خلّدهم التّاريخ لا تنتهي.

110. التّصرُ يقودُ إلى نصر، والهزيمةُ تقودُ إلى هزيمة، أتبِعْ نجاحكَ الصّغير بنجاحٍ آخَر ولا تتوقّف، ولا تستسلمْ للهزيمة، فإنّها ستقودُكَ إلى هزيمةٍ أشدّ. سيرفض النّاشر نَصّك، سترفضه أنت، سيَطويه النّسيان حتّى بعد النّشر، كلّ هذه الهزائم الصّغيرة قد تحدث، فإذا استسلمت لها قادتْكَ إلى مذبح النّسيان!

111. ليكُنْ عندَك إصرار النّمل، وصَراحة الهُدهُد، ودَأَب النّحل، وصَبر الإبل، وقُوّة الخيل، فالنّهايات ليست قريبةً غالبًا.

112. لقد كتبْتَ نَصًّا عظيمًا. لقد بعثتَ به إلى النّاشر. النّاشر قال إنّه جيّد. عَرَضَه بدوره على خبيرٍ، فقال إنّه يصلح للنّشر. لم يبقَ في كنانتك سهمٌ ترمي به من جديد. انتظرْ أنْ يُنشَر. تأخّرَ نشرُ الكتاب. بدأتَ تُلِحّ. تُطالب أنْ يتمّ هذا النّشر. مرّ وقت. وقتُ الانتِظار بطيء. إمّا أنْ تأخذه إلى ناشرٍ جيّدٍ آخر. أو تستمرّ في المُطالبة. التّأخير قد لا يكون بإرادة أحدٍ من البشر، لكنّه امتِحان الأقدار لذوي النّفوس الجَزِعة. قال محمّد بن بشير الخارجيّ:

لا تيأسَنّ إذا طالتْ مُطالَبَةٌ

إذا استعنْتَ بصبرٍ أنْ ترى فَرَجَا

أَخْلِقْ بذي الصّبر أنْ يحظَى بِحاجَتِهِ

ومُدْمِن القَرْعِ للأبوابِ أنْ يَلِجَا

113. النّار من مُستَصغر الشَّرَر. الأشياء الصّغيرة مُقدّمات الأشياء الكبيرة، الأفكار الصّغيرة مُقدّمات النّجاحات العظيمة، فلا تستقلّ فكرةً عن نصٍّ تريدُ أنْ تكتبه مهما كانتْ

هذه الفكرة صغيرة، ازرَعها اليوم، إنْ غلبث عليها فِكرةٌ أخرى فسَجّلْها على الأقلّ، دوّنْها في قائمة أفكارك، لعلَّ ماءَ الإلهام يسقيها ذاتَ يومٍ فتنمو، فتصبحَ نَصًّا عظيمًا.

114. الكتابة أثرُ قدمَيك على الطّريق، رائحةُ قميصك في اللّيل، صوتُ زفيركَ في الآهاتِ الحَرّى، ذُبولُ عينيكَ وأنْ تُحدّق في السّطور، الكتابةُ نَقْشٌ؛ انقش هذا الأثر ولا يهمّك حجمه أو التّفكير بمدى وقْعه في نفوس الآخرين.

115. لو كتبتَ نَصًّا عظيمًا سيقولون تافه. لو كتبتَ جملةً تامّة سيقولون ناقصة، لو كتبتَ فِعلاً مُضارعًا سيقولون إنّه ماضٍ، لو أتيتَهم بالقرآن لقالوا عنه أساطير!! هل تريدُ أنْ تقضي حياتَكَ في تتبّع آرائِهم فيكَ وفي نَصّك؟!

116. لا تكنْ من الّذين أرادهم النّابغة الجعديّ بقوله:

إذا أَنْتَ لم تَنْفَعْ فَضُرَّ، فإنّما

يُرجّى الفتى كيما يَضُرُّ ويَنفَعُ

ولكنْ كُنْ من الّذين أرادهم الشّاعر الآخر بقوله:

ازْرَعْ جَمِيلاً ولو في غَيرِ مَوضِعِهِ

فَلَنْ يَضِيْعَ جَمِيلٌ أَيْنما زُرِعا

إنَّ الجَمِيلَ وَإنْ طالَ الزَّمانُ بِهِ

فَليسَ يَحصُدُهُ إلاّ الّذي زَرَعَا

117. لا تنتظرْ أنْ يمرّ الجزءُ الأصعب، لن يمرّ، وسيضيع الوقت الّذي كنتَ تهمّ فيه بإنجازِ نَصٍّ ما، لن يمرّ الصّعب إلاّ بالعبور خلاله، الانتظار معناه أنْ يُلقِي عليكَ سِربال الزّمن، فتنام، فلا تستيقظُ إلاّ بعدَ فوَات الأوان، ستجد أنّ كلّ شيءٍ قد انتهى. بادرْ بالكتابة، اجلسْ إلى مكتبك، بين كُتُبِك، أوراقك، أدواتك، وتَحصّنْ بدفاعاتك جيّدًا، وتَوكّلْ على الله، وَاشْرَعْ في الكتابة على الفور.

118. قد تكتبُ ما ترضى عنه، وقد تكتب ما لا ترضى عنه، اكتبْ على أيّة حال، مُراجعة ما تكتب هي الّتي تمنح نَصّك الرّضا، إنّها مِقصّ تشذيب، يقصّ الشّوائب والزّوائد ويُعيد ترتيب الأشياء.

119. لا تُقابل الأذى بالأذى؛ فبحسب الأذى أن يكون عقوبةً لصاحبه، إنّ مُعاملة المُسيء بالإساءة سُقوطٌ لكما، فإذا سقط فليسقط وحدَه؛ والحبيب قال من قبل: "وأَتْبِعِ السيّئةَ الحَسَنَةَ تَمْحُها وخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَن".

120. لا تنشغل بالمعارك الجانبيّة ولا الالتِفات هنا وهنا، لأن الطّريق طويلة والعمر قصير والأفكار كثيرة، ولو التفتّ لَما وصلت.

121. المكان ليسَ عائقًا؛ أكثر كتبي هي أفكارٌ صغيرةٌ دوّنْتُها وأنا أمشي في الشّارع.

122. السّعادة بالنّجاح لا تكون لنجاحٍ واحدٍ كبيرٍ فحسب، تنتهي بتحقيقه سعادتك ورغبتك في العطاء. عليك أن تصنع النّجاحات الصّغيرة أيضًا لتستمرّ في إسعاد نفسك.

123. القرارات الجريئة التي اتّخذْتُها في حياتي أثبتتْ أنّ الأمر كان يستحقّ. تحولّي من الهندسة وعالَمها إلى العربيّة وعالَمها مثالٌ على ذلك.

124. للاستيقاظ المُبكّر فضيلة، تتعدّى كونه وقتًا جيّدًا

للكتابة، هناك أسرارٌ أخرى في الصّباحات الباكرة فلا تُفوّتْها بنومٍ ثقيلٍ لم ينجم عن تعبٍ، ولقد قلتُ من قبلُ: "شروق الشمس لا ينتظر النائمين".

125. في الجِدال لا ترفعْ صوتَك مهما كان السّبب، فالصّارخون يُشكّلون بصراخهم ستارًا يحجب العقل، العقل الذي أنت بأمسِّ الحاجة إليه في هذا الظَّرف خاصة. الرّدّ بهدوء جميل، وأحيانًا يكون الصمت المُطبِق أجمل.

126. لتكنِ القراءةُ الهواءَ الّذي تتنفّسه، اشغلْ نفسكَ بها في كلّ آن؛ إنْ لم يكنْ من كتاب فبالاستِماع، فإنْ لم يكنْ فبالتّأمّل، فإنْ لم يكنْ فبترداد ما تحفظُ مِمّا قرأت، وباسترجاع أفكارٍ مِمّا وعيت، فإنْ لم يكنْ فبحمل كتابٍ في يديك، فإنْ لم يكنْ فبورقةٍ في جيبك مكتوب فيها آيةٌ أو حديثٌ أو بيتُ شعر أو حِكمة، فإنْ لم يكنْ فسِرْ في شارعٍ تجد فيه مكتبة، فادفعْ ثمنَ أيّ كتابٍ واخرجْ به، فإنْ لم تملكْ فقِفْ هُنيهةً أمام زجاج المكتبة ومتّع ناظريك بالكتب المصفوفة!

127. لستُ من أنصار الّذين يقولون بالحقيقة العارية، إنّها تُؤلم، وتُحدث الفجوة، وقد تُؤدّي إلى قطع العلاقات،

يُمكنك أنْ تقولها بلطف ورويّة أو بتورية، لكنْ دون نفاق أو مُجاملةٍ على حسابها، وتذكّر الحديث: "ما كان الرّفق في شيءٍ إلاّ زانَه، وما نُزِع من شيءٍ إلاّ شانَه".

128. لا تخفْ من المُستقبَل، المُستقبَل ليسَ موجودًا خارجَ ما تكتب، إنّكَ تكتبه، اكتبْه وتَقبّلْه على أيّة حال.

129. لا تُكابرْ إذا استبان لكَ الصّواب، وخاصّة إذا كنتَ لا تزال في الطّريق إلى هدفك؛ فإنّكَ فوقَ خسارتك له، ستُضيفُ خسارة جهودٍ ذهبث سُدًى، وتعبٍ ذهبَ هباءً، ووقتٍ ضاع دون مقابل. وفي الحديث: "إذَا حَلَفْتَ علَى يَمِينٍ فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنهَا، فأْتِ الّذِي هُوَ خَيْرٌ".

130. لسفيان الثّوريّ: "إذا عرفتَ نفسَكَ فلا يَضُرُّكَ ما قيل فيك".

131. الحَدْسُ أسمى من المعرفة، الخيال يَسبق الواقع، في إبداعك ثِق بحدسكَ أكثر من معرفتك، وبخيالك أكثر من واقعك.

132. لا تكنْ بعيرًا. قال العبّاس بن مرداس:

لَقَدْ عَظُمَ البَعِيرُ بِغَيرِ لُبٍّ

فَلَمْ يَسْتَغْنِ بالعِظَمِ البَعيرُ

133. كيفَ يُمكن أنْ تصيدَ العدم، أو أنْ تمسكَ بطيفٍ؟ الأهداف الّتي يُمكن تحقيقُها هي الأهداف الواضحة المُحدّدة. ضَعْ هدفَك الكبير ثُمّ جزِّئه. انتقلْ من الكُلّ إلى الجزء.

134. حَدِّد الأزمنة، البداية والنّهاية، زمن القراءة، زمن التّفكّر، زمن الكتابة. لا تُماطل. كُنْ حاسِمًا مع نفسك.

135. تميّزْ بطُول النّفَس. وتوقّعِ العَقَبات، ولا تستسلمْ لأوّل عَقَبة، ولا لأيّ عَقَبة.

136. الأحلام الكبيرة مُمكِنة التّحقيق. فلا تستهنْ بقدراتك. أنتَ أعرفُ النّاس بها، والإنسانُ مَنجَمٌ مُذهِلٌ للقدرات الجبّارة.

137. انتبهْ للّذين يسرقون الأحلام. ويُحطّمون الآمال. يقولون لك: ما فائدة أنْ تكتب؟ مَنْ سيقرأ لك؟ وهل تريد أنْ

تزيد المكتبة العربيّة المُتضخّمة كتابًا جديدًا؟ ارمِ مَقالتَهم في أوّل جُبّ وامضِ.

.138 كُنْ واقعيًا، لن تكتب رواية لمجرّد أنْ كانت لديك الرّغبة وحدها، أو أنّك قرأتَ بعضَ الرّوايات، أو أنّ الفِكرة تُلحّ عليك. ما لم يجتمعْ كلّ ذلك إلى أساليب في الكتابة تتعلّمها، فلن تتمكّن من كتابة أيّ عمل.

.139 للنّجاح ضريبة، لا يُمكن أنْ يمرّ النّجاح مرور الكِرام، لا بُدّ من العمل والدّراسة والتّخطيط والمُثابرة والعِناد.

.140 لا تكنْ نَمَطيًا، فبعضُ الطّرق الّتي تتّبعها في الكتابة عادة هي طرق مسدودة، ولا توصل لشيء.

.141 سُلَّمُ الأولويّات في كتابة الرّواية أو النّصّ الجيّد يبدأ من القراءة، وينتهي بها، ويمرّ عبرها!!

.142 كلّ شيءٍ يحتاج إلى وقت، فلا بُدّ أنْ تقتطع وقتًا يكون مُقدّسًا أو خاصًّا بإنجاز عملك، فقد يقول بعضنا أنا لا أجدُ مزيدًا من الوقتِ للقراءة، فكيف أجد ذلك الوقت للكتابة،

إذا لم تأخذْ من وقتِك من أجل أنْ توسّع مساحة القراءة ثُمّ وقت آخر للكتابة فأنتَ لا تُريدُ أنْ تكتبَ إذًا.

143. ركّزْ في كلّ جزءٍ من العمل ولا تُشتّث نفسَك. بمعنى تعلّم كلّ تقنيةٍ من التّقنيات في السّرد أو في الكتابة بوجهٍ تامّ. يقول (تشارلز ديكنز) صاحب رواية قصّة مدينتَين: "لم أكنْ أبدًا لأحقّق النّجاح بدون عادات الدّقّة والنّظام والاجتِهاد، والتّصميم على التّركيز على عملٍ واحدٍ". أتّفق معه في الجزء الأوّل، وأختلفُ معه في الجزء الأخير.

144. اعملْ على فكرة القيمة المُضافة. نصف ساعة قبل أيّ شيءٍ، قبل الذّهاب إلى العمل، قبل الانتِهاء من العمل، قبل النّوم، قبل الطّعام... نصف ساعةٍ يوميّة لمدّة سنة، ستجعلكَ خبيرًا في المجال الّذي قرأتَ فيه أو عملتَ عليه.

145. لتكنْ متعدّد الأنماط في قراءتك، لديكَ كتاب السّيّارة، وكتاب الإشارة، وكتاب السّرفيس، وكتاب الحافِلات بشكلٍ عامّ، وكتاب الشّارع، وكتاب المقهى، وكتاب العمل، وكتاب السّرير.

146. قَوِّمِ العمل الّذي أدّيتَه كلّ أسبوع على الأكثر.

اعملْ جَردة حِساب. الأعرجُ لا يمشي مُستقيمًا.

147. نحن نختار أقدارَنا، ونحن نصنع شخصيّاتنا، نحن صورتُنا عنّا، ما نتصوّره لحياتنا أو سلوكنا أو أفعالنا هو غالبًا ما يحدث.

148. هل جرّبْتَ ركائز الشّافعيّ في العِلم:

أَخِي لَنْ تَنالَ العِلم إلاّ بسِتّةٍ

سأُنْبيكَ عَنْ تَفْصِيلِها بِبَيَانِ

ذَكاءٌ، وحِرصٌ، وَاجْتِهادٌ، وبُلْغَةٌ

وصُحْبَةُ أُسْتاذٍ، وطُولُ زَمانِ

149. لتكنْ لديك القابليّة، ذلك النّوع من الاستِعداد للنّهوض بالأمر، فقصّة أبي نواس الشّاعر الّذي كان راويةً للحديث يحفظ عشرة آلاف حديث، وتحوّل بعدها إلى حفظ الشّعر وصار شاعرًا ماجِنًا، جاءه أحد الفقهاء في أُخريات حياته، فقال له: "أما آنَ لك أنْ تتوب؟". فقال له: "يا إمام،

إنّك تدري أنّني أدري ما الصّواب، ولكنّها نفسي وشيطاني قد غَلَباني". فأبو نواس كانت لديه قابليّة للتحوّل إلى شعر الخمر والمجون، وكان يدرك الحقّ ولكنّه لم تكنْ لديه القابليّة للتّحوّل إليه. فقابليّتك للأمر هي الخطوة الأولى.

150. الأهدافُ مثل الغايات، تدلّ على نهايات الطّريق، والهدف العالي يعني هِمّة عاليةً، ويعني نهايةً عظيمةً، ففي الحديث: "إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس الأعلى من الجنّة". وفي الأثر عن عمر بن عبد العزيز: "إنّ لي نفسًا توّاقة..." فالنّفوس التّوّاقة هي الّتي تضع الأهداف العالية، وصدق المُتنبّي حين قال:

وإذا كانَتِ النُّفوسُ كِبارًا

تَعِبَتْ في مُرادِها الأَجْسامُ

151. كُنْ مُنضبِطًا، الانضِباطُ قانونٌ يُلزِمُ فيه الإنسانُ نفسه، ولولاه لكانت حياتُه خَبطَ عشواء، والنّاجح يعرفُ أنّ الانِضباط والالتِزام أهمّ ركائز الإنتاج؛ فأنا أعرفُ ما أريد، وأستطيع أنْ أقول (لا) في الوقت المُناسب.

152. كُنْ شَغوفًا، فالشّغفُ هو الحافز الّذي لا يخبو، تظلّ الرّوح فيه مُتطلّعةً إلى أنْ تحقّق ما تسعى إليه، ولا تَفتُرْ هِمّتها ولا يخفتُ دَأَبُها، والشّغف هو الّذي يجعل الفِكرة حَيّةً لا تموت، تحومُ في العقل حَوَمان النّحلةِ على الزّهرة، تملأ عليك تفكيرك، وتتبعك في صَحوك ومنامك.

153. كُنْ جَلْدًا صبورًا، فما من غايةٍ عُظمى إلاّ وتمرّ بدرب الصّبر، فلا تفقدْ حماستك في أيّ مرحلة، الإنسان عالَم سِرّيٌّ سحريٌّ غامض من المشاعر المُتناقضة. ولا تستعجل، فلا يُمكن أنْ تُثمر الشّجرة أوّل ما تغرسها. اخترِ الشّجرة المُناسِبة، ثُمّ الأرض المُناسبة، ثُمّ الماء المُناسب. ثُمّ الرّعاية والصّبر حتّى تكبر، ثُمّ يَحين أوان القِطاف. وكلّ مرحلةٍ من هذه المراحل الخمس تحتاج إلى رويّةٍ وتأنٍّ.

154. لا تتوقّف؛ لا يُمكن أنْ تكون ناجِحًا إذا اكتفيت بالألف كتاب الّتي قرأتها في السّنوات العشر الأولى من حياتك كاتِبًا. ولا أنْ تكتفي بالموادّ الّتي درسْتَها في جامعتك في قسم الحاسوب والبرمجة، ولا بأساليب المُعالجة والاستشفاء الّتي تدرّبْتَ عليها قبل خمس سنوات في المستشفى إذا كنتَ طبيبًا. إنّ التّطوّر المُستمرّ للعلم يعني أنْ يُقابله تطوّر مُستمرّ للتّعلّم. انظرْ إلى مثال ول ديورانت الّذي

كتب كتابه العظيم في التّاريخ؛ فإنّ ساعات عمله كانتْ تستغرق أيّام الأسبوع السّبعة، وكان يقرأ (500) كتاب لكي يخرج بجزءٍ واحدٍ من كتاب (قِصّة الحضارة)، وكان يكتبُ في اليوم ألفَ كلمة. فلم يكنْ يُعفيه في كلّ جزءٍ من كتابته أنّه قرأ آلاف الكتب فيما مضى، بل يقرأ لكلّ جزءٍ كتبًا جديدةً، فهو في تعلّم مُستمرّ، لا يقرّ له قَرار.

155. كُنْ عنيدًا؛ "سأفلقُ الصّخرة" هكذا قالتْ قطرةُ ماءٍ صغيرةٌ لكنّها عنيدة. واصلتْ طرقَها المُستمرّ على سطح الصّخرة الصّلدة زمنًا طويلاً ودَؤوبًا، لم تستطع الصّخرة أنْ تصمد في إحدى المرّات، فاستجابتْ لعناد القطرة وانفلقتْ. ورحم الله المعرّي حين قال:

أَرَى العنقاءَ تَكْبُرُ أنْ تُصادَا

فَعَانِدْ مَنْ تُطيقُ لَهُ عِنادَا

156. تقبّلِ النّقد لكنْ لا تسمح له أنْ يُحطّمك، لا تكنْ هَشًّا. خُذْ خيره واتْرُكْ شرّه. واستفدْ من ذوي الخبرة، وبإمكانك أنْ تعرف مَنْ أراد أنْ يهدمك بنقده ويقضي عليك لأنّه حاسِدٌ أو حاقد، ومَنْ أراد أنْ ينصحك، وبالتّأكيد الفئة

الأولى أكبر بكثير من الفئة الثّانية. وأنتَ الأعرف، وصدق القائل:

والعَيْنُ تَعْرِفُ مِنْ عَيْنَي مُحدِّثِها

إنْ كانَ مِنْ حِزْبِها أَوْ مِنْ أعادِيْها

وفي النّهاية لن أتلهّف لإرضاء النّاس، فإرضاء النّاس غايةٌ لا تُدرَك، سأرضي ربّي، فإنْ رضيَ أرضَى النّاس وأرضاني. وأنا أكتبُ لأرضَى عن نفسي.

157. كُنْ متوازِنًا، ولا تَدَعِ الفُتورَ والشّكّ والسّخط تغلب الهِمّةَ واليقين والرِّضى.

158. يُمكن أنْ تصيبَ أهدافكَ بعشرِ طلقات، ولكن إذا كنتَ تستطيع أنْ تُصيبها بطلقةٍ واحدةٍ فلِماذا تُهدِر ما يُمكن ادّخاره للأهداف الأخرى؟!

159. الكاتب الجيّد فُسيفساء من آلاف الكُتّاب الّذين قرأ لهم، لكنّه لا يُشبه أيّ واحدٍ منهم.

160. ما وصلتَ إليه، هذه المؤلّفات الّتي صَنّفْتَها، هذه المنزلة الّتي بُوِّئتَها، لم تكنْ باللّيالي الّتي سهرتَها، وإنْ فَعَلْت. ولا بالجهود الّتي بذلتَها، وإنْ فَعَلْت. ولا بالمال الّذي أنفقتَه وإنْ فعلت. ولا بالعلم الّذي حصّلتَه وإنْ فعلت. بل بتوفيق الله وفضله: "وما رميتَ إذْ رميتَ ولكنّ الله رَمى".

الفصل الثّاني عَشَر

ما قالُوه

ما قُلتُه

تمهيد:

لقد سعيتُ وما وهنتُ، وإنْ كان لي - مثلُ ما للبَشَر - ساعاتٌ تمرّ أثقلَ عليّ في الهمّ من جبال رضوى. لقد حاولتُ؛ إنّها تَجرِبة، وها أنا قد عرضْتُها عليكم، ولن يعدمَ فيها مُستهدٍ ضوءًا أو بصيصًا منه في الدُّلجة، فإنْ هَداه فقد هَدَاني.

حتى ولو كانَ الليلُ حالكَ الظُّلمة، والدّرْبُ شديدةَ الوَحشة، ولا أنيسَ ولا رَفيقَ... واجتمعَتْ عليكَ لا مُبالاة الأقارب، واستِهزاء الأباعد... وسَخِرَ منكَ كُلُّ حاسِد... فإيّاكَ ثُمّ إيّاك أن تتخلّى عن حُلُمك... إنّ التّخلّي عن الحلمِ يعني شيئًا واحِدًا؛ يعني الموت!!

أنا لا أفعل شيئًا عظيمًا... إنّني أُطارد حلمي فحسب، وسأتبعه حتّى آخر نَفَسٍ يتردّد في القلب، القلب الّذي لا

يعرف الخوف، ولا يعترف إلاّ بالنّهايات العظيمة.

لقد تعلّمتُ في هذه التّجربة ألاّ تنتظرَ من أحدٍ أن يُنصِفَك؛ فلقد فُطِرتِ النفسُ البشرية بوجهٍ عام على غَلَبَةِ الحسد والحقد والكَيد... أنصِفْ نفسَكَ من نَفسِك، وامشِ الطريقَ إلى آخرها ولو نبَحكَ ألفُ كلبٍ، وعوى عليك قطيعٌ من الذّئاب!

ولقد تعلّمتُ كذلك أنّه لا أوحشَ من الغَفلة، ولا آنَسَ من الكتاب، ولا أضيعَ من الهَزْل، ولا أوجع من الفَقد، ولا أمتع من البحث، ولا أهدى من التّأمّل، ولا أعزّ من الاستِغناء، ولا أبرّ من الرَّحِم، ولا أكرمَ من العِفّة، ولا أوصلَ من الصّبر، ولا أوفى من الرّضى.

أوائل:

أوّلُ آيةٍ أذكر أنني حفظتُها (عَمَّ يتساءلون...) فصنعتُ هذا التّساؤلَ في شِعري ونَثري، فلا يكاد يخلو مطلع من قصائدي منه، ولا يكاد يخلو من عشرات منه فصل من فصول أي رواية.

وكانت أوّلُ قصيدة حفظتُها هي قصيدةَ (أيّها السّائر بين الغيهبِ)، وشكّلت بإيقاعها من بحر الرّمل نغمًا انسكبَ في وِجداني انسكاب الماء في النّهر، كان بحر الرّمل غنائيًّا، وذا رَنّةٍ وشجن، ولا عجب أنّ أكثر المُوشّحات الأندلسيّة قد صيغتْ عليه.

كانت أول قصيدة كتبتُها قصيدة على وزن بحر الهزج، مُتأثّرًا فيها بقصيدة (الفند الزّمانيّ) الّتي مطلعها:

صَفَحْنا عَنْ بَنِي ذُهْلٍ

وقُلْنا القَوْمُ إخْوانُ

وضاعت، فأعقبتُها بقصيدة (أمّتي)، كان لا يزال الخيطُ مشدودًا بها، متينًا، عبقًا برائحة الماضي، لا أقولُ إنّه انقطع بالطّبع، ولكنّه صار أكثرَ حسرةً وبُكاءً، نحنُ الشّعراء بَكّاؤون.

أوّلُ رواية كتبتُها هي رواية (يا صاحبي السّجن) كانت عن تجربتي الأطول والأكثر عمقًا في النّفس في السّجون، لم أكنْ أعرفُ أنّني سأصبح روائيًّا قبلَها، ولم تكنْ لديّ الجرأة في البداية لأنشرها، كانتْ أقربَ إلى السّيرة منها إلى الرّواية،

وكنتُ أخشى من أنْ أُصبح كاتبًا!

أوّلُ كتاب قرأتُه، أو قرأتُ فيه هو مروج الذّهب ومعادن الجوهر للمسعوديّ، وهو كتابٌ في التّاريخ وقع بينَ يديّ من مكتبة أبي، وأنا في الرّابع الابتدائيّ، وجذبني غلافُه أوّل ما جذبني، والرّسم التّعبيريّ للمسعوديّ القادم من التّاريخ وغموضه وسحره عليه.

أوّلُ قصيدة ألقيتها كانت (أنا مُسلِمْ... أنا مُسلِمْ) ألقيتُها أمام أبي، ثُمّ ألقيتُها في المدرسة، كنتُ في الأوّل الابتِدائي، من جديد النّغم والإيقاع يستحوذان عليّ.

أوّل مدرسةٍ درستُ فيها هي مدرسة سوف الابتِدائيّة، كان ذلك في عام 1978م، كان قد مرّ على بنائها أربعة عقود، حينَ وفدتُ إليها طفلاً في الأوّل الابتِدائي أضافوا إليها بعضَ الأبنية الجديدة، وأبقَوا على القديمة. لا زلتُ أذكر حينَ أتيتُها وأنا في الجامعة بعد أنْ غبتُ عنها أكثر من عشر سنوات وقد ضَرَبَتِ الشّمسُ الحانيةُ حجارتَها القديمة وقتَ الأصيل، فقلتُ:

مَرّةً أُخرى عَلَى الأَشْواقِ أَلْقَى

وَجْهَكِ السَّمْحَ وَهَذا النُّورَ طَلْقا

أَنْقُشُ الحُبَّ عَلَى ذاكِرَتِي

فَهْوَ فِي مُسْتَقْبَلِ الأيّامِ أَبْقَى

أوّل جامعةٍ دخلتُها هي جامعة العلوم والتّكنولوجيا، لا يزال حُبّها هو الأعمق من بين الجامعات كلّها. وفيها تشكّلَ فِيَّ كثيرٌ من الوعي، وفيها عشت ذكرياتٍ لا يُمكن تجاوُزها، وفيها كان الحبّ الأوّل.

الكلمات العصافير:

إنّها ليست مجرّد كلمات حطّت على لساني، وكنتُ أقولُها إذا استجلبَها الحدث، إنّها كائنٌ حَيّ، شكّلت كثيرًا من شخصيّتي، من القيم والمبادئ الّتي بنيت بها مسيرتي، وعلاقتي مع الآخرين، ولِذا فمن السّهل أنْ تعرفَ من خلال ما تعيشُ من الكلماتِ الشّخصيّةَ الّتي ستؤول إليها بِناءً على ما تحفره عميقًا في وجداننا.

لا تمرّ ساعةٌ دون أنْ أترنّم بشيءٍ منها، أو من مثلها، إنّ

الآيات أو الأبيات الّتي هي عصافير تنطلقُ من ذلك العشّ سابحةً في الفضاء، لا يحكمها وقتٌ، ولا يضبطها مِيزان، إنّها تخرج من خبايا النّفس، دون أنْ يكون هناكَ سببٌ لخروجها، أو تفسيرٌ لاختِيار هذه الكلمة في الخروج دون تلك. قد تغلبُ كلمةٌ في وقتٍ ما كلمةً أخرى، ولكنّ بعضَ الكلمات تغيبُ حينًا ثُمّ تعودُ من جديدٍ، كأنّها الأكثر رسوخًا في غَور الذّاكرة، أو في مُستقرّ اللاّوعي. اخترتُ الأكثر ترددًا منها على لساني، وأكثرها إنْ لم تكنْ كلّها تلخّص تجاربَ أناسٍ عُظماء في التّاريخ، ولم أذكرْ قائلها لشيوعه أو لسهولة أنْ تعودوا إلى مظانّ النّص فتعرفوه، ومن هذه الكلمات، الآتي:

1. "إنّ السّاعةَ لآتِيةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الجَمِيل".

2. "ليسَ مَعَنا النّهارُ بِطُولِه".

3. "قيمةُ المرء ما قد كان يُحسِنُه".

4. إنّ الأرض لا تُقدس أحدًا، إنّما يُقدّس المرءَ عملُه".

5. لا تقلْ أصلي وفَضلي أبدًا

إنّما أصلُ الفتى ما قدْ حَصَلْ

6. "عند الصّباحِ يَحْمَدُ القومُ السُّرى".

7. أُريدُ مِن زَمَنِي ذا أنْ يُبلّغني

ما لَيسَ يَبْلُغُهُ فِي نَفْسِهِ الزَّمَنُ

8. أُعَلِّلُ النَّفْسَ بالآمالِ أرقُبُها

ما أضيقَ العيشَ لولا فُسحةُ الأملِ

9. النّاس نِيامٌ فإذا مَاتُوا انْتَبَهوا.

10. لَمَّا عَفَوْتُ وَلَمْ أَحْقِدْ على أَحَدٍ

أَرَحْتُ نَفْسِيَ مِنْ هَمِّ العَداوَاتِ

11. ولا أحمل الحقد القديم عليهمُ

وليسَ زعيمُ القومِ مَنْ يحملُ الحِقدا

12. أَثْنِي عَليّ بِما عَلِمْتِ فإنّني

سَمْحٌ مُخالَقتِي إذا لم أُظلَمِ

13. وأَيًّا كُنتِ يا طُرُقِي فَكُونِي

نَجاةً، أو أَذاةً، أو هَلاكا

14. كفى بالمرء اعتذارًا تركُ الاعتذار.

15. وَلِي نَفْسٌ وَإنْ سَكَنَتْ ضُلُوعي

فإنَّ لَها بِقَلْبِ الشُّهْبِ مَسْرَى

إذا لَمْ تَجْنِ مِنْ دُنياكَ إلاّ

طُمُوحًا قاتِلاً فَكَفاكَ فَخْرَا

16. أنا ما حَقَدْتُ عَلى السُّجونِ وليسَ لي

قَلْبٌ لِيَحْقِدَ، بل لِيَعْشَقَ لا جَرَمْ

17. عَدُوّكَ مِن صَدِيقكَ مُستفادٌ

فلا تستكثرنَّ من الصِّحابِ

فإنّ الدّاءَ أكثر ما تَراهُ

يَحُول من الطّعامِ أو الشّرابِ

18. وَمِنْ نَكَدِ الدُّنيا على الحُرّ أنْ يرى

عَدُوًّا له ما من صَداقتِهِ بُدُّ

19. فَشَدَّ وَلَمْ يُفْزِعْ بُيُوتًا كثيرةً

لَدَى حَيْثُ أَلْقَتْ رَحلَهَا أُمُّ قَشْعَمِ

20. أَحْسِنْ إلى النّاسِ تَسْتَعْبِدْ قُلُوبَهُمُ

فَطَالَما اسْتَعْبَدَ الإنسانَ إحسانُ

ما قالوه:

لقد كان لهم رأيّ، إنّه أمرٌ حَسَنٌ أنْ تستهدي بآراء السّابقين، أولئك الّذين ساروا الدّرب قبلَك، أنا الآن سرتُ الدّرب، أو سرتُ بعضَه، إنّني أقول لمن يريدُ أنْ يبدأ السّير، هذا دربي، وهذه مَسِيرتي، لكنّها لم تنبث فجأة، ولا ظهرتْ من الغيم أو الغيب بغتة، لقد مشيتُ قبلكم، كما مشى هؤلاء قبلي.

ما قاله أبي:

بسم الله الرحمن الرحيم

ولدي أيمن

سمّيتُه على اسم أيمن بن عُبَيْد, ابن حاضنة الرسول محمد - صلى الله عليه وسلّم- بَرَكَةَ, وتيمُّناً بالاسمِ وتبرُّكاً, فكانَ حقّاً مباركاً وميموناً. نشأ هادئاً رَضِيّاً, وسَمْحاً هنيّاً. فيه علائِمُ النَّجابَةِ والذكاء, والتطلُّع إلى السموّ ومعالي الأمور. كانَ منذ مراحله الدراسية الأولى إلى أنْ تخرَّجَ في الجامعة من المُبرِّزينَ والمبدعينَ.

أحطْتُه – من لَدنْ وهو طفلٌ – برعايةٍ خاصّةٍ. وحينَ بدأ الدراسةَ أخذتُه بالأساليبِ التعليميّةِ المُجدِيةِ، وكنتُ أثِقُ بقدراته على الفهمِ والتعلُّمِ، ولا أنظرُ إليه في طفولته كما يُنْظَرُ إلى الأطفالِ عادةً، بأنَّ فيهم عَجزاً عن تحمُّلِ بعض الأمور عاليةِ المستوى في أمور العلم والفهم، والإدراكِ والاستيعاب، فكان تجاوُبه – بفضل الله وبحمده – كبيراً وعظيمًا.

نشأ نشأةً سَمْحَةً، ونما نموَّ النخلةِ قويمةً باسقةً. عاشَ مُذْ أنْ كان طفلاً إلى أنْ يَفَعَ وشَبَّ واكتَهَلَ سيرةً مستقيمةً نظيفةً، وطاهرةً بريئةً من العِوَجِ والأَمْتِ في فكره وخُلُقِهِ وعاداتِه وطبائِعه، بل كنتُ أراه في طفولته وأُفاجأُ بملاحظاته الذاتية مُعجباً بها، وهو يقولُ بكُلِّ براءةٍ لبعضهم وهو يراه يعمل أحياناً أشياءَ تقدح بالنفسِ والسلوكِ: أقلِعْ عن هذا، فإنّه لا يحسُنُ بك ولا يَجْمُلُ.

رافقني في سوفَ بلدتِنا بمراحله الدراسية الابتدائية، وفي مصرَ حيث سافرتُ لإكمال دراساتي العليا ثَمّةَ، وفي إربدَ حيثُ بدأتُ التدريسَ في جامعة اليرموك، وفي الإماراتِ العربيةِ المتّحدة حيثُ ذهبتُ للتدريسِ في جامعة عجمانَ إحدى جامِعاتها الأهليّة، إذْ أنهى فيها مرحلة الدراسة

الثانوية. وكان خلالَ سنتَيْه هناكَ موضعَ إعجاب أساتذته ومديريه واحترامِهم، كما كان نجمَ المركز الثقافي في الشّارقة على (بُحيرة خالد) يُدْعَى إليه كثيراً ليُلْقِيَ شيئاً من أشعارِه ويتكلّمَ عن اهتماماته الأدبية. وقد نال هناك أكثرَ من جائزة، كانت إحداها عن بحثه في أدب الأطفال وقد كان من الناظرينَ فيه والمُعجَبين به الروائي المصري المشهور نجيب الكيلاني كما حدّثني بذلكَ هو نفسُه. وأُخرى من وزارة التربية فيها، عن مسرحية شعريةٍ كتبَها.

وفي إربدَ ثانيةً وأنا أعودُ للتدريس بجامعة اليرموك وهو يُكمِل دراسته في الهندسة بجامعة العلوم والتكنولوجيا، ويُضيف إليها في اليرموك دراستَه اللغةَ العربيةَ ويتخرّج فيها الأولَ على دفعته في كُلِّ كلياتِ الجامعة وأقسامِها، وينال على ذلك جائزةَ الجامعة. أجل، أقول رافقتُه في كُلِّ هذه المراحل، فواللهِ ما رأيتُ منه فيها جميعاً، إلاّ كُلَّ تقدُّمٍ في العلمِ وتطلّعٍ إلى العُلا، وسَعَةِ إدراكٍ وعظيمِ وعْيٍ وحُسنِ سيرةٍ وأدبِ سلوكٍ.

كانَ كثيرَ المطالعة - خارج واجباته المدرسية أو الجامعية، مع سبقه فيها وتفوُّقه - بشكلٍ ملحوظٍ. أعلَمُ ببعضه ولا أعلم بالكثير منه. ينهلُ فيه من مكتبتي في البيت، وأحياناً من

المكتبات العامّة, يشتري منها الكتبَ العلميّةَ والأدبيةَ يقرؤها بنهمٍ ويستوعبُها, وقد بدا من أوائل إبداعاته حُسْنُ خطِّه وجمالُه. ولو أنّه تعاهَدَه بشكلٍ منهجيّ, لأصبح من أكابر الخطّاطين, كما بدا منها قرضُه للشعر مُبكِّراً منذ صفوفه الإعدادية, وكان في دعم الانتفاضة الأولى بفلسطين (8/12/1987م). يُطلعني على بعضه وأساتذتَه على بعضه الآخر, فكنتُ أَشِيمُ فيه وردةً تتفتَّح عن أحسن الأزهار وأجملِها، وقارورة مِسكٍ تَفُوحُ بأشذى العطور وأعبقها.

وفي جامعة التكنولوجيا أصبحَ شاعرَها وفتاها في الحركات الطلابيةِ مما يَخصُّ شؤونَ الطلبة والوطن وقضايا الأُمّة عامّةً, بل نجمَها اللمّاحَ وكوكبَها الوضّاحَ, حتى غدا شاعرَ الجامعات الأردنية كُلِّها حينَها. وقد أُوذِيَ لجرأته الوطنية إيذاءاتٍ عديدةً من إنذاراتٍ جامعيةٍ وحرمانٍ من بعض فصولها الدراسية, وأخيراً – لهذا – تعرَّضَ للسجن أكثرَ من مرة وفي أكثر من سجن, فما وَهَى وما وَهَنَ, وما ضَعُفَ وما استكانَ, لِمَا أصابَه في سبيل خدمة دينه وقومه ووطنه وأُمّته, بل كان صابراً محتسباً مُتطلّعاً إلى العلا على الدوام. وفي النهاية تخرَّجَ في الجامعة الأردنية بدرجتَي الماجيستير والدكتوراة في اللغة العربية عن موضوع في كتاب الله, فهو يحمل شهادتَي البكالوريس في الهندسة المدنية والدكتوراة

في اللغة العربية.

جرت حياته العملية والتعليمية والأُسْرية - بحمد الله وكرمه - بكُلِّ نجاحٍ وتوفيقٍ، ولا يزالُ حتّى هذه الساعةَ وسيبقى كذلكَ إنْ شاءَ الله. مرتبطٌ بمحيطه ومجتمعه، إلفٌ مألوفٌ، ما عرفه أحدٌ إلاّ أحبّه، وله معه علاقةٌ طيبةٌ وطيدةٌ قائمةٌ على حُسنِ التعامل وكريمِ الخُلُقِ وجميلِ الوفاءِ والوِدادِ. أمّا نحن أسرتَه الأدنَيْنَ من والدَيْنِ وأشِقّاءَ وشقيقاتٍ، فواللهِ ما عرفنا منه إلاّ البرَّ والإحسانَ، والمحبَّةَ والرضوانَ: نجدةً وإعانةً، وبسطَ يَدٍ، وعظيمَ سخاءٍ، وطيبَ كلامٍ، وعذوبةَ لسانٍ، وكذلك غيرُنا من أرحامه. فنحن عنه راضونَ وله بالخيرِ داعونَ.

فَتَحَ اللهُ عليه أوّلاً بموهبة الإبداع الشعري منذُ فتوّته، وله فيه عدّةُ دواوينَ جميلة رائقة، وبديعة فائقة في موضوعات متعدّدة، جعلَ منها قسطاً صالِحاً في الأمور الوطنية، ومن ثَمَّ في ثورات الربيع العربي. أشعارٌ تُحفَظُ وتُتَناقل وتدور على الألسنة، ويُشارك بها في المهرجانات الشعرية الحاشدة منذ زمانٍ داخل الأردن وخارجه، ومنها المِربدُ في العراق. كما كان منذ أنْ بدأَ المرحلة الثانوية يكتب المقالات الأدبية عن بعض كبار شعراء هذا العصر وينشرُها في بعض الصحف

المحلية. ثُمَّ فتح الله عليه منذ شَيْعِ عَقْدٍ من الحين بموهبة الكتابة في باب الرواية بأسلوبٍ بديعٍ ولغةٍ مأنوسةٍ وسردٍ انسيابيّ. وقد شاعت في كُلِّ البلاد العربية وذاعت، ونالت قصبَ السبق بشهرتها والإقبال عليها. وقد بلَغَث حتى الآنَ أربعَ عشرةَ روايةً، نيلث بدراستها بعضُ الشهاداتِ العليا، وكُتِبَث فيها وفي شعره بعضُ الدراسات الأدبية.

أكتبُ هذا عن ولدي، ويعلَم اللهُ أنّني ما قلث إلاّ الحقَّ وإنْ كان أقلَّه، مخافَةَ أنْ تأخذني العاطفةُ وأنْ لا يتَّسِعَ المقامُ لأكثرَ من هذا. وصحيحٌ أنّني – وأنا اكتبُ عنه – أحمِلُ تُجاهه عاطفة الأُبوّة الحانية، ولكنّني كنت كثيراً ما أُعامله - ولا زلث، لِمَا أرى فيه من مخايلِ النباهة والنُّهى - بوصفه شابًّا عربيًّا مسلمًا واعِدًا، أرعاهُ وأحبّه وأثِقُ به، وآمُلُ منه الكثيرَ من الجميل لصالح مجتمعه ووطنه وأُمّته. ولقد نذرتُه منذ أنْ قد راحَ ينشأُ ويتفتَّح ويُنتِجُ، في سبيلِ الله لخدمة حضارة أُمّته وتراثها.

وأختم كلمتي هذه بأبياتٍ قلتُها فيه من قصيدةٍ أُهنِّئه بها لنيلِه شهادةَ الدكتوراة في اللغة العربية من الجامعة الأردنية بتاريخ (7/5/2007م):

هُنِّئْتَ أيْمَنُ بالشَّهادَةِ والرِّضا

مِنْ والِدَيْكَ ورَبِّكَ الغَفّارِ

وبِخُلْقِكَ السّامِي الذي شَهِدَتْ بِهِ

شَتَّى الصِّحابِ على اخْتِلافِ الدّارِ

فَلَقَدْ نَشأْتَ ومِلْءُ مَسْكِكَ نُهْيَةٌ

حَتَّى اكْتَهَلْتَ بِمَيْعَةِ الأعْمارِ

وحَلُمْتَ في سِنِّ الحَداثَةِ والصِّبا

وأتَيْتَ فِعْلَ مَشايِخٍ وكِبارِ

أُثْنِي عَلَيْكَ بِما عَلِمْتُ فإنَّنِي

أنا مَنْ غَرَسْتُكَ في حَدِيقَةِ دارِي

حَتَّى ازْدَهَتْ بِكَ في بَدِيعِ رُوائِها

وزَهَتْ بِعِزٍّ إبائِكَ الكُبّارِ

فَغَدَوْتَ - يا حِبِّي - أمِيرَ وُرُودِها

وسِنانَ رُمْحِ وشِيجِها الخَطّارِ

ما إنْ أتَيْتَ - بِفَضْلِهِ وبِحَمْدِهِ -

يَوْماً بِغَيْرِ فَعائِلِ الأبْرارِ

تَبْنِي مَدامِيكَ العُلا في سِيرَةٍ

هِيَ سِيرَةُ النُّبَهاءِ والأحْرارِ

حَتَّى بَلَغْتَ ذُرَا الكِيانِ بِهِمَّةٍ

عُظْمَى وتَوْفِيقِ العَلِيِّ البارِي

سائلاً المولى عزّوجلّ له ولزوجه وأولاده كُلَّ سَدادٍ ورَشادٍ، وأنْ ينفَعَ بهم جميعًا كُلَّ مُحبٍّ للخير والمعروف، وأنْ يدفع عنهم كُلَّ أذىً ومكروهٍ ...

والدك د. علي العتوم

إربد/ حي القصيلة – غابة جرن الغزال

الاثنين 9 ربيع الأول 1442ه

الموافق 26/10/2020م

مع أبي في شرفة منزلنا في إربد، عام ٢٠٠٣م

ما قالته أمّي:

بمولده أشرقت شمسُ دُنيانا، سَمّاه أبوه أيمن وله من اسمه نصيبٌ (أيمنُ يُمنُ السَّعْدِ طالَعُهُ) الطّفل الثّاني بعد أخته أسماء.

من مولده وحتّى هذه اللّحظة كان هادئ الطّبع، وطيّبًا، وخلوقًا، وكريمًا.

أذكرُ له أنّه كان يشتري من مصروفه القصص، فكنتُ أرى فيه مُستقبلَ إنسانٍ مُبدع.

من الذّكريات الّتي لا تُنسَى قصص (مغامرات الشّياطين الـ 13) ومغامرات (أرسين لوبين) وقصص كثيرة، عندما يفرغ من قراءتها أقرؤها أنا، وكنتُ أستمتع بذلك. من عادته أنّه كان إذا قرأها يُعيدُها إلى المكتبة الّتي اشتراها منها ليُبدّلها بقصص أُخرى.

أحبّه الجميع كبارًا وصِغارًا. لم يُسِئْ لأحدٍ من إخوانه وأخواته، بل بالعكس كان كريمًا معهم جميعًا، لم يَتوانَ عن مدّ يد المُساعدة لهم.

يمتلك من العزم والتّصميم ما مهّدَ له طريق النّجاح بإذن

الله، تراه مُثابِرًا على ذلك فترى أحلامَه تتحوّل إلى حقيقة.

أيمن إنسانٌ رائعٌ يعيش بوئامٍ مع الجميع، حيث الاحترام والاهتمام والرّعاية.

إنْ كان البحر يفخر بالدّرر، والشّجر يفخر بالثّمر، فإنّي أفخر بأنّ لي ابنًا مثل أيمن حفظه الله ورعاه، وسدّد على طريق الخير خُطاه.

أمّ أيمن

إربد 1/ 11/ 2020م

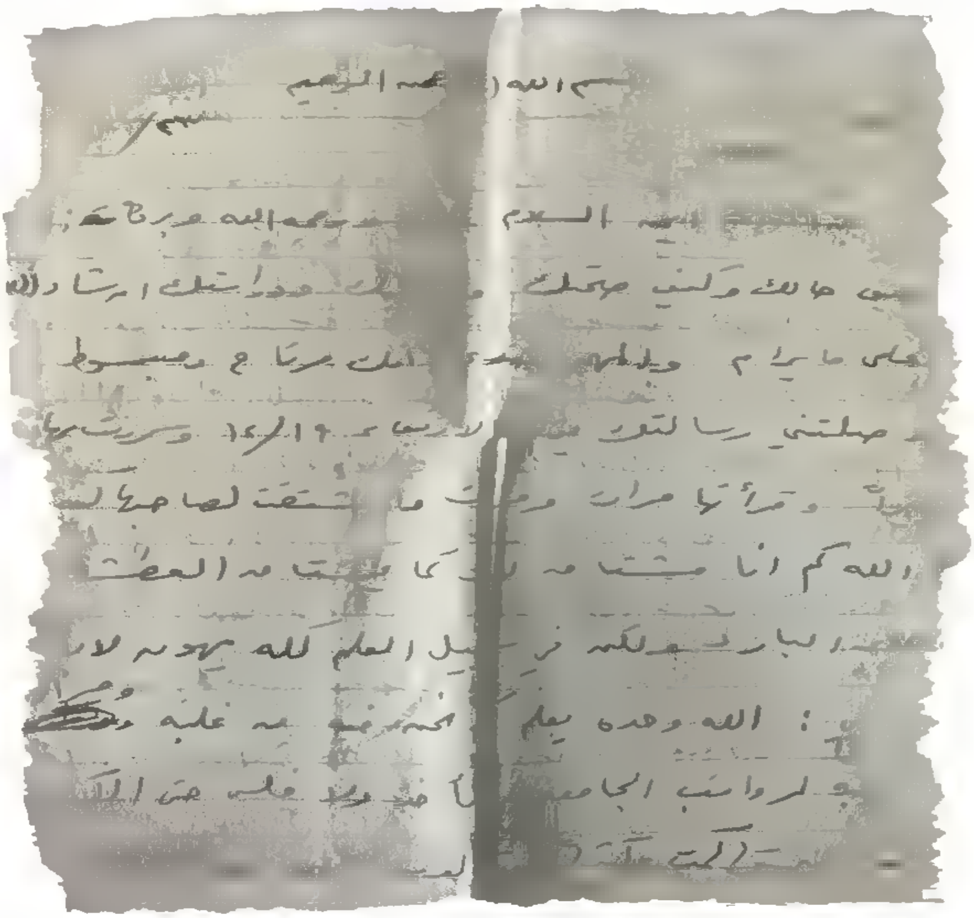
بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة من أمي بعثتها وهي مع العائلة في الإمارات وأنا في السنة الأولى في الهندسة

ما قالته زهراء:

تُحاوِلُ مُلْكًا

هذا البياض المُمتدّ أمامي يُغريني بالكتابة، يشدّني للمواجهة.. لكنّ قلبي يرتجف وتجبُن أقلامي، وأمام مداكَ المُطلَق يُقصّر عنه المطلع، وتأتي الأفكار مُختزَلة، وما زلتُ مع طُول الطّريق أُفتّش عن هذا الكلام.. ويَنهبُني ويَنهبُ ما تبقّى من روحي..

ركعتان في مِحراب الشِّعر والجَمال والحبّ، وجذوة يتقّد أُوارها وأخاف انطفاءها.. فأراني بلا دليل ولا لثام.. وأقول لصاحبيَّ ذراني فلاةً وهجيرًا.. إنّها عبثية استمرار الحرب على جبهات الحياة، واستحالة الاستسلام..

إنها هو.. الدّاني على بُعد.. المُركّب عصيّ الفهم على بساطة وخِفّة.. الانفعاليّ الجريء الصاخب مع صمتٍ وشُرود.. الاستعراضيّ الذي يتيه بنفسه كبرياء، مع تواضع جمّ وخَجَلٍ عند المديح.. إنه منطق اللاّمنطق، وفوضى النّظام..

صخريٌّ جبليٌّ عنيدٌ، في رقّة وعذوبة.. عاشقٌ للحرّيّة، حالِمٌ بما لم يبلغه زمنٌ ولا عُمْر.. في حياته لونان.. أبيض وأسود.. عدوٌّ الرماديّ والرّماديين إذ لا حياد ولا وسط.. وهنا تأخذ محاولة العثور على شخصيّته شكل الحوافّ المُدبّبة، فكلّ ثنائيّة فيه تدمّر الأخرى وتَنفِر من قُطبها، فهو "الشيء ونقيضُه في لحظةٍ نفسيّةٍ واحدةٍ يصعب الإمساك بها والعثور عليها" كما وصفت عبلة الرويني أمل دنقل.. وأقول.. عَلَّه قَلَقُ الشّاعر.. وحِدّة مِزاجه وتَقلُّبه.. وذلك الموار الذي يريك الرضى ولا يرضى.. فكيف إذن ينجو بنفسه من نفسه؟!

لقد اختار الأدبَ واختاره، وارتضاه ورضي عنه.. إذ لا تتّسق نفسه وتتآلف وتنتظم إلا بقصيدة.. ولا تتماسك روحه وتُبنى إلا بالأفكار.. ولا تحسُن أناه وتزدهي إلا برواية.. ولا يُدرك كُنهها إلا بترجمتها إلى كلمات.. هذا الإبداع هو المُعادِل الموضوعيّ لتلك الشّخصيّة.. فلا عروسَ دون مَهْر.. ولا نصرَ دون دم.. ولا ولادة دون ألم.. ولا اطمئنان دون قلق.. ولا فرح دون إدمان الحزن.. فكلّ وجع وكلّ شوكٍ يخوض غمرته استعذابًا وفداءً لعينيّ جميلته!

الشّريك واختلاط الجهات:

في مقابلة ما.. واجهتني المذيعةُ بسؤال ملغوم: "لو كنتِ غيرَكِ هل كان هو هو؟!" دارث في خَلَدي أجوبة وأحداث.. وتساءلتُ كيف تُغيّرنا الليالي.. وتُقلّبنا الصروف.. وضحكتُ حين تذكّرتُ قول كُثيّر: "ومَنْ ذا الّذي يا عَزُّ لا يتغيَّرُ؟!"

ليس المبدعُ صنعةَ أحد.. وفي الوقت ذاته صنعةُ كلِّ أحد.. وانضباطه الذاتيّ يجعل منه شخصًا واثقًا يستوي لديه مَدْحُ المادِحين وقَدْحُ القادحين.. عليه أن يكون نسيجَ وحده.. كما أنّ له نفسًا توّاقة.. كلّما بلغ أمرًا رام الأعلى..

جئتُ أيمن بعد الثّلاثين.. جِئتُه في زمن الجَزْر الشِّعريّ والمدّ الرّوائيّ، فهو عابر لي.. مُبدِعٌ قبل وجودي في حياته، وفي أثنائها، ومُمتدّ بعدها..

وهنا تأتي المقولة الشهيرة حدّ الابتذال "وراء كلّ رجل عظيم امرأة"، لتجعل من المرأة ذيلًا وهامشًا، ولتُقلّل من عظمة كل عظيم.. وهي في حالة "الأديب" - على أقلّ تقدير- لا تنطبق على أكثرهم..

أمّا عن الجهات، فبين الأمام والجانب والوراء تدور رحى الشريك.. وطبيعة الاقتران بمبدع فضلًا عن كونه شاعرًا، تخلط الجهات وتعبث بالتوقّعات.. إذ ما الذي يَعنيه أن تقترني بـــــ/ شاعر/ روائي/ مشهور؟!!

ليس سرًّا وليس من غير المتوقّع، فأمام بهرجة الاسم تختبئ كثير من المعاني..

يعني أن لا يكون لنفسِكِ شيء.. أنْ تُعطيه كُلَّك.. الوقت والجهد والراحة، ولن يكون من نصيبك سوى لحظات غامرة لكنّها عابرة وقليلة..

يعني الانتظار لساعاتٍ طِوالٍ لأجل طابور التّوقيع.. يعني تحمّل عبء المُجاملات والْتِقاط الصُّور، وغَمْز الغامِزات من المُعجَبات، واللّمزات مِمّن يحسدكِ على جواره..

يعني ألا تنتظري وقت العودة إلى البيت.. وأنْ تُعامليه كضيف حين يحضر، وكحبيبٍ حين يغيب.. يعني أن تكوني تامّة الجهوزيّة لأيّ طارئ؛ سَفَر مُفاجئ.. زيارات مُستعجَلة.. ضيوف غير مُنتَظرين.. يعني لحظات الجنون وهواجس اللاّمنتمي وثورة شريعتي وتنظير مالك بن نبي.. يعني هواجس الإبداعات القادمة، والنّدم على الماء المسكوب في روايات نُشرت.. يعني احتمال الانشغال بالكُتُب والكتابة.. وربط الأحزمة والتّقشّف لأجل شراء مَخطوطٍ.. يعني السير بين القاعات والقفز بين الأرفف في معارض الكتب من المحيط إلى الخليج.. يعني التّحدّث أثناء النّوم واليقظة حول وَمْضة فِكرة.. يعني الإنهاك وما بعد الإنهاك ومُواصلة الليل بالنهار لإتمام رواية.. يعني التّحضير لعمل جديد بقراءة مُضنية لمقالات وكتب حول الموضوع.. يعني وعودًا براحةٍ لا تأتي.. وأوقات استمتاع يكون مأخوذًا بأشياء أخرى.. وساعات خلوة مع ضرائر من أفكار وصفحات وأوراق.. يعني التّشرُّد في المنافي لأجل التفرّغ وتهيئة الطقوس.. يعني الاستغراق في غمرة الوَجْد.. والذَّوبان في حالته الشّعوريّة

بعيدًا عن عاصفة الحياة والعائلة الصغيرة..

ولستُ الفريدة في هذا؛ فمن ريم وعبلة وزينب وسوزان وصوفيا وسنيّة ورضوى وغيرهن... أدركتُ أنّ التّضحية اختيارٌ كما الحبّ، والعيش هِبةٌ كما الموت.. وأنّ الوراء/ الدّافع والمُرمِّم والمُضنى بتحمّل الطبائع الغريبة والفَرِح بولادة عمل جديد، قد ينجح في بعض الحالات لتحويل الرَّحل إلى الجانب/ الرفيق والمستشار والقارئ للأعمال قبل صدورها والسكرتير والهيئة التّنفيذيّة والمُموّل والسّائر في الأزقّة تشرّدًا أو بحثًا عن ناشر، ثمّ الانتقال إلى الأمام/ لالتقاط قصيدة أو رواية من سلّة مهملات وأخذ قرارِ نشرها..!!

لم يكن الأمر رومانسيًّا حالمًا.. لكن بالمقابل ماذا فعلتُ لزوجي؟! هل فرشتُ له الدّرب وردًا؟ لا.. هل أزلتُ أمامه جبالاً من العَقَبات والمخاطر؟ لا.. هل أنقذتُه من الغرق؟ لا.. هل ذقتُ تباريحَ أوجاعِه الدّاخليّة بعيدة الغَوْر؟ لا.. هل حلُمتُ بشخصيّات رواياته؟ لا.. هل تقلّبتُ على جَمْر المرض والقلق بعد الفراغ من الكتابة؟ لا.. هل سَبَكتُ له الأحداث ونَمْنمتُ تفاصيلها؟ لا..

أنا فقط آمنتُ بقلمه، وأحببتُ رسالتَه، واعتنقت أعماله ولم أقف عقبة في طريقه..

الدّرب دونكَ يا صديقي.. وها أنتَ على طريق مُحاولة المُلك سائر.. ماضٍ، فإن بكيتَ كما بكى صاحب امرئ القيس.. فصبّرْني بقوله.. واتّكِئ على قلبي واطمئنّ..

زهراء

الأربعاء 2/12/2020

إسطنبول

مع عبد الرّحمن مُنيف:

التقيتُ الرّوائيّ الكبير (عبد الرحمن منيف) في جامعة اليرموك أوائل التّسعينيّات من القرن المُنصرم، حضرتُ له محاضرة في كلّيّة الآداب، وكنتُ طالِبًا في كلّيّة الهندسة بالتّكنولوجيا، كانت المحاضرة عن تجربته الرّوائيّة، بعد انتهاء المُحاضرة التقيتُه مجدّدًا أنا وأبي الّذي كان يُدرّس في الجامعة وقتذاك، واثنان من الأساتذة، ووقفْنا ربّما أكثر

من نصف ساعةٍ نتحدّث، كان أسمرَ نحيلاً، يكادُ عظمُ رُسغَيه يظهر من تحت قميصه، وجهه نحيلٌ كذلك، وخدّاه أجوفان من الضّمور، وعيناه سوداوان كبيرتان وبياضُهما مَشوبٌ، كأنّهما مُشرَبتان بالحُزن، وكان يلبسُ نظارةً كبيرةً بإطارٍ أسودَ غليظ، وقد وخطَ الشّيبُ شعرَ رأسِه، حليقًا دون ذقنٍ أو شارب، وكان يُدخّنُ بشكلٍ مُستمرّ... أرادَ أبي أنْ يُعرّفني إليه، حينَ ذكر اسمي أمامه، ابتسم وقال: قرأتُ له بعضَ القصائد. كانت هذه عندي وأنا لم أتجاوز العشرين من عمري يومئذٍ فرحةً كبيرة. ثُمّ إنّه أثنى على شِعري، وذَكَره بخير، فازددتُ فرحةً، وأردف قائِلاً مع ابتِسامةٍ: "أنا كتبتُ عن العتوم في خماسيّة مدن الملح". أجبتُه: "نعم، لقد قرأتُ النّصّ، إنّه نصّ مَنْ يعرف العتوم عن قرب، وإنّنا نشكرك على حُبّكَ لهم، فلولا هذا الحُبّ ما وصفْتَهم هذا الوصف". أمّا النّصّ فقد ورد في الجزء الأوّل (التّيه) من الخماسيّة، أقتبسُ منه: "والعتوم في أعلى الظّهرة يرون ويعرفون ولكنّهم لا ينزلون إلاّ بِتَرَوٍّ وبعدَ وقتٍ من وصول هذه القوافل. أمّا أنّهم جزءٌ من العشيرة الكبيرة فيُعطيهم قُوّةً وشُعورًا بالثّقة، لذلك ينظرون إلى الأشياء والمال نظرةً فيها ذلك التّرفّع، وبعض الأحيان فيها الاستِهتار، لأنّهم على ثقةٍ أنّ الحياة مهما قست عليهم لا يُمكن أنْ تطحنهم، وهذا يدفعهم في حالاتٍ كثيرةٍ إلى نزعٍ من السّلوكِ فيه فَظاظة وشيءٌ من الخُشونة، لكنهم إذا

وَثِقُوا، إذا أحبُّوا، أعطَوا كلّ شيءٍ دون تردّد، ورَضُوا بأيّ شيءٍ دون شعورٍ بالمرارة.

والعتوم في وادي العيون أكثر النّاس فقرًا, لكنّهم أكثر النّاس ترفّعًا, وربّما كان هذا الترفّع ناشئًا عن الفقر ذاته, لأنّ أيَّ واحدٍ من العتوم لا يُمكن أن يصبح غنيًّا حتى لو أراد, إذ في ساعةٍ من تلك السّاعات التي لا يعرف أحدٌ متى تأتي يُبدّد كل ما جَمَعه دون شعور بالأسف ودون ندم أيضًا, ويبدأ من جديد, لكن بهمّة لا تعرف التّعب أو التّوقُّف, حتى إذا جمع شيئًا زائدًا بدأ اللُّعبة ذاتها مرّة أخرى!!".

مع عمر بهاء الدّين الأميريّ:

لقد كان أحدَ الّذين حفظتُ قصائدهم في الابتِدائيّة، كانت مكتبةُ أبي تضمّ بعضَ دواوينه، لم أكنْ أعرفُ من هو، ولا من أيّ البلاد. لكنّني تتلمذتُ على شِعره، حتّى إذا كبرتُ قليلاً، وبدأتْ تلك الشّجارات الّتي تكون بين الأشقّاء الصّغار تملأ البيت، وتُؤدّي إلى انكِسار بعضِ الأواني وصُراخ أمّي علينا، كان زعيقُنا لا ينتهي، وركضُ بعضِنا خلفَ الآخَر لا يتوقّف، بدأتُ أستشعر آنذاك قصيدته الّتي لا بُدّ أنّه مرّ بحالةٍ مُشابهةٍ حتّى يكتبها، إذْ إنّه فَرِحَ لمّا خلا البيت من الأولاد، كان هذا

أوّل الأمر، ثُمّ لَمّا وجد نفسَه وحيدًا اشتاقَ إلى شَغَبِهم وصُراخهم، فقال:

أَيْنَ الضَّجِيجُ العَذْبُ والشَّغَبُ

أَيْنَ التَّدارُسُ شابَهُ اللَّعِبُ؟!

بالأمسِ كانوا مِلْءَ مَنْزِلِنا

واليومَ - وَيْحَ اليَومِ - قد ذَهَبُوا

فِي كلِّ رُكنٍ منهمُ أَثرٌ

وبِكُلِّ زاويةٍ لَهُمْ صَخَبُ

في النّافذاتِ زُجاجَها حَطَمُوا

في الحائِطِ المَدْهُونِ قد ثَقَبُوا

في البابِ قد كَسَرُوا مَزالِجَهُ

وَعَليهِ قد رَسَمُوا وقد كَتَبُوا

في الشَّطْرِ من تُفّاحَةٍ قَضَمُوا

في فَضْلَةِ الماءِ الّتي سَكَبُوا

إنّي أَراهُمْ حيثُما اتّجَهَتْ

عَينِي كأسرابِ القَطا سَرَبُوا

ثُمّ كبرَ في ذاكرتي، وصارَ حلمًا أنْ ألتقيه، حتّى إذا كنتُ في الإمارات عام 1989م مع أبي، نُظّمت له في المركز الثّقافيّ العربيّ أمسيةٌ شعريّة، فحضرتُها متشوّقًا مُتشوّفًا، وأظنّ أنّني أسمعتُه بعضَ شِعري، وكان أبي بيننا، فقال له فيما أذكر، ولعلّ نصّ العبارة يخونني، لكنْ قال ما معناه: إنّ ابنكَ شاعرٌ مطبوع، وحرامٌ ألاّ تعتني به العناية الّتي تجعله شاعرًا مرموقًا في المُستقبَل". لقد كان أبي يعرفُ ذلك وأنا في الرّابعة!

مع الشاعر عمر بهاء الدين الأميري رحمه الله في الشارقة ١٩٨٨م

مع نجيب الكيلاني:

قرأتُ رواياته في مرحلة الثّانويّة. لم تشدّني بقدر ما شدّتْني مُذكّراته ذات الأجزاء الثّلاثة. قرأتُ له كذلك عملاً أو اثنَين نُشِرا له بعدَ وفاته، طبيبٌ وروائيّ مصريّ له أثرٌ كبيرٌ على أبناء جيلي، وقد عانَى السّجن والمنفى كحال كلّ المُبدعين والمُفكّرين.

التقيتُه عام 1988م في الإمارات حينما حصلتُ على جائزة تشجيعيّة من الدّولة، عن بحثي عن (أناشيد الطّفولة)، وكان هو أحد المُحكّمين، والتقطتُ معه صورةً ولكنّها ضاعت فيما ضاع، وحدّث أبي عن بحثي قائلاً: "إنه يستحق الجائزة

لولا أن شرطَين فيه لم يتحقّقا وهما: العمر أقلّ من المطلوب؛ فالمطلوب أن يكون من طلبة الجامعة وهو أول ثانوي، والثّانية أن يكون من مُواطني دول الخليج".

مع يوسف العظم:

كان أستاذي في الشّعر، على خُطاه في البدايات مشيث، وحينَ نبتَ لي شارِبا الشّعر كان الأستاذ يوسف العظم ملء السّمع والبصر، وهو شاعرٌ وسياسيّ وأديبٌ وخطيبٌ مُفوّه، وقد قرأتُ ما صدر من دواوينه وحفظتُ كثيرًا من قصائده، ثُمّ اقتنيتُ مجموعته الشّعريّة الكاملة الّتي صدرت في أخريات حياته، ورافقتُه في كثيرٍ من النّدوات والأمسيات، واستضفتُه يومَ كنتُ رئيسًا للّجنة الإعلاميّة للاتّحاد في جامعة العلوم والتّكنولحيا مطلع التّسعينيّات، ليقرأ علينا شِعرَه، وكنتُ من الّذين ترنّموا بأبياته المُغنّاة، وخُصوصًا هذه الأنشودة الّتي تترنّم بالثّورة بطريقةٍ رومانسيّة، وكنّا نحن أبناء هذه المعاني في فتوّتنا ومطلع شبابِنا:

سَأَلَتْني في حِمانا ظَبْيَةٌ

أتُحِبُّ الشّوقَ في عَيْنَيْ صَبِيَّة؟

قلتُ: لا أَعْشَقُ حُسْنًا ظاهِرًا

أو أَرَى الحُبَّ عُيُونًا نَرْجِسِيَّةْ

إنّما أَعْشَقُ صَدْرًا عامِرًا

يَحمِلُ المَوتَ وَيَزْهُو بِالمَنِيَّةْ

أَدْركتْ سِرِّي وَقالتْ ظَبْيَتِي:

أَنْتَ لا تَعشَقُ غَيْرَ البُندُقِيّةْ

امتدّتْ علاقتي الأدبيّة بالأستاذ يوسف العظم على مدى عشرين عامًا أو تزيد، حتّى توفّاه الله رَحِمه الله، وقد وقفَ معي أيّام سَجْني وقفةً مشهودة أسأل الله أنْ يكتبَ له أجرَها، ونشر في الصّحف ثلاث مقالاتٍ يُدافِعُ فيها عنّي، وقد راسلْتُه وأنا طالبٌ في الثّانويّة ليكتبَ لي مُقدّمة ديواني، وكنتُ ولدًا أيّامَها، فردّ عليّ رَدًّا حسنًا لطيفًا، وهذا نصّ رسالته:

الابن العزيز أيمن العتوم

السلامُ عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد:

تلقَّيتُ رسالتك المؤرّخة في ٢٧-٨-١٩٨٨م ويؤسفني جدًّا أنّها قد طُويت بين مِلفّاتٍ كثيرةٍ على مكتبي، الأمر الذي أخّر ردّي عليها، واليوم أعودُ لأكتب لكَ مُهنّئًا على حُسن أسلوبكَ وإشراقةِ عبارتك في العرض والطّلب.

ويُسعدني أن أكتب لك مُقدّمة ديوانك الذي أرجو أن يكون في مستوى شاعرٍ شابٍّ طَموحٍ مثلك، وأن يكون لك في عالَم الشّعر حضورٌ على مستوًى يُبشّر بشاعريّةٍ فَذّةٍ تتنامَى مع الزمن وتتسامى لتبلغَ ذروة المجد أسلوبًا وهدفًا وغايةً. ولكَ خالص التحية وعميق المودة من أبٍ يُحبّ للشّباب أمثالكَ مزيدًا من التقدّم والإبداع في حقول البناء والعطاء.

يوسف العظم

عمان – الأردنّ

٦ - ربيع الثاني - ١٤٠٩

١٦ - ١١ - ١٩٨٨

مع الشاعر يوسف العظم رحمه الله في معرض كتاب
في جامعة العلوم والتكنولوجيا عام ١٩٩١م

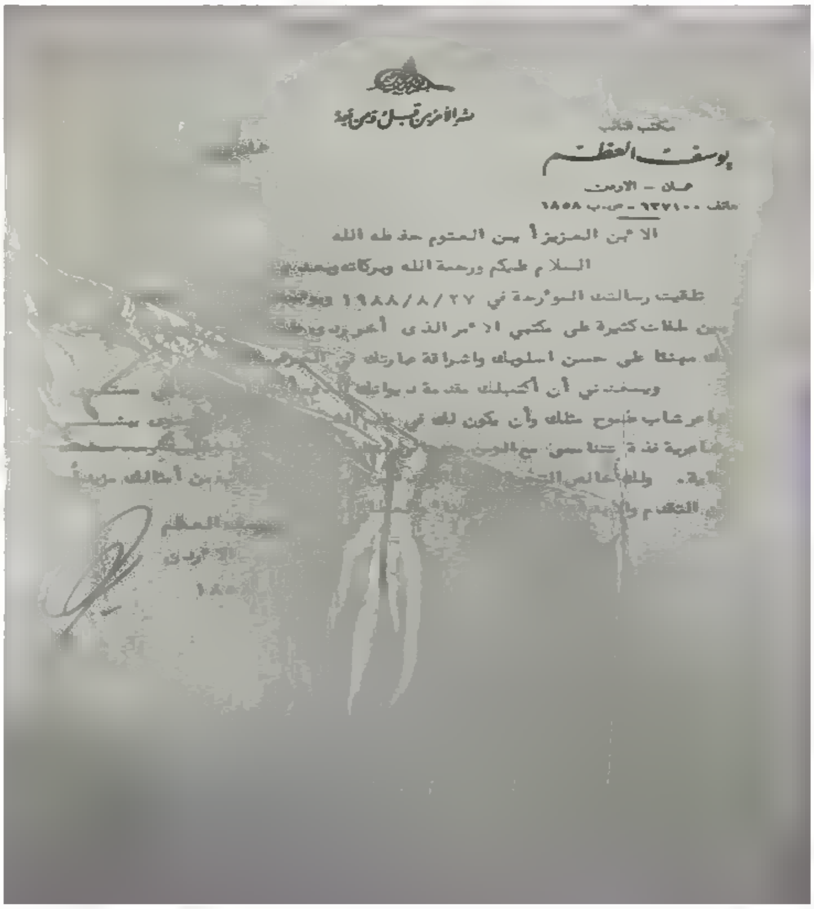

مكتب النائب
يوسف العظم
عمان - الاردن
هاتف ٦٣٧١٠٠ - ص.ب ١٨٥٨

الابن العزيز أيمن العتوم حفظه الله
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد
تلقيت رسالتك المؤرخة في ٢٧/٨/١٩٨٨ ...
... كثيرة على مكتبي الامر الذي أخر ...
... مهنئا على حسن اسلوبك واشراقة عبارتك ...
ويسعدني أن أكتب لك مقدمة ديوانك ...
... شاب طموح مثلك وأن يكون لك ...
... شاعرية فذة تتناسق مع ...
... ولك أطيب ...
... التقدم ...

نصّ رسالته لتقديم ديواني الشّعريّ الأوّل، عام ١٩٨٨م

مع الصّديق البشير:

لم ألتقِهِ، إذ تعرّفتُ إليه بعدَ الثّورة في ليبيا، وبعد أنْ لم يكنْ إلى اللّقاء سبيل، قرأ روايتي (طريق جهنّم) الّتي تتحدّث عن السّجون في ليبيا فأعجبته، ثُمّ قرأ أكثر أعمالي، فكتبَ فيها كتابًا كامِلاً، عنوانه: (وهج القناديل) وقد طبعتْه المُؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر عام 2019م. وقد كتبَ في مُقدّمته:

"أيمن العتوم يُشكّل اليوم ظاهرةً أدبية تستحقّ التأمّل، إذ اجتمعت له جملةٌ من الخصائص صيّرته كاتبًا روائيًّا مرموقًا،

وشاعرًا مُجيدًا: اللُّغة المُحكَمة، والأسلوب المُتميّز، والمشاعر الفيّاضة، والخيال الخصب.

ولا أراني مبالغًا في هذا إذا قلت إنّ هذا الأديب - بما أُوتي من تلك الخصائص التي إذا عدِمَها الأديبُ تحوّل إلى مجرّد كاتب من درجةٍ دُنيا - سيكون واحدًا من أدباء هذا العصر الأفذاذ لو اعتنى به النُّقّاد المُحترِفون الّذين هم كالصّاغة المَهَرة يُميّزون بين الجوهر النّفيس والمعدن الخسيس، فيُقوِّمون اعوجاجه إذا اعوجّ، ويأخذون بيده إلى قمّة المجد الأدبي بعيدًا عن الإطراء والتملّق الذي صيّر النقدَ الأدبيَّ في العقود الأخيرة مجرّد تقريظ وتبجيل، ولا يقوم على أسسٍ علميّةٍ صحيحة، حتى صرنا نقرأ لِنُقّادٍ يتكلمون في الأدب والشِّعر وهم لا يُحسِنون الكتابة بالعربيّة ولا يُجيدون الحديث بها، حتى لكأنّنا نسمع لأحد الدّهماء لفرط عُجمتهم وفساد ألسنتهم، فضلاً عن أنّ النقد الأدبي في العقود الأخيرة تحوّل إلى مُجامَلات أوجبتْها في كثيرٍ من الأحيان أهواءٌ مُستكنّة في النّفوس، وأيديولوجيات مُهَيمِنة، حتى إذا ظهر أديبٌ أو كاتبٌ يوافق الهوى والمذهب صُيّر شيخَ الأدباء ولو كان عندهم أعيا من باقل، وإذا ظهر كاتبٌ أو أديبٌ على غير الهوى والمذهب سلقوه بألسنة حِدادٍ، أو على الأقلّ كان نصيبه التّجاهل والإعراض".

صورة غلاف كتاب (وهج القناديل).

ويقول في موضع آخر من الكتاب:

"والدكتور أيمن العتوم روائيٌّ أخلاقيٌّ، وجميع أعماله الرّوائيّة تنضح بالقيم الأخلاقيّة، حتى رواياته التي تتحدّث عن السّجون والسّجانين والسّجناء (يا صاحبي السجن)، (يسمعون حسيسها)، (اسمه أحمد)، (طريق جهنم) تدعو إلى

الفضائل والقِيَم. وليس ثَمّةَ ما هو أعلى مرتبةً من قيمة الحرّيّة وقيمة العدالة، وكلتاهما من القيم الأخلاقيّة التي يتسبّب غيابهما في تفشّي الظُّلم والاستبداد اللذين يُفضيان بدورهما إلى انحلال مُكوّنات المجتمع، فتنزرع فيه آفاتٌ وعِللٌ قد لا يسهل اجتثاثها إلا بحرق جذورها الموغلة فيه، لأنّه عندما تغيب هاتان القيمتان (الحرية والعدالة) تغيب جميع القيم الأخرى بالتبعية (قيمة المعرفة) و(قيمة الخير) و(قيمة الصبر) و(قيمة الشَّرف) و(قيمة الصِّدق) و(قيمة الكرامة) و(قيمة الحق). وانعدام الحرية والعدالة يعني تفشّي نقيض تلك القيم الإيجابيّة، مثل: الجهل، والشر، والعار، والجزع، والكذب، والذلّ، والباطل. ومن المعروف أنّ علم القيم هو أحد أضلاع مباحث الفلسفة الثّلاثة: الوجودOntology ، والمعرفة Epistemology، والقيم Axiology، ولا ينفكّ عن أحدها. والتّرابط بين المباحث الثلاثة ضروريّ، إذ لا يتصوّر العقلُ وجودًا بلا معرفةٍ ولا قيمٍ، ولا معرفةً بلا وجودٍ وقيمٍ ، ولا قِيَمًا بلا وجودٍ ولا معرفةٍ. ونجد الرواية الأخلاقيّةَ عند أيمن العتوم تتمظهر في رواياته الفلسفيّة (تسعة عشر) و(نفر من الجن)، ونجدها أشد وضوحاً في رواياته الأخرى لا سيما روايته (خاوية) التي لا تكاد تخلو عناوينُ فصولها الخمسين من المعنى الأخلاقيّ".

ويقول عن رواية (تسعة عشر):

"أيمن العتوم هو (فتى الكلمات) كما يصف نفسه في روايته (تسعة عشر). وأحسبُ أنّ هذه الرواية هي أحسن مدخل لتصوير شخصيّة الرّوائي والشّاعر أيمن العتوم. لقد عشث مع هذه الرواية بكلّ جوارحي، وكلّما أوغلث فيها انعدم الإحساس بالزّمن في نفسي، حتى إنّني قرأتُها مرّتين. الأولى: قراءة المستمتع، والثانية: قراءة المتدبّر. رواية (تسعة عشر) أقرب انتماءً إلى الأعمال الروائية فلسفيّةً. وبِنيتُها المركزيّة تقوم على ركيزتين: انعدام الإحساس بالزمن، وانبساط المكان وتمدّده. وربما هذا ما اعتراني من شعورٍ وأنا أوغِل في قراءتها. انعدام الإحساس بالزمن، والضربُ في التّيه الزّمانيّ والمكانيّ مُستحيلٌ إلا في عالم الخيال الذي اختار له العتوم ميدانًا فسيحًا يجري فيه وهو عالم البرزخ أو عالم الأرواح، عالم ما بعد الموت، أو الجسر المُمتدّ ما بين عالم المادة وعالم الروح، أو إن شئت قلتَ: هو " الْحَائِل بَين شَيْئَيْنِ، ويعبر بِهِ عَن عَالم الْمِثَال، أي الحاجز بَين الأجساد الكثيفة وعالم الْأَرْوَاح الْمُجَرَّدَة ، أي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة".

مع أبي زيد المُقرِئ الإدريسيّ:

سياسيٌّ مغربيّ وأديب، يملك لغةً مُشرِقة، وفصاحةً في العربيّة مُبينة، وتدفُّقًا في القول سَلِسًا، قرأ أكثر رواياتي، حينَ سُئِل عنها، قال:

"يُشرّفني ويُسعِدني أن يُطلَب مني الإدلاء بشهادة أو انطباع أو رأيٍ في حقّ الرّوائيّ العربيّ الكبير الدكتور أيمن العتوم. بعيدًا عن أي مجاملة أقول بأن هذا الرجل خَرَق جميع النّواميس والمقاييس بالنّسبة للموضوع الذي نتحدّث عنه، ففي زمن كساد الأدب العربيّ، وفي زمن كساد الأدب في العالم كلّه، وفي زمن كساد الرّواية بعد أن كسد الشِّعر، نجد رواياته تتدفّق على المطابع، ومن المطابع عبر دُور النّشْر، ومن المكتبات إلى آذان وعيون وقلوب القُرّاء بشكلٍ مُثير. نادرًا ما نرى على ظهر كتاب عربي الطبعة رقم (٣٠) أو (٤٠) أو (١٥) أو (١٢) حالات نادرة هي نعرفها بالنّسبة للكتاب الفكريّ بالنّسبة لأحمد خيري العمري، ولا نعرفها بالنسبة للكتاب الأدبيّ عن أيّ واحد حتى في زمن العمالقة، في زمن أصبح فيه كبير الشعراء الأمريكيّين في بلد ملايين القُرّاء والمُطالعين لا يطمع في أن يطبع (١٠٠٠) نسخة من ديوان وأن يبيع منها (٣٠٠) أو يُوزّعها على الأصدقاء، هكذا قرأت بالحرف في مقالةٍ فكريّة لأحد النُّقّاد الأمريكيّين، يطبع أيمن

العتوم دوواني الشعرية بطبعات مُتعدّدة أحيانًا في السنة الواحدة، ويطبع أكثر رواياته، تلك الروايات التي غطّت تقريبًا جُلّ مجالات الهمّ العربي والإسلامي من قضايا سياسيّة وثقافيّة واجتماعيّة ودينيّة ونفسيّة وعاطفيّة وفنّيّة وأدبيّة.

الرّجل الّذي شفى صدور الأردنيّين وجلّى مَظلمتهم قبل حوالي (٣٠) سنة في رواية حديث الجنود، حتى منعت هذه الرواية في بلاده، وكانت ضيفةَ شرف على برنامج متميز وبرنامج خارج النص في قناة الجزيرة.

رجلٌ غطّى قضية حساسة جدًا وتحتاج إلى شجاعة خاصة نظرًا لتنفّذ الأقلية المسيحية في الأردن في بلده؛ وهي قضية التّعصّب الدّينيّ، والموقف المُتشنّج من المُنتقِلين من دين إلى دين أو من مذهب إلى مذهب في رواية: كلمة الله.

رجلٌ أدّى واجبه بقلم ذهبي تُجاه الشعب السوريّ المَظلوم المَهضوم المَضيوم عندما عرّى جزءًا من بشاعة الأجهزة الأمنيّة وساديّة القائمين عليها في رواية: يسمعون حسيسها.

رجلٌ أرجعَ للّغة العربيّة جزءًا من المكانة التي ضيّعتْها فيها السّياساتُ التّعليميّة والتّربويّة والإعلاميّة الفاشلة، بل والمُتعمّدة الفشل بعوامل أسيادها المُسيّرين للتّصحّر الثّقافيّ واللّغويّ والهُويّاتي؛ أسيادهم أقصد الاستعمار الغربي الدوليّ.

رجلٌ عندما تقرأ له تتمتّع فنيًا، تستفيد لغوًيًا، تمتلئ نفسيًا وعاطفيًا ووجدانيًا، تتذوّق فنيًا وأدبيًا وتستفيد على جميع الأصعدة.

شكرًا له باسم اللغة العربية، شكرًا له باسم الأدب العربيّ، شكرًا له باسم الرواية العربية، شكرًا له باسم الأدب الإسلامي الذي يُعاني حصارَين لا حصارًا واحدًا؛ يعاني حصارًا لأنّه

أدبٌ والأدب تخافه الأنظمة الاستبداديّة، ويعرف تراجعًا في زمن التّصحّر النّفسيّ والعاطفيّ في زمن العولمة والتكنولوجيا والمَكْننة، ويُعاني حصارًا آخرًا لأنه أدب إسلامي غير مسموح له أن يُعرَف في أية قناة إعلاميّة، أو أن يُرى عبر أيّ مِنبر ثقافيّ، حيث تتحكم القوى الماسونية في كثير من المؤسّسات الثقافيّة الرسميّة في العالَم العربيّ للأسف الشّديد".

الأبحاث والدّراسات:

كُتِب عن تجربتي - بحمد الله - عشرات الأبحاث والدّراسات لنيل شهادَتي الماجيستير والدّكتوراة، في البلاد العربيّة وغيرها، في الجزائر وتونس وليبيا ومصر والعراق والسّعوديّة والأردنّ وفلسطين وتركيّا. وقد بلغث فيما بلغني حتّى الآن أكثر من سبعين دراسة.

مختارات من الدَّراسات الّتي كُتِبتْ عن تجربتي الشّعريّة والنّثريّة

The Islamic University of Gaza
Deanship of Research and Graduate Studies
Faculty of Arts
Master of Arabic Language

الجامعـــــة الإســــلامية بغـزة
عمادة البحث العلمي والدراسات العليا
كليـــــــــــــة الآداب
ماجستيــــر أدب ونـــــقـــد

شعـريــة الســـرد
" فــي روايات أيمــن العتــوم"
Poetic Narrative
"In Ayman Al-Oteem's Novels"

إعداد الباحثة
أمل يونس محمد إرحيم

إشراف
الأستاذ الدكتور
عبد الخالق محمد العف

قُدّم هذا البحث استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في الأدب والنقد
من قسم اللغة العربية بكلية الآداب في الجامعة الإسلامية بغزة

رجب/1440هـ – مارس/2019م

The Islamic University of Gaza
Deanship of Research and Graduate Studies
Faculty of Arts
Master of Arabic Language

الجامعـــــة الإســــلامية بغـزة
عمادة البحث العلمي والدراسات العليا
كليـــــــــــــة الآداب
ماجستيــــر لغـــة عربيـــة

الصــورة الشعـرية عنـد أيمـن العتـوم
دراســـة تحليليـة
The Poetic Picture of Ayman Al Atom
An analytical Study

إعداد الباحثة
هالة مفيد هلال حجي

إشراف
الأستاذ الدكتور/
عبد الخالق عيد العف

قُدّم هذا البحث استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير
في اللغة العربية بكلية الآداب في الجامعة الإسلامية بغزة

رجب/1440هـ – مارس/2019م

آليات السرد وتشكيل الخطاب
(قراءات في أدب أيمن العتوم الروائي)
رائد السراحين

Mardin Artuklu Üniversitesi

الجمهورية التركية
جامعة ماردين أرتقلو معهد الدراسات العليا
قسم اللغة العربية وآدابها
دراسات عليا (ماجستير)

تقنيات السرد في روايات الكاتب "أيمن العتوم"

بيان كاظم
18765010

المشرف
د. إبراهيم الشاوي

حزيران 2020

جامعة طنطا
كلية الآداب
قسم اللغة العربية وآدابها
شعبة الأدب والنقد

رسالة مُقدمة للحصول على درجة الماجستير
بعنوان

اللغة والسرد فى رواية السجون
التشكيل والوظيفة عند (أيمن العتوم ـ صنع الله إبراهيم)
دراسة وصفية تحليلية

إعداد الباحث
أسامة محمد على حسين

إشراف

الدكتور	الأستاذ الدكتور
مهدي إبراهيم محمد السيسي	محمد السيد أحمد الدسوقي
أستاذ مساعد الأدب والنقد	أستاذ البلاغة والنقد الأدبي
كلية الآداب جامعة طنطا	كلية الآداب جامعة طنطا

٢٠١٧م/١٤٣٩هـ

دانشگاه شهید چمران اهواز
شماره پایان‌نامه :

دانشکده الهیات و معارف اسلامی

پایان‌نامه کارشناسی ارشد
گروه زبان و ادبیات عربی

عنوان:
نمودهای ادبیات پایداری در اشعار أیمن العتوم

استاد راهنما:
دکتر محمود آبدانان مهدی‌زاده

استاد مشاور:
دکتر خیریه عچرش

نگارنده:
سیده فاطمه علوی محمدیان

زمستان ١٣٩٧

الجامعـــــــة الإســـــلاميـــة بغـــزة	The Islamic University of Gaza
عمادة البحث العلمي والدراسات العليا	Deanship of Research and Graduate Studies
كليـــــــــــــــــــة الآداب	Faculty of Arts
ماجستيـــــر لغـــــة عربيـــــة	Master of Arabic Language

الصـورة الشـعـريـة عنـد أيـمن العتـوم
دراســة تحليليـة
The Poetic Picture of Ayman Al Atom
An analytical Study

إعداد الباحثة
هالة ماجد هلال حجي

إشراف
الأستاذ الدكتور/
عبد الخالق عبد العف

قدم هذا البحث استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير
في اللغة العربية بكلية الآداب في الجامعة الإسلامية بغزة

رجب/1440هـ - مارس/2019م

الأدب العربي، السنة الحادية عشرة، العدد الأول
ربيع و صيف ١٣٩٨هـ.ش/٢٠١٩م

الانزياح الدلالي في شعر أيمن العتوم
ديوان «خذني إلى المسجد الأقصى» نموذجا

عباس يداللهي فارساني*
أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة شهيد چمران
صفحة ١٩٣-٢١٣
تاريخ الاستلام: ١٣٩٧/٠١/٢١هـ.ش، تاريخ القبول: ١٣٩٧/٠٢/٢٧هـ.ش

الملخص
[illegible]

الكلمات الدليلية: [illegible]

* الكاتب المسؤول: yadollahi.a@scu.ac.ir

الجامعة الإسلامية بغزة
عمادة البحث العلمي والدراسات العليا
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
دكتوراه اللغة العربية

The Islamic University–Gaza
Research and Postgraduate Affairs
Faculty of Literature
PHD in Arabic Language

التشكيل الجمالي في الخطاب الروائي عند أيمن العتوم
The Aesthetic Formation in Ayman Al-Atom's Narrative Discourse

إعداد الباحثة
أريج عاطف عبد الأسود

إشراف
أ.د محمد مصطفى كلاب   أ.د نبيل خالد أبو علي

قدمت هذا البحث استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه
في الأدب والنقد بكلية الآداب في الجامعة الإسلامية بغزة

ديسمبر/2020م   ربيع الثاني/1442هـ

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة ابن خلدون – تيارت –
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة العربية
ملحقة قصر الشلالة

مذكرة تخرج تدخل ضمن متطلبات نيل شهادة الماستر في الأدب العربي
تخصص: نقد حديث ومعاصر
موسومة بـ :

البنية السردية في رواية "خاوية" لأيمن العتوم

إعداد الطالبتين:
- آمنة بوعزة
- ربيحة بوعزة

إشراف الدكتور:
عبد القادر شريف حسني

السنة الجامعية 2017م – 2020م

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم
جامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن
(٠٤٠)
وكالة الجامعة للدراسات العليا والبحث العلمي
عمادة الدراسات العليا
كلية الآداب

KINGDOM OF SAUDI ARABIA
Ministry Of Education
Princess Nourah bint Abdulrahman University
(040)
Graduate Studies and Scientific Research Vice-Rectorate
Deanship of Graduate Studies
College Of Arts

التماسك النصي في شعر أيمن العتوم

اسم الطالبة: أثير بنت عبدالله مساعد الفالح

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في
اللغة العربية/الأدب والبلاغة

اسم المشرفة: د/صبحية روحي الروحي
أستاذ مشارك
١٤٤٠هـ/٢٠١٩م

هنيئاً أيمنُ

قلتُها تقريظاً لكتاب ولدي أيمن بعنوان (هذه سبيلي) الذي أنهى مسوّدَتَه قبل عدّة أسابيعَ، يشرحُ فيه شيئاً من سيرته

العلمية والأدبية، ليكونَ صورةً تُعبّرُ بوضوحٍ عن تدرُّجه في مراقي العلمِ الأكّاديمي، وعن ترقّيه في معارج المعمار الأدبي من شعرٍ وبحوثٍ وروایاتٍ، ویَذْکُر فیه الأسبابَ التي كانت دوافِعَ رئيسةً لوصوله إلى هذا المستوى الكريم في هذا الشأن، وروافِعَ حقيقية لهذا النوع من الفنّ المختار. وبعدَ أنْ كنتُ قد قرأتُ هذا الكتابَ قبل أيام، رَغِبْتُ - إثرَ تسجيلي ملاحظاتي الإيجابية عليه وعلى صاحبه - أنْ أُضيفَ إليها اليوم تسجيلاتي القريضية بهذه الأبيات، تسجيلَ توثيقٍ وشهادَةِ حقٍّ للتعزيز المسوَّغ من جهةٍ، وللتشجيعِ المُعَلَّلِ من جهةٍ ثانيةٍ. والله وليُّ التوفيق.

هَنِيئاً أيمَنٌ (هَذِي سَبِيلِي)

لِشَخْصِكَ مُبدِعاً أَهْدَى دَلِيلِ

فَقَدْ رَسَمَتْ خُطاكَ بِكُلِّ صِدْقٍ

إلى العَلْياءِ والمَجْدِ الأَثِيلِ

لَدُنْ كُنْتَ الهِلالَ فَصِرْتَ بَدْراً

سَبَى مِنْ حُسْنِهِ شَتَّى العُقُولِ

تَسِيرُ بِها بِجِدٍّ واتِّئادٍ

وعَزْمٍ لَيْسَ يَأْبَهُ بِالوُحُولِ

فَفِي يُمْناكَ نُورُ اللهِ يَسْرِي

وفِي اليُسْرَى بِشاراتُ الوُصُولِ

فَمِنْ أَيْنَ التَّعَثُّرُ سَوْفَ يَأْتِي

وأَنْتَ بِحِفْظِ مَوْلاكَ الجَلِيلِ

وَقَدْ سِرْتَ الطَّرِيقَ وأَنْتَ تُهْدَى

بِنُورِ الحَقِّ والخُلُقِ النَّبِيلِ

فَمَا مِنْ بابِ مَجْدٍ قَدْ تَأَبَّى

عَلَيْكَ وُلُوجُهُ سَمْحَ الدُّخُولِ

وما اسْتَعْصَى عَلَيْكَ مَنالُ غايٍ

سَوامٍ فِي مَيادِينِ الفُحُولِ

إلى أَنْ نِلْتَ سَبْقاً لَمْ يَنَلْهُ

سِوَى طِرْفٍ عُرُوبِيٍّ أَصِيلِ

وأَنْتَ هُوَ المُمَيَّزُ والمُجَلِّي

بِساحاتِ الأَصائِلِ والأُصُولِ

* * *

لَقَدْ أَحْسَنْتَ فِي وَصْفٍ شَفِيفٍ

مَراحِلَ قَطْعِ مِشْوارٍ طَوِيلِ

تُجِيبُ بِهِ بِحَقٍّ واتِّثاقٍ

عَلَى مُتَعَجِّبٍ لَهِجٍ سَؤُولِ

عَنِ الدَّرْبِ الذِي قَدْ سِرْتَ حَتَّى

وَصَلْتَ إِلَيْهِ مِنْ مَرْقَىً فَضِيلِ

فَقَدْ أَضْحَى نَباكَ حَدِيثَ قَوْمٍ

يَفُوحُ شَذاهُ بالذِّكْرِ الجَمِيلِ

وَقَدْ جازَ الطَّوامِيَ والصَّحارَى

وما صَدَّتْهُ أَوْغالُ الوُعُولِ

عَنِ الأَشْياعِ فِي شَوْقٍ إِلَيْهِ

عَظِيمِ شَوْقَ بُرْءٍ لِلعَلِيلِ

وما قَدْ كانَ ذاكَ سِوىَ اجْتِهادٍ

وَجِدٍّ فِي الإِقامَةِ والرَّحِيلِ

وعَزْمٍ فِي مُناجَزَةِ المَعالِي

يَفُلُّ الصَّخْرَ في مَجْرَى السُّيُولِ

وفِي اسْتِثْمارِ وَقْتٍ فِيهِ تُبْنَى

صُرُوحٌ أَوْ تُهَدَّمُ بالفُسُولِ

كَذا دَرْبُ الأَماثِلِ للأَمانِي

لَذِيذاتِ المَخايِلِ والمُثُولِ

وإلاّ قَدْ بَقِينا فِي انْحِطاطٍ

ومَرْتَعِ قَفْرَةٍ خَمْطٍ وَبِيلِ

* * *

سَبِيلُكَ يا بُنَيَّ سَبِيلُ رُشْدٍ

وَطُهْرٍ خالِصٍ مِنْ أَيِّ قِيلِ

إِلَى الرَّحْمَنِ عَبْداً أَحْنَفِيّاً

وما فِي ذاكَ مِنْ قَوْلٍ دَخِيلِ

تَعِيشُ مَعَ الكِتابِ يُفِيدُ عِلْماً

وتَوْجِيهاً سَلِيماً فِي السَّبِيلِ

عَلَى أَحْنائِهِ تَحْنِي ضُلُوعاً

غَضِيضاتٍ عَلَى جِسْمٍ نَحِيلِ

كَأَنَّكَ أُمُّه وَهْوَ المُفَدَّى

وتَخْشَى أَنْ تَصِيرَ إِلَى عَجُولِ

وَصَحْبُكَ مِنْ كِرامِ الصَّحْبِ سَمْتاً

خَلَوْا مِنْ أَيِّ نِكْسٍ أَوْ كَسُولِ

وَهَمُّكَ فِي كِبارِ المُثْلِ طُرّاً

وفِي القِمَمِ العَلِيَّةِ لا السُّفُولِ

لِخِدْمَةِ أُمّةٍ عاشَتْ طَوِيلاً

بِعِزٍّ ثُمَّ آلَتْ للنُّحُولِ

وَقَدْ أُوذِيتَ فِي هذا كَثِيراً

وفِي سِنِّ الفُتُوَّةِ والكُهُولِ

فَما لانَتْ قناتُكَ ذاتَ يَوْمٍ

ولا قَدْ رُحتَ تَنْدُبُ فِي الطُّلُولِ

فذاكَ العَجزُ حاشاكَ ابْنَ قَوْمٍ

تَرَبَّوْا فِي مُقارَعَةِ النُّصُولِ

* * *

وَقَدْ أَجْمَلْتَ فِي صَوْغِ المَعانِي

بِأَلْفاظٍ بَهِيّاتِ الحُجُولِ

لِمَا حَدَّثْتَناهُ مِنَ الحَكايا

أَحادِيثاً صَدُوقاتِ الحُصُولِ

كَحَدِّ السَّيْفِ صَلْتاً وامْتِشاقاً

وكالشَّهْدِ المُذابِ السَّلْسَبِيلِ

ضِراباً أَوْ طُعُوماً فائِقاتٍ

كَثِيراً مِنْ سِواهُنَّ الشُّكُولِ

تُخُيِّرَ دُرُّها مِنْ بَحْرِ ضادٍ

شَرِيفَةِ مَصْدَرٍ وافٍ كَمِيلِ

كِتابُ اللهِ مَعْدِنُها ابْتِداءً

وما أَوْحاهُ مِنْها للرَّسُولِ

فَجَاءَتْنا نَضِيراتٍ حِساناً

كَمِثْلِ الغِيدِ تَرْفُلُ بِالذُّيُولِ

وتَنسابُ انْسِيابَ الماءِ يَجْرِي

عَلَى وَجْهِ الثَّرَى طَلْقَ المَسِيلِ

وذا مِمّا عَلَى الأَحْداثِ أَضْفَى

جَمالَ الفِكْرِ باللَّفْظِ الجَزِيلِ

فَزادَكَ رَبِّيَ الرَّحْمَنُ عِزّاً

بِعِزٍّ فَوْقَ عِزِّكَ مُسْتَطِيلِ

وحاطَكَ بِالكَلاءَةِ مِنْ حَسُودٍ

يَضُمُّ حَشاهُ مِنكَ على غَلِيلِ

* * *

حَفِظْتَ لِكُلِّ مَنْ عايَشْتَ حَقّاً

كَرِيماً مِنْ كَرِيمٍ ذِي فُضُولِ

فَلِلْأَرْحامِ بَرٌّ خَيْرُ بَرٍّ

وللصَّحْبِ الأُلَى أَوْفَى خَلِيلِ

وما عَهِدَ الجَمِيعُ بِكَ الْتِواءً

وما عَرَفُوكَ إلاّ بِالوَصُولِ

وَقَوْمُكَ يَعْرُبٌ قَدْ رُحتَ تَشْدُو

لَهُمْ شَدْوَ الحَمائِمِ بِالهَدِيلِ

وأُمَّتُكَ العَظِيمَةُ لَسْتَ تَنْسَى

لَها حَقّاً عَلَيْكَ فَتىً حَمُولِ

تُدافِعُ عَنْ حِماها كُلَّ وَغْدٍ

خَؤُونٍ كابْنِ أَخْطَبَ أَوْ سَلُولِ

وَقَدْ ناضَلْتَ فِيما اسْطَعْتَ عَنْها

بِلا كَلَلٍ – يُرادُ - ولا نُكُولِ

بِشِعْرٍ كالصَّواعِقِ حِينَ يُلْقَى

فَيَحْرِقُ كُلَّ أَفّاكٍ رَذِيلِ

ومِنْ ثَمَّ ابْتَكَرْتَ لَهُمْ سِلاحاً

جَدِيداً فِي رِواياتٍ مُثُولِ

تَرَكْتَهُمُ بِها صَرْعَى عُراةً

فَكَمْ كَلْمَى أَصَبْتَ وكَمْ قَتِيلِ

ولَمْ تَفْتَأْ تُنافِحُ عَنْ عُلاها

بِساحِ الحَقِّ كالسَّيْفِ الصَّقِيلِ

* * *

كِتابُكَ يا بُنَيَّ مَنارُ صِدْقٍ

عَلَى مَسْراكَ فِي الزَّمَنِ الخَمُولِ

شَهادَةُ شاهِدٍ للفِعْلِ يَجْرِي

بِأَحْداثٍ بِها تَضْلِيلُ جِيلِ

وَدَوْسُ المَكْرُماتِ وَهَوْنُ قَوْمٍ

كِرامٍ دُونَ خَصْمِهِمُ الذَّلِيلِ

ونِسْيانُ العُرُوبَةِ فِي بِلادِي

وخِذْلانُ الحَنِيفَةِ والأُصُولِ

لِكَيْما نُصْبِحَ السِّرْبَ المُعَمَّى

فَلا يُدْرَى رَشِيدٌ مِنْ جَهُولِ

وَيَسْهُلَ ذَبْحُنا مِنْ دُونِ مُوسَى

ضَحايا للعَمالَةِ والعَمِيلِ

وَقَدْ أَفْضَلْتَ فِيما قُلْتَ نُصْحاً

لِمَنْ يَرْتادُ نَهْجَكَ مِنْ زَمِيلِ

وأَيِّ مُكافِحٍ يَبْغِي طَرِيقاً

إلَى العَلْياءِ فِي العَهْدِ الضَّلِيلِ

فَمَا قَصَّرْتَ إذْ قَدَّمْتَ دُرّاً

مِنَ الأَقْوالِ مَعْ أَسْنَى الحُلُولِ

فَوَفَّقَكَ الإِلَهُ لِكُلِّ خَيْرٍ

وَكُلَّ الصَّحبِ مَعْكَ مِنَ الرَّعِيلِ

فأَنْتُمْ عُدَّةُ الأَوْطانِ فِيها

إذا طَفَلَ الدَّلِيلُ إلى الأُفُولِ

* * *

فَواصِلْ للعُلا قُدْماً فَما مِنْ

بِتَوْفِيقِ المُهَيْمِنِ مُسْتَحِيلِ

قِراءاتٍ بِكُتْبٍ نافِعاتٍ

ويَقْدُمُها كِتابُ اللهِ يُولِي

لَكَ التَّرْشِيدَ والسَّعْدَ المُعَلَّى

وحِفْظاً فِي الذَّهابِ وفِي القُفُولِ

وَسَفْراتٍ بِأَرْضِ اللهِ تَتْرَى

بِها عِلْمٌ ولَوْ فِي قِيدِ مِيلِ

وَهَذا ما خَبَرْتَ بِأَرْضِ رُومٍ

وأَرْضِ العُرْبِ أَرْبابِ النَّخِيلِ

كَمِصْرَ وَقَدْ أَقَمْتَ بِها زَماناً

وَحَيْثُ دَرَسْتَ آنافَ الفُصُولِ

وَفِيها الأَزْهَرُ السّامِي يُحامِي

عَنِ الإِسْلامِ غاراتِ الفُلُولِ

وأَلْمَنْيا وبُسْناءٍ وَغالٍ

عَلَى ما بَيْنَنا أَقْسَى الذُّحُولِ

وأَرْضِ الرّافِدَيْنِ وأَرْضِ فاسٍ

وتُونُسَ والجَزائِرِ ذِي التُّبُولِ

وتُرْكِيّا رَحَلْتَ لَها مِراراً

وأَنْتَ اليَوْمَ فِي إِسْلامَبُولِ

كأَنْكَ ابْنُ البَطُوطَةِ أَوْ جُبَيْرِ

نَشا ما بَيْنَ ظَعْنٍ أَوْ نُزُولِ

* * *

وأمّا (سُوفُ) حَيْثُ وُلِدْتَ يُمْناً

وبُورِكَ بالمَنَازِلِ والنَّزِيلِ

فَعُشُّ النَّسْرِ ما ذَلَّتْ لِطاغٍ

ولا خَنَعَتْ لإِنْسٍ أَوْ قَبِيلِ

فَأَهْلُوها جِيادٌ فِي المَجالِي

وأَجْوادٌ بِلَزْباتِ المُحُولِ

ويَكْفِيها افْتِخاراً أَنَّ فِيها

مَقاماً لابْنِ أَدْهَمَ كَالمَقِيلِ

وآخَرَ مَسْجِداً أَمَوِيَّ عَهْدٍ

بَناهُ أَشَجُّهُمْ زَيْنُ العُدُولِ

ومِثْلاً شادَهُ الأَتْراكُ حُسْناً

فَبُورِكَ بالأَصِيلِ وبِالمَثِيلِ

حَماها اللهُ مِنْ بَلَدٍ كَرِيمٍ

بِأَرْبُعِها جِبالٍ أَوْ سُهُولِ

فَكَمْ فِيها غَدَوْنا فِي مِراحٍ

وَرُحْنا قَبْلَ غَيْباتِ الأَصِيلِ

بِلادٌ ذاتُ خَيْراتٍ غِزارِ

مِنَ الأَعْنابِ والظِّلِّ الظَلِيلِ

وأَمْواهٍ سَوائِلَ دافِقاتِ

أَلَذَّ مِنَ الشِّهادِ وماءِ نِيلِ

فمَرْحَى يا عَزِيزُ وأَلْفُ مَرْحَى

لِسِفْرِكَ وَهْوَ يَحْظَى بالقَبُولِ

* * *

والدك علي العتوم

إربد/ حي مسجد الأبرار

الجمعة 2 جمادى الآخرة 1442ه

الموافق 15/1/2021م

الخاتمة:

وها أنذا أُلقي عصا التّرحال، بعدَ هذا التّطواف الطّويل، منذُ أنْ وُلِدتُ إلى اليوم، إنّها حَقًّا رِحلةٌ طويلةٌ، وقد تكون شاقّةً، لكنّها مُمتعة، لأنّني سِرتُ فيها إلى ما أريد، إنّ الطّريق لا تطول على مَنْ عَزَم وتوكّل، وقد سرتُ فيما مضى، وإنّني سائرٌ فيما بقي، وسأظلّ سائِرًا إلى أنْ ينتهي الطّريق نفسُه، فأرواحُنا لا تنتهي.

كان أعظمَ ما حدث في هذه الرّحلة أنّ عينَ الله كانت تكلؤني، لقد أيقنتُ أنّ الله سائرٌ مع مَنْ سارَ معه، وأنّ كلّ شيءٍ بحكمةٍ ولحكمة، وأنّ الله - حاشاه - لا يقف في وجه مَنْ نَوى، وإنّما المصاعب والمصائب الّتي تحدُث هي من قَدَر الله في طريق الإنسان لكي يُعرّفه نِعَمه من جهةٍ، ولكي يدلّه على الطّريق الصّحيحة من جهةٍ أُخرى، فما من عثرةٍ تُصيبُك إلاّ لكي تُؤخّرك عن المُضيّ في الطّريق الخاطِئة، فتتمهّلَ قليلاً، وتُراجِعَ حساباتِك، وتعرفَ الطّريق الهادية من الطّريق العاثرة، فتمضي في الأولى وتترك الثّانية.

إذا لم يكن الله أمامك، وخِدمةُ النّاس بُغيَتك، والنّفعُ

للبشريّة تُجاهك، وتجليةُ الحقيقة فيما كشفَ الله لكَ مُرادَك، فاعلمْ أنّك تمضي في طريقٍ مسدودة، وأنّكَ تُضيع في غير الباقيات جُهودَك، وأخشى أنْ تعودَ "كقابضٍ الماء خانتْهُ فُرُوجُ الأصابعِ".

الرّحلة دُربةُ العقل، تمرينُ الجسد، سِياحةُ الرّوح، تحرّرُ الجوارح، معرفة الأرض الّتي تقفُ عليها... نحن حينَ نكفّ عن الرّحلة نتحوّل إلى ماءٍ آسنٍ راكدٍ عمّا قليلٍ سَيَنْتَن. سِرْ يا أخي. انظرْ ما حولك. تَعَرَّفْ إلى الكون تعرفِ النّاس، تأمّلْ خلقَ الله تعرفِ الله.

في كِنانتي الكثير، لم أَنْثُرْ كُلَّ شيءٍ، ربّما اختصرتُ في موضع الإطالة وأطلتُ في موضع الاختِصار، لكنّني حاولتُ أنْ أُوجزَ ما استطعت، وأنْ أُقدّم ما كان مُلهِمًا هادِيًا فيه النّفع والعِبرة.

بعضُ الفصول كالفصل السّابع (فصل الكتابة) قد أستلُّه لاحقًا من هنا وأُفردُ له كتابًا بعدَ أنْ أسبِكَه على وجهٍ أمتن، بعضُها قد أُضيف عليه مزيدًا من الماء حينَ يتقدّم العمر بي، وأكتسبُ جديدًا من الخبرات كالفصل الحادي عشر (فصل النّصائح). وبعضُها لا أدري ماذا سيفعل الزّمن به!

لقد ظلّتْ تجربةُ كثيرين من الكُتّاب مُغيّبة عن قُرّائهم لأسباب كثيرة؛ منها: حُبُّهم أن يُحيطَ الغُموضُ بحياتهم، وأنّه لا شيءَ يُمكن أنْ يُعرّفَ الكاتبُ فيه نفسَه أكثرُ من حرفه، ونَسُوا أنّ التّجربة حين يُشاركونها قُرّاءَهم إنّما فيها حروفُهم، بل المُكثَّف منها، بل والذي أوصل حروفهم في كتاباتهم الأخرى إلى هذا الوهج.

آخَرون لم يُغيّبوا تجاربهم، ولا ماتوا دون أنْ يبوحوا بها، بل بَسطوها لقُرّائهم، وأخذوا بأيديهم في مُنعرجاتها، وأضاؤوا لهم كثيرًا من زواياها المُعتمة... أنا من هذا الصّنف من هؤلاء الكُتّاب، أرجو أنْ تكون رحلتكم معي مُمتعةً ومُفيدة، وسأظلّ سائرًا بإذن الله في الدّروب البعيدة فهل ستظلّون سائرين معي؟!

أيمن العتوم

عمّان

٢٧-١٢-٢٠٢٠م.

مؤلفات أيمن العتوم حتى نهاية عام٢٠٢١

أولًا الروايات:

آذار ٢٠١٢

تشرين أول ٢٠١٢

أيلول ٢٠١٣

شباط ٢٠١٤

أيلول ٢٠١٤

حزيران ٢٠١٥

أيلول ٢٠١٦

تموز ٢٠١٧

كانون الثاني ٢٠١٨

أيلول ٢٠١٨

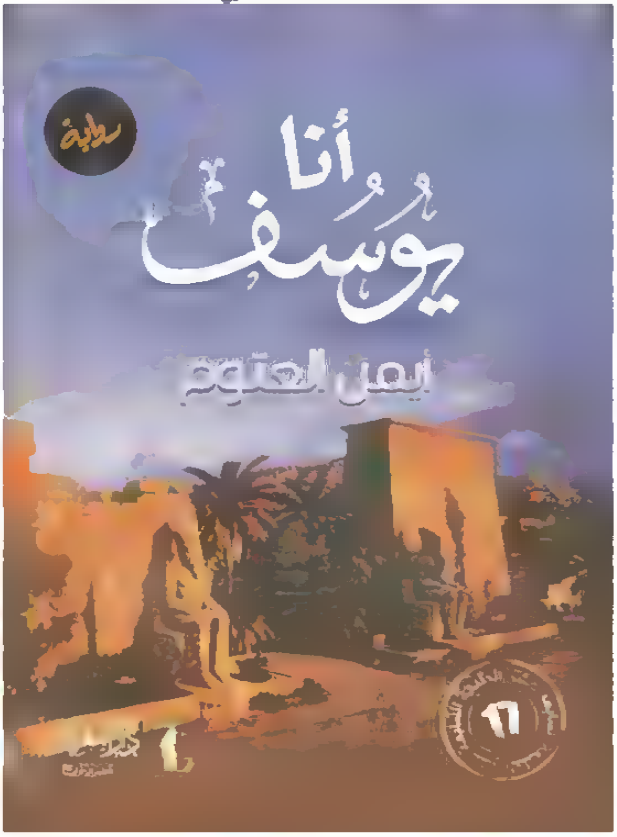

كانون الثاني ٢٠١٩

أيلول ٢٠١٩

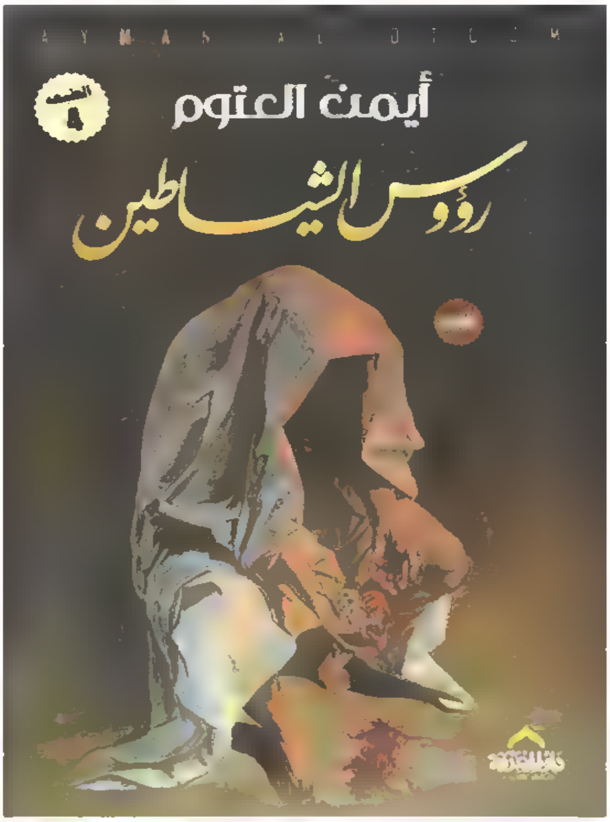

كانون الثاني ٢٠٢٠

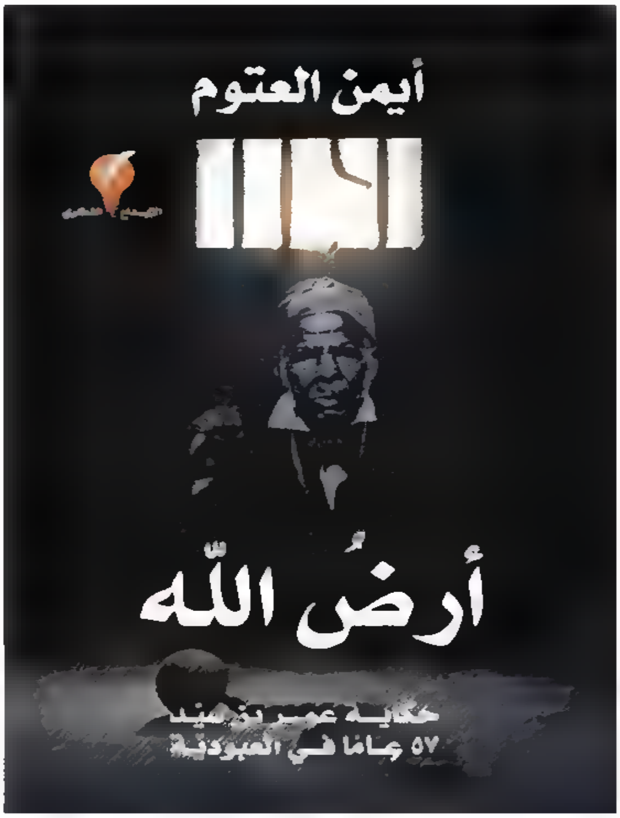

أيلول ٢٠٢٠

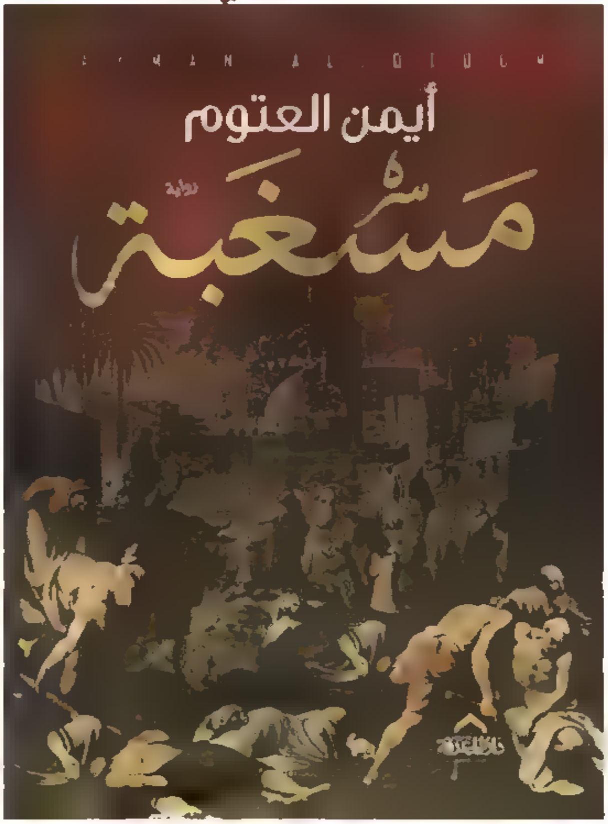

حزيران ٢٠٢١

حزيران ٢٠٢١

ثانيا الدواوين:

٢٠١٢

٢٠١٣

٢٠١٤

٢٠١٥

٢٠١٦